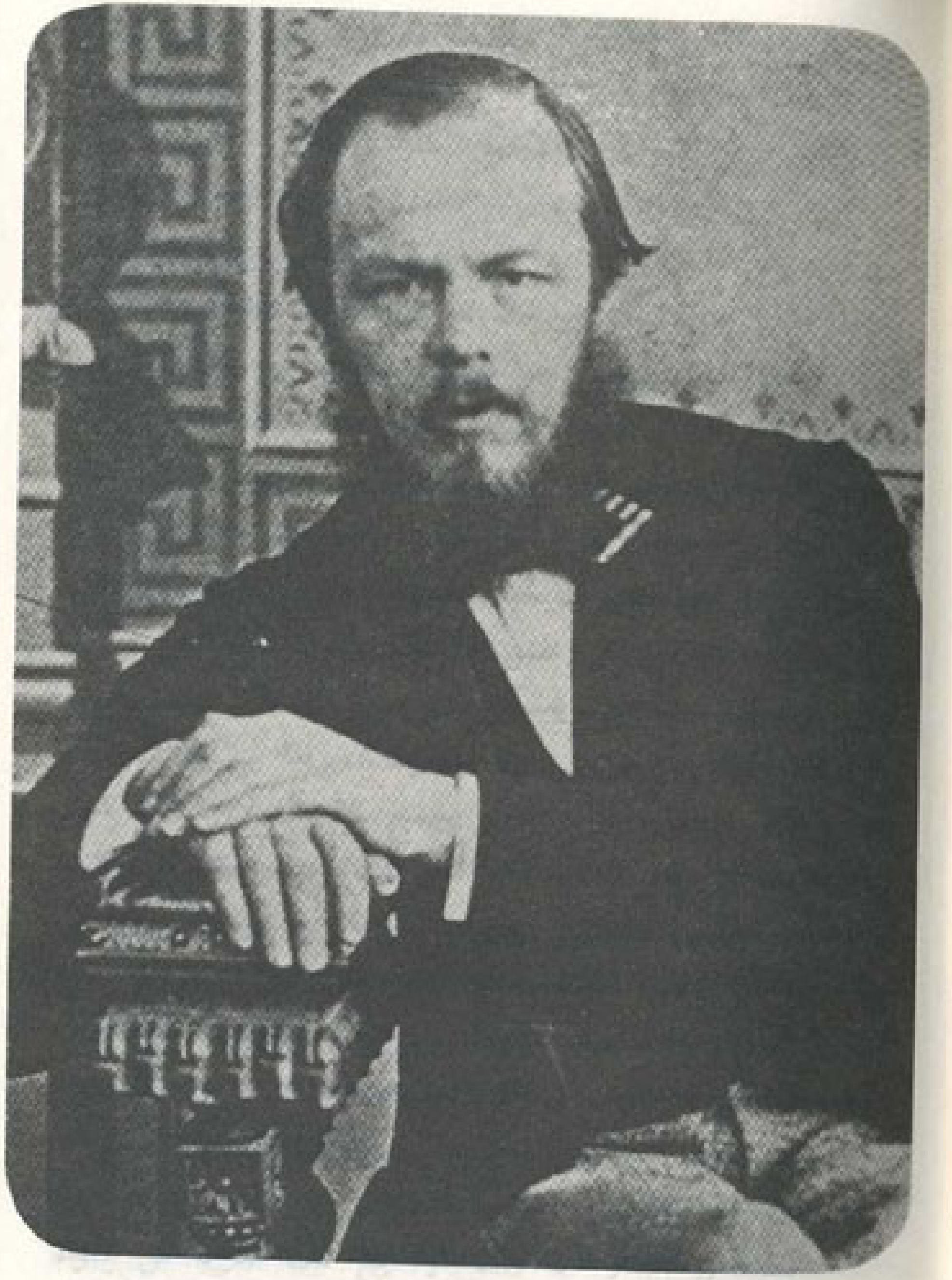

ترجمة د . سامى الدروبى

مراجعة د . ابو بكر يوسف

Федор Достоевский

БРАТЬЯ КАРАМАЗОВЫ

В 2-х томах

Том I. Части 1 и 2

(Главы 1—6)

на арабском языке

المجلد الاول : الجزء الاول والجزء الثانى (الفصول ١ — ٦) .

التتمة فى المجلد الثانى

© حقوق المراجعة والمقدمة والتعليقات والرسوم محفوظة لدار «رادوغا» ، ١٩٨٨

طبع فى الاتحاد السوفييتى

Д $\frac{4702010100-370}{031(01)-88}$ 071-88

ISBN 5-05-001733-5
ISBN 5-05-001734-3

مقدمة

رواية «الاخوة كارامازوف»

بقلم : يورى سليزنيوف

ابداع دوستويفسكى هو ظاهرة تاريخية من ظواهر الوجود الروحى للبشرية .. ظاهرة تهز الوجدان دائما حينما تلتقى بها. لقد راود الكثيرين من قراء دوستويفسكى احساس بأن ما تقع عليه انظارهم ليس مجرد رواية ، ليس مجرد مؤلف حتى ولو كان لأديب عبقرى ، بل هو ظاهرة تاريخية حقا تقلب الوعى رأساً على عقب وتترك أثراً لا يمحى فى نفس الانسان .

والموقف من دوستويفسكى لا يعرف الوسطيــــــة .. فدوستويفسكى إما محبوب واما ممقوت ، اما يتقبلونه كليةً ، واما يرفضونه رفضا قاطعاً .. وفى جميع الأحوال لا يستطيع أحد ان يقف منه موقف اللامبالاة . لقد كتب زعيم المصورين الروس الطليعيين ايفان كرامسكوى ، مبدع اللوحة المشهورة «المسيح فى الصحراء» : «لعب دوستويفسكى دورا هائلاً فى حياة كل من كانت الحياة بالنسبة له مأساة وليس عيداً (حسبما أعتقد) . فبعد «الاخوة كارامازوف» (واثناء قراءتها) تلفت حولى عدة مرات فى رعب ودهشة من ان كل شىء يمضى كما كان فى السابق ، وان العالم لم ينقلب رأساً على عقب .

... وباختصار كان ذلك شيئا بلغ تلك الدرجة من النبوءة والاشتعال والوحى ، حتى بدا من المستحيل معه ان تبقى فى الموضع الذى كنا فيه بالأمس وان نحمل نفس المشاعر التى كنا

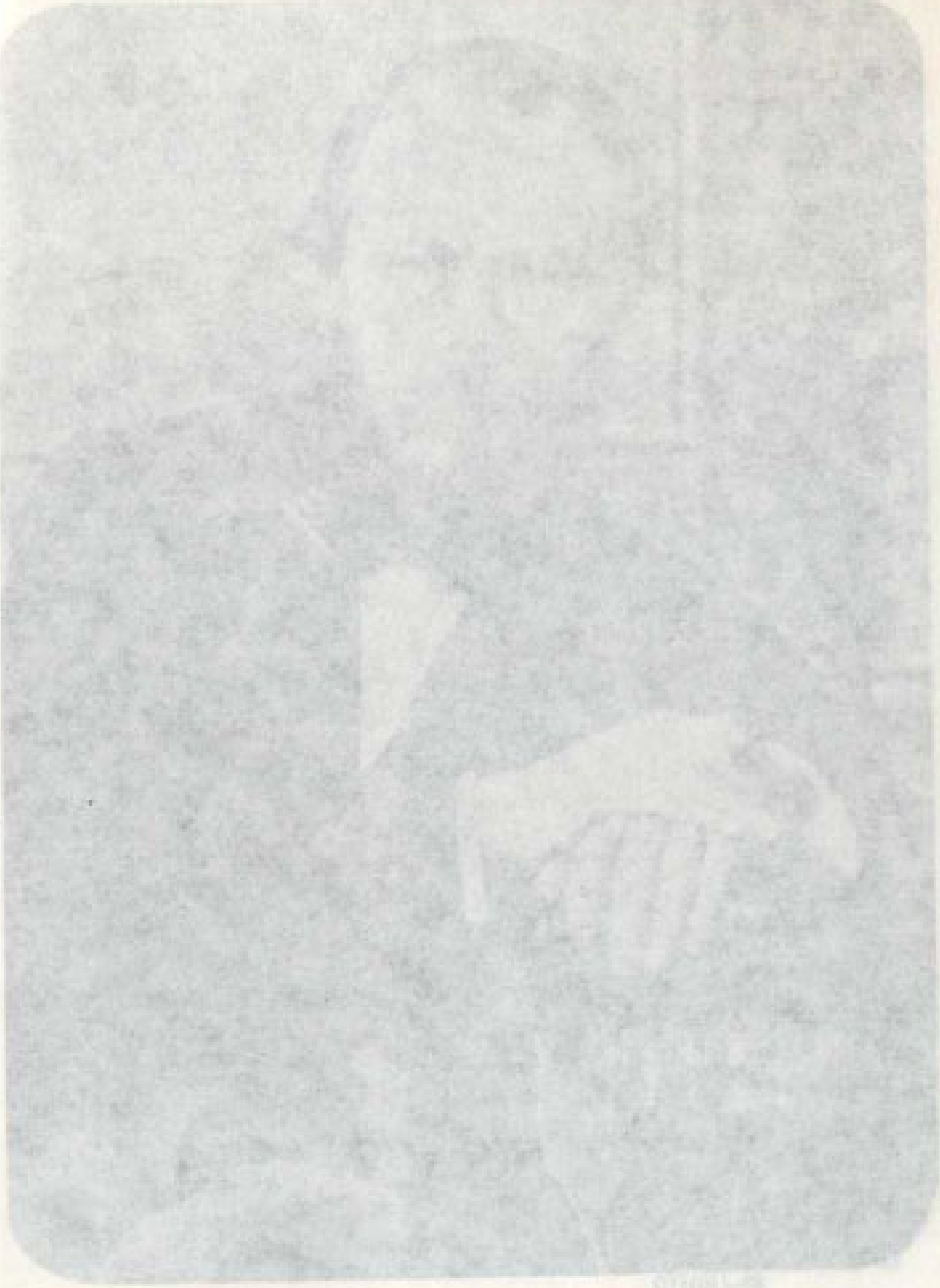

ISBN 5-05-001733-5
ISBN 5-05-001734-3

نكنّها من قبلُ . . . لقد كان دوستويفسكي بالفعل ضميرنا الوطني» .

ولم يغير الزمن ، بل الاقرب الى الصواب انه دعَّم مثل هذا الموقف من تراث الأديب لا في الوعي الروسي وحده . فقد كتب الأديب النمسوي ستيفان زفايغ (١٨٨١ — ١٩٤٢) : «ان دوستويفسكي بالنسبة لنا اليوم أكثر من فنان ، انه مفهوم روحي سيكون عرضة للتفسير والادراك المرة تلو المرة . فصورة هذا الكاتب الروسي تتغلغل اليوم بنورها في جميع مجالات الحياة الروحية» . ويمكن ايراد الكثير من أمثال هذه الاعترافات .

ويبدو انه بقدر ما يوجد من قراء توجد تصورات «لدوستويفسكي الحقيقي» ، وبقدر ما يوجد من دراسات توجد التفسيرات المختلفة ، والمتعارضة بشدة احيانا ، لروح ومغزى رواياته التي كانت نوعاً من النبوءات والرؤى .

بيد انه مهما اختلفت تقديرات ابداع دوستويفسكي ، ومهما جرى التأكيد أو النفي الحار لدروسه فان المفاهيم التالية تتخلل معظم الآراء سواء بطريقة مباشرة أم مستترة : المفكر ، المتنبئ ، التنبؤ ، المعلم ، الموعظة ، الواعظ . . الخ . والأمر الغريب ان مفهوم الفنان هو الأقل ترددا بينها . وكأنما نحن لسنا أمام كاتب عظيم ، مؤلف روايات عالمية الشهرة بقدر ما نحن أمام واعظ ديني أو سياسي ، صاحب نبوءات ورؤى القرن التاسع عشر ، التي اكتست بمسوح المؤلفات الفنية .

على ان دوستويفسكي كان يعتبر نفسه على الدوام كاتبا ، فنانا واقعيا . وان كان لابد ان نقول ان مفهوم الكلمة — النبوءة (ليس بالمعنى الغيبي على الاطلاق) كان مميزا لادراكه الذاتي الى حد كبير .

«الكلمة ، الكلمة عمل عظيم» . كان يحلو لدوستويفسكي

ان يردد . فكم مرة بعثت الكلمة البشرية . «هل تدرون — يسأل دوستويفسكي — أي قوة يبلغ «الانسان الواحد» : رفائيل ، شكسبير ، أفلاطون ؟ . انه يبقى ألف سنة ويبعث العالم . . .» .

وحين راح دوستويفسكي يستوعب خبرة الأدب الوطني والعالمي في شخص اولئك الكتاب الأنبياء — كما سماهم الذين جاءوا الى العالم بكلمتهم الجديدة ، ليعطوا له «تنظيما للحياة الروحية والدنيوية» فقد كشف أمام الابداع الفني امكانيات جديدة وشق الطرق نحو وعي جديد بالذات ، ونقل الأدب الى مستوى نوعي جديد . وطوال حياته الواعية ظل دوستويفسكي مهتما بالكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) ، وفي سنوات عمره الناضج اهتم بالقرآن ثم بالكتب المقدسة للبوذية وغيرها . ولو اعتبرنا هذا الاهتمام اهتماما دينيا محضاً لكان ذلك من غير الانصاف مثلما لو نفينا عنه هذه الصفة . فمن المعروف ان دوستويفسكي لم يربط بحثه الديني وشكوكه وقناعاته في مجال الدين سوى بالمسيحية . لكنه كان يبحث في جميع الكتب الدينية لنفسه كفنان عن سر ذلك التأثير الذي مارسته الكلمة المقنعة على العديد من الأجيال لكي يضفي على الأدب هذه القوة الاقناعية .

ان النظرة الى الكلمة باعتبارها فعلاً تكمن في اساس جميع روايات دوستويفسكي التي تمثل مواعظ ملتهبة العاطفة لفنان مفكر . وقد أدرك دوستويفسكي مذهبه الواقعي باعتباره «واقعية نبوئية» وسماه «الواقعية بأسمى معانيها» .

والقضية بالطبع ليست قضية بعض التنبوءات التي أوردها الكاتب بهذه الدرجة من الوضوح أو تلك . فبوسعنا نحن ابناء السنين الأخيرة من القرن العشرين ان نتذكر الكثير من الأمراض الاجتماعية والخلقية والذهنية التي تراءت له ، وتلك القرحة

العالمية الرهيبة التى لم يسمع بها أحد ولم يسبق لها مثيل» — من غرف الغاز حتى هيروشيما ، وتلك «المخلوقات الدنيا» التى أودت بحياة عشرات الملايين من البشر خلال القرن الذى انقضى منذ وفاة الكاتب ، ومحت من على وجه الأرض آلاف المدن ، وما زالت مستعدة لارتكاب المزيد من اعمال الجنون الأرهب مما فى سفر الرؤيا . ثم الا تواجه البشرية اليوم ، أكثر من اى وقت مضى ، وبكل جلاء مشكلة الاختيار بين «دمعة الطفل الوحيدة» وبين «الانسجام العالمى القادم» كله .. . تلك المشكلة التى تناولها دوستويفسكى فى «الأخوة كارامازوف» بهذه الدرجة من التنبؤ ؟

ولكننا ، وأكرر ، لا نتحدث الآن عن المحتوى الحقيقى «لنبوءات» الكاتب ، بل عن النبوءة كمنهج ابداعى واعٍ لدى الفنان .

ان الكتابة الفكرية تعنى لدى دوستويفسكى التفكير لا فى اليوم الراهن بملامحه المحددة بقدر ما تعنى كيف أصبح الماضى جزءا من اليوم الراهن ، وكيف يمكن لليوم الحاضر «ان يهدد المستقبل» .

ان دوستويفسكى كمفكر وكفنان متجه بكل كيانه الى المستقبل . وهو يرى أن «الواقع كله لا يمكن ان يستوعبه الحاضر ، لأن جزءا كبيرا من هذا الواقع متضمن فيه فى صورة كلمة دفينة مستقبلية لم تُقَلْ بعد» . ولا داعى لأن تكون نبياً لكى تصبح متنبئاً عندما ترى مثلاً الفوضى والازدواجية وعالم الهوات والدروب المسدودة والعنف والجنون : «فوضى !» ، «جنون !» ، «هوات !» . كلا . .

ان دوستويفسكى ليس «نبيا» من **هذا النوع** . يقول الكاتب : «ان لدينا بلا جدال حياة تتحلل . . ولكن توجد بالضرورة حياة **تنشأ من جديد على أسس جديدة حقاً** . فمن ذا الذى سيلحظها

ومن ذا الذى سيشير اليها ؟ من ذا الذى يستطيع ولو بقدر ضئيل ان يحدد ويعبر عن قوانين هذا الانحلال وهذا الخلق الجديد ؟»

لقد كان دوستويفسكى نبيا وواعظاً بالخلق الجديد الذى حاول اكتشاف قوانينه فى فوضى الواقع ذاتها .

ثمة من قال ان الكاتب كشخصية مبدعة «يموت» فى كلمته ، بيد أن هذا «الموت» ينطوى على الأساس الوحيد لخلــــوده الشخصى ، فمؤلفاته هى كلمته المتجسدة .. كلمته التى أصبحت جسداً خالداً .

ان وعى دوستويفسكى الحساس بأسرار الوجود البشرى قد دقق غير مرة فى حكمة العبارة المسيحية القديمة : «الحق الحق أقول لكم ، ان لم تقع حبة الحنطة فى الأرض وتمت فهى تبقى وحدها ، ولكن ان ماتت تأتى بثمر كثير» .

هذه الكلمات سوف يضعها دوستويفسكى فى مستهل رواية «الأخوة كارامازوف» بعد مضى سنوات طويلة . وستحفر هذه الكلمات فيما بعد على التمثال المقام على قبره . وكذلك فيما بعد ستكون خطبته الظافرة : «كلمة عن بوشكين» وروايات «المراهق» «والشياطين» و«الأبله» و«الجريمة والعقاب» ، و«ذكريات من منزل الأموات» .. تلك الروائع العظيمة التى ابدعتها عبقرية الفنان وعقله الجبار وقلبه الكبير .. ذلك العالم الكامل الذى لم ير مثله من قبل ، والذى سيهز البشرية باكتشافاته لأسرار الروح والوعى وبالاسئلة والاجابات التى ستزلزل كيان الانسان وتدفعه الى التفكير : أحقاً لن ينقلب العالم بعد هذا الذى حدث رأساً على عقب ؟ وكأنه يطوف من جديد بدوائر «الجحيم» الحقيقية لا الغيبية عبر دروب العذاب والبحث المضنى والضلال والآمال التى مر بها الوجود البشرى منذ آلاف السنين ، والمركزة الى أقصى حد فى

هذا العالم الذى نسميه الآن : عالم دوستويفسكى . ولكن ذلك كله سيكون فيما بعد .

أما فى البدء فكانت الجلجثة .

وقف على منصة الاعدام مبهورا بضوء الصباح الرمادى الصاعد فى بطرسبرج من ٢٢ ديسمبر ١٨٤٩ ، بعد عدة أشهر قضاها فى زنزانة منفردة كئيبة . كان ذلك يوما عادياً للغاية بالنسبة للجميع . اما بالنسبة له فكان آخر يوم فى حياته ، وقد تأكد ذلك الآن . ولم يتبق من الحياة سوى بضع دقائق . وها هم قد أوثقوا ثلاثة من رفاقه الى الصواري ، واقترب منهم القس بمسوح الجناز ، وقَرب منهم الصليب ليقبلوه قبلة الوداع الأخير ، بينما دوّت فى أذنيه وفى بدنه كله بصوت مكتوم الكلمات التى لاراد لها : «حُكم على المهندس ــ الملازم المتقاعد دوستويفسكى . . بالاعدام رميا بالرصاص . . .» .

«ما الذى يحدث للنفس فى تلك اللحظة ؟» . هذا السؤال الذى وضعه المؤلف على لسان الأمير ميشكين (فى رواية «الأبله») ربما هو السؤال الاساسي الذى يحدد الشكل والمضمون الفكرى عند الكاتب نفسه ويشكل جوهر موقفه الفنى تجاه العالم . .

فأياً كانت الملابسات والاحداث التى تمر بالبطل فهو دائما يُسأل ويجيب عما يحدث لنفسه فى تلك اللحظة .

ورغم وفرة الكتب التى صدرت عن حياة الكاتب فليس لدينا حتى الآن ، فى واقع الأمر ، كتاب جدير بسيرة هذا الانسان . فالباحثون يولون اهتمامهم أكثر ما يولون للنسيج الخارجي ، الحدثي ، لحياته ، هذا النسيج الذى ينبغى ان نعترف بأنه غنى بالتحولات المفاجئة ، وبالتقلبات الدرامية بل وحتى «الأخاذة» . وبالفعل ، فهناك طفولة دوستويفسكى «فى بيت الله» (ولد

دوستويفسكى فى موسكو فى ١١ نوفبر ١٨٢١ فى أسرة نبيل فقير كان طبيباً فى مستشفى للفقراء ، هذه المستشفيات التى كانوا يسمونها «بيوت الله» . وقد اصبح هذا المبنى حاليا شقة ــ متحفا للأديب) ، وهناك وفاة أمه الحبيبة مبكرا ، والانطباعات غير الطفولية المبكرة ، وتصادم عالم الأحلام الخيالية للصبا الغض مع عالم الواقع الذى لا يقل خيالية ، وهناك النضج الاخلاقى والذهنى المبكر ، والاحساس المسبق بمستقبل عريض فى حقل الأدب . وبدلاً من تلك التدريبات والطوابير العسكرية الاضطرارية بالمدرسة الهندسية العسكرية فى بطرسبرج . ثم الخبر بمصرع أبيه المفاجئ والغامض . وهناك السهر فى الليالى ، اى فى الساعات الوحيدة التى يفرغ فيها من العمل ، لينكب على رواية «المساكين» القادمة . ثم التعرف على الناقد الكبير بيلينسكى ثم الصعود المفاجئ غير المعقول من كاتب مغمور بالأمس الى عبقرى بطرسبرج والى واحد من أشهر رجالاتها . ثم دروس الالحاد والاشتراكية فى حلقة بيلينسكى والصداقة مع هذا الناقد العظيم والتى تحولت ايضا فجأة وبنفس المباغتة الى عدم تفاهم وتنافر متبادل . وبعد الصعود الخيالى جاءت مرارة الهزائم التى لا تقل خيالية ، والسخرية العامة بالكاتب الذى اراد بالأمس ان يكون عبقريا فلم يصبح . ثم الانضمام الى حلقة بتراشيفسكى الذى كان واحداً من اوائل اتباع الاشتراكى الطوباوى فورييه الراديكاليين فى روسيا ، ثم التقارب مع «الرجل الخيالى» سبيشنيف الذى نادى بالاستيلاء على السلطة بالقوة المسلحة وحاول الاعداد لتنفيذ فكرته . وبعد ذلك كان القضاء على الحلقة ، وقرابة عام من السجن فى زنزانة منفردة ، وبداية علامات الصرع الذى أصبح من «أقرانه الدائمين» ، وأخيراً منصة الاعدام والحكم بالاعدام ، وبضع دقائق قبل

تنفيذه .. «من قال ان الطبيعة الانسانية تستطيع ان تحتمل تعذيباً كهذا التعذيب دون ان تهوى الى الجنون ؟» — تساءل دوستويفسكي فيما بعد على لسان الأمير ميشكين . أما هو نفسه فقد احتمل . احتمل الحكم بالاعدام ، والتحضيرات التي سبقت تنفيذ الحكم ، ثم الغاء الحكم في اللحظة الأخيرة واستبداله بالاشغال الشاقة في سيبيريا ، والرحلة الطويلة عبر البلاد كلها ، مقيداً بالأصفاد ، الى هناك ، ثم عشر سنوات من الاشغال الشاقة وحياة الجندية (وسيقول عن نفسه فيما بعد : لقد وضعوني في التابوت حياً وأغلقوه عليّ) . ولكنه لم ينكسر ، وعاد ، ووجد لديه من القوة والشجاعة الروحية ما جعله يصمد لضربات القدر دون ان يتشكى من المصير ولا حتى من الواقع . لقد وعى مأساة مصيره الفردي من خلال المأساة التاريخية العامة للبشرية في سعيها الأزلي الى العدالة والسعادة عبر صنوف العذاب والمظالم ورغماً عنها . وقد صهر الأديب خبرته الحياتية هذه وخبرة الوجود البشري في كلمات رواياته المأساوية التي تدعو البشر الا يصدقوا بدوام ومشروعية المأساة والفوضى ، وتعزز فيهم اليقين بامكانية وضرورة التغلب عليها هنا ، على ظهر الأرض ، لا في مكان ما هناك في الأبدية .

لقد عانى دوستويفسكي في حياته الكثير من الخسائر والآلام والعذاب وخيبة الأمل ، ولكنه ذاق أيضاً فرحة اللقيا والحب الحقيقي والاعتراف الشعبي ، والشيء الرئيسي : تلك الانتصارات العظيمة لروحه الابداعية ولعبقريته المتمثلة في رواياته الخالدة ونبوءاته عن العالم والانسان ، تلك الخلاصات المكثفة المدهشة للطاقة الروحية الخلاّقة .

هذا الجانب الخارجي ، الحدثي ، من حياة الكاتب الرائد العظيم اصبح اليوم مدروسا بما فيه الكفاية ، ويكاد يكون

الباحثون قد تتبعوه بكل تفاصيله ودقائقه يوما بيوم ، بل وربما ساعة بساعة . ولكن من ذا الذي يستطيع ان يكتب السيرة الداخلية ، الروحية ، لعبقري من طراز دوستويفسكي ؟ لا اعتقد ان هناك أحداً يقدر على ذلك .. باستثناء شخص واحد .. هو دوستويفسكي نفسه . ان رواياته التي تبدو بعيدة كل البعد عن روايات السيرة الذاتية أو العائلية أو السردية الوصفية (رواية «الأخوة كارامازوف» المؤلفة من جزئين وتقع في ستة كتب ، وهي أكبر رواياته ، أي ان «مساحتها» تتسع بما فيه الكفاية لملحمة كاملة تتناول حياة عدة أجيال ، لانجدها مع ذلك تتناول سوى **يومين اثنين** من حياة أبطاله) .. هذه الروايات هي «السيرة» الوحيدة — والتي ستبقى كذلك فيما يبدو الى الأبد — لحياته المعبر عنها روحياً ، هي نوع من التاريخ لروح العبقري وقلبه .

قال دوستويفسكي ذات مرة متحدثا عن رواية «دون كيخوت» لسرفانتس ، وهي من أحب الكتب اليه : «أوه ، هذا كتاب عظيم ، ليس مثل الكتب التي يكتبونها الآن . ان امثال هذه الكتب تُرسل الى البشرية كتاباً واحداً كلّ بضع مئات من السنين» . ولا شك ان دوستويفسكي يقدم لنا بذلك ايضا مفهومه العام لرسالة الأديب السامية على وجه الأرض : «... ولو ان الحياة انتهت على ظهر الأرض ، وسئل الناس في مكان ما هناك : «ماذا ، هل أدركتم حياتكم على الأرض ، وما خلاصة رأيكم فيها ؟» .. لكان في وسع الانسان أن يقدم «دون كيخوت» قائلاً : «هذه هي خلاصة رأيي في الحياة ، وهل يمكنكم أن تدينوني على ذلك ؟» .

وأعتقد انه يمكننا دون تردد وضع روايات دوستويفسكي في عداد مثل تلك الروائع ، وربما في المقام الأول روايته

«الأخوة كارامازوف» التى أعتبرها أكمل خلاصة «دوستويفسكية» عن رأيه فى الحياة .

ولابد من الاشارة الى ان دوستويفسكي يعد من أعقد الكتاب ترجمةً الى اللغات الأخرى . فالكلمة لدى دوستويفسكي دائماً ذات أغوار ، وهى متعددة الجوانب ، ودائما على صلة لاتكاد تُحس بمجمل النظام الفكرى والصورى لرواياته وفى تفاعل معه ، وتكشف مختلف مستويات الادراك والتقدير لنفس الواقعة او الحدث . الخ . وفى هذا الصدد فليس من السهل فهم دوستويفسكي فهما عميقاً حتى فى لغته الأصلية . وربما بسبب عدم دقة الترجمة ليس من النادر ان تفسر تفسيراً سطحياً ، وأحيانا تفسيرا خاطئاً ، روح ابداع العبقرى الروسى ونظرته الى العالم . وربما لهذا السبب ما يزال الكثيرون يستوعبون دوستويفسكي على مستوى الحدوتة والحبكة الروائية ، باعتبار رواياته قصص مغامرات جنائية ، تجمع بين الموعظة والتسلية ، رغم انها ثقيلة بعض الشيء محشوة بالمشاهد «المقحمة» وبالحوارات الفلسفية العديدة .

وهل يا ترى سيتمكن القارئ الأجنبى ، بدون شروح خاصة ، من النفاذ ولو الى «الطبقة العليا السطحية» من العالم الفكرى ــ الصورى لرواية «الاخوة كارامازوف» ؟ وهل سيرى مثلا فى الاسم «أليكسي» ، لذلك الشاب «الواقعى» الذى عاش فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، هل سيرى فيه مثله الداخلى ، ذلك المدعو «اليكسى حبيب الله» الذى تتحدث عنه السير الدينية للقرون الوسطى (وهو الشخصية الشعبية المحبوبة) ، البطل المقرب من قلب دوستويفسكي ؟ وهل سيحس القارئ الأجنبى فى اسم سميردياكوف برائحة ذلك التحلل والتعفن المتمثلة بصورة ساطعة فى فكرة هذه الشخصية بصفة عامة (الاسم مشتق من فعل

«سميرديت» ويعنى : يطلق رائحة عفنة) ؟ وهل سيفطن القارئ الى الرابطة التى تبدو حتى غير واعية ولكنها حتمية بين اسم ديمترى وبين الأرض ديمترا ، الهة الخصب الاغريقية ، وليس مجرد الأرض ، بل الأرض الأم ؟ ان فهم جوهر مثل هذه الصور الشعبية التى تحدد مجمل البناء الفكرى ــ الاخلاقى للمؤلفات والتى تمثل نوعا من المراكز العصبية المتميزة لجسد الروايات الحي . . هذا الفهم هو وحده الذى سيتيح للقارئ ان يدرك الفكرة الرئيسية للكاتب ، ــ المتجسدة فى لغز اسلوبه ذاته ــ الفكرة القائلة بأن المخرج الوحيد من فوضى الواقع يمر عبر الانبعاث فى الشعبية . هذه الفكرة التى نادى بها دوستويفسكي وتنبأ بها فى مؤلفاته .

ان الكلمة لدى دوستويفسكي تتطلب من القارئ أقصى الاهتمام والانصات والتأمل . عندئذ تبدأ فى الكشف عن قوانين علاقاتها الداخلية وعن الحقيقة الكامنة فى أعماق الوقائع .

ترى أين هى ، فى خاتمة المطاف ، «حقيقــــة» دوستويفسكي ؟ انه سؤال مخاتل ، كتبت فى محاولات الاجابة عليه مؤلفات عديدة أكبر بمئات ، ان لم يكن بآلاف المرات ، مما كتبه دوستويفسكي نفسه .

ولذا سنكتفى بمثال واحد .

ثمة ضابط شاب ، ليس ممتازاً على الاطلاق ، بل بالأحرى على العكس من ذلك انسان طائش ، عربيد بل وحتى سكّير وزير نساء ، ثم انه بالطبع مقامر . وباختصار فهو ذو اندفاعات وتهور . . "وقد قامر دون حساب فخسر دفعة واحدة ثلاثة آلاف روبل . . هى فوق ذلك أموال عهدة . . . والأمل كله معقود على أموال الوالد ، والا فسيحكم عليه بالاشغال الشاقة فى سيبيريا . ولكن الوالد لن يعطى ، فهو نفسه بحاجة الى هذه النقود ليعيش

بها على هواه حياة يؤمّل ان تمتد به . وهكذا لا يبقى لدى الابن التعيس من رجاء سوى موت والده . . ليس موتـــه تماماً ، ومع ذلك ففي ذهنه تدور فكرة سيئة الى حد ما حول «تغيير الوضع» .

هذا الموضوع لا يبدو بعيدا عن الذهن . فمن هو هذا الشخص ؟ أهو ميتينكا (دمتري) كارامازوف بطل رواية دوستويفسكي؟ كلا انه بيتينكا (بيوتر) ابن يهوذا جولوفليوف ، بطل رواية «السادة آل جولوفليوف» للأديب سالطيكوف-شيدرين ، أحد كبار الكتاب الروس في القرن التاسع عشر . ومع ذلك لا يسعنا الا ان نعترف بأن بيتينكا وميتينكا يكادان يكونان أخوين شقيقين بل وحتى توأمين حسب الخط الروائي . بيد أن بيتينكا قد استوعب كله في هذا الخط ، وليس هناك ما يقال عنه أكثر مما قيل حسب تقدير الكاتب . أما ميتينكا فلا يتسع له الخط الروائي ، وفي هذا يتجلى جوهر دوستويفسكي : صحيح ان بطله عربيد ، وزير نساء ، وقد خسر في القمار ، وفكر في موت أبيه ، وحكم عليه بالاشغال الشاقة في سيبيريا لأنه كان مع ذلك شقيا . وكان الوالد المرحوم محقاً على الارجح حين قال عنه انه شقي . ولكن يا له من شقي ! في هذا العربيد تحيا روح الأرض الأم ، وفي هذا الضابط الصغير التعيس توجد مهاوٍ بلا قرار للروح والوعي . وليست النقود هي ما يحتاج اليه ، بل يعذبه ويمزق روحه شيء آخر . «رهيب مصير الانسان ، شديدة آلام الانسان . . . يقول ميتينكا مخاطبا اخاه أليوشا — لا تحسبنّ انني امرؤ فظ برتبة ضابط ، لا يعنيه الا ان يشرب الكونياك ويمارس الفجور . . الا فلأكن ملعونا ، ألا فلأكن منحطا سافلاً ، ولكنني أريد ، انا أيضاً ، ان اقبل ذيل الثوب الذي يتدثر به إلهي . لئن اتبعت

الشيطان في الوقت ذاته يارب ، فانني ، مع ذلك ، أظل ابنك ، واحبك ، وفي نفسي سبيل الى الفرح الذي لولاه ما وجد الكون . .

الجمال شيء رهيب مخيف ! هو رهيب لأنه لا يُحدَّد . . ولا يمكن تحديده لأن . . . الله ملأ الارض الغازا واسراراً . الجمال هو الشطآن تتقارب ، هو الأضداد تتحد . لست على جانب كبير من الثقافة يا أخي ، لكنني فكرت ملياً في هذا الأمر . ما أكثر الألغاز ! ما أكثر الالغاز التي تضني الانسان في هذا العالم ! . . أفظع ما في الجمال ليس انه مخيف ، بل انه سر لا يفهم» .

في عالم دوستويفسكـــي الفنـــي يتصارع الرحمـــن مع الشيطان والخير مع الشر ، والحقيقة مــــع الزيـــف صراعاً لا يعرف المهادنة . ويدور هذا الصراع في جميـــع المجالات . من الميتافيزيقية الى المعاشية الملموسة ، وعلى جميع المستويات . . من البناء الهيكلي لرواية «الاخوة كارامازوف» الى العبارات الرمزية الدلالات . وجميع هذه المجــــالات والمستويات للبناء الفكري — الصوري للرواية ترتبط فيما بينها بعلاقات متبادلة ضرورية يشترط بعضها البعض ، وجميعها تميل بهذا الشكل او ذاك نحو المركز ، نحو قلب الرواية — نحو اسطورة المفتش الأكبر . وهذه العلاقات ليست علاقات خارجية ، حدثية ، بل داخلية ، تكاد تكون روحية . فدمتري كارامازوف مثلاً ، وهو يتحدث في «اعتراف قلب حار» عن الهوتين والحقيقتين ، وعن صراع الرحمن والشيطان ، دون ان يعرف شيئا ، حسب سياق الرواية ، عن الأسطورة أو عن الشيطان في كابوس ايفان الليلي ، انما يكرر حرفيا تقريبا أفكارهما الرئيسية المفصلية : ان

ما يجرى فى نفس الانسان ـــ سواء كان دمترى كارامازوف أم بطل آخر من أبطال دوستويفسكى ـــ هو دائما على صلة بما يجرى فى كل مكان ، على الأرض وفى السماء ، اليوم ومنذ ألف عام .

ان أبطال دوستويفسكى ليسوا على صلة بعصرهم وبيئتهم فحسب بل وبحياة العالم كله . وفى هذا الصراع الأزلى والشامل بين «ما للامر» و«ما عليه» فى عالم دوستويفسكى يفتش الباحثون عن مفتاح شخصية دوستويفسكى وابداعه . ويركز معظمهم اهتمامهم بهذا الصراع . وكأنما عالم الكاتب لا يمثله سوى الاضداد المتصارعة ، وكأنما لا يوجد هناك وسط ، بل مجرد فراغ . ولكن علامَ يدور اذن هذا الصراع ؟ ان دوستويفسكى لا يجعل من ذلك سراً : الصراع يدور على روح الانسان . وسؤال الكاتب الرئيسى هو : ما الذى يحدث لنفس الانسان فى تلك اللحظة ؟

اذا كان دمترى كارامازوف يبدو مستعداً فى الفصول الأولى من الرواية لقتل أبيه (ولولا الصدفة لقتله فعلاً) دون أن يشعر بذنب فى ذلك أو يقرّ به ، لأن أباه وغد ، فان وعى دمترى نفسه فى نهاية الرواية (هل يمكننا ان نقول انه بقى «نفسه» ؟ هل لم يصبح شخصا آخر تماماً من الناحية الروحية ؟) يمكن التعبير عنه بعبارة : لم اقتله ، ولكننى مذنب لأننى أردت وكان بوسعى ان أقتله . وبين هذين القطبين للوعى الذاتى يمتد دهر كامل ، بينما فى الرواية لدى دوستويفسكى تمضى عدة أيام فقط . ولكنها أيام من تلك التى تشهد فيها نفس البطل صراعات آلاف السنين . حتى سميرديا كوف ، الذى بدا فى الظاهر أنه لم يندم ، قد أقدم على الانتحار . ولم يقدم على ذلك بدافع الخوف من اكتشاف

جريمته . واذن فقد حدث شيء ما ، بخلاف الصراع نفسه بين المتناقضات ، شيء فجّر من الداخل حتى نفس سميردياكوف؟

وحين يتحدثون عن مواعظ دوستويفسكى ونبوءاته ينسون أحياناً الأمر الرئيسى : ان نبوءاته لا تتجلى فى عبارات معينة أو بيانات بل فى «حسم» الصراعات فى نفوس أبطاله . ففى الحركة الداخلية لعالم الكاتب وفى اتجاه هذه الحركة ذاته تظهر امكانية وضرورة الانبعاث الروحى للانسان وللبشرية . وفى هذا تتجلى موعظة دوستويفسكى ونبوءته .

فى «الاسطورة» يقول المفتش الاكبر للمسيح :

«ألغيت القانون القديم الذى كان وطيدا راسخا ، فاصبح على الانسان ان يميزَ الخير والشر بنفسه ، مستلهما حكم قلبه . كنت تريد ان يهبوا لك محبتهم احرارا لا ان ينصاعوا لك عبيدا اذهلهم جبروتك» .

ان هذه الفكرة ـــ صورة الضمير الحر (لا بمعنى انعدامه ، بل بمعنى حرية الاختيار وفقاً لما يمليه الضمير و«القلب الحر» وليس حسب «القانون») . فكرة الشخصية هذه قد عبر عنها دوستويفسكى حتى بأشكال بناء رواياته النبوئية . فهى لا تصور الحيرة والتردد بين الخير والشر ولا تقدم مواعظ تعليمية ، بل ترسم فى صور حية كلتى الهوتين وكلتى الحقيقتين ، وقمم السمو البشرى ومهاوى الانحطاط . فهل رأيت ؟ فلتختر اذن هذا أو ذاك ، ولكن فليكن قلبك الحر معينك فى الاختيار ، بدون اكراه من الكاتب . وأنْ يسمح الكاتب لنفسه بهذا الموقف معناه انه كان مؤمناً ايمانا راسخاً بقدرة كلمته الفنية وقيمتها الروحية والاخلاقية وواثقاً من انها لا تصنع الشر بل الخير .

لقد قال دوستويفسكى وهو بعدُ شاب فى أول طريقه

الابداعي : «الانسان لغز» . ولم يكف ابداً عن البحث حتى فى «أحقر انسان» عن الانسان ذى الروح ، القادر على الانبعاث .

هناك من قال ان الدورة الدموية للثقافة العالمية تجرى الآن بواسطة دوستويفسكى . وهذه بالطبع مبالغة . لكن الأمر المحقق ان قلب هذا العبقرى الروسى الكبير على صلة قرابة بنبض البشرية حالياً . ونحن جميعا كالأنابيب المستطرقة : أين ينتهى دوستويفسكى وأين نبدأ نحن ؟ وكما قال الكاتب نفسه : «فلتحاولوا أن تنقسموا ، ولتحاولوا ان تحددوا أين تنتهى شخصيتكم وأين تبدأ الأخرى ؟»

اهداء

الى آنا جريجوريفنا دوستويفسكايا*

«الحق ، الحق أقول لكم : ان لم تقع
حبة الحنطة فى الأرض وتمت فهى تبقى
وحدها . ولكن ان ماتت تأتى بثمر كثير»
(أنجيل يوحنا ، الأصحاح الثانى عشر ، ٢٤)*

من المؤلف

حين أشرع فى قص حياة بطلى ، ألكسى فيدوروفتش كارامازوف ، أشعر بشىء من الارتباك ، وهو ارتباك له ما يبرره : اننى أسمى ألكسى فيدوروفتش هنا باسم البطل ، وأنا أعرف حق المعرفة أنه رجل ليس فيه من العظمة كثير ولا قليل ، لذلك أتوقع أن تطرح علىَّ حتما أسئلة من هذا القبيل : «ماذا فى صاحبك ألكسى فيدوروفتش هذا من أمر فذ ، حتى اتخذته بطلا ؟ ما الذى قام به من أعمال نادرة ؟ بماذا أصبح ذائع الصيت ، وأين ؟ ولماذا يجب علىَّ أنا القارئ أن أضيع وقتى فى دراسة وقائع حياته ؟» .

وهذا السؤال الأخير هو الطامة الكبرى ، لأننى لا أستطيع أن أجيب عليه بغير قولى : «اقرأوا الرواية ، فلربما ترون» . وما عسى أن يكون موقفى اذا قرأ القارئ الرواية ، فلم ير ، ولم يشأ

أن يسلم بأن صاحبى ألكسى فيدوروفتش شخصية فذة ؟ اننى مضطر الى أن أتساءل هذا التساؤل ، لأننى أتوقع ، على كثير من الأسف ، أن الأمر سيكون كذلك . فهذا الرجل يبدو لى فذا ، ولكننى أشك أقوى الشك فى أن أصل الى اقناع القارئ بذلك بل أننى لأراه بطلا فعالا ، بمعنى من المعانـــــى ، رغم أن فعله يظل غامضا ، يصعب تحديده . وقد يكون من الغريب ، على كل حال ، أن يطلب الى الناس أن يكون سلوكهم واضحا مفهوما فى عصر كهذا العصر الذى نعيش فيه على أن هناك أمرا يبدو ثابتا ، هو أن هذا الرجل غريب ، شاذ ! والغرابة والشذوذ تسيئان الى السمعة أكثر مما تدفعان الى العطف والاهتمام ؛ وخاصة فى عصر يجهد فيه الجميع أن يوحدوا الخصوصيات ، التماسا لشىء من المعنى العام فى هذا التشوش الشامل . والشذوذ ، فى أغلب الأحيان ، سبيل الى الخصوصية والتفرد . أليس كذلك ؟

أما اذا لم توافقوا على هذا الرأى الأخير كل الموافقة ، واجبتم بأن «الأمر ليس كذلك» ، أو بأنه «ليس كذلك دائما» ، فقد يردُّ الىَّ هذا شيئاً من الثقة ببطلى ألكسى فيدوروفتش . لأن الانسان الشاذ ليس حتما — ليس دائما — ذلك الذى يسلك سبيل الخصوص والتفرد ، حتى لقد يتفق ، خلافا لهذا ، أن يحمل فى ذاته حقيقة عصره ، بينما يكون الناس ، جميع الناس ، من معاصريه ، قد ابتعدوا عن هذه الحقيقة الى حين ، كأنما دفعتهم عنها ريح هبت عليهم على حين فجأة . . .

كان فى وسعى ، على كل حال ، أن أستغنى عن محاولة هذه التعليلات المربكة التى ليس لها قيمة ، وأن أدخل فى الموضوع رأسا بلا مقدمات : فاذا حظيت قصتى برضى القارئ ، قرأها دون ما حاجة الى هذا التمهيد ؛ ولكن مصيبتى فى الأمر

أننى أعرض تاريخ حياة واحدة بعينها ، فى روايتين اثنتين مستقلتين ، الثانية منهما أخطر شأنا من الأولى ، لأننى أقص فيها أعمال بطلى فى العصر الذى نعيش فيه ، فى الأيام التى نجتازها . أما الأولى فقد جرت أحداثها منذ ثلاثة عشر عاما ، وليست فى حقيقة الأمر رواية ، وانما هى فصل بسيط يصور حياة بطلى فى صدر شبابه . وكان يستحيل علىَّ أن أعدل عن هذه الرواية الأولى ، ولو فعلت ، لاستحال فهم الأمور فى الرواية الثانية . وهذا ما يفاقم حيرتى الأولى كثيرا : اذا كانت رواية واحدة تبدو لى ، أنا الذى أكتبها ، كثيرة على حياة بطل بلغ هذا المبلغ من التواضع والغموض ، فكيف أستطيع أن أتقـــدم الى الناس بروايتين اثنتين ؟ كيف أبرر لهم مثل هذا الادعـاء العريض ؟

أشعر بأن الجهود التى أبذلها للاجابة على هذه الأسئلة تضيعنى ، لذلك أعدل عدولا حاسما عن محاولة أى تعليل . وواضح أن القارئ الذى أوتى نفاذ البصيرة قد أدرك منذ وقت طويل أننى ما سعيت الا الى ذلك منذ البداية ، واحنقه تضييعى الوقت الثمين فى كلام عقيم ولكن جوابى على هذه النقطة الأخيرة ماثل فى ذهنى . لقد استرسلت فى كلام عقيم ، وأضعت فى ذلك الوقت الثمين ، لسببين اثنين : أولهما اللياقة ، وثانيهما المكر : فبهذا أكون ، كما يقال ، قد حذَّرت القارئ مسبقا بصورة من الصور . ثم أننى حتى لمسرور أن روايتى تنقسم قسمين ، مع الاحتفاظ بما فى «مجموعها من وحدة أساسية» . ان القارئ يستطيع ، بعد قراءة القصة الأولى ، أن يعرف بنفسه هل ينبغى له أن يحمل نفسه عناء قراءة الثانية ، وواضح أن لكل انسان حريته فى هذا كله ، بل أن فى وسع المرء أن يرمى الكتاب منذ قراءة

الصفحات الأولى ، وأن يعقد النية على أن لا يعود اليه أبدا . على أن هناك قراء أوتوا حظاً من الرهافة ، فهم يريدون من كل بد أن يمضوا فى قراءة الكتاب الى آخره ، ذلك من أجل أن يستطيعوا الخلوص الى رأى يتصف بالحياد ، ويتفادى الزلل . وهذا هو شأن النقاد الروس عامة ، على سبيل المثال . واليهم انما أرتاح الآن : لقد قدمت لهم ، رغم ما يتصفون به من الحرص على الدقة والنزاهة ، حجة مشروعة للتوقف عن القراءة عند الفصل الأول . هذه اذن مقدمتى بكاملها . وانى لأعترف بأنها زائدة لا محلَّ لها . ولكننى اما دمت كتبتها فلأحتفظ بها . لا بأس .

ولننتقل الآن الى الموضوع .

الجزء الاول

الباب الاول

قصة أسرة صغيرة

١

فيدور بافلوفتش كارامازوف

كان ألكسى فيدوروفتش كارامازوف الابن الثالث لمالك الأطيان فيدور بافلوفتش كارامازوف ، الذى اشتهر جدا فى مقاطعتنا فى زمانه (وما يزال الناس يتحدثون عنه الى يومنا هذا) بسبب نهايته الفاجعة التى ظلت بلا تفسير ووقعت منذ ثلاثة عشر عاما على وجه الدقة ، والتى سأروى قصتها متى آن الأوان . أما الآن فسأقتصر موقتا على الاشارة الى أن هذا «الاقطاعى» (كما كان يسمى عندنا ، رغم أنه لم يكد يعيش أبدا فى أراضيه) كان انسانا عجيبا . انه ينتمى الى ذلك النوع من الأفراد الشاذين — وهو نوع منتشر انتشارا كافيا والحق يقال — الذين يجمعون بين طبيعة سيئة رديئة منحطة وبين قدر كبير من السخف ، ولكن سخفهم سخف خاص ، فهم يعرفون حق المعرفة كيف يصرفون أعمالهم المادية الصغيرة ، ويركزون اهتمامهم بهذه الأعمال وحدها . من

ذلك أن فيدور بافلوفتش هذا قد بدأ من الصفر أن صح التعبير . لقد كان مالكا صغيرا جدا ، يعيش على موائد الناس ، ويسعى الى أن يحيا حياة انسان طفيلى تماما ؛ ولكن وُجدت عنده ، حين مات ، ثروة ضخمة تبلغ مائة ألف روبل عدا ونقدا . هذا لا ينفى أنه كان بين سكان منطقتنا من أكثرهم شذوذا وغرابة . أعود فأكرر أن شذوذه لم يكن هو الغباوة ، فان أكثر هؤلاء الشاذين لا يعوزهم الذكاء ولا يعوزهم الدهاء والمكر ، وانما الأمر أمر سخف ، سخف خاص ، سخف وطنى أن صح التعبير .

لقد تزوج هذا الرجل مرتين وانجب ثلاثة أبناء ، فأما الأكبر فهو دمترى فيدوروفتش الذى ولد له من زواجه الأول ، وأما الآخران فهما ايفان وألكسى اللذين ولدا له من زواجه الثانى . كانت امرأته الأولى من أسرة ميوسوف الغنية العريقة فى نبالتها التى كان أفرادها ملاكين أيضا فى مقاطعتنا . فاذا سألتنى كيف أمكن لفتاة تملك بائنة كبيرة بل وتتمتع بالجمال وتنعم الى ذلك بذكاء متفوق — ذكاء من هذا الذكاء الذى نلقاه كثيرا بين نساء جيلنا ولكنه لم يكن نادرا كذلك فى الماضى — أقول اذا سألتنى كيف أمكن لفتاة هذه مزاياها أن تتزوج «طِرْحا» تافها هذه التفاهة (كذلك كان يلقبه جميع الناس آنذاك) قلت ان هذا أمر لا أحب أن أحاول تعليله وتفسيره . لقد أتيح لى أن أعرف على كل حال فتاةً — هى من الجيل القديم «الرومانسى» — ظلت خلال سنين طويلة هائمة هياما عجيبا بحب رجل كان فى وسعها دائما أن تتزوجه بسهولة كبيرة ، ولكنها مع ذلك انتهت الى أن تتخيل بنفسها جميع العوائق والعقبات الكأداء ، فاذا هى فى ذات ليلة عاصفة ترمى نفسها من أعلى شاطئ وعر يشبه أن يكون جُرُفاً الى نهر عميق وسريع ، واذا هى تقضى نحبها على هذه الصورة ضحيةً

لنزواتها الخاصة ، دون أن يكون لها هدف الا أن تشبه أوفيليا بطلة شكسبير ، حتى أن فى وسع المرء أن يتصور أنه لو كان هذا الجرف الذى اختارته منذ زمن طويل متحمسةً له أشد التحمس ، لو كان أقل جمالا وروعة ، ولو كان فى مكانه شاطئ منبسط عادى مبتذل ، اذن لأمكن أن لا يقع حادث الانتحار هذا . هذه قصة واقعية صادقة وهناك من الدلائل ما يبيح لنا أن نعتقد بأن الوقائع التى من هذا النوع كانت كثيرة فى حياتنا الروسية منذ جيلين أو ثلاثة أجيال . فلعل زواج آديلائيدا ايفانوفنا ميوسوفا قد كان هو أيضا ثمرة مؤثرات غريبة وخيال مسحور : لعلها أرادت بذلك أن تؤكد استقلالها النسوى ، وأن تخرق الأحكام الاجتماعية السائدة ، وأن تتحرر من طغيان أسرتها وتسلط أقربائها . لعل خيالا طيِّعاً قد أقنعها ، ولو للحظة قصيرة ، بأن فيدور بافلوفتش رغم ما أستقر فى أذهان الناس عنه من أنه انسان طفيلى ، هو واحد من أشجع الرجال وأكثرهم سخرية فى هذا العصر ، عصر الانتقال نحو الأفضل ، على حين أن الرجل لم يكن فى حقيقة الأمر الا مهرِّجاً شريراً لا أكثر من ذلك . وقد أضيفَ الى هذا أمر يؤثر فى النفس ويلهب الخيال هو أن الزواج قد سبقه اختطاف ، فذلك ما سحر آديلائيدا ايفانوفنا وفتنها . أما فيدور بافلوفتش فقد كان متهيئاً تهيؤاً خاصاً ، بحكم وضعه الاجتماعى ، لحلٍ من هذا النوع ، لأنه كان يتمنى بكثير من الحماسة والحرارة فى ذلك الوقت أن يبنى مستقبله باية وسيلة من الوسائل . فلا شك أن التسلل الى أسرة ممتازة والحصول على بائنة كانا يغريانه أيما اغراء . وأغلب الظن أن الحب لم يكن له أى شأن فى هذا الزواج ، سواء من جهة الخطيبة اومن جهة الخطيب ، رغم ما كانت تنعم به آديلائيدا ايفانوفنا من جمال لا

يجحد . ولعل ذلك كان حالة فريدة فى حياة فيدور بافلوفتش الذى ظل طوال حياته انسانا تلتهب عواطف الحب عنده التهابا شديدا ، لانه بطبيعته شهوانى يمكن أن يكلف فى طرفة عين أىَّ امرأة يقع عليها بصره ، شريطة أن يشجَّع . ومع ذلك كانت آديلائيدا ايفانوفنا المرأة الوحيدة التى لم تستثر هواه ولا أضرمت عواطفه .

ولم تلبث آديلائيدا ايفانوفنا أن أدركت ، بعد الاختطاف رأساً ، انها لا تشعر نحو زوجها الا بالاحتقار . ولم تلبث عواقب مثل هذا الزواج بعد مدة قصيرة للغاية ان ظهرت . فرغم أن أسرة المرأة قد سارعت تذعن للأمر ولم ترفض أن تمهر الرجل بائنة الهاربة ، فان حياة الزوجين أصبحت مضطربة عاصفة تتخللها المشاكل ولا تنقطع فيها المناقشات . وقد قيل أن الزوجة الشابة عرفت كيف تبرهن فى هذا الظرف على نبل ورفعة لم يبرهن على مثلهما فيدور بافلوفتش الذى استطاع ، كما نعرف اليوم ، أن يدبر أموره منذ البداية بحيث يأخذ منها ثروتها دفعةً واحدة ، وهى ثروة تبلغ خمسة وعشرين ألف روبل ، فما كادت تقبض هذه الآلاف حتى فقدتها الى الأبد . أما القرية وأما المنزل الرخى الذى كانت تملكه فى المدينة ، وهما جزء من البائنة ، فقد ظل الرجل زمنا طويلا يحاول بجميع الوسائل أن ينقلهما الى ملكيته بسند قانونى ؛ وكان يمكن أن يظفر بذلك حتما لأن ما كانت تشعر به المرأة نحو زوجها من احتقار واشمئزاز بتوسلاته الوقحة التى لا حياء فيها ، وبمطالباته المستمرة التى لا تنقطع ، كان قد حضَّها على أن تتنازل له عن القرية والمنزل سأماً وضجرا ورغبةً فى التخلص منه ، لولا أن أسرة آديلائيدا ايفانوفنا قد تدخلت فى الأمر فى الوقت المناسب فوضعت حدا لمكائد هذا الرجل الجشع . وقد عُرف

من مصدر موثوق أن معارك حقيقية قد نشبت بين الزوجين ، وادعى بعضهم أن الغالب المنتصر فى تلك المعارك لم يكن فيدور بافلوفتش بل آديلائيدا ايفانوفنا ، المرأة السمراء ذات الطبع الحار والارادة الجريئة والمزاج النزق والجسم القوى قوة مدهشة . وقد انتهى الأمر بالزوجة الى هجر المنزل والفرار من عند فيدور بافلوفتش مع طالب كان يعمل مربيا ويعيش فى فقر مدقع وبؤس مهلك ، تاركةً لزوجها أمرَ الاهتمام بالصغير ميتيا الذى كان يومئذ فى السنة الثالثة من عمره . وسرعان ما استغل فيدور بافلوفتش هذه الفرصة فأسكن فى منزله نساءً من كل نوع ، وأخذ يتعاطى الشراب بغير رادع ولا قصد . وفى أثناء ذلك أخذ يطوف فى أرجاء الاقليم متباكيا شاكيا من أن آديلائيدا ايفانوفنا قد هجرته ، حاكيا شقاءه لجميع الناس . وكان وهو يفعل ذلك لا يتورع أن يقصَّ عن حياته الزوجية تفاصيل لا بد أن يحمر الزوج خجلا من قصها . وأغرب ما فى الأمر أنه كان يجد نوعا من اللذة فى أن يمثل أمام الملأ هذا الدور المضحك ، دور الزوج الذى خانته زوجته ، وكأنما كان يسره أن يكون وضعه هذا الوضع ، فهو يصف النازلة التى ألمت به مضيفا اليها مزيِّنا لها ، حتى لقد كان بعضهم يقول له فى معرض السخر منه : «لكأنك يا فيدور بافلوفتش قد نلت ترقية ، فأنت تبدو مسروراً كل السرور رغم ألمك الشديد» . وزعم الكثيرون أن فيدور بافلوفتش يسره أن تتيح له هذه المناسبة فرصة العودة الى تمثيل دور المهرج ، وأنه يتظاهر عامدا بأنه لا يلاحظ ما فى وضعه من أمور تبعث على الضحك ، وذلك من أجل أن يزيد ما يتصف به هذا الوضع من طابع هزلى مضحك . ومن يدرى مع ذلك ؟ لعل جانبا من سذاجة كان له شىء من تأثير أيضا ! انتهى الرجل الى اكتشاف أثر امرأته

الهاربة . لقد كانت المسكينة فى بطرسبرج ، ذهبت اليها مع صاحبها الطالب ، وتحررت فيها تحررا لا يخطر ببالها أن تتراجع عنه . اضطرب فيدور بافلوفتش لهذا النبأ اضطرابا شديدا ، وقرر على الفور أن يسافر الى بطرسبرج دون أن يعرف طبعا هو نفسه الهدف الذى يسعى الى تحقيقه بهذا السفر . وكان يمكن فعلاً أن يسافر الى بطرسبرج لولا أنه حين اتخذ هذا القرار قد شعر بأن من حقه الأكيد أن يسكر سكرا قوياً بغية أن يتشجع على القيام بهذه الرحلة . فى هذا الوقت بالذات بلغ أسرة زوجته خبر موتها فى بطرسبرج . لقد توفيت المرأة فجأة فى غرفة حقيرة تحت السطح من أحد المنازل ، فبعضهم يقول انها ماتت بمرض التيفوس وبعضهم يقول انها ماتت من الجوع . فلما تناهى خبر وفاتها الى مسامع فيدور بافلوفتش كان فى حالة سكر شديد ، فأخذ يركض فى الشوارع رافعا ذراعيه الى السماء صائحا بأعلى صوته : «الآن حررت عبدك يا رب !» ذلك ما رواه بعضهم ، ولكن فى رواية أخرى أنه حين علم بالنبأ أخذ ينتحب انتحاب طفل صغير ، فاذا رآه الرائى أخذته به شفقة رغم ما يوقظه فى النفس من اشمئزاز . وقد تكون الروايتان كلتاهما صحيحتين على كل حال . فلعل الرجل قد اغتبط بما ظفر به من حرية ، ولكنه فى الوقت نفسه بكى صادقا على تلك التى وهبت له هذه الحرية . ان فى البشر — وحتى فى أعتى المجرمين — من السذاجة والطيبة فوق ما قد نتخيل . وهذا يصدق علينا نحن أيضا .

٢

كيف تخلص من ابنه الأول

ليس من الصعب طبعا أن نتخيل كيف يقوم مثل هذا الرجل بواجباته أباً ومربياً . لقد تصرف ، من حيث هو أب ، التصرف المتوقع منه : أى أنه لم يعبأ قط بالطفل الذى ولد له من آديلائيدا ايفانوفنا ، وأنه جهله جهلاً تاما . لا لأنه يضمر للصغير كرهاً ويحمل له حقداً من حيث أنه زوجُ خانته امرأته ، بل لسبب بسيط جدا هو أنه قد نسيه نسيانا تاما . وبينما كان الأب يزعج الناس بشكاواه وبكائه ، مع اتخاذه منزله مكانا للفسق فان خادما وفيا أمينا اسمه جريجورى قد حنا على الصغير ميتيا ، الذى كان عمره عندئذ ثلاث سنين ، وضمه اليه وعنى به ، فلولا أن هذا الخادم قد تولى أمر الصبى لما وُجد حتى من يغير له ملابسه . زد على ذلك أن أسرة أم ميتيا قد بدا أنها نسيت الصبى هى أيضا فى الآونة الأولى . كان جدُّ الصبى ، وهو الشيخ ميوسوف ، أبو آديلائيدا ايفانوفنا ، قد بارح هذا العالم الى العالم الآخر ، وكانت أرملته ، جدة الصبى ، التى انتقلت الى موسكو ، تعانى من وطأة المرض . أما أخوات آديلائيدا ايفانوفنا فكن قد تزوجن . فكذلك لبث الصبى ميتيا سنةً كاملة مقيما مع الخادم جريجورى فى كوخ يسكنه الخدم . وأغلب الظن أن الأب لو تذكر ابنه فى مناسبة من المناسبات (وهو لا يمكن أن يجهل وجوده على كل حال) لأسرع بطرده الى ذلك الكوخ ، حتى لا يكون الصبى عقبةً فى طريق فجوره . ولكن حدث أن أحد أبناء عمومة المتوفاة آديلائيدا ايفانوفنا ، واسمه بيوتر

ألكسندروفتش ميوسوف ، قد رجع فى ذلك الأوان من باريس . ان بيوتر هذا ، الذى سيعيش فى المستقبل سنين طويلة خارج روسيا ، كان عندئذ شابا فى شرخ الشباب ، وكان رجلا من نوع خاص يختلف كل الاختلاف عن أفراد أسرة ميوسوف : لقد كان مثقفا نشأ وترعرع وتربى فى العاصمة وفى الخارج فكان أوروبيا الى أن أصبح فى أواخر حياته لبراليا على طراز ١٨٤٠ — ١٨٥٠ ؛ وطوال حياته النشيطة كان على صلة بأكثر المفكرين لبرالية وأشدهم تطرفا فى زمانه ، سواء فى روسيا أم فى الخارج ، حتى لقد عرف برودون وباكونين * معرفة شخصية . فلما بلغ خاتمة المطاف من تجواله وترحاله كان يحلو له كثيرا أن يستحضر ذكرى مشاعره أثناء الأيام الثلاثة من ثورة شباط (فبراير) ١٨٤٨ * التى قامت فى باريس ، وأن يُفهم سامعيه فى هذه المناسبة أنه أوشك أن يشارك فى تلك الثورة ، حتى لقد وجد نفسه فوق المتاريس . وكانت هذه الذكرى من أحلى ذكريات شبابه . كان هذا الرجل يملك ثروة مستقلة يمكن أن تقدر فى ذلك العصر بألف نفس * . وكانت أراضيه الممتازة تقع على مقربة من مدينتنا الصغيرة وتتاخم أراضى ديرنا الشهير الذى أقام عليه ميوسوف منذ صدر شبابه ، أى بعد أن آلت اليه هذه الأراضى فورا ، قضيةً طال أمدها فما تنتهى . والقضية تتعلق بحقوق الصيد فى النهر أو حقوق قطع الأشجار فى الغابات ، أو غير ذلك مما لم أعد أذكره ، وهى قضية تافهة فى ذاتها ، ولكن صاحبنا قدَّر أن من واجبه كمواطن صالح وانسان متنور أن يقاضى هؤلاء «الاكليركيين» . فلما علم بمصير آديلائيدا ايفانوفنا التى لا شك أنه كان يتذكرها حتى لقد لاحظها فى الماضى ، ولما علم بوجود الطفل الصغير قرر أن يتدخل فى الأمر رغم ما كان يحمله لفيدور بافلوفتش من احتقار ،

ورغم ما كان يحسه أزاء سلوكه من شعور الاستياء والاستنكار ، وهو شعور طبيعى فى شاب . ففى هذه الظروف انما التقى لأول مرة بفيدور بافلوفيتش فأبلغه صراحةً بغير لف ولا دوران أن فى نيته أن يأخذ على عاتقه تربية الصبى . وقد روى فيما بعد ، خلال سنين طويلة ، كأنما ليبرز اخلاق فيدور بافلوفتش ، أن فيدور بافلوفيتش هذا ، حين سمع كلامه ، بدا عليه فى أول الأمر أنه لا يفهم أىّ صبى يعنى ، وظهر عليه الاندهاش من أن يكون له ابن صغير يسكن فى مكان ما من المنزل . وهبنا سلمنا بأن فيما رواه بيوتر ألكسندروفتش شيئا من مبالغة ، فمما لا شك فيه أنه لم يبتعد عن الحقيقة كثيرا . فمن الحقائق الثابتة أن فيدور بافلوفتش كان طوال حياته يحب أن يمثّل وأن يظهر على حين فجأة فى دور ليس متوقعا ، دون أن يكون هناك داع الى ذلك ، ودون أن يجنى من ذلك نفعاً ، بل ربما لحقه منه ضرر فى كثير من الأحيان كما حدث مثلا فى هذه الحال . وتلك صفة نقع عليها لدى كثير من الناس قد يكونون على جانب عظيم من الذكاء خلافا لفيدور بافلوفتش . وصرَّف بيوتر ألكسندروفتش الأمور بهمة وحزم وحماسة ، فعيِّن آخر الأمر وصياً على الطفل (بالاشتراك مع فيدور بافلوفتش) ، لأن هناك بقية من ميراث خلفته الأم هو منزل وأرض صغيرة . هكذا مضى ميتيا يعيش فى منزل ابن عم أمه ، الذى لم يكن له أسرة فأسرع يعود الى باريس فيقيم فيها اقامة طويلة بعد أن رتب أموره وتقاضى ريع أراضيه ، وعهد بالصبى الى احدى بنات أعمامه وهى سيدة من موسكو . وانتهى به الأمر ، أثناء حياته الباريسية الطويلة ، الى أن ينسى الصبى هو أيضا ، ولا سيما بعد ثورة شباط (فبراير) تلك الشهيرة التى أثرت فى خياله تأثيرا كبيرا حتى أصبح فكره

مشدودا اليها حتى نهاية حياته . وماتت السيدة الموسكوفية ، فانتقل الصبى الى منزل احدى بناتها المتزوجات . ويظهر أنه غيّر عشه بعد ذلك مرةً رابعة ، ولكننى لا أريد أن أفيض فى ذكر هذه التفاصيل الآن ، لا سيما وأننى سأتحدث كثيرا عن هذا الابن الأول من أبناء فيدور بافلوفتش ، وحسبى أن أسوق بعض الاشارات التى لا غنى عنها ، والتى بدونها يستحيل علىّ أن أشرع فى قص هذه الرواية .

فأولا : كان دمترى فيدوروفتش هذا الابن الوحيد من أبناء فيدور بافلوفتش الثلاثة الذى شبّ على الاعتقاد بأنه يملك ثروة لا بأس بها ستئول اليه حينما يبلغ سن الرشد ، فتكفل له الاستقلال . وقد قضى مراهقته والسنين الأولى من شبابه حياةً مضطربة . لم يتم سنى دراسته فى المدرسة الثانوية ، ثم دخل مدرسة عسكرية ، وأرسل بعد ذلك الى القفقاس ، ونال هنالك ترقية . ولكنه تورط فى مبارزة ، فجرد من رتبته ، ثم استرد شاراته ، ثم راح يلهو ويقصف ، فبدد مبالغ لا بأس بها . . . ومع ذلك فانه لم يبدأ بتلقى أموالٍ من أبيه فيدور بافلوفتش الا حين بلغ سن الرشد ، أما قبل ذلك فقد كان يعيش على ديون يتراكم بعضها فوق بعض . ولم يرَ أباه لأول مرة منذ تركه فى طفولته ، ولم يعرفه أن صح التعبير ، الا بعد بلوغه سن الرشد بقليل ، وذلك حين جاء الى مدينتنا يناقش أباه فى أمر ميراثه . ويظهر أنه نفر من أبيه حينذاك ، فلم يمكث عنده الا زمنا قصيرا ، ثم قفل راجعا بعد أن حصل منه على مبلغ من المال ، وأبرم مع أبيه اتفاقا غامضا على أن يرسل اليه أبوه ريع أرضه تباعا ، دون أن يستطيع حمل أبيه على أن يعين له قيمة الأرض وايرادها (هذه نقطة يجب أن تظل ماثلة فى أذهاننا) . وقد أدرك فيدور

بافلوفتش فى تلك اللحظة ، ومنذ سمع الكلمات الأولى التى قالها ابنه (وهذه أيضا نقطة يجب أن نسجلها) أن الفكرة القائمة فى ذهن ميتيا عن ثروته فكرة مغالية وخاطئة . وسر الأب بذلك سرورا عظيما ، لأنه بيَّت أمورا تحقق له مصالحه . لقد استنتج أن الفتى خفيف طائش مندفع تسيطر عليه أهواؤه الجامحة ، وأنه نافد الصبر متعجل ، وأنه الى ذلك يحب اللهو والقصف وأن الشىء الذى يهم هذا الفتى خاصةً هو أن يحصل على بعض المال لاشباع حاجاته الآنية ، فمتى تحقق له ذلك هدأ فورا ، ولو الى حين طبعا . وهذا ما راح فيدور بافلوفتش يستغله ، فكان يتحرر من مطالب ابنه بدفعات زهيدة من المال يرسلها اليه متقطعةً من حين الى حين . حتى اذا نفد صبر ميتيا أخيرا ، عاد الى مدينتنا بعد أربع سنين ، ليسوّى قضية الميراث هذه تسوية نهائية مع أبيه ، فما كان أشد دهشته حين عرف أنه أصبح لا يملك شيئا البتة ، فقد قبض بتلك الدفعات المتعاقبة مبالغ يصعب تحديدها على وجه الدقة ولكنها تتجاوز قيمة الأرض الموروثة على كل حال ، حتى أنه قد يكون مدينا لأبيه الآن وانه بحكم الصفقات التى أبرمها فى التواريخ الفلانية والفلانية أصبح لا يحق له أن يطالب بشىء البتة ! الخ . الخ . . . صُعق الفتى ، وأحسّ بأنه خُدع وغرر به ، وشعر بأن أباه يكذب عليه ، فثارت ثائرته حتى بدا كمن فقد صوابه . ذلك هو الظرف الذى أدى الى الكارثة التى تتألف من سرد قصتها روايتى الأولى التمهيدية ، أو قل البناء الخارجى لتلك الرواية . ومع ذلك ينبغى لى قبل أن أعالج الرواية أن أتكلم عن ابنى فيدور بافلوفتش الآخرين ، عن أخوى ميتيا ، وأن أذكر كيف جاءا الى هذه الحياة الدنيا .

٣

الزواج الثانى وابنا الفراش الثانى

بعد أن تخلص فيدور بافلوفتش من ابنه ميتيا ولماَّ يكد يبلغ الرابعة من عمره ، لم يلبث أن تزوج مرةً أخرى . وقد دام زواجه الثانى هذا زهاء ثمانى سنين . وكانت امرأته الجديدة ، صوفيا ايفانوفنا ، فى هذه المرة أيضا ، شابة فى ريعان الصبا ، من اقليم مجاور ذهب اليه فيدور بافلوفتش فى صحبة يهودى صغير من أجل قضية مقاولة بسيطة . ذلك أن فيدور بافلوفتش ، على استرساله فى اللهو والقصف والشراب والمجون والفسق ، لم ينقطع أثناء ذلك أبدا عن الاهتمام باستثمار رؤوس أمواله ، وقد عرف دائما كيف يصرّف شئونه الصغيرة تصريفا فيه حكمة وتدبر ، ولكن بشىء من النذالة والغش فى كثير من الأحيان طبعا . وكانت صوفيا ايفانوفنا فتاة يتيمة لم تعرف أسرتها يوما . انها ابنة شماس مغمور ، نشأت وترعرعت فى منزل ثرى هو منزل أرملة الجنرال فوروخوف العجوز النبيلة الأصل ، التى كانت تحسن اليها وتربيها وتضطهدها فى آن واحد . لست اعرف جميع التفاصيل ولكننى سمعت من يروى أن هذه البنت الصغيرة التى كانت تعيش فى كنف الجنرالة وكانت مخلوقة مسكينة عذبة دمثة ، قد وجدت ذات يوم تحاول أن تشنق نفسها بحبل علقته بمسمار فى شونة ، من فرط ما ضاقت بقسوة الفورات المستمرة والنزوات المتصلة تصبها على رأسها هذه العجوز التي لم تكن فى الظاهر شريرة ، ولكنها كانت فى حقيقة الأمر امرأةً جعلها الفراغ متسلطة تسلطا لا يطاق ، مستبدة استبدادا أحمق لا يحتمل . وقد خطب فيدور بافلوفتش الفتاة فسألوا عنه ،

فرفضوه . فما كان منه الا أن فعل ما سبق أن فعله فى المرة الأولى ، فعرض على اليتيمة أن يختطفها . وأغلب الظن بل الأرجح أنها ما كانت لتوافق على الهروب معه أبدا لو عرفت آنذاك تفاصيل حياته خيراً مما عرفتها . ولكن السمعة السيئة التى نالها فيدور بافلوفتش لم تكن قد تجاوزت حدود اقليمنا الى الاقاليم الأخرى ، وكانت الفتاة المسكينة فى السنة السادسة عشرة من عمرها لا تعرف الا شيئا واحدا هى أن وجودها فى قاع نهر من الأنهار خير من بقائها فى منزل هذه السيدة المحسنة اليها . هكذا غادرت الشقية بيت محسنة الى بيت محسن . ولم يقبض فيدور بافلوفتش فى هذه المرة كوبيكا واحداً ، لأن الجزالة قد غضبت غضبا شديدا فلم تهب للعروسين شيئا عدا اللعنة . على أن فيدور بافلوفتش لم يكن قد عوّل على الحصول على مال فى هذه المرة ، وانما أغراه ما كانت تتمتع به الفتاة البريئة من جمال أخاذ ، وفتنه ما رآه فى مظهرها من صفاء صعق هذا الرجل الشهوانى الذي كان لا يحفل الا بملذات الحس ، هذا الرجل الساقط الذى لم تجتذبه فى المرأة حتى ذلك الحين الا المفاتن الخسيسة . «ان تينك العينين الصغيرتين البريئتين قد نفذتا الى نفسى عندئذ كسكين» : كذلك اعتاد أن يقول فيما بعد ، وهو يضحك تلك الضحكة الكريهة المعهودة فيه . ومن الجائز أيضا أن ذلك الافتتان بالبراءة لم يكن لدى فاسق مثله الا صورة من صور اللذة الحسية . وقد اعتقد فيدور بافلوفتش ، لأنه لم ينل أى تعويض مالى ، أنه ليس عليه أن يتحرج مع امرأته أى تحرج ، واستغل شعورها بأنها «مذنبة» فى حقه هو الذى «أنقذها من الحبل» ، واستغل من جهة أخرى ما يتصف به طبعها من عذوبة مفرطة واذعان عجيب ، فركل بقدميه أبسط قواعد اللياقة التى توجبها الحياة

الزوجية ، فكان يقيم حفلات الخلاعة والفجور على مرأى منها ، وكان يجيء الى البيت بنساء فاسقات ساقطات . ويجب أن أذكر، فى هذه المناسبة ، كسمة من السمات التى تميز هذه البيئة ، أن الخادم جريجورى ، الانسان المماحك المتجهم الغبى العنيد ، الذى كان قد كره زوجة سيده الأولى ، آديلائدا ايفانوفنا ، قد انحاز فى هذه المرة الى صف السيدة الجديدة ، ودافع عنها ، وكثيرا ما اختصم مع فيدور بافلوفتش فى أمرها بصورة توشك أن لا تكون مقبولة من خادم . حتى لقد اتفق له ذات مرة أن وضع حدا لحفلة خليعة ، مستعملا القوة فى طرد المخلوقات الفاجرة التى تجمعت فى المنزل . وفيما بعد أصيبت هذه المرأة البائسة التى قاست من الارهاب والعذاب ما قاست منذ طفولتها ، أصيبت بنوع من المرض العصبى منتشر خاصةً بين بنات الطبقة الدنيا من الشعب وبين الفلاحات اللواتى يسمّين بسبب هذه الاصابة «كليكوشى» * . ان هذا المرض الذى تصحبه نوبات رهيبة من نوبات الهستريا ، كان يهوى بالمرأة الشابة فى بعض الأحيان الى حالة من الهذيان والخرف . ومع ذلك أنجبت هذه المرأة ابنين ، ولد أحدهما ، وهو ايفان ، بعد الزواج بسنة ، وولد الثانى ، وهو الكسى ، بعد ولادة الأول بثلاث سنين . وحين ماتت ، كان الصغير ألكسى قد دخل السنة الرابعة من عمره . وانى لأعلم ، مهما يبدو لكم هذا الأمر غريباً ، أن ذكرى أمه قد بقيت ماثلة فى ذهنه طوال حياته ، ولو فى صورة تشبه أن تكون حلماً . وقد كان مصير هذين الابنين ، بعد موت أمهما ، شبيهاً بمصير أخيهما الأكبر ميتيا : نسيهما أبوهما نسيانا تاما ، وهجرهما هجرا كاملاً ، وضمهما اليه جريجورى فى كوخه مثلما ضمّ اليه أخاهما من قبل . وهناك ، فى ذلك الكوخ ،

انما اكتشفتهما الجنرالة العجوز المهووسة التى كانت لأمهما محسنةً ومنشّئة . كانت العجوز ما تزال على قيد الحياة ، ولم تستطع خلال تلك السنين الثمانى أن تغفر الاهانة التى ألحقت بها . وكانت طوال تلك الفترة تتسقط أخبار «ربيبتها صوفيا» تفصيلاً ، فلما علمت بنبأ المرض الخطير الذى ألمّ بها ، كما علمت بأنباء البيئة الفاسدة الفاضحة التى اضطرت المسكينة أن تعيش فيها ، قالت مراراً كثيرة ، بصوت عال ، أمام من تعولهن : «لقد استحقت ذلك ، فان الله هو الذى يعاقبها على نكرانها الجميل» .

وبعد موت صوفيا ايفانوفنا بثلاثة أشهر تماما ، ظهرت الجنرالة ذات يوم بشخصها فى مدينتنا الصغيرة واتجهت رأساً الى منزل فيدور بافلوفتش . ولم تمكث عندنا أكثر من نصف ساعة ، ولكنها لم تضع وقتها سدى . كان ذلك فى نحو المساء . ان فيدور بافلوفتش الذى لم تره منذ اختطاف صوفيا مرة واحدة خلال تلك السنين الثمانى قد هبّ الى لقائها الآن وهو فى حالة سكر لطيف . فما كادت تراه حتى صفعته منذ اللحظة الأولى صفعتين قويتين ومدويتين ، دون أن تسترسل فى اية ايضاحات ، ثم أمسكته من شعره وهزته فى مكانه ثلاث مرات . ثم اتجهت الى الكوخ الذى يوجد فيه الطفلان ، دون أن تنطق بكلمة واحدة ، فلما لاحظت بنظرة سريعة أنهما لم يُغسلا ، وأن ملابسهما الداخلية لم تغيّر ، أسرعت تصفع جريجورى أيضا ، وأعلنت له أنها ستأخذ الصبيين الى منزلها . ثم خرجت بهما كما كانا ، ولفتهما بغطاء ، ووضعتهما فى عربتها ، وعادت بهما الى مدينتها . لقد تلقى جريجورى هذه الصفعة كما يتلقاها عبد خاضع مطيع ، دون أن ينطق بكلمة خشنة ، بل لقد رافق السيدة العجوز الى عربتها ، وقال لها وهو ينحنى حتى مستوى

الحزام ، قال لها فى اقتناع كامل وايمان قوى : «ان الرب سيجزيها جزاء حسناً بسبب هذين اليتيمين» ، فصرخت الجنرالة تقول له وهى تنصرف : «أنت مع ذلك أبله !» وبعد أن قلّب فيدور بافلوفتش الأمر على وجوهه المختلفة انتهى الى أن كل شىء قد جرى على ما يرام . ثم لم يضع بعد ذلك أية عقبة تحول دون موافقته الرسمية على أن يُربى الصبيان فى منزل الجنرالة . أما الصفعات التى تلقاها فقد مضى يتباهى بها فى المدينة كلها .

وحدث أن توفيت الجنرالة أيضا بعد ذلك بزمن قصير ، ولكنها أورثت كلاً من الطفلين فى وصيتها مبلغ ألف روبل ، وقد نصت الوصية على أن هذا المبلغ «مخصص لتعليمهما ، فما ينبغى أن ينفق منه شىء الا عليهما ، ولكن على شرط أن يكفيهما حتى يبلغا سن الرشد ، لأن مثل هذا المبلغ كاف لطفلين مثلهما ، فاذا ظن بعض الناس أن هذا قليل فليتفضلوا بتدارك النقص من جيوبهم هم» ، الخ الخ . اننى لم أقرأ وصية الجنرالة ولكن قيل لى انها تضمنت أموراً غريبة من هذا القبيل ، وانها قد كتبت بعبارات طريفة عجيبة . ولكن الوارث الرئيسى الذى آلت اليه أموال الجنرالة كان رجلاً شريفاً هو ايفيم بتروفتش بولينوف سيد نبلاء هذه المقاطعة . وقد كتب الى فيدور بافلوفتش ولكنه لم يلبث أن أدرك أن هذا لن يدفع كوبيكا واحدا فى سبيل تعليم ابنيه (رغم أن فيدور بافلوفتش ما كان ليرفض ذلك رفضاً مباشراً ، وانما هو يقتصر فى مثل هذه الحالة على المماطلة والتسويف ، وربما عمد أحيانا الى التدفق فى أقوال عاطفية) . قرر ايفيم بتروفتش عندئذ أن يهتم باليتيمين شخصيا ، وتعلق تعلقاً خاصا بأصغرهما ألكسى ، فربّاه فى أسرته نفسها خلال سنين . أرجو من القارئ أن ينتبه الى هذه النقطة منذ البداية . لئن

استطاع هذان الشابان أن ينعما فى حياتهما بتربية جيدة وثقافة مناسبة ، فانما يرجع الفضل فى ذلك الى ايفيم بتروفتش هذا الذى كان انسانا يتمتع بطيبة عظيمة وشهامة كبيرة يندر أن نقع على مثلهما فى غيره . انه لم يمسّ الألفى روبل التى ورثها الصبيان من الجنرالة ، فلما بلغا سن الرشد كان كل ألف قد صار بالفوائد ألفين . لقد أخذ الرجل على عاتقه تربية الصبيين ، فأنفق على كل منهما أكثر كثيرا من الروبلات الألف طبعا . لن أدخل هنا فى قصّ تفاصيل حياتهما أثناء الطفولة والمراهقة ، وانما أقتصر مرة أخرى على اشارات لا غنى عنها . فأما عن الابن الأكبر ايفان فأقول انه أصبح مع الأيام مراهقاً يتصف بشىء من التجهم والانطواء . صحيح أنه لم يكن خجولاً ، ولكن كان يبدو أنه أدرك منذ السنة العاشرة من عمره أنه يعيش هو وأخوه فى أحضان أسرة هى أسرة غرباء رغم كل شىء ، وأنهما يُربّيان فى هذه الأسرة من باب الرأفة والاحسان على وجه الاجمال ، وأن أباهما انسان شاذ يضيق المرء ذرعاً حتى بالكلام عنه ، الخ الخ . وقد أظهر هذا الصبى فى وقت مبكر — منذ طفولته الأولى فيما يقال — مواهب عظيمة للتعلم وتفوقا واضحا فى الدراسة . اننى لم أطلع على التفاصيل ، ولكننى أعلم أن الفتى ترك أسرة ايفيم بتروفتش وهو فى نحو الثالثة عشرة من عمره ، فدخل مدرسة ثانوية بموسكو حيث عاش فى «بنسيون» عالم من علماء التربية واسع الخبرة ذائع الصيت فى ذلك الزمان ، كان أحد أصدقاء ايفيم بتروفتش فى طفولته . وقد روى ايفان نفسه فيما بعد أن ذلك كله انما مردّه الى «ما يتصف به ايفيم بتروفتش من حماسة شديدة لأعمال الخير» ، لأن ايفيم بتروفتش قد استقر فى ذهنه أن صبياً عبقرياً لا بد أن يتولى تربيته مرب عبقرى . على أن

ايفيم بتروفتش والمربى العبقرى كانا قد انتقلا كلاهما الى رحمة الله حين أنهى الفتى دراسته الثانوية فانتسب الى الجامعة . وقد تأخر استلام الروبلات الألف التى أوصت بها الجنرالة المهووسة للطفلين والتى صارت بالفوائد ألفين ، تأخر استلامها نتيجةً لسوء تدوين التدابير التى اتخذها ايفيم بتروفتش ، وبسبب أنواع كثيرة من الاجراءات الشكلية والمماطلة التى لا بد منها فى بلادنا . . . لذلك كانت السنتان الأوليان اللتان قضاهما ايفان فى الجامعة حافلتين بالمصاعب والمشقات . لقد اضطر الفتى أن يلتمس رزقه بنفسه أثناء تلك المدة ، مع استمراره على متابعة دراسته . يجب أن نذكر هنا أنه لم يخطر بباله فى لحظة من اللحظات أن يستنجد فى ذلك الظرف بأبيه ، اما عن كبرياء وشمم فى نفسه ، واما عن احتقار وازدراء لأبيه ، واما لأن عقله الهادىء الرصين قد حدّثه بأنه ليس له أن يعوّل على الحصول من أبيه على معونة ذات بال . المهم أن المصاعب لم تفت فى عضد الفتى ولا أضعفت عزيمته ، واستطاع أخيرا أن يجد عملا . أخذ فى أول الأمر يعطى دروسا فى المنازل بأجر زهيد ، ثم استطاع — بالسعى من ادارة تحرير الى ادارة تحرير — أن يكتب للجرائد اليومية مقالات مقتضبة ، فى حدود عشرة أسطر ، عن حوادث الشارع ، مذيلة بتوقيع «شاهد عيان» . وقد أكد المؤكدون أن تلك المقالات القصيرة كان فيها دائما من الفكر المتوقد والفكاهة اللاذعة ما كفل لها أن تصيب نجاحاً سريعاً . بذلك استطاع هذا الشاب أن يبرهن على تفوقه على أولئك الطلاب الكثيرين من الجنسين ، الذين يعيشون دائما فى عوز وفاقة ، ويحاصرون ادارات تحرير شتى الجرائد والمجلات فى عاصمتنا من الصباح الى المساء ، انهم فى العادة لا يحسنون أن يبتكروا شيئاً غير تكرار طلبهم

الأبدى ، وهو أن يكلفوا بترجمة بعض النصوص عن اللغة الفرنسية ، أو أن يقوموا ببعض أعمال النسخ . فلما استطاع ايفان فيدوروفتش أن يصل الى ادارات التحرير دبّر أموره بعد ذلك بحيث يبقى على صلة بها ، ونشر أثناء السنين الأخيرة من دراسته الجامعية مقالات نقدية ودراسات طيبة عرض فيها لأنواع شتى من المؤلفات ، فأخذ يُعرف حتى فى المحافل الأدبية . على أنه لم يظفر ، مصادفة ، بأن يلفت اليه ، على حين فجأة ، انتباه دائرة من القراء أوسع كثيراً من ذلك ، الا فى نهاية تلك الفترة ، فأصبح عدد كبير من القراء يتذكرونه منذ ذلك الحين ولا ينسونه . كان هذا فى مناسبة طريفة جدا . كان ايفان فيدوروفتش قد أنهى دراسته الجامعية ، وكان يتهيأ بالألفى روبل التى يملكها أن يسافر الى الخارج ، حين نشر ذات يوم ، فى جريدة من كبرى الجرائد اليومية ، مقالاً غريبا التفتت اليه حتى أنظار غير المختصين من القراء ، والعجيب أن المقال يعالج موضوعا لا يمت بصلة من الصلات الى ما انصرف اليه الشاب من اختصاص علمي (ذلك أنه قد تخصص فى العلوم الطبيعية) . لقد تناول المقال مسألة القضاء الاكليركى ، التى كانت تثار آنذاك فى كل مكان . فبعد أن ناقش كاتب المقال مختلف الآراء التى وردت فى صدد هذا الموضوع ، أبدى رأيه الشخصى . وقد تميز المقال خاصةً باللهجة التى كتب بها ، كما تميز بالنتيجة التى انتهى اليها ، وهى نتيجة تتصف بأنها جديدة غير متوقعة . ومع ذلك فان عددا كبيرا من أنصار الاكليروس قد عدوا الكاتب مؤيداً لهم ، بينما أخذ أنصار العلمانية ، وحتى الملحدون ، يعربون عن استحسانهم لما تضمنه مقاله . وأدرك بعض أهل الحصافة والذكاء أخيراً أن المقال ، من أوله الى آخره ، لم يكن الا مزحة جريئة ومهزلة ساخرة .

وانما أذكر هنا هذه النقطة التفصيلية لأن المقال قد وصل في حينه الى الدير الشهير الذى يقع على أبواب مدينتنا ، حيث كان حتى قبل ذلك الحين يُبدىَ اهتمام عام بمسألة القضاء الاكليركى . لقد قرىء المقال فى المدينة فأحدث حيرة تامة ؛ حتى اذا عُرف اسم كاتبه اشتدت حماسة الناس ، من حيث أن الكاتب يرجع أصله الى مدينتنا ، ومن حيث أنه ، فوق ذلك ، «ليس الا ابن فيدور بافلوفتش ذاك بعينه» . وها هو ذا كاتب المقال يظهر فى مدينتنا بنفسه فى تلك الآونة نفسها .

ترى ماذا كانت غاية ايفان فيدوروفتش من تلك الزيارة ، ولماذا جاء الى مدينتنا ؟ أذكر جيدا أننى قد ألقيت هذا السؤال على نفسى شاعرا حتى فى تلك اللحظة بشىء من القلق . ان هذه الزيارة المشئومة التى كانت السبب فى وقوع أحداث كثيرة ، قد ظلت فى ذهنى خلال زمن طويل ، بل الى الأبد تقريبا ، أمرا غامضا . انه لشىء غريب ، على وجه العموم ، أن يقرر شاب يبلغ هذا المبلغ من سعة الثقافة وشدة الكبرياء وكثرة الحذر ، فيما يبدو ، أن يقرر على حين فجأة أن يجىء الى منزل يبلغ هذا المبلغ من سوء السمعة ، أن يجىء الى أب كهذا الأب الذى جهله طوال حياته ، ولم يشأ يوما أن يعرف شيئاً عنه ، حتى نسى وجوده ذاته . والفتى يعلم حق العلم مع ذلك أن أباه الذى كان سيرفض قطعاً فى أى ظرف من الظروف أن يعطى ابنه شيئاً من مال لو سأله ذلك ، كان فى خوف متصل من أن ينتهى الامر بابنيه ، ايفان والكسى ، أن يطلبا منه بعض المال واحدا بعد آخر . ورغم ذلك فهذا هو ايفان يسكن منزل أب كهذا الأب ، ويقضى فيه شهرا بعد شهر ، وهذان هما الرجلان يتفاهمان أحسن تفاهم ! ان هذا الأمر لم يدهشنى وحدى ، بل أدهش عددا

آخر من الناس أيضا . وكان بيوتر ألكسندروفتش ميوسوف ، قريب زوجة فيدور بافلوفتش الأولى ، الذى سبق أن تحدثت عنه ، كان فى ذلك الحين يقيم عندنا فى ضيعته التى يملكها بضواحى مدينتنا . فلقد جاء من باريس التى اتخذها مقراً له . ان بيوتر ألكسندروفتش ميوسوف هذا كان من أشد الناس دهشة حين تعرف بالشاب ايفان الذى أثار اهتمامه الشديد ، وأصبح يحس بالمنافسة بينه وبينه في شئون العلم والثقافة العامة ، على شىء من ألم يستشعره خفياً . كان يسر الينا فى كثير من الأحيان أثناء تلك الفترة حين يتحدث عنه ، قائلا : «هذا رجل ذو كبرياء . ولن يصعب عليه أن يجنى رزقه ، والآن ايضا يملك مالا للسفر الى الخارج ، فماذا جاء يفعل هنا ؟ واضح أنه لم يأت الى أبيه ليحصل على مال ، لأن أباه لن يعطيه شيئاً بحال من الاحوال . أما أن يسكر وأن يسترسل فى المجون فذلك ليس من أذواقه وميوله ، ومع ذلك فان الشيخ أصبح لا يستطيع الاستغناء عنه ، من شدة تعلق احدهما بالآخر !» . هذا صحيح . ولقد كان واضحا أن الشاب يؤثر فى أبيه بعض التأثير ، وكان يبدو أن أباه يطيعه فى بعض الأحيان ، رغم أن طبعه كان نزقا للغاية ، ورغم أنه يكون فى بعض المناسبات شرساً ، حتى لقد أخذ الأب يحتشم فى سلوكه قليلاً .

ولم يعلم أحد الا بعد ذلك بزمن طويل ان ايفان فيدوروفتش قد كان من أسباب مجيئه أن أخاه الأكبر دمترى فيدوروفتش قد طلب منه ذلك ليهتم بمصالحه . وفى هذه الفترة بعينها ، أثناء اقامته تلك بمدينتنا ، انما عرف ذلك الأخ الذى لم يكن قد رآه من قبل فى يوم من الايام ، رغم أنه قد أخذ يراسله قبل سفره الى موسكو فى موضوع قضية هامة تتعلق خاصة بدمترى فيدوروفتش .

وسأشرح للقارئ بالتفصيل ماذا كانت تلك القضية ، حين يجيء أوان الكلام عليها . ومع ذلك يجب أن أقول اننى حتى بعد أن اطلعت على هذه الظروف الخاصة ، ظللت أجد سلوك ايفان فيدوروفتش سراً محيّراً ، وظللت أعد زيارته لمدينتنا أمراً لا أجد له تعليلاً ولا تفسيراً .

أضيف الى هذا أن ايفان فيدوروفتش كان يُشعر الناس بأنه يتدخل وسيطاً ومصلحاً بين أبيه وأخيه الاكبر دمترى فيدوروفتش الذى دخل منازعة كبيرة مع الأب بل أقام عليه دعوى قضائية .

أعود فأقول ان هذه الأسرة الصغيرة قد وجدت نفسها تجتمع آنذاك لأول مرة ، فاذا ببعض أفرادها يرى البعض الآخر لأول مرة فى الحياة . ان الابن الأصغر ، ألكسى فيدوروفتش ، هو الوحيد الذى كان يقيم منذ سنة فى مدينتنا التى وصل اليها قبل أخويه . ما أصعب أن أتحدث عن ألكسى هذا فى هذه القصة التى هى تمهيد للرواية ، قبل أن أدخله الى مسرح الأحداث ! ومع ذلك لا بد أن أعزم أمرى على قول بضع كلمات تكون مقدمةً للدخول فى موضوعه أيضا ، ولو لأوضّح ، منذ الآن ، طابعا غريبا جدا تتصف به هذه القصة : اننى مضطر فى الواقع الى أن أقدم بطلى للقارئ منذ أول لحظة لظهوره فى الرواية فى مسوح فتى يتأهب للترهب . انه يعيش فى ديرنا منذ قرابة سنة ، متهيئاً لأن يعتكف فيه الى آخر حياته فيما كان يبدو .

٤

ألیوشا ، الابن الثالث

لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره بعد (لقد دخل أخوه ايفان فى الرابعة والعشرين ، أما أخوهما دمترى فهو يشارف على الثامنة والعشرين) . أريد أن أقول على وجه الاجمال ان الفتى أليوشا لم يكن فيه شىء من تعصب دينى ، لا ولا كان غيبياً اطلاقا فى رأيى ، واذا شئت أن أكشف عن جوهر رأيى فيه قلت : انه ، بكل بساطة ، انسان يفيض قلبه حباً للبشر ، وذلك منذ السنين الأولى من حياته . فلئن اختار طريق الاعتكاف فى الدير ، فما ذلك الا لأن هذا الطريق وحده اجتذبه فى تلك الآونة وبدا له السبيل المثالية التى يجب أن تسير فيها حتى النهاية نفسه المشتاقة الى نور الحب ضدّ ظلمات الكره والبغض فى هذا العالم . أضف الى ذلك أن هذا الطريق لم يجتذبه الا بفضل التقائه فيه بذلك الراهب الشيخ من رهبان ديرنا ، وهو الشيخ «زوسيما ، الذى عدّه الشاب انساناً فذاً وتعلق به عندئذ تعلقا شديدا فيه كل الحرارة الأولى التى تتدفق فى قلبه الظامىء . على أننى لن أنكر أن هذا الشاب كان منذ تلك الآونة غريب الأطوار جداً ، حتى لقد كان كذلك منذ المهد . سبق أن ذكرت ، فى هذا الصدد ، أنه بعد أن فقد أمه فى السنة الرابعة من عمره ، قد ظلت ذكراها ماثلة فى خياله طوال حياته ، فهو يرى وجهها ويرى ملاطفاتها «كأنها حاضرة فى هذه اللحظة نفسها أمامى» . ذلك ما كان يقوله . انكم تعلمون أن ذكرياتٍ من هذا النوع قد ترسخ فى النفس ، حتى فى سن أصغر ، وحتى منذ السنة

الثانية من العمر ، ولكنها لا تكون فى مثل هذه الحالة الا نقاطاً مضيئة تبرز من وسط الظلام ، أو زاوية منفصلةً من لوحة كبيرة انطفأ سائرها وبلعته الظلمات ، باستثناء تلك الزاوية . وذلك بعينه ما حدث له : لقد احتفظ الفتى بذكرى أمسية ساجية من أماسى الصيف ، ونافذة مفتوحة ، وأشعة مائلة ترسلها الشمس الغاربة (وهذه الأشعة المائلة هى ما يتذكره خيراً مما يتذكر أى شىء آخر) ، وأيقونة فى ركن من الغرفة ، وسراج صغير يشتعل أمام الايقونة ، والأم راكعة على ركبتيها ناشجة منتحبة قد ألم بها نوع من الهستريا وأخذت تطلق صرخات حادة وأنات موجعة ، ثم اذا هى تمسكه بذراعيها على حين فجأة وتشده الى صدرها شداً قوياً يؤلمه ، وتبتهل الى السيدة العذراء أن تحميه ، وأن ترعى هذا الطفل الذى كانت تمده الى الأيقونة كأنما لتضعه فى حمى أم الرب . . . وتظهر خادمة الطفل فجأة فى الغرفة ، فيبدو فى وجهها ذعر شديد ، وتسارع تنتزع الطفل من بين يدى أمه . يا لها من لوحة ! لقد انحفرت صورة وجه الأم فى ذاكرة أليوشا فى تلك اللحظة . وهو يؤكد أن الوجه كان مروّعا حتى الجنون ولكنه كان جميلاً جداً ، هذا على قدر ما يستطيع أن يتصوره . ولكن كان يندر أن يعزم أليوشا أمره على الكلام عن هذه الذكرى . لقد كان أليوشا أثناء طفولته ومراهقته قليل الافصاح عن نفسه ، بل لقد كان صموتاً ، لا عن شك وحذر ، ولا عن خجل أو وجل ، ولا عن تجهم فى الطبع والمزاج . . . أبداً . . . بل بسبب شىء خاص فى نفسه ، بسبب همّ داخلى ، شخصى تماما ، لا شأن له بالآخرين ، يبلغ عنده من خطورة الشأن أنه ينسيه حتى وجود الناس . ومع ذلك كان أليوشا يحب البشر . وكان مظهره يدل على أنه عاش حياته كلها فى اندفاعة ثقـة

بالناس ، ومع ذلك لم يعده أحد فى يوم من الأيام امرءاً غراً أو ساذجاً . كان فى نفسه شىء لا أدرى ما هو ، شىء يُشعر الآخرين شعوراً واضحاً (وعلى مدى حياته فيما بعد) بأنه لا يريد أن يحكم على أخيه الانسان ، بأنه يأبى أن يتهم أو يُدين ، وبأنه لن يدين أبدا . حتى لقد كان يبدو أنه يقبل كل شىء دون أن يدينه ، ولكن بمرارة حزينة فى كثير من الأحيان . ووصل من ذلك الى أن لا يدهشه أحد ، وأن لا يخيفه أحد ، وذلك منذ غضارة صباه . وحين بلغ العشرين من عمره ووصل الى منزل أبيه ، الذى كان حقا ماخور فحش وعهر ، كان هذا الفتى المحافظ على عفته وطهارته يقتصر على الابتعاد صامتا اذا شعر بأنه لا يستطيع أن يحتمل رؤية هذا المشهد أو ذاك ، ولكن دون أن يظهر عليه شىء من الاحتقار أو النقد لأى انسان . أما أبوه ، الطفيلى القديم الذى كان لهذا السبب سريعا الى ادراك الاهانة والشعور بها ، فقد استقبله فى أول الأمر بشك وحذر وريبة ، وشعر نحوه بعواطف ليس فيها ود كثير («انه مسرف فى الصمت تجاهى ، مسرف فى التفكير دون أن يقول شيئاً») ، ولكنه أصبح بعد أسبوعين فى أكثر تقدير يعانقه ويضمه الى ذراعيه فى كل لحظة . صحيح أنه كان يفعل ذلك بدموع السكران وعواطف المخمور ، ولكن كان واضحا مع ذلك أنه يحبه حبا صادقـا عميقا ، كما لم يحب رجل من نوعه أحدا . . .

لقد أيقظ هذا الشاب عواطف المحبة والمودة له فى نفوس كل من عرفوه ، وذلك منذ طفولته . وأيام كان يعيش فى منزل المحسن اليه والمربى له ، ايفيم بتروفتش بولينوف ، بلغ من رضى جميع أفراد الأسرة عنه ومن اعجابهم به انهم كانوا يعدونه ابنا من أبناء الأسرة تماما ، رغم أنه قد دخل ذلك المنزل طفلا

صغيرا فهو عاجز عجزاً تاما عن أى مكر أو حساب ، لقد دخل أليوشا ذلك المنزل وهو فى سن لا يمكن الافتراض فيه شيئا من فن الممالأة والتملق والارضاء ، أى فن اجبار الآخرين على حبه . لقد أوتى أليوشا موهبة حمل الآخرين على حبه حبا شديدا بحكم طبيعته ، فالناس يحبونه من تلقاء أنفسهم ، دون أن يحتال هو لذلك . هكذا كان شأنه فى المدرسة أيضا ، رغم أنه كان فى ظاهره من أولئك الأطفال الذين لا بد أن يوقظوا فى رفاقهم الحذر والشك ، وأن يجلبوا لأنفسهم سخريات زملائهم ، بل وعداوتهم فى كثير من الأحيان . لقد كان يتفق لأليوشا كثيراً أن يعتزل رفاقه ، فيغرق فى التأمل . كان أليوشا يحب كثيراً ، منذ طفولته ، أن ينزوى فى ركن من الأركان يقرأ كتاباً من الكتب ؛ ومع ذلك فقد أحبه التلاميذ حباً عظيما ، حتى لقد ظل طوال حياته المدرسية أثير رفاقه غير منازع . كان لا يتحمس الا نادرا ، بل وكان لا يبدو فى العادة مرحاً ، ولكن يكفى أن تنظر اليه حتى تدرك أن ذلك لا يرجع الى تجهمه ، وانما هو انسان ذو نفس هادئة صافية . وكان لا يرغب أبدا فى أن يظهر قيمته لرفاقه ، ولعل هذا هو السبب فى أنه كان لا يخشى أحدا . ولكن الصبية لم يلبثوا أن أدركوا أنه لا يزهو بشجاعته ، بل يظل بسيطا كأنه لا يشعر بشجاعته وجسارته . وكان لا يحتفظ أبدا بذكرى اساءة نالته . وكثيرا ما كان يتفق له أن يبادر الى مخاطبة الشخص الذى ناله بالاساءة ، وذلك بعد وقوع الحادثة بساعة واحدة ، فكان يبدو فى كلامه عندئذ من الثقة والصفاء ما يُشعر المرء بأن شيئاً لم يحدث بين الرفيقين . كان لا يبدو عليه ، فى مثل تلك المناسبات ، أنه كان ينسى الاساءة عرضا أو يغفرها عامدا ، وانما هو يرى أن الاساءة لم تحدث ، فكان ذلك يفتن الصبية

ويسحرهم فورا . ولم يكن فيه الا صفة واحدة أغرت رفاقه ، فى جميع فصول المدرسة ، من أولها الى آخرها ، بأن يمازحوه ، لا عن رغبة خبيثة فى السخرية بل لأن ذلك كان يفرحهم ويشيع فى نفوسهم المرح ، ذلك هو حياؤه الشديد المفرط وعفته . ان الأحاديث التى يتبادلها التلاميذ عن النساء ، والتعابير التى يستعملونها فى هذا المجال ، كانت أمورا لا يطيق الصبى أليوشا أن يسمعها . ومن المؤسف أن هذه الأحاديث وهذه التعابير لا تنفصل عن الحياة المدرسية ولا يمكن استئصالها منها . ورب تلاميذ أطهار النفس والقلب ، رب تلاميذ ما يزالون أطفالا صغارا ، يجدون لذة كبيرة فى أن يتحادثوا فى هذه الأمور ، بصوت عال فى كثير من الأحيان ، وأن يصفوا صورا أو مشاهد قد يستحى حتى الجنود فى الثكنات أن يتكلموا فيها . الجنود ؟ ألا أن هؤلاء ليجهلون أو لا يفهمون كثيرا من الأمور التى أصبحت فى أيامنا هذه مألوفة أو شبه مألوفة عند الأطفال الصغار من أبناء الطبقات المثقفة والطبقات العليا من الشعب . والحق أن ذلك لا يجب أن يُعدّ فجورا ، أو حتى استهتارا ، لأنه ليس لديهم صادقا ولا عميقا ، وما هو اذن بالخروج عن الأخلاق حقا ، وانما هو نوع من الاباحية الكلامية الخارجية التى يحلو للتلاميذ أن يعدوها علامة رهافة فى الذوق ، ودليل جراءة خليقة بأن تُقلّد . فلما لاحظ التلاميذ أن هذا «الفتى الشهم أليوشا كارامازوف» يسارع الى سدّ أذنيه حين يدور الحديث على «هذه الأمور» ، أصبح يلذ لهم أن يتحلقوا حوله ، ويأخذوا ينطقون بعبارات بذيئة وهم يبعدون يديه عن أذنيه بالقوة . فكان الفتى عندئذ يتخبط بينهم ، ويرتمى على الأرض ، ويخفى وجهه ، ولكن دون أن ينطق بكلمة ، ودون أن يثور ، وانما هو يتحمل الاساءة صامتا . وانتهى

الامر بالتلاميذ الى أن تركوه وشأنه ، وعدلوا عن معاملته معاملة «بنت» ، حتى أن السخرية حول هذا الموضوع قد حلّ محلها نوع من الرأفة به والعطف عليه . وكان أليوشا من جهة أخرى تلميذا ممتازا ، ولكنه لم يكن أول تلاميذ صفه فى يوم من الأيام .

ظل أليوشا يواظب على مدرسة المقاطعة سنتين بعد موت ايفيم بتروفتش . ان أرملة ايفيم بتروفتش الحزينة التى لا يجد العزاء الى قلبها سبيلاً قد سافرت بعد وفاة زوجها فورا الى ايطاليا ، واقامت هنالك زمناً طويلاً مع أسرتها كلها التى تتألف من نساء فقط . فانتقل أليوشا الى منزل سيدتين تمتان الى أسرة بولينوف بقربى بعيدة ، ولم يكن قد رآهما قبل ذلك ، حتى لقد كان يجهل هو نفسه ما هى الترتيبات التى استقبلته هاتان السيدتان على أساسها . تلك سمة بارزة من سمات طبعه ، هى أنه كان لا يهمه أبدا أن يعرف بأى مال يعيش وعلى نفقة من يعيش ! كان من هذه الناحية يختلف كل الاختلاف عن أخيه الأكبر ايفان فيدوروفتش الذى عاش حياة شديدة البؤس والفقر والعوز خلال السنتين الأوليين من دراسته الجامعية ، وعمل عملاً مضنياً من أجل أن يجنى رزقه ، وشعر منذ الطفولة بكثير من المرارة والمذلة والهوان لأنه كان يأكل خبز البر والاحسان فى منزل الرجل الذى كفله . على أننا لا نستطيع أن نقسو فى الحكم على هذه السمة الغريبة فى طبع ألكسى ، اذ يكفى أن نعرفه ولو قليلاً حتى نقتنع فورا بأنه كان فى شئون المال واحدا من أولئك الشبان المجانين الذين اذا هبط على أيديهم مبلغ ضخم من المال عرضاً لم يترددوا أن يهبوه لأول قادم أو أن ينفقوه فى عمل من أعمال الخير ، أو حتى أن يسلّموه لوغد حاذق متى سألهم ذلك .

وفى وسعنا أن نؤكد أن أليوشا كان يجهل قيمة المال بوجه عام ، وانما يجب أن نفهم هذا الكلام على المجاز لا على الحقيقة طبعا . كان أليوشا اذا أعطى شيئاً من المال ليكون فى جيبه ينفق منه عند الحاجة (وهو لا يطلب شيئا من ذلك فى يوم من الأيام) كان يتفق له اما أن يظل المال فى جيبه أسابيع طويلة لا يعرف ماذا يصنع به ، واما أن ينفقه بلا حساب فاذا بكل شىء يختفى فى غمضة عين . ان بيوتر ألكسندروفتش ميوسوف ، وهو رجل من أكثر الناس دقة فى شئون المال ، ومن أشدهم تقديسا للأمانة البرجوازية ، قد قال عن ألكسى يوما بعد أن لاحظه عن كثب : «لعل هذا الفتى هو الانسان الوحيد فى هذا العالم الذى يمكنك أن تتركه وحيدا بلا مورد فى وسط مدينة كبرى لا يعرفها ، ثم اذا هو لا يهلك من الجوع والبرد أبدا لانه سيأخذه فورا أحدهم فيطعمه ويدبر أموره . . فاذا لم يوجد مثل هذا الشخص فسيدبر أموره بنفسه عندئذ بأيسر طريقة . . ولن يكلفه ذلك أى جهد ولن يحمّله أية مذلة . . والشخص الذى سيضمه اليه لن يشعر بعبئه ، بل لعله سيجد فى ذلك لذة كبرى» .

لم يتم أليوشا دراسته فى مدرسته الثانوية . كـــــان قد بقى عليه أن يقضى فى المدرسة سنة أخرى حتى يتم دراسته فيها ، حين أعلن فى ذات يوم للسيدتين اللتين كان يقيم فى منزلهما أنه سيذهب الى عند أبيه لأمر ينتويه . ندبت السيدتان حظه كثيرا ، حتى لقد حاولتا أن تصداه عن عزمه . ولم تكن الرحلة تكلف نفقة باهظة ، واذ خشيتا أن يرهن ساعته — وهى هدية أهدتها اليه أسرة المحسن اليه قبل سفرها الى الخارج — فقد زوّدتاه بمبلغ وافر من المال ، وأعطيتاه ثيابا جديدة وملابس داخلية . ولكنه رد اليهما نصف المبلغ قائلاً انه يحرص حرصاً

مطلقاً على أن يسافر فى الدرجة الثالثة من القطار . فلما وصل الى مدينتنا أبى أن يجيب عن الأسئلة الأولى التى ألقاها عليه أبوه («ماذا دهاك ، يا بنىّ ، حتى جئت الىّ قبل أن تتم دراستك ؟») ، حتى لقد أظهر من الشرود والتأمل أكثر مما عُهد فيه . ذلك ما قيل . وسرعان ما عُرف أنه كان يحاول أن يعرف مكان قبر أمه . وقد اعترف آنذاك هو نفسه ، على كل حال ، بأن ذلك هو السبب الوحيد الذى دفعه الى المجىء . ولكننى لا أعتقد أن هذا السبب كاف لتعليل رحلته هذه . ولعله كان يجهل هو نفسه فى تلك الآونة ولا يستطيع أن يقول ما هى تلك القوى التى انبجست فجأة فى كيانه ثم صعدت الى سطح نفسه فدفعته دفعاً لا سبيل الى مقاومته فى هذه الطريق الجديدة التى كان يجهلها ولكنه لا يملك أن يتجنبها . لم يستطع فيدور بافلوفتش أن يدله على المكان الذى دفنت فيه زوجته الثانية . انه لم يزر قبرها مرة واحدة منذ شيّع جنازتها ، وقد أصبح بعد انقضاء ذلك العدد كله من السنين لا يتذكر أين دفنت . . .

هنا يجب أن أقول كلمة عن فيدور بافلوفتش . لقد أقام فيدور بافلوفتش قبل هذه الأحداث التى نصفها الآن مدة طويلة بعيدا عن مدينتنا . انه بعد وفاة زوجته الثانية بثلاث سنين أو أربع ، قد سافر الى جنوب روسيا ، واستقر فى آخر المطاف فى أوديسا حيث عاش عدة سنين متصلة . وهناك ، فى أوديسا ، تعرف بعدد كبير من «انواع اليهود» على حد تعبيره ، حتى أصبح يُستقبل لا فى منازل يهود فحسب ، «بل فى منازل عبريين أيضا» . فمن حقنا اذن أن نقدر أنه فى تلك الفترة من حياته انما نمّى وحسّن وجوّد فنه فى تصريف الأعمال وارباء الأموال . ولم يعد الى مدينتنا ليستقر فيها تماما الا قبل وصول أليوشا بثلاث

سنين . وقد لاحظ الذين كانوا يعرفونه أنه قد شاخ كثيرا ، رغم أنه لم يبلغ سن الشيخوخة بعد ، كما اكتسب عادات فيها مزيد مما لا يمكن أن نسميه نبالة بل على الارجح ، وقاحة من ذلك مثلا أن هذا المهرّج القديم أصبح يحاول الآن فى كثير من الغطرسة والعجرفة أن يجعل من الآخرين مهرجين مثله ؛ وأصبح يتعاطى الفحش والفجور والغش لا كما كان يتعاطى ذلك كله فى الماضى ، بل بطريقة أدعى الى مزيد من النفور . ولم يلبث أن فتح فى مديريتنا عدة دكاكين لبيع الخمرة . وواضح أنه كان يملك رؤوس أموال ربما كانت تبلغ مائة ألف روبل أو شيئا قريبا جدا من ذلك . وسارع كثير من سكان مدينتنا ومديريتنا يقرضونه أموالاً ، لقاء رهون ثابتة بطبيعة الحال . وقد ضعف وتراخى فى الآونة الأخيرة ، وأصبح فيما يبدو لا يملك من الاتزان ما كان يملكه منه فى الماضى ؛ وأصبح سلوكه أقل تروياً وتأنياً ووعياً ، فهو ما يكاد يشرع فى أمر حتى يتركه الى غيره ، وهو يبعثر جهوده يمنة ويسرة بلا رابط يربط بينها . وأصبح يسكر مزيدا من السكر ، فلولا خادمه الأمين جريجورى الـــذى دلف الى الشيخوخة كثيرا هو أيضا ، والذى كان يسهر عليه سهر المربى تقريبا ، اذن للقى فيدور بافلوفتش كثيرا من المتاعب والهموم . على أن مجىء ألكسى قد أثر فيه من الناحية النفسية تأثيراً حسنا فيما يظهر ، فكأنه أيقظ فى نفس هذا الرجل الذى شاخ قبل الأوان عواطف كانت مخنوقة منذ زمان طويل . كان كثيرا ما يقول لابنه أليوشا : «هل تعلم يا أليوشا أنك تشبه كليكوشا كثيرا ؟» (كذلك كان يسمى امرأته المتوفاة ، أمّ ألكسى) . واستطاع أليوشا أخيرا ، بفضل جريجورى ، أن يهتدى الى قبر كليكوشا . لقد قاده الخادم فى ذات يوم الى مقبرة المدينة ودلّه

على صفيحة من الحديد غير غالية ولكنها أنيقة ، كانت مهجورة فى ركن بعيد ، وقد نقش عليها اسم المتوفاة وأصلها وسنها وتاريخ وفاتها ، بل لقد كتبت عليها فى أسفل هذه الوقائع بضعة أبيات مقفاة من شعر المناسبات الذى جرت العادة أن تزين بها قبور أبناء الطبقة المتوسطة من الناس . والامر المدهش أن هذه الصفيحة انما كانت قد وضعت فى ذلك المكان بعناية جريجورى الذى أمر بها للمرحومة كليكوشا ودفع ثمنها منه ، وذلك بعد أن سافر فيدور بافلوفتش الى أوديسا . لقد حـــاول جريجورى أن يذكّر مولاه مرارا بهذا القبر ، ولكنه لم يظفر منه بطائل ، وسافر فيدور بافلوفتش غير عابئ بالقبور ، وغير حافل بالذكريات . لم يظهر أليوشا انفعالا خاصا أمام قبر أمه فاكتفى بأن استمع الى ما رواه جريجورى جاداً متعالماً متحذلقاً عن اللوح المعدنى كيف صنعه ، وانطوى على نفسه بضع لحظات خافضا رأسه ثم انصرف دون أن ينطق بكلمة ، ثم لم يعد الى زيارة المقبرة مرة أخرى ربما خلال سنة كاملة . على أن هذا الحادث الضئيل قد أثر فى فيدور بافلوفتش بعض التأثير ، فتصرف تصرفاً لم يكن يُتوقع منه . أخذ ألف روبل دون أن ينبىء أحداً بذلك ، ومضى بها الى ديرنا يسأل أن تتلى صلوات على روح زوجته ، لا زوجته الثانية ، أم ألكسى ، المسكينة كليكوشا ، بل زوجته الأولى آديلائدا ايفانوفنا ، تلك التى كانت تضربه . وفى مساء ذلك اليوم سكر سكراً شديداً وسبّ الرهبان أمام أليوشا . لا شك أن فيدور بافلوفتش كان قليل التدين الى أقصى حد ، ومن المشكوك فيه أن يكون قد أشعل طوال حياته شمعة بخمسة كوبيكات أمام أيقونة . غير أن أفرادا من هذا النوع قد يتفق لهم أن يغزوهم اندفاع عجيب من عواطف مفاجئة وآراء مفاجئة .

سبق أن قلت انه قد تراخى وتغضن . والحق أن وجهه كان يحمل فى تلك الآونة آثاراً تدل دلالة واضحة على طراز الحياة التى عاشها وجوهرها ، فالى الجيوب الطويلة المنتفخة التى كانت قد تشكلت تحت عينيه الصغيرتين اللتين تظلان دائما مرتابتين وقحتين ساخرتين ، والى الغضون الصغيرة العميقة الكثيرة التى كانت تخدد وجهه الذى كان صغيرا ولكنه ملىء بالشحم ، قد أضيف الآن ، تحت ذقنه الدقيقة لغد كبير من لحم سميك مستطيل كأنه كيس صغير ، يضفى على وجهه سيماء شهوانية منفّرة . وكان له أيضا فم كبير نهم منتفخ الشفتين ، تظهر فيه بقايا اسنان صغيرة سوداء توشك أن تكون قد نخرت تماما . فكلما فتح فاه للكلام تناثر منه اللعاب . ولقد كان يحب أن يتندر على وجهه ، ولكنه كان راضيا عنه على كل حال ، فيما يظهر ، كان يلح فى كلامه خاصة على شكل أنفه الذى كان صغيرا دقيقا ولكنه شديد التقوس . كان يقول : «هو أنف رومانى حقا ، فاذا ضممت اليه لغدى رأيت وجه نبيل من نبلاء روما فى عصر الانحطاط» . كان فيدور بافلوفتش يبدو معتزا بذلك .

بعد أن اهتدى أليوشا الى قبر أمه بزمن قصير أعلن لأبيه فجأة أنه ينوى أن يدخل الدير وأن الرهبان مستعدون لاستقباله فيه مبتدئاً . وأضاف الى ذلك قوله ان ذلك هو أعظم أمنياته ، وانه فى هذه اللحظة الخطيرة من حياته يسأله بصفته أباه أن يأذن له بدخول الدير . وكان الشيخ يعلم من قبل أن الراهب العجوز زوسيما الذى انزوى فى الدير واعتكف فيه قد أثر تأثيراً قويا فى «ابنه الوديع» .

قال بعد أن أصغى مطرقاً صامتا الى شروح أليوشا الذى لم يدهشه طلبه هذا مع ذلك :

— لا شك أن هذا الشيخ زوسيما * هو خير أولئــــك الرهبان . . . هِمْ ! . . . ذلك اذن ما تصبو اليه نفسك يا بنى الوديع ! (كان قد شرب ، فهذا فمه يتسع فجأة فى ضحكة سكران عريضة لا تخلو من مكر وخبث) . . . هِمْ ! . . . لقد تنبأت أنا بأنك ستنتهى الى حيث انتهيت ، هل تعلم ؟ هاأنت ذا قد كنت تسعى الى ذلك دائما . انك تملك ألفى روبل هما لك وحدك . . . تلك ذخيرة طيبة . . . أما أنا يا ملاكى فلن أتركك قط ، حتى اننى مستعد ، اذا لزم الأمر ، أن أدفع للدير الآن كل ما سيطلبه . ولكن اذا لم يطلبوا شيئا ، فلن نجبرهم اجبارا ، أليس كذلك ؟ ثم انك لا تحتاج من المال الى أكثر مما يحتاج طائر من طيور الكنارى . . . تكفيك حبتان فى الأسبوع . . . اننى أعرف ديرا يملك ، فى خارج المدينة ، دوراً صغيرة . وجميع الناس يعلمون أن هذه الدور تضم «زوجات الدير» . . . ذلك هو الاسم الذى تسمى به تلك النسوة هناك . . . ان عدد هاته الزوجات ثلاثون فيما أعلم . . . لقد ذهبت الى هناك ، وأعترف أن الأمر شائق ، فى نوعه طبعا ، من ناحية التنوع . ليس ثمة الا عيب وحيد ، هو التعصب القومى ، فالنساء جميعا روسيات ليس بينهن فرنسية واحدة ، مع أن من السهل استقدام أجنبيات ، لأن المال لا يعوز رهبان الدير ، ومتى عرفت الفرنسيات ذلك جئن . . . أما هنا فلا شىء من ذلك ! ليس للدير زوجات . . . وعددهم مائتان هؤلاء الرهبان ! لا شىء هنا الا العفة والشرف . هم أناس أطهار . . أعترف أن . . . هِمْ . . . تريد ، اذن ، أن تكون راهبا ؟ اننى أرثى لحالك حقا يا أليوشا ، صدقنى ! هل تعلم أننى تعلقت بك ؟ . . على كل حال ، رب ضارة نافعة : سوف تدعو لنا الله على الأقل نحن الضالين ،

ذلك أننا قد أثمنا كثيرا على هذه الأرض . اننى أتساءل منذ زمن طويل : «تُرى من ذا الذى سيصلى لى فى يوم من الأيام ؟ هل فى العالم كله انسان يمكن أن يصلى لى ؟» يا ولدى المسكين ، اننى غبى جدا فى هذه الأمور ، لو علمت . . . غبى جدا ، صدقني ولكن مهما أكن غبيا فى هذه الأمور فقد فكرت فيها مع ذلك ، فكرت فيها طويلا . صحيح أننى لم أفكر فيها أحيانا كثيرة ، ولكننى مع ذلك فكرت فيها . قلت لنفسى : «يستحيل أن تنسى الشياطين التقاطى بخطاطيفها حين أموت» ، ثم تساءلت : «خطاطيف ؟ من أين لها الخطاطيف ؟ وممّ صنعت هذه الخطاطيف ؟ ألعلها صنعت من حديد ؟ فاين صنعت اذن ؟ ألعل عندهم اذن مصنعا ؟» ان الرهبان ، هناك ، فى الدير ، يؤمنون مثلا بأن فى الجحيم سقفا . أما أنا فلا مانع عندى من أن أعتقد بوجود الجحيم ، ولكن شريطة أن لا يكون له سقف . اننى أوثر على ايمانهم ايمانا ألطف ، ايمانا أكثر ضياء ، ايمانا أقرب الى مذهب لوثر بمعنى من المعانى . ثم ألا يستوى أن يكون للجحيم سقف وأن لا يكون له سقف ؟ هذه هى المسألة الازلية اللعينة ! ولكن اذا لم يكن ثمة سقف ، لم يكن ثمة خطاطيف أيضا ، وبدون خطاطيـــــف لا تجرى الأمور ، فنعود الى ذلك السؤال نفسه . . من عسى يلتقطنى بعد موتى بخطاطيف ؟ وما عسى يحدث اذا لم يلتقطنى أحد ؟ أين تكون «الحقيقة» عندئذ فى هذا العالم ؟[1] **Il faudrait les inventer** ، من أجلى أنا خاصة * ، من أجلى وحدى ، لأننى مذنب خالع العذار يا أليوشا ، لو علمت ! . .

---

[1] لا بد اذن من اختراعها (بالفرنسية فى الأصل) .

قال أليوشا بصوت عذب جاد وهو يتفرس أباه بانتباه :

ــ لا ليس هناك خطاطيف .

ــ صحيح ، هى أطياف خطاطيف فحسب . أعرف هذا ، أعرف . هذا يذكرنى بفرنسى وصف الجحيم كما يلى :

J'ai vu l'ombre d'un cocher, qui avec l'ombre d'une brosse frottait l'ombre d'une carrosse. »[1]

من أين عرفت يا طائرى الصغير أن ليس ثمة خطاطيف ؟ ان عشت عند الرهبان لتقولنّ غير هذا الكلام . اذهب اليهم على كل حال . ابحث لديهم عن الحقيقة ، فتعال الىّ وحدثنى عنها ، فيكون الرحيل عن الحياة بعد ذلك أسهل علىّ ، لاننى أكون قد عرفت ما ينتظرنى فى الآخرة ! ثم ان الدير مكان يناسبك أكثر من منزلى الذى يعيش فيه عجوز سكير مع هاته النساء . . . رغم أنك لن تتسخ يوماً بهذه الأشياء ، كما لا يمكن أن يتسخ بها ملاك . وان شاء الله هناك أيضا لن تتسخ بأى شىء ، فآذن لك أن تلتحق بالدير لاننى أعتمد على ذلك ليس الذكاء ما يعوزك . ان النار تشتعل ثم تنطفئ . فمتى شفيت رجعت الىّ . لسوف أنتظرك . أنت الانسان الوحيد فى هذا العالم الذى لم يتهمنى ولم يدنّى ، ذلك أشعر به يا صغيرى الطيب الشهم ، وهل يمكن أن لا أشعر به ؟

قال الأب ذلك وأخذت دموعه تهطل . كان عاطفيا : كان خبيثاً وعاطفياً معا .

---

[1] «رأيت طيف حوذى كان ينظف طيف عربة بطيف فرشاة» . (بالفرنسية فى الأصل) .

٥

مشايخ الرهبان

قد يميل بعض قرائى الى الاعتقاد بأن الشاب الذى أتحدث عنه انسان مريض شديد الاندفاع ذو طبيعة فقيرة ، وانه واحد من أولئك الحالمين الشاحبة وجوههم الضعيفة صحتهم الضاوية أجسامهم . والواقع أن أليوشا كان فى تلك الآونة عكس ذلك : مراهقاً فى التاسعة عشرة من عمره فياض العافية مورّد الخدين مضىء النظرة ؛ بل لقد كان شديد الجمال قوى البنية . وهو مربوع القامة بنى الشعر ، له وجه متسق القسمات على شىء من الاستطالة ، تسطع فيه عينان رماديتان قاتمتان متباعدتان . انه يبدو شارد الذهن كثير التفكير ، وهو فى الظاهر هادئ هدوءا كبيرا . رب قائل يقول ان تورد الخدين لا ينفى شدة التعصب الدينى ولا ينفى الميل الى الغيبية . ولكننى أعتقد أن أليوشا كان واقعيا أكثر من أى انسان آخر . صحيح انه اكتسب فى الدير ايمانا بالمعجزات وأنه كان صلبا جدا فى هذه الناحية ، ولكن المعجزات لا تستطيع فى رأيى أن تزعزع فكر انسان واقعى . ذلك أن المعجزات ليست هى التي تولد الايمان لديه . ان الواقعى الحقيقى اذا كان غير مؤمن يستطيع دائما أن يجد فى نفسه القوة والقدرة على انكار معجزة من المعجزات ، فاذا أكدت هذه المعجزة نفسها بحادثة لا سبيل الى جحودها آثر أن يشكك فى صدق حواسه على أن يسلم بالواقع . حتى اذا قرر أخيرا أن يعترف بهذا الواقع عده ظاهرة طبيعية كانت الى ذلك الحين مجهولة له لا أكثر . ان المعجزات لا تولد الايمان لدى الواقعى

بالعكس : فان الايمان هو الذى يستدعى لديه المعجزات . فمتى أصبح مؤمنا سلّم بالمعجزات حتما ، بحكم واقعيته نفسها . لقد أعلن الرسول توما « أنه لن يؤمن بشىء قبل أن يرى » ، ولكنه حين رأى قال : «ربّى والهى» . فهل المعجزة هى التى أدت به الى الايمان ؟ أغلب الظن أن لا . . . وأنه انما آمن لأنه كان يريد أن يؤمن ، بل لعله كان مؤمنا ايمانا عميقا ، من قبل ، فى سره منذ كان يقول : «ان لم أبصر . . . لا أومن» .

وقد يقال أن أليوشا كان محدود العقل قليل الذكاء ، لم يتم دراسته فى الكلية ، الخ . فأما أنه قطع دراسته فذلك أمر لا أنكره ، غير أن حسبانه رجلا غبيا أو محدودا أمر فيه ظلم كبير . ولا أستطيع هنا الا أن أكرر ما سبق أن قلته : وهو أنه لم يختر هذه الطريق الا لأنها السبيل الوحيدة التى اذهلته فى تلك الآونة وبدت له السبيل المثالية لخلاص روحه المشتاقة الى النور من عالم الظلمات دفعة واحدة . تذكروا أيضا أن هذا الشاب كان من أبناء عصرنا الأخير بعض الشىء ، أى كان انسانـــا ذا طبيعة صادقة شريفة تريد الحقيقة وتسعى اليها وتؤمن بها . فلما اهتدى اليها أصبح يرغب رغبة عارمة فى أن يقف على خدمتها كل روحه ، وأن يقوم بمآثر من غير ابطاء أو تلكؤ ، يحرقه الشوق الى التضحية بكل شىء من أجلها ، ولو كان هذا الشىء هو الحياة ذاتها . من المؤسف أن الشباب الذين من هذا النوع يدركون أن التضحية بالحياة قد تكون بين جميع أنواع التضحيات أقلها صعوبة فى كثير من الاحوال ، وان التضحية بخمس سنين اوستة من حياتهم فى معمعان الشباب ، من أجل الدراسة الشاقة والتعلم الصعب ، ولو لمضاعفة قواهم بغية ان يخدموا بعد ذلك العقيدة التى يريدون ان ينذروا انفسهم لها ، وبغية أن يحققوا

مآثرهم التى يحلمون بها تحقيقا اتم وأكمل . . . تلك صورة أخرى من التضحية قد تفوق فى كثير من الاحوال قوى هؤلاء الشباب . صحيح أن أليوشا قد اختار طريقاً تعارض الطريق التى كان يسلكها فى ذلك الزمان أكثر معاصريه ، ولكنه اندفع فى هذه الطريق برغبة قوية حارة فى اجتراح المأثرة من غير ابطاء لا تقل عن رغبة الآخرين . انه منذ فكر تفكيرا عميقا فأذهله الايمان بوجود الله وبخلود الروح ، قال لنفسه على نحو طبيعى تماما : «اننى أريد أن أعيش للخلود ، واننى أرفض التسويات وأنصاف الحلول» . ولو قد انتهى الى نتيجة أخرى فاقتنع بأنه لا وجود لله ولا وجود للخلود لما اختلف الأمر ، ولأصبح على الفور ملحدا واشتراكيا (لأن الاشتراكية ليست مسألة الطبقة العاملة فحسب أو ما يطلق عليه اسم «الفئة الرابعة» ، وانما هى قبل كل شىء مسألة الحاد وتجسيد حديث للكفر بالدين . انها مسألة برج بابل التى يحاول البشر أن يشيدوه بلا اله بالضبط ، لا ليرتفعوا من الأرض الى السماوات ، بل لينزلوا السماء الى الأرض) . ما كان لأليوشا أن يتصور أن يظل يعيش كما كان يعيش فى الماضى . لقد قيل : «ان أردت ان تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء . . . وتعال اتبعنى»[1] . فحدث أليوشا نفسه قائلا : «هل فى وسعى أن أهب روبلين فحسب ، بدلا من أن أهب «كل شىء» ؟ واذا أردت أن أستجيب لنداء «اتبعنى» فهل أكتفى بالذهاب الى الصلاة ؟» من الجائز أن يكون الدير المجاور لمدينتنا قد احتل مكانا فى ذكريات طفولته ، وأن تكون أمه قد مضت به الى الدير فى الماضى للصلاة ، ومن الجائز أن تكون رؤيا الأشعة

---

(١) انجيل متى ـــ الاصحاح التاسع عشر ، ٢١ .

المائلة ترسلها الشمس الغاربة أمام الأيقونة التى كانت ترفع أمه ذراعها نحوها وتمده اليها ، من الجائز أن تكون هذه الرؤيا قد أثرت عليه أيضا . ومهما يكن من أمر فقد جاء الى مدينتنا فى ذلك الوقت مفكراً حالماً ، وربما للاستطلاع وحده ، وربما ليرى هل يعطى هنا «كل شىء» أم يعطى روبلين فحسب . وفجأة التقى فى الدير بشيخ الرهبان ذاك . . .

انه شيخ الرهبان زوسيما ، كما سبق أن أشرت الى ذلك . وقد آن لى أن أقول هنا بضع كلمات عن الدور الذى يمثله ، على وجه عام ، شيوخ الرهبان فى أديرتنا . سوف أحاول ، رغم اننى أشعر ، على أسف ، بأننى لست بالعالم الكفء فى هذا المجال ، وبأن معارفى ليست راسخة جدا فى هذه الشئون ، سأحاول أن أشرح الأمر شرحاً موجزاً سطحياً . ويجب أن أذكر قبل كل شىء ان المختصين فى هذه الأمور والمطلعين عليها يؤكدون أن شيوخ الرهبان والمؤسسة التى يمثلونها لم تظهر لدينا فى الأديرة الروسية الا فى عهد متأخر بعض التأخر ، فى عهد لا يكاد يرجع الى أكثر من مائة سنة ، على حين أنها وجدت فى الشرق الأرثوذكسى كله ، وخاصة على جبل سينا وجبل آثوس منذ أكثر من ألف عام . ويقال ان شيوخ الرهبان هؤلاء قد وجدوا فى روسيا فى أزمنة بعيدة ، أو لعلهم وجدوا فيها ، ولكن ما أحاق ببلادنا بعد ذلك من مصائب ، وما حل بها من الغزو التترى والاضطرابات الداخلية وانقطاع الصلات بالشرق بعد سقوط القسطنطينية ، قد قضى على هذه المؤسسة فلم يبق لشيوخ الرهبان وجود . ثم لم تقم هذه المؤسسة مرة أخرى بعد ذلك فى بلادنا الا فى نهاية القرن الماضى على يد أحد كبار المناضلين فى سبيل الايمان ، ألا وهو بائيسى فيلتشكوفسكى ، الناسك (كما

يسمونه) ، وعلى يد مريديه ، غير انها لم توجد خلال تلك المدة كلها ، وهى تقارب مائة عام ، الا فى عدد صغير من الأديرة ، بل لقد أثارت عداوة شديدة لها وصلت أحيانا الى حد الاضطهاد بصفتها بدعةً خارقة . ويقال ان هذه المؤسسة قد نمت خاصة عندنا فى روسيا فى المنسك الشهير ، منسك كوزلسكايا أوبتينا . أما متى دخلت الدير المجاور لمدينتنا ، ومن أدخلها الى هذا الدير ، فذلك أمر أعترف بأننى أجهله ، ولكننى أعرف أن قد تعاقب على هذا الدير ثلاثة شيوخ ، آخرهم زوسيما . كان زوسيما يحس أنه يوشك أن يموت من الضعف والمرض ، وكان لا يُعرف من الذى سيحل محله اذا مات . ان لهذه المسألة شأنا خطيرا بالنسبة الى ديرنا الذى لم يكن يملك شيئا يمكن أن يكفل له الشهرة : فلا رفات قديسين ، ولا أيقونات لها معجزات معترف بها ، بل ولا أساطير جميلة تضمن للدير أن يرتبط بتاريخنا القومى . ان هذا الدير لم يشارك فى أى عمل باهر ، ولم يسهم فى أى عمل وطنى . انه لم يحصل على المجد ولم يصبح شهيرا فى روسيا كلها الا بفضل مشايخه الذين كانوا يجتذبون الحجاج زرافات من جميع أنحاء البلاد ، من مناطق تبعد عن مدينتنا آلاف الفراسخ ، رغبة فى رؤية هؤلاء الرجال والاستماع اليهم . فما هو الشيخ على وجه التحديد ؟ انه انسان يأخذ نفس المرء وارادته وحريته ويُدخلها الى نفسه وارادته . فحين يختار المريد شيخا لنفسه يتنازل عن حريته ، ويلزم نفسه بطاعة مطلقة ، ناسيا ذاته كل النسيان . والذى يختار هذا الامتحان القاسى ، ويرتضى تعلم الحياة على هذه الطريقة الرهبية ، انما يفعل ذلك بارادته ، أملاً فى أن يصل ، بعد محنٍ طويلة ، الى التغلب على ذاته ، والى أن يكتسب هكذا ، بالطاعة المتصلة المستمرة ،

الحرية المطلقة ! أى يتخلص من ذاته ويفلت من مصير أولئك الذين يطوّفون فى طريق الحياة دون أن يصلوا الى معرفة أنفسهم ، ودون أن يستطيعوا اكتشاف حقيقتهم . ونظام المشايخ هذا لم ينشأ من تأمل مجرد نظرى ، وانما نشأ فى الشرق من ممارسة يرجع عهدها الى أكثر من ألف عام ، قبل أن يدخل زمننا . ان الواجبات التى تشد الراهب الى شيخه تمضى الى أبعد من مجرد «الطاعة» التى كانت سائدة على الدوام فى أديرتنا الروسية أيضا . فان الرابطة التى تربط الراهب بشيخه فى هذا النظام تفترض ثقة دائمة لا حدود لها ، هى نوع من الاعتراف المستمر للشيخ واتصال روحى بينهما أصبح لا يقبل الانفصام بحال من الأحوال . يحكى مثلا أن راهبا مبتدئاً من رهبان هذا النظام ، فى القرون الأولى من المسيحية ، أبى أن يخضع لقاعدة فرضها عليه شيخه ، فترك الشيخ والدير وذهب الى بلد آخر ، ذهب من سوريا الى مصر ، فاشتهر هناك بمزايا رفيعة وأعمال عظيمة ، واستطاع أخيرا أن يظفر بمجد الاستشهاد حين مات فى سبيل الدين . وأخذت الكنيسة تستعد لدفنه على أنه قديس من القديسين ، فما كاد الكاهن يعلن : «يا كفار ، اخرجوا من المعبد» ، حتى ارتفع التابوت الذى يضم رفات الشهيد فجأة وخرج من الكنيسة مسرعاً ، وتكرر ذلك ثلاث مرات . وعُرف أخيراً أن هذا القديس الذى استشهد انما خالف فى الماضى أوامر شيخه وخرج على طاعته وهجره ، فلذلك لا يمكن أن ينال الغفران ، رغم جميع أعماله العظيمة ، ما لم يأذن بذلك شيخه . واستدعى الشيخ ، ولم يمكن دفن الراهب الا بعد أن أعفاه شيخه من واجب طاعته . تلكم مجرد أسطورة قديمة طبعا ، ولكن اليكم قصة حديثة صادقة : اعتكف راهب من الرهبان الذين كانوا يعيشون فى

عصرنا ، اعتكف فى دير بجبل آثوس ، وهذا شيخه يأمره فجأة بأن يترك جبل آثوس هذا الذى ارتبط به الراهب ارتباطا شديدا وتعلقت به نفسه تعلقا عظيما وأصبح يؤثره على كل ما عداه من أرجاء ، لأنه وجد فيه شاطئ الأمان ؛ أمره الشيخ أن يذهب أولا الى بيت المقدس فيحج الى الأماكن المقدسة ، وأن يعود بعد ذلك الى شمال روسيا ، الى سيبيريا . قال له الشيخ : «هنالك مكانك لا هنا» . حزن الراهب حزنا شديدا ، واستبد به كرب خانق ويأس مضن ، فمضى الى القسطنطينية ، وسعى الى رئيس البطارقة ، وتوسل اليه أن يعفيه من واجب الطاعة . ولكن البطريق أجابه بأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك ، رغم رتبته ، وبأنه لا توجد ولا يمكن أن توجد فى العالم أية سلطة يمكنها أن تعفيه من هذا الواجب ، الا شيخه الذى فرضه عليه وألزمه به . هكذا يتمتع المشايخ بسلطة يمكن أن تصبح فى بعض الأحوال مطلقة غير ذات حدود . وذلكم هو السبب فى أن أنصار هذه المؤسسة قد تعرضوا فى كثير من أديرتنا فى أول الأمر لمعارضة شديدة أوشكت أن تستحيل الى اضطهاد . ولكن الشعب أصبح على الفور يجل المشايخ اجلالا كبيرا ويقدسهم تقديسا عظيما . من ذلك مثلا أن مشايخ ديرنا كانوا يستقبلون زوارا يتوافدون عليهم حشودا غفيرة من صغار الناس أو من علية القوم ، يظهرون لهم اكبارهم ويُسرون اليهم ، فى مذلة ، بما يساور نفوسهم من ريب وشكوك ، وبما ارتكبوا من خطايا وآثام ، وبما يقاسون من عذاب وآلام ، طالبين اليهم أن يسدوا اليهم بالنصح وأن يمدوهم بالتوجيه والارشاد . وقد استاء خصوم المشايخ من هذه الحظوة التى نالوها وهذه الثقة التى اكتسبوها فادعوا فيما ادعوا أن هذه الطريقة مستبدة طائشة تفسد قداسة الاعتراف ، مع أن ما كان يبوح به الرهبان

المبتدئون أو الأشخاص العاديون باستمرار لهؤلاء المشايخ لم يكن يتم على أسلوب الاعتراف . غير أن نظام المشايخ هذا قد استقر أخيرا فى بلادنا ، وامتد شيئا فشيئا الى أديرتنا . يجب أن نعترف ، مع ذلك ، أن هذا الأسلوب الذى يرجع عهده الى أكثر من ألف عام ، والذى كان الهدف منه تحقيق اصلاح روحى للانسانية يرفعها من العبودية الى الحرية ، ويحقق لها كمالاً اخلاقيا ، يمكن أن يصبح فى بعض الأحوال سلاحا ذا حدين ، وأن يخلق لدى بعضهم ، لا تواضعا وسيطرة كاملة على الذات ، بل غطرسة خبيثة وعنجهية شيطانية ، أى أن يؤدى الى القيود بدلا من الحرية .

ان الشيخ زوسيما هو الآن فى حوالى الخامسة والستين من عمره ، كان أصلا من الاقطاعيين ، وانخرط فى سالف الزمان ، فى صدر شبابه فى العسكرية ، وعمل ضابطا فى القفقاس . لا شك أن شيئا ما كان ينبع من روحه ، فأحدث فى نفس أليوشا تأثيرا قويا . كان أليوشا يعيش فى الحجرة نفسها التى كان يعيش فيها الشيخ ، وقد عطف الشيخ على أليوشا عطفا كبيرا ، فارتضى أن يكون له ولياً حميما . يحسن أن نذكر هنا أن أليوشا ، رغم أنه يعيش الآن فى الدير ، لم يكن قد ارتبط بعد بأية أصول ، فهو يستطيع أن يغيب عن الدير ما شاء له هواه أن يغيب ، وربما غاب عن الدير أياما بكاملها . ولئن ارتدى مسوح الرهبان ، فلقد فعل ذلك بارادته ، حتى لا يتميز عن الرهبان فى شىء . على أن من الواضح أنه كان يجد فى ذلك رضى وغبطة أيضا . ولعل خيال أليوشا المراهق قد افتتن افتتانا قويا بهالة السلطة ومهابة المجد اللتين كانتا تحيطان بشيخه . ويقال ان زوسيما هذا كان قد اكتسب من طول ما استقبل خلال هذه

السنين الكثيرة كلها جميع أولئك الذين كانوا يجيئون اليه فيفتحون له قلوبهم راغبين رغبة قوية عنيفة فى أن يسدى اليهم بنصائحه أو أن يشفيهم بأقواله ، قد اكتسب قدرة غريبة على معرفة النفوس ، وموهبة عظيمة فى النفاذ الى أعماق القلوب ؛ حتى لقد أصبح فيما يقال ، بعد الذى سمعه من اعترافات وعرفه من أسرار وما أفضى به اليه ذلك العدد الغفير من الناس من شجون قلوبهم ولواعج ضمائرهم الخفية المستترة ، قد اصبح قادرا منذ أول نظرة يلقيها على وجه زائر مجهول على أن يحزر الغاية من مجيئه والرغبة التى تجيش فى نفسه وحتى الآلام الخبيئة التى تعذب ضميره ، فكان بهذه القدرة على التنبؤ يوقظ الدهشة ويبعث الاضطراب فيمن يلقونه لأول مرة ، حتى ليكاد يرمى فى قلوبهم الذعر حين يكتشف سر قلوبهم من قبل أن يفتحوا أفواههم بكلمة واحدة . وقد لاحظ أليوشا مع ذلك أن أكثر الأشخاص الذين كانوا يدخلون على الشيخ دون أن يعرفوه ، من أجل أن يتحدثوا معه حديثا حميما لأول مرة ، كان يبدو عليهم عند وصولهم اضطراب وخوف ، حتى اذا خرجوا بعد ذلك من عنده كان جميعهم أو جميعهم تقريبا يخرج مطمئن البال متهلل الأسارير ، وأن أشد الوجوه ظلاماً وجهامة فى أول الأمر كان عندئذ يشع بضياء السعادة . ومما خطف بصر أليوشا من جهة أخرى أن الشيخ لم يكن قاسيا البتة . بالعكس : لقد كان حين يتحدث الى الناس أميل الى الفرح والمرح . وكان الرهبان يؤكدون أن الشيخ تتعلق نفسه خاصة بأولئك الذين تحمل ضمائرهم عددا أكبر من الآثام ، وأن عاطفته تنصرف الى من هم بين الناس أكثرهم خطايا . صحيح أنه كان بين رجال الدير ، حتى فى نهاية حياة الشيخ ، رهبان يحملون له كرها ، ويشعرون نحوه بحسد ، ولكن هؤلاء كانوا قلة قليلة ،

وكانوا يلزمون الصمت ، رغم أن بينهم شخصيات شهيرة كان لها في الدير نفوذ كبير ، كذلك الراهب الذى كان من أقدم رهبان الدير ، والذى اشتهر بما كان يأخذ به نفسه من صيام عن الطعام والكلام . غير أن أكثر الرهبان قد انحازوا الى الشيخ نهائيا ، وكان بينهم من يحبونه حبا عميقا من صميم القلب ، بل ان منهم من أخلصوا له اخلاصا يوشك أن يكون تعصباً ، فكان هؤلاء لا يترددون أن يعلنوا ، خافضين أصواتهم مع ذلك ، أن هذا الشيخ قديس ، وأنه لا يجوز أن يتطرق الى الأذهان أى شك في أنه قديس ؛ واذ كانوا يتوقعون موته قريبا ، فقد كانوا يتوقعون أن تحدث معجزات مباشرة ، وان ينال الدير شهرة عظيمة في المستقبل القريب بفضل المرحوم . وكان أليوشا أيضا يؤمن ايمانا جازما بما للشيخ من قدرة على المعجزات ، مثلما كان مقتنعا اقتناعا قاطعا بصدق حكاية التابوت الذى اندفع الى خارج المعبد . لقد شهد أليوشا مرارا استقبال زوار يصطحبون أولادهم أو أهلهم المقعدين ، جاءوا يسألون الشيخ أن يضع يديه عليهم وأن يدعو الله لهم ، فما هو الا زمن قصير قد لا يتجاوز يوما واحدا فاذا هم يعودون فيرتمون على قدمى الشيخ شاكرين له أنه شفى مرضاهم ! لم يخطر على بال أليوشا أن يتساءل هل تمّ الشفاء بمعجزة أم كان الشفاء تحسنا طبيعيا فى حالة أولئك المرضى ، لأن ايمانه بما يملكه الشيخ من قدرة روحية كان ايمانا عميقا ، ولأن مجد شيخه قد أصبح فى نظره نصراً شخصيا له . كان قلبه يشعر بفرح عميق ، وكان وجهه يضىء بسعادة عظيمة ، حين كان الشيخ يقترب من جمهرة الناس البسطاء الذين ينتظرونه عند مدخل المنسك ، حاجّين اليه من جميع أرجاء روسيا ، بغية أن يروه وأن ينالوا مباركته : كانوا ينطرحون أرضا أمامه ،

ويبكون ، ويقبلون يديه ، بل ويقبلون الأرض التى سار عليها ويصيحون صيحات الوجد والنشوة . وكانت النساء يمددن اليه أطفالهن أو يجئنه بالكليكوشات المريضات ليشفيهن . فكان الشيخ يحدثهن ، ويتلو دعاء قصيرا ، ويباركهن قبل أن يصرفهن . وقد أصبحت نوبات المرض فى الآونة الأخيرة تبلغ من اضعافه فى بعض الأحيان أن لا يملك من القوة ما يمكنه من ترك حجرته ، فكان الحجاج ينتظرون أحيانا خروجه أياما بكاملها باقين فى الدير . ولم يخطر على بال أليوشا أن يتساءل لماذا يحب الحجاج هذا الشيخ حب العبادة ، لماذا يرتمون على قدميه ويبكون حناناً حين يرون وجهه . كان أليوشا يشعر شعورا قويا بأن نفساً مذعنة كنفس الانسان الروسى البسيط ، نفساً يرهقها العمل والعذاب ، ويضنيها الظلم الأبدى والخطايا اليومية خاصة — خطاياه هو وخطايا العالم — كان أليوشا يشعر أن نفساً كهذه لا يوجد بالنسبة اليها حاجة أقوى ولا عزاء أعظم من أن تملك قدساً أو قديساً تستطيع أن تركع أمامه متعبدة قائلة : «انا نعيش فى الخطيئة والكذب والغواية ، ولكن لا ضير . . ما دام يوجد فى مكان ما على هذه الأرض قديس وانسان هو خير منا ، فهذا الانسان يملك الحقيقة على الأقل ، ويعرف أين هى الحقيقة فلا يمكن اذن أن تهلك الحقيقة فى هذا العالم ، ولسوف نعرفها نحن أيضا فى ذات يوم ، لأنها ستسود العالم ، كما وُعدنا» . كان أليوشا يعلم أن الشعب يحس ويفكر على هذا النحو ، وكان هو يفهم ذلك . فأما أن الشيخ هو القديس وهو الانسان الذى عهد اليه الرب بالحفاظ على الحقيقة للشعب ، فذلك أمر كان أليوشا لا يشك فيه لحظة واحدة ، وكان يؤمن به ايمانا لا يقل عمقاً عن ايمان الفلاحين الباكين وزوجاتهم المريضات أو عن

ايمان الفلاحات اللواتي يمددن صغارهن الى الشيخ ؛ ولعل يقينه من أن الشيخ سيهب للدير بعد وفاته مجداً خارقاً كان أرسخ وأقوى من يقين اى راهب آخر . ثم ان قلبه قد أصبح منذ زمن يزخر بمزيد من حماسة عميقة تلهبه يوما بعد يوم . وكان لا يقلقه أن يتصور أن قداسة هذا الشيخ أمر استثنائي فى هذا العالم رغم كل شيء . كان يقول لنفسه : «أى بأس فى هذا ! انه قديس ، وان قلبه يضم سرّ بعث جميع البشر ، فيه تكمن القدرة التى ستكفل انتصار الحقيقة على هذه الأرض فى آخر المطاف ، وسيصير جميع الناس قديسين وسيحب بعضهم بعضا ، فلا فقراء ولا أغنياء ، ولا متكبرين ولا مستذلين ، لأنهم جميعا سيصبحون كأبناء الرب ، وسيسود ملكوت يسوع المسيح» . ذلك كان الحلم الذى يملأ قلب أليوشا .

ويظهر أن وصول أخويه اللذين لم يكن يعرفهما حتى ذلك الحين قد أحدث فى نفس أليوشا أثراً كبيرا . لقد تفاهم مع أخيه غير الشقيق ، دمترى فيدوروفتش ، تفاهما أسرع وأعمق من تفاهمه مع أخيه الشقيق ايفان فيدوروفتش ، رغم أن ايفان قد وصل قبل دمترى . كان يرغب رغبة قوية فى أن يعرف أخاه ايفان عن كثب ، ولكن رغم أن ايفان يقيم بالمدينة منذ شهرين ، ورغم أنهما يلتقيان كثيرا ، لم يحدث بينهما أى تقارب حقيقى : فأما أليوشا فكان يظل صامتاً لا يتكلم ، ويبدو أنه ينتظر شيئاً ما أو ينطوى على نفسه فى نوع من الخشية أو من الحرج الداخلى ، وأما ايفان الذى لاحظ أليوشا نظراته الطويلة المتفرسة فى البداية ، فقد بدا أنه سرعان ما عزف عنه فأصبح لا يهتم به . ولاحظ أليوشا ذلك بشىء من الارتباك . وكان يعزو قلة اكتراث أخيه الى ما بينهما من فرق فى السن والثقافة . غير أن تعليلا آخر كان

يساور فكره أحيانا ، فكان يتساءل : ألا يمكن أن تكون قلة اكتراث ايفان ناشئة عن سبب ما يزال يجهله ، عن سبب لا يدركه البتة ؟ لقد كان يبدو له ان ايفان مشغول البال دائما بشىء ما ، بمسألة نفسية لعلها خطيرة جدا ، وأنه يتطلع الى بلوغ هدف لعله صعب جدا ، فما يتسع وقته كثيرا لأن يلتفت الى أخيه وأن يفكر فيه . أفلا يكون هذا هو السبب الحقيقى الوحيد لموقفه منه ، وذهوله عنه ؟ وكان هنالك أمر آخر يقلق أليوشا : ألا يمكن أن يشتمل هذا الموقف على شىء من الاحتقار يشعر به عالم ملحد تجاه راهب مبتدىء غبى ؟ لقد كان أليوشا يعرف تماما أن أخاه ملحد . ان مثل هذا الاحتقار — اذا وجد — قد لا يكدّر أليوشا ، ومع ذلك كان ينتظر ، بقلق غامض تخالطه خشية ، اللحظة التى يقرر فيها أخوه أن يقترب منه . أما دمترى فيدوروفتش فقد كان يتحدث عن أخيه ايفان بكثير من الاحترام ، ويتكلم عليه بلهجة فيها تأثر خاص . ومن دمترى انما عرف أليوشا جميع تفاصيل القضية الهامة التى خلقت بين الأخوين فى الآونة الأخيرة هذه الصلة الحميمة وشدت أحدهما الى الآخر شداً وثيقا . وكانت الحماسة التى يظهرها دمترى فى تقدير أخيه ايفان تكتسب مزيدا من الدلالة فى نظر أليوشا لأن دمترى كان بالقياس الى ايفان رجلا لا يكاد ينعم بأى حظ من ثقافة ، فاذا قارنا بين الأخوين وجدناهما يبلغان من عمق اختلاف أحدهما عن الآخر فى الطبع والشخصية أن من الصعب على المرء أن يتصور انسانين بينهما من شدة التفاوت ما بين هذين الأخوين .

وفى تلك الفترة بعينها انما تم اللقاء العائلى أو قل الاجتماع العائلى فى حجرة الشيخ زوسيما بين جميع أفراد هذه الأسرة المتنافرة ، وذلك حادث كان له فى أليوشا تأثير كبير . الحق أن

الحجة التي اتخذت ذريعة لهذا اللقاء كانت باطلة . ان الخلاف الناشب بين دمترى فيدوروفتش وأبيه فيدور بافلوفتش حول الميراث وتصفية الحساب كان قد بلغ فى تلك اللحظة أوجه ، وان العلاقات المتوترة الى أقصى حدود التوتر بين الأب وابنه كانت قد أصبحت لا تطاق . وان فيدور بافلوفتش هو الذى اقترح — مازحاً فيما يظهر — أن يُعقد اجتماع فى حجرة الشيخ زوسيما بغية الوصول الى التفاهم بروح أقرب الى اللياقة دون اللجوء الى تدخل الشيخ فى الأمر بالضرورة : ذلك أن منزلة هذا الانسان المحترم وشخصيته كفيلتان بأن تؤثرا فى الجميع تأثيرا يهدىء النفوس ويصالح القلوب . وقد تخيل دمترى فيدوروفتش ، الذى لم يسبق له أن زار الشيخ يوما والذى لم يكن يعرفه حتى بالنظر ، تخيل طبعا ان الغرض من هذا الاجتماع انما هو تخويفه بمهابة هذا الشيخ . ومع ذلك قبل دمترى هذا التحدى ، لأنه كان فى سرّه يلوم نفسه على الحدة العنيفة والنزق الشديد فيما كان يوجهه الى أبيه من قارص الكلام وهاجر القول أحيانا كثيرة فى الآونة الأخيرة . ويحسن أن نذكر هنا أنه كان لا يسكن فى منزل أبيه ، كأخيه ايفان فيدوروفتش ، وانما كان يقطن وحيدا فى الطرف الآخر من المدينة . وقد حدث أثناء هذه الظروف أن بيوتر ألكسندروفتش ميوسوف الذى كان يقيم فى مدينتنا آنــذاك ، تبنى الرأى الذى اقترحه فيدور بافلوفتش . انه ، وهو الليبرالى على طراز سنوات ١٨٤٠ — ١٨٥٠ ، المتحرر من العقائد ، الكافر بالأديان ، قد ساهم فى هذه القضية مساهمة فعالة ، ربما عن ضجر وسأم ، وربما عن رغبة طائشة فى السخرية والاستهزاء . وقد اشتهى فجأة أن يرى الدير وأن يرى «قديس» الدير . واذ كانت الدعوى القائمة بينه وبين الدير قد طال عليها الأمد ، واذ

أن النزاع بينه وبين الدير على تعيين حدود أراضيه وحدود أراضى الدير ، وعلى الحقوق الغامضة فى قطع أشجار الغابات وصيد أسماك النهر وغيرها ، لم يكن قد حُسم حتى ذلك الحين ، فقد أسرع ينتهز هذا الظرف متعللا بأنه يريد أن يكلم كبير الرهبان شخصيا ، فعسى أن يكون ذلك وسيلة لتصفية الخلاف بالود دون احتكام الى القضاء . وقد ذكر فى تأييد رأيه هذا أنه اذا دخل الدير على هذه النية الحميدة فيمكن أن يُستقبل استقبالاً ألطف وأكرم من الاستقبال الذى سيستقبل به ، لو ذهب الى الدير بدافع الاستطلاع والفضول لا أكثر . وقد أتاحت هــذه الاعتبارات كلها تحريك بعض المؤثرات فى داخل الدير ، وفعلت فعلها فى الشيخ المريض الذى أصبح منذ زمن لا يكاد يبارح غرفته ، وأصبح يرفض بسبب حالته استقبال زائريه الذين ألفوا أن يفدوا اليه . لقد وافق الشيخ على الاجتماع ، وحُدّد موعد للقاء ، واقتصر الشيخ على أن يقول لأليوشا وهو يبتسم : «من أقامنى عليكما قاضيا أو مقسما ؟»[1] .

حين علم أليوشا بأمر هذا الاجتماع قلق قلقا شديدا واضطرب اضطرابا عظيما . لا شك ان أخاه دمترى هو بين سائر ذويه الذين تقسمهم هذه المنازعات والمشاجرات ، هو الشخص الوحيد الذى يمكن أن يأخذ هذا الاجتماع مأخذ الجد . أما الآخرون فلعلهم لا يذهبون الى الدير الا لبواعث طائشة وأسباب سخيفة قد تسىء الى الشيخ وتجرح شعوره . كان أليوشا يدرك ذلك حق الادراك . فأخوه ايفان والسيد ميوسوف لن يأتيا الى الدير الا بداعى حب الاستطلاع ، وربما بداعى الفضول الفظ الغليظ . أما أبوه فليس بالمستبعد أن يكون فى نيته تمثيل مهزلة ساخرة مهرّجة .

[1] انجيل لوقا ، الاصحاح الثانى عشر ، ١٤ .

ذلك أن أليوشا ان كان يحسن الصمت ، فلقد كان يعرف أباه ، بل كان يعرفه معرفة عميقة . يجب أن أكرر أن هذا الفتى كان أذكى فؤاداً وأنفذ بصيرة مما كان يتخيل أكثر الناس . لذلك أخذ ينتظر يوم اللقاء واجف القلب مهموم النفس . صحيح أنه كان فى قرارة نفسه يتمنى كثيرا أن تنتهى هذه المنازعات العائلية على نحو من الأنحاء . غير أن اهتماماته الأساسية كانت منصرفة الى الشيخ ، فكان يرتعد قلقا عليه ، وحرصا على مجده ، وكان يخشى أن يلحقوا به اهانة أو أن يمسوه بسوء ، وكان يخشى خاصة السخريات اللطيفة المهذبة التى يمكن أن يعمد اليها ميوسوف ، وغمزات الاحتقار التى يمكن أن يدسّها أخوه العالم ايفان ، وكان يتخيل هذا كله سلفا . خطر على باله فى لحظة من اللحظات أن ينذر الشيخ ، أن يقول له كلمتين عن أهله هؤلاء الذين يستعدون لزيارته ، ولكنه بعد أن فكر فى الأمر آثر أن يصمت فلا يقول شيئا ، واقتصر فى عشية اليوم المحدّد للزيارة أن يبلغ أخاه دمترى بواسطة أحد معارفهما أنه يحبه كثيرا وانه يعتمد على وعده . واحتار دمترى فى أمر هذه الرسالة وأخذ يفرض الفروض ويخمن التخمينات فى فهم معناها ، ذلك أنه لا يتذكر أنه قطع على نفسه لأليوشا أى عهد ، ثم أجاب أخاه فى رسالة مكتوبة بأنه سيبذل قصارى جهوده فى سبيل أن يسيطر على نفسه وفى سبيل أن يتجنب أى «صَغارة» ، وأضاف الى ذلك قوله انه على احترامه العميق للشيخ وأخيه ايفان ، واثق ثقة عميقة بأن الأمر لا يعدو أن يكون اما فخاً يُراد له أن يقع فيه ، واما مهزلة منحطة يُراد تمثيلها ، وختم رسالته بقوله : «ومع ذلك فاننى أوثر أن أبلع لسانى على أن أقول كلاما يؤذى هذا الانسان المقدس الذى تجله وتعظمه» . غير أن هذه الرسالة لم تكن كفيلة بأن تطمئن أليوشا .

الباب الثانى

اجتماع فى غير محله

١

الوصول الى الدير

كان ذلك فى صبيحة يوم من أواخر شهر آب (أغسطس) ، يوم مضىء حار . ان لقاء الشيخ قد حدّدت له الساعة الحادية عشرة والنصف تقريبا ، بعد نهاية الصلاة الثانية فورا . ولكن أصحابنا الزائرين لم يروا أن من الضرورى أن يحضروا الصلاة ، فوصلوا الى الدير لحظة انتهاء القداس . كانوا قد ركبوا عربتين . فأما الأولى فهى مركبة أنيقة يجرها حصانان جوادان ، فيها بيوتر الكسندروفتش ميوسوف ، وفتى يصطحبه فى نحو العشرين من عمره ، اسمه بيوتر فومتش كالجانوف ، وهو يمت الى ميوسوف بقربى بعيدة . ان على هذا الشاب أن يدخل الجامعة قريباً ، ولكن ميوسوف الذى كان الشاب يعيش فى تلك الفترة عنده ، يريد أن يصطحبه الى الخارج حيث يستطيع أن يتم دراسته بمتابعة المحاضرات فى جامعة زوريخ أو جامعة فيينا . لم يكن كالجانوف قد عزم أمره واتخذ قراره بعد . فهو الآن واجم مفكر يبدو ذاهلا . هو فتى قوى البنية طويل القامة حلو الوجه ، ولكن نظرته تجمد فى بعض الأحيان جمودا غريبا : كان يتفق له فى بعض الأحيان ، كما يتفق ذلك لجميع

كبار الذاهلين ، أن يحدق الى الناس تحديقا طويلا دون أن يلمح حتى وجودهم . وهو فى العادة كثير الصمت قليل الكلام ، لا يخلو من شىء من خراقة ، ولكنه يتحمس فى بعض الأحيان — اذا خلا الى احد على انفراد — فينطلق عندئذ على سجيته ، ويفصح عن نفسه ، ويضحك دون تحرج ، بل ودون سبب ظاهر . على أن هذه الحماسة تزول بسرعة كما شبت بسرعة . والفتى حسن الهندام دائما ، على شىء من تأنق . وكان يملك آنذاك ثروة مستقلة لا بأس بها ، ولكنه ينتظر مواريث أضخم وأعظم . ولقد كان صديقا لأليوشا .

وأما العربة الثانية فقد ركبها فيدور بافلوفتش وابنه ايفان فيدوروفتش ، وهى عربة عتيقة مهترئة مترنحة مقرقعة ، ولكنها فسيحة ، يجرها حصانان عجوزان أشهبان كانا يلقيان عناء فى اللحاق بمركبة ميوسوف ويتركان لها دائما أن تسبقهما . أما دمترى فيدوروفتش فقد تأخر ، رغم أنه قد أبلغ يوم اللقاء وساعته ، منذ الليلة البارحة . ترك الزائرون عربتيهم قرب السور أمام الفندق واجتازوا أبواب الدير سيرا على الأقدام . يظهر أن أحدا من هؤلاء الزائرين ، باستثناء فيدور بافلوفتش ، لم يسبق له أن رأى الدير قبل اليوم ، أما ميوسوف فانه لم يضع قدميه فى كنيسة من الكنائس منذ ثلاثين عاما . كان ينظر حواليه بشىء من الاستطلاع ، دون أن يتنازل مع ذلك عن التظاهر بعدم الكلفة وقلة الاكتراث . ولكن ما من شىء فى داخل هذا الدير كان يمكن أن يلفت انتباه فكره الملاحظ ، الا تلك المبانى الدينية والمبانى الاقتصادية ، وهى مبان عادية الى أقصى حد . كان أواخر المصلين يخرجون من الكنيسة ويرسمون اشارة الصليب وهم ينزعون قبعاتهم عن رؤوسهم ؛

وهم أناس من عامة الناس بينهم عدد قليل من طبقة اجتماعية أعلى ، وسيدتان او ثلاث سيدات ، وجنرال عجوز جدا . كان هؤلاء جميعا قد نزلوا فى الفندق . وسرعان ما احتشد المتسولون حول أصحابنا الزائرين ، ولكن أحدا لم يعط لهم اية صدقة ، باستثناء بتروشكا كالجانوف ، فقد أخرج من حافظة نقوده قطعة عشرة كوبكات ، وسارع يدسها خلسة مضطربا بعض الاضطراب — لا أدرى لماذا — فى يد احدى هاته الفقيرات وهو يقول لها بصوت لا يكاد يبين : «توزعوها جميعا» . لم يُبد له أحد ملاحظة على ما فعل ، فما كان له اذن أن يضطرب ، ومع ذلك فان صمتهم هذا قد بدا أنه زاد اضطرابه .

استغربوا أن أحدا لم يجىء لاستقبالهم فى الدير ، يظهر أنهم كانوا يتوقعون أن يُنتظروا بل وأن يُستقبلوا استقبالا فيه حفاوة . ألم يتبرع واحد منهم للدير بألف روبل فى الآونة الاخيرة ؟ أليس الثانى منهم رجلا غنيا جدا من أصحاب الأطيان ، عدا أنه على جانب عظيم من الثقافة ، وعدا أن هؤلاء الرهبان جميعا قد يتوقف أمرهم عليه وقد يصبحون رهنا به فيما يتعلق بحقوق الصيد فى النهر اذا جرت القضية مجرى يتفق ودعواه ؟ ومع ذلك لم تجىء أية شخصية رسمية لاستقبال هؤلاء الزوار ! أجال ميوسوف نظرة ذاهلة على أحجار القبور المجاورة للكنيسة ، وهمَّ أن يقول ان أهل هؤلاء الموتى لا بد أن يكونوا قد دفعوا مبالغ طائلة من المال حتى حقَّ لهم أن يدفنوا موتاهم فى مكان يبلغ هذا المبلغ من «القداسة» ، ولكنه صمت ولم يقل شيئا ، ثم اذا بالسخرية اللبرالية تتحول فى نفسه الى انزعاج وغضب فقال فجأة وكأنه يخاطب نفسه :

— لا يعلم الا الشيطان من الذى سنتجه اليه فى هذه

الفوضى . . . وعلينا مع ذلك أن نسرع فان الوقت يمضى . . .

وفى تلك اللحظة اقترب منهم سيد متقدم فى السن ، أصلع ، معسول النظرة . انه يرتدى معطفا فضفاضا من معاطف الصيف . رفع الرجل قبعته ، وقدَّم نفسه اليهم جميعا ، بصوت متعاذب مترقق ينطق الجيم زايا ، قائلا انه الملاَّك ماكسيموف من اقليم تولا . وسرعان ما أدرك حيرة القادمين فقال :

— ان الشيخ زوسيما يقطن الصومعة فى مكان منزو على مسافة أربعمائة قدم من الدير . فيجب للذهاب اليه اجتياز الغابة الصغيرة ، هذه الغابة الصغيرة . . .

فأجاب فيدور بافلوفتش :

— انى أعرف ذلك أيضا ، ولكننا نسينا الطريق اليه ، لأننا لم نجىء الى هنا من زمان طويل .

قال الرجل :

— يجب اجتياز هذا الباب ، ثم السير رأسا فى الغابة . . الغابة الصغيرة . . هيَّا بنا . . هل أستطيع أن . . اننى أنا أيضا ، أنا أيضا . . الطريق من هنا ، من هنا . . .

خرج الجميع من الباب وساروا فى الغابة . كان مالك الأطيان ماكسيموف ، وهو رجل فى نحو الستين من عمره يسير الى جانبهم ، بل قل يكاد يركض الى جانبهم ركضا ، وهو يتفرس فيهم بنوع من استطلاع متشنج لا يطاق ، وقد اتسعت عيناه اتساعا يدعو الى الدهشة .

قال ميوسوف بلهجة صارمة :

— يجب أن أقول لك اننا ذاهبون الى هذا الشيخ لأمور تتعلق بنا وحدنا ، وقد فزنا بالحصول على موعد لمقابلة هذه

«الشخصية» ، وأننا ، مع شكرنا لك على أنك تدلنا على الطريق نسألك أن لا تصحبنا فى الدخول عليه .

— لقد كنت عنده . . كنت عنده . . .

Un chevalier parfait!.. [1]

قال الرجل ذلك وهو يفرقع بأصابعه فى الهواء .

سأل ميوسوف :

— من ؟ من هذا الذى تصفه بأنه [2] chevalier ؟

— الشيخ ، الشيخ العظيم ، هذا الشيخ . . . شرف هذا الدير ومجده . زوسيما . . ذلك الشيخ . . .

وفى تلك اللحظة لحق بجماعة الزوار راهب قصير القامة ، شديد النحول ، شاحب اللون جدا ، يرتدى قلنسوة ، فقطع على مالك الأطيان حديثه المضطرب المفكك . توقف فيدور بافلوفتش وميوسوف . وخاطبهم الراهب يقول بأدب عظيم وهو ينحنى أمامهم حتى ليكاد يبلغ رأسه مستوى الحزام :

— ان الأب الأكبر يرجوكم ، بكثير من التواضع ، أن تشرفوه ، حين عودتكم من الصومعة ، بالمجىء اليه جميعا لتناول طعام الغداء فى الساعة الواحدة بالضبط .

ثم التفت نحو ماكسيموف ، فأضاف يقول له :

— وأنت أيضا مدعو .

هتف فيدور بافلوفتش يقول وقد طار لبه فرحا بهذه الدعوة :

— سأجىء ، سأجىء حتما . . لن أتخلف عن المجىء !

---

[1] انه فارس حقيقى ! (بالفرنسية فى الأصل) .

[2] فارس ؟ (بالفرنسية فى الأصل) .

اعلم أننا قد تعهدنا جميعا بأن نتصرف هنا باحتشام . هل تجيء أنت أيضا يا بيوتر ألكسندروفتش ؟

— سؤال غريب ! أكنت أجيء الى هنا لو لا حرصى على أن أرى جميع عاداتهم ؟ ولكن الشيء الوحيد الذى يقلقنى الآن هو أننى فى صحبتك يا فيدور بافلوفتش . . .

— نعم ! وما رأيكم فى دمترى فيدوروفتش الذى لم يتنازل أن يصل حتى الآن ؟

— ليته لا يصل أبدا ! ألعلك تظن أنه يسرنى أن أجد نفسى مقحما فى جميع هذه القضايا الوسخة ، وأن أحتمل فوق هذا صحبتك ؟

قال ميوسوف ذلك ، ثم أردف يقول وهو يلتفت نحو الراهب :

— اننا نقبل الدعوة ، اشكر الأب الأكبر باسمنا .

فأجاب الراهب :

— أنا باق معكم ، لأننى مكلف باصطحابكم الى الشيخ .

قال مالك الأطيان ماكسيموف مزقزقا :

— أما أنا فذاهب أثناء ذلك الى الأب الأكبر رأسا . أنا ذاهب اليه حالا .

قال الراهب مترددا :

— الأب الأكبر مشغول الآن ، ولكن اذا كنت تحرص على أن تبا . . .

قال ميوسوف بصوت عال بينما كان الملاك ماكسيموف يتجه نحو الدير بخطاه القصيرة السريعة :

— يا للعجوز الصغير المزعج !

فعقب فيدور بافلوفتش فجأة بقوله :

— انه يذكرنى بفون سون ! ٥

— كل شيء يذكرك بشيء آخر . . . أى شبه بينه وبين فون سون ؟ وهل رأيته أنت ، فون سون هذا ؟

— رأيت صورة له . قد لا يشبهه بملامح الوجه ، ولكنه يشبهه بشيء يصعب تحديده . . . هو نسخة طبق الأصل عن فون سون . أنا لا يخطئنى الظن أبدا فى مثل هذه الأمور . تكفينى نظرة واحدة ألقيها على الوجه .

— لعلك على حق ، لا بد أن تكون لك هذه القدرة على كل حال . ولكن لا تنس يا فيدور بافلوفتش ما قلته أنت نفسك منذ قليل : لقد قطعنا على أنفسنا عهدا ليكونَنَّ سلوكنا هنا محتشما . تذكر هذا . راقب نفسك . اننى أطلب اليك ذلك جازما قاطعا . اياك أن تأخذ فى تمثيل دور المهرِّج . اننى أرفض أن يسوَّى هنا بينى وبينك .

قال ميوسوف ذلك ثم أضاف يقول للراهب :

— أرأيت أى نوع من البشر هو ؟ يمينا اننى أخشى أن أذهب فى صحبته الى أناس محترمين .

ارتسمت على شفتى الراهب الرقيقتين الذاويتين ابتسامةٌ ناعمة صامتة لا تخلو من بعض المكر ، ولكنه لم يجب بشيء . لقد كان واضحا كل الوضوح أنه انما يتعمد الصمت اعتزازا منه بكرامته الشخصية . قطَّب ميوسوف حاجبيه مزيدا من التقطيب . وقال يحدث نفسه : «شيطان يأخذ جميع هؤلاء الرهبان ، فليس لديهم سوى مظهر خارجى اكتسبوه عبر قرون ، اما فى الحقيقة فليس سوى دجل وهراء» .

صاح فيدور بافلوفتش يقول :

— هذه هى الصومعة ! لقد وصلنا ! السياج الحديد موصد والباب مغلق !

وأخذ يرسم اشارة الصليب بحركات عريضة أمام صور القديسين التى تزين المدخل فوق الباب وعلى جانبيه .

وقال :

— لكل دير قواعد تجب مراعاتها . هم هنا خمسة وعشرون قديسا على وجه التقريب ، ينشدون الأمن والسلامة والخلاص فى هذا المنسك ، يتفرس بعضهم فى بعض ويأكلون الكرنب . ولكن ما من امرأة واحدة يسمح لها باجتياز هذا الباب . ذلك أعجب شىء هنا ، ولكنه حقيقة . فكيف تعلّل ، رغم هذا ، أن الشيخ يستقبل فى هذا المكان سيدات فى بعض الأحيان كما قيل لى ذلك ؟

بهذا السؤال ختم فيدور بافلوفتش كلامه ، متجها فجأة الى الراهب .

— ان نساء من عامة الشعب توجد هنا فى هذه اللحظة نفسها . تستطيع أن تراهنّ : انهن ينتظرن قرب الرواق راقدات . أما سيدات المجتمع الراقى فقد خصصت لهن فى الرواق ، ولكن على الطرف الآخر من السياج ، غرفتان صغيرتان هذه نوافذهما تراها من هنا . فالشيخ يذهب اليهن من ممر داخلى متى أحس بأنه قادر على ذلك ، ويجتاز السياج فى هذه الحال طبعا . وثمة سيدة من مالكات الأطيان فى مقاطعة خاركوف هى الآن هناك مع ابنتها المريضة تنتظر الشيخ : انها السيدة خوخلاكوفا . أغلب الظن أن الشيخ قد وعد بلقائهما رغم أنه قد بلغ من الضعف منذ زمن أنه أصبح لا يكاد يخرج . .

— هناك اذن ثغرة تؤدى من المنسك الى السيدات .

لا يذهبنّ بك الظن أيها الراهب المحترم الى أن فى كلامى هذا شيئا من غمز ! حاشا . . . فأنا انما أقول هذا الكلام بغير نية البتة ! هل تعلم أن زيارات النساء ، فى جبل آتوس ، ولا شك أن ذلك قد ذُكر لك ، ليست وحدها ممنوعة ، وانما يُمنع هناك أيضا وجود الأناث من أى نوع من أنواع الحيوان . . فلا دجاجة ولا أوزة ولا أية عجلة صغيرة يمكن أن يحتمل وجودها هناك . !

— فيدور بافلوفتش ، اذا استمررت فسأنصرف وأتركك وحدك ! ولئن انصرفت أنا ليُخرجنَّك من هنا جــرا من كتفيك ! انني أحذرك .

— وددت لو أعرف ما الذى يزعجك منى يا بيوتــر ألكسندروفتش ؟

كذلك قال فيدور بافلوفتش ، ثم صاح يقول فجأة وهو يجتاز سياج المنسك :

— انظر الى وادى الورود هذا الذى يعيشون فيه ! . .

حقا . . ان الناظر يرى أزهارا خريفية رائعة نادرة ، وان لم ير ورودا فى هذا الأوان . لقد زُرعت أزهار فى كل ركن خال . وكان واضحا أن يدا ماهرة صناعا هى التى تعنى بالأزهار فى كثير من الحب . ان هناك أحواض أزهار بين القبور وعلى طول جدران الكنائس . والبيت الصغير الذى يضم صومعة الشيخ ، والذى كان مبنيا بخشب ومؤلفا من طابق واحد مع رواق أمام المدخل ، يزدان هو أيضا بالأزهار تطوقه من كل جهة .

— قل لى : هل كان الأمر على هذه الحال فى عهد الشيخ السابق ، الشيخ فارسونوفى ؟ يُقال انه كان يكره الترف

وان الأناقة كانت تغضبه كثيرا حتى ليتفق له أن يرفع عصاه على سيدات .

كذلك قال فيدور بافلوفتش وهو يصعد درجات المدخل .

أجاب الراهب الصغير قائلا :

ـــ كان مظهر الشيخ فارسونوفي يوهم حقا في بعض الأحيان أنه انسان عبيط ، ولكن ما أكثر السخافات والأكاذيب التي قيلت في حقه ورويت عنه ! انه على كل حال لم يرفع عصاه على أحد في يوم من الأيام . انتظروا هنا لحظة يا سادة . سأبلغ الشيخ قدومكم .

اتسع وقت ميوسوف لأن يدمدم قائلا لفيدور بافلوفتش :

ـــ أحذرك آخر مرة يا فيدور بافلوفتش . . . أحسن التصرف ، والا جعلتك تندم . . .

فأجابه فيدور بافلوفتش ساخرا :

ـــ لا أستطيع أن أفهم ما الذي يجعلك ثائر الأعصاب الى هذه الدرجة . أهي خطاياك تعذب ضميرك ؟ يقال ان هذا الشيخ يقرأ في أعين الناس كل ما يثوى في قرارة النفوس . هل يجوز لرجل باريسي تقدمي مثلك أن يقيم هذا الوزن كله لرأي هؤلاء الرهبان ؟ الا أن هذا ليدهشني منك ، هل تعلم ؟

لم يتسع وقت ميوسوف للرد على هذه السخريات ، لأنهم قد دعوا الى الدخول . وكان يشعر ، وهو يدخل ، بنوع من الانزعاج . . .

وجال في رأسه خاطر :

«انني أعلم ما سيحدث الآن . أنا أعرف نفسي . سوف تثور أعصابي ، سوف أغضب . . . سوف أتحمس ، فبذلك أخفض قدري وأغض من قيمة آرائي» .

٢

المهرج العريق

دخلوا الحجرة في نفس الوقت الذي ظهر فيه الشيخ على عتبة مهجعه تقريبا . كان في الحجرة كاهنان من رهبان المنسك ينتظران فيها خروج الشيخ اليهما . ان أحدهما هو الأب القيِّم على مكتبة الدير ، والثاني هو الأب بائيسي . ان الأب بائيسي رجل مريض جدا رغم انه غير طاعن في السن كثيرا ، وهو يعد على جانب عظيم من العلم . وكان هنالك فتى يرتدي زيا مدنيا ، يبدو في الثانية والعشرين من عمره ، قد وقف في ركن من الحجرة (ولقد ظل واقفا حتى نهاية الاستقبال) . انه طالب سيصبح في المستقبل لاهوتيا ، والدير وهذه الفرقة الدينية يهتمان به لسبب من الأسباب ويشملانه بالرعاية والحماية . هو شاب طويل القامة ، نضر المحيا ، عريض الوجنتين ، تضيء وجهه عينان شهباوان طويلتان ضيقتان تعبران عن ذكاء وانتباه . وكان وجهه يفصح عن كثير من الاحترام والتوقير ، ولكن بغير غضاضة ولا مذلة . انه لم يسلِّم على الزائرين الذين دخلوا الحجرة ، دالا بهذا الامتناع على انه لا يعد نفسه ندا لهم ، بل شخصا ثانويا مرؤوسا .

دخل الشيخ زوسيما يصحبه أليوشا ومترهب مبتدئ . نهض الراهبان الكاهنان فسلّما على الشيخ منحنيين له انحناءة عميقة حتى لامست أصابعهم الأرض ، ثم تباركا بالشيخ وقبلا يديه ، فباركهما الشيخ وردّ عليهما التحية منحنيا أمام كل منهما تلك الانحناءة نفسها لامساً بيديه الأرض ، ثم تبارك

بكل منهما . ولقد تم هذا الاحتفال بكثير من الوقار والمهابة ، لا كما يتم طقس من الطقوس المألوفة اليومية ، حتى لقد كانت الحركات التى قاموا بها مشبعة بانفعال صادق وعاطفة حقيقية . ومع ذلك أحسَّ ميوسوف انهم يفعلون كل ذلك بغية ان يتركوا انطباعا لدى المحيطين بهم . وكان ميوسوف فى مقدمة صحبه . وكان يقول لنفسه — وذلك أمر فكَّر فيه طويلا منذ الليلة البارحة — ان عليه من باب اللباقة وحدها ، مهما تكن آراؤه الخاصة ، ان يقترب من الشيخ وأن يتلقى مباركته (ما دامت السنة قد جرت بذلك فى هذا المكان) ، أن يتلقى مباركته على الأقل ما دام لا يريد أن يقبل يده . ولكنه حين رأى هذه التحيات الاحتفالية وهذه القبلات التى طبعها الرهبان على يدى الشيخ لم يلبث أن تراجع عن قراره ، فاكتفى بأن حيَّا الشيخ تحية هادئة رصينة منحنيا له الانحناءة العميقة الى حد ما كالتى ينحنيها رجل مهذب من رجال المجتمع الراقى ثم تقهقر نحو كرسيه واقتفى فيدور بافلوفتش أثره فحاكاه فى كل حركة من حركاته حتى لقد بدا أنه يقلده كتقليد القردة . وسلَّم ايفان فيدوروفتش هو أيضا سلاما رصينا مهذبا ولكنه أيضا ابقى يديه مشدودتين الى جانبيه ؛ أما كالجانوف فقد بلغ من الاضطراب أنه نسى أن يسلّم . وأنزل الشيخ يده التى كان قد رفعها مباركاً ؛ وبعد أن حيَّاهم مرةً أخرى رجاهم أن يجلسوا. صعد الدم الى خدى أليوشا . لقد كان يشعر بالخجل والخزى من ذويه ان ما أوجسه وتنبأ به قد تحقق .

جلس الشيخ على أريكة صغيرة من خشب الماهوغانى ، قديمة الطراز جدا ، مغطاة بجلد ، وأجلس ضيوفه ، باستثناء الراهبين الكاهنين ، صفاً واحدا أمام الجدار المقابل مشيرا

لهم الى مقاعد أربعة من خشب الماهوغانى مغطاة بجلد أسود رث جدا . وجلس الراهبان الكاهنان على الجانبين ، أحدهما قرب الباب والثانى أمام النافذة . أما الطالب وأليوشا والمترهب المبتدئ فقد ظلوا واقفين . ان الحجرة ضيقة قليلة الاتساع تُشعر بأنها عتيقة بالية كل البلى ، والأثاث الذى فيها عادى فقير يقتصر على ما هو ضرورى لا غنى عنه . وهذان أصيصان للزهر يزينان حافة النافذة ، وهذه طائفة كبيرة من الأيقونات تتكدس فى ركن من الغرفة ، احداها للسيدة العذراء ، وهى أيقونة كبيرة جدا يرجع تاريخها ، فى أغلب الظن ، الى عهد سابق على الانشقاق الدينى . وعلى جانبى العذراء صور مقدسة أخرى فى اطارات من معدن لامع ، وبعدها بقليل يرى الرائى تماثيل صغيرة لملائكة ، وبيضا من خزف ، وصليبا كاثوليكيا عاجيا مع Mater dolorosa[1] تضم الصليب بذراعيها ، وعددا من نسخ أجنبية للوحات كبار الرسامين الطليان فى القرون الخوالى ؛ والى جوار تلك الصور الفنية التى لها قيمة كبيرة يرى الرائى عدة صور ليتوغرافية روسية شعبية تافهة تمثل قديسين وشهداء وكهنة كباراً والخ . ، هى من تلك الصور التى تباع فى جميع أسواق البلاد بكوبك واحد . وهناك صور ليتوغرافية أخرى هى وجوه أساقفة من الروس قدماء أو حاليين تزين الجدران الأخرى من الغرفة . طاف ميوسوف على هذه الاشياء «الميرى» بنظرة سريعة ، ثم حدَّق الى الشيخ . ان ميوسوف يعد نفسه ثاقب النظرة ، غير أن ذلك ضعف يمكن أن نغفره له حتما اذا نحن تذكرنا أنه قد بلغ الخمسين من عمره ، وهى سن

---

[1] أم الرب المحزونة (باللاتينية فى الأصل) .

يكون فيها الانسان الذكى الذى ينتمى الى المجتمع الراقى وينعم بمركز وطيد قد تعود أن يحترم نفسه كثيرا ، على غير شعور منه فى بعض الأحيان .

لم يعجبه الشيخ فى الوهلة الأولى . والحق أن فى وجه الشيخ شيئا يمكن أن لا يرضى كثيرين غير ميوسوف أيضا : هو رجل قصير القامة محدودب الظهر مترنح الساقين . عمره خمسة وستون عاما فحسب ، غير أنه يبدو أطعن فى السن بسبب مرضه الذى يُظهره أكبر من عمره بعشر سنين فى أقل تقدير . وان وجهه النحيل الضامر المعروق مخدّد كله بغضون صغيرة تكثر حول العينين خاصة . وليست عيناه الفاتحتـــان بالكبيرتين ، فيهما كثير من الحركة والسطوع ، بحيث لا يرى المرء منهما الا نقطتين مضيئتين . ولم يبق من شعره الا خصلتان شائبتان على الصدغين . أما لحيته المدببة فهى صغيرة دقيقة ؛ وأما شفتاه اللتان كثيرا ما تعبران عن الدهاء فانهما تشبهان خيطين ؛ وأما أنفه فهو دقيق على غير طول ، يشبه منقار طائر صغير .

حدث ميوسوف نفسه قائلا : «ان كل شيء فيه يدل على ان له طبيعة كالحة شرسة ، وعلى أن فيه زهوا سخيفا وكبرياء مسكينة» . وأحس ميوسوف باستياء من نفسه .

ودقت الساعة تقطع الصمت . ان ساعة صغيرة بخسة الثمن كانت معلقة بالحائط ومزوّدة بنواس ، قد ترجع صوتها يدق اثنتى عشرة دقة متتابعة سريعة . فصاح فيدور بافلوفتش يقول :

— هو الموعد المحدد ولمّا يصل ابنى دمترى فيدوروفتش . أرجو المعذرة عنه أيها الراهب المقدس جدا (ارتعش أليوشا حين سمع قول أبيه هذا «أيها الراهب المقدس جدا») . لقد تعودت

أنا أن أكون دقيق المواعيد ، فلم أتأخر عن موعد فى يوم من الأيام دقيقة واحدة ، لأننى أتذكر أن دقة المواعيد هى أدب الملوك . . .

— ولكنك لست ملكا على أقل تقدير . . .

كذلك دمدم يقول ميوسوف الذى كان منذ ذلك الحين لا يكاد يستطيع السيطرة على نفسه . فأجابه فيدور بافلوفتش بقوله :

— صحيح . لست ملكا . ثق يا بيوتر ألكسندروفتش أننى أعلم حق العلم أننى لست ملكا ، والله ! ولكن هذا شأنى دائما : أقول كلاما فى غير محله !

قال فيدور بافلوفتش هذا ثم صاح يضيف بانفعال مفاجئ غريب :

— يا صاحب القداسة ، ان أمامك رجلا هو مهرّج عريق ! كذلك أقدم اليك نفسى . هذه عادة قديمة راسخة وا أسفاه ! ولكن لئن كنت أكذب أحيانا كذبا فى غير محله ، فاننى أفعل ذلك عامدا ، فى سبيل أن أضحك الناس وأن أترضّاهم . أليس من واجب الانسان أن يترضى أخاه الانسان ؟ اسمع . . . منذ سبع سنين مثلا ذهبت الى مدينة صغيرة لعقد بعض الصفقات ، فلم ألبث أن انعقدت الصلات بينى وبين بعض المهرة من تجار المدينة . قررنا أن نزور الايسبرافنك [1] الذى كنا نأمل أن نفوز بمساعدته وكان علينا من جهة أخرى أن ندعوه الى الغداء . استقبلنا الايسبرافنك . انه رجل ضخم طويل أشقر متجهم المظهر والأفراد الذين هم من هذا النوع هم أخطر الناس

---

[1] رئيس الشرطة .

حين يكون الأمر أمر أعمال وصفقات . ان أكبادهم مريضة ، نعم أكبادهم ، هل تفهمون ؟ قررت أنا أن أهجم عليه مجابهةً ان صح التعبير ، فقلت له بلهجة منطلقة هى لهجة رجل من رجال المجتمع : «هلاً تنازلت يا سيدى الايسبرافنك ، فكنت لنا نابرافنك » بمعنى من المعانى ؟» ، فما كان منه الا أن أجاب قائلا : «ماذا ؟ كيف ؟ أى نابرافنك ؟» فأدركت فورا أن كل شىء قد ضاع . صمت الرجل قاسى النظرة كالح الهيئة صعب المراس . حاولت أن أعتذر . قلت : «لقد سمحت لنفسى بمزاحة بريئة بغية أن أشيع المرح فى الجو . وأنت تعلم أن نابرافنك هو اسم أكبر رئيس أوركسترا عندنا ، ونحن ان كنا فى حاجة الى شىء فالى نوع من رئيس أوركسترا يحقق لمشروعنا الاتساق والانسجام . . .» ظننت أننى قدمت له بهذا الكلام تفسيرا معقولا قائما على تشبيه سليم ، أليس هذا صحيحا ؟ فأجابنى قائلا : «عفوا ، أنا ايسبرافنك ، ولست أقبل أى تلاعب بالألفاظ فى موضوع وظيفتى» . قال ذلك وأدار لى ظهره وانصرف . ركضت وراءه صائحا : «أنت الايسبرافنك ! أنت ايسبرافنك لا نابرافنك !» ولكنه قال : «لا تحاول . . . لقد سميتنى نابرافنك ، فحسبنا هذا !» هكذا غرقت صفقتنا فى الماء . . فهل رأيت كيف أنا ؟ ان رغبتى فى أن أكون لطيفا تسىء الىّ دائما فى هذه الحياة . من ذلك أننى قلت فى ذات يوم ، منذ سنين كثيرة ، لشخصية لها نفوذ وتأثير : «زوجتك يا سيدى حسّاسة اذا دغدغت» ، وكنت أقصد بهذه الكلمة معناها المجازى ، كنت أقصد أنها سريعة التأذى اذا أسىء الى كرامتها ، الى مبادئها الأخلاقية . ولكن الرجل أسرع يسألنى فجأة : «أأنت دغدغتها اذن ؟» ولم أملك أن أقاوم

رغبتى فى المزاح ، فما كان منى الا أن قلت له : «والله . . . دغدغتها قليلا ، وهكذا» . . . فليتك رأيت ما أصابنى فى ذلك اليوم من دغدغة ! . . غير أن هذه الحادثة قديمة جدا ، بعيدة العهد جدا ، بحيث لا أستحى الآن أن أرويها . فانظر كيف أسأت الى نفسى دائما فى هذه الحياة !

دمدم ميوسوف يقول باحتقار :

— وانك لتستأنف ذلك فى هذه اللحظة أيضا .

وكان الشيخ يتفرس فيهما صامتا ، واحدا بعد آخر .

— هل يمكن ؟ تصور يا بيوتر الكسندروفتش اننى كنت أعرف ذلك ، وقد تنبأت به منذ فتحت فمى . وكنت أعلم أيضا أنك ستكون أول من يلاحظ هذا . وفى مثل هذه اللحظات ، يا صاحب القداسة ، حين أدرك أن المزحة لم تنجح ، يتصلب خداى فكأنهما يلتصقان بالفكين ، حتى لأشعر من ذلك بتشنجات ! ذلك يرجع عهده الى أيام شبابى ، الى الأيام التى كنت فيها طفيليا أعيش على موائد النبلاء أصحاب الأملاك ، والتمس رزقى بتلك المهنة ! أنا مهرج يا صاحب القداسة ، أنا مهرج حقيقى ، مهرج مفطور على التهريج ، وان شئت فقل يا صاحب القداسة اننى انسان عبيط ! . . . قد تكون الروح التى تحركنى غير طاهرة ، أنا لا أجحد ذلك ، ولكنها روح صغيرة . فلو كانت روحا كبيرة قوية اذن لاختارت لها مسكنا أفضل . على أنها ما كانت لتختارك أنت أيضا يا بيوتر الكسندروفتش ، لأنك كذلك لست بالمسكن الحسن لها ! ومع ذلك فأنا مؤمن ، مؤمن بالله ، لم يساورنى الشك الا فى الآونة الأخيرة ، وهأنا ذا الآن أمامك ، يا صاحب القداسة ، أنتظر كلمة عظيمة . أنا يا صاحب القداسة مثل

الفيلسوف ديدرو . لا شك أنك سمعت أن هذا الفيلسوف ، أيها الأب المقدس ، قد جاء يوما الى المطران افلاطون فى عهد الامبراطورة اكاترينا « ، فما ان دخل عليه حتى أعلن يقول فى برود : «الله غير موجود» . فرفع الرجل العظيم المقدس ابهامه وقال له : «الطائش يقول فى سره : الله غير موجود» ، فأخذ الآخر بهذه الكلمات فاذا هو يرتمي فجأة على قدمى الكاهن صائحا : «آمنت ، آمنت ، عمدونى !» . وسرعان ما تم تعميده على الفور ؛ فالأميرة داشكوفا » اصبحت عرابته ، وبوتيومكين كان عرّابه . . .

قاطعه ميوسوف يقول بصوت يرتعش فيه الغضب ، وكان قد أصبح منذ مدة طويلة عاجزا عن كبح جماح نفسه :

— فيدور بافلوفتش ! هذا لا يطاق ! أنت تعلم تماما أنك تكذب ، وأن هذه القصة السخيفة لا أصل لها ، أنت تعلم ذلك ، ففيم هذا التمثيل ؟

فهتف فيدور بافلوفتش يقول فى حماسة فرحة :

— كنت طول حياتى أشعر شعورا غامضا بأن هذه القصة كاذبة لا أصل لها ! والآن أيها السادة سأقول لكم الحقيقة كلها . غفرانك أيها الشيخ العظيم ! ان هذه النقطة الأخيرة التى ذكرتها عن تعميد ديدرو انما اخترعتها فى هذه اللحظة نفسها ، وتخيلتها وأنا أرويها ، ولم تكن قد خطرت ببالى مرة واحدة من قبل ، وانما أنا أضفتها رغبة فى مزيد من الملاحة . . . اننى أمثّل هذا التمثيل يا بيوتر الكسندروفتش ، لأبدو اكثر لطفاً . ثم اننى لا أدرى أنا نفسى فى بعض الأحيان لماذا أفعل ذلك . أما عن ديدرو ذاك ، وعن قول المطران : «الطائش يقول فى سرّه» ، فتلك قصة سمعت السادة الاقطاعيين

فى هذه المقاطعة يروونها أكثر من عشرين مرة ، وذلك فى شبابى أيام كنت أعيش عندهم ؛ حتى أن عمتك نفسها يا بيوتر الكسندروفتش ، عمتك المحترمة مافرا فومينشنا كانت تحب أن ترويها بين ما كانت تحب أن ترويه من أمور . وجميع الناس مقتنعون حتى هذا اليوم بأن ذلك الملحد ديدرو قد ذهب الى المطران أفلاطون ليناقشه فى مسألة وجود الله . . .

نهض ميوسوف نافد الصبر ، شاعرا أنه فقد كل سيطرة له على نفسه . لقد جن غضبا ، وأدرك أنه أصبح من ذلك مضحكا هو أيضا . ان ما يجرى فى هذه الصومعة لهو فى الواقع أمر مستحيل تماما . فمنذ أربعين عاما أو خمسين تتوافد على هذا المكان ، حتى فى عهود المشايخ السابقين ، حشود كثيرة من الزائرين ، ولكن أولئك الزائرين جميعا بغير استثناء كانوا يجيئون ممتلئين بروح الاحترام والخشوع والتقديس . ان جميع أولئك الذين سُمح لهم بأن يتخطوا عتبة هذه الصومعة كانوا يدركون أنهم نالوا حظوة كبيرة وظفروا بنعمة عظيمة ؛ وان عددا كبيرا منهم كان اذا دخلها ارتمى على الأرض راكعا وظل على هذه الحال الى آخر الزيارة . وان أكثر الزائرين ، حتى أعلاهم مقاماً ، وأغزرهم علماً — وقد كان بينهم أناس يتصفون حتى بالتفكير الحر ، أقول كان أكثر الزائرين الذين يجيئون الى الدير من باب الفضول أو لسبب آخر من الأسباب ، يلزمون أنفسهم بواجب أولى بسيط هو أن يتقيدوا عند دخولهم الى الصومعة جماعةً أو عند دخولهم اليها لمقابلة خاصة ، أن يتقيدوا طوال مدة وجودهم فى هذا المكان المقدس باتخاذ وضع يتصف بأقصى الاحترام والأدب واللباقة ، لاسيما وأن الدير كان لا يطالب بأى مال ، وأن كل شىء فيه يتم محبةً

4-1089

واحسانا من طرف وتوبةً وندامة من طرف آخر ، وبدافع التحرق الى حل مشكلة نفسية صعبة أو تجاوز ساعة أليمة من حياة القلب . كذلك كانت تجرى الأمور دائما ، ثم اذا بفيدور بافلوفتش هذا يندفع فجأة فى تهريج لا يليق بهذا المكان ، تهريج لا بد أن يحدث فى نفوس من يرون هذا المشهد أو فى نفوس بعضهم على الأقل استغرابا شديدا ودهشة أليمة .

فأما الراهبان الكاهنان اللذان ظل وجهاهما هادئين على كل حال فقد كانا يرقبان ردَّ الفعل عند الشيخ بانتباه رصين وقور ، ويبدو عليهما أنهما يهمان أن ينهضا مثل ميوسوف تماماً . وأما أليوشا فقد كان خافضا رأسه مجاهدا مصابرا باذلاً قصاراه حتى لا يبكى . ان ما يدهشه خاصة هو أن أخاه ايفـــان فيدوروفتش ، وهو الوحيد الذى كان أليوشا يعقد أملا عليه والذى كان له نفوذ على أبيهما يمكنه من أن يتدخل فى الأمر ، قد لبث ساكنا على كرسيه ، غاضا بصره ، ينتظر نهاية هذا المشهد بنوع من استطلاع ليس فيه اكتراث أو اهتمام ، كأنه غريب عن هذه القضية لا علاقة له بها ولا شأن له فيها . وأما راكيتين (وذلك هو اسم الطالب) الذى كان أليوشا يعرفه أيضا حق المعرفة ، ويكاد يعده صديقا قريبا جدا ، فان أليوشا لم يجرؤ حتى أن ينظر اليه ، لأنه كان يحزر ما يدور فى فكره من معان وخواطر (وهو الوحيد الذى يحزرها فى هذا الدير على كل حال) .

بدأ ميوسوف يقول وهو يلتفت نحو الشيخ :

— سامحنى . . . لا شك أنك تعدنى شريكا فى هذه المهزلة الحقيرة . ان ذنبى الوحيد هو أننى تصورت أن كل انسان ، حتى ولو كان من نوع فيدور بافلوفتش ، لا بد أن

يحرص على أن يفهم واجباته عند زيارة شخص محترم مثلك . . . فلو كنت تنبأت بأننى سيكون علىَّ أن أعتذر عن مجرد الدخول الى هذا المكان فى صحبته ، اذن . . .

لم يكمل بيوتر الكسندروفتش جملته ، وكان قد بلغ ذروة الاضطراب ، فهم أن يخرج من الغرفة ، ولكن الشيخ قال له وهو ينهض فجأة على ساقيه النحيلتين ويمسك بيوتر الكسندروفتش من يديه ، ويجلسه على مقعده من جديد :

— لا تقلق ، أرجوك . . . هدئ روعك ، أرجوك . . . ان زيارتكم تسرنى كثيرا وتبهجنى بهجة خاصة .

وبعد أن انحنى ، التفت وعاد الى مكانه يجلس على الأريكة الصغيرة من جديد .

صاح فيدور بافلوفتش فجأة يقول :

— تكلم أيها الشيخ العظيم ، قل : هل تؤذيك حرارتى هذه أم لا ؟

وكان فيدور بافلوفتش قد أمسك ذراعى المقعد بيديه كمن يستعد لأن ينهض واثبا اذا جاء جواب الشيخ موجبا لذلك ، فقال له الشيخ بصوت قاطع جازم :

— أرجوك ملحاً أن لا تقلق وأن لا تتحرج . لا تكره نفسك على شىء ، وتصرَّف كما لو كنت فى منزلك . . . واياك أن تشعر بالخزى من نفسك خاصة ، فان شعورك بالخزى من نفسك هو بعينه أصل البلاء .

— أتصرف كما لو كنت فى منزلى ؟ أتريد أن تقول ان علىَّ أن أطلق نفسى على سجيتها ؟ ألا ان هذا لكثير ، بل لأكثر مما ينبغى ، ولكننى أوافق بتأثر واعجاب ! اسمع أيها الأب المبجل ! لا تدفعنى الى اطلاق نفسى على سجيتها ،

لا تجازف فتفعل هذا . . . على اننى لن أمضى بعيدا هذا البعد كله . . واننى أنبهك لكى أحامى عنك . أما فيما عدا ذلك فان كل شىء ما يزال غارقا فى ظلمات الجهل ، رغم ما قاله بعضهم فى وصف طبيعة نفسى . ان هذه الملاحظة تستهدفك أنت يا بيوتر الكسندروفتش ! أما أنت أيها الانسان الذى هو ضياء كله ، فاننى أضع عند قدميك اعجابى مندفعاً بغير حدود !

ثم نهض فرفع يديه الى السماء وقال :

— «طوبى للبطن الذى حملك والثديين اللذين رضعتهما» ، نعم الثديين على الأخص . . . انك حين نصحتنى منذ هنيهة بأن «لا أشعر بالخزى من نفسى ، لأن هذا هو أصل البلاء» ، قد نفذت الى سريرتى وقرأت فى أعماق قلبى . اننى أشعر دائما ، حين أدخل على الناس ، بأننى أخبث من غيرى ، وأن الآخرين جميعا يعدوننى مهرجاً ، فأخاطبهم عندئذ بينى وبين نفسى قائلا : «ليكن . . سأمثل دور المهرج طائعا مختارا ، ولست أخشى رأيكم ، لأننى أعرف أنكم جميعا شر منى وأجدر بالاحتقار والازدراء !» ذلك هو السبب أيها الشيخ العظيم فى أننى أهرج . . . اننى أهرج لشعورى بالخزى ، لشعورى بالخزى وحده . اننى أعربد لاحساسى بالارتياب الدائم . آه . . . ليتنى ، حين أدخل على الناس ، أستطيع أن أكون واثقا من أن كل واحد سيعدنى على الفور خير انسان وأذكى انسان فى العالم ، اذن لأصبحت عندئذ رجلا من أنبل الرجال !

قال ذلك ثم ارتمى راكعا على حين فجأة يقول :

— يا معلم ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ؟ »

انه ليصعب على المرء أن يقول فى تلك اللحظة اهل

كان الرجل ما يزال يمثل ويهرج ، أم كان قد استولى عليه حقاً انفعال كبير ؟

نظر اليه الشيخ وقال له مبتسماً :

— تعرف أنت نفسك ، منذ زمن طويل ، ما الذى يجب عليك أن تعمله ، فليس الذكاء هو ما يعوزك . امتنع عن الاسراف فى الشراب والافراط فى الكلام ، لا تستسلم للفجور ، وتخلَّ خاصة عن عبادة المال . أغلق دكاكين بيع الخمرة ، أغلق دكانين أو ثلاثة منها على الأقل اذا لم يسعك أن تغلقها كلها . وقبل هذا وذاك ، لا تكذب . فذلك أهم شىء .

— ألعلك تشير الى ما رويته عن ديدرو ؟

— لا . . . ليس الأمر أمر ديدرو . فانما الشىء الأساسى أن لا تكذب على نفسك . ان من يكذب على نفسه ، ويرضى أن تنطلى عليه أكاذيبه ، يصل من ذلك الى أن يصبح عاجزا عن رؤية الحقيقة فى أى موضع ، فلا يعود يراها لا فى نفسه ولا فيما حوله ، وهو ينتهى أخيرا ، لهذا السبب ، الى فقد احترامه نفسه واحترامه غيره . واذا أصبح لا يحترم أحدا ، أصبح لا يحب أحدا ، فاذا هو من أجل أن يتسلى ، لأنه أصبح بغير حب ، يستسلم للأهواء ويندفع وراء الملذات الخسيسة ، فيهوى عندئذ الى قاع الرذيلة ، ويصل من ذلك الى درجة الحيوانية ، وما هذا كله الا لأنه يكذب بغير انقطاع ، يكذب على غيره ويكذب على نفسه . ان من يكذب على نفسه يسرع كذلك الى اهانة نفسه . ألا يشعر المرء بكثير من اللذة فى بعض الأحيان حين يحس أنه مهان ؟ وهو يعلم مع ذلك أنه ما من أحد قال له كلمة سوء ، وانما هو اخترع الاهانة بنفسه

اختراعا فى سبيل التلذذ بها ، وكذب على نفسه ، وبالغ وغالى تزيينا للموقف وزخرفة للوضع ، وحمل كلمة من الكلمات على غير معناها ، جاعلاً من الحبة قبة . . . هو يعلم ذلك ، ولكنه يسارع الى اهانة نفسه ، ويهين نفسه متلذذا تلذذا يبلغ حد الفرح ، فاذا هو يصل من ذلك آخر الأمر الى الشعور بعداء حقيقى . . . ولكن انهض عن الأرض ، أرجوك . . . اجلس فى مكانك ، أرجوك ، تلك كلها أوضاع كذب أيضا . . .

— أيها الانسان المقدس ، اسمح لى ان أقبل يدك العزيزة اللطيفة ! — نهض فيدور بافلوفتش بوثبة ، وطبع قبلة سريعة على يد الشيخ المعروقة . — تماما ، تماما ، هذه هى الحقيقة . ان فى اهانة المرء نفسه لذة . لقد أحسنت الافصاح عن هذه الحقيقة . وتلك أول مرة أسمع فيها هذا الكلام . لقد ظللت طوال حياتى أهين نفسى ، نشداناً للذة ، بل وطلبا للجمال ، لأن الاهانة ليست متعة فحسب ، بل يمكن أحيانا أن يكون فيها جمال أيضا . الجمال ! ذلك ما نسيت أن تضيفه الى كلامك أيها الشيخ العظيم ! سوف أدون هذا فى دفترى الصغير ! لقد كذبت ، كذبت بغير انقطاع عن الكذب طوال حياتى ، فى كل يوم ، وفى كل ساعة . أنا فى الواقع كذب يحيا ، أنا للكذب أبوه ! لا بل لست للكذب أباه . . لعلنى أخطأت استعمال التعابير . والأولى أن أقول اننى ابن الكذب لا أبوه . . يكفينى كبرا أن أكون ابن الكذب . . ولكن يا ملاكى الطيب ، أحسب أن كذبة كالكذبة التى قلتها حين تكلمت عن ديدرو ، أمر مباح من حين الى حين ! ان كذبة كهذه لا تسىء الى أحد ، على حين أن هناك كلمات ضارّة . . بالمناسبة ، أيها الشيخ العظيم . . لقد أوشكت

أن أنسى . . . اننى أنتظر منذ ثلاث سنين أن تتاح لى فرصة القاء سؤال عليك . كنت أريد أن أتعلم منك ، كنت أريد أن أجىء الى هنا لهذا الأمر خاصة ، كنت أريد أن أعرف منك الحقيقة حول هذه النقطة تفصيلاً . ولكن أصدر أمرك أولا الى بيوتر الكسندروفتش بأن لا يقاطعنى . اليك ما كنت اريد أن أعرفه : هل صحيح أيها الأب المبجّل ان كتاب سير الشهداء القديسين يروى فى موضع من مواضعه قصة قديس قام بمعجزات واستشهد فى سبيل ايمانه ، أى قطعوا رأسه ، فاذا هو ينهض ، فيتناول رأسه من الأرض* ، ويعانقه فى حنان ، ثم يسير مدة طويلة ، حاملا رأسه بيديه ، حانيا عليه ملاطفا له . قولوا لى أيها الآباء الطيبون ، أهذا صحيح أم لا ؟

قال الشيخ :

— بل هو غير صحيح .

وقال الراهب قيّم المكتبة :

— لم يرد ذكر هذه القصة فى أى موضع من مواضع كتاب سير الشهداء . من هو القديس الذى تقصده ؟

— أنا لا أعرف من هو . أنا أجهل كل شىء عن هذه الأمور . لا شك فى اننى ضُللت . لقد سمعت أحدا يروى هذه القصة . وهل تعلمون من رواها لى ؟ لم يروها لى أحد غير بيوتر الكسندروفتش هذا الذى ثار علىّ منذ هنيهة بصدد ديدرو ! هو الذى روى لى هذه القصة ، نعم هو . . .

— هذا كذب . أنا لم أرو لك هذه القصة ! ثم اننى لا أكلمك أبدا .

— اعترف بأنك لم تروها لى أنا . ولكنك رويتها فى اجتماع كنت أنا فيه . حدث ذلك منذ ثلاث سنين . ولئن

كنت أتذكرها هذا التذكر الواضح فلأنك قد زعزعت ايمانى فى ذلك المساء ، بتلك القصة المضحكة . . . نعم يا بيوتر الكسندروفتش ! أنت لم تعرف ذلك ، وما كان لك أن تتنبأ به ، ولكننى عدت الى منزلى فى ذلك اليوم وأنا أشعر بأن يقينى قد ترنح ، ولم يزد منذ ذلك اليوم على أن يهبط مزيدا من الهبوط . انك يا بيوتر الكسندروفتش قد كنت السبب الحقيقى فى سقوطى العظيم ، وا أسفاه ! ليست القضية الآن قضية ديدرو !

كان فيدور بافلوفتش يتكلم بلهجة فيها لهجة الانفعال ونبرة التأثر ، ولكن كان واضحا للجميع فى هذه المرة انه عاد يمثل ويهرج . ومع ذلك شعر ميوسوف بأنه أوذى ايذاءاً شديدا أليما . فدمدم يقول :

— يا للسخف ! انك لا تقول الا حماقات ! من الجائز حقا أن أكون قد رويت هذه القصة مرة . . . ولكننى لم أكن أخاطبك أنت . كنت قد سمعت أنا هذه القصة . . . حدث ذلك فى باريس . أكد لى فرنسى أن هذه القصة الواردة فى كتاب سير الشهداء تتلى عندنا أثناء القداس . . . وكان هذا الفرنسى رجلا مثقفا قد تعمق فى دراسة احصائيات روسيا تعمقا كبيرا ، وكان قد عاش فى بلادنا زمنا طويلا . . . أنا لم أقرأ كتاب سير الشهداء بنفسى . . . ولست أنوى أن أقرأه على كل حال . . . ما قيمة أحاديث تجرى بها الألسن على مائدة طعام ؟ لقد حدث هذا أثناء عشاء . . .

— أثناء عشاء . . . ها . . . ها . . . يا للعشاء الجميل الذى كلفنى ايمانى !

كذلك قال فيدور بافلوفتش ساخراً .

فانفجر ميوسوف يصيح :

— ما شأنى أنا بايمانك ؟

ولكنه ثاب الى هدوئه فورا فقال بلهجة احتقار :

— انك تدنس كل ما تلمسه يداك !

فنهض الشيخ عندئذ مخاطبا جميع الحضور :

— معذرةً أيها السادة . اننى مضطر أن أترككم لحظات . هناك زوار ينتظروننى وقد وصلوا قبلكم .

ثم أضاف يقول بمرح وهو يلتفت الى فيدور بافلوفتش :

— أما أنت فاترك الكذب على كل حال .

وخرج . واندفع أليوشا والمترهب المبتدئ ليمسكاه ويساعداه على هبوط السلم . كان أليوشا قد نفد صبره ، وقد أسعده أن ينصرف ، وأسعده كذلك أن الشيخ قد استقبل الأمر مرحاً دون غضب . وكان الشيخ يتجه نحو الرواق ليبارك أولئك الذين كانوا ينتظرونه هناك ، غير أن فيدور بافلوفتش وجد السبيل الى استيقافه عند العتبة . قال بصوت مختلج :

— أيها الانسان المقدس جدا ، اسمح لى أن أقبل يدك العزيزة اللطيفة مرة أخرى ! ذلك أن المرء يستطيع أن يتفاهم معك ويتنفس بحضورك ! لا تظنَّ أننى أكذب هكذا طول الوقت وأننى لست الا مهرجاً . الحق أننى فعلت هذا عامداً من البداية الى النهاية ، فعلته عامدا لأختبرك وأمتحنك ! لقد أردت أن أتأكد من اننى أستطيع أن اتنفس فى حضورك ، ومن أن شخصى الهين يمكن أن يؤكد ذاته دون أن يصدم كبرياءك . فى وسعى الآن أن أشهد لك شهادة جميلة : ان فى وسع الانسان أن يتنفس بحضورك ! والآن لن أتكلم قط ، لن أقول كلمة واحدة . سأجلس على هذا المقعد ، فألبث

ساكنا حتى النهاية . الكلام الآن لك يا بيوتر الكسندروفتش ! تستطيع منذ هذه اللحظة أن تمثل دور الشخص الرئيسى . . مدة عشر دقائق .

٣

الفلاحات المؤمنات

فى الأسفل قرب الرواق الخشبى المتاخم للجانب الخارجى من السور ، كان يزدحم جمهور ليس فيه هذه المرة الا نساء . ان عددهن نحو من عشرين فلاحة . لقد أُبلغن أن الشيخ سيخرج اليهن ، فاحتشدن ينتظرنه . وقد ذهبت السيدتـان خوخلاكوف أيضا الى الرواق ، ولكنهما ذهبتا الى المكان الموقوف على ذوات المكانة من الزائرات . هما أم وابنتها . ان السيدة خوخلاكوفا الأم ، وهى امرأة غنية جدا أنيقة الهندام دائماً ، ما تزال تبدو شابة ، وهى لطيفة باشة ، شاحبة الوجه قليلاً ، لها عينان توشكان أن تكونا سوداوين على سطوع شديد وحركة قوية . انها لم تتجاوز الثالثة والثلاثين من عمرها ، وقد مات عنها زوجها منذ خمس سنين . أما ابنتها ، وهى فى الرابعة عشرة من العمر ، فهى مصابة بشلل فى الساقين . لقد أصبحت الصبية المسكينة عاجزة عن المشى منذ ستة أشهر ، فنقلوها الآن فى كرسى متحرك . ان لها وجهاً رائعاً فتاناً ، قد أضواه المرض قليلاً ، لكنه على جانب عظيم من اللطف والبشاشة ، بل ان شيئا من المكر يتراءى فى عينيها الواسعتين القاتمتين

اللتين لهما أهداب طويلة . لقد كانت أمها تنوى منذ الربيع أن تمضى بها الى الخارج ، غير أن أعمالا بدأت فى أرضهما فأجبرتهما على البقاء فى روسيا طول الصيف ؛ وهما لا تقيمان فى مدينتنا الا منذ أسبوع ، لا لزيارة الدير بل لقضاء بعض الاعمال فى الواقع ، غير أنهما قد جاءتا الى الشيخ مرة أولى منذ ثلاثة أيام ، وهما تعودان الآن الى الدير على غير توقع ، رغم أنهما تعلمان حالة الشيخ الذى أصبح لا يكاد يستطيع استقبال الزائرين . لقد توسلتا بكثير من الالحاح أن يُمنَّ عليهما «بأن تسعدا برؤية هذا الشافى العظيم مرة أخرى» .

وبانتظار ظهور الشيخ اتخذت الأم مكاناً على كرسى قرب مقعد ابنتها المتحرك ؛ وعلى بعد خطوتين منهما كان يقف راهب عجوز لا ينتمى الى هذا الدير ، ولكنه كان ماراً بالمدينة . لقد ترك ديره الى حين ، وهو دير غير مشهور يقع فى منطقة نائية بشمال روسيا . ان هذا الراهب العجوز يريد هو أيضا أن يحظى بمباركة الشيخ . ولكن الشيخ الذى ظهر على الرواق فى تلك اللحظة انما اتجه أولاً الى طبقة الشعب . تدافع الجمهور نحو درجات المدخل التى لا تزيد على ثلاث ؛ ومن على هذه الدرجات الثلاث انما يطل على الحقول الرواقُ الذى لا يرتفع كثيراً عن سطح الأرض . توقف الشيخ على الدرجة العليا من هذه الدرجات ، وتلفع بلفاع الكاهن وأخذ يبارك النساء اللواتى يزدحمن أمامه . قدمت اليه كليكوشا كانت تجرها امرأتان تمسكانها من يديها ، فما ان لمحت المسكينة الشيخ حتى أخذت تطلق صرخات حادة غريبة تدل على هذيان ، وهى ترتعش ارتعاشاً قوياً من أخمص قدميها الى قمة رأسها ، كأنها مصابة بالصرع . وضع الشيخ لفاعه على رأس المريضة ، وتلا دعاء قصيراً ،

فاذا بالمرأة تصمت وتهدأ . لا أدرى ماذا يحدث الآن ، ولكننى فى أثناء طفولتى قد أتيح لى مرارا أن أرى وأن أسمع هاته النسوة المريضات فى قرانا وفى أديرتنا . كان يؤتى بهن الى الصلاة معولات أو نابحات كالكلاب ، فيملأن بصرخاتهن أرجاء الكنيسة . فما ان يُقرّبن من القربان المقدس حتى يزول عنهن «المس» فجأة ، ويستعدن هدوءهن فى كل مرة الى حين . وقد أدهشنى ذلك كثيراً في طفولتي وترك فى نفسى أثراً قوياً . ولكننى حين سألت عن سر هذا الأمر قال لى بعض الملاّكين ، وقال لى معلمو مدرستى فى المدينة خاصة ، ان ذلك كله ليس الا تظاهراً كاذباً ، وأن هاته النسوة كسالى لا يردن أن يعملن ، وان من الممكن دائماً ردهن الى الصواب باظهار شيء من القسوة . حتى لقد رُويت حكايات فى بيان صحة هذا التفسير . ومع ذلك علمت بعد ذلك من أطباء مختصين ، على دهشة منى ، أن الأمر ليس أمر تظاهر كاذب ، وأن هذا فى الواقع مرض رهيب تصاب به النساء ، وأن هذا المرض منتشر انتشارا واسعا فى روسيا خاصة ، وأن مردّه الى ما تتصف به ظروف حياة المرأة فى أريافنا من قسوة شديدة ؛ فهذا المرض يرجع الى أن الفلاحات فى بلادنا يقمن بأعمال مرهقة بعد نفاس شاق أليم لم تحتمله أجسامهن بسبب قلة العناية الطبية بهن ؛ تضاف الى ذلك آلام من أنواع شتى ، جسمية ونفسية ، مردُّها الى ما ينالهن من ضرب مبرح ، والى ما يصيبهن من سوء المعاملة ، والى ما يلم بهن تبعاً لذلك من كمد وكـرب ويأس ، لأن بعض النساء لا يستطعن احتمال محن قد يعدها غيرهن عادية لا غرابة فيها . فأما ذلك الشفاء العجيب الذى تُنقَذ به نساءٌ مصابات بهذا المس متى أُدنين من القربان المقدس ـــ

وهو شفاء يدعى بعضهم تعليله بالتظاهر الكاذب ، وحتى بخداع مقصود يخرجه «رجال الكهنوت» اخراجا مسرحيا ـــ فالحق أنه يرجع هو أيضا الى أسباب طبيعية ؛ ثم ان النساء اللواتى يدنين الممسوسات من القربان المقدس ، والممسوسات انفسهن خاصة ، مؤمنات ايمانا عميقا كايمانهن بحقيقة راسخة ثابتة ، أن الروح الخبيثة التى حلت فيهن لا تستطيع احتمال وجود القربان المقدس ، فاذا هى تبارحهن متى دنون منه وانحنين له . لذلك لا بد أن يحدث اهتزاز شامل قوى فى جسم هاته النسوة المصابات بمرض عصبى نفسى معا منذ يُواجهن بالقربان المقدس ؛ فهذا الاهتزاز نتيجة طبيعية لتوقع الشفاء الذى لا بد منه فى نظرهن ، ولانتظار البرء الذى لا محيص عنه حتما ، وهو نتيجة طبيعية لايمانهن بالمعجزة ايمانا ليس له حدود . فلذلك كان يحدث الشفاء ويتم البرء ، ولو الى حين قصير . وهذا بعينه هو ما وقع فى الحالة الراهنة حين خلع الشيخ على المريضة لفاعه وتلا دعاءه .

كان بين الجمهور الذى ازدحم حول الشيخ نساء كثيرات أخذن يبكين حناناً وخشوعاً وحماسة بتأثير تلك اللحظة . واندفعت نساء أخريات تريد أن تقبل ثيابه على الأقل . وراحت بعضهن يرتلن بصوت خافت رتيب . باركهن الشيخ جميعاً ، وتحدث مع بعضهن . وكان يعرف الكليكوشا التى قدمت اليه . انها من قرية مجاورة تقع على مسافة ستة فراسخ من الدير ؛ وما هذه أول مرة يؤتى بها اليه على كل حال .

قال الشيخ وهو يشير الى امرأة أخرى لم تطعن فى السن بعد ، ولكنها نحيلة ضاوية معروقة ؛ لها وجه ليس ملوّحاً ولكنه مسود اسودادا غريبا (كانت راكعة على ركبتيها تحدق الى الشيخ

بنظرة ساكنة جامدة ، وفي وجهها شيء من الوجد والنشوة) :

ـــ هذه آتية من مكان أبعد .

فقالت المرأة بصوت كأنه الغناء وهى ترجح رأسها ترجحاً متواتراً موقعاً ، وقد أسندته الى راحة احدى يديها :

ـــ نعم يا أبى ، أنا آتية من مكان بعيد ، من بعيد جداً ، يبعد عن هنا ثلاثمائة فرسخ . ـــ كانت المرأة تتكلم بلهجة هي الى الترتيل أقرب . ان بين أفراد الشعب أناسا يتألمون ألماً أخرس مذعناً ، هو الم ينطوى على ذاته ويعتصم بالصمت . غير أن هناك أناسا يتألمون ألماً متفجرا ينطلق انتحابات على حين فجأة ، ثم اذا هو يعتصم بعد ذلك بالترتيل . وهذه حالة تلاحظ على النساء خاصة . وليس هذا الألم أقل او أخفّ من ألم الصامتين . ان الترتيل لا يخفف عن النفس الا لأنه يحيى جروح القلب وينكؤها أعمق فأعمق . ان هذه الصورة من صور الألم لا تتطلب عزاء ولا تسعى الى سلوى ، لأنها تغتذى من الشعور باستحالة اشباعه ، فالترتيل انما يعبر عن الحاجة الى تلك الجروح بغير توقف .

استأنف الشيخ يقول وهو يتفرس فيها بانتباه :

ـــ لعلك من أهل المدن ؟

ـــ أنا من البندر أيها الأب الطيب ، نعم . وان أكن قروية الأصل . نحن من أهل البندر ، نعيش فى البندر . ومن أجل أن أراك انما جئت الى هنا أيها الأب الطيب . لقد حدثونا عنك ، أيها الأب ، فرووا أشياء كثيرة . لقد دفنت ابنى ، ابنى الصغير . . فخرجت أضرب فى الأرض حاجّةً ، فمررت بثلاثة أديرة ، فقيل لى هنالك : «اذهبى اليه أيتها المسكينة ناستاسيوشكا » . . اذهبى لرؤيته هو . . يقصدون

أنت . . اذهبى لرؤيته . . . رؤية الأب العزيز . . » هكذا جئت اليك . أمس حضرت صلاة الليل ، وهأنذا الآن أمامك .

ـــ لماذا تبكين ؟

ـــ أبكى صغيرى أيها الأب الطيب . كان عمره ثلاثة أعوام الا ثلاثة أشهر . اننى أبكى ابنى ، أبكى صغيرى . ذلك ما يعذبنى . كان آخر أبنائى . كان لنا أنا وزوجى المسكين نيكيتوشكا « أربعة أبناء . ان الأطفال لا يبقون عندنا . انهم يتركوننا يا أبانا المحترم ، انهم يتركوننا . دفنت الثلاثة الأول فسرعان ما تعزيت عنهم . أما ذاك ، الأخير ، فاننى لا أستطيع أن أنساه . يخيل الىّ اننى أراه ، هنا ، أمامى ، أراه طول الوقت . جفّت نفسى بسببه . أنظر الى ملابسه ، الى قميصه الصغير ، الى حذاءيه ، فآخذ أنشج وأنتحب . أعرض أشياءه أمامى لأتأملها . . أستعرض جميع بقاياه التى تذكرنى فأبكى . قلت لنيكيتوشكا ، زوجى : «دعنى أمضى . . أريد أن أضرب فى الأرض حاجّةً» . زوجى حوذى . ولسنا فقراء أيها الأب الطيب . عندنا مال . حياتنا ليست رهناً بأحد . نملك خيولا وعربة ننفق عليها من مالنا . فيم ينفعنا هذا كله الآن ؟ وقد انحدر عزيزى نيكيتوشكا الى طريق الضلال حين تركته . أخذ يشرب ، أنا أعلم ذلك . وما هذه أول مرة . كان يضعف كلما حولت عينى عنه . ولكننى الآن لا أحفل بذلك . أصبحت لا أفكر فيه . تركت المنزل منذ ثلاثة أشهر . نسيته . نسيت كل شيء . أصبحت لا أريد أن أتذكره . وما عسانى أفعل معه ؟ لقد أنهيت صلتى به ، أنهيت صلتى بجميع الناس . لا أريد أن أرى منزلى بعد الآن يوما ، لا منزلى ولا رزقى ، لا أريد أن أرى شيئا البتة !

قال الشيخ ببطء :

— اسمعى أيتها الأم الطيبة ! فى يوم من الأيام رأى قديس كبير من قديسى الماضى ، رأى فى الهيكل أماً تبكى ابنها الذى فقدته مثلما تبكين ابنك الآن . . كان ابنها طفلا صغيرا كابنك ، وكان ابنا وحيدا أخذه الرب اليه . قال لها القديس : «ألست تعلمين اذن أن جميع الصغار الذين من هذا النوع يملكون جرأة كبيرة أمام عرش الرب ؟ بل ليس فى ملكوت السماء كله أحد أجرأ من هؤلاء الصغار ! انهم يقولون للرب : «لقد وهبت لنا الحياة أيها الرب ، فما ان رأينا الحياة حتى استرددتها منا !» هم يكلمون الرب ويطالبونه بهذه الجرأة حتى يرفعهم فورا الى مصاف الملائكة . وقال لها القديس بعد ذلك : «يا امرأة ! كفى اذن عن البكاء ، وابتهجى وافرحى ، ما دام الأمر كذلك ، لأن ابنك يسكن الآن قرب الرب بين الملائكة !» بهذا حدث القديس فى الماضى المرأة التى كانت تبكى . ولقد كان قديسا عظيما فلا يمكن أن يكذب على تلك المرأة . فاعلمى هذا أنت أيضا أيتها الأم الطيبة ، اعلمى أن ابنك الصغير يقف الآن قرب عرش الرب ، فهو يفرح ويبهج ويتوسل الى الرب من أجلك ، ولذلك عليك أن تبكى ، ولكن افرحى ايضا .

كانت المرأة تصغى الى الشيخ مسندةً رأسها الى احدى يديها ، غاضةً بصرها . وتنهدت تنهداً عميقا .

— بمثل هذه الأقوال انما كان يعزينى زوجى المسكين نيكيتا ! كان يقول مثلما تقول : «لماذا تبكين أيتها المرأة الطائشة ؟ لا شك فى أن ابننا هو الآن قرب الرب مع الملائكة» . كان يقول لى هذا الكلام ، ويبكى هو نفسه ، وكنت أنا

أرى أنه يبكى مثلما أبكى . . . قلت له : «أعلم ذلك يا نيكيتا . . . أعلم أن ابننا هو الآن عند الرب ، وأين عساه يكون ان لم يكن عند الرب ؟ ولكنه ليس عندنا يا نيكيتا ، ليس معنا ، ليس جالسا الى جانبنا كما كان يجلس الى جانبنا من قبل !» ليتنى أستطيع أن أراه مرة أخرى ، مرة واحدة ، مرة واحدة لا أكثر . . وأن أنظر اليه ، أن أنظر اليه مرة واحدة ، صغيرى الحبيب ! لن أقترب منه ، سأختبئ فى ركن ، وسأصمت ! آه . . . أن أراه مرة أخرى ، ولو دقيقة واحدة ! ليتنى أسمعه يلعب فى فناء المنزل ، ثم ينادينى بصوته الرقيق كما كان يفعل : «ماما ! أين أنت ؟» ليتنى أسمعه يركض فى الغرفة على قدميه الصغيرتين ، ليتنى أسمع وقع خطواته على الأرض : تك . . تك . . . ولقد كان يجيء اليَّ — اننى أتذكر هذا كثيرا ، كثيرا جدا — يجيء الي راكضا صائحا ضاحكا . . آه . . ليتنى أسمع وقع خطواته ، خطواته الصغيرة ، فأعرف أنه هو . . ولكن لا . . . يا أيها الأب الطيب . . . لن أسمعه بعد اليوم قط ! . . انظر . . . هذا حزامه الصغير . . . أما هو فقد ذهب ، ولن أراه بعد الآن فى يوم من الأيام ، ولن أسمعه بعد الآن فى يوم من الأيام !

قالت المرأة ذلك وأخرجت من عبها الحزام الصغير المزخرف ، حزام ابنها الصغير ، فما ان رأته حتى هزها النشيج ، فسارعت تخفى عينيها بيديها ، وأخذت الدموع تسيل من خلال أصابعها متدفقة على حين فجأة فى كل جهة من الجهات .

قال الشيخ :

— هذه راشيل ، راشيل القديمة ، تبكى صغارها ولا يعزيها عن فقدهم شيء» . ذلك هو حظكن فى هذا العالم

أيتها الأمهات ! لا تتعزى يا امرأة ، فليس العزاء هو ما أنت في حاجة اليه . لا تتعزى . . بل ابكى ما استطعت الى البكاء سبيلا . ولكن تذكرى وأنت تبكين ، تذكرى فى كل مرة ، أن صبيك الصغير هو أحد ملائكة الرب ، وانه يراك من علياء السماء ، وأنه ينظر اليك ، ويغتبط لدموعك ، ويلفت اليها انتباه الرب . ستظلين خلال زمن طويل تسكبين هذه الدموع ، دموع الأم المفجوعة بابنها . ولكن بكاءك سيستحيل أخيرا الى فرح هادئ ، وستصير دموعك المرة الى عبرات حنان وادع ، وتطهر روحى يخلصك من الخطيئة . أما ابنك فسأصلى من أجل راحة روحه . ماذا كان اسمه ؟

— الكسى ، أيها الأب الطيب .

— اسم جميل . مولاه هو القديس ألكسى أحد أولياء الله ، أليس كذلك ؟

— نعم يا أبانا ! ألكسى أحد أولياء الله !

— ما أعظمه من قديس ! سأذكره فى صلواتى » . وسوف أصلى من أجلك أنت أيضا أيتها الأم الطيبة ، لأنك تتألمين ، وسوف أصلى من أجل زوجك كذلك حتى لا يصيبه سوء . ذلك أن هجرك اياه خطيئة ، هل تعلمين ؟ عودى الى البيت لتسهرى عليه وتعتنى به . ان ابنك حين يرى من علياء السماء أنك تركت أباه سوف يبكى عليكما كليكما . فهل تريدين أن تدمرى راحة نفسه ؟ انه حى ، حى لأن النفس لا تموت أبدا . ولئن غاب عن منزلك ، انه لقريب منك ولو لم تريه . فكيف يمكن أن يجيء اليك اذا كنت قد كرهت منزلك وبيتك ؟ من عساه يزور اذا لم يستطع أن يجد الاثنين ، أمه وأباه معاً ؟ انه يظهر لك فى المنام فتتعذبين ، فعودى الى

منزلك يرسل اليك أحلاما تهدئ روعك ! ارجعى الى زوجك أيتها الأم الطيبة ، ارجعى اليه اليوم بالذات !

— سأعمل بما تقول أيها الأب ، سأرجع الى منزلى ! لقد قرأت ما فى قلبى ! أواه يا عزيزى نيكيتا ، يا عزيزى نيكيتوشكا ، يا طائرى الصغير ، انك تنتظر أوبتى ، وانى لآيبة ! عادت المرأة ترتل كلامها ترتيلا ، ولكن الشيخ كان قد دنا من عجوز قصيرة طاعنة فى السن جدا ، لا ترتدى ما يرتديه الحجاج ، وانما هى تلبس ثوبا عاديا من ثياب المدينة . كان فى وسع المرء أن يرى فى عينيها أنها جاءت لأمر بعينه من الأمور ، وأنها تريد أن تعلن شيئا . قدمت نفسها للشيخ على أنها أرملة رجل كان من ضباط الصف فى الجيش . انها تسكن فى مدينتنا غير بعيد . وقد خدم ابنها فاسنكا فى مركز من مراكز الشرطة ، ثم سافر الى ايركوتسك بسيبيريا . كتب اليها رسالتين فى البداية ، ثم انقطعت عنها أخباره منذ سنة . أرادت أن تسأل عنه وأن تتقصى أنباءه ، ولكنها لا تعرف الى من تتجه . . قالت :

— ان ستيبانيدا ايلينشنا بدرياجينا ، وهى تاجرة غنية ، قالت لى : «هلمى فسجلى اسم ابنك فى سجل المرحومين يا بروخوروفنا ، واحمليه الى الكنيسة ، بغية أن تتلى صلاة الرحمة عليه ، فتحن روحه اليك ويكتب رسالة . وقد أكدت ستيبانيدا ايلينشنا أن «هذه وسيلة مضمونة نجحت دائما» . غير أن فى نفسى شكوكا . . . فقل لى ، وأنت ضياؤنا ، أهذا صحيح أم لا ، وهل يكون هذا مقبولا ؟

— دعيك من فكرتك هذه ! ألا تستحين أن تلقى سؤالا كهذا السؤال ؟ كيف يخطر ببالك أن يُصلَّى على روح

ابنك وهو ما يزال حياً ؟ أتفعلين هذا وأنت أمه ؟ تلك خطيئة كبرى تشبه خطيئة السحر ، وستغفر لك بسبب جهلك فقط ، والأولى أن تتضرعى الى ملكة السماء ، التى تسارع الى الشفاعة والحماية ، أن تسهر على صحة ابنك ، وأن تغفر لك هذه الفكرة الآثمة التى خطرت ببالك . واسمعى ما سأقوله لك أيضا يا بروخوروفنا : ان ابنك سيرجع اليك قريبا ، أو سيكتب اليك حتما . كونى على ثقة . وانصرفى الآن بسلام . ان ابنك حى . صدقينى .

— جزاك الله خيراً أيها المحسن الينا ، الشفيع لنا ، يا من تصلى من أجلنا جميعا ، وتستغفر عن خطايانا . . .

فى أثناء ذلك لاحظ الشيخ فى الجمهور نظرة حادة شاخصة اليه محدقة فيه ، هى نظرة فلاحة شديدة النحول يبدو عليها أنها مصابة بالسل ، على أنها ما تزال شابة . كانت تنظر اليه صامتة ، وكأن عينيها تسألان شيئا من الأشياء ضارعتين متوسلتين ، ولكنها تخشى أن تقترب فيما يبدو . سألها الشيخ :

— وأنت ماذا تريدين أيتها الأخت الحبيبة ؟

فقالت بصوت بطىء خافت :

— أنقذ نفسى أيها الأب الحبيب !

ثم جثت على ركبتيها وانحنت ساجدة على الارض .

— لقد أثمت يا أبتاه ، وأنا خائفة من اثمى .

قعد الشيخ على الدرجة الدنيا ، واقتربت المرأة منه وهى ما تزال جاثية .

بدأت تقول بما يشبه الهمس ، بينما كان يهزها نوع من التشنج :

— ترملت منذ ثلاث سنين . كنت شقية مع زوجى .

كان هرماً وكان يضربنى كثيرا . ففى ذات يوم ، بينما كان مريضا متمددا على سريره ، نظرت اليه وقلت بينى وبين نفسى : «ما عسى تكون حياتى اذا شفى من مرضه ونهض من جديد ؟» فى تلك اللحظة انما برقت فى ذهنى تلك الفكرة بالذات . . .

— انتظرى لحظة .

كذلك قال الشيخ ثم دنا من المرأة ووضع أذنه على شفتيها . تابعت الفلاحة رواية قصتها بهمس يبلغ من الخفوت أن المرء أصبح لا يكاد يسمع كلمة مما تقوله . ولم تطل مسارّتها .

سألها الشيخ :

— أهذا منذ ثلاث سنين ؟

— نعم منذ ثلاث سنين . لم أكن أفكر فى الأمر من قبل . أما الآن فقد صرت مريضة . ان خواطر مظلمة تملأ جوانب نفسى .

— أأنت آتية من مكان بعيد ؟

— من مكان يقع على مسافة خمسمائة فرسخ من هنا .

— هل ذكرت هذا فى الاعتراف للكاهن ؟

— نعم . ذكرته مرتين .

— هل قبلوا أن تتناولى القربان المقدس ؟

— قبلوا . ولكننى خائفة ، خائفة من الموت .

— لا تخشى شيئا . لا تدعى للخوف أن يستولى عليك ، واطردى الحزن من نفسك . اجعلى الندامة مستقرة فى قلبك قويةً عميقة ، فيغفر الله لك كل شىء . ليس على هذه الأرض ولا يمكن أن يكون خطيئة تبلغ من الهول أن الرب لا يمكن أن يغفرها لمن ندم عليها صادقاً . ثم ان الانسان لا يمكن

أن تبلغ خطيئته هذا المبلغ ، ولا أن يقترف آثاماً كبيرة الى حيث تستنفد رحمة الرب التى لا حدود لها . أفتظنين أن فى هذا العالم ذنباً يمكن أن يفوق الحب الالهى ؟ اندمى ، اندمى ، بنفسك كلها ، واطردى من قلبك كل خوف . ثقى أن الرب يحبك أكثر مما تستطيعين أن تتصورى ، وأنه يحبك حتى فى خطيئتك ، ورغم هذه الخطيئة . ان الآثم الذى يندم ويتوب يكون فرح فى السماء به اكثر من عشرة بررة » . كذلك قيل من زمان بعيد . امضى . لا تخشى شيئا . ولا تحملى للبشر حقداً . انسى الاساءات . اغفرى فى قلبك للمتوفى ما ألحقه بك من سوء وما نالك به من أذى ، وصالحيه فى قرارة نفسك . أنت تحبين ما دمت تشعرين بالندامة . وما دمت تحبين فأنت لله . . ان الحب قادر على كل شىء ، انه ينقذ كل شىء . لئن كنت ، وأنا الخاطئ مثلك ، أشاركك ألمك وأندب حظك ، فما بالك بالرب ! ان الحب غنى عظيم يمكن أن يهب لنا الكون كله ، وأن يجعلنا نكفّر لا عن خطايانا نحن وحدها ، بل عن خطايا الآخرين أيضا . انصرفى الآن بسلام ، وكونى بلا خوف .

قال الشيخ ذلك ورسم اشارة الصليب عليها ثلاث مرات ، وتناول صورة مقدسة كان يحملها فى عنقه فوضعها فى عنق الفلاحة . حيته الفلاحة صامتةً وانحنت حتى الأرض . ونهض الشيخ ببطء ، وأشرقت نظرته حين وقعت على امرأة تفيض صحة وسناء وهى تحمل بذراعيها رضيعاً .

— أنا آتية من فيشجوريه يا أبانا الطيب .

— قطعت اذن ستة فراسخ حاملةً هذا الصبى على ذراعيك فيم ترغبين ؟

— أردت أن أراك فقط . لقد سبق أن جئت اليك ، ألا تتذكر ؟ ان كنت قد نسيتنى فليست ذاكرتك اذن بالقوية . لقد قالوا عندنا انك مريض ، فأردت أن أراك بعينى . وانى لأنظر اليك الآن فما ألاحظ أنك مريض . دعك من هذا ! لتعيشنّ عشرين سنةً أخرى ان شاء الله . ما أكثر الذين يدعون لك ويصلون من أجلك ، فكيف يمكن أن تمرض ؟

— أشكرك أيتها المرأة الطيبة ، أشكرك على كل شىء !

— لى عندك رجاء آخر ، وان يكن هيناً . اليك ستين كوبيكاً فأهدها يا أبت لامرأة أخرى ، لامرأة أفقر منى . لقد قلت لنفسى وأنا فى طريقى الى هنا : «سأعطى هذا المال له هو ، فانه أدرى منى بمن يستحق أن يوهب له» .

— شكراً ، شكراً أيها القلب الطيب . هذا يسرنى . سوف أفعل ما تطلبين . هل طفلك هذا بنت ؟

— بنت أيها المبارك ! اسمها ليزافيتا .

— بارك الله فيكما كليكما انت وابنتك ليزافيتا . لقد أفرحت قلبى أيتها الأم الطيبة . الى اللقاء يا أصدقائى ، الى اللقاء يا أعزائى ، يا أولادى الطيبين .

بارك الشيخ الحجاج وحيّاهم بانحناءة عميقة .

٤

السيدة الضعيف ايمانها

كانت السيدة الاقطاعية الزائرة تبكى بكاءً رفيقاً هادئاً من تأثرها برؤية الشيخ وهو يتحدث الى العامة ويباركها ، وكانت

تجفف عبراتها بمنديل صغير . انها امرأة من الطبقة العليا حساسة جداً صادقة الطيبة كثيرا . فلما اقترب الشيخ منها أخيرا ، تلقته بكثير من العاطفة المتدفقة قائلة :

— ما كان أعمق انفعالى ، وأشد اضطرابى حين رأيت هذا المشهد المؤثر . . .

وقطع الاهتياج كلامها فلم تتابعه . ثم استأنفت تقول بعد لحظة :

— اننى أفهم أن يحبك الشعب . وأنا أيضا أحب الشعب ، أنا أريد أن أحبه . وكيف لا يحب المرء شعبنا الروسى الرائع هذا ، كيف لا يحب المرء هذا الشعب العظيم والبرىء الساذج فى آن واحد ؟

— كيف حال ابنتك ؟ كنت تريدين حديثاً آخر معى ؟

— أوه . . . لقد ألححت فى طلب هذه المنة . توسلت وتضرعت ، وكنت مستعدة لأن أجثو على ركبتى ثلاثة أيام بلياليها تحت نوافذك فى سبيل أن تستقبلنى . لقد جئناك ، أيها الشافى العظيم ، لنعبر لك عن شكرنا الحار ، لأنك قد شفيت ابنتى ليزا من مرضها ، شفيتها شفاء تاماً . وبماذا ؟ بأن دعوت لها يوم الخميس الماضى ووضعت يديك عليها ! ان علينا أن نسارع الى تقبيلهما ، هاتين اليدين المباركتين ، وأن نظهر لك تأثرنا ، وأن نعرب عن تبجيلنا وتقديسنا !

— شفيتها ؟ كيف هذا ؟ اننى ما زلت أراها متمددة فى مقعدها . . .

— ولكن الحمى التى كانت توافيها فى الليل قد زالت زوالا تاما ، زالت منذ يومين ، منذ ذلك الخميس تماما (كذلك

أسرعت تضيف السيدة قولها هذا بشىء من العصبية) . وأكثر من ذلك أن ساقيها قد اشتدتا وقويتا ، لقد استيقظت هذا الصباح معافاةً تماما ، بعد أن نامت طول الليل . أنظر الى ألوان خديها وبريق عينيها ! كانت قبل الآن ما تنفك تبكى ، وها هى ذى الآن تضحك مرحةً كل المرح سعيدة كل السعادة . أصرت اليوم اصراراً مطلقا على أن تنهض قائمة ، واستطاعت أن تقف على ساقيها ساعة كاملة دون أن تُسند . وقد راهنتنى على أنها ستكون بعد أسبوعين قادرة على أن ترقص . استدعيت طبيبنا الدكتور هرتسنشتوبه ، فهز كتفيه وقال : «اننى لا أفهم شيئا وأستغرب» . فكيف تريد بعد هذا أن لا نجيئك ونحن نحترق شوقاً الى أن نطير اليك ، وأن نصبح تعبيراً عن عرفاننا بجميلك ؟ أشكرى له صنيعه يا Lise ، أشكرى !

اكتسى وجه Lise الجميل الضاحك هيئة الجد فى اللحظة الأولى ، ونهضت على كرسيها ما استطاعت النهوض ، ونظرت الى الشيخ ضامةً يديها . ولكنها لم تستطع أن تكبح جماح نفسها ، فاذا هى تنفجر ضاحكةً على حين فجأة . . قالت وهى تشير الى أليوشا خجلةً غاضبة كطفل لم يملك أن يسيطر على نفسه وأن يمتنع عن الضحك :

— هو السبب ، هو السبب !

لو ألقى أحد فى تلك اللحظة نظرة على أليوشا الذى كان واقفاً وراء الشيخ على بعد خطوة منه ، للاحظ الحمرة الشديدة التى اصطبغ بها خداه فجأة . وومضت شعلة فى عينيه اللتين سارع يغضهما .

تدخلت الأم قائلة :

— عندها رسالة تريد أن تنقلها اليك يا ألكسى

فيدوروفتش . . . وأضافت تقول وهى تلتفت نحو أليوشـــا بحرارة وتمد اليه يداً صغيرة يكسوها قفاز أنيق :

— كيف حالك ؟

التفت الشيخ نحو أليوشا وألقى عليه نظرة منتبهة . ودنا الفتى من ليزا فمدَّ اليها هو أيضا يده وهو يبتسم ابتسامة غريبة فيها كثير من الارتباك والحرج . وحاولت الفتاة أن تصطنع هيئة الوقار والرصانة . وقالت له وهى تناوله رسالة صغيرة :

— كلفتنى كاترينا ايفانوفنا بأن أوصل اليك هذه الرسالة . انها ترجوك كثيرا أن تجىء اليها ، أن تجىء اليها بأقصى سرعة ، ومن غير ابطاء . انها تريد أن تراك حتماً ، وتأمل أن لا تخيب ظنها أبداً .

— تريد أن أزورها ؟ أنا ؟ . . . لماذا ؟

كذلك دمدم يقول أليوشا وقد ظهرت فى وجهه دهشة واضحة . واكتست سحنته فجأة تعبيرا عن همٍ كبير .

قالت الأم تشرح :

— أوه . . . الأمر أمر دمترى فيدوروفتش طبعا . . . وأمر هذه الأحداث الأخيرة كلها أيضا . . . لقد اتخذت كاترينا ايفانوفنا قرارا فى هذا الشأن . ولكنها تريد أن تراك أولاً . . . لماذا ؟ لا أدرى . . . ولكنها تصر اصرارا شديدا على أن تراك بأقصى سرعة . ستزورها ، أليس كذلك ؟ عليك أن تزورها حتما ، العاطفة المسيحية نفسها تأمر بذلك .

عاد أليوشا يقول بلهجة تعبر عن تلك الدهشة نفسها :

— ولكننى لم أرها فى حياتى الا مرة واحدة .

قالت الأم :

— ولكنها انسانة نادرة المثال ، عظيمة النقاء ، سامية

النفس . . . ولو بسبب ما قاست من آلام على الأقل . . . تذكر ما عانته وما تزال تعانيه . . . وفكِّر أيضا فيما ينتظرها . . . أليس هذا رهيبا ، أليس رهيبا ؟

قال أليوشا بعد أن مرّ بعينيه على الرسالة المقتضبة الغامضة التى لا تشتمل على أى ايضاح ، ولا تزيد على أن تدعوه الى زيارتها بالحاح :

— طيب . . . سأذهب . . .

صاحت Lise تقول وقد تحمست على حين فجأة :

— أوه ! . . . ما أجمل هذا منك وما أنبله . . . تباً لى . . . لقد قلت لأمى : «لن يذهب حتماً . . . سوف يرفض قطعاً . . . لأنه اعتكف فى الدير» . انك طيب جداً ، نبيل جدا ! لقد قدَّرت دائما أن لك نفسا رائعة ، ويسرنى أن أقول لك ذلك اليوم !

تدخلت الأم تقول بلهجة مهيبة :

— Lise

ولكنها لم تلبث أن ابتسمت ، ثم أضافت تخاطب أليوشا :

— لقد تركتنا نحن أيضا يا ألكسى فيدوروفتش ! أصبحت لا تزورنا أبداً ، مع أن Lise أسرت الىَّ مرتين أنها لا تشعر بارتياح الا بحضورك . رفع أليوشا عينيه اللتين كانتا مطرقتين الى الأرض ، واحمر من جديد ، وابتسم مرة أخرى دون أن يعرف لماذا . كان الشيخ قد انصرف عنه فهو لا يلاحظه . كان الشيخ قد أخذ يكلم الراهب المار بالمدينة ، الذى كان كما سبق أن قلنا ينتظر خروج الشيخ قرب مقعد Lise . كان واضحا أن هذا الراهب واحد من اولئك الرهبان العاديين جدا

الذين ينتمون الى فرقة رهبانية عادية ، ويملكون أفكارا محدودة جامدة ، ولكن يحركهم ايمان عميق جدا ، ايمان ثابت على طريقتهم الخاصة . ذكر الراهب للشيخ انه آت من منطقة نائية بالشمال ، من مدينة أوبدورسك « ، من القديس سلفستر ، وأنه ينتمى الى دير فقير جدا ، لا يضم الا تسعة رهبان . باركه الشيخ ، ودعاه أن يزوره فى صومعته متى حلا له ذلك .

سأله الراهب فجأة وهو يومىء الى **Lise** باشارة رصينة ذات أبهة :

— ما تلك القوة التى تتيح لك أن تحقق مثل هذه الأمور ؟

كان الراهب يشير الى «الشفاء» بمعجزة .

فقال له الشيخ :

— لم يحن حين الكلام عن الشفاء بعد . ليس التحسن شفاء تاما ، وربما كان مرد هذا التحسن الى أسباب أخرى . واذا كان ثمة معجزة مع ذلك ، فليس الأمر الا أمر قوة واحدة هى القوة التى تصدر الينا عن النعمة الالهية . لا شىء يتم الا بارادة الله . وأردف الشيخ يقول متجهاً بالكلام الى الراهب : — تعال زرنى أيها الأب ، ما دام فى وسعى أن أستقبلك : اننى مريض ، واننى أحس أن أيامى معدودات .

صاحت أم ليزا تقول :

— لا . . لا . . ان الرب لن يحرمنا منك ! ستعيش طويلاً ، طويلاً جدا . ما عسى يكون مرضك ؟ ان فى وجهك كثيرا من الحياة والفرح والسعادة .

— صحيح أننى أشعر أن حالتى اليوم أحسن كثيرا مما كانت ، ولكننى أعلم أن هذا لن يدوم . أنا أعرف الآن

مرضى معرفة كاملة . تقولين اننى أبدو فرحاً . فاعلمى أنه لا شىء يمكن أن يفرحنى كما يفرحنى أن أسمع منك هذه الملاحظة . لأن الانسان انما خلق للسعادة ، والذى يشعر بسعادة كاملة يحق له أن يقول : «لقد حققت وصية الله فى هذا العالم» . ان جميع الأتقياء ، ان جميع القديسين ، ان جميع الشهداء كانوا سعداء كلهم .

هتفت الأم تقول :

— ما أجمل هذا الكلام الذى تقول ! ما أعظم وما أرفع هذه المعانى التى تعبر عنها كلماتك ! ان كل كلمة تقولها تمضى الى القلب رأساً . ولكن أين هى السعادة ؟ من ذا الذى يستطيع أن يقول انه سعيد ؟ يا من تلطفت فأذنت لنا بأن نراك اليوم مرة أخرى ، هلاً تحمّلت أن أفضى اليك اليوم بما سكتُ عنه أثناء زيارتنا السابقة ولم أجرؤ قط أن أتحدث عنه فى المرة الأولى ! دعنى أكلمك فيما يعذبنى كثيرا منذ زمان طويل ، منذ سنين . اننى أتألم ، معذرة . . اننى أتألم . . . — قالت السيدة ذلك وهى تضم يديها أمامه فى سورة مفاجئة من الانفعال .

— ما الأمر ؟

— اننى أتألم . . . من فقدى الايمان . . .

— أأنت لا تؤمنين بالله ؟

— ليس هذا . . اننى لا أجرؤ حتى أن أفكر فى هذا . وانما أنا أشك فى الحياة الأبدية . ذلك لغز لم أستطع أن أستبينه ! وما من أحد ، ما من أحد يستطيع أن يهب لى جوابا عن هذه المسألة ! اصغ الىّ : أنت انسان تشفى المرضى وتعرف أغوار النفوس . لست أطمع طبعاً فى أن تصدقنى تصديقاً

كاملاً ، ولكننى أؤكد لك ، أقسم لك بأعظم ما فى هذه الحياة ، أننى لا أتكلم فى هذه اللحظة طيشاً وخفة . صدقنى : ان فكرة الحياة الآخرة هذه تؤلمنى الى حد العذاب ، الى حد الرعب ، الى حد اليأس . . . لا أدرى الى من يجب أن أتجه . . . لم أجرؤ أن أتجه الى أحد طول حياتى . . . ولكننى أجازف الآن فأتجه اليك . . . يا رب ! ما عساك تظن بى من ظنون ؟ (قالت ذلك وهى تعقف يديها) .

أجابها الشيخ قائلاً :

ــ لا تهتمى برأيى . أنا مقتنع بصدق ما تعانين من كرب .

ــ أشكر لك ذلك أعمق الشكر ! اننى أغمض عينى وأفكر ، أقول لنفسى : «اذا كان جميع البشر يؤمنون ، فمما ينشأ هذا ؟ هناك من يذهب الى أن كل هذا قد نشأ فى البداية من الخوف الذى أحدثته فى نفس الانسان قوى الطبيعة العاتية ، وأن لا شىء من ذلك موجود فى الواقع» . ثم أقول لنفسى عندئذ : «واذن فاننى أنا التى آمنت طوال حياتى سأموت فما يبقى منى بعد الموت شىء ، ما يبقى الا قليل من العشب على قبرى» ، كما قرأت هذا الكلام لكاتب من الكتاب» . ذلك أمر مرعب ! فكيف ، كيف أرتد الى الايمان ؟ على اننى لم أؤمن الا فى طفولتى ، وكان ايمانى بغير شعور البتة ، بغير تفكير قط . . . فكيف ، كيف السبيل الى البرهان على الحقيقة ؟ لقد جئت أسألك فى مذلة وتواضع أن تنيرنى يا أبتاه ! فاذا أفلتت منى هذه الفرصة اليوم ، فلن يستطيع أحد أن يجيبنى فى يوم من الأيام . ما السبيل الى البرهان ؟ بم يمكن أن أقتنع ؟ ما أشقانى ! اننى أنظر حولى فما أرى أحداً يقلقه

هذا الأمر ، وان جميع الناس ، أو جميع الناس تقريبا ، لا يحفلون به ولا يكترثون له ، واننى الوحيدة التى لا تطيق احتمال هذا الشك . أمر رهيب ، أمر رهيب !

ــ هو رهيب فعلاً . ولكن لا سبيل فى هذا المجال الى برهان ، ومع ذلك يستطيع الانسان أن يصل الى اليقين .

ــ كيف ؟ بأية طريقة ؟

ــ بمعاناة الحب الفعال . حاولى أن تحبى الأقربين حبا فعالاً بلا كلل . فكلما ازددت حباً ازددت اقتناعا بوجود الله ، وازددت اقتناعاً بخلود نفسك . متى وصلت الى نسيان نفسك فى حب الآخرين نسياناً تاماً ، أصبح يقينك كاملاً فلم يساور نفسك بعد ذلك أى شك . تلك حقيقة مجرَّبة مؤكدة .

ــ أتقول : الحب الفعّال ؟ هذه مشكلة أيضا ، ويا لها من مشكلة ! انظر يا أبتاه : اننى أبلغ من حبى الانسانية أنه يتفق لى فى بعض اللحظات ــ صدقنى ــ أن يخطر ببالى أن أدع كل شىء ، وأن أنفصل حتى عن Lise لأصبح ممرضة ! اننى أغمض عينى ، وأفكر ، وأحلم ، فأشعر فى نفسى أثناء تلك اللحظات بقوة لا تغالَب . ما من جروح ولا من قروح متقيحة يمكن أن تخيفنى . . . أنا أشعر بأننى مستعدة لأن أضمِّدها ، لأن أغسلها بيدى ، وأتمنى لو أصبح حارسة للمرضى قرب هؤلاء الأشقياء ، وأن أقبل جراحهم . . .

ــ انه لحسن جدا وجميل جدا أن ينصرف فكرك الى هذه الأمور بدلا من أن يفكر فى أشياء أخرى كثيرة . بدأت أعتقد أنك ستنتهين فى يوم من الأيام الى أن تقومى بعمل جليل فعلاً .

تابعت السيدة تقول بحرارة وكأنها خارجة عن طورها حماسةً :

— نعم ، ولكن الى متى أستطيع أن أحتمل مثل هذه الحياة ؟ ذلك هو السؤال الأساسي ! ذلك هو ، بين جميع الأسئلة ، السؤال الذى يعذبنى أكثر من سائر الأسئلة . اننى أغمض عينى وأسأل نفسى : «أتراك تستمرين طويلاً فى هذا الطريق ؟ وما عساك تفعلين اذا لاحظت أن المريض الذى ستغسلين قروحه لا يُظهر لك امتنانه ولا يعبِّر لك عن شكره فوراً ، وانما هو يرهقك بنزواته ، دون أن يقدِّر بل ودون أن يلاحظ اخلاصك للانسانية المعذبة ، وتفانيك فى سبيلها ؟ وما عساك تفعلين اذا هو ثار عليك ، وأغلظ لك القول ، أو شكاك الى الادارة (وذلك ما يفعله فى كثير من الأحيان أولئك الذين يعانون آلاما شديدة) ؟ أتراك تستمرين فى حبك أم لا تستمرين ؟» هل تتصور ؟ لقد قررت فى دخيلتى بارتياع : «اذا كان هنالك شىء يمكن أن يطفئ جذوة حبى «الفعال» فوراً ، فذلك الشىء انما هو نكران الجميل» . معنى هذا على وجه الاجمال اننى لا أقبل أن أفعل الا بأجر ، وأننى أطالب بأن يُجزى حبى على الفور مديحاً وحباً . وما لم أنل هذا الجزاء ، لا أستطيع أن أحب أى انسان !

كذلك اتهمت المرأة نفسها فى سورة صدق جامح ، حتى اذا فرغت من كلامها حدَّقت الى الشيخ وقد بدا فى وجهها عزم يوشك أن يكون تحديا .

قال الشيخ :

— ذلك بعينه ما حدثنى به طبيب منذ زمان طويل . كان رجلاً مسناً ينعم بحظ وافر من الذكاء . وكان يتكلم بصدق واخلاص كما تتكلمين ، ولئن تكلم مازحاً ، لقد كان الحزن

ظاهراً فى مزاحه . قال : «اننى أحب الانسانية ، غير أن هناك شيئا فى نفسى يدهشنى : كلما ازداد حبى للانسانية جملةً واحدة ، نقص حبى للبشر أفراداً ، أى أشخاصاً لهم حياتهم الخاصة» وقال هذا الطبيب أيضا : «انه ليتفق لى كثيراً أثناء اندفاعى فى الأحلام أن تستبد بى حماسة شديدة ورغبة عارمة جامحة فى خدمة الانسانية ، حتى لقد ارتضى أن أُصلب فى سبيل البشر اذا بدا هذا ضرورياً فى لحظة من اللحظات . ومع ذلك لو أريد لى أن أعيش يومين متتاليين فى غرفة واحدة مع أى انسان ، لما استطعت أن أحتمل ذلك . اننى أعرف هذا بتجربة . فمتى وجدت نفسى قرب انسان آخر أحسست بأن شخصيته تصدم ذاتى وتجور على حريتى . اننى قادر فى مدى أربع وعشرين ساعة على أن أكره أحسن انسان : فهذا يصبح فى نظرى انساناً لا يطاق لأنه مسرف فى البطء فى تناوله الطعام على المائدة ، وهذا لأنه مصاب بزكام فهو لا ينفك يمخط . اننى أصبح عدواً للبشر متى اقتربوا منى ولو قليلا» . وأضاف الطبيب يقول مؤكداً : «ولكننى لاحظت فى كل مرة اننى كلما ازددت كرها للبشر أفرادا ، ازدادت حرارة حبى للانسانية جملةً» .

— فما العمل فى هذه الحالة ؟ ما العمل ؟ أليس هذا مدعاة لليأس تماما ؟

— كلا . . . انه ليكفى أنك تتحسرين على ذلك . افعلى ما تستطيعين أن تفعلى ، وسيُحسب لك هذا . ولقد فعلت كثيرا ما دمت قد استطعت أن تقرئى فى قلبك بهذا العمق كله وهذا الصدق كله ! واذا كنت لم تحدثينى بمثل هذا الصدق ، حتى فى هذه اللحظة ، الا لتسمعى منى ثناءً

5-1089

على حبك للحقيقة ، كما فعلتُ ذلك ، فانك لن تصلى طبعا الى شيء على طريق الحب الفعال ، وستضيع حياتك فى أحلام أكثر . ولكن من المؤكد أنك ستنسين عندئذ قلقك بصدد الحياة الآخرة ، بل وستنتهين الى أن يهدأ بالك فيما يتعلق بهذا الأمر ، بطريقة أو بأخرى .

— لقد دمرتنى ! الآن أدركت ، فى هذه اللحظة وحدها ، حين سمعت كلامك ، أننى كنت لا أتوق فى الواقع الا الى سماع ثنائك على صدقى فى الاعتراف لك بعجزى عن احتمال نكران الجميل . لقد نفذت الى دخيلتى ، وكشفت عن قرارة قلبى ، وحملتنى على أن أفهم نفسى بنفسى .

— أصحيح هذا الذى تقولين؟ اننى بعد اعترافك هذا قد اقتنعت بصدقك كل الاقتناع ، وأيقنت بأن لك قلبا طيبا . فاذا لم تبلغى السعادة ، فلا تنسى أنك سائرة فى الطريق السليمة ، فلا تحيدى عنها . واهربى من الكذب قبل كل شيء ، اهربى من جميع أنواع الكذب ، ولا سيما كذب الانسان على نفسه . راقبى ذاتك وافضحى الكذب فى نفسك كل ساعة ، وكل لحظة . وتجنبى الاشمئزاز من الناس ومن نفسك على السواء : ان ما قد يبدو لك فى طبيعتك شراً انما يصفيه وينقيه ويطهره مجرد شعورك به . حاربى الخوف كذلك ، وما الخوف على كل حال الا ثمرة من ثمرات الكذب . لا يصدنك عن ملاحقة الحب ما قد تثيره فيك عيوبك من رعب أو يأس ، لا تدعى حتى لأفعالك السيئة نفسها أن تهزمك فى هذا الكفاح . يؤسفنى أننى لا أملك أن أقول لك شيئا فيه مزيد من التشجيع : ان الحب الفعال شيء قاسٍ رهيب اذا قيس بالأحلام التى يحلمها المرء عنه . ان من يحلم بالحب

يشعر بظمأ الى عمل مباشر بطولى يحققه بسرعة وينال به اعجاب الناس ؛ حتى لقد يصل بهذه الطريقة الى التضحية بحياته راضيا شريطة أن لا يدوم الأمر زمناً طويلاً ، وانما يتم بسرعة ، كما لو كان على مسرح تراه الأبصار وتمدحه الألسن . ولا كذلك الحب الفعال ، فانه يقتضى جهدا ويتطلب صبرا ، وهو بالنسبة الى بعضهم كالعلم يجب تحصيله . وثقى من ذلك أنك حتى فى اللحظة التى ستلاحظين فيها مذعورةً أن جميع جهودك ضاعت سدىً بغير جدوى ، فتعترفين بأنك قد ابتعدت عن الهدف بدلاً من أن تقتربى منه ، ثقى أنك فى تلك اللحظة نفسها تكونين فى الواقع قد بلغت الهدف ، وسترين عندئذ بوضوح كامل ما قد أحدثه الرب فى نفسك من فعل هو المعجزة ، فان حب الرب يكون طوال تلك المدة قد شدّ أزرك وقاد خطاك وأرشدك الى الصواب على نحو لا تعرفين سره . معذرةً اذا كنت لا أستطيع أن أبقى معك زمناً أطول ، فان هناك أناسا ينتظروننى . الى اللقاء .

كانت السيدة تبكى . ثم هتفت تقول كأنما ثابت الى نفسها على حين فجأة :

— Lise, Lise ، لا تنس أن تباركها . باركها !

فقال الشيخ مازحاً :

— هى لا تستحق حتى أن تحب . لقد لاحظتُ كيف أنها لم تزد على أن تتسلى هنا . لماذا كنت تسخرين من أليوشا طول الوقت ؟

كانت Lise ، فعلاً ، قد انصرفت منذ البداية الى لعب ماكر . لقد لاحظت منذ الزيارة الماضية أن أليوشا يضطرب . يحاول أن لا ينظر اليها ، فكان هذا يسليها كثيراً . فهى اليوم

ترقب نظرته وتترصدها بالحاح . واذ لم يستطع أليوشا أن يقاوم نداء العينين اللتين كانتا تحدقان اليه ، فقد كان يرفع رأسه من حين الى آخر رغم ارادته ، كأن قوة عليا تحركه ، فينظر الى الفتاة هو أيضاً ، فاذا بالفتاة تأخذ تضحك مثبتة نظرها عليه ، فيضطرب أليوشا مزيداً من الاضطرات ويغضب . وانتهى أخيراً الى أن أدار لها ظهره واختبأ وراء الشيخ . ولكنه التفت من جديد بعد بضع دقائق ، بتأثير تلك القوة القاهرة نفسها ، ليعرف ألا تزال الصبية تراقبه أم هى كفت عن ذلك ، فاذا هو يلاحظ أن Lise التى مالت عن كرسيها المتحرك حتى تكاد تخرج منه لتراقب الفتى بمزيد من الانتباه ، كانت تنظر اليه من جانب ، منتظرةً بالحاح شديد أن يرفع عينيه نحوها ، فلما فاجأت نظرته اليها أخيراً انفجرت تضحك فى قهقهة بلغت من الاندفاع المباغت أن الشيخ نفسه لم يحتملها ، فقال للفتاة :

— لماذا تحاولين أن تضايقيه أيتها الصبية الشريرة ؟

فاحمر وجه الفتاة على حين فجأة احمراراً لم يكن فى الحسبان ، والتمعت عيناها ، واكتسى وجهها هيئة الجد الشديد ، وأجابت بغتةً بلهجة شكاة عنيفة ، وبعبارات سريعة عصبية :

— ولماذا نسى كل شىء ؟ لقد لعبنا معاً حين كنت طفلة صغيرة ، وكان يحملنى بذراعيه ، وكان يجىء فى الماضى الينا ليعلمنى القراءة ، هل تجهل ذلك ؟ ومنذ سنتين فقط ، أكَّد لى ، حين ودعنا ، أنه لن ينسانى فى يوم من الأيام وأننا سنظل صديقين دائما الى الأبد ! وهذا هو الآن يشبه أن يكون خائفا منى كأننى سآكله ! لماذا لا يقترب منى ؟ لماذا لا يكلمنى ؟ لماذا لا يجىء الينا ؟ أأنت الذى تمنعه ؟

نحن نعلم مع ذلك أن فى امكانه أن يخرج بحرية . وليس علىَّ أنا أن أناديه ، وانما واجبه هو أن يجىء ، اذا كان لا يزال يتذكر . ولكن لا ! هو يحقق لنفسه الأمن والسلام والخلاص ، أليس كذلك ؟ ولماذا ألبستموه ثوب الراهب هذا الطويل ؟ . . . انه يتعرض للسقوط على الأرض اذا ركض . . .

قالت الفتاة ذلك ثم لم تستطع أن تتمالك نفسها فاذا هى تغطى وجهها بيدها على حين فجأة وتنفجر ضاحكةً ضحكة كبيرة هى ضحكتها الطويلة العصبية التى لا تستطيع مغالبتها والتى تهزها هزاً قوياً دون أن تكون صاخبةً كثيراً . أصغى الشيخ اليها مبتسماً ، ثم باركها فى حنان . فتناولت يده لتقبلها وشدتها فجأة الى عينيها وأخذت تبكى قائلة :

— لا تغضب منى . ما أنا الا حمقاء لا أساوى شيئاً . . . ولا شك فى أن أليوشا على حق . . . انه على حق حين لا يريد أن يهتم بأمر صبية سخيفة هذا السخف كله .

قرر الشيخ فى سره :

— سأرسله اليهم حتماً .

٥

لتكن مشيئة الرب

طال غياب الشيخ قرابة خمس وعشرين دقيقة . كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة والنصف ولمَّا يصل بعدُ دمترى فيلوروفتش الذى عقد هذا الاجتماع من أجله . وكان يبدو

أنهم قد نسوه ، حتى أن الشيخ حين عاد الى صومعته ، وجد ضيوفه غارقين فى مناقشة حامية جدا . ان المناقشة تدور بين ايفان فيدوروفتش والراهبين الكاهنين . أما ميوسوف فهو يتدخل فى المناقشة فى كثير من الأحيان ، بل وبكثير من الحرارة ، ولكنه لم يحالفه التوفيق فى هذه المرة أيضا ، فهو يظل فى الدرجة الثانية ، والمتناقشون يجيبونه ذاهلين ، فكان هذا يزيد حنقه ويفاقم غيظه . لقد سبق له أن تنافس مع ايفان فيدوروفتش فى ميدان سعة الاطلاع . فلم يستطع أن يطيق ذلك الازدراء الخفيف الذى أظهره له ايفان . كان يحدث نفسه قائلاً : «كنت أعتقد ، حتى الآن على الأقل ، أننى فى مستوى كل ما يشكل التقدم فى أوروبا ، ولكن هذا الجيل الجديد يظهر أنه يتجاهلنا عامدا» . وأما فيدور بافلوفتش فكان قد آلى على نفسه أن لا يتحرك من مكانه ، وأن لا ينطق بكلمة واحدة ، لذلك ظل صامتا بعض الوقت ، ملاحظاً مع ذلك جاره بيوتر ألكسندروفتش ، مبتسما ابتسامة هزء وسخرية ، مبتهجا بما يراه فيه من حنق وغيظ . انه يفكر فى أن يثأر لنفسه منذ مدة طويلة ، ولا يريد أن يفوت فرصة جميلة كهذه الفرصة . واذ أصبح لا يطيق صبرا ، فقد مال على كتف جاره وعاد يمطره بسخرياته من جديد ، متكلما بصوت خافت :

ــ لماذا لم تنصرف منذ قليل ، بعد تلك القصة التى رويت عن القديس الذى قطعت عنقه والقبلات التى طبعها على رأسه ؟ لماذا رضيت أن تبقى فى صحبة أناس يبلغون ما أبلغه أنا من قلة الاحتشام وسوء الأدب ؟ سأذكر لك السبب : انك قد بقيت لأنك شعرت بمذلة واهانة ، فأنت تنتظر اللحظة التى تثأر فيها لنفسك باظهار ذكائك . وانى لأراهن على أنك

لن تبارح هذا المكان قبل أن تظهر ذكاءك لهم .

ــ استأنفت ثرثرتك ؟ سوف أنصرف ، بل سوف أنصرف فورا .

حاول فيدور بافلوفتش أن يخزه من جديد قائلا :

ــ دعك من هذا ! لسوف تبقى الى النهاية ، ولن تنصرف الا آخر المنصرفين ! ــ وفى تلك اللحظة نفسها تقريبا انما رجع الشيخ الى الحجرة .

توقفت المناقشة لحظات ، ولكن الشيخ ، بعد أن جلس فى مكانه السابق ، ألقى على المتناقشين نظرة لطيفة رضية كأنما ليشجعهم على مواصلة المناقشة . ولاحظ أليوشا الذى كان قد درس جميع تعابير وجه الشيخ ، لاحظ فورا أن الشيخ منهوك القوى وانه يتحامل على نفسه ويكلفها من أمرها عسراً فى سبيل أن يتغلب على تعبه . ان المرض قد أحدث للشيخ فى الآونة الأخيرة عدة غيبوبات من شدة الضعف : وها هى ذى صفرة شبيهة بالصفرة التى تسبق حالات الغيبوبة هذه عامةً ، ها هى ذى تغشى وجه الشيخ الآن ، وها هما شفتاه تبيضّان . وكان واضحاً مع ذلك أن الشيخ لا يرغب فى أن يختم هذا الاجتماع . لا بد أن هناك سبباً يدعوه الى ذلك . ولكن ما هو هذا السبب ؟ كان أليوشا يلاحظ الشيخ بانتباه شديد .

قال الراهب الكاهن يوسف ، وهو قيِّم مكتبة الدير ، قال يشرح وهو يشير الى ايفان فيدوروفتش :

ــ كنا نتكلم عن المقالة الشائقة جداً التى نشرها هذا الشاب . لقد أورد آراء أصيلة فى عدد من النقاط ، غير أن بعض آرائه يبدو ذا حدين . والموضوع هو موضوع القضاء الاكليركى ومدى الصلاحيات التى يجب أن يُعطاها . كان أحد رجال

الدين قد نشر كتاباً ضخماً فى هذه المسألة ، فردَّ عليه هذا الشاب بمقالة نشرها فى مجلة . .

أجاب الشيخ وهو يلقى على ايفان فيدوروفتش نظرة طويلة متفرسة :

— يؤسفنى أننى لم أقرأ مقالتك ، ولكننى سمعت عنها .

استأنف الأب قيِّم المكتبة كلامه يقول :

— ان هذا الشاب يدافع عن نظرية شائقة حقا ، وكأنه حين يعالج مشكلة القضاء الاكليركى ، يدحض مبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة .

قال الشيخ يسأل ايفان فيدوروفتش :

— هذه فى الحق فكرة شائقة ، ولكن بأى معنى تفهمها ؟

فأجابه ايفان بعد بضع لحظات من صمت ، فلم يصطنع فى جوابه ذلك التعالى الذى يشتمل على احترام مهذب ، وهو ما كان يخشاه أليوشا حتى الليلة البارحة ، وانما تكلم بلهجة فيها تواضع وتحفظ ، وفيها تقدير واعتبار ، ولا أثر فيها لأية فكرة مبيتة أو حكم سابق . قال :

— ان فكرتى هى أن الجمع بين العنصرين ، أى بين جوهر الكنيسة وجوهر الدولة ، سيظل قائماً الى الابد ولا شك ، رغم أنه مستحيل ولا يمكن أبدا أن يؤدى الى جعل العلاقات بينهما طبيعية او حتى بقدر ما منسجمة . والواقع أن الكذب هو الأساس الذى تقوم عليه المسألة . وعندى أن تسوية بين الدولة والكنيسة فى مسائل كمسألة القضاء مثلاً ، أمرٌ مستحيل ولا يمكن تخيله اطلاقاً . ان رجل الاكليروس الذى انتقدت نظرياته قد ذهب الى أن الكنيسة تحتل فى داخل الدولة مكانا معينا واضح الحدود . فأجبته بأننى ، من جهتى ، أرى أن الكنيسة

يجب ، على عكس رأيه تماماً ، أن تستغرق الدولة كلها وأن لا تكتفى بمأوى بسيط تعتصم به فى داخل التنظيم الاجتماعى . وأضفت الى ذلك قولى انه اذا تعذر الوصول الى هذا الهدف فى الظروف الحالية لسبب من الأسباب ، فيحسن أن ننظر اليه على أنه الغاية الضرورية التى يجب على المجتمع المسيحى أن يتجه اليها بكل قواه أثناء تطوره المقبل .

قال الأب بائيسى الراهب الكاهن ، العلاَّمة الشديد الصمت ، قال بصوت قاطع جازم ولكنه لا يخلو من عصبية :

— هذا صحيح تماما !

فصاح ميوسوف يقول وهو يضع ساقا على أخرى بحركة تدل على نفاد الصبر :

— ولكن هذا ليس الا عقيدة اولترامونتانية .

فانطلق الأب يوسف قائلا :

— دعك من هذا الكلام ! نحن ليس لدينا فى روسيا حتى جبال !

ثم استأنف بعد ذلك يقول متجها الى الشيخ :

— ان هذا الشاب قد أورد الردود التالية ، فيما أورد من ردود على آراء خصمه — ولاحظوا أن خصمه عضو من أعضاء الاكليروس — وهى آراء يعدها خصمه «جوهرية وأساسية» : الرأى الأول أو الموضوعة الأولى : «ما من رابطة اجتماعية يجوز لها أو يجب عليها أن تدعى لنفسها حق التصرف فى الحقوق المدنية والسياسية لأفرادها» ؛ الموضوعة الثانية : «ان حق القضاء الجنائى والمدنى يجب أن لا ينتمى الى الكنيسة ، لأنه يتنافى مع ماهيتها كمؤسسة دينية ويتنافى أيضا مع صفتها كتنظيم انسانى وُجد لتحقيق أهداف دينية» ؛ الموضوعة الثالثة والاخيرة :

«ان الكنيسة هي مملكة ليست من هذا العالم» (١).

فقال الأب بائيسي يتدخل مرة أخرى وقد بدا عليه الاستياء واضحا :

ـــ ذلك لعب بالالفاظ لا يليق في رأيي بعضو من أعضاء الاكليروس ! لقد قرأت الكتاب الذي رددتَ عليه ، وقد أدهشني أن أرى مؤلفه يقول : «ان الكنيسة هي مملكة ليست من هذا العالم» . ذلك أنها ان لم تكن تنتمي الى هذا العالم فمن البديهي أنها لن يمكن عندئذ أن توجد في هذا العالم على أية صورة من الصور . وليس هذا هو المقصود اطلاقاً من التعبير «ليست من هذا العالم» الوارد في الانجيل المقدس . ان التلاعب بالألفاظ على هذا النحو غير جائز ولا مقبول . ان سيدنا يسوع المسيح انما جاء ليقيم الكنيسة على الأرض . صحيح أن ملكوت السماوات لا ينتمي الى هذا العالم ، لأنه في السماء ، ولكن دخول ملكوت السماء لا يكون الا عن طريق الكنيسة التي أقيمت في الأرض . لذلك يجب أن تعد هذا التلاعب بالألفاظ المصطبغ بالروح العصرية أمرا لا يليق استعماله ولا يمكن قبوله في هذا المجال . ان الكنيسة هي في الواقع مملكة . وان رسالتها هي أن تسود وأن تحكم ، وستشمل مملكتها الأرض كلها أخيراً ، وذلك ما جاء في النبوءة على كل حال . . .

قال الأب بائيسي ذلك ثم صمت فجأة كأنما هو يمسك عن الكلام عامداً . وكان ايفان فيدوروفتش يصغي الى كلامه بانتباه فيه كثير من الاحترام ، فاستأنف حديثه متجهاً الى الشيخ قائلاً بهدوء عظيم ولهجة رصينة باشة طيبة :

ـــ ان الفكرة الأساسية التي تجمل مقالتي كلها هي أن

المسيحية كانت في الأزمنة القديمة ، أي طوال القرون الثلاثة الأولى من قيامها ، كانت كنيسةً فحسب ، وكانت لا تطمع في أن تصبح أكثر من ذلك . ولكن حين قررت الدولة الوثنية التي هي الدولة الرومانية أن تعتنق الديانة المسيحية ، فان الذي حدث بالضرورة هو أنها حين أصبحت مسيحية قد احتوت الكنيسة واستوعبتها مع بقائها وثنية في كثير من النواحي . ولم يكن من الممكن أن يحدث غير هذا على كل حال . فان روما من حيث هي دولة سياسية قد احتفظت بعناصر كثيرة مستمدة من الحضارة الوثنية والحكمة الوثنية ، ولا سيما فيما يتعلق بأهداف الدولة وأسسها نفسها . وكان طبيعيا أن لا تستطيع الكنيسة المسيحية حين دخلت في الدولة أن تضحي بأي مبدأ من مبادئها ، ولا أن تترك أي جزء من الصخرة التي بُنيت عليها . كانت الكنيسة المسيحية لا تستطيع الا أن تتابع أهدافها الخاصة كما رسمها لها الرب نفسه ، وهي امتصاص الكنيسة للعالم بأسره وللدولة الوثنية القديمة تبعا لذلك . ويترتب على هذا (اي بغية بلوغ أهداف المستقبل) أن الكنيسة ليست هي التي يجب عليها أن تسعى الى احتلال مكان معيَّن في داخل الدولة ، «ككل رابطة اجتماعية أخرى» أو «ككل تنظيم انساني وُجد لتحقيق أهداف دينية» (وذلك ما يقوله في موضوع الكنيسة مؤلف الكتاب الذي انتقدته) ، بل العكس هو الصحيح ، فان كل دولة من الدول الأرضية يجب عليها أن تستحيل في خاتمة المطاف من تطورها الى كنيسة ، وأن لا تصبح الا كنيسة ، متنازلةً من أهدافها الخاصة عن تلك التي لا تتفق وأهداف الكنيسة . وهذا التحول لن يغضَّ من قيمة هذه الدولة ولن ينتقص من شأنها ، ولن يفقدها شيئاً من كرامتها ومجدها

من حيث هي دولة كبرى ، لا ولن يسيء الى ما يتمتع به ملوكها وقادتها من بريق اجتماعي ، وكل ما هنالك أنه سيُخرج هذه الدولة من طريق الضلالة والوثنية الذى سارت فيه ، وسيضعها فى الاتجاه السليم الرشيد ، الاتجاه الوحيد الذى يمكن أن يؤدى الى تحقيق الغايات الأبدية . لذلك أقول ان مؤلف كتاب «اسس القضاء الاكليركى فى داخل المجتمع» كان عليه حين بحث عن هذه الأسس وحاول استخلاصها ، أن لا يعدها الا تسوية مؤقتة ، تسوية لا بد منها ولا محيص عنها فى هذا العالم الذى ما يزال فى حالة الخطيئة ولمّا يبلغ بعد خاتمة المطاف من تطوره . أما أن يتورط مؤلف هذا الكتاب فيزعم أن هذه الأسس التى عرضها والتى عدّد لنا الأب يوسف بعضها منذ هنيهة هى بطبيعتها نفسها أبدية ثابتة كالكون نفسه ، فانه يناقض عندئذ حقيقة الكنيسة ، ويعارض رسالتها المقدسة الأبدية التى يجب أن لا تُمس . ذلك كل ما قلته فى مقالتى التى أوجزتها لكم ايجازا وافيا .

قال الأب بائيسى يتدخل مرةً أخرى مشدداً على كل كلمة من كلماته :

— الخلاصة اذن أن بعض النظريات الشائعة كثيرا فى قرننا التاسع عشر هذا تريد للكنيسة أن تستحيل الى دولة منتقلةً من مرحلة دنيا الى مرحلة عليا ان صح التعبير ، وأن تذوب فى الدولة ، بعد أن أخلت المكان للعلم وروح العصر والحضارة ، فاذا هى رفضت هذا مع ذلك ، وقاومت هذا التحول ، عُرض عليها عندئذ مكانٌ محدود تلوذ به وتأوى اليه تحت رقابة الدولة ، كما يحدث اليوم فى أكثر البلاد الأوروبية . أما النظرة الروسية ، أما عقيدتنا فهى ترى أن الكنيسة ليس عليها

هى أن تستحيل الى دولة كما يتم الانتقال من صورة دنيا الى صورة عليا من صور الوجود ، وانما الدولة هى التى يجب عليها أن تحاول أن تصير أخيرا الى كنيسة وأن لا تكون شيئا غير ذلك . هذا ما هو الصحيح ! ألا فلتكن مشيئة الرب !

قال ميوسوف ساخراً وهو يضع ساقاً على ساق مرة أخرى ، ولكن فى اتجاه معاكس :

— أعترف لك بأنك قد رددت الىَّ شجاعتى : اذا صح فهمى فأنت ترى أن المسألة مسألة مثل أعلى يجب الوصول اليه فى زمان مقبل ما يزال بعيدا كل البعد ، وربما امتد الى يوم عودة المسيح . لك ما تشاء ! ذلك حلم طوبوى جميل حول زوال الحروب والدبلوماسية والبنوك ، الخ ، بل ان هذا حتى يذكِّر بالاشتراكية بعض الشيء . لقد كنت أخشى فى البداية أن يكون كل هذا امراً جدياً ، وأن الكنيسة ستقضى ، منذ الآن ، فى الأمور الجزائية مثلا فتصدر أحكاماً بالجلد والأشغال الشاقة وربما بالاعدام !

استأنف ايفان فيدوروفتش كلامه هادئاً بغير تعثر ، فقال :

— حتى لو كانت المحاكم الاكليركية هى السلطة القضائية الوحيدة ، فان الكنيسة لن تصدر أحكاماً بالاعدام أو بالأشغال الشاقة . ان صفة الجريمة وطريقة معالجتها تتبدلان عندئذ حتماً ، لا دفعة واحدة وفى الوقت الحاضر بطبيعة الحال ، بل شيئاً فشيئاً وبسرعة كافية مع ذلك ...

قال ميوسوف وهو يحدّق اليه بنظرة نافذة :

— أأنت جاد فيما تقول ؟

فتابع ايفان فيدوروفتش كلامه قائلاً :

— يوم تحتوى الكنيسة المجتمع بأسره فانها سوف تحرم

الخطأة والعصاة ، ولكنها لن تقتل أحدا . قل لى : ما عسى يصير اليه المحروم ، وأين عساه يعتصم ؟ لسوف يكون عليه أن يقطع صلته لا بالبشر فحسب كما هو الحال اليوم ، بل بالمسيح أيضا . وستجعله جريمته عندئذ عدواً للانسانية وعدواً لكنيسة المسيح . وان الأمر لكذلك اليوم أيضا ، اذا نحن نظرنا فى أعماق الأمور ، ولكننا لا نعترف بهذا صراحةً . ان المجرم يجد اليوم ، فى حالات كثيرة جدا ، سبيلا الى ارضاء ضميره ، فهو يقول لنفسه : «صحيح أننى سرقت ولكننى لم أناصب الكنيسة العداء . . اننى لست عدو المسيح» . هكذا يفكر المجرم فى كثير من الأحيان فى عصرنا هذا . أما يومَ تحل الكنيسة محلَّ الدولة فسوف يصعب عليه أن يفكر هذا التفكير والا كان ينكر سلطة كل كنيسة فى هذا العالم ، قائلاً : «البشر جميعا على ضلال ، هم جميعا انحرفوا ، انهم الكنيسة الزائفة ، وأنا وحدى — أنا القاتل أو السارق — أنا وحدى الكنيسة المسيحية الحق» . وذلك موقف يصعب جدا اتخاذه ، اللهم الا بتضافر ظروف شاذة لا يعقل أن تتوافر . وانظر الآن من جهة أخرى الى مفهوم الكنيسة للجريمة : أليس هذا المفهوم خليقاً بأن يتغير من المفهوم الحالى ، الوثنى تقريبا ، الذى يقضى بالبتر الميكانيكى للعضو المريض ، كما يُفعل اليوم لحماية المجتمع ، وبأن يتجسد تجسداً تاما وغير كاذب فى فكرة خلق الانسان خلقاً جديدا وبعثه وخلاصه . . .

قاطعه ميوسوف سائلاً :

— الى ماذا تريد أن تخلص من هذا ؟ لقد أصبحت مرةً أخرى لا أفهمك . انه حلم آخر . شىء غامض لا شكل له ، بل لا سبيل الى فهمه . عن أى حرمان تتكلم ، ما

هذا الحرمان ؟ اننى أتساءل ألست تسخر منا وتضحك علينا لا أكثر من ذلك ، يا ايفان فيدوروفتش ؟

هنا انبرى الشيخ فجأة للكلام ، فالتفت الجميع اليه بحركة واحدة ، قال :

— ولكن هذا هو ما يحدث فى الواقع الآن أيضا . ذلك أنه ان لم توجد اليوم كنيسة للمسيح فان المجرم لن يرتدع عن جريمته ، لا ولن يعاقب بعد جريمته ، وأقصد بالعقاب هنا العقاب الحقيقى لا العقاب الميكانيكى فحسب ، كما قيل منذ هنيهة . فذلك العقاب لا يزيد على أن يهيج النفس فى أكثر الحالات . أما العقاب الحق ، العقاب الذى يخيف ويهدئ فى آن واحد ، العقاب الوحيد الناجع المجدى ، فهو حكم الضمير على صاحبه .

قال ميوسوف يسأل باستطلاع حار عنيف :

— كيف هذا ؟ هلا شرحته لنا ؟

قال الشيخ :

— انظر . ان ارسال المحكومين الى سجون الأشغال الشاقة ، وما يضاف اليه قبل هذا الارسال من تعذيب جسدى ان ذلك كله لم يُصلح أحدا ، وهو على وجه الخصوص لا يخيف المجرمين ، باستثناء عدد قليل منهم . فعدد الجرائم لم ينقص ، بل انه ليزداد . لا تستطيع أن تعترض علىَّ فى هذه النقطة . يترتب عن ذلك أن هذه الأساليب لا تحمى المجتمع البتة . فان العضو الضار الذى يُحذف من المجتمع بهذه الطريقة الميكانيكية فيرسل الى مكان بعيد ويغيب عن الأنظار ، ما يلبث أن يحل محله مجرم آخر أو مجرمان آخران . فاذا رأينا المجتمع مع ذلك محمياً حتى فى الوقت الراهن ،

واذا رأينا أن المجرم نفسه يملك اليوم أن يصلح نفسه وأن ينبعث انسانا جديدا ، فالفضل فى ذلك انما يرجع هنا أيضا الى قانون المسيح على نحو ما رسخ فى قرارة ضميرنا . ان اعتراف المجرم بذنبه كابن من أبناء المجتمع المسيحى ، أى كابن من ابناء الكنيسة ، هو السبيل الوحيدة الى شعوره بأنه آثم فى حق المجتمع أى فى حق الكنيسة . فازاء الكنيسة وحدها لا ازاء الدولة انما يمكن أن يشعر المجرم الحديث بأنه مذنب . فاذا تمت ممارسة حق القضاء باسم المجتمع أى باسم الكنيسة ، عرف المجتمع عندئذ من هم الذين يستحقون أن ينتهى حرمانهم ويستحقون أن يرجعوا اليه . ان الكنيسة التى لا تملك الآن أى سلطة قضائية فعّالة ولا تملك أن يكون لها تأثير أو نفوذ الا بالادانة الروحية ، لا يهمها العقاب الفعلى الذى يتم انزاله فى المجرمين . انها لا تطرد هؤلاء الجناة من حضنها ، بل تظل تحدب عليهم حدب الأب على أبنائه ، وأكثر من ذلك أنها تحاول أن تحافظ معهم على جميع الصلات التى تشد المؤمنين الى الكنيسة وتربطهم بها ؛ انها تقبل أن يدخلوا الكنيسة ويشاركوا فى الصلاة ولا تضن عليهم بتناول القربان المقدس . انها لا تحرمهم من احسانها ، وتعاملهم كسبايا أكثر مما تعاملهم معاملة جناة . وما عسى يقـــع لهؤلاء المجرمين ، يا رب ، لو أن المجتمع المسيحى ، أى لو أن الكنيسة قد نبذتهم كما نبذهم قانون الجزاء وفصلهم عن سائر البشر! ما عسى يحدث لو أن الكنيسة تعاقبهم هى أيضا ، فتحرمهم فورا كلما حكم عليهم قانون الدولة ؟ من المستحيل تخيل انحدار الى الدرك الأسفل من اليأس الكامل كالانحدار الذى يمكن أن يهوى اليه هؤلاء الجناة فى مثل هذه الحالة ،

ولا سيما اذا كانوا من الروس ، لأن الجناة الروس ما يزالون محافظين على ايمانهم ! ومن ذا الذى يضمن أن لا يحدث عندئذ شىء رهيب ، الا وهو فقد الايمان من قلوب الجناة اليائسة ؟ ولكن الكنيسة تتصرف معهم تصرف أم حنون رؤوف ، وهى تعزف عن معاقبتهم فى الواقع ، لأنها ترى أنهم ، حتى دون أن تعاقبهم هى ، قد نالتهم عدالة الدولة بعقاب قاس ، فهم فى حاجة الى أحد تأخذه بهم شفقة على الأقل . وهى تمتنع عن معاقبتهم خاصةً لأن عدالة الكنيسة هى العدالة الوحيدة القائمة على الحقيقة ، فلا يمكنها والحالة هذه أن تتعاون معنويا وعمليا مع أى قضاء آخر ولو على صورة تسوية مؤقتة . ولا سبيل الى أى تنازل فى هذه النقطة . ان المجرمين لا يشعرون فى البلاد الأخرى بالندم والتوبة الا نادرا فيما يقال ، لأن المذاهب الحديثة الرائجة هناك لا تستطيع الا أن تعزز شعورهم بأن الجرائم التى ارتكبوها ليست جرائم ، وانما هى أعمال تمرد على القوى التى تضطهدهم ظلما وعدوانا ، فالمجتمع ينبذهم من حضنه آليا ، ويغلبهم على أمرهم بقوته الظافرة ، وهو يشفع هذا الابعاد للمجرمين (هذا على الأقل ما يقوله فى أوروبا كتاب تلك البلاد) يشفعه بكره لهم ولا يحفل بمصيرهم ويتناساهم نسيانا تاما مع أنهم اخوتنا على كل حال . فكل شىء يجرى اذن دون أى عطف من الكنيسة ، لأن الكنيسة أصبحت لا وجود لها فى عدد من تلك البلاد التى لم يبق فيها الا رجال الاكليروس ومبانٍ دينية رائعة . أما الكنائس بالمعنى الحقيقى فقد سارت منذ زمن طويل فى طريق يجب أن ينقلها من مرحلة يقال انها دنيا ، وهى مرحلة الجماعة الاكليركية ، الى المرحلة التى يُزعم أنها عليا وهى مرحلة الدولة ، بغية أن تغرق فيها

غرقاً كاملاً . تلك هى على الأقل حالة البلدان اللوثرية فيما يظهر . أما فى روما فقد أقيمت الدولة مقام الكنيسة منذ ألف سنة . لذلك لا يشعر المجرم هناك بأنه عضو فى الكنيسة ، فهو حين ينبذه المجتمع يهوى الى قاع اليأس . فاذا اتفق له ان يعود بعد ذلك الى المجتمع ، فانه فى كثير من الاحيان يظل يشعر نحو هذا المجتمع بكرهٍ يبلغ من القوة أن المجرم هو الذى ينبذ المجتمع فى هذه المرة . وفى وسعكم أن تتخيلوا الى أين يؤدى هذا . قد يتراءى ان الامور تجرى على هذا النحو غالبا فى بلادنا أيضا . ولكن الفرق بين بلادنا والبلاد الاخرى هو أن بلادنا ما يزال فيها ، عدا المحاكم النظامية ، كنيسة لا تفقد اتصالها أبدا بالمجرم ، لأنها تعده ابناً عزيزاً لها ما يزال جديرا بالحب . هذا الى أننا احتفظنا بالعدالة الاكليركية ولو فكرياً ، ولئن أصبحت هذه العدالة الآن غير فعالة ، فهى ما تزال موجودة للمستقبل ولو كحلم فقط ، والمجرم نفسه يعترف بسلطتها فى قرارة نفسه حتماً . وانه لصحيح كل الصحة أيضا ، كما قيل هذا منذ هنيهة ، أنه اذا استطاعت عدالة الكنيسة أن تؤكد نفسها فى الواقع بكل قوتها ، أى اذا استحال المجتمع كله الى كنيسة ، فان المحاكم الاكليركية ستساهم فى اصلاح المجرمين مساهمة لا وجود لها الآن اطلاقا ، بل ربما نقص عدد الجرائم كذلك نقصا كبيرا . ان الكنيسة نفسها — وهذا أمر مؤكد — ستستطيع عندئذ أن تنظر الى الشخص الذى سيرتكب الجريمة فى المستقبل ، والى الجريمة القادمة ، نظرة مغايرة فى كثير من الاحوال عن نظرتها اليهما اليوم ، وسيكون فى وسعها أن ترجع بالمنبوذين اليها ، وأن تمنع أولئك الذين ينوون أن يقارفوا عملاً سيئاً عنه ، وأن تُنهض أولئك الذين

سقطوا . — وأضاف الشيخ يقول وهو يضحك ضحكة صغيرة : — صحيح أن المجتمع المسيحى ما يزال حتى الآن غير مهيأ ، وأنه غير باق الا بفضل الصالحين السبعة ؛ ولكن هؤلاء لا يمكن أن يزولوا ، والمجتمع المسيحى يقوم عليهم قيامه على أعمدة راسخة وطيدة بانتظار أن يتحول تحولاً كاملاً ، فلا يبقى مجتمعا أى تنظيما انسانيا يشبه أن يكون وثنيا حتى الآن ، وانما يصير كنيسة واحدة شاملة كلية تحكم الجميع . هذا ما سيكون ، هذا ما سيكون ، ولو فى آخر الزمان ، لأنه قد أريد وحُدد منذ الأزل . وما ينبغى أن يقلقنا طول الانتظار وبطء الزمن ، ما دام مفتاح العصور بيد الرب ، وما دام الرب يرتب تعاقبها بحكمته وطيبته . وسابق علمه . ذلك أن ما يبدو أنه ما يزال بعيدا جدا فى تقدير البشر قد يكون بحكم المشيئة الالهية على عتبة باب ظهوره يوشك أن يعبرها . هذا ما سيكون ، هذا ما سيكون .

قال الأب بائيسى مؤيدا فى رصانة ووقار :

— هذا ما سيكون !

قال ميوسوف بحرارة يغلب عليها استياء مكتوم :

— هذا غريب ، غريب الى أبعد حدود الغرابة !

فسأله الأب يوسف قائلاً بحذر :

— ما هو الشىء الذى تراه فى هذا الكلام غريبا هذه الغرابة كلها ؟

فهتف ميوسوف يقول منفجرا على حين بغتة :

— شىء عجيب كل العجب ! يزيلون الدول القائمة ليشيدوا فى مكانها الكنيسة كدولة ! ليس هذا عقيدة اولترامونتانية فحسب ، بل هو تطرف فى هذه العقيدة ! ان

البابا جريجورى السابع نفسه ما كان له أن يحلم بشىء من هذا القبيل !»

قال الأب بائيسى بصوت خشن :

— الأمر نقيض ما ترى تماما ! نحن لا نعتقد أن الكنيسة هى التى يجب أن تستحيل الى دولة ، فافهم رأينا حق فهمه . ان ذلك الحلم هو حلم روما حقا ، وهو ثالثة غوايات الشيطان ! وانما رأينا عكس هذا الرأى ، فالدولة هى التى يجب أن تتحول الى كنيسة ، هى التى يجب أن ترتقى الى حيث تصبح الكنيسة الكلية الشاملة على الارض ، وذلك نقيض ما تراه روما ، نقيض العقيدة الألولترامونتانية ، نقيض التأويل الذى تؤوله أنت ، وهو بعينه الرسالة الكبرى التى تحملها الارثوذكسية الى الأرض . فى سماء الشرق ستطلع هذه النجمة .

لزم ميوسوف صمتا وقورا . كان شخصه كله يعبر فى هذه اللحظة عن شعور خارق بمهابته وكرامته . وارتسمت على شفتيه ابتسامة كبرياء تصطنع التواضع . وكان أليوشا يشهد هذه المناقشة ويتابع جميع تفاصيلها ، خافق القلب . لقد هزّت هذه المناقشة جميع جوارحه . ووقع بصره عرضا على راكيتين الذى لم يكن قد تحرك من مكانه والذى كان ما يزال واقفا قرب الباب يسمع كل شىء باصغاء ، ويلاحظ كل شىء بانتباه ، رغم أنه غاضٌ بصره . ومع ذلك فان أليوشا اذ لاحظ لون خديه أدرك أن راكيتين لم يكن أقل منه اضطرابا لهذه المناقشة ، وحزر الخواطر التى كانت تبث فيه هذا الاضطراب .

قال ميوسوف فجأة بلهجة فيها سلطة ، وهيبة فيهـــا تعاظم :

— اسمحوا لى أيها السادة أن أقص عليكم حكاية قصيرة . حين كنت فى باريس منذ بضع سنين ، بُعيدَ الانقلاب الذى وقع فى شهر ديسمبر ، حدث أن زرت فى يوم من الأيام أحد معارفى ، وهو شخصية ذات نفوذ ، ذات نفوذ عظيم ، كانت تتولى فى ذلك الوقت وظائف حكومية . فالتقيت عند تلك الشخصية بسيد عجيب أمره . لم يكن هذا السيد من رجال المباحث بمعنى الكلمةً ، ولكن يظهر أنه كان يدير جهازا كبيرا من أجهزة الشرطة السياسية — ومعنى هذا أنه شخصية كبيرة فى بابها . انتهزت الفرصة فدخلت فى حديث مع هذا الرجل ، تدفعنى الى ذلك رغبة قوية فى الاطلاع . واذ لم يكن عند رب الدار عندئذ بصفته زائراً بل بصفته مرؤوسا يقدم تقريرا ، فانه وقد لاحظ حفاوة رئيسه بى ، قد شرفنى بنوع من الصراحة . طبعا لم ينفتح لى الا الى حد ، وكان أقرب الى الملاطفة منه الى المصارحة ، وهى تلك الملاطفة المعهودة فى الفرنسيين ، ولا سيما مع الأجانب . ولكننى استطعت أن أرى ما يقصده . لقد دار الحديث على الاشتراكيين الثوريين ، الذين كانوا يضطهدون فى ذلك الوقت على كل حال . ولست أحب أن أتعرض لموضوع الحديث الذى دار بينى وبينه ، أقتصر على أن أذكر لكم فكرة عجيبة جدا أفلتت من لسان هذا السيد الصغير على حين فجأة ، قال يسرُّ الىَّ : «والحق أننا لا نخشاهم كثيراً ، هؤلاء الاشتراكيين من الفوضويين والملحدين والثوريين . نحن نراقبهم عن كثب ونعرف أعمالهم وحركاتهم . غير أن بينهم رجالاً من طراز خاص ، وان لم يكن عددهم كبيرا جدا : أولئك هم المؤمنون ، المسيحيون ، والاشتراكيون فى الوقت ذاته . نحن نخشى هؤلاء أكثر من أى أحد آخر .

هؤلاء أناس خطرون جدا ! ان رجلا يجمع بين الاشتراكية والمسيحية معا لهو أخطر كثيرا من اشتراكي ملحد» . لقد فجأتني هذه الفكرة كثيرا آنذاك ، وقد تذكرتها الآن هنا ، أيها السادة ، لا أدرى لماذا . . .

سأله الأب بائيسى فجأة بغير لف أو دوران :

— هل تريد أن تقول ان هذه الفكرة تصدق علينا واننا فى نظرك اشتراكيون ؟

ولكن قبل أن يهتدى بيوتر الكسندروفتش الى جواب يقوله ، فُتح الباب وظهر دمترى فيدوروفتش بعد تأخر طويل جدا . كان الجمع قد أوشك أن يكف عن توقع وصوله ، حتى أن ظهوره المفاجئ هذا قد أحدث فيهم شيئا من دهشة .

٦

لماذا يجب أن يعيش مثل هذا الرجل ؟ !

ان دمترى فيدوروفتش ، وهو شاب فى الثامنة والعشرين من عمره ، متوسط القامة لطيف الوجه ، يبدو فى الواقع أكبر من سنه . انه نامى العضلات ، فاذا رآه الرائى أدرك أن له قوة جسمية كبيرة ، ومع ذلك فان فى قسمات وجهه شيئا مرضياً . هو نحيل المحيا خاسف الخدين ، فى لونه انعكاسات عليلة ضاربة الى صفرة . وان فى عينيه القاتمتين الواسعتين الجاحظتين تعبيراً غامضا مبهما ، رغم أن نظرته تبدو حازمة واثقة . وحتى حين يخرج عن هدوئه ويتكلم هائجاً ، فان نظرته

تبدو كأنها لا تطاوع حالته النفسية وانما هى تفصح فى كثير من الأحيان عن عواطف مختلفة قد لا تتفق والظروف القائمة . «ان من الصعب على المرء أن يعرف ما يدور فى فكره» ، كذلك كان يقول عنه محدثوه من حين الى حين . وكان الناس اذ يلاحظون نظرته القاتمة الواجمة يدهشهم أحيانا أن يروه ينفجر ضاحكاً على حين فجأة ضحكاً كبيراً يدل على مشاعر فرحة مرحة يندفع فيها فى نفس اللحظة التى تتجهم فيها عيناه . على أن ما يظهر فى سحنته من مظهر المرض ليس فيه ما يدهش الآن أحداً : ان جميع الناس يعرفون الحياة المضطربة القلقة التى يعيشها بمدينتنا فى الآونة الأخيرة «لاهياً قاصفاً مستهتراً» ، أو هم قد سمعوا عن ذلك ، وما من أحد يجهل أيضا درجة الاهتياج المرضى الذى وصل اليه فى خصوماته مع أبيه بصدد أمور تتعلق بالمال ، حتى أن الناس فى مدينتنا قد تناقلوا عن ذلك قصصاً وحكايات . والحق أنه بطبيعته غضوب ، وأنه «مشوش الذهن مندفعه» ، كما وصفه بذلك وصفا معبراً قاضى الصلح سيميون كاتشالنيكوف أثناء أحد الاجتماعات . ولقد كان فى ذلك اليوم متأنقاً أناقة لا مأخذ عليها ، يلبس صدرة مزررة وقفازين أسودين ، ويحمل بيده قبعة عالية . وكما يفعل كل عسكرى محال على الاستيداع منذ مدة قصيرة ، فقد أطال شاربه وحلق لحيته ، ودفع شعره القصير الى أمام على الصدغين . وهو يمشى مشية عسكرية حازمة واسعة الخطى . توقف على العتبة لحظة قصيرة ، وبعد أن أجال بصره على الحضور ، اتجه نحو الشيخ قُدُماً ، لأنه أدرك أنه رب المنزل ، فحيَّاه منحنياً له انحناءة كبيرة ، وطلب بركته ، فنهض الشيخ وباركه ، وقبّل دمترى فيدوروفتش يد

الشيخ باحترام ، ثم قال مضطرباً اضطراباً شديدا بما يشبه الحنق والاستياء :

— أرجو أن تتفضلوا فتغفروا اننى جعلتكم تنتظرون هذه المدة الطويلة كلها . ان الخادم سمردياكوف الذى أرسلته «باتيوشكا» قد أجاب عن أسئلتى الملحة مرتين بلهجة الواثق أن الاجتماع قد حُدِّدت له الساعة الواحدة بعد الظهر . وهأنذا أعلم الآن أن . . .

قاطعه الشيخ قائلا :

— اطمئن . ليس الأمر بذى بال . لقد تأخرت قليلاً ، ولكن ليس لهذا التأخر من خطورة . . .

— أشكر لكم تسامحكم . ولقد كنت أعوِّل على هذا التسامح لما أعرفه عنكم من طيبة . . .

قال دمترى فيدوروفتش ذلك وحيّا مرة أخرى ، ثم التفت نحو أبيه («باتيوشكا») فجأة ، فحيّاه تحية فيها ما كان فى تحيته للشيخ من انحناء شديد واحترام عظيم . واضحٌ أنه كان قد هيأ هذه التحية سلفاً ، وأنه فعل ذلك صادقاً ، لأنه يرى أن من واجبه أن يبرهن بهذه البادرة على احترامه وحسن نياته . وقد بوغت فيدور بافلوفتش وبهت ، ولكنه لم يلبث أن ثاب الى نفسه فاذا هو يهب واقفاً فيرد تحية ابنه بمثلها . لقد اكتسى وجهه على حين فجأة تعبيرا رصيناً مهيبا ، فما زاده ذلك الا خبثاً وشراً . وبعد أن حيا دمترى فيدوروفتش سائر الحضور فى الحجرة بانحناءة واحدة صامتة ، اتجه نحو النافذة سائراً بخطاه الواسعة الحازمة ، وجلس قرب الأب بائيسى ، على المقعد الوحيد الذى كان لا يزال خاليا . مال بصدره الى أمام ، متهيئاً للاصغاء ومتابعة المناقشة التى قطع حبلها .

ان وصول دمترى فيدوروفتش لم يستغرق أكثر من دقيقتين ، وكان لا بد أن تُستأنف المناقشة بعد ذلك فورا . ولكن ميوسوف لم يرَ فى هذه المرة أن من واجبه أن يرد على السؤال الملح الذى طرحه الأب بائيسى والذى يكاد يكون مزعجا .

قال بشىء من الاهمال الذى يُعرف به أبناء المجتمع الراقى :

— اسمحوا لى أن لا أتعرض لهذه النقطة . ثم ان المسألة معقدة جدا من جهة أخرى . وأنا ألمح أن ايفان فيدوروفتش يبتسم وهو ينظر الينا ، فلعل لديه آراء أصيلة طريفة فى هذا الموضوع أيضا ، فاتجهوا بالسؤال اليه ان شئتم .

فأجاب ايفان فيدوروفتش على الفور قائلا :

— ليس لدى شىء خاص أقوله ، الا ملاحظةً ثانوية . ان اللبراليين فى أوروبا ، وحتى هواة اللبرالية عندنا فى روسيا ، يخلطون فى كثير من الأحيان ، ومنذ زمن طويل جدا ، بين الأهداف القصوى التى ترمى اليها الاشتراكية وبين الغايات التى ترمى اليها المسيحية . وهذه النتيجة الغريبة العجيبة هى مع ذلك الصفة التى تتميز بها طريقتهم فى التفكير . ويتضح من جهة أخرى أن هذا الخلط بين الاشتراكية والمسيحية لا ينفرد به اللبراليون وهواة اللبرالية ، وانما هو يحدث كثيرا فى أذهان رجال الشرطة ، أقصد رجال الشرطة فى البلاد الأجنبية طبعا . وان حكايتك الباريسية هى من هذه الناحية ذات دلالة يا بيوتر الكسندروفتش .

فكرر بيوتر الكسندروفتش كلامه الأول قائلاً :

— أرجوكم مرة أخرى أن تعفونى من معالجة هذا الموضوع ، وانما أنا أوثر أيها السادة أن أقص عليكم حكاية أخرى شائقة

جدا ومميزة جداً ؛ والحكاية فى هذه المرة تتصل بايفـان فيدوروفتش . لقد كان ايفان فيدوروفتش منذ ما لا يزيد على خمسة أيام ، فى مجتمع يتألف خاصةً من سيدات من هذه المدينة ، فأعلن صراحة أثناء مناقشة جرت بين الحضور أنه ما من شيء فى هذا العالم يمكن أن يجبر البشر على أن يحبوا أقرانهم ، وانه ما من قانون طبيعى يفرض على الانسان أن يحب الانسانية ، فاذا كان قد وجد وما يزال يوجد حب على هذه الأرض ، فليس مرد ذلك الى قانون طبيعى ، بل الى سبب واحد هو اعتقاد البشر بأنهم خالدون . حتى لقد أضاف ايفان فيدوروفتش الى ذلك عابراً أن هذا هو فى الواقع جوهر القانون الطبيعى كله ، فاذا قُضى على اعتقاد البشر بخلودهم فسرعان ما ستغيض جميع ينابيع حبهم ، بل وسرعان ما سيفقد البشر كل قدرة على مواصلة حياتهم فى هذا العالم . أكثر من ذلك أنه لن يبقى هنالك شيء يعد منافياً للأخلاق ، وسيكون كل شيء مباحاً ، حتى أكل لحوم البشر . بل لقد مضى الى أبعد من هذا أيضاً فقال أخيراً ان القانون الأخلاقى للطبيعة لا بد له أن يتغير فوراً فى نظر كل فرد — فى نظرنا نحن مثلاً — متى كان هذا الفرد لا يؤمن لا بالله ولا بخلوده ، الى نقيض ما سلّم به الدين من قبل فاذا بالانانيه التى تمضى الى حد الجريمة لا تصبح مباحةً للانسان فحسب ، بل تصبح كذلك ضرورية من حيث أنها المخرج الوحيد المعقول ، بل والمخرج الوحيد النبيل له . ففى وسعكم اذن أيها السادة أن تحكموا بهذه المفارقة على الآراء الأخرى التى يراها عزيزنا الخيالى الكبير والسفسطائى العظيم ايفان فيدوروفتش ، سواء آراؤه التى سبق أن أعلنها وآراؤه التى لعله ما يزال ينوى أن يعلنها .

هتف دمترى فيدوروفتش فجأة على غير توقع :

— اسمح لى ! هل ما سمعته منك هو «أن الجريمة يجب أن لا تعد مباحةً فحسب ، بل يجب أن تعدّ كذلك ، فى نظر كل ملحد ، هى المخرج المعقول الذكى من وضعه ؟»

قال الأب بائيسى :

— تماما .

فقال دمترى فيدوروفتش :

— اننى سأحفظ هذا .

وبعد أن نطق دمترى فيدوروفتش بهذه الكلمات صمت فجأة ، كما تكلم فجأة . فنظر اليه جميع الحضور بكثير من الفضول .

واتجه الشيخ فى تلك اللحظة الى ايفان فيدوروفتش يسأله :

— هل يمكن أن يكون فى تقديرك ان زوال اعتقاد الناس بخلود الروح ستكون له هذه النتائج ؟

فأجابه ايفان فيدوروفتش :

— نعم ، ذلك هو الرأى الذى ذهبت اليه ، فعندى أنه لا وجود لفضيلة ما دام لا وجود للخلود .

— انك سعيد اذا كنت تؤمن بذلك ، او لعلك شقى جدا .

فسأله ايفان فيدوروفتش مبتسما :

— ولماذا أكون شقيا جدا ؟

فقال له الشيخ :

— لأن أغلب الظن عندى انك لا تؤمن أنت نفسك لا بخلود روحك ولا بشيء مما كتبته عن الكنيسة وعن المسألة الاكليركية .

فقال ايفان فيدوروفتش يعترف هذا الاعتراف الغـريب وقد احمر وجهه على حين فجأة :

— قد تكون على حق ! . . . ولكننى لم أمزح الا نصف مزاح . . .

— أعلم أنك لم تمزح الا نصف مزاح . فان هذه المسألة لمّا تحلّ فى قلبك حلاً حاسماً بعد ، وهي ما تزال تعذبك . ان الذين يعانون هذا العذاب يحبون أحياناً أن يعبثوا بيأسهم ، وذلك أيضا نتيجة ليأسهم . وهذا ما تفعله أنت . فانك ليأسك تلهو الآن بكتابة مقالات فى المجلات ، أو بالاندفاع فى مناقشات فى الصالونات ، دون أن تكون مؤمناً بجدلك نفسه ، حتى أنك تسخر من هذا الجدل فى سرك متألماً . . . ان هذه المسألة لم تحسم فى نفسك بعد . وذلك هو مصدر محنتك الكبيرة ، لأن هذه المسألة تقتضى الحل حتماً . . .

فمضى ايفان فيدوروفتش يسأل الشيخ أسئلة غريبة وقد حدّق مبتسماً ابتسامة لا يُعرف معناها :

— وهل من سبيل لى الى حلّها ؟ هل يمكننى أن أحلها ايجاباً ؟

— اذا لم تتوصل الى حسمها ايجاباً ، فلن تتوصل أبدا الى حلها سلبا أيضا ، وذلك بسبب قانون فى قلبك تعرفه حق المعرفة ، وذلك هو بعينه ألمك . اشكر للّه مع ذلك أنه وهب لك نفساً سامية قادرة على أن تعانى ألماً كهذا الألم «اطلبوا ما فوق ، اهتموا بما فوق ، فان سيرتنا نحن هى فى السموات» . أسأل الرب أن يجد قلبك حلاً أثناء حياتك على هذه الأرض ، وأن ترافقك بركته طوال طريقك !

قال الشيخ ذلك ورفع يده يريد أن يرسم ، وهو فى مكانه ، اشارة الصليب على ايفان فيدوروفتش ، ولكن ايفان نهض فجأة فاقترب من الشيخ وتلقى مباركته ، ثم قبل يده وعاد يجلس فى مكانه دون أن ينطق بكلمة واحدة . كان وجهه فى تلك اللحظة يعبر عن صلابة وجد . ان هذه البادرة التى قام بها وان تلك الكلمات التى تبادلها مع الشيخ والتى كانت لا تُتوقع أبداً من ايفان فيدوروفتش ، ان ذلك كله قد أحدث فى جميع الحضور أثراً قوياً ، وفاجأهم بما يشتمل عليه من سر وما يشيع فيه من أبهة . ساد الصمت بضع لحظات ، بينما كان وجه أليوشا يفصح عن اضطراب يوشك أن يكون جزعاً . ولكن ميوسوف رفع كتفيه مستهزئاً فجأة ، ثم اذا بفيدور بافلوفتش يهب عن مقعده بسرعة فيقول للشيخ مشيرا الى ايفان فيدوروفتش .

— أيها الشيخ المقدس الربانى ! هذا ابنى ، هذا فلذة كبدى ، هذا ولدى الحبيب ! انه أكثر أبنائى احتراماً ؛ هو من نوع كارل مور° قليلاً ان شئت . . . أما ابنى الذى وصل الآن ، دمترى فيدوروفتش هذا الذى جئت أستعين بك عليه ، فانه أقلهم احتراماً ، انه صنو فرانتس مور . انك تعرف هذين البطلين من أبطال مسرحية شيلر «قطاع الطرق» ، وأنا نفسى فى هذه الحال Regierender Graf von Moor [1] اقـــض فى الأمر ! انقذنا فنحن فى حاجة لا الى صلواتك فحسب ، بل الى نبوءاتك أيضا .

قال الشيخ بصوت ضعيف منهك :

---

[1] الكونت فون مور الحاكم ! (بالألمانية فى الأصل)

— لا تتكلم كما يتكلم انسان طائش العقل ، دعك من التهريج ، ولا تبدأ الحديث باهانة أهلك !

كان واضحاً أن التعب يستولى على الشيخ ، وأن قواه تبارحه شيئاً بعد شيء .

هتف دمترى فيدوروفتش واثباً عن كرسيه بحركة استياء واستنكار ، هتف يقول :

— هذه مهزلة كريهة ! لقد كنت أوجس هذا وأنا آت الى هنا . مغفرةً أيها الأب المحترم ! (كذلك قال دمترى فيدوروفتش للشيخ) . أنا امرؤ ضئيل الحظ من التعليم ، حتى اننى أجهل اللقب الذى يجب أن أناديك به . لقد خدعوك ، فكنت ضحية طيبة نفسك حين أذنت بأن تجمعنا هنا . ان أبى لا يسعى الا الى الفضيحة . . . أما هدفه من ذلك ، فلا بد أنه يعرفه . . . ان فى كل عمل يقوم به حساباً يجريه . وأظن مع ذلك اننى أحزر الآن هدفه من ذلك . . .

صاح فيدور بافلوفتش هو أيضا يقول :

— انهم جميعا يتهموننى ! وبيوتر الكسندروفتش يتهمنى أيضا . . .

أضاف ذلك وهو يلتفت فجأة نحو ميوسوف ، مع أن ميوسوف لم يخطر بباله أن يقاطعه ، وتابع كلامه يقول مخاطبا ميوسوف :

— نعم يا بيوتر الكسندروفتش ! لقد اتهمتنى . هم يأخذون علىّ أننى اختلست أموال أولادى ، واغتنيت على حسابهم . أليس هناك اذن محاكم ؟ اننى ألقى عليكم هذا السؤال . هلا اتجهت الى المحاكم يا دمترى فيدوروفتش فتقول لك عندئذ ، بالاستناد الى الايصالات التى وقعتها ، والرسائل التى أرسلتها ،

والاتفاقات التى أبرمتها ، ما هو مقدار ميراثك ، وما هو المبلغ الذى بددته ، وكم بقى لك ؟ لماذا يرفض بيوتر الكسندروفتش أن يفصح عن رأيه ؟ ليس دمترى فيدوروفتش شخصاً غريبا عنه . سأقول لكم لماذا يرفض : لأنهم جميعاً يناصبوننى العداء ، مع أن دمترى فيدوروفتش ما يزال مديناً لى بمال فى آخر الحساب ! هو المدين لى ، وليس دينى عليه مبلغاً زهيداً بل هو ألوف الروبلات ، أستطيع أن أثبت ذلك بوثائق فى يدى ! ان حياة القصف واللهو والتبذير التى يعيشها تترجع أصداء اشاعتها فى مدينتنا كلها ! وهو منذ كان فى الجيش قد تعود أن يرمى ألف روبل أو ألفين فى سبيل أن يقضى على عفاف البنات الشريفات ! هه . . . اننى أعرف هذا يا دمترى فيدوروفتش . . . اننى أعرف أدق التفاصيل الخفية ، وأستطيع أن أبرهن على ذلك . . . فاعلم هذا اذن أيها الأب المقدس : لقد أغوى دمترى فيدوروفتش أنبل فتاة من الفتيات ، فتاة تنتمى الى أسرة كريمة غنية كان أبوها رئيسه ، وهو كولونيل شهم شجاع مُنح لمزاياه وساماً رفيعاً هو صليب القديسة آنا مع سيوف ! لقد أفسد دمترى فيدوروفتش طهارة تلك المخلوقة البريئة اذ خطبها ، وها هى ذى يتيمة الآن ، تقيم فى مدينتنا ، وهى خطيبته ، بينما هو يتردد أمام بصرها على امرأة من النساء «الساحرات» يعرفها الناس عندنا حق المعرفة . ولكن هذه المرأة الساحرة ، رغم أنها قد عاشت بما يشبه الزواج المدنى مع رجل محترم جدا ، لها طبيعة مستقلة ، هى قلعة حصينة لا يمكن الوصول اليها — كزوجة شرعية تماما — لأنها امرأة فاضلة ، نعم فاضلة . . . أيها الآباء المبجلون ! غير أن دمترى فيدوروفتش يريد أن يفتح هذا الحصن بمفتاح من ذهب ، وذلك هو السبب فى هجومه علىّ الآن ، لأنه

يأمل أن ينتزع منى مالاً . وبانتظار ذلك أنفق على هذه الساحرة حتى هذه اللحظة ألوف الروبلات ، وهو ما ينفك يستدين من أجلها مالاً بعد مال . انه يستدين ، وهل تعلمون ممن يستدين ؟ تخيلوا ! أأقول يا ميتيا ؟

قال دمترى فيدوروفتش بصوت مدوٍ :

ـــ صه ! انتظر حتى أخرج من هنا ، لأننى لن أسمح لك بأن تدنس أثناء وجودى سمعة أنبل فتاة ! ان تجرؤك وحده على الالماع اليها اهانة لشرفها . . . لا لن أسمح بهذا !

كان دمترى فيدوروفتش يختنق غضباً وحنقاً .

قال فيدور بافلوفتش فيما يشبه انهيار الاعصاب وهو يحاول أن يخرج من عينيه دموعا :

ـــ ميتيا ، ميتيا ! مباركة الأب لابنه ، ما عساك فاعلاً بها ؟ ما عسى يحدث لو لعنتك ؟

فزأر دمترى فيدوروفتش يقول وقد جن جنونه غيظاً :

ـــ ممثل هزلى وقح !

فقال فيدور بافلوفتش :

ـــ انظروا كيف يعامل أباه ! هل تتصورون معاملتــــه للآخرين ؟ اسمعوا هذا أيها السادة : فى مدينتنا رجل فقير ولكنه محترم ؛ هو نقيب محال على التقاعد . لقد نزلت بهذا الرجل مصائب ، واضطر أن يستقيل من الجيش ؛ غير ان كل شىء قد جرى مجرى رفيقاً ، فلا تشهير به ولا حكم عليه ، وظل شرفه سليماً . وهذا الرجل يعيل أسرة كبيرة . فهل تعلمون ما صنع به دمترى فيدوروفتش منذ ثلاثة أسابيع ؟ لقد أمسكه من لحيته فى احدى الخمارات ، وجرّه الى الشارع وهو ما يزال ممسكاً لحيته ، وأخذ يضربه ضرباً مبرحاً على مرأى ومسمع

من جمهرة الناس ! كل ذلك لأننى عهدت الى هذا الرجل سراً ببعض الأمور فى قضية صغيرة .

قال دمترى فيدوروفتش وقد أخذ جسمه كله يرتعش حنقاً :

ـــ هذا كله كذب ! هو حقيقة فى الظاهر كذب فى الباطن ! اننى لا أحاول أن أسوّغ هذا العمل الذى قمت به ، بل اننى تصرفت مع هذا النقيب تصرف حيوان كاسر مفترس ، واننى نادم على ما بدر منى كل الندم ، واننى أشعر بالخزى والعار من ذلك الغضب المسعور الذى استبد بـى . ولكن ذلك النقيب ، ذلك الرجل الذى تقول انك عهدت اليه ببعض الأعمال ، انما ذهب الى تلك السيدة التى وصفتها منذ هنيهة بأنها ساحرة ، فكلمها باسمك ، وعرض عليها أن تشترى السندات التى وقعتها لك ، وأن تلاحقنى لدى القضاء ، من أجل أن أودع السجن متى أصبحت أزعجك بمطالبى فيما يتعلق بتصفية حساباتنا . فكيف تجرؤ أن تأخذ علىّ اليوم أننى أميل الى هذه السيدة على حين أنك أوعزت اليها أنت نفسك بأن تجتذبنى اليها ! ثم انها لا تجد أى حرج فى أن تقص هذا علنا ، ولقد روته لى بنفسها ، ساخرةً منك ! ولئن كنتَ تريد أن تُدخلنى السجن فليس لهذا الا سبب واحد على كل حال ، هو أنك تغار منى ، لأنك حاولت أن تزعج هذه المرأة بحبك ! ذلك أمر أعرفه أيضا ! هى التى روته لى ضاحكةً عليك ، هل تسمع ؟ ضاحكة عليك ، مستهزئةً بك ! تلكم هى ، أيها المباركون ، حقيقة هذا الرجل ، تلكم هى حقيقة هذا الأب الذى يظهر امتعاضه من سوء سلوك ابنه ! أيها السادة الذين شهدتم هذا المشهد ، اغفروا لى ما أظهرت من عنف ولكننى أوجست سلفاً ، أن هذا العجوز الوقح انما جمعكم

كلكم هنا من أجل أن يحدث وقيعة فاضحة ، أما أنا فلقد جئت على نية الصفح والمغفرة اذا مدَّ اليَّ يده ، وعلى نية نسيان الاساءة التى ألحقها بى ، وعلى نية طلب الصفح والمغفرة كذلك . أما وأنه أهاننى الآن ثم لم يكتف بذلك بل تجرأ على أن يهين أنبل فتاة — وهى فتاة أتحاشى أن أذكر اسمها فى غير طائل ، لأننى أحترمها احتراماً دينياً — فقد قررت أن أفضح لعبته الحقيرة على رؤوس الأشهاد ، رغم انه أبى ! . .

لم يستطع دمترى فيدوروفتش أن يتابع كلامه . كانت عيناه تقدحان شرراً ، وكان تنفسه صعباً . وكان جميع الحضور من جهة أخرى منفعلين ، ونهضوا جميعا باستثناء الشيخ ، من مقاعدهم فى اضطراب . وقد تجهم وجها الراهبين الكاهنين ، ولكنهما ينتظران قرار الشيخ . ولم يكن الشيخ قد تحرك . كان وجهه مصفراً اصفراراً شديداً ، لا من انفعال ، بل من ضعف مرده الى المرض . ان ابتسامة ضارعة تطوف على شفتيه . وهو من حين الى حين يهم ان يرفع يده ليهدئ روع هؤلاء الممسوسين ، وكان يمكنه فى الواقع أن يضع حداً لهذا المشهد بمجرد حركة ، ولكن كان يبدو أنه ينتظر هو نفسه شيئاً ما ، فكان يراقب المتحادثين بانتباه مشدود ، كأنه يحاول أن يفهم مزيداً من الفهم ، كأنه يحاول أن يدرك عنصراً فى الموقف ما يزال خافيا عنه مستعصيا على فهمه . وأخيرا شعر بيوتر الكسندروفتش ميوسوف بأنه أُذل اذلالاً عميقا ، وأنه جُلِّل بالخزى والعار . قال بحرارة :

— اننا جميعا نتحمل قسطاً من تبعة هذه الجرسة ! كيف كان يمكننى أن أتنبأ بشىء من هذا حين جئت الى هنا ؟ غير أننى كنت أعرف مَنْ هذا الرجل . يجب أن ينتهى

هذا الأمر فورا ! أيها الأب المبجّل ، ثق أننى لم أكن على علم دقيق بالتفاصيل التى كُشف عنها الآن . لقد كنت أرفض أن أُصدقها ، وانما عرفتها فى هذه اللحظة لأول مرة . . . أبٌ يغار من ابنه على امرأة سيئة الخلق ، ويتفق مع هذه المخلوقة على زج ابنه فى السجن . . هؤلاء هم الناس الذين اضطررت أن أجيء معهم اليك . . لقد غُرِّر بى ، فأريد أن أصرح علانية أننى قد غُرِّر بى وخدعت كما خدع غيرى . .

أعول فيدور بافلوفتش يخاطب ابنه بصوت ليس مألوفاً فيه :

— دمترى فيدوروفتش ! لو لم تكن ابنى لناديتك الى المبارزة فورا . . بالمسدس . . على مسافة ثلاث خطوات . . والأعين معصوبة . .

ثم كرر يقول وهو يقرع الأرض بقدميه :

— نعم ، والأعين معصوبة !

ان الكذابين العريقين الذين ظلوا طوال حياتهم يمثّلون يبلغون أحيانا من عمق تقمصهم للدور الذى يمثلونه أنهم يرتعشون انفعالاً ويبكون ، رغم قدرتهم على أن يقولوا لأنفسهم فى الوقت نفسه (أو بعد بضع دقائق) : «أنت تكذب أيها الكاذب العريق ! أنت تمثل حتى فى هذه اللحظة ، رغم غضبك «المقدس» ورغم هذه الدقيقة «المقدسة» من الغضب» .

قطّب دمترى فيدوروفتش حاجبيه . وأظلم وجهه ، ورشق أباه بنظرة ثابتة فيها احتقار لا يوصف . ثم قال بصوت رفيق مكظوم :

— كنت اظن . . . كنت أظن أننى سأعود الى مدينتى التى رأيت فيها النور ، بصحبة هذا الملاك ، خطيبتى ، لكى أجمّل أيامه الأخيرة ، فاذا أنا لا أرى فيه الا رجلاً فاسقاً

فاجراً ، وممثلاً دنيئاً خسيساً !

زار العجوز يقول من جديد ، وقد تقطعت أنفاسه وأخذ اللعاب يتدفق من فمه عند كل كلمة ينطق بها :

— الى المبارزة ! أما أنت يا بيوتر الكسندروفتش ميوسوف فاعلم أيها السيد أن أسرتك كلها لعلها لم تضم ولن تضم فى يوم من الايام امرأة أنبل ولا أشرف — نعم ولا أشرف ، هل فهمت ؟ — من هذه المرأة التى وصفتها أنت فى غير تحرج ولا حياء بأنها «مخلوقة» ! وأما أنت يا دمترى فيدوروفتش ، فقد هجرت خطيبتك فى سبيل هذه «المخلوقة» ، وبذلك اعترفت بأن هذه الفتاة التى هى خطيبتك لا ترقى الى مستوى كعب حذائها . تلكم هى المرأة التى سميتموها «مخلوقة» !

صاح الأب يوسف يقول فجأة :

— هذا خزى !

وانبرى الفتى كالجانوف الذى لم يفتح فمه بكلمة واحدة حتى ذلك الحين ، انبرى يقول فجأة بصوته المراهق وهو يرتجف استياء وامتعاضا واستنكارا :

— هذا خزى وعار !

وكان الفتى قد احمر احمرارا شديدا .

وزار دمترى فيدوروفتش وقد بلغ ذروة الغضب ورفع كتفيه عاليتين كل العلو حتى ليكاد يبدو من ذلك أحدب الظهر ، زار يقول فى نوع من التخفف :

— لماذا يجب أن يعيش مثل هذا الرجل ؟ هلاً قلتم لى ، هلا قلتم لى هل يجوز أن ندع له أن يدنس الأرض برذائله مدة أطول ؟

سأل دمترى فيدوروفتش هذا السؤال وهو ينظر الى جميع

الحضور واحداً بعد واحد ، مومئاً الى أبيه بيده . وكان يتكلم ببطء مقطعاً ألفاظه .

هتف فيدور بافلوفتش يقول متهجماً على الأب يوسف :

— هل سمعتم أيها الرهبان ، هل سمعتم ما يقوله قاتل أبيه ؟ ذلك هو الجواب على قولك «هذا خزى وعار !» هلاّ قلت لى أين الخزى والعار ؟ ان هذه «المخلوقة» . ان هذه «المرأة السيئة السلوك» ربما كانت أقدس منكم أيها السادة الرهبان الكهنة الذين تظنون أنكم تظفرون فى الدير بالسلامة والخلاص ! صحيح أنها سقطت فى شبابها ضحية بيئتها ، ولكنها «أحبت كثيراً» ، والمسيح نفسه قد غفر للمرأة التى أحبت كثيرا . . .

قال الأب الوديع يوسف نافد الصبر :

— المسيح لم يغفر من أجل ذلك الحب . . .

— بل من أجل ذلك الحب ، من أجل ذلك الحب نفسه أيها السادة الرهبان ! تحسبون أنكم تحققون لأنفسكم السلامة والخلاص بأكل الكرنب الحامض ، وتظنون أنفسكم بررة تقاة صالحين . تغتذون بالأسماك ، تغتذون بسمكة صغيرة فى اليوم ، وتنوون ان ترشوا الله بأسماككم هذه !

— هذا لا يطاق ، هذا لا يطاق !

كذلك أخذ الحضور يقولون فى كل جهة من الصومعة . غير أن هذا المشهد الذى بلغ أوج الغلظة والحطة قد انتهى على نحو غير متوقع اطلاقا : نهض الشيخ فجأة ، فهرع أليوشا الذى كاد يفقد صوابه من شدة خوفه على الشيخ وعلى أهله ، هرع يسنده من ذراعه . اتجه الشيخ نحو دمترى فيدوروفتش ، فلما وصل اليه هوى يركع على ركبتيه . اعتقد أليوشا أن الشيخ

قد سقط على الأرض ضعفاً ووهناً ، ولكن الأمر لم يكن كذلك . فحين صار الشيخ راكعا على ركبتيه ، انحنى يحيى دمترى فيدوروفتش عامدا ، وبلغ من شدة انحنائه أن جبينه لامس الارض . دُهش أليوشا دهشة عظيمة نسى معها أن يمسك الشيخ بعد ذلك حين عاد الشيخ ينهض . وهذه بسمة واهنة لا تكاد تُدرك ، تحرك شفتى الشيخ . قال وهو ينحنى لجميع ضيوفه فى كل جهة من الجهات :

— اعذرونى ، اعذرونى جميعا .

لبث دمترى فيدوروفتش جامدا من الذهول بضع لحظات : لقد ركع الشيخ أمامه ، فما معنى هذا ؟ وهتف يقول بعد لحظة : «يا رب !» — ثم أخفى وجهه بيديه ، واندفع يخرج من الحجرة . اتجه سائر الزوار وراءه نحو الباب ناسين من شدة اضطرابهم أن يودّعوا صاحب الدار . واقترب الراهبان الكاهنان وحدهما من الشيخ يتلقيان مباركته .

— لماذا ركع ذلك الركوع ؟ أيكون هذا رمزاً الى شىء ؟

بهذا دمدم فيدور بافلوفتش وقد هدأ روعه فجأة وحاول أن يجرى الحديث بينه وبين صحبه دون أن يجازف مع ذلك فيخاطب واحدا بعينه منهم وهم يجتازون فى تلك اللحظة نطاق الصومعة .

فأجاب ميوسوف فورا يقول بلهجة غضبى :

— لست مسئولاً عن ملجأ المجانين هذا وعن هؤلاء المجانين جميعا ، ولكننى فى مقابل ذلك سأعفى نفسى بعد الآن من صحبتك يا فيدور بافلوفتش ، وثق أن هذا سيكون الى الأبد . أين ذلك الراهب الذى استقبلنا منذ قليل ؟ . .

ولكن «ذلك الراهب» ، وهو الذى كان قد دعاهم الى

الغداء عند كبير الرهبان ، لم يدعهم ينتظرونه ، فما ان هبطوا درجات مدخل صومعة الشيخ حتى كان قد اقترب منهم ، كأنه كان ينتظرهم هنالك طول الوقت .

قال له بيوتر الكسندروفتش دون أن يستطيع التحكم بحنقه والسيطرة على غضبه :

— أيها الأب المحترم ، أرجو أن تنقل الى الأب كبير الرهبان احترامى العميق ، وأن ترجو سيادته أن يتفضل بأن يعذرنى ، أنا ميوسوف ، عن اضطرارى الى التخلف حتما ، بسبب ظروف طارئة لم تكن فى الحسبان ، عن التشرف بتلبية دعوته الى الغداء رغم رغبتى القوية المخلصة فى تلبية هذه الدعوة الكريمة .

فأسرع فيدور بافلوفتش يتدخل قائلا :

— آ . . . هذا أنا . الظروف الطارئة التى لم تكن فى الحسبان هى أنا . اعلم أيها الأب الطيب أن بيوتر الكسندروفتش قد سئم صحبتى ولو لا ذلك للبى الدعوة بغير تردد . ولكنك سوف تذهب الى الدعوة يا بيوتر الكسندروفتش ، ستتشرف بتناول طعام الغداء عند الأب كبير الرهبان ، وأنا أتمنى لك شهية طيبة وطعاما هنيئاً ! أنا الذى سأمتنع عن حضور الوليمة لا أنت ! أما أنا فأعود الى منزلى ، وآكل فى دارى ، لأننى لن أستطيع أن أبلع شيئا هنا ، هل فهمت يا بيوتر الكسندروفتش ، يا قريبى العزيز جدا ؟

— أنا لست قريبك ، ولم أكن قريبك فى يوم من الأيام أيها الانسان الدنىء !

— لقد تعمدت أن أقول لك قريبى لأزعجك ، فأنا أعلم أنك تخجل من هذه القرابة وتنكرها . ولكنك قريبى

مع ذلك ، وفى وسعى أن أبرهن على هذا بتقويم القديسين » .

أما أنت يا ايفان فيدوروفتش فسأرسل اليك العربة لتعيدك الى المنزل فيما بعد ، فابق هنا ان شئت . ان اللباقة توجب عليك يا بيوتر الكسندروفتش أن تذهب الى غداء الأب كبير الرهبان ، ولو لتعتذر اليه عن الفضيحة التى شاركنا فيها أنا وأنت معا . . .

— أصحيح أنك منصرف ؟ أأنت لا تكذب ؟

— كيف أجرؤ أن أحضر المأدبة بعد الذى حدث يا بيوتر الكسندروفتش ؟ لقد اندفعت اندفاعا طائشا أيها السادة ، لقد نسيت نفسى ، فاغفروا لى ذلك . هذا الى أننى مضطرب ، وأننى أشعر بالخزى أيضا . أيها السادة ، ان لبعض الناس قلبا كقلب الاسكندر الأكبر ، وان لبعضهم الآخر قلبا كقلب الكلب الصغير «فيدلكا» . وأنا كالكلب «فيدلكا» فزعان ! فكيف أجرؤ بعد الذى بدر منى أن أشارك فى هذا الغداء وأن ألعق مرق الدير ؟ اننى لا أستطيع ذلك ، أشعر بالخزى ، فاعذرونى !

«الشيطان وحده يعلم أهو يقول الحقيقة أم يخدعنى !»

— بهذا حدّث ميوسوف نفسه وهو يتوقف عن السير ويتابع المهرّج الذى أخذ يبتعد ، بنظرة فيها دهشة وحيرة . والتفت فيدور بافلوفتش الى وراء ، فلما لاحظ أن ميوسوف يراقبه أرسل اليه قبلةً باليد .

قال ميوسوف يسأل ايفان فيدوروفتش باقتضاب :

— أأنت ذاهب الى الغداء ؟

— ولم لا أذهب ؟ ثم انه قد دعانى أمس دعوة خاصة .

— المصيبة اننى أشعر بأننى أكاد أكون مضطراً حقاً الى حضور هذا الغداء اللعين ، على الأقل لنعتذر عن الفضيحة التى وقعت ، ولنشرح أننا لا نتحمل تبعتها . . . ما رأيك ؟ — تابع

ميوسوف كلامه بلهجة هى تلك اللهجة المرة نفسها ، دون أن يعبأ بحضور الراهب الصغير الذى كان يصغى الى كلامه . فأجابه ايفان فيدوروفتش قائلا :

— صحيح . يجب أن نشرح أن التبعة لا تقع علينا نحن . وعلى كل حال ، لن يكون أبى معنا .

— أبوك ؟ ما كان ينقصنا الا أن يكون معنا ! يا للغداء اللعين !

ورغم ذلك مضى كلاهما الى الغداء . كان الراهب الصغير يصغى الى حديثهما صامتاً . واقتصر على أن قال لهما مرة واحدة وهم يجتازون الغابة الصغيرة أن الأب كبير الرهبان ينتظرهم منذ زمن طويل وانهم تأخروا نصف ساعة . ولكن أحدا لم يجبه . نظر ميوسوف بحقد الى ايفان فيدوروفتش ، وقال يحدث نفسه : «انه يمضى الى الغداء ، كأن شيئاً لم يحدث ! رأس عنيد ، وضميرٌ كارامازوفى !» .

٧

طالب اللاهوت الوصولى

قاد أليوشا شيخه الى المهجع وأجلسه على السرير . هى حجرة صغيرة جدا لا تضم من الأثاث الا ما لا غنى عنه . السرير صغير ضيق من حديد ، عليه قطعة من لباد تقوم مقام فراش . وفى ركن من الأركان ، قرب الأيقونات ، منضدة صغيرة عليها صليب وانجيل . تهالك الشيخ على السرير منهوك

القوى . كانت عيناه تلتمعان وكان تنفسه ثقيلاً . فلما جلس ، ألقى على أليوشا نظرة طويلة متنبهة ، كأنه يفكر فى شىء ، ثم قال له :

— اذهب يا عزيزى ، اذهب . يكفى بورفيرى لمساعدتى . أسرع . هم فى حاجة اليك هناك . اذهب الى الأب كبير الرهبان ، واحضر ذلك الغداء لتخدم على المائدة .

فقال أليوشا بصوت متوسل ضارع :

— اسمح لى أن أبقى قربك !

— أنت هناك أفيد . ليس بينهم هناك سلام . سوف تخدمهم ، وقد يكون فى حضورك خير لهم . اذا استيقظت الشياطين فاتل دعاءً . واعلم أيضا يا بنى (كان يحلو للشيخ أن يناديه بهذا) أن مكانك ليس هنا بعد اليوم . تذكر ما أقوله لك أيها الشاب : متى تفضل الرب فدعانى اليه ، اترك أنت هذا الدير ، واذهب ، اذهب تماما .

ارتعش أليوشا . فقال له الشيخ :

— فيم اضطرابك ؟ مكانك ليس هنا الآن . اننى أبارك خدمتك العظيمة لله فى الحياة الدنيا ، سيكون عليك أن تتجول كثيرا . وسيكون عليك أن تتخذ لنفسك امرأة ، يجب أن تتزوج . ان عليك أن تتألم كثيرا وأن تقاسى كثيرا قبل أن تستطيع العودة الى هنا . لن تخلو حياتك من الاعمال . ولكننى لا أشك فيك ، ولذلك انما أرسلك . المسيح معك . فاذا صنته صانك . ان آلاماً كبيرة تنتظرك ، ولكنك ستعرف السعادة فى هذه الآلام . اليك نصيحتى ، اليك وصيتى : ابحث عن الفرح فى الآلام . اعمل ، اعمل بغير هوادة . تذكر ما أقوله لك اليوم ، ذلك أننى أعلم ، ولو أتيح لى أن أتحدث اليك

مرة أخرى ، أن أيامى بل ساعاتى أصبحت بعد الآن معدودة .

عبرّ وجه اليوشا مرة أخرى عن انفعال عنيف . وأخذ طرفا شفتيه يرتعشان .

سأله الشيخ وهو يبتسم ابتسامة عذبة رفيقة :

— ما بك أيضا ؟ فليسكب أبناء هذه الدنيا دموعا على موتاهم . أما نحن هنا فاننا نغتبط مع الأب الذى يبارحنا الى العالم الآخر ، نبتهج معه ونصلى له . دعنى الآن . يجب على أن أصلّى . هيا أسرع . ابق قرب أخويك ، لا قرب واحدٍ منهما ، بل قربهما كليهما .

ورفع الشيخ يده ليباركه . كان يستحيل على أليوشا أن يعصى أمر الشيخ مهما تكن رغبته فى البقاء معه قوية . وكان يحترق توقاً الى سؤاله : «عمّا تدل عليه تحيته لأخيه دمترى ساجداً ؟» وكان هذا السؤال على طرف لسانه ، ولكنه لم يجرؤ أن ينطق به . انه يعرف أن الشيخ كان سيشرح له هذا الأمر من تلقاء نفسه لو كان يقدّر أن ذلك فى الامكان . أما وانه لم يفعل ، فمعنى ذلك أنه لا يريد أن يفعل . غير أن تلك التحية قد أحدثت فى نفس أليوشا تأثيراً قوياً جدا : كان أليوشا مقتنعاً بأن لهذه التحية معنى سرياً . ان هذه الحركة التى قام بها الشيخ تبدو له مثقلة بالسر ، وربما كانت مثقلة بالهول . ولما خرج من نطاق المنسك حاثاً خطاه من أجل أن يصل الى الدير قبل ابتداء الغداء عند كبير الرهبان (من أجل أن يخدم على المائدة لا أكثر ، طبعا) ، انقبض صدره فجأة وتوقف عن السير لحظة : لقد عادت تدوّى فى نفسه كلمات الشيخ التى يعلن فيها أن نهايته قد قربت . ان ما يتنبأ به الشيخ بمثل هذه الدقة لا بد أن يقع . هذه فى نظر أليوشا

حقيقة مقدسة . فما عسى تصير اليه حاله وحيدا بعد موت الشيخ ؟ كيف يعيش دون أن يراه ودون أن يسمعه ؟ الى أين عساه يذهب ؟ يأمره الشيخ أن يمسك عن البكاء ويترك الدير . يا رب ! ان أليوشا لم يشعر منذ زمن طويل بمثل الذى يشعر به الآن من حزن . أغذّ أليوشا خطاه وهو يقطع الغابة الصغيرة التى تفصل المنسك عن الدير ، واذ أحس بعجزه عن احتمال خواطره التى كان ثقلها يسحقه سحقاً ، فقد أخذ يتأمل أشجار الصنوبر التى تبلغ أعمارها مئات السنين ، والتى تنتصب قائمة على جهتى الممر فى الغابة . ليست المسافة بعيدة ؛ هى خمسمائة خطوة فى أكثر تقدير ؛ وفى مثل هذه الساعة من النهار يندر أن يصادف المرء فيها أحدا . ولكن ما ان بلغ أليوشا أول منعطف حتى لمح راكيتين على حين فجأة . كان يبدو على راكيتين أنه ينتظر شخصا ما .

سأله أليوشا حين أدركه :

— أتنتظرنى أنا ؟

فأجابه راكيتين ضاحكاً :

— حزرتَ . أنت ذاهب الى الأب كبير الرهبان ، أعلمُ ذلك . ان عنده وليمة غداء . هل تعرف أنه منذ اليوم الذى استقبل فيه الأسقف الذى كان يصحبه الجنرال باخاتوف — هل تذكر هذا ؟ — لم يعدّ مائدة تبلغ ما تبلغه مائدة اليوم من عناية ! لن أحضر أنا الغداء ، اما أنت فاذهب اليه وقدّم المرق للضيوف . هناك سؤال يجب أن أطرحه عليك يا أليوشا : ما دلالة ذلك الحلم ؟ لقد انتظرتك من أجل أن ألقى عليك هذا السؤال .

— أى حلم تعنى ؟

— تلك التحية الساجدة أمام أخيك دمترى فيدوروفتش . لقد بلغ من السجود له أن جبينه صدم الأرض !

— هل تقصد الأب زوسيما ؟

— طبعا أقصد الأب زوسيما .

— صدم جبينه الأرض ؟

— أيكون فى هذا التعبير اخلال بواجب الاحترام ؟ طيب . . . لنفرض أننى أخللت بواجب الاحترام . ولكن ما معنى ذلك الحلم ؟

— أجهل معناه يا ميشا .

— كنت أعلم أنه لن يشرحه لك . وليس فى الأمر شىء من سرٍ طبعا . هى تلك الحركات التقية الجوفاء نفسها تتكرر . ولكن الشيخ لم يمثل هذه التمثيلية بغير نيةٍ يبيتها . ان جميع الثرثارين فى المدينة والاقليم سيتحدثون الآن فى هذا الأمر وسيتساءلون : «ما دلالة هذا الحلم على المستقبل ؟ بأى شىء يؤذن هذا الحلم ؟» فى رأيى أن الشيخ لا يعوزه نفاذ البصيرة . لقد أحسّ أن هناك جريمة سترتكب ، لقد شم هذه الرائحة . ان الروائح فى منزلكم تنذر بشر مستطير .

— أية جريمة تقصد ؟

كان واضحا أن راكيتين يحاول أن يجد السبيل الى الافصاح عما يدور فى رأسه .

— فى أسرتك انما سترُتكب هذه الجريمة . ستقع هذه الجريمة بين أخويك وذلك الثرى أبيك . وبسبب ذلك انما صدم الأب زوسيما الأرض بجبينه مسبقا . فاذا وقع شىء فى ذات يوم قال الناس : «لقد تنبأ به ذلك الشيخ القديس» . ألا ما أسخفها من نبوءة أن يصدم المرء بجبينه الأرض !

ولكن الناس سيدعون أن ذلك كان رمزا او مجازا او شيئا لا يُعرف ! وسيظلون يذكرون بغير انقطاع أنه تنبأ بالجريمة ، واكتشف المجرم . ان العبطاء لا يفعلون الا هذا : يرسمون اشارة الصليب أمام حانة ، ويرمون المعبد بالحجارة ! ألا ان شيخك ليشبههم : يطرد الصالح طرداً بالعصا ، ويسجد أمام قاتل .

— أية جريمة تقصد ؟ أى قاتل تعنى ؟ ماذا تقول ؟

قال أليوشا ذلك وتوقف ، فتوقف راكيتين أيضا ، وقال يسأل أليوشا :

— أى قاتل ؟ أتزعم أنك تجهله ؟ ألا اننى أراهن على أنك فكرت فى هذا الأمر من قبل . وددت لو أعلم بهذه المناسبة . اسمع يا أليوشا : انك تقول الحقيقة دائما ، رغم أنك جالس دائما بين كرسيين : أفكرت فى هذا الأمر من قبل أم أنت لم تفكر فيه ؟

أجاب أليوشا بصوت خافت :

— فكرت فيه .

فاضطرب راكيتين هو نفسه ، وهتف قائلا :

— ماذا ؟ فكرت فيه ؟ أهذا ممكن ؟

فتمتم أليوشا يقول :

— أقصد أننى . . . لم أفكر فيه . . . ولكننى حين سمعتك تتكلم على هذا النحو الغريب منذ هنيهة ، خيل الىّ أننى فكرت فيه .

— أرأيت ؟ (لقد عبّرت عن نفسك تعبيراً واضحاً) . أرأيت ؟ انك حين رأيت كيف اشتبك أبوك وأخوك ميتيا اليوم قد خطرت ببالك الجريمة ! لم يخطىء اذن ظنى . . .

فقاطعه أليوشا يقول قلقاً :

— انتظر ، انتظر ! من أين أدركت أنت هذا كله ؟ . . ولماذا تهتم بالأمر هذا الاهتمام الشديد ؟ وددت لو أعرف ذلك أولا . .

— هذان سؤالان مختلفان ، ولكنهما سؤالان مشروعان ، وسأجيبك عن كل واحد منهما على حدة . من أين أدركت هذا كله ؟ اننى ما كان لى أن أدرك شيئاً لولا أننى اليوم فى لحظة معينة ، قد نفذت فجأة ودفعة واحدة الى سريرة أخيك دمترى فيدوروفتش كلها ، فرأيته كما هو . لقد فهمته كله دفعة واحدة بفضل سمةٍ من سمات طبعه . هناك بالنسبة الى رجال من نوع أخيك ، وهم رجال شرفاء فى حقيقة أمرهم ، ولكنهم متأججون بالشهوات ، هناك حد يجب أن يتحاشى المرء تجاوزه فى معاملتهم ، والا أصبحوا لا يتورعون حتى عن قتل أبيهم ! وأبوك رجل فاسق فاجر سكير عربيد لم يعرف القصد والاعتدال فى شىء من الأشياء يوما ، فلن يسيطرا على نفسيهما ، وسينجرف الاثنان . .

— لا يا ميشا ! اذا لم يكن ما تقصده الا هذا ، فأنت مخطىء ، وأنا أسترد تفاؤلى ، لن يمضى الأمر الى هذا الحد .

— فلماذا أراك ترتعش هكذا ؟ اسمع : ان أخاك ميتيا رجل شريف ، أسلّم لك بذلك (هو غبى لكنه شريف) ، غير أنه يحب الملذات . ذلك أساس طبيعته ، وهو العنصر المسيطر فى نفسه . وقد أخذ هذا عن أبيه الذى أورثه شهوانيته الخبيثة . اننى لأستغرب فى بعض الأحيان حين أنظر اليك يا أليوشا . كيف استطعت أن تحافظ على طهارتك ؟ انك واحد من أسرة كارامازوف أيضا ! والميل الجامح الى اللذة قد وصل الى أوجه ! فانظر الى هؤلاء الشهوانيين الثلاثة الذين

يرقب بعضهم بعضاً الآن ويتربص به مخفياً فى كمه خنجراً . لقد تجابهوا هم الثلاثة أنفاً لأنف ، ولعلك ستصبح رابعهم .

— أنت مخطىء فى موضوع تلك المرأة . ان دمترى يحتقرها . . . — كذلك قال أليوشا فى تشنج . فأجابه راكيتين :

— من ؟ جروشنكا ؟ . لا يا صاحبى . . . لا . . . انه لا يحتقرها البتة ، طالما بدلها علنا بخطيبته . هناك شىء . . شىء لا تستطيع الآن أن تدركه أيها الأخ ! حين يتوله بعض الرجال بحب امرأة جميلة ، ويعشقون جسدها ، أو حتى جزءا من جسدها (وهذا ما يفهمه الشهوانى جيدا) ، فانهم يصبحون مستعدين للتضحية بأولادهم فى سبيلها . وأن يبيعوا أباهم وأمهم وروسيا ووطنهم من أجلها . قد يكونون شرفاء فاذا هم يسرقون ، وقد يكونون وديعين فاذا هم يقتلون ، وقد يكونون أوفياء أمناء فاذا هم يغدرون . ان شاعرنا بوشكين الذى تغنى بساقي المرأة قد مجّد ساقيها الصغيرتين فى شعر . وهناك آخرون لا ينظمون شعرا ولكنهم لا يستطيعون أن ينظروا الى هاتين الساقين الصغيرتين الا ويعتريهم من ذلك اضطراب عنيف . وليست مفاتن المرأة ساقين فحسب . . لا أيها الأخ ، ان الاحتقار لا حيلة له فى ذلك ، هذا اذا سلمنا جدلا بأنه يحتقر جروشنكا . قد يكون صحيحا أنه يحتقرها ، ولكنه لا يستطيع أن ينفصل عنها وأن يتحرر من أسرها .

أفلت لسان أليوشا يقول فجأة :

— أنا أفهم هذا !

فقال راكيتين وقد ظهر عليه فرح خبيث :

— هه ! لا بد أنك تفهمه فعلاً ما دمت قد اعترفت بذلك على هذا النحو منذ الكلمات الأولى التى نطقت بها .

ولقد قلت قولك دون أن تريد ذلك ، وانما زلّ به لسانك . وهذا يجعل لاعترافك قيمة أكبر ، فالموضوع ليس بالجديد عليك ، ولا شك أنك فكرت اذن فى الشهوة ! ذلك هو اذن فتانا العف الذى احتفظ بطهارته ! أنا أعلم يا أليوشا أنك انسان رقيق القلب ، أنا أعلم أنك قديس . ولكن مهما تكن فتى وديعا هادئاً فان الشيطان وحده يعلم ما الذى فكرت فيه ، وما الذى أصبحت تعرفه منذ هذه السن ! أنت فتى بكر ، ولكنك سبرت الأغوار السحيقة . . . اننى ألاحظك منذ زمن طويل . أنت واحد من أسرة كارامازوف . . . أنت واحد من هذه الأسرة تاماً كاملاً . . . ولا بد أن نؤمن بأن للعرق والوراثة أثراً رغم كل شىء . . أنت شهوانى من جهة أبيك ، عبيط من جهة أمك . مالى أراك ترتعد فجأة ؟ ربما لأننى أقول الحقيقة ؟ هل تعلم ماذا حدث ؟ لقد تضرعت الىّ جروشنكا قائلة : «جئنى به (كانت تتكلم عنك) ، فأخلع عنه ثوب الراهب الذى يرتديه» . ليتك تعرف كم ألحت : «جئنى به ، جئنى به !» ولقد تساءلت ما الذى يشوقها فيك الى هذا الحد؟ . . هى امرأة خارقة ، صدقنى !

قال أليوشا وهو يضحك ضحكة مصطنعة :

— بلغها تحيتى ، وقل لها اننى لن أجىء . أكمل ما كنت تريد أن تقوله يا ميشا ، سأفصح لك عن فكرتى بعد ذلك .

— ما حاجتى الى مزيد من الكلام ؟ ان كل شىء واضح . معروف من زمان . اذا كان فيك أنت انسان شهوانى ، فما بالك بايفان ، أخيك من أبيك ؟ انه كارامازوف هو أيضاً . . ان مشكلة آل كارامازوف جميعاً تكمن هنا : هم أناس شهوانيون ،

أناس طمّاعون ، أناس عبطاء ! ان أخاك ايفان يسلّي نفسه الآن بنشر مقالات لاهوتية من باب الهزل ، خاضعاً في ذلك لحساب سخيف مجهول ، وهو في حقيقته ملحد ، وهو لا يخشى أن يعترف بهذه الخطة ، أخوك الطبيب ايفان ! وعدا هذا يحاول أن يسلب أخاك ميتيا خطيبته ، وسيظفر بذلك فيما يبدو . كيف ؟ وزيادة على هذا يفعل ذلك بموافقة ميتيا نفسه ، لأن ميتيا يتنازل له عن خطيبته ، بغية أن يتحرر منها ، وأن ينصرف الى جروشنكا بأقصى سرعة . وهذا كله — لاحظ ذلك — الى جانب نفسه النبيلة المبرأة من المنفعة ! ان أمثال هؤلاء الرجال هم من أشد الناس خطراً ! الشيطان وحده يعلم ماذا يجرى فى نفوسكم . ان أخاك نفسه يدرك خطته ، وهو نفسه يندفع اليها ! اسمع أيضا : ان أباك ، العجوز الصغير ، قد وقف الآن يعترض طريق ميتيا . لقد أفقدته جروشنكا هذه صوابه ، فمتى لمحها سال لعابه شبقاً . وبسببها وحدها انما أثار منذ قليل تلك الجرسة فى حجرة الشيخ ، لأن ميوسوف قد سمح لنفسه بأن يصفها بأنها مخلوقة سيئة السلوك . ان أباك مجنون جنون قط بقطة . . لقد استخدمها فى الماضى بأجر فى شئون حقيرة من شئون الخمارات التى يديرها . فلما لاحظ ذات يوم أنها جميلة ، اشتعل اشتعالَ نار الهشيم على الفور ، وهو منذ ذلك اليوم يكد ويجهد فى ملاحقتها ، ويحاصرها بعروضه ، عروضه الخسيسة طبعاً . . ولكن الأب سيصطدم على تلك الطريق بالابن . وأما جروشنكا فهى لمّا تعزم أمرها بعد ، وانما هى تمثل عليهما كليهما ، وتتسلى بالهاب نار غرامهما وتمحص أيهما أنفع لها وأجدى عليها . فأما الأب فانها تستطيع أن تسحب منه مالاً ولكنه لن يتزوجها ، وهى تعلم

ذلك ، حتى لقد يعود الى بخله بعد أن يكسب المعركة فيوصد دونها خزنته . وذلك هو السبب فى أنها لا تهمل ميتيا ولا ترى أن عليها أن لا تحفل به ، فان كان ميتيا لا يملك مالاً فانه قادر على أن يتزوجها ، على أن يتزوجها تماماً ! يدع خطيبته ذات الجمال الذى لا يضاهى ، يدع كاترينا ايفانوفنا ذات المحتد النبيل ، ابنة الكولونيل ، ليصبح زوج جروشنكا التى كانت فى الماضى محظية تاجر عجوز ، فلاح فاسق ، اسمه سامسونوف ، هو عمدة المدينة . ذلك كله ظرف يمكن ان يؤدى حقاً الى جريمة . وهذا بعينه هو ما ينتظره أخوك ايفان . وهو يجنى من ذلك فائدة من كل ناحية من النواحى . يظفر بكاترينا ايفانوفنا التى يتوق اليها ، ويظفر ببائنتها التى تبلغ ستين ألف روبل ، وذلك أمر لا يستخف به رجل صغير معدم مثله . لاحظ أيضا أنه لا يكون فى هذا كله قد أساء الى ميتيا ، وانما يكون قد أحسن اليه احسانا يعتز به . . اننى أعلم من مصدر مطلع أن ميتيا ، وقد كان منذ أسبوع فى احدى الخمارات ثملاً يقضى وقته مع نساء غجريات ، قد صرخ بصوت عالٍ أنه غير جدير بخطيبته كاتنكا ، وأن أخاه ايفان هو الجدير بها حقاً . أما كاترينا ايفانوفنا نفسها فمن المؤكد أنها لن تصمد مدة طويلة أمام رجل مغو مثل ايفان فيدوروفتش ، حتى أنها منذ الآن مترددة بين الاثنين . الا اننى لأتساءل ما الـــذى تجدونه أنتم جميعاً فى ايفان هذا حتى تفتتنوا به هـــذا الافتتان ، وحتى تكونوا أمامه فى حالة تشبه أن تكون وجداً ! صدقنى اذا قلت لك انه يسخر منكم ويضحك عليكـــم جميعاً .

سأله أليوشا بلهجة جافة وهو يقطب حاجبيه :

— من أين عرفت هذه الأشياء كلها ؟ ولماذا تؤكدها هذا التأكيد القاطع ؟

— ولماذا تسألني هذا السؤال بينما أنت تخاف جوابي ؟ انك تسلّم اذن ، في قرارة نفسك ، بأنني على حق .

— أنت تحمل عداوة لايفان ! لن يغترّ ايفان بالمال .

— صحيح ؟ طيب . . . وما قولك بجمال كاترينا ايفانوفنا ؟ ليست المسألة مسألة مالٍ فحسب ، رغم أن ستين ألف روبل مبلغ مغرٍ .

— ايفان يهدف الى ما هو أسمى من ذلك لن يغتر بألوف الروبلات . انه لا يسعى الى المال والاطمئنان . ربما يتوق الى الألم ويرنو الى العذاب .

— ما هذا الحلم أيضا ؟ ألا انهم جميعاً لمتشابهون ، هؤلاء النبلاء !

— اسمع يا ميشا ! ان نفس ايفان عاصفة ، وان عقله مهموم . ان فكراً عظيما يقطن فيه بلا حل . هو من أولئك الذين لا يسعون الى الملايين ، وانما يتطلعون الى حل مشكلات فكرهم .

صاح راكيتين يقول مفصحاً عن كره أصبح لا يخفي نفسه :

— سرقات أدبية ! انك لم تزد على أن حوّرت أقاويل شيخك . اما ايفان فقد ألقى عليكم لغزا !

قال راكيتين ذلك بحقد غير مكتوم حتى تبدل تعبير وجهه ، وتقبضت شفتاه ، وتابع كلامه :

— ولكنه لغز سخيف ! ما من شيء فيه الا ويمكن حزره بسهولة . يكفي أن تفكر قليلاً حتى تفهم كل شيء .

ان مقالته مضحكة باطلة ! أما النظريات التي عرضها منذ قليل فهي غبية بليدة ! «لا وجود للفضيلة ما دام لا وجود للخلود ، ويعني ذلك انه كل شيء مباح .» (وقد صاح أخوك ميتنكا عندئذ يقول : «انني سأحفظ هذا الكلام» ، هل تتذكر؟) هذه نظرية تغري أناساً أوغاداً — مالي أصبح فظاً فأنطق بهاجر القول ، هذه بلاهة ! — لا . . . لا أناساً أوغاداً ، بل مثقفين ادعياء يحملون في أنفسهم «أفكاراً عميقة عويصة» ! ألا انه لمتبجح ! ان جوهر تفكيره هو ما يلي : «من جهة أولى يستحيل عدم الانكار ، ومن جهة أخرى يستحيل عدم الاعتراف !» ليست نظريته كلها ، الا سفاهة ! ان الانسانية ستجد في نفسها القدرة على ان تحيا للفضيلة ، سواء آمنت بخلود الروح ام لم تؤمن ! لسوف تجدها في حبها لمعاني الحرية والمساواة والأخوة . . . .

لقد أصبح راكيتين عاجزاً عن كبح جماح نفسه ، فالتهب حماسة . وها هو ذا يثوب الى رشده كأنه تذكر فجأة شيئا ما . قال وهو يبتسم ابتسامة مصطنعة متكلفة أكثر من الابتسامة السابقة :

— كفانا كلاماً في هذا الموضوع ! لماذا تضحك ؟ أتحسبني وضيعاً ؟

— لا . . . ليس يخطر ببالي أن أحسبك وضيعاً . أنت انسان ذكي . . . ولكن دع عنك هذا . . . فقد ضحكت بغير سبب . أنا أفهم حق الفهم أن من الممكن أن تندفع هذا الاندفاع يا ميشا . لقد أدركت من اللهجة الجامحة والنبرة العنيفة في أقوالك أنك أنت أيضا لست تشعر نحو كاترينا ايفانوفنا بعدم الاكتراث . وقد راودني هذا الظن منذ زمن طويل أيها

الأخ . فذلك هو السبب فى أنك تكره ايفان . هل تغار منه عليها ؟

— لعلنى أغار منه على بائنتها أيضا ؟ هه ؟ اكمل كلامك يا أخى .

— لا ... لن أتكلم عن المال ... لن أهينك .

— أصدق قولك ما دمت قد قلته . ولكن فليأخذكم الشيطان ، أنتم جميعا وأخاك ايفان . . . ألا يمكنكم ان تفهموا اذن أن فى وسع المرء أن يكرهه بصرف النظر عن كاترينا ايفانوفنا ؟ هلاّ قلت لى لماذا يجب على أن أحبه ؟ لقد قال عنى سوءاً منذ أيام ، أفلا يكون من حقى والحالة هذه أن أقول فيه سوءاً أنا أيضا ؟

— لم أسمعه يتحدث عنك يوما ، لا بخير ولا بشر . . . انه لا يهتم بك .

— اما أنا فقد قالوا لى انه ، منذ ثلاثة أيام ، قد قال عنى ، فى منزل كاترينا ايفانوفنا ، كلاماً أهون منه الشنق . انه يهتم بخادمك المطيع ! أما من منا يغار من الآخر ، فهذا سؤال ! لقد تفضل فقال عنى اننى ان لم أعتزم فى مستقبل قريب جدا أن أصبح أرشمندريت ولم أقرر أن أترهب ، فسأسافر حتماً الى بطرسبرج ، فأعمل هنالك فى مجلة كبرى ، كناقد طبعا . . . وأبقى محرراً حوالى عشر سنين ، ثم أصبح بعد ذلك صاحب المجلة ، وأوجه المجلة فى اتجاه آخر ، فأجعلها مجلة لبرالية ذات ميول الحادية مع صبغة اشتراكية ، وحتى مع نوع من بريق الاشتراكية مراعياً رغم ذلك قواعد الحكمة والحذر . . . معنى هذا أننى سألعب على الحبلين ، وسأخدع الناس ! وبعد ذلك ، حين أشارف على نهاية حياتى الصحفية ،

أكون قد جمعت — فى رأى أخيك — رأس مال ضخما رغم الصبغة الاشتراكية ، فأستثمر رأس المال هذا بمعاونة يهودى صغير ما ، الى أن أبنى عمارة فخمة فى بطرسبرج ، فأجعل طابقها الأرضى مقراً لتحرير المجلة ، وأؤجر باقى العمارة شققاً . حتى لقد حدد أخوك المكان الذى سأبنى فيه العمارة ، فقال اننى سأبنيها قرب جسر كامينى الذى سيقام فيما يقال على نهر نيفا فى بطرسبرج ، بين حى ليتينى وحى فيبورج . . .

— ولكن هذا بعينه هو ما سيحدث يا ميشا نقطةً نقطة فى أغلب الظن !

كذلك هتف أليوشا يقول وقد أخذ يضحك ضحكاً فرحاً لم يستطع أن يمسك عنه .

— أنت أيضا أصبحت ساخراً يا ألكسى فيدوروفتش .

— لا . . . لا . . . تلك مزحة . . . سامحنى ! وانما كنت أفكر فى شىء آخر تماما . ولكن قل لى : من قصَّ عليك هذه التفاصيل ، ومن أين جئت بها ؟ انك لم تكن حاضرا عند كاترينا ايفانوفنا فيما أتخيل ، حين دار الحديث عنك !

— لم أكن حاضرا هناك ، ولكن دمترى فيدوروفتش كان حاضرا . ومنه انما سمعت هذا الكلام بأذنىَّ . أو قل ان شئت انه لم يذكره لى أنا ، ولكننى سمعته على غير ارادة منى طبعا ، لأننى كنت فى غرفة نوم جروشنكا ، ولم أكن أستطيع الخروج من الغرفة ، لأن دمترى فيدوروفتش كان متلبثاً فى الغرفة المجاورة .

— صحيح . . . لقد نسيت انها قريبتك . . .

— قريبتى ؟ جروشنكا قريبتى ؟ أتراك جُننت ؟ أيكون عقلك مختلاً ؟

كذلك صاح راكيتين وقد احمر احمرارا شديدا .

— لماذا ؟ ألستما قريبين ؟ لقد سمعت أنكما قريبان . . .

— سمعت ؟ أين سمعت هذا ؟ انكم معشر السادة كارامازوف ، تصطنعون أوضاع من ينتمى الى الطبقة النبيلة العريقة ، على حين ان أباك كان مهرجاً على موائد الأغنياء ، وأن هؤلاء كانوا يشرفونه أحياناً بوجبة يأكلها فى المطبخ ! أنا أعلم ! أننى مجرد ابن قس ، وهذا يجعلنى فى نظركم ، انتم النبلاء ، انساناً لا قيمة له ، ولكن هل ذلك سبب كاف لتهيننى بهذه الخفة وهذا الطيش اهانة لا داعى اليها ؟ ان لى كرامتى وشرفى أنا أيضا يا ألكسى فيدوروفتش ! أنا لا يمكن أن أكون قريب جروشنكا ، البنت المبذولة ، فاعلم هذا !

كان راكيتين غاضبا مهتاجا .

— معذرة . . . سامحنى . . . أرجوك ! لم يكن فى وسعى أن أعرف هذا . ثم لماذا تصفها بانها مبذولة ؟ ألعلها . . . واحدة من تلك النساء ؟

كذلك سأله أليوشا وهو يحمر على حين فجأة . ثم أردف يقول :

— أعود فأقول لك اننى قد ذُكر لى انها قريبتك . وأنت تراها أحيانا كثيرة ، وقد أكدت لى بنفسك أن ليس بينك وبينها علاقات حب . فهل كان يمكننى أن أتصور أنك تحتقرها الى هذه الدرجة من الاحتقار ؟ وهل هى تستحق هذا الاحتقار حقا ؟

— قد يكون ثمة أسباب تدعونى الى التردد اليها . لن أقول لك أكثر من ذلك . اما القرابة مع جروشنكا فان أخاك ، أو ربما أباك ، هو الذى سيفرض عليك هذه القرابة ، يفرضها

عليك انت لا علىّ أنا . . ها نحن وصلنا الآن . الأفضل ان تمضى رأساً الى المطبخ . آه . . ولكن ما الذى يحدث ؟ أنكون قد تأخرنا الى هذا الحد من التأخر ؟ لا يمكن أن يكونوا قد فرغوا من تناول الغداء مع ذلك ! اللهم الا أن يكون الأخوان كارامازوف قد دبرا «مقلبا» مما عُهد فيهم ! أكيد . . . هذا أبوك يبتعد ، ووراءه ايفان فيدوروفتش . انهما يهربان من عند الأب كبير الرهبان . وهذا هو الأب اسيدور على درجات المدخل يصيح لهما بكلام . ان أباك يصيح أيضا ، ملوحاً بيديه . انه يقذف شتائم ، فيما يبدو . . . أنظر ! هذا ميوسوف قد خرج راكباً عربته . هل تراه ؟ وهذا ماكسيموف الاقطاعى يركض فى تلك الجهة ! ألا انها لفضيحة حقاً ! اذن لم يتم الغداء . . . أتراهم ضربوا كبير الرهبان ؟ اللهم الا ان يكونوا هم الذين ضُربوا ! ما أجدرهم بذلك !

لم يكن تعجب راكيتين فى غير محله . لقد وقعت فضيحة فعلاً . لم تكن فى الحسبان . . . فضيحة لم يُسمع بمثلها من قبل . . . وقعت بمجرد «وحى والهام» .

٨

فضيحة

حين وصل ميوسوف وايفان فيدوروفتش الى عند رئيس الدير ، تغيرت حالة بيوتر ألكسندروفتش النفسية تغيراً سريعاً ، بتأثير طبيعته المهذبة المرهفة : لقد شعر فجأة بالخجل من حنقه . أحس فى

قرارة نفسه أنه كان عليه أن يحتقر ذلك الرجل السافل فيدور بافلوفتش مزيداً من الاحتقار ، فما يفقد هدوءه فى صومعة الشيخ بسببه ، الى حيث يفلت منه زمام سيطرته على نفسه . قال لنفسه وهو يصعد درجات المدخل الى مسكن رئيس الدير : «مهما يكن من أمر ، فان الرهبان لا يتحملون تبعة شيء مما حدث ، فما ينبغى ان أؤاخذهم . . وما داموا هم أيضا أناساً محترمين (أحسب أن هذا الأب نيقولاى ، رئيس الدير ، يرجع الى أصل نبيل هو أيضاً) ، فلماذا لا أكون فى معاملتهم لطيفا رقيقا مهذبا ؟ . . لن اتهجم على آرائهم ، بل سأتظاهر بتأييدها ، فأكسب مودتهم ، وسأبرهن لهم أخيرا على اننى لا شيء يجمعنى بهذا الايزوب ، هذا المهرج ، هذا التافه ، وأننى فى هذه المغامرة كلها ضحية مثلهم جميعا . . »

أما حقوق قطع الأشجار فى الغابة ، وحقوق الصيد فى النهر (وكان ميوسوف لا يعلم من جهة أخرى على وجه الدقة ما هو الجزء الذى كان يقوم عليه الخلاف من أراضيه) ، فقد قرر أن يتنازل لهم عنها تنازلا كاملا نهائيا ، وأن يعلن هذا التنازل فى ذلك اليوم نفسه ، لا سيما وأن قيمة ذلك كله زهيدة ، وأن يضع حداً لكل الدعوى القديمة التى أقامها على الدير .

وقد تعززت نياته الطيبة هذه فى نفسه مزيدا من التعزز حين دخلوا غرفة طعام رئيس الدير . والحق أن الغرفة لم تكن غرفة طعام ، ذلك أن مسكن رئيس الدير كان لا يتجاوز غرفتين . ولئن كانت هاتان الغرفتان أوسع مساحة وأوفر راحة من غرف الشيخ فان الأثاث فيهما بسيط غاية البساطة أيضا : هو أثاث من خشب الماهوغانى منجّد بالجلد من الطراز القديم البالى الذى كان رائجاً فى العقود الأولى من هذا القرن . حتى أن الأرض لم تكن مطلية .

ولكن كل شيء كان فى مقابل ذلك يسطع نظافة ، وكانت حافات النوافذ تزدان بأزهار ثمينة . على أن الشيء الذى كان يجذب الانتباه ويفتن البصر فى تلك اللحظة خاصة انما هو تلك المائدة المرتبة الحافلة ، رغم أنها ليست على جانب عظيم من الترف : غطاء نظيف ، أوان لامعة ، ثلاثة أصناف من الخبز أُحسن خبزها ، زجاجتان من نبيذ ، قمقمان مليئان بشراب العسل اللذيذ الذى صُنع فى الدير ، ابريق كبير من زجاج فيه شراب الكفاس الذى يُصنع بالدير واشتهر كثيرا فى المنطقة كلها . ولم يكن على المائدة فودكا . وقد روى راكيتين فيما بعد أن وجبة الطعام فى ذلك اليوم كانت تضم خمسة أطباق : حساء سمك مع فطائر بسمك فسمكاً مشوياً بطريقة خاصة يقال انها رائعة ، ثم كستليتات من سمك الحفش ، فجيلاتى ، فثمارا مسلوقة بالسكر ، فبالوظة فاكهة . كان راكيتين قد اطلع اطلاعا دقيقاً على كل شيء . انه لم يستطع أن يقاوم فضوله ، فتسلل حتى الى مطبخ رئيس الدير ، وكان يدخله من حين الى حين ؛ ولقد كانت له علاقات فى كل مكان على كل حال ، وكان يعرف كيف يكلم الناس . ان له نفساً قلقة حسودا . وكان لرضاه العظيم عن كفاءاته الكبرى ومقدراته العظيمة ، يميل إلى تضخيمها والمبالغة فيها . وكان واثقا من انه سيصبح فى المستقبل شخصا مرموقا ، وأنه سيمثل فى الحياة دورا كبيرا . ولكن أليوشا الذى كان يحبه كثيرا كان يؤلمه أن يلاحظ أن صاحبه يفتقر الى الاستقامة والشرف ، حتى أنه لا يظهر عليه أنه يخطر بباله لحظة أنه كذلك بل بالعكس ، فان راكيتين ، لثقته بأنه لا يسرق مالاً من دروج الناس ، كان يعدُّ نفسه مثال الكمال الأخلاقى . وما كان لأليوشا ، ولا كان لأحد فى العالم كله ، أن يحمله على تغيير رأيه فى هذه

النقطة . ولأن راكيتين شخصية ثانوية فانه لم يكن من الممكن أن يدعى الى وليمة الغداء هذه ، غير أن الأبوين يوسف وبائيسى قد دعيا اليها ، كما دُعى كذلك راهب كاهن آخر . ففى اللحظة التى وصل فيها بيوتر ألكسندروفتش بصحبة كالجانوف وايفان فيدوروفتش كان هؤلاء ينتظرون فى غرفة طعام رئيس الدير ، وكان المالك ماكسيموف جالساً كذلك فى أحد الأركان . استقبل الأب رئيس الدير ضيوفه متقدما اليهم حتى وسط الغرفة . انه شيخ فارع القامة نحيل الجسم ، ما يزال قوى البنية ، بشيب كثير فى شعره الأسود ، له وجه طويل صارم وقور . حيَّا ضيوفه صامتا ، ولكن هؤلاء اقتربوا فى هذه المرة يتلقون مباركته ، حتى أن ميوسوف جازف فأراد أن يقبل يده ، غير أن الرئيس سحب يده فى الوقت المناسب ، فلم يتم تقبيل . . . أما ايفان فيدوروفتش وكالجانوف فانهما أقبلا بغير تردد ، وتلقيا مباركة رئيس الدير على نحو طبيعي بل وشعبى ، وطبعا على يده قبلة كبيرة سُمع صوتها .

بدأ بيوتر الكسندروفتش الكلام وهو يبتسم ابتسامته الودود اللطيفة ، ولكن بلهجة فيها جد ووقار واحترام :

— نعتذر الى سيادتك أصدق الاعتذار عن أننا جئنا الى هنا دون أن يصحبنا فيدور بافلوفتش الذى تفضلت بدعوته أيضا . لقد اضطر أن يعدل عن حضور الوليمة ، ولهذا أسبابه لقد سمح لنفسه ، فى صومعة الأب المبجَّل زوسيما ، بأن يندفع فى مناقشات عائلية مؤسفة مع ابنه ، فقال كلاماً فى غير محله . . . أى بدرت منه أقوال غير لائقة أبدا . وهذا أمر اظن أن سيادتك قد علمت به (قال هذا وهو ينظر الى الراهبين الكاهنين) . وقد أدرك خطأه ، وشعر بأسف شديد ، وأحس بالخجل ، ولم يستطع أن يغالبه فرجانا أنا وابنه ايفان فيدوروفتش أن تعرب لك

عن عميق ألمه وشديد أسفه وصادق ندمه . . . وهو يأمل أن يصلح خطأه فى المستقبل ، ويرجوك أن تتكرم اليوم فتهب له مباركتك صافحاً عنه ناسياً ما بدر منه . . .

صمت ميوسوف . انه بعد أن أنهى خطابه المسهب قد بلغ من شعوره بالرضى عن نفسه انه لم يبق فيه أى أثــــــر للحنق الذى ألَّم به من قبل . أصبح يحب الانسانية من جديد ، حباً صادقاً لا تردد فيه . أصغى رئيس الدير الى كلامه بوقار ورصانة ، ثم أحنى رأسه قليلا ، وقال يجيبه :

— يؤسفنى غياب رفيقكم كل الأسف . فلعله كان سيتعلم محبتنا أثناء هذه المأدبة ، ولعلنا كنا سنشعر نحوه بمحبة . تفضلوا فاتخذوا أماكنكم الى المائدة أيها السادة .

ووقف أمام الايقونة ، وأخذ يتلو صلواته بصوت عال ، فخفض جميع الضيوف رؤوسهم باحترام ، وتقدم المالك ماكسيموف الى أمام ضاما يديه احداهما الى الأخرى معبراً عن تقوى خاصة .

وفى تلك اللحظة بعينها انما أخرج فيدور بافلوفتش من جعبته آخر مكيدة . يجب أن نذكر أنه قد كان فى نيته حقا أن ينصرف . كان قد أدرك فعلاً أن من المستحيل أن يحضر مأدبة رئيس الدير بعد سلوكه الشائن فى صومعة الشيخ ، حتى لكأن شيئاً لم يكن ، لا لأنه كان يشعر بخجل خاص من نفسه ، أو لأنه كان يلوم نفسه ، فربما كان عكس هذا هو الأصح ! ومع ذلك فقد شعر أن حضور المأدبة سيكون خالياً من الاحتشام تماما . ولكن ما كادت عربته المترجحة تصل الى أمام درجات مدخل الفندق ، حتى أحسَّ بتردد مفاجىء ، فتوقف فى اللحظة التى كان يهم أن يركب فيها العربة . تذكر أقواله نفسها التى نطق بها عند الشيخ : «انني أشعر كلما دخلت على بعض

الناس أننى أسوأ من الآخرين ، وأن الجميع يعدوننى مهرجاً ! فأقول لنفسى عندئذ : فليكن ! سأقوم بدور المهرج ، لأنكم جميعا أكثر منى غباوة ، وأخبث سريرة» . تمنى فى تلك اللحظة لو ينتقم من صحبه بحقارته . وتذكر فجأة بهذا الصدد ، أنه سئل مرةً فى الماضى عن السبب الذى يجعله يكره فلاناً من الناس ، فأجاب فى اندفاعة من اندفاعات تهريجه الوقح قائلا : «لماذا ؟ سأقول لكم . صحيح انه لم يسىء الىَّ أية اساءة . ولكننى ارتكبت أنا فى حقه حقارة سافرة ، ومنذ تلك اللحظة أصبحت أكرهه بسبب تلك الدناءة التى ارتكبتها فى حقه» .

فلما راودت هذه الذكرى فيدور ايفانوفتش ضحك ضحكة خبيثة صامتة ، وأخذ يفكر بضع لحظات ، والتمعت عيناه ، وارتعشت شفتاه ، ثم ما لبث أن اتخذ قراره فجأة : «سوف أتم ما بدأته» . ان الشعور الخفى الذى خضع له فيدور بافلوفتش فى ذلك الظرف يمكن التعبير عنه على النحو التالى : «لقد فاتنى أوان رد الاعتبار الى نفسى . فالأولى ما دام الأمر كذلك أن أمضى الى النهاية بكل صفاقة ، وأن أريهم على الأقل اننى لا اختشى منهم ، وأننى لا أحفل بما عدا ذلك !» وها هو ذا يأمر الحوذى بأن ينتظر ، وها هو ذا يعود أدراجه الى الدير مستحثاً خطاه ليمضى الى عند كبير الرهبان رأساً . لم تكن فى رأسه أية خطة واضحة معينة ، ولكنه يعلم أنه أصبح لا يستطيع السيطرة على نفسه ، وأن أى أمر تافه يمكن أن يدفعه فجأة الى الحدود القصوى من الدناءة — دون أن يتعرض مع ذلك للمضى الى أبعد من ذلك ، ودون أن ينجرف الى ارتكاب جريمة أو الى اقتراف أى عمل يمكن أن يؤدى به الى المثول أمام المحاكم . انه يعرف دائماً كيف يحجم فى هذه الحال ، بل كثيرا ما كانت تدهشه سيطرته

على نفسه فى هذا المجال . ولقد وصل الى غرفة طعام رئيس الدير فى اللحظة التى كانت فيها الصلاة قد انتهت فاقترب الضيوف من المائدة . وقف ساكنا على عتبة الغرفة ، وطاف ببصره على الحضور ، ثم أطلق ضحكة طويلة وقحة خبيثة بينما هو يتفرس فى جميع الأشخاص الحاضرين وقد ظهرت فى وجهه معانى التحدى والاستفزاز . وصاح يقول بصوت دوّى فى الغرفة كلها :

— ها . . . لقد ظنوا أننى انصرفت . . . فهأنذا أعود !

اتجهت اليه جميع الانظار خلال لحظة فى جو من صمت مطبق ، ثم أدرك الجميع فجأة أنه سيحدث شىء كريه طائش ، وأن فضيحة ستقع حتما . ولم يلبث بيوتر ألكسندروفتش ان انتقل من حالة المزاج المشرق والخلق الرضى الى حالة غضب شديد وحنق مسعور . ان الغيظ الذى كان قد هدأ فى نفسه وانطفأ فى قلبه قد اشتعل فى مثل لمح البصر سرعة ، وانطلق يتدفق تدفقا قويا . صاح يقول :

— لا . . . لن أطيق ذلك ! اننى لا أستطيع الصبر على هذا اطلاقا . . . وبأى حال من الأحوال !

ازدحم الدم فى رأسه ، وتعثرت كلماته واختلطت أقواله . . . ولكن الأمر لم يكن أمر فصاحة ! . . . وها هو ذا يتناول قبعته .

قال فيدور بافلوفتش :

— ما الذى لا يستطيع أن يصبر عليه «بأى حال من الأحوال ؟» أتأمرنى بالدخول ؟ أيها الأب المبجَّل أم تأمرنى بالانصراف ؟ أتقبلنى ضيفاً مدعواً الى مائدتك ؟

فأجابه رئيس الدير :

— أهلا وسهلا ، تفضل بكل سرور .

ثم اسرع يقول للحضور :

— أيها السادة ، اننى أسمح لنفسى بأن أرجوكم من أعماق قلبى أن تنسوا خلافاتكم العابرة ، وان يلتئم شملكم حول هذه المائدة مصلّين لله بعاطفة المحبة ووفاق الأخوة . . .

فأعول ميوسوف يقول وقد خرج عن طوره :

— لا . . لا . . هذا مستحيل !

فقال فيدور بافلوفتش :

— اذا كان هذا مستحيلاً بالنسبة الى بيوتر الكسندروفتش ، فهو مستحيل بالنسبة الىّ أيضا . لن ابقى انا ما لم يبق هو . فعلى هذه النية انما جئت . لن أترك بيوتر ألكسندروفتش بعد الآن : فاذا انصرفت أنت يا بيوتر ألكسندروفتش انصرفت أنا أيضا ، واذا بقيت أنت بقيت أنا . ذلك هو وفاق الأخوة ! لقد جرحته جرحاً عميقاً حين ذكرت وفاق الاخوة هذا أيها الأب الرئيس . انه ينكر القرابة التى بيننا ! أليس كذلك يا فون زون ؟ ها هو فون زون حاضر . نهارك سعيد يا فون زون !

تمتم المالك ماكسيموف يسأل مذهولاً :

— أأنا الذى . . . تسمينى بهذا الاسم ؟

فقال فيدور بافلوفتش :

— طبعا أنت ! من عسى يسمى بهذا الاسم غيرك ؟ ألعلك تحسب ان الأب الرئيس هو الذى يجب أن يسمى بهذا الاسم ؟

قال ماكسيموف :

— ولكننى لست فون زون ، وانما أنا ماكسيموف .

— بل انت فون زون ! هل تعرف يا صاحب القداسة من هو فون زون ؟ انه بطل دعوى قضائية شهيرة . لقد قُتل فى ماخور — أحسب أن هذا هو الاسم الذى تطلقونه على تلك

الأماكن — قُتل . . . وجرِّد من كل ما كان معه ، ثم وضع فى صندوق دون مراعاة لتقدمه فى السن ، ثم سمِّر الصندوق ، ثم شُحن طرداً بسيطاً مرقماً من بطرسبرج الى موسكو بعربة الشحن وبينما كان الصندوق يسمَّر كانت الراقصات الداعرات يغنين ويرقصن على أنغام السنطور ، أعنى على أنغام البيانو . ان فون زون ذاك هو الذى ترونه الآن أمامكم . لقد بُعث بعد موته . أليس هذا صحيحا يا فون زون ؟

— ما هذا الكلام ؟ ماذا جرى ؟

هذا ما هتفت به جماعة الرهبان الكهنة من كل جهة .

صاح بيوتر الكسندروفتش يقول متجهاً نحو كالجانوف :

— هيا بنا !

فتدخل فيدور بافلوفتش يقول بصوت حاد موعوع وهو يتقدم الى الأمام خطوة أخرى :

— لا . . لا . . . اسمحوا لى . . . تحملوا ان انهى كلامى أولاً ! لقد ادّعى أننى تصرفت تصرفاً خاليا من الاحتشام فى صومعة الشيخ منذ قليل . لماذا ؟ لأننى أتيت على ذكر الأسماك الصغيرة ! ان بيوتر الكسندروفتش ، قريبى المحترم ، يؤثر أن يكون فى الكلام[1] plus de noblesse que de sincérité أما أنا بالعكس ، احب ان يكون فى كلامى[2] plus de sincérité que de noblesse فاقول : فلتذهب noblesse[3] الى الشيطان ! أليس هذا صحيحا يا فون زون ؟ أيها الأب

[1] من الرفعة أكثر مما فيه من الصدق (بالفرنسية فى الأصل) .

[2] من الصدق أكثر مما فيه من الرفعة (بالفرنسية فى الأصل) .

[3] الرفعة (بالفرنسية فى الأصل) .

7-1089

الرئيس المحترم ! قد أكون مهرّجاً ، واننى لأقدم نفسى مهرّجاً ، ولكننى فارس من فرسان الشرف ، وأحب أن أفصح هنا عن رأى . نعم ، أنا فارس من فرسان الشرف ، على حين أن بيوتر ألكسندرفتش هذا ليس الا حزمةً من غرور جريح ، ولا شىء غير هذا . لئن جئت الى هذا الدير ، فانما على نيـــة أن ألاحظ وأن أحكم . ان ابنى ألكسى يحقق فى هذا الدير خلاصه . وأنا أبوه . فمصيره يهمنى ، ومن واجبى أن أسهر عليه . لقد ظللت أصغى الى ما كان يقال وأمثّل طول الوقت وألاحظ ، أما الآن فأحب أن أعرض عليكم الفصل الأخير من تمثيليتى ! أننى اعرف كيف تجرى الأمور عندنا . ما سقط لن ينهض . عندنا ان سقط شىء مرة فعليه الاّ ينهض قروناً ! ولكن لا . . اننى أرغب أن أنهض ! أيها الآباء المحترمون ! ان اراءكم تثير فى نفسى اعمق الاستياء ! الاعتراف سرٌ مقدس أشعر أنا نفسى تجاهه بتقوى شديدة ، وعبادة خاشعة ! ولكن الناس فى تلك الصومعة يعترفون جاثين على ركبهم ، متكلمين بصوت عالٍ . فهـــل الاعتراف بصوت عالٍ أمر جائز ؟ ان آباء الكنيسة قد أمروا بأن يتم الاعتراف همساً فى الأذن ، وبهذا الشرط وحده انما يبقى الاعتراف سراً مقدساً . تلك قاعدة قديمة محترمة . كيف تريدون منى مثلاً أن أروى بحضور جميع الناس أننى فعلت كيت وكيت — هل تفهمون ؟ — كيت وكيت . . . قد لا يكون من الحشمة أحيانا أن يروى المرء أموراً بعينها . تلك فضيحة أيها الآباء المبجّلون ! هذه الطريقة قد تؤدي بنا شيئا بعد شىء الى ملة الخلستى . . . لسوف أشكوكم الى المجلس الكنسى الاعلى عند اول مناسبة . . أما ابنى ألكسى فقد قررت أن أصطحبه الى منزلى . . .

هناك ملاحظة يجب علينا أن نذكرها هنا . كان فيدور بافلوفتش يعرف على أى وتر يجب أن يضرب . ان وشايات خبيثة كانت قد انتشرت فى الماضى ، فوصلت حتى الى الأسقفية (حدث هذا لا فى ديرنا وحده بل حدث كذلك فى أديرة أخرى دخلها نظام المشايخ) . قيل فيما قيل ان الاحترام الذى يحاط به المشايخ فيه غلو كثير ، وانه لا داعى اليه ، بل قيل أيضـــا انه يسىء الى مهابة رؤساء الاديرة ويسىء الى كرامتهم . وقيل خاصة ان المشايخ يسيئون استعمال سر الاعتراف وقيلت أيضا أقاويل كثيرة من هذا النوع . كانت هذه الاتهامات سخيفة ، ولذلك سقطت فى وقتها من تلقاء نفسها عندنا ، كما سقطت فى كل مكان على كل حال . ولكن الشيطان الأحمق الذى ركب فيدور بافلوفتش وأخذ يهوى به متوترّ الأعصاب الى قاع الدناءة قد لقنه هذا الاتهام القديم الذى كان فيدور بافلوفتش لا يدرك منه كلمة واحدة على كل حال ، حتى أنه لم يحسن صياغة هذا الاتهام صياغة مفهومة ، لا سيما وأن أحدا لم يكن قد جثا على ركبتيه أمام الشيخ فى ذلك اليوم ، ولا أعترف بصوت عال ، ومعنى هذا أن فيدور بافلوفتش لم ير بعينه شيئا وانما هو يردّد ما كان قد سمعه ، متذكرا أقاويل قديمة . لكنه وقد أخرج هذه الحماقة لم يلبث أن شعر بأنه قال كلاما سخيفا فأراد عندئذ أن يبرهن للآخرين ، وأن يبرهن لنفسه خاصةً ، أن ما قاله ليس فيه شىء من سخف . ورغم أنه كان يدرك ادراكا كاملا أن كل كلمة أخرى يقولها انما تفاقم بشاعة كلامه وتجعله يتردى فى الطيش والحماقة مزيدا من التردى . فانه لم يستطع أن يتوقف على المنحدر ، بل أخذ يهوى الى القاع منكّس الرأس .

صرخ بيوتر الكسندروفتش يقول :

— يا للحقارة !

فتدخل كبير الرهبان فجأة يقول :

— اسمح لى . جاء فى كلام الأقدمين : «قد قيل عنى سوء ، وقد اتهمت بأشياء منكرة . فلما سمعت تلك الأقوال ، قلت لنفسى : «ان المسيح هو الذى أرسل الىَّ هذا الدواء لأخلص نفسى من غرورها» . لذلك ياضيفنا العزيز نشكر لك كلامك أجزل الشكر !»

قال كبير الرهبان ذلك وحيَّا فيدور بافلوفتش منحنياً له انحناءةً كبيرة .

— ته ته ته ! . . نفاق قديم وجمل مهترئة ! . . معروفةٌ هذه الجمل وهذه الحركات ! لا تخدعنى هذه التحيات الرسمية ! «قبلة على الشفتين وطعنة فى القلب» ، تماماً كما ورد فى كتاب شيللر «قطاع الطرق» ! اننى أكره الكذب أيها الآباء ، وأحب الحقيقة ! ولكن الحقيقة ليست فى أكل الأسماك الصغيرة ، سبق أن قلت لكم ذلك ! هلاَّ قلتم لى أيها الآباء لماذا تصومون ؟ لماذا تنتظرون مكافأة فى السماء على ما تحتملونه من حرمان ؟ ألا اننى مستعد أنا أيضا لأن أصوم راضياً فى سبيل مكافأة من هذا النوع ! دعك من هذا أيها الراهب المقدس ، هيا مارس الفضيلة فى الحياة وكن نافعاً للمجتمع ، دون أن تلوذ بدير لتعيش على ما يحضره غيرك وتنتظر مكافأة فى السموات . لا شك أن هذا يكون أصعب وأشق . . أنا أيضاً أجيد الكلام أيها الأب الرئيس . . — قال ذلك ثم اقترب من المائدة وأضاف : — فلننظر ماذا أعدوا هنالك ! يا سلام . . . خمر معتق ، وشراب العسل اللذيذ الذى يباع فى متجر الاخوة بليسييف» : فليس الأمر

أمر أسماك صغيرة فى هذه المرة ، أليس كذلك أيها الآباء الطيبون ؟ هيه . . . هيه . . . ما أروع هذه الزجاجات التى أخرجوها ! ومن ذا الذى أمد الدير بهذه الأشياء؟ من ؟ الفلاح الروسى ! الطيب الشهم الذى يعمل ويكد ويجهد ، ثم يدفع الى الدير بالكوبيكات التى جنتها يداه المتشققتان ، مهملاً أسرته ناسياً حاجات الدولة ! ألا انكم لتمصون دم الشعب ، أيها الآباء المبجلون !

قال الأب يوسف :

— عيب ما تقول .

أما الأب بائيسى فقد أصرَّ على الصمت فى عناد . وأسرع ميوسوف يخرج من الغرفة ، وتبعه كالجانوف .

قال فيدور بافلوفتش :

— اننى أترككم أيها الآباء الطيبون ، تماما كما فعل بيوتر الكسندروفتش ! ولن أجىء بعد اليوم اليكم ، فلو تضرعتم الىَّ جاثين على ركبكم ما عدت قط ! لقد أهديت اليكم ألف روبل ، فأيقظ هذا اهتمامكم ، أليس كذلك ؟ ها ها . . لا جدوى من هذا . . لن أعطيكم بعد الآن شيئاً .

ثم صاح وهو يضرب المائدة بقبضة يده ، وقد عصفت به سورة عنف مقصود :

— لشبابى المنقضى وكل الاهانات التى قاسيتها انما أنتقم الآن ! ان هذا الدير الصغير قد لعب فى حياتى دوراً ! جعلنى أسكب سيولاً من دموع مرة ! أهجمَ علىَّ زوجتى الكليكوشا . أثقلتمونى باللعنات فى جميع مجالسكم السبعة» ، وأسأتم الى سمعتى فى المنطقة كلها ! كفى كفى أيها الآباء ! اننا نعيش فى عصر لبرالى ، اننا نعيش فى عصر سفن البخار وسكك الحديد.

لن أعطيكم لا ألف روبل ولا مائة روبل ، ولا مائة كوبيك . . . لن أعطيكم شيئاً البتة !

ملاحظة أخرى : ان الدير لم يحتل فى حياته مكاناً فى يوم من الأيام ، ولا جعله يسكب دموعاً مرة . ولكن الرجل قد بلغ من اندفاعه فى التمثيل أنه أوشك أن يصدِّق هو نفسه ، خلال لحظة قصيرة ، الألم الذى كان يتظاهر به ، حتى لقد كاد يبكى اشفاقاً على نفسه ومع ذلك أحس فى تلك اللحظة بالذات انه قد آن له أن يعود أدراجه .

أما كبير الرهبان فانه لم يردَّ على أكاذيبه الخبيثة التى نطق بها الا بأن انحنى برأسه انحناءة خفيفة ، وقال بصوت رصين :

— لقد قيل أيضاً : «افرح للاهانة الظالمة التى تُلحق بك على رؤوس الأشهاد ، دون ان تضطرب ، ودون أن تغضب ممن أهانك» . وذلك ما سنفعله .

— ته ته ته . . . سفاسف وترهات ! لكم ما تشاءون أيها الآباء الطيبون أما أنا فذاهب . وسآخذ ابنى ألكسى من هذا المكان الى الأبد ، بحكم ما لى عليه من سلطة الأب على ابنه . يا ايفان فيدوروفتش يا بنى المطيع ، هلاَّ تحملت أن آمرك بأن تتبعنى ! وأنت يا فون زون ، ليس لك ما تفعله هنا أنت أيضاً ! تعال الىَّ بالمدينة فى غير ابطاء ! ان المرء ليتسلى هناك ويروِّح عن نفسه . وليست المسافة بعيدة : هى فرسخ صغير . وسأطعمك خنزيراً صغيراً بالبرغل بدلا من أكل الصيام هنا . سوف تتغدى عندى . وسيكون على المائدة كونياك وخمور لذيذة . عندى خمرة رائعة من فاكهة التوت . هيه ! فون زون ! لا تفوِّت فرصة سعادتك !

قال ذلك وخرج وهو يصرخ محركاً يديه . وفى تلك اللحظة انما لمحه راكيتين منصرفاً ، ودلَّ عليه أليوشا .

فلما رأى الأب ابنه صاح يقول له من بعيد :

— ألكسى ! عد الى البيت فى هذا اليوم نفسه . . . عد الى البيت نهائياً . . . خذ وسادتك وفراشك ، ولتغب عن هذا المكان الى الأبد !

توقف أليوشا مذهولا ، ينظر الى المشهد بانتباه أخرس .

كان فيدور بافلوفتش قد اتخذ مكانه فى عربته ، وكان ايفان فيدوروفتش يتهيأ لأن يتبعه مظلم الوجه صامتا ، حتى دون ان يلتفت الى وراء ليودِّع أليوشا . وفى تلك اللحظة انما وقع مشهد جديد لا يتصوره العقل ، مشهد تهريجى عجيب ، كان لا بد أن يختتم حوادث ذلك النهار . ان المالك ماكسيموف قد ظهر فجأة أمام مصعد العربة . كان يلهث لهاثاً شديدا بعد أن ركض ركضاً سريعا حتى لا يصل متأخرا . كان راكيتين وأليوشا قد رأياه يندفع راكضاً . وقد بلغ من شدة التعجل أنه وضع قدمه على مصعد العربة بينما كانت قدم ايفان فيدوروفتش اليسرى ما تزال عليها ، وتمسك بهيكل العربة وأخذ يبذل جهودا كبيرة ليثب الى داخلها .

صاح يقول بصوت نحيل وهو يقفز الى العربة ويطلق ضحكة صغيرة فرحة ، وقد أشرق وجهه وبدا عليه أنه مستعد لكل شىء :

— خذونى معكم !

فهتف فيدور بافلوفتش يقول بلهجة المنتصر :

— ألم أقل انه فون زون ؟ انه فون زون الأصلى رجع من عند الأموات ! ماذا فعلت حتى خرجت من هناك ؟ باى واجب من واجبات الأدب أخللت ، وما الذى دعاك الى

العدول عن غدائهم ؟ لا بد أن لك جبهة من تلك الجباه الفولاذية ! ان لى جبهة أنا أيضا ، ولكن لا يسعنى أيها الأخ الا أن أعجب بجبهتك ! هيًّا اقفز ، اقفز بسرعة ! دع له أن يمر يا فانيا . . . سيكون هذا مضحكا . سوف يجد مكانا بين أقدامنا . أليس يريحك أن تقعد بين أقدامنا يا فون زون ؟ أم الأفضل أن يجلس على المقعد بجانب الحوذى ؟ اقفز الى المقعد بجانب الحوذى يا فون زون ! . . .

ولكن ايفان فيدوروفتش الذى كان قد استقر فى العربة لم يلبث أن أرسل الى صدر ماكسيموف ضربة قوية دون أن ينطق بكلمة واحدة ، فاذا بماكسيموف يطير مترين . وكانت معجزةً أنه لم يسقط .

وصرخ ايفان فيدوروفتش يأمر الحوذى بصوت غاضب :

— تحرك !

فسأله فيدور بافلوفتش :

— ما بك ؟ لماذا ضربته ؟

ولكن العربة كانت قد سارت . ولم يجب ايفان فيدوروفتش .

أردف فيدور بافلوفتش يقول بعد دقيقتين من صمت ، وهو يختلس النظر الى ابنه :

— عجيب أمرك ! انت الذى تخيلت هذه الزيارة للدير ، ودفعتنى اليها ، وشجعتنى عليها ، فما لى أراك الآن غاضبا ؟

فقاطعه ايفان فيدوروفتش يقول بصوت قاس :

— كفَّ عن قول هذه السخافات . أولى بك الآن ان ترتاح .

وصمت فيدور بافلوفتش من جديد ، دقيقتين ، ثم قال فى تفخم :

— قليل من الكونياك لن يضر الآن . . .

ولكن ايفان فيدوروفتش لم يستجب .

قال الأب :

— ستشرب معى قليلا من الكونياك عندما نصل .

وظل ايفان فيدوروفتش صامتا .

فأردف فيدور بافلوفتش يقول بعد أن ظل صامتا دقيقتين لا أكثر :

— أما أليوشا فسأخرجه من الدير مع ذلك ، رغم أن اخراجه قد لا يرضيك كثيرا أيها الابن المطيع جدا ، كارل فون مور .

ولم يزد جواب ايفان فيدوروفتش على أن هز كتفيه احتقارا . ثم أشاح بوجهه ، وأخذ يتأمل الطريق . ولم يتبادلا بعد ذلك كلمة واحدة الى أن بلغا المنزل .

الباب الثالث

الشهوانيون

١

في الخدمة

اما منزل فيدور بافلوفتش ، رغم انه بعيد جدا عن وسط المدينة ، فلم يكن مع ذلك في اقصى الضاحية . هو مبنى اميل الى القدم ، لكنه حسن المظهر : طابق ارضي واحد ، ذوعلية ، رمادي اللون ، يغطيه سقف من صفيح احمر ؛ قد أحسن بناؤه جدا ، ففي امكانه ان يصمد لأذى الزمن طويلا ؛ مريح واسع ، يضم خزائن مظلمة متعددة ، واركانا منعزلة كثيرة ، وسلالم صغيرة تباغتك هنا وهناك ؛ الفئران فيه كثيرة ، ولكن فيدور بافلوفتش لا يزعجه وجودها ، حتى لقد كان يقول : «ان المرء لا يحس بالعزلة كثيرا في المساء ، اذا كان هنالك فئران» . ذلك انه قد تعود عند هبوط المساء ان يصرف خدمه الذين يسكنون في مبنى ملحق ، فيحبس نفسه بالمنزل طول الليل . وكان ذلك المبنى الملحق ، وهو مبنى واسع متين ، يقع في الفناء ، وهناك انما كان فيدور بافلوفتش قد اقام مطبخه . صحيح ان المبنى الرئيسي كان يضم مطبخا ، غير ان فيدور بافلوفتش كان يمقت روائح الطبخ ، فكان يؤتى اليه بطعامه من المبنى الملحق عبر الفناء شتاء وصيفا على السواء . ويمكن ان نقول على وجه العموم

ان هذا المنزل قد تصوره بانيه على اساس ان يضم اسرة كبيرة العدد ، وكان يمكن ان يسكنه عدد من السادة والخدم يساوي خمسة اضعاف العدد الذي يقيم فيه منهم الآن . ومع ذلك لم يكن يقطنه في الآونة التي جرت فيها حوادث هذه القصة الا فيدور بافلوفتش وايفان فيدوروفتش ، ولم يكن الخدم الذين يعيشون في المبنى الملحق الا ثلاثة : جريجوري العجوز ، وامرأته العجوز مارفا ، والخادم سميردياكوف ، وهو رجل ما يزال شابا . يحسن ان نذكر هنا بعض التفاصيل عن هؤلاء الخدم الثلاثة . الحق انه ليس هناك اشياء كثيرة نضيفها الى ما سبق ان قلناه عن جريجوري فاسيلفتش كوتوزوف الذي اسلفنا الكلام عليه قبل الآن بما فيه الكفاية . انه رجل صلب العزيمة متشدد الرأي ، يمضي الى هدفه في عناد متى بدا له هذا الهدف حقيقة راسخة لا سبيل الى جحودها (وذلك لاسباب كثيرا ما تدهشك قلة المنطق فيها) . وفي وسعنا ان نقول عنه انه رجل شريف نزيه . لقد الحت عليه امرأته مارفا اجناتفنا ، رغم انها كانت طوال حياتها خاضعة لارادة زوجها خضوعا اعمى ، أَلحّت عليه الحاحا قويا ، ولا سيما غداة تحرير الاقنان ، ان يترك فيدور بافلوفتش فيسافر الى موسكو فيفتتح هناك تجارة صغيرة (فلقد كانا يملكان شيئا من مال ادخراه) . ولكن جريجوري أيقن عندئذ يقينا نهائيا ان امرأته تقوده الى الخطأ والضلال ، لان «كل امرأة ناقصة العقل» ، واضاف الى ذلك قوله انه لا يليق بهما ان يتركا مولاهما القديم ، مهما تكن عيوبه «لأن ذلك هو الواجب الذي يقع على عاتقهما الآن» . وسأل الرجل زوجته مارفا قائلا :

— هل تفهمين على الاقل ما يعني الواجب ؟

فأجابته مارفا تقول جازمة :

— انا اعرف ما معنى الواجب ، ولكننى لا افهم ابدا ما هو الواجب الذى يلزمنا بالبقاء هنا .

فقال لها :

— سيان ان تفهمى وان لا تفهمى . وعليك بعد الآن ان تسكتى !

وكذلك كان . بقى جريجورى ومارفا . ولقد حدَّد لهما فيدور بافلوفتش أجرا ليس بالأجر المرتفع طبعا ، ولكنه كان يدفع لهما هذا الاجر فى مواعيده بغير تأخير . وكان جريجورى يشعر من جهة اخرى ان له على مولاه نفوذا لا يُنكر . كان جريجورى يحس ذلك ، وكان على حق فى احساسه هذا : ان فيدور بافلوفتش المهرِّج ، الماكر ، العنيد ، الذى يعرف كيف يكون صلبا فى «بعض شئون الحياة» على حد تعبيره ، كان ضعيفا الى اقصى درجات الضعف فى «شئون اخرى من شئون الحياة» . وكان يعرف انواع ضعفه ، وكان لمعرفته بها محاصرا بمخاوف شتى . كان يرى ان على المرء فى بعض شئون الحياة ان تكون اذناه دائما بالمرصاد ، وان يستطيع الاعتماد على شخص موثوق تصبح الحياة بدونه صعبة جدا . وكان جريجورى شخصا موثوقا حقا . حتى لقد اتفق لفيدور بافلوفتش مرارا (اثناء حياته) ان اوشك ان يُضرب ، وان يُضرب ضربا مبرحا يلحق به أذى شديدا ، ولكن جريجورى كان ينقذه دائما من المأزق ، مع ازجاء النصح له بخطاب طويل وموعظة مستفيضة بعد كل مغامرة من تلك المغامرات . على ان الخوف من الضرب ما كان له ان يكفى وحده لافقاد فيدور بافلوفتش شجاعته فى بعض الاحيان . ان هناك ظروفا اخطر من ذلك كثيرا ، حالات دقيقة معقدة حين كان فيدور بافلوفتش لا يستطيع هو نفسه تفسير حاجته

المفاجئة القوية الصارمة الى الاحساس بأن الى جانبه شخصا قريبا منه مخلصا له . تلك حالات تشبه ان تكون مرضا : انه وهو الفاجر الى اقصى حدود الفجور ، والقاسى فى شهوانيته قسوة حشرة رهيبة ، كان يحس فى بعض لحظات من السكر بنوع من خوف روحى وتضعضع معنوى يرهقانه جسميا ان صح التعبير ، حتى لقد كان يصف ذلك احيانا بقوله : «يبدو لى فى تلك اللحظات ان روحى تندفع خارجة فترفرف فى حلقى» . ففى تلك اللحظات انما كان يحب ان يوجد على مقربة منه ، فى المبنى الملحق على الاقل ، ان لم يكن فى غرفته نفسها ، رجل موثوق مخلص ، رجل يختلف عنه كل الاختلاف ، رجل ليس فيه من الفجور والعهر شىء ، لكنه رغم معرفته بأنواع استهتاره ورغم اطلاعه على اسراره ، يغفرها له من باب الاخلاص ولا يعارضه فيها ، ولا يلومه عليها خاصة ، ولا يهدِّده بعقوبات مقبلة لا فى هذا العالم ولا فى العالم الآخر ... رجلٍ يمكن ان يحميه عند الحاجة ... ممَّن يحميه ؟ من انسان مجهول ، ولكنه رهيب خطر . كان لا بد له حتما من ان يوجد على مقربة منه كائن «آخر» ، مألوف له معروف عنده منذ زمن طويل ، يمكن ان يعده صديقا ، حتى يستطيع ان يناديه اليه فى لحظة من كآبة ، وان يستدعيه لا لشىء الا ان يرى وجهه ، وربما بادله عندئذ بضع كلمات فى اى موضوع من المواضيع : فاذا اظهر له هذا الرجل شيئا من لطف ولم يؤنبه اصبح حزنه اقل ثقلا فى قلبه ، واذا تجهم له وقسا عليه ثقلت كآبته مزيدا من الثقل . حتى لقد كان يتفق لفيدور بافلوفتش (فى النادر القليل على كل حال) ان يذهب الى جريجورى فى المبنى الملحق ، فيوقظه من نومه ليلا ، ليطلب اليه ان يلحق به . وكان الخادم يجىء عندئذ الى مولاه الذى

يأخذ يُجرى معه حديثا تافها يدور على تفاصيل لا قيمة لها ولا شأن ، ثم ما يلبث ان يصرفه مازحا وساخرا احيانا ؛ اما هو فيبصق ويعود الى سريره فينام فى هذه المرة نوما هادئا . ولقد مرَّ فيدور بافلوفتش بساعات كهذه الساعات عند وصول أليوشا الى منزله . ان هذا الفتى قد «طعن قلبه» لأنه «يعيش معه ، ويرى كل شيء ، ثم هو لا يُدين شيئا من الاشياء» . واكثر من ذلك ان أليوشا قد حمل الى حياة ابيه عنصرا لا عهد للأب بمثله من قبل ، هو ان أليوشا لم يحتقره ، هو العجوز ، البتة ، حتى لقد حنا عليه وشعر نحوه بعاطفة بسيطة تصدر عنه من تلقاء نفسها بغير افتعال ، دون ان يكون أبوه جديرا بها . ان موقفا كهذا الموقف خليق بأن يثير دهشة العجوز المستهتر الذى كان يعيش بغير اسرة ويركض وراء النساء ولا يسعى الا الى «الفواحش» . ذلك موقف ما كان لهذا العجوز ان يتوقعه . وقد اعترف لنفسه بعد رحيل أليوشا بأنه ادرك فى ذاته اشياء لم يشأ ان يدركها قبل ذلك .

سبق ان ذكرت فى مطلع هذه القصة ان جريجورى كان يكره آديلائيدا ايفانوفنا زوجة فيدور بافلوفتش الاولى ، أُمَّ ابنه دمترى ؛ وانه فى مقابل ذلك كان يحمى زوجة فيدور بافلوفتش الثانية ، صوفيا ايفانوفنا ، الكليكوشا ، من مولاه نفسه ومن كل مَنْ يمكن ان تسول له نفسه ان يقول فى حقها كلمة سوء ، عن خبث او عن طيش . وقد استحالت هذه المودة التى محضها تلك المرأة ، فى نفسه مع الزمن الى عاطفة مقدسة بلغت من القوة انه اصبح حتى بعد انقضاء عشرين عاما على موتها لا يطيق ان يسمع من اى انسان ، كائنا من كان ، اية اشارة تسيء الى المتوفاة ، فلو فعل احد ذلك امامه لهب يهاجم من

هاجمها على الفور . وكان جريجورى فى مظهره رجلا باردا رصينا ، وكان قليل الكلام ، فاذا تكلم تكلم عن دراية ، شاعرا بوزن كل لفظ من ألفاظه . وكان يستحيل عليك ان تعرف من النظرة الاولى أهو يحب امرأته الخاضعة الطيعة ام هو لا يحبها . ولكن الحقيقة هى انه كان يحبها ، وكانت هى تعرف ذلك طبعا . ولم تكن مارفا اجناتيفنا هذه بالمرأة الغبية ، ولعلها كانت تملك من الذكاء اكثر مما كان يملك منه زوجها ، ولقد كانت على كل حال اصدق منه حكما واصوب منه رأيا فى شئون الحياة العملية . ومع ذلك خضعت له منذ ان تزوَّجا ، فلم تجحد سلطته عليها ، وكانت تحترم احتراما اعمى ما كان ينعم به من تفوق روحى . يجب ان نذكر انهما كانا ، طوال حياتهما ، قلَّما يتبادلان الكلام اللهم الا فيما يتعلق بالمسائل التى لا مهرب منها من مسائل الحياة الجارية . لقد تعود جريجورى الوقور المهيب ان يفكر فى أموره وهمومه وحده ، وقد بلغ من هذا ان امرأته ادركت نهائيا انه فى غير حاجة الى نصائحها . وكانت تحس ان زوجها يقدِّر لها صمتها ، وانه يرى فيه دليلا على ذكائها . ولم يضربها زوجها فى حياته الا مرة واحدة — وكان ضربا خفيفا على كل حال . واليكم كيف حدث هذا : اثناء السنة الاولى من زواج فيدور بافلوفتش بآديلائيدا ايفانوفنا ، فان نساء القرية وبناتها ولم يكنَّ قد تحررن من القنانة فى ذلك العهد ، اجتمعن ذات يوم فى فناء منزل السادة يغنين ويرقصن ، فبينما كانت الفلاحات تغنى اغنية «فى المروج» ، اذا بمارفا اجناتيفنا التى كانت ما تزال فى ريعان الشباب ، تندفع فجأة الى امام جوقة المغنيات ، فتأخذ ترقص رقصة «روسية» بأسلوب خاص ليس هو الذى تعودت الفلاحات ان ترقصه ، وانما هو الذى تعلمته ايامَ كانت ما تزال

تعمل خادما فى منزل اسرة ميوسوف الثرية ، فكانت ترقص على المسرح الذى اقامته تلك الاسرة فى املاكها والذى استدعت له من موسكو استاذ باليه يعلم ممثلاته الرقص . رأى جريجورى زوجته تندفع فى ذلك الرقص ، فما ان عادا الى البيت بعد ساعة حتى ادَّبها التأديب الذى تستحقه وهو يشدها من شعرها . تلك هى المرة الوحيدة التى ضرب فيها جريجورى امرأته ، ثم لم يتجدد شىء من هذا فى حياتهما بعد ذلك . ثم ان مارفا اجناتفنا قد تابت منذ ذلك اليوم عن حبها هذا للرقص .

لم يهب الرب للزوجين أولادا ، الا واحدا لم يعش طويلا . ومع ذلك كان جريجورى يحب الاطفال ، ولا يخفى هذا الحب ، اى انه كان يجاهر به فى غير خجل . فلما هربت آديلائيدا ايفانوفنا احتضن الصغير دمترى فيدوروفتش الذى لم يكن قد تجاوز الثالثة من عمره ، قرابة سنة ، يعنى به متوليا بنفسه تمشيط شعره وغسل جسمه . وفيما بعد اهتم ايضا بايفان فيدوروفتش وأليوشا ، ونال صفعة لقاء ذلك ، وتلكم ، على كل حال ، تفاصيل سبق ان أتيت على ذكرها . أما ابنه هو ، فانه لم يذق الا فرحة انتظاره مدة حبل أمه به . حتى اذا وُلد الطفل امتلأ قلب ابيه هولا وحزنا . ذلك ان الصبى قد جاء الى هذا العالم بست اصابع فى كل يد . وقد بلغ جريجورى يومئذ من الانصعاق انه أصر لا على ان يصمت فما ينطق بحرف الى حين التعميد فحسب ، بل أصر على ان ينزوى فى الحديقة طوال تلك المدة ليغرق فى الصمت مزيدا من الاغراق . كان ذلك فى الربيع . وقد قضى الرجل الايام الثلاثة التى سبقت التعميد يعزق الارض فى بستان الخضار . فلما حل اليوم الثالث الذى سيُحتفل فيه بتعميد الصبى كانت فكرة جريجورى قد اختمرت فى رأسه . فهذا هو يدخل على مسكن

الخدم حيث اجتمع القسس والمدعوون ، وحيث جاء فيدور بافلوفتش أخيرا ليكون للصبى عرَّابه ، هذا هو يدخل فيقول فجأة : «الافضل ان لا يُعمَّد الطفل البتة» . لم يقل ذلك بقوة كبيرة ، ولم يسترسل فى الكلام ، وانما قاله وهو لا يكاد ينطق بألفاظه واضحةً ، وقاله وهو يلقى على الكاهن نظرة قاتمة عنيدة .

سأله الكاهن فى دهشة ممزوجة بالمرح :

— لماذا ؟

فتمتم جريجورى يجيبه :

— لأنه . . . تنين . . .

— ماذا ؟ اى تنين ؟

صمت جريجورى بضع لحظات . ثم دمدم يقول مضطربا اشد الاضطراب ، ولكن وجهه كان يعبر عن الحزم ، وكان واضحا انه لا يريد ان يدخل فى شروح اوسع ، دمدم يقول :

— اختلط الامر على الطبيعة . . .

ضحك الحضور ، وتم تعميد الصبى المسكين مع ذلك طبعا ، صلَّى جريجورى بحرارة وخشوع امام جرن التعميد ، ولكنه لم يغير رأيه فى الوليد . على انه لم يخلق اية صعوبة بعد ذلك ، وانما اكتفى ، خلال الاسبوعين اللذين عاشهما الطفل الضعيف الهزيل ، بأن يصر على ان لا يراه ، متظاهرا بأنه يجهل وجوده ، قاضيا اكثر وقته فى خارج مسكنه . ولكن حين مات الصبى بعد اسبوعين بمرض إلتهاب الفم ، تولى هو نفسه ارقاده فى تابوته الصغير وتأمله طويلا بحزن شديد . وحين أهيلت آخر مجرفة من التراب على الحفرة التى دفن فيها الصبى ، وهى حفرة لم تكن عميقة ، جثا على ركبتيه ، وحيًّا القبر منحنيا حتى الارض . ومنذ ذلك اليوم ، خلال سنين طويلة ، لم يجىء

جريجوري على ذكر هذا الصبي مرة واحدة ، كما ان مارفا اجناتفنا لم تذكره بحضور زوجها في يوم من الايام . فاذا اتفق لها ان تكلمت مع احد عن «صغيرها» ، تكلمت هامسةً همسا حتى في غياب جريجوري فاسيلفتش . وفي رأي مارفا اجناتفنا ان هذه الجنازة هي اصل الاهتمامات الدينية التي اصبحت تُلاحَظ عند جريجوري الذي انصرف منذ ذلك الحين الى دراسة «الامور الالهية» ، فهو ينكب على قراءة كتاب سير الشهداء صامتا معتزلا في كثير من الاحيان ، واضعا على عينيه لهذه المناسبة في كل مرة نظارتيه المستديرتين الكبيرتين اللتين لهما اطار من فضة . كان يندر ان يقرأ جريجوري في هذا الكتاب جهرا ، الا في ايام الصيام الكبير . وكان يحب ان يقرأ «سفر ايوب» خاصة ، كما استطاع ان يحصل من مكان ما على كتاب يضم افكار ومواعظ «ابينا حبيب الله ، اسحاق السوري» . فكان لا يني يقرأ هذا الكتاب ويعيد قراءته سنين طويلة ، دون ان يفهم منه شيئا تقريبا ، ولكن لعل هذا بعينه هو ما كان يجعله يحب هذا الكتاب ويقدره مزيدا من التقدير . وقد عني في الآونة الاخيرة بآراء ملة الخليستي ، فدرس عن كثب ، هذه الحركة التي التقى ببعض المنضمين اليها في القرى المجاورة ، فاهتزت نفسه من ذلك اهتزازا واضحا ، ولكنه رأى ان الانضمام الى العقائد الجديدة ليس بالامر المستحسن . وطبيعي ان العكوف على «الامور الالهية» قد اضفى على تعبير وجهه مزيدا من الرصانة والوقار . لعل جريجوري كان ميالا الى الصوفية . وهذا حادث من اغرب ما يمكن ان يقع من حوادث ، حادث لم يكن في الحسبان قط ، يحدث كأنما على عمد ، في تلك الآونة نفسها التي شهدت ميلاد ابنه ذي الاصابع الست وشهدت موته السريع ؛

وهو حادث خلّف في نفسه ، كما اعرب عنه هو نفسه ذات مرة فيما بعد ، «طابعا لا يندثر» . اليكم ما حدث : في الليلة التي اعقبت دفن الصبي الصغير ، استيقظت مارفا اجناتفنا فجأة على شعور بأنها تسمع بكاء يشبه بكاء رضيع . ذُعرت مارفا اجناتفنا ، فأيقظت زوجها . واصاخ الرجل بسمعه فقال ان الاصوات التي يسمعها هي اصوات انين «كأنه انين امرأة» . ونهض فارتدى ملابسه . هي ليلة حلوة من ليالي شهر مايو . خرج جريجوري الى درج المدخل ، فأدرك ادراكا واضحا ان اصوات الشكوى كانت آتية من جهة الحديقة . ولكن الحديقة تغلق في الليل من جهة الفناء بقفل قوي ، وليس يمكن الدخول اليها من ممر آخر ، لانها محاطة بسياج عالٍ متين . عاد جريجوري الى بيته ، فأشعل سراجا ، وتناول المفتاح واتجه نحو الحديقة دون ان ينطق بكلمة واحدة ، غير عابئ بذعر امرأته الهستيري التي اكدت انها تسمع سماعا واضحا اصوات بكاء طفل رضيع ، وان هذه الاصوات لا يمكن ان تكون الا اصوات ابنهما يبكي ويناديها هذا النداء . وادرك جريجوري عندئذ ان اصوات الشكوى آتية من الحمام المقام في الحديقة على مقربة من الباب الحديدي ، وانها انّات امرأة ما في ذلك ريب . فلما فتح باب الحمام جمد في مكانه دهشةً من المنظر الذي رآه : ان معتوهة المدينة التي تجوب الشوارع كل يوم والتي يعرفها سكان مدينتنا حق المعرفة — وقد اطلقوا عليها لقب ليزافيتا سمردياشايا » — قد تسللت الى الحمام ، فولدت هنالك ولدا . وكان الصغير راقدا قرب امه التي تحتضر . لم تنطق المعتوهة بكلمة واحدة ، لسبب بسيط ، هو انها لا تعرف ان تتكلم . يحسن مع ذلك ان نوضح هذا كله على حدة .

٢

ليزافيتا سمردياشايا

بث هذا الحادث فى قلب جريجورى اضطرابا عميقا ، وذلك بسبب تفاصيل ذكّره هذا الحادث بها ، وعزز فى نفسه شبهة اليمة مقززة كانت قد ساورته من قبل . ليزافيتا سمردياشايا بنت قصيرة القامة جدا «لا يزيد طولها كثيرا عن ذراعين» كما اصبح يحلو لعجائز النسوة التقيات فى مدينتنا بعد موتها ان يقلن . وكان وجه هذه المرأة الشابة التى تبلغ العشرين من العمر معافى عريضا مورّدا ، ولكنه يفصح عن العته والبلاهة افصاحا تاما : ان نظرتها جامدة ، وهى نظرة كريهة رغم هدوئها . وكانت تسير حافية القدمين منذ ولدت ، فى الشتاء وفى الصيف لا يستر جسمها الا قميص من قماش القنب . وكان شعرها ، الاسود تقريبا ، الكثيف جدا ، المتجعد كأنه جزائز شاة ، يتكوم على رأسها كطاقية ضخمة ؛ وهو عدا ذلك ملطخ دائما ، زاخر بالتراب وأوراق الاشجار والغصينات والنشارات ، لأنها اعتادت ان تنام على الارض فى الغبار والوحل . وكان أبوها ايليا ، وهو رجل برجوازى مفلس مريض لا مأوى له قد أدمن على الشراب ، واصبح منذ عدة سنين يعيش فى دار رجل من اهل مدينتنا بمثابة عامل . اما ام ليزافيتا فكانت قد ماتت منذ زمن طويل . وكان ايليا ، المريض الممرور الشرس يضرب ليزافيتا ضربا مبرحا بلا رحمة ولا شفقة اذا هى جاءت الى الدار . على ان ليزافيتا كانت لا تجىء الى الدار الا نادرا ، لان جميع سكان المدينة كانوا يحسنون وفادتها من حيث هى امرأة «عبيطة» يحبها الرب .

وقد حاول سادة ايليا ، كما حاول ايليا نفسه أيضا ، وكما حاول عدد كبير من المحسنين فى مدينتنا ولا سيما رجال ونساء ممن يمارسون التجارة ، حاولوا مرارا ان يكسوا ليزافيتا بما هو اقرب الى الحشمة من قميص القنب وحده ، فكانوا يدثرونها كل عام ، فى اوائل ايام البرد ، بمعطف من جلد الخروف ، وكانوا يلبسون قدميها حذائين . فكانت ليزافيتا تدع لهم ان يفعلوا بها ذلك طائعة بغير احتجاج ، ولكنها ما تلبث ان تبتعد عنهم ، وتمضى الى مكان ما بالمدينة ، هو فناء الكاتدرائية فى اغلب الاحيان ، فتخلع عن جسمها جميع الثياب التى البستها — اللفعة والتنورة والمعطف والحذائين — فتدعها هنالك ، ثم تمضى كما كانت ، حافية القدمين لا يستر جسمها الا قميص . وقد حدث مرة ان حاكم اقليمنا الجديد مرَّ بمدينتنا فى جولة تفتيشية ، فلما رأى ليزافيتا هذه صدم منظرُها افضل عواطفه ، ورغم انه ادرك ان المرأة هى عبيطة ، وقد ذُكر له ذلك فورا على كل حال ، فقد أصر على ان منظر فتاة شابة تجوب الشوارع بقميص شىء يؤذى الاخلاق العامة ، وامر بوضع حد لهذه الفوضى . ولكن الحاكم انصرف من المدينة فلم يهتم احد بعد انصرافه بليزافيتا وتُركت تعيش كما كانت تعيش . ومات أبوها أخيرا ، فأصبحت يتيمة لا أب لها ولا أم ، فكان من شأن ذلك ان جعلها اقرب الى قلوب التقاة من سكان مدينتنا وأحب الى نفوسهم ؛ بل يبدو ان جميع الناس كانوا يحبونها حبا صادقا ، حتى الصغار الذين كانوا يمتنعون عن مشاكستها ويعفون عن تنكيدها ، مع ان الاطفال فى مدينتنا ، ولاسيما اطفال المدارس ، كانوا فئة عدوانية متحرشة مشاجرة . كانت ليزافيتا تدخل بيوتا لا تعرفها ، فما يخطر ببال احد ان يطردها . بالعكس : كان كل واحد يسرع الى تدليلها

ويعطيها كوبيكا ، فكانت تأخذ هذه الاعطيات الصغيرة من النقود ، ولكنها ما تلبث ان تلقيها فى صندوق الصدقات بكنيسة من الكنائس او سجن من السجون . فاذا اعطاها احد فى السوق رغيفا من ارغفة الخبز الطرية الصغيرة ، لم يفتها ان تهبه لأول طفل تلقاه فى طريقها او هى تستوقف فى الشارع سيدةً من اغنى سيدات مدينتنا فتعطيها الرغيف ، فتقبله السيدة منها فرحةً . كانت لا تريد ان تتغذى الا بخبز اسود وماء . وكانت فى بعض الاحيان تدخل دكانا من الدكاكين الحافلة بأجمل المعروضات فتجلس فيه : ان كل شيء فى متناول يدها ، البضاعة الثمينة والمال الوفير ، ولكن اصحاب المتاجر لا يخطر ببالهم ان يراقبوها لثقتهم بأنها لن تسرق شيئا في يوم من الايام ، ولن تمتد يدها الى كوبيك واحد ولو صفت امامها ألوف الروبلات ثم نسيت . وقلّما كانت تُرى فى الكنيسة ، ولكن كان يحلو لها ان تقضى ليالى بأسرها مضطجعةً فى فناء معبد من المعابد ، حين لا تتسلل الى بستان من بساتين الخضار من خلال سياج (ما تزال الاسيجة التى تقوم مقام الحواجز كثيرة فى منطقتنا) . وكانت تذهب الى الدار — اعنى دار اسياد ابيها المتوفى — مرة فى الاسبوع تقريبا اثناء الصيف ، وفى جميع الايام اثناء الشتاء ، ولكنها لا تذهب الى هناك الا لقضاء الليل ، فهى تلطو عندئذ فى المدخل او تقبع فى حظيرة الماشية . والناس يستغربون كيف تستطيع ليزافيتا ان تتحمل هذا النوع من الحياة ، ولكنها كانت قد تعودت ذلك ، وهى رغم ضآلة جسمها قوية البنية جدا . صحيح ان بعض الاشخاص من فئة السادة والنبلاء فى مدينتنا كانوا يؤكدون ان ليزافيتا انما تتصرف هذا التصرف من باب الكبر . ولكن هذا التفسير يصعب على المرء ان يصدقه ، لأن هذه الفتاة كانت

لا تعرف حتى الكلام ، فهى لا تزيد على ان تحرك لسانها من حين الى حين بأصوات مبهمة لا تبين . فهل يمكن الحديث بصددها عن كبر ؟

ففى ذات ليلة من ليالى شهر سبتمبر (وقد حدث هذا منذ زمان بعيد جدا) ، ليلة مضيئة دافئة يغمرها القمر البدر بنوره ، كانت عصبة فرحة مرحة من اللاهين العابثين من اصحاب اليسار فى مدينتنا عائدة من النادى الى بيوتهم بعد افراط فى الشراب والطعام ، فهى تعود عبر افنية الدور الخلفية . كان الوقت ساعةً متأخرة من الليل بالنسبة الى عاداتنا ، وكانت العصبة خمسة رفاق او ستة . ان الشارع الصغير الذى يجتازونه الآن محفوف بسياج من الجهتين ، ووراء السياج تمتد بساتين الخضار فى المنازل المطلة على الشارع ، والشارع يفضى الى القناطر الضيقة الممدودة عرضا على غديرنا الطويل الآسن الذى اعتاد الناس ان يسموه فى بعض الاحيان نهرا . وان العصبة لتسير اذا هى تلمح ليزافيتا على حين فجاة نائمةً قرب السياج بين نباتات القرّاص والارقطيون . توقف العابثون القاصفون يضحكون لهذا المشهد فى قهقهة مجلجلة مدوية ، وأخذوا يطلقون الامازيح البذيئة فى غير حياء . وفجأة خطرت ببال احدهم فكرة عجيبة هى ان يطرح سؤالا من طبيعة خاصة جدا فقال : «هل يمكن ايّ انسان ان يرى فى هذه البهيمة امرأة ، فى هذه اللحظة نفسها مثلا ؟ الخ . . .» . فضج الجميع يظهرون اشمئزازا متكبرا ونفورا مستعليا ، مؤكدين ان ذلك غير وارد . ولكن فيدور بافلوفتش الذى كان احد افراد العصبة تقدم فورا فقال انه بالعكس ، ذلك شيء يمكن فعله جدا ، وان فى وسع المرء تماما ان يعد هذه المخلوقة امرأة ، بل وان ذلك قد يكون فيه كثير من الاثارة

اللذيذة ، الخ الخ . . يجب ان نذكر ان فيدور بافلوفتش كان فى ذلك الأوان يغالى فى ابراز دور المهرج الذى يمثله ، ويسعى الى انتهاز جميع المناسبات التى يتاح له فيها ان يلمع نجمه فى هذا المجال وان يسلّى السادة وان يضحكهم ، على قدم المساواة بينه وبينهم فى الظاهر ولكن بروح العبودية الدنيئة لهم فى حقيقة الامر . وقد حدث هذا فى الآونة التى كان قد تلقى فيها من بطرسبرج نبأ وفاة امرأته آديلائيدا ايفانوفنا ، فكان وقد وشّح قبعته بشريط اسود يسترسل فى السكر ويرتكب من الاعمال الفاجرة ما كان يثير الاشمئزاز ويبعث الاحساس بالفضيحة فى نفوس كثير من الناس ، حتى اشدهم انحلالا واكثرهم دعارة . طفقت العصبة الفرحة تضحك طبعا لهذا التصريح الذى لم يكن فى الحسبان . وقد مضى احد العابثين الى حد تشجيع فيدور بافلوفتش على ان يفعل ، ولكن الآخرين أكدوا اشمئزازهم بقوة متزايدة ، وان فعلوا ذلك بمرح ما ينفك يشتد قوة . وأخيرا تابع الجميع طريقهم . وقد حلف فيدور بافلوفتش فيما بعد انه انصرف مع الجماعة فى وقت واحد . وقد يكون ما قاله صحيحا ، فان أحدا لم يعرف حقيقة الامر ، لا ولن يعرفها احد يوما على وجه اليقين . غير ان ما حدث هو ان المدينة كلها اصبحت بعد خمسة اشهر او ستة لا تتحدث الا عن ليزافيتا التى صار واضحا انها حبلى ، وان المدينة تتحدث عن هذا الامر باستياء صادق واستنكار عميق ، وان السؤال الذى تلقيه جميع الشفاه هو هذا السؤال : «من الآثم ؟ من الجانى ؟» وفى تلك اللحظة انما انتشرت فى مدينتنا شائعة غريبة تقول ان الآثم ليس الا فيدور بافلوفتش نفسه . فكيف ولدت هذه الشائعة ؟ ان العصبة الفرحة التى كانت عائدة من النادى فى تلك الليلة لم يبق منها

فى مدينتنا الا واحد هو رجل مسن ، محترم جدا ، برتبة مستشار دولة ، متزوج وله ابنتان كبيرتان . ومن المحقق تماما انه لم يقصص شيئا ، حتى ولو كان هناك شىء . اما اللاهون الآخرون ، وعددهم خمسة تقريبا ، فكانوا قد بارحوا مدينتنا اثناء تلك المدة . ومع ذلك كانت الشائعة تنصب على فيدور بافلوفتش وتتهمه اتهاما ملحا عنيدا . والحق ان فيدور بافلوفتش لم يلق كثير بال الى هذه الشائعة . ولو قد سئل فيها يومئذ لامتنع عن الرد على هؤلاء العامة من الباعة وعلى اولئك الصغار من سكان المدينة . لقد اصبح فيدور بافلوفتش فى ذلك الوقت متكبرا ، فهو لا يصاحب الا أنداده من الموظفين والسادة الذين كان يحلو له كثيرا ان يسلّيهم ويضحكهم . ولقد تحيز جريجورى لمولاه ، ودافع عنه بقوة واقتناع ، وهاجم تلك الأقاويل الكاذبة بكل ما أوتى من قوة ، حتى لقد طفق يشتم الواشين ويقيم الادلة حتى اقنع الكثيرين . كان جريجورى يؤكد قائلا بلهجة جازمة : «ان هذه البنت السيئة هى وحدها المسئولة ، وان الجانى لا يمكن ان يكون أحدا غير قاطع الطريق كارب» (بهذا الاسم كان يسمى مجرم خطر معروف جدا عندنا ، هرب فى تلك الآونة من سجن الاقليم ، واختبأ فى مدينتنا) . لقد بدا هذا الافتراض مقبولا ، لان الناس يتذكرون مغامرات كارب هذا ، ولم ينسوا انه فى تلك الليلة نفسها من ليالى الخريف قد حام فى شوارع المدينة وسطا على ثلاثة مارة فنهبهم . على ان هذا الحادث وما أثاره من ثرثرات كثيرة لم يحرم العبيطة المسكينة من عطف الناس عليها . بالعكس : اصبح الجميع منذ ذلك الحين يهتمون بها مزيدا من الاهتمام ويرعونها مزيدا من الرعاية حتى ان التاجرة كوندراتيفا وهى ارملة ثرية ، قد قررت فى نهاية شهر ابريل ان

تضم الشقية الى منزلها وان تحتفظ بها عندها الى ان تضع طفلها . وقد روقبت ليزافيتا بيقظة شديدة ، ولكنها رغم هذه المراقبة المستمرة استطاعت فى آخر يوم ان تهرب فى المساء من عند السيدة كوندراتيفا لتلوذ بحديقة فيدور بافلوفتش . اما كيف استطاعت وهى فى حالتها تلك ان تجتاز الحاجز العالى المتين ، فتلك مسألة ظلت بغير حل الى حد ما . فبعضهم يزعم ان هناك «أناساً» نقلوها الى هناك نقلا ، وبعضهم يذهب الى ان «قوى خفية سرية» قد اعانتها على اجتياز الحاجز . واغلب الظن ان الامر قد تم على نحو طبيعى تماما ، ولو بمهارة عظيمة : ان ليزافيتا ، الماهرة فى تسلق الاسيجة للتسلل الى بساتين الخضار من اجل النوم هناك ، لا بد انها تسلقت سور حديقة فيدور بافلوفتش ، ثم قفزت الى الحديقة رغم حملها ، فآذت نفسها بذلك طبعا .

هرع جريجورى الى مارفا اجناتفنا فكلفها بأن تمضى الى ليزافيتا لتعنى بها ، بينما ذهب هو يبحث عن قابلة عجوز من اهل المدينة تسكن من حسن الحظ بالقرب من بيته . ولقد امكن انقاذ الطفل . اما الأم فقد فاضت روحها عند الفجر . وأخذ جريجورى الطفل فحمله الى مسكنه ، وأجلس زوجته فوضع الوليد على ركبتيها وأسنده الى صدرها ، وقال لها : «ان اليتيم ابن الله ، فهو قريب جميع البشر ، وهذا يصدق علينا نحن الاثنين اكثر مما يصدق على غيرنا . ان صغيرنا الميت هو الذى أرسله الينا . ان هذا الطفل قد ولد من أم صالحة وشيطان رجيم ، فأطعميه ، ولا تبكِي بعد الآن» . هكذا تولت مارفا اجناتفنا تربية الصغير . وقد عُمد وسُمى بافل ، أما الاسم الأبوى الذى كان يجب ان يسمى به فقد تم الاجماع بغير كلام او ايعاز ، على ان يكون

اسم «فيدوروفتش» . ولم يعترض فيدور بافلوفتش أى اعتراض على ذلك ، حتى لقد وجد الأمر مسليا ، ولكنه ظل فيما عدا ذلك ينكر انكارا قاطعا انه هو الفاعل . واعجب اهل المدينة باحتضانه للقيط . واختار فيدور بافلوفتش فيما بعد للصبى اسم اسرة ، فأسماه سمردياكوف مشتقا من لقب امه ، ليزافيتا سمردياشايا . ان سمردياكوف هذا هو الذى اصبح فيما بعد الخادم الثانى لفيدور بافلوفتش ، وكان يعيش فى بداية هذه القصة بالمبنى الملحق الذى يقيم فيه العجوزان جريجورى ومارفا . وقد جُعل سمردياكوف طباخا . قد يكون ضروريا ان اتحدث عن سمردياكوف هذا بمزيد من الافاضة ، ولكننى اشعر بوخز فى ضميرى اذا انا صرفت انتباه القراء مدةً طويلة الى الحديث عن خدم مبتذلين ، فهأنا ذا اعود اذن الى سرد قصتى ، آملاً ان تعرض لى من تلقاء نفسها فرصة الكلام مرة اخرى عن سمردياكوف فى باقى الرواية .

٣

اعتراف قلب حار ، شعراً

حين تلقى أليوشا الامر الذى اصدره اليه ابوه صائحا من عربته عند مغادرته الدير ، لبث جامدا فى مكانه مدة من الوقت وقد استبدت به حيرة شديدة . على ان أليوشا لم يكن جامدا كتمثال ، فذلك لم يحدث له أبدا . وبالعكس لقد استطاع ، رغم الخواطر التى هزّت نفسه وبثت فيها الاضطراب ، ان ينزل

الى مطبخ كبير الرهبان فيسأل عما قام به ابوه من اعمال فى غرفة الطعام . ثم مضى فى طريقه الى المدينة آملا ان يهتدى اثناء الطريق الى جواب عن الاسئلة التى كانت تدور فى رأسه وتعذبه . ويجب ان اذكر فورا ان الاقوال التى صاح بها أبوه والامر الذى اصدره اليه بالعودة الى المنزل «مع وسادته وفراشه» ، ان ذلك كله لم يثر فى نفس أليوشا شيئا من خوف . فهو يدرك حق الادراك ان هذا الامر بالعودة الى المنزل ، الذى ألقاه اليه أبوه بذلك الصوت القوى وتلك الصيحة المتعمدة ، انما هو ثمرة «اندفاع» عابر ، بل هو نتيجة رغبته فى الاستعراض والتأثير . . وقد ذكّره هذا بما حدث فى مدينتنا منذ زمن قصير ، حين احتفل احد سكانها بعيد شفيعه ، فلما اسرف فى الشراب ، غضب على حين فجأة غضبا شديدا واندفع اندفاعا رهيبا ، وذلك فى منزله نفسه وبحضور ضيوفه ، لأنه مُنع من ان يصب له مزيد من الفودكا ، فاذا هو يأخذ يكسر الاطباق ويمزق ثيابه وثياب امرأته ، ويحطم الأثاث ، ثم انتهى الامر الى ان أخذ يهشم زجاج النوافذ ، كل ذلك فى سبيل الاستعراض والتأثير . . . فلا شك ان شيئا من هذا القبيل قد حدث لأبيه . وقد ثاب الرجل الذى احتفل بعيد شفيعه ، ثاب الى رشده منذ الغد ، وبكى طبعا على اطباقه وصحونه وأوانيه التى حطمها . كان أليوشا يعلم اذن ان أباه سيأذن له فى الغداة ان يرجع الى الدير ، وربما أذن له بذلك قبل نهاية هذا النهار نفسه . ولقد كان واثقا على كل حال من ان أباه لن يحب يوما ان يحزنه ، كان أليوشا مقتنعا بأنه ليس هناك احد حتى فى العالم كله يمكن ان يريد يوما ما ان يحزنه ، وما من احد يمكن ان يبلغ منه ذلك ولو اراد . تلك عند أليوشا بديهية واضحة وحقيقة ثابتة لا تقبل نقاشا .

لذلك سار قدما لا يتردد ولا يلوى على شىء .

اما الخوف الذى كان يساوره فى تلك اللحظة فهو خوف من نوع خاص يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، خوف يثقل عليه خاصة لانه لا يستطيع هو نفسه ان يستبين طبيعته : انه خوف من المرأة ، بل هو خوف من امرأة بعينها هى كاترينا ايفانوفنا تلك التى توسلت اليه بكثير من الالحاح ، فى البطاقة التى ارسلتها اليه مع السيدة خوخلاكوفا منذ بعض ساعات ، ان يجىء اليها من اجل امر ما . ان رجاءها ذلك ، واضطراره الى تلبية هذا الرجاء اضطرارا لا فكاك منه ، ان ذلك كله قد ملأ نفسه منذ البداية بشعور غامض يعذّبه وما ينفك يتفاقم طوال ذلك الصباح شيئا بعد شىء حتى غدا ألماً واخزا كاويا ، دون ان تستطيع كبته الاحداث التى تعاقبت بعد ذلك فى الدير ، والمشاهد والوقائع التى تلاحقت فى مسكن كبير الرهبان الخ . الخ . . وليس مرد هذا الخوف الى انه يجهل ما ستقوله له هذه المرأة ، وما سيجيبها به . فليست المرأة بوجه عام هى ما كان يخشاه فيها . فانه وان تكن معرفته بالنساء قليلة ولا شك ، قد عاش طول الوقت فى صحبة النساء وحدهن تقريبا ، منذ طفولته الاولى الى حين دخوله الدير . وانما هو خائف من هذه المرأة بعينها ، من كاترينا ايفانوفنا بذاتها ، ولقد خاف منها منذ اللحظة الاولى التى رآها فيها ؛ وهو مع ذلك لم يلقها الا مرة او مرتين — وربما ثلاثا — وبادلها بضع كلمات عرضا فى مناسبة من المناسبات . ان الصورة التى بقيت فى خياله منها هى صورة فتاة بارعة الجمال ، شديدة الكبرياء ، قوية السطوة . ومع ذلك فليس جمالها هو ما كان يعذبه ، وانما كان يعذبه شىء آخر لم يستطع له تعليلا ، فكان جهله هذا يفاقم خوفه مزيدا من

المقاقمة فى تلك الساعة . لا شك ان هذه الفتاة تسعى الى انبل الاهداف . ذلك امر يعرفه : انها تحاول انقاذ اخيـه دمترى الذى اذنب فى حقها ، وهى لا ترغب فى ذلك ولا تتمناه الا شهامة منها . ولكن أليوشا رغم ما فى هذه العواطف من روعة ورفعة لا يملك الا ان يمجدهما ولا يملك الا ان ينصفهما ، لم يستطع ان يتغلب على القشعريرة التى سرت فى ظهره كلما ازداد اقترابا من منزل الفتاة .

وقدّر أليوشا ان أخاه ايفان الذى توثقت الصداقة الحميمة بينه وبين كاترينا ايفانوفنا ، قد لا يكون الآن عندها ، لأنه لا بد ان يكون مع أبيه . اما دمترى فان أليوشا اكبر ثقة بأنه لن يلقاه عندها أيضا ، وهو يوجس سبب ذلك . معنى هذا ان الحديث بينه وبينها سيجرى فى خلوة . الا ليتـه يستطيـع ، على الأقل ، ان يرى اخاه دمترى قبل هذا الحديث المحتوم ! خطر ببال أليوشا ان يسرع الى اخيه بوثبة ليراه . تُرى أليس ممكنا ان يتناقش معه أولا ، دون ان يظهره على رسالتها طبعا ؟ ولكن دمترى يقيم فى مكان بعيد ، واغلب الظن انه ليس فى منزله الآن . توقف أليوشا لحظة ليفكر ، ثم عزم أمره أخيرا . رسم على نفسه اشارة الصليب بحركة سريعة ، ولم يلبث ان ابتسم بدون سبب ظاهر ، ثم اتجه يسير بخطى حازمة نحو منزل سيدته «الرهيبة» .

كان يعرف اين تقطن . ولكن الاتجاه الى «الشارع الكبير» ثم عبور الميدان ، ثم . . . الخ . . . كل ذلك يجعل الطريق اليها طويلا . ان مدينتنا الصغيرة مبعثرة جدا ، والمسافات فيها شاسعة أكثر الاحيان . اضف الى ذلك ان اباه كان ينتظره ، فلعله لم ينس الامر الذى القاه اليه ، وقد ينفد صبره وتعود اليه نزواته ،

ولذلك كان على أليوشا ان يسرع لكى يصل الى هناك ويعود الى هنا فى الوقت المناسب . وقرر بعد تقليب الامر على وجوهه المختلفة هذه ، ان يسلك الطرق المختصرة عبر الافنية الخلفية ، فهو يعرف كل هذه الطرق المختلفة فى مدينتنا كما يعرف راحة كفه . كان عليه ان يقطع الشوارع قطعا ، فيمر بأراض بور ، ويجتاز فى اماكن شتى اسيجة تحيط بأملاك خاصة ، ويعبر افنية منازل اناس غرباء يعرفه كل واحد منهم ، ويحييه عند مروره . فعلى هذا النحو يبلغ «الشارع الكبير» بنصف الوقت الذى يحتاج اليه لو سلك السبيل العادى . فلما اتبع أليوشا هذا الطريق المختصر وجد نفسه فى لحظة من اللحظات قريبا من منـزل أبيه على حدود بستان متاخم لبستانه ، تابع لمنزل صغير عتيق بال متهالك ليس له من النوافذ الا اربع . ان صاحب هذا المنزل هو ، كما كان أليوشا يعرف ذلك ، امرأة متواضعة من سكان المدينة ، عجوز بساق واحدة ، تسكن فى المنزل مع ابنتها . وكانت ابنتها هذه قد عملت فى الآونة الاخيرة بالعاصمة ، خادمة متحضرة ، لدى جنرالات فى الغالب . ولكنها رجعت منذ ما يقرب من سنة ، بسبب مرض أمها ، فهى الآن تظهر فى مدينتنا بأثواب انيقة جدا . الا ان العجوز وابنتها حلّت بهما مع ذلك فاقة شديدة وعوز كبير ، حتى لقد كانتا تذهبان كل يوم الى مطبخ فيدور بافلوفتش ، من حيث هما جارتـــان ، تلتمسان شيئا من حساء وخبز تغدقه عليهما مارفا اجناتفنا راضية مسرورة . ولكن الفتاة رغم انها تقتات من البر والاحسان لم تقبل ان تبيع اى ثوب من اثوابها التى كان بينها ثوب سابغ الذيل . وكان أليوشا قد عرف هذه النقطة الاخيرة بمصادفة محضة من صديقه راكيتين الذى كان على علم بكل شىء فى المدينة حتما ، ثم

لم يلبث ان نسيها طبعا ، ولكنه وقد بلغ الآن حديقة هذه الجارة تذكر الذيل السابغ هذا على حين فجأة ، فاذا هو يرفع رأسه بعد ان كان مطرقا الى الارض طوال المدة التى قضاها مفكرا متأملا اثناء سيره . . . وعندئذ انما وقع له لقاء لم يكن فى حسبانه قط .

لقد لمح أخاه دمترى فيدوروفتش وراء سياج الحديقة ، قاعدا على شىء من الاشياء مشرئبا برأسه متجاوزا الحاجز بصدره ، يومىء اليه بحركات عريضة من يده ، ويناديه مهيبا به بالاشارات ان يجىء اليه ، متحاشيا ان يصرخ ، بل ومتجنبا ان يقول كلمة واحدة بصوت عال ، مخافة ان يُسمع . وهرع أليوشا اليه على الفور.

— من حسن الحظ انك رفعت رأسك ، والا لكنتُ اضطررت ان اصيح .

كذلك همس يقول دمترى فيدوروفتش لأخيه مسرعا وقد بدا عليه فرح شديد برؤيته . ثم اضاف :

— تسلق من هنا . . . هيا اسرع ! ما احسنه انك جئت . لقد كنت افكر فيك . . .

سُرَّ أليوشا هو نفسه سرورا عظيما أيضا ، رغم حيرته فى كيفية اجتياز السياج . ولكن ميتيا رفعه من كوعه بيد قوية ليساعده على ان يقفز ؛ فشمر أليوشا ثوبه الرهبانى ، ثم اذا هو يصير فى داخل الحديقة بوثبة كوثبة صبى صغير من صبية المدينة الذين يسيرون حفاة الاقدام .

همس ميتيا يقول له بحماسة:

— والآن فلنسر !

فسأله أليوشا بصوت هامس أيضا ، وهو ينظر الى جميع الجهات فيرى انهما وحيدان فى الحديقة تماما :

— الى اين ؟

لم تكن الحديقة واسعة ، ومع ذلك فان المنزل الصغير الذى تملكه العجوز وابنتها يبعد خمسين خطوة على الاقل .

— نحن وحيدان ، فلماذا تتكلم همساً ؟

— لماذا اتكلم همسا ؟ لا يعلم الا الشيطان لماذا !

هكذا صاح دمترى فيدوروفتش بأعلى صوته ، وتابع يقول :

— حقا . . . فعلا . . . لماذا تكلمت همسا ؟ انظر كيف تحلو السخافات للطبيعة فى بعض الاحيان ! انا موجــــود هنا سراً ، ويجب ان اكون كتوما . سأشرح لك الامر فيما بعد . اننى لشعورى بضرورة الحفاظ على السر ، اخذت اهمس بغباوة ، مع ان ذلك لا داعى اليه البتة . هيا . . . هيا الى هنــــاك ! وحتى نصل اياك ان تقول كلمة واحدة . هل تعلم ؟ وددت لو اقبلك !

المجد للخالق فى الخلق
المجد للخالق فى نفسى .

لقد كنت اردد هذين البيتين من الشعر هنا ، لحظة وصلت انت . . .

ان الحديقة التى تبلغ مساحتها قرابة هكتار كانت خالية من الاشجار الا فى محيطها على طول الاسوار الاربعة ؛ وهى اشجار تفاح وقيقب وزيزفون وبتولا . اما وسط الحديقة فلم يكن فيه الا مرج اعشاب يعطى فى كل صيف عشرات الكيلوغرامات من العلف . وكانت صاحبة البيت تؤجر هذه الحديقة منذ مطلع الربيع ببضع روبلات . وهناك شجيرات من توت العليق وعنب الشمال وعنب الثعلب متناثرة على طول الاسوار . وقد زُرع قرب

المنزل الصغير شيء من خضار ، ولكن ذلك لم يتم الا منذ زمن قصير . قاد دمترى فيدوروفتش ضيفه الى ركن من أنأى اركان الحديقة بعيد عن المنزل ؛ فهناك ، وسط اجمة كثيفة من اشجار الزيزفون وشجيرات عنب الثعلب الهرمة وأشجار البيلسان والغبيراء والبنفسج ، يرى المرء بقايا عريشة قديمة جدا ، قد سودها الزمان ولواها ، جدرانها مشبكة ، ولكن سقفها ما يزال سليما ، فيمكن الاحتماء بها اذا هطل مطر . لقد بنيت هذه العريشة منذ زمن بعيد ، منذ نصف قرن فيما يقال ، بناها احد المالكين السابقين ، رجل يسمى الكسندر كارلوفتش فون شميدت ، مقدم محال على التقاعد . كل شيء فى هذه العريشة منخور مسوس : ارضها خربة نتنة ، اخشابها متزعزعة ، رائحتها عفنة رطبة . وفى داخلها كانت توجد مائدة خضراء من خشب ، قد غاص نصفها فى التراب ، واحاطت بها مقاعد هى أيضا خضراء ، وما يزال يمكن الجلوس عليها . كان أليوشا قد لاحظ فورا حالة الحماسة التى كان عليها أخوه ، فلما دخل الآن العريشة رأى على المائدة زجاجة كونياك ممتلئ نصفها ، والى جانبها قدح صغير .

قال ميتيا وهو ينفجر ضاحكا :

— هو كونياك يا عزيزى ! لا شك انك تقول لنفسك : «انه ثمل من جديد» . ألا فاطرد هذه الاشباح من خاطرك !

اكاذيب يروجها أناس لا خلاق لهم
فلا تسمع لها أبدا . وبدد كل أوهامك . . . .

لا . . اننى لا اسكر . . ولكننى «اتلذذ» ، كما يقول صديقك ذلك الخنزير راكيتين . . . الذى سيصبح فى يوم من الايام مستشار دولة ، دون ان يكف عن ان يتكلم كما يتكلم رجل من الارياف .

اجلس هنا . . وددت لو اضمك الى صدرى ، يا صغيرى أليوشا ، ضما قويا حتى لأكاد احطمك ، هل تعلم هذا ؟ ذلك انك فى الواقع . . . فى الوا . . . قع . . . (افهمنى جيدا ، افهمنى جيدا !) . . . ذلك أنك فى الواقع . . . الانسان الوحيد . . . فى العالم . . . الذى احبه !

نطق دمترى فيدوروفتش كلماته الاخيرة هذه بنوع من النشوة والوجد .

— انت الكائن الوحيد الذى أحبه ، انت وكائن آخر ، هو «مخلوقة دنيئة» عشقتها لأضيع وأهلك . . . ولكن العشق شيء آخر غير الحب . فان من الممكن ان يكون الانسان عاشقا ، مع شعوره بالكره . احفظ هذا الكلام ! اننى اتكلم الآن فى فرح ومرح ! اجلس هنا ، قربى ، الى هذه المائدة . وسأجلس انا الى جانب وانظر اليك واتكلم طول الوقت وستصمت أنت طول الوقت ، بينما سأتكلم انا ، لانه قد آن الأوان ! بالمناسبة ، انا ارى ان الافضل ان نتكلم هنا همسا . . . ذلك ان من الجائز . . . هل تعلم ؟ . . . من الجائز ان توجد هنا آذان لا نتوقع وجودها . . . سأشرح لك كل شيء . تابع كلامى . . . لماذا كنت احرص على ان أراك بغير ابطاء ، لماذا كنت فى مثل تلك الحاجة القوية اليك خلال تلك الايام كلها وفى هذه اللحظة بعينها (لقد ألقيت مرساتى هنا منذ خمسة ايام) لماذا ؟ لأنك الوحيد الذى يمكن ان اركن اليه ركونا تاما ، لأنك الوحيد الذى يمكن ان افضى اليه بكل شيء ، ولأن هذا ضرورى ، ولانك لا غنى لى عنك ، ولاننى سأسقط غدا من السحب ، ولأن غدا تنتهى الحياة وتبدأ . هل شعرت يوما ، فى المنام مثلا ، بأنك تنحدر من جبل فى هاوية ؟ فاعلم اننى الآن اتدحرج الى هاوية ،

وليس هذا حلما . ولكننى لست خائفاً ، وليس عليك ان تخاف من شيء انت أيضا . اقصد . . . انا اشعر بخوف ، ولكنه شعور عذب جدا ، بل ليس شعورا عذبا ، وانما هو شعور رائع . . لا يدرى الا الشيطان ماذا . . . فليكن ما يكون . روح قوية ، روح ضعيفة ، روح امرأة . . . ليس هذا بذى بال على كل حال ! ألا فلنمجِّد الطبيعة : ما اكثر الشمس فى كل مكان ، ما أصفى السماء الآن ! لا شيء الا الخضرة . . . نحن فى قلب الصيف ، والساعة لم تكد تبلغ الرابعة بعد . صمت شامل مطبق ! الى اين كنتَ ذاهبا ؟

— كنتُ ذاهبا الى ابينا ، ولكننى كنت انوى ان امرَّ أولا بكاترينا ايفانوفنا .

— اليها واليه ؟ اوه . . . يا للمصادفة العجيبة ! . . . هل تدرى لماذا كنت انتظرك فارغَ الصبر الى ذلك الحد ؟ هل تدرى لماذا كنت ظامئا الى رؤيتك ظمأ الصحراء الى المطر ؟ هل تدرى لماذا كنت اناديك من جميع مسام روحى وجسمى ؟ هل تدرى لماذا ؟ لأننى كنت اريد ان تذهب الى الأب رسولاً منى ، وان تذهب بعد ذلك الى كاترينا ايفانوفنا ، بغية ان اصفِّى الامر معه ومعها . . كان لا بد لى ان ارسل اليهما ملاكا . كان فى وسعى ان اكلف بهذا اى انسان ، ولكننى كنت اريد ملاكا . وهأنت ذا تذهب اليها وتذهب الى الأب .

— هل كنت تريد ان ترسلنى حقا ؟

كذلك سأله أليوشا بلهجة تنبئ عن ألم شديد فقال له دمترى :

— اذن كنت تعلم هذا . اننى أرى أنك قد فهمت كل شيء دفعة واحدة . عليك بالصمت خاصة ، لا تقل كلمة واحدة

الآن . لا تأسف على شيء ، ولا تبكِ قط !

قال دمترى فيدوروفتش ذلك ، ثم نهض ، وفكَّر بضع لحظات واضعا ابهامه على جبينه ، ثم سأله :

— هى التى استدعتك ، أليس كذلك ؟ لا بد انها كتبت اليك ، او فعلت شيئا من هذا القبيل ، والا لما ذهبت اليها من تلقاء نفسك فيما اظن ؟

أجابه أليوشا وهو يخرج رسالتها من جيبه ويمدها اليه :

— هذه بطاقتها .

قرأ ميتيا البطاقة بنظرة سريعة ، ثم قال له :

— وسلكتَ طرقا مختصرة لتذهب اليها . ايتها الالهة المحسنة . . شكرا على انك وجهته فى هذا الطريق فقدت خطاه نحوى ، كتلك السمكة الذهبية الصغيرة التى تروى الحكاية انك ارسلتها الى ذلك الصياد العجوز الغبى » . اسمع أليوشا ! اصغ الىَّ يا اخى ! لقد قررت الآن أن أقول لك كل شيء . لا بد لى من أن أفتح قلبى لانسان ما . لقد سبق أن أفضيت بما فى قلبى الى ملاك فى السماء ، ولكنه لا بد لى من أن أبوح بسرى الى ملاك من ملائكة الأرض أيضا . وأنت ، أنت الملاك على هذه الأرض . ستصغى وتفهم عنى ، وتغفر لى . . . ان بى حاجة قوية الى ان يغفر لى انسان أعلى وأسمى . اسمع : اذا تحول اثنان عن جميع مشاغل الأرض وهمومها ، واندفعا أو اندفع أحدهما على الأقل نحو المجهول ، فاذا هو ، فى اللحظة التى يهمّ فيها أن يحلق أو يهلك ، يلقى انسانا آخر فيقول له : «قدّم لى هذه الخدمة ، اعمل من أجلى هذا الامر الذى لا يمكن أن يطلبه أحد من أحد أبدا ، اللهم الا وهو على فراش

الموت . . .» فهل يمكن أن يرفض هذا الشخص الآخر طلبه . . . اذا كان صديقه ، اذا كان أخاه ؟

فأجابه أليوشا :

— سأفعل ما تطلبه منى ، ولكن قل ما هو ، وقل بسرعة .

— بسرعة . . . هِمْ . . . لا تتعجل ، يا أليوشا ! انك تستعجل وتقلق . فلا داعى للاستعجال الآن . ان العالم يفتح الآن صفحة جديدة . انها لخسارة كبيرة يا أليوشا أنك لا تستطيع أن ترقى الى حيث تبلغ الانبهار ! ولكن لماذا آخذ عليه هذا فى الواقع ؟ أعليك أنت أن ترتقى هكذا ؟ يا لى من أحمق حين أقول :

كن نبيلا يا أيها الانسان ! »

من قائل هذا البيت من الشعر ؟

قرر أليوشا أن يصبر . لقد أدرك أن كل ما يستطيع أن يقوم به من عمل قد يتركز الآن فى هذا المكان بالذات . وفكّر ميتيا دقيقةً ، متكئاً بكوعه على المائدة ، واضعاً رأسه فى راحة يده . صمت الاثنان كلاهما .

استأنف ميتيا كلامه يقول :

— أليوشا ! أنت وحدك تستطيع أن تسمعنى دون أن تضحك ! أريد أن أبدأ اعترافى . . . مرتلاً نشيد الفرح الذى كتبه شيلر . [1] **An die Freude!** ولكننى لا أجيد اللغة الألمانية ، ولا أعرف من النشيد الا عنوانه : **An die Freude** . حذار خاصة أن يذهب بك الظن الى اننى سكران . ليس السكر

[1] الى الفرح ! (بالالمانية فى الأصل) .

هو ما يجعلنى أتكلم . الكونياك هو الكونياك ، ولكن لا بد لى من زجاجتين على الأقل حتى أسكر :

سيلين ذو الوجه المزهر
قد امتطى يوما حمارا يتعثر»

وأنا لم أشرب الا ربع زجاجة فى أكثر تقدير . ثم اننى ان لم أكن سيلين ، فأنا سيليون (قوى) . أنا قوى لأننى اتخذت قرارى ، وقد اتخذته الى الأبد ! اغفر لى التلاعب بالالفاظ . وهناك عدا هذا التلاعب ، أمور كثيرة أخرى سيكون عليك أن تغفرها لى اليوم . اطمئن بالاً . . . اننى لا أهذر ولا أهرف . . . اننى أتكلم جاداً ، وأمسُّ قلب الموضوع . لا يخطر ببالى أبداً أن أتيه فى لف ودوران . انتظر . . . اننى أحاول أن أتذكر . . .

ورفع دمترى فيدوروفتش رأسه مفكراً ، ثم اذا هو يأخذ يتلو هذه الأبيات من الشعر بلهجة نافذة :

سكان الكهوف الخائفون الوجلون ،
اختبأوا شبه عراة فى المغاور
بينما كان البداة العتاة
يسلبون السهول والغابات .
كان الصيادون المسلحون بالحراب والنبال
يبثون الذعر فى قلب كل حى يتنفس .
ويل لمن ترميه الأمواج الهائجة
على شاطىء أجنبى .

من أعلى الأولمب الهادىء
هبطت سيريس الأم على الارض
تبحث عن بروزيين .

ناصبتها الأرض العداء
لم يستقبلها أحد
لم تجد مأوى لها فى مكان
بحثت الالهة عبثا عن معبد
يمجد ألوهيتها .

لا يرى أحد فى المآدب
ثمار الطبيعة مضيئة ساطعة .
وعلى الهياكل الدامية
يتصاعد دخان القرابين المضحى بها .
تأملت سيريس المشهد الأليم
بنظرات تفيض حزنا وأسى
فى كل مكان يذل الانسان ،
وعذابه شديد لا حدود له ! . .

وفجأة أخذ صدر ميتيا يعلو ويهبط من شدة الانتحاب . وأمسك يد أليوشا .

— أخى ، أخى ، صديقى ! مذلٌ هو الانسان حتى اليوم . رهيب مصير الانسان ، شديدة آلام الانسان ! لا تحسبنَ ، أننى امرؤ فظ برتبة ضابط ، لا يعنيه الا أن يشرب الكونياك ويمارس الفجور . اننى فى الواقع لا أفكر الا فى هذا الانسان المذل ، ذلك هو اهتمامى الوحيد تقريبا حين لا أكذب . فليساعدنى الله كي لا أكذب ولا أتباهى فى هذه اللحظة ! اننى أفكر في هذا الانسان لأننى أنا نفسى انسان مثله

لا بد للانسان ،
من أجل أن تبعث نفسه بعثا جديدا
وأن ترتفع بعد سقوط

لا بد له أن يقطع للالهة القديمة «أم الارض»
عهدا الى الأبد .

ولكن الصعوبة هى هذه : ما عسانى أفعل من أجل أن أعاهد الأرض ؟ أنا لا أقبل سطح الأرض ، ولا أفتح جوفها ؟ هل يجب أن أصبح فلاحا أو راعيا صغيرا ؟ اننى أسير دون أن أعرف أأنا أغوص فى الوحل والعار ، أم أنا أتقدم نحو الضياء والفرح ؟ ذلك هو بعينه البلاء : ان كل شيء فى هذا العالم لغز ! حين كان يتفق لى أن أغوص الى القرارة من هوة الدناءة والعهر (ولم يحدث لى شيء غير هذا على كل حال) ، فقد كنت فى كل مرة أعيد قراءة تلك القصيدة التى تحدثنا عن سيريس وعن الانسان . فهل أصلحني ذلك ؟ كلا ثم كلا ! لأننى كارامازوف . فحين أسقط فى الهوة أتدهور تدهورا تاما ، رأسى فى الأمام ، وقدماى فى الفضاء ؛ حتى لقد أشعر عندئذ برضاء من سقوطى على هذا النحو المذل المهين ؛ واعتبره شيئا جميلا . فاذا بلغت القرارة من هوة الدناءة والخسة ، طفقت اترنم بنشيد . ألا فلأكن ملعونا ، ألا فلأكن منحطاً سافلا ، ولكننى أريد ، أنا أيضا ، أن أقبل ذيل الثوب الذى يتدثر به الهى . لئن اتبعت الشيطان فى الوقت ذاته يا رب ، فاننى ، مع ذلك ، أظل ابنك ، وأحبك ، وفى نفسى سبيل الى الفرح الذى لولاه ما وُجد الكون .

روح العالم التى خلقها الله ،
تغنى الفرح الى الأبد .
الفرح قائم فى أعماق الحياة
يحركها بقوة مستترة .
ينبت العشب من الأرض

بحيل السديم شمسا
ينشر ضياءه الخير
فى الفضاوات التى لا نهاية لها .

كل حى يبتهج
فى حضن الطبيعة
جميع الكائنات ، جميع الشعوب
تعيش به وحده .
يزين مصائبنا
يهب لنا اصدقاء وأزهارا وثمارا .
هو الشهوة فى الحشرة . . .
وهو الله فى الملاك

ولكن كفانا شعرا ! لقد سكبت بضع عبرات ، دعني أبكى قليلا . أسلّم لك بأن فى هذا حماقة وسخفاً . وربما ضحك الآخرون منه ، أما أنت فلا . . . لقد رأيت شعلةً تومض فى عينيك يا أليوشا . كفانا الآن شعرا . أريد أن أحدثك عن أولئك «الحشرات» ، عن أولئك الذين وهب لهم اللّه الشهوة .

هو الشهوة فى الحشرة

أنا تلك الحشرة بعينها يا أخى ! هذه الأبيات من الشعر انما تستهدفنى أنا خاصة . ونحن ، آل كارامازوف ، نحن جميعا سواء فى هذه النقطة ! فيك أيضا تحيا هذه الحشرة ، فيك أنت الملاك ! انها تُغلى دمك وتُهبُّ العاصفة فى نفسك . العاصفة ! ذلك أن الشهوة هى عاصفة ، بل شر من عاصفة ! الجمال شىء رهيب مخيف ! هو رهيب لأنه لا يُحدّد . . . ولا يمكن تحديده لأن . . . اللّه ملأ الأرض ألغازاً وأسراراً .

الجمال ! هو الشطآن تتقارب ، هو الأضداد تتحد ويحل بينها الوئام . لست على جانب كبير من الثقافة يا أخى ، ولكننى فكرت ملياً فى هذا الأمر . ما أكثر الألغاز التى تضنى الانسان فى هذا العالم ! حلّها كما تستطيع ، ودبّر أمرك بحيث تخرج منها سالماً . الجمال ! ان الشىء الذى لا أطيق احتماله هو أن أرى رجالاً متمتعين بفكرٍ سام وقلب رفيع ، يتخذون مادونا فى أول الأمر مثلاً أعلى يعبدونه ، ثم يهوون الى سدوم فيتخذونها هى مثلاً أعلى يمحضونه الحب والعبادة ! غير أن ما هو أفظع من ذلك أيضا أن ينذر الرجل نفسه لسدوم دون أن يستطيع التنكر لمادونا مثلاً أعلى ، وأن يشعر بهذا المثل الأعلى مشتعلاً فى قلبه على الدوام ، اشتعالاً صادقاً ، كما كان يشتعل فى سنى الشباب التى تبرأت من الخطيئة . النفس الانسانية واسعة ، مسرفة فى السعة . . . وددت لو أستطيع أن أضيقها . . . الشيطان وحده يعلم ما الذى يختبئ فى قرارة هذا على كل حال . ان ما يبدو للعقل عارا ، هو للقلب جمال كامل . هل فى سدوم جمال ؟ ثق أن الجمال ، فى نظر أكثر الناس ، لا وجود له الا فى الخطيئة والضياع . هل كنت تعرف هذا السر ؟ أفظع ما فى الجمال ليس أنه مخيف ، بل أنه سر لا يُفهم . فى الجمال يصطرع الرحمن مع الشيطان . وفى قلب الانسان انما تدور رحى هذا الصراع . لئن تكلمت على هذا كثيرا ، فلأن بى منه عذابا استمع الىّ الآن . لقد وصلت الى الحديث عن الوقائع .

٤

اعتراف قلب حار في حكايات

نعم لقد لهوت وعبثت وتلذذت هناك ! ادعى أبونا في هذا الصباح أنني كنت أرمي ألوف الروبلات من أجل أن اغوي البنات ! هذا كذب وضيع . . . لم يحدث شي من ذلـــك قط ! اما ما حدث فلم يُطلب مني شيء من مال من أجله المال بالنسبة لي أمر ملحق ، حمى عابرة ، زينة لا أكثر أحب سيدة في ذات يوم ، فاذا أنا في الغداة أوثر عليها بنتاً من بنات الشوارع . وأنا أنفق على هذه وتلك كلتيهما وألقي بالنقود حفناً ، والموسيقى تصدح ، والصخب ، والغجريات . وكنت أعطيهن هن أيضا مالاً اذا اقتضى الأمر ، ذلك أنهن يحرصن على هذا ، بل يحببنه حبا قويا (يجب أن أعترف بذلك) وهن يقبلنه فرحات ممتنات . أحبتني نساء من المجتمع الراقي . . . لا جميعهن ، بل عدد كاف منهن . . . ولكن كانت تجذبني دائما قبل كل شيء الحواري الضيقة ، والأزقة المسدودة المظلمة ، البعيدة عن العمران . فهنالك المغامرة ، هنالك الشيء الذي لا تتوقعه . هنالك الورود التي تنبت على الدمن . أقول ذلك الآن مجازا يا أخي . أما في هذه المدينة فلم تكن هناك أزقة مادية بيد انه كانت ازقة خلقية . لو كنت مثلي لفهمت عني . لقد أحببت المجون كما أحببت عاره . لقد أحببت القسوة : ألستُ بقة ، ألست حشرة خبيثة ؟ انني في كلمة واحدة ـــ كارامازوف ! ان مجتمع المدينة التي كنت أعيش فيها قد نظم في ذات يوم نزهة جماعية . ركبنا سبع عربات

ترويكا . كان ذلك في فصل الشتاء . ففي العربة التي كنت فيها أخذتُ ، بفضل الظلمة ، أشد على يد فتاة كانت جارتي ، وأجبرتها على الاستسلام لقبلاتي . كانت طفلة . هي بنت موظف صغير . انها فقيرة حلوة ، عذبة ، طيعة ، لطيفة . . . سمحتْ لي أن أتمتع بحريات كبيرة في الظلام ! كانت المسكينة تتخيل أنني سأذهب من الغد الى أبويها لأخطبها (كنت أُقدّر خاصة كخطيب ممكن) . ولكنني لم أخاطبها حتى بكلمة واحدة بعد ذلك ، وتجاهلتها تجاهلا تاما مدة خمسة أشهر . كنت أرى عينيها في أمسيات الرقص (وكانت حفلات الرقص كثيرة هناك) تتابعاني من ركن من الصالة ، فألاحظ وميض الحنق الوديع الذي يشتعل في نظرتها . فكان هذا اللهو لا يزيد على أن يستثير متعة الحشرة في نفسي . وقد تزوجت موظفاً بعد خمسة أشهر ، وسافرت دون أن تغفر لي وتصفح عني ، ولعلها ظلت تحبني . . . وقد سعد الزوجان بعد ذلك . لاحظ أنني لم أقصص هذه الحكاية على أحد ، وأنني لم أعرِّض سمعة الفتاة لسوء . صحيح أن لي رغبات منحطة ، وأنني أجد لذة في الانحدار الى حضيض الخسة ، ولكنني لست مجردا من الشرف . . . ان وجهك يتخضب الآن بحمرة شديدة ، وان عينيك تلتمعان . طيب . . . لن أزعجك بعد الآن بسرد مثل هذه الحكايات القذرة . ولكن ما ذكرته لك ليس الا شيئا قليلا . . . هـــو زخرفات اضافية على طريقة بول دو كوك » ، ولكن الحشرة القاسية قد نمت في نفسي واستولت عليّ واستبدت بي . ما أكثر أمثال هذه الذكريات عندي . . . ان لي منها «ألبوما» كاملا فليمتعهن الله بالصحة اولئك العزيزات . . . ولقد كنت أحاول دائما ، حين أقطع صلتي باحدى النساء ، أن أتقي المشاكل

والمشاهد . ثم اننى ما أفشيت سراً فى حياتى قط ، ولم أعرِّض سمعة احداهن لسوء . ولكن كفانى ما قلته حتى الآن فى هذا . أرجو أن لا يدور فى خلدك أننى جئت بك الى هنا لأقص عليك هذه المبائس ! هناك أمر أشق من هذه الأمور أحب أن أفضى به اليك . ولا يدهشك مع ذلك أننى لا أستحى منك وأننى ربما ألتذ بانعدام الخجل فى حضورك . . .

قاطعه أليوشا قائلا :

— أنت تقول هذا لأنك رأيت احمرار وجهى . ان وجهى لم يحمرّ بسبب حكاياتك ، ولا بسبب سلوكك ، بل لأننى مثلك . . .

— أنت ؟ أنت مثلى ؟ ألا انك لتبالغ قليلا . . .

قال أليوشا بحرارة :

— لا . . . لا أبالغ (كان واضحا أن هذه الفكرة قد شغلته منذ مدة طويلة) . ليس بيننا الا فرق فى المقدار . نحن لا نقف على درجة واحدة من السلّم . فأنا ما زلت فى أسفل ، بينما وصلت أنت الى أعلى ، الى الدرجة الثالثة عشرة مثلاً . هذا هو رأيىَ ، ولكن الأمر واحد فى الحقيقة ، واحد تماما . . . ان من وضع قدمه على الدرجة الأولى من السلم لا بد أن يبلغ ذروته .

— ففى رأيك اذن أن على المرء أن يتجنب وضع قدمه على الدرجة الأولى ؟

— يجب على المرء أن يتجنب ذلك اذا استطاع .

— هل تستطيع هذا أنت ؟

— يبدو أننى لا أستطيع .

— اسكت يا أليوشا ، اسكت يا عزيزى الطيب . وددت

لو أقبل يدك ، هكذا ، حناناً وعطفاً . ان تلك الوغدة جروشنكا خبيرة فى نفوس الناس . لقد أكّدت لى ذات مرة انها ستزدردك فى يوم من الايام لقمةً واحدة . هأنذا أمسك عن الكلام فما أقول شيئاً بعد . دعنا من هذه العفونة ، ولنصل الى مأساتى الشخصية . . . التى ليست خيراً منها على كل حال ، فهى معجونة بالخسة والدناءة أيضاً . اسمع : لئن افترى أبونا علىّ حين تحدث عن فتيات بريئات لطخت شرفهن ، فهذا لا ينفى ان ذلك بعينه هو ما حدث فى مأساتى ، رغم أنه لم يحدث الا مرة واحدة ، أو قل أخيرا انه لم يحدث قط . وأبونا العجوز الذى اتهمنى بأفعال لا وجود لها ، يجهل هذه القصة بالذات . اننى لم أحدث عنها انساناً فى يوم من الأيام . ستكون أنت أول من اطلعه عليها ، بعد ايفان طبعا . ذلك أن ايفان يعرف كل شىء ، وقد عرفه قبلك بزمان طويل . ولكن ايفان قبر .

— ايفان قبر ؟

— نعم .

كان أليوشا يصغى الى كلام أخيه بانتباه شديد .

— رغم أننى كنت ملازما فى تلك الكتيبة ، وهى كتيبة ترابط على الحدود ، فقد كنت تحت المراقبة بمعنى من المعانى ، أشبه أن أكون منفيا من المنفيين . وقد استقبلنى مجتمع المدينة الصغيرة التى فيها المعسكر استقبالا ممتازا . كنت أنفق المال بغير حساب ، وكانوا يظنوننى غنيا ، وكنت أنا أظن نفسى غنيا كذلك . يبدو على كل حال أنهم قد استلطفونى لسبب آخر أيضا . كانوا كثيرا ما يهزون رؤوسهم مستغربين ، ولكنهم كانوا يحبوننى حقا . وفجأة أخذ المقدم ، وهو رجل طاعن فى السن ، يناصبنى العداء ، ويلتمس الفرص لمناكدتى ومشاكستى . غير

انني لم أكن بلا سند أعتمد عليه ، وعدا ذلك كانت المدينة كلها تتحزب لى . ثم انه كان من الصعب عليه أن يجد ما يستحق الشكوى منى والحاق الأذى بى . ولا شك فى أننى كنت مخطئاً فى حقه ، لأننى تعمدت أن لا ألتزم ما ينبغى أن ألتزمه تجاهه من واجبات التوقير . لقد كنت أصطنع التكبر والاستعلاء . ان ذلك العجوز العنيد ، الذى لم يكن امرءا خبيثا شريرا وكان رب أسرة طيب السريرة ، كان قد تزوج مرتين . ولكن ماتت زوجتاه كلتاهما . فأما الأولى ، وهى من بسطاء الناس أصلا ، فقد خلفت له بنتاً بسيطة كأمها كانت فى ذلك الأوان تقترب من السنة الرابعة والعشرين من عمرها . كانت تعيش عند أبيها مع احدى خالاتها . وكانت الخالة امرأة بسيطة النفس مذعنة الطبع . ولكن ابنة أختها ، كبرى ابنتى المقدم ، كانت تجمع الى بساطة الخلق كثيرا من الجرأة والاقدام . انه ليسرنى وأنا أستحضر ذكراها أن أطريها وأثنى عليها : اننى يا صديقى لم ألق فى حياتى امرأة تضارع تلك الفتاة جمال طبع . كان اسمها أجافيا . . . تصور . . . أجافيا ايفانوفنا . ولم تكن خالية من الحسن فى الذوق الروسى : قامة طويلة ممتلئة قوية ، عينان رائعتان ، ولكن فى تعبيرهما شيئا من عامية . ولم تتزوج الفتاة ، رغم أنها خطبت مرتين . لقد رفضت الخطبة الأولى والخطبة الثانية كلتيهما ، دون أن تفقد بشاشتها وجذلها وصفاء مزاجها . وقد انعقدت الصلة بينى وبينها — لا على تلك الطريقة ، لأن كل شىء قد ظل بيننا طاهرا بريئا — وانما أصبحنا صديقين لا أكثر . والواقع أنه كثيرا ما اتفق لى أن صادقت بعض النساء مصادقة خالصة شريفة . وكنت حين أتحدث معها أخرج على هذه الأمور أحيانا ، من باب الصراحة ، فما تزيد على أن تضحك .

اعلم أن نساء كثيرات يحببن الصراحة . . ولكن تلك كانت عدا ذلك فتاة ، فكان هذا يسلينى كثيرا . يجب أن أضيف الى ذلك أنه لم يكن فى وسع المرء أن يسميها آنسة . وكانت الفتاة وخالتها تعيشان فى منزل الأب ذليلتين بارادتهما ، لا تضعان نفسيهما فى مستوى سائر أفراد المجتمع . وكان الناس جميعا يحبون أجافيا حبا عظيما ويحتاجون اليها ، لأنها كانت تملك موهبة فذة فى الخياطة ، ولكنها لا تتقاضى عن خدماتها مالا ، وانما هى تعمل لتكون نافعة للناس لا أكثر . على أنها كانت لا ترفضه اذا أهدى لها ، أما المقدم فقد كان من نوع مختلف كل الاختلاف . لقد كان شخصية من أهم شخصيات المدينة . كان يعيش حياة عريضة ، ويستقبل الضيوف فى منزله كثيرا ، ويقيم مآدب غداء ، وينظم أمسيات رقص . وحين وصلت الى المدينة والتحقت بالكتيبة لم يكن للمدينة الصغيرة من حديث غير الحديث عن ابنة المقدم الصغرى التى ستصل قريبا من العاصمة ، والتى يقال انها ذات جمال خارق نادر ، والتى تركت منذ زمن قصير مدرسة داخلية ارستقراطية بيطرسبرج أتمت فيها دراستها . ان هذه الفتاة الاخرى ليست الا كاترينا ايفانوفنا نفسها ، بنت المقدم من زوجته الثانية التى ماتت هى أيضا . كانت زوجته الثانية هذه تنتمى الى أسرة كبيرة — أحسب ان اباها كان جنرالا معروفا — رغم أنها لم تحمل الى زوجها ، هى أيضا ، مهراً ضخماً . . . ذلك أمر عرفته من مصدر مطلع . لقد كان لها اذن أقرباء ، وربما كانت لها آمال فى أكثر تقدير ، اما المال فلم يكن عندها مال . . . على أن وصول طالبة بطرسبرج الى المدينة (وقد جاءتها زائرةً فحسب) قد كان حدثاً من الأحداث ردّ الى المدينة صباها ان صح التعبير . فهؤلاء أرقى سيدات

مجتمعنا ، وهن زوجتا «صاحبى سعادة» ، وزوجة عقيد ، وسيدات أخرى كثيرات ، هؤلاء هن يحطن بالفتاة ويحتفين بها ويتبارين فى اقامة المآدب لها . لقد أصبحت الفتاة ملكة حفلاتنا الراقصة ونزهاتنا ورحلاتنا ، حتى لقد أقيمت على شرفها حفلة تمثيلية رُصد ريعها لاعانة مربيات عجائز لا أدرى من هن . لم أقل أنا شيئا ، بل بقيت بعيدا متنحيا ، ألهو وأقصف على ما يشاء لى هواى . وفى تلك الآونة بعينها انما اقترفت فضيحة من تلك الفضائح التى أثارت العياط والزياط فى المدينة كلها . لقد لاحظت فى ذات مساء ، أثناء حفلة استقبال أقامها قائد الكتيبة ، أنها كانت تروزنى بنظرها ، ولكننى لم أقترب منها بل تظاهرت بالاستخفاف بهذه الفرصة التى عرضت لى للتعرف بها . وبعد ذلك بزمن قصير ، قررت أثناء سهرة أخرى ، أن أتجه اليها بالكلام . فلم تكد ترضى أن تتنازل فتنظر الىّ ، وعبّرت شفتاها عندئذ عن احتقار . قلت بينى وبين نفسى عندئذ : «اصبرى قليلا . . سأعرف كيف أثأر لنفسى !» وكنت فى ذلك الأوان شرس الطبع ، شديد التهور . . وكنت أعرف ذلك فى نفسى . . . وقد شعرت خاصة أن «كاتينكا» ليست واحدة من تلك الآنسات الساذجات الكثيرات بنات المدارس الداخلية ، وانما هى انسانة قوية الطبع ، ذات كبرياء وخيلاء ، فاضلة طاهرة حقا . . . والامر الذى اشعرنى بالمذلة خاصة أنها عدا ذلك ذكية مثقفة ، على حين أننى لا ذكى ولا مثقف . لعلك تظن أننى أردت أن أخطبها ؟ أبدا . كل ما كنت أتمناه هو ان أستطيع ، أنا الفتى البارز المرموق ، أن أثأر منها لنفسى ، لأنها لم تعرف قيمتى ولم تحس بقدرى . وبانتظار ذلك اندفعت ألهو وأقصف بغير قصد ولا اعتدال ، حتى ان المقدم انتهى به الامر الى حبسي

ثلاثة أيام . وفى تلك الآونة انما أرسل الىّ أبونا ستة آلاف روبل بعد أن بعثت اليه بتنازل مكتوب عن جميع حقوقى الاخرى . لقد اعترفت فى ذلك التنازل بأننا قد «صَفينا حساباتنا» ، وبأننى لن أطالبه فى المستقبل بشىء البتة . ولقد كنت لا أفهم شيئا من أمر هذه الحسابات آنذاك . ويجب أن أعترف لك ، يا أخى اننى قبل مجيئى الى هنا ، وحتى الآونة الأخيرة ، بل وحتى يومنا هذا الذى نحن فيه ، لم أفهم قط شيئا من أمر هذه الخلافات المالية بينى وبين أبينا . على كل حال ، دعنا من هذه المسألة الآن . . وان لى اليها عودة . المهم أننى بعد أن تلقيت المال بزمن قصير علمت علم اليقين ، من رسالة بعث بها الىّ صديق ، أمراً يمكن أن يهمنى كثيرا ، وهو أن المراجع العليا مستاءة من صاحبنا المقدم ، وانها تشتبه فى أمره وتظن فيه سوء الادارة وارتكاب المخالفات ، أى أن أعداءه يدبرون له مكيدة خبيثة . وها هو ذا آمر الفرقة يصل على حين فجأة ، فيقرّع صاحبنا المقدم تقريعا شديداً ، وما هى الا فترة قصيرة اذا به يتلقى أمرا بتقديم استقالته . لن أقص عليك تفاصيل هذه الحكاية . فانما المهم أن هذا الرجل كان له فى الواقع أعداء . وقد تنكرت له المدينة كلها فجأة ، وأظهرت له ولأسرته فتورا شديدا . وفى تلك الآونة انما ارتكبت فعلتى الأولى . ففى ذات يوم التقيت بأجافيا ايفانوفنا التى ظللت صديقا لها :

«— هل تعلمين أن الاموال التى فى عهدة أبيك تنقص أربعة آلاف وخمسمائة روبل ؟»

فقالت لى أجافيا :

«— كيف هذا ؟ لماذا تقول هذا الكلام ؟ لقد جاء الجنرال مفتشا منذ مدة قصيرة ، فكان المال كله كاملا . . .»

قلت لها :

« — صحيح . يومذاك كان كاملا ، أما الآن فهو ناقص» .

جزعت كثيرا وقالت :

« — لا تخفني ! من قال لك هذا الكلام ؟»

فأجبتها :

« — اطمئني . . . لن أقول لأحد كلمة واحدة . أنت تعلمين أنني كالقبر صمتا حين يجب الصمت . ولكنني أحب أن تعرفي أيضا ما يلي «على كل حال» ، كما يقال ، اذا طولب أبوك بهذه الأربعة آلاف وخمسمائة روبل ، فلم يستطع أن يردها فسيكون عليك — حتى لا يمثل أمام المحاكمة وحتى لا يُحكم عليه في آخر عمره بأن يصبح جنديا بسيطا — سيكون عليك أن تبعثي اليّ ، خفيةً ، بأختك الطالبة . لقد تلقيت أخيرا مبلغا ضخما ، سأعطيها منه أربعة آلاف وسأحفظ السر حفظ شيء مقدس» .

هتفت تقول : « — يا للوغد ! (تلك هي الكلمة التي استعملتها) ألا انك لوغد شرير ! كيف تجرؤ أن . . . ؟»

وتركتني مستاءة أعنف الاستياء ، وصحت أقول لها مرة أخرى انني سأحافظ على السر محافظة تامة ، وأكتمه كتمانا كاملا . يجب أن أقول لك فورا ان هاتين المرأتين ، أجافيا وخالتها ، قد تصرفتا في هذه القضية تصرف ملاكين . كانتا في الواقع تعبدان كاترينا المتكبرة عبادةً ، تنمحيان أمامها امحاء ، وتسعيان بين يديها كخادمتين . . ومع ذلك أسرعت أجافيا تقص الحادث على أختها ، أي تروى لها حديثي معها . عرفت ذلك فيما بعد . لقد قالت لها كل شيء . وكان ذلك هو المطلوب بالنسبة لي طبعا .

ففي ذات يوم وصل رائد جديد على حين فجأة ليستلم قيادة الكتيبة . وتمت الاجراءات المعتادة . فاذا بالمقدم العجوز يمرض بغتة ، ويعلن أنه لا يستطيع مبارحة السرير ، ولا يسلّم أموال الدولة . وقد أكد طبيبنا كرافتشنكو أنه مريض حقا ، وأنه لا يتظاهر بالمرض تظاهرا . ولكنني كنت أعرف حقيقة الأمر ، فقد اطلعت على تفاصيل المسألة سرا منذ زمن طويل : وهي أن المال يكون في الخزنة عند اجراء الحسابات في موعدها من كل سنة ، ولكنه يختفي بعد ذلك دائما الى حين ، وذلك منذ أربع سنين . لقد كان المقدم يقرض هذا المبلغ رجلا موثوقا أمينا من تجار المدينة هو الأرمل العجوز تريفونوف ذو اللحية الطويلة والنظارتين الذهبيتين . فكان تريفونوف يمضي بالمبلغ الى السوق فيعقد صفقات ويبرم أعمالا حتى اذا عاد الى المدينة رد المبلغ المقترض الى المقدم مضيفا اليه الفوائد وبعض الهدايا . ولكن تريفونوف حين رجع هذه المرة من السوق لم يردّ المبلغ (عرفت هذه التفاصيل بمصادفة محضة من ابنه القذر الذي هو وريثه والذي هو أفسد مخلوق في هذا العالم) . ولم يرد تريفونوف المبلغ اذن . فلما هرع اليه المقدم يطالبه برد المال قال له تريفونوف : «أنا لم أقترض منك شيئاً ، ولا كان في وسعي أن أقترض منك شيئا على كل حال» . فاذا بصاحبنا المقدم يرقد في فراشه ، ويغطي رأسه بمنشفة ، وتأخذ السيدات الثلاث تضع على يافوخه ثلجاً . وفجأة يصل الى منزله فرّاش حاملا دفتر الحسابات مع أمر بردّ «أموال الدولة بغير ابطاء ، في غضون ساعتين على أكثر تقدير» . فيضع العجوز توقيعه على المذكرة المرسلة اليه ، وقد رأيت بنفسي توقيعه في هذا الدفتر فيما بعد ، ثم ينهض قائلا انه يريد أن يرتدي بزته العسكرية ، فيمضي

الى غرفة نومه ، فيتناول بندقية صيد بروحين ، فيحشوها برصاص من رصاص الحرب ، ويخلع حذاء قدمه اليمنى ، ويضع فوهة البندقية على صدره ، ويتلمس الزناد باصبع قدمه . ولكن أجافيا التى ساورت فكرها شبهات ، لأنها تذكرت الحديث الذى جرى بينى وبينها ، كانت قد تسللت وراءه خلسةً ورأت فى الوقت المناسب ما كان يريد أن يصنعه بنفسه ، فهرعت الى الغرفة وارتمت على أبيها من خلف وأمسكت ذراعيه ، فانطلقت الرصاصة فى اتجاه السقف لم تجرح أحدا . وهرعت المرأتان الأخريان أيضا ، فتمت السيطرة على العجوز ، وانتزعت منه البندقية . . . لقد رُوى لى هذا المشهد تفصيلا فيما بعد . وكنـــت فى تلك اللحظة فى مسكنى . وكان الوقت بعد الغـــروب ، فانا أستعد للخروج . لقد ارتديــت ثيابـــى ، وصففت شعرى ، وعطّرت منديلى ، . . وانى لأتناول قبعتى ، اذا بالباب يُفتح فجأة ، واذا بكاتربنا ايفانوفنا أمامى ، فى مسكنى .

ان مصادفات غريبة تقع أحيانا . . لم يرها أحد من سكان المدينة آتية الىّ ، فلم يعرف أحد بهذه الزيارة . كنت أسكن فى شقة أجّرتنيها أرملتا موظفين صغيرين ، طاعنتان فى السن جدا ، تخدمانى باحترام ، وتطيعان أوامرى طاعة عمياء . أمرتهما أن لا تنطقا بحرف واحد فى أمر هذه الزيارة ، فكانتا خرساوين كخرس الشبوط . أدركت كل شىء من أول نظرة طبعا . دخلت الفتاة ، ونظرت الىّ وجهاً لوجه . كان فى عينيها القاتمتين عزم وحزم ، بل كان فيهما تحدٍ ، غير أن شيئا من تردد كان يلم بشفتيها ويطوف حول فمها .

« ــ قالت لى أختى انك ستعطينى أربعة آلاف وخمسمائة

روبل اذا جئت أطلبها منك . . . بنفسى . فهأنا ذا جئت . . . هات المبلغ ! . . »

لم تستطع أن تزيد على ذلك شيئا ، فقد اختنقت وجزعت وتكسر صوتها وارتجفت شفتاها ، واختلج خداها . أتصغى الىّ يا أليوشا أم تُراك نمت ؟

قال أليوشا منفعلا :

ــ ميتيا ، أنا أعلم أنك ستقول لى الحقيقة كلها .

ــ سأقول لك الحقيقة ، اطمئن . سأقول لك الحقيقة ولن اداری نفسى . اليك الحقيقة اذن : الفكرة الأولى التى ساورتنى هى فكرة جديرة بواحد من آل كارامازوف . لقد اتفق لى فى الماضى يا أخى أن لدغتنى حشرة فرقدت فى فراشى أسبوعين من الحمى . فاعلم أن حشرةً أخرى قد لدغتنى فى تلك اللحظة فى قلبى . . هى الحشرة المفترسة الكاسرة ، هل تفهم ؟ شغلتْ الفتاة بصرى . هل رأيتها ؟ انها جميلة جمالا رائعا ، ولكن ليس وجهها هو الذى بدا لى جميلا عندئذ : لقد كانت فى تلك اللحظة جميلة بنبل نفسها وعظمة روحها بالقياس الىّ أنا الشقى ، كانت جميلة بالتضحية التى تقدمها فى سبيل أبيها بالقياس الىّ أنا البقة الحقيرة ! وها هى ذى الآن تقع تحت سلطان هذه البقة ، ها هى ذى الآن خاضعة خضوعا كاملا لى أنا ، أنا الشقى ، خاضعة كلها ، روحا وجسما . كانـــت محاصرة . . . سأعترف لك بالحقيقة من غير لف ولا دوران : ان هذه الفكرة التى خطرت ببالى ، ان فرحة الحشرة هذه التى نبتت فى نفسى ، قد استولت علىّ فى أول الامر استيلاء تاما وملأت قلبى الى حيث أوشك أن ينفجر من فرط اللوعة . بدا لى أنه ليس ثمة مجال لمقاومة ، وأنه لم يبق لى الا أن أتصرف

تصرف بقة ، تصرف رتيلاء مفترسة ، بغير شفقة ولا رحمة . . . وكادت تنقطع من ذلك أنفاسى . افهمنى حق الفهم . . . انه لبديهى أننى لو فعلتُ لمضيت أخطبها فى اليوم التالى ، لأختم هذه المغامرة بأناقة ونبل ان صح التعبير ، فما يعلم أحد بما جرى ، ولا يستطيع أن يعلم . صحيح أن لى شهوات دنيئة ، ولكننى مع ذلك رجل شريف . غير أننى فى تلك اللحظة سمعت كأن صوتا يهمس فى أذنى قائلاً «دعك من هذا . . . ان هذه المرأة لن تستقبلك اذا ذهبت تخطبها فى الغد ، وستكتفى بأن تأمر حوذيّها بأن يخرجك مطرودا ، قائلة لك بذلك : افضح سمعتى ، وشهر بى فى المدينة كلها ، فانا لا أخاف منك !» ألقيت نظرة على الفتاة ، فأدركت أن ذلك الصوت لم يكذبنى ، فذلك بعينه ما سيحدث . لسوف أطرد شر طردة : اننى أقرأ هذا فى عينيها حتى فى هذه اللحظة . استولى علّى حنق مسعور حين خطرت ببالى هذه الفكرة ، فاشتهيت فجأة أن أقوم بأحقر وأسفل عمل ممكن ، أن أقوم بعمل خليق بصاحب دكان : أنظر اليها مبتسما وأدمّرها تدميرا فى مكانها ، هنا ، أمامى ، قائلا لها بلهجة لا يجيدها الا صاحب دكان :

— اتحسبيننى اعطيك أربعة آلاف ؟ أنا قلت ما قلته مازحاً يا آنسة ! ألا انك قد برهنت اذن على خفة وطيش حين حملت كلامى محمل الجد ! مائتا روبل ، معقول ! . . . لو سألتنى أن أعطيك مائتى روبل لفعلت ، ولفعلت مسرورا . . . أما أربعة آلاف روبل يا آنسة ، فذلك مبلغ أضخم من أن نبذره من أجل أمور تافهة كهذه ! لقد أزعجت نفسك فى غير طائل يا آنسة !

هل ترى يا أليوشا ؟ لو قد قلت لها هذا الكلام لضاع

كل شىء طبعا ! كانت ستهرب . . . ولكننى أكون قد ثأرت لنفسى ثأراً رهيبا ، وأكون قد أرضيت كرامتى الجريحة ارضاء جهنمياً ! كنت سأظل أبكى طوال حياتى بعد ذلك حسرة وأسفا ، ولكننى لو قلت لها ذلك الكلام لاستطعت على الأقل أن أنتصر عليها فى تلك اللحظة انتصارا ساحقا ! صدقنى اذا قلت لك اننى لم يتفق لى يوما أن نظرت الى أية امرأة فى ظرف كهذا الظرف نظرةً فيها كره ، أما فى تلك المرة فقد لبثت ثلاث ثوان أو خمسا أتفرس فيها وأنا أشعر بكره رهيب . . . أحلف لك . . . هو ذلك النوع من الكره الأهوج الطائش الذى لاتفصله عن الحب الجامح المجنون الا شعرة ! اقتربت من النافذة ، ووضعت جبينى على زجاجها البارد . . . اننى أتذكر الآن أن ملامسة الزجاج المتجلد قد أحدثت لى احساسا بحرق قوى . اطمئن : لم أبقها عندى طويلا . التفت ، واتجهت نحو منضدتى ، ففتحت الدُرج وأخرجت منه الحوالة (كنت قد أودعتها معجمى الفرنسى) ، وهى بمبلغ خمسة آلاف روبل تدفع «لحامله» . أريتها الحوالة دون أن أنطق بكلمة واحدة ، ثم طويتها وأعطيتها اياها . وبعد ذلك فتحت باب الممر بنفسى ، ثم تراجعت خطوة الى وراء ، وحييتها منحنيا حتى الحزام ، تحيةً فيها أعظم الاحترام . . . تستطيع أن تصدّق ذلك ! . . . ارتعشت الفتاة من أخمص قدميها الى قمة رأسها ، وحدقت الىّ لحظةً ، وانكفأ لونها انكفاء رهيباً ، ثم اذا هى ، على حين فجـأة ، دون أن تنطق بكلمة واحدة ، ودون أن تظهر شيئاً من اندفاع ، تنحنى هى أيضا ، برفق وعمق ، فما تزال تميل حتى يلامس جبينها الأرض ، فتحيينى ساجدة هذا السجود ، لا على طريقة آنسة تعلمت فى مدرسة داخلية ، بل على الطريقة الروسية !

ثم نهضت بوثبة واحدة ، وولّت هاربة . وكنت حاملاً سيفي في تلك اللحظة فسللته ووددت لو أغمده في صدري . لماذا ؟ لا أدري ! لو قد فعلت لكان هذا مني حماقة طبعا ، ولكن أحسب أن ذلك كان ثمرة الحماسة . هل تفهم أن من الممكن أن يقتل الانسان نفسه في بعض لحظات الحماسة ؟ على أنني لم أفعل شيئاً من ذلك ، واكتفيت بأن قبلت السيف ، ثم أعدته الى غمده . تلك تفاصيل لم يكن من الضروري أن أرويها لك على كل حال . ويخيّل اليّ أنني قد زخرفت دوري قليلاً حين وصفت لك الصراعات كلها ، أنني قد أضفت عدة أشياء لأمجد نفسي . لا ضير . . . لنسلّم بهذا . . . تباً لجميع الجواسيس على قلب الانسان ! تلك هي «حادثتي» مع كاترينا ايفانوفنا ! اثنان يعرفانها الآن : أنت وأخي ايفان . . . ولا أحد يعرفها سواكما !

نهض دمتري فيدوروفتش ، وسار بضع خطوات ، مضطرباً اضطراباً شديدا ، وأخرج منديله فجفف به جبينه . ثم عاد فجلس ، لكنه لم يجلس في المكان الذي كان يجلس عليه حتى تلك اللحظة ، وانما جلس على المقعد المواجه ، المستند الى الجدار المعارض ، فاضطر أليوشا أن يستدير حتى يقابله وجهاً لوجه .

٥

اعتراف قلب حار «والقدمان في الفضاء»

قال أليوشا :

ــ الآن عرفت الجزء الأول من هذه المسألة .

ــ تفهم الجزء الاول ، وهو دراما مُثلت في مدينة أخرى . أما الجزء الثاني فهو مأساة ستجرى أحداثها هنا .

قال أليوشا :

ــ لم أفهم حتى الآن شيئاً من هذا الجزء الثاني .

ــ وهل تظن أنني ، أنا نفسي ، أفهم شيئاً منه ؟

ــ لحظةً يا دمتري . هناك عنصر أساسي . قل لي : أنت خطيبها ، أليس كذلك ؟ وما زلت خطيبها ؟

ــ لم أخطبها فورا ، وانما خطبتها بعد الحادث بثلاثة أشهر . قلت لنفسي غداة ذلك اليوم ان كل شيء قد انتهى ، وانه لن يكون لما وقع تتمة ، فان مضيت أخطبها كان ذلك حطة وصغارا . وهي ، من جهتها ، لم تحرك ساكنا طوال الأسابيع الستة التي قضيتها في المدينة بعد ذلك ، ولا أشعرتني بوجودها ، اللهم الا مرة واحدة في الواقع : ففي اليوم الذي أعقب زيارتها جاءتني خادمتها وأعطتني حزمة دون أن تنطق بكلمة واحدة . قرأت على الحزمة عنواني . وفضضت الحزمة فوجدت فيها بقية الخمسة آلاف روبل . لقد كانت في حاجة الى أربعة آلاف وخمسمائة فقط ، فباعت السند بخسارة قدرها أكثر من مائتي روبل ، ثم أرسلت اليّ الباقي وهو مائتان وستون روبلاً فيما أظن ، ولكنني لا أتذكر مقدار المبلغ تذكراً واضحاً . لم يكن في الحزمة الا المال . . . لم يكن فيه كلمة شرح واحدة . بحثت في داخل الحزمة عن أية اشارة ولو بالقلم الرصاص ، فلم أظفر بشيء . ما العمل ؟ اندفعت ألهو وأقصف مزيدا من اللهو والقصف ، وبلغت من ذلك حداً اضطر معه الرائد الجديد أن يقرعني تقريعا شديدا . أما المقدم فقد ردّ أموال الدولة كاملة لا تنقص كوبكا واحدا ، فدهش جميع الناس ، لأنهم كانوا

مقتنعين بأنه بدّد هذا المبلغ . وما لبث بعد ردّ المال أن مرض فلزم فراشه وظل راقدا حوالى ثلاثة أسابيع ثم أصيب بضمور دماغى على حين بغتة فمات بعد خمسة أيام . وقد شيعت جنازته تشييعا عسكريا لأن وقته لم يكن قد اتسع لتقديم الاستقالة التى طلب اليه أن يقدّمها . وسافرت كاترينا ايفانوفنا الى موسكو بعد دفن أبيها بعشرة أيام ، تصحبها أختها وخالتها . وفى تلك اللحظة فقط (فاننى ما رأيتهن ولا ودعتهن فى المحطة) انما تلقيت بطاقة صغيرة من ورق أزرق هو ورق الرسائل الأنيق ذى الحافة المخرّمة الجميلة ، وقد كتب على البطاقة سطر واحد بالقلم الرصاص : «سأكتب اليك . انتظر رسالتى . ــ ك» . ذلك كل شىء .

سأسرد عليك التتمة مقتضبا . فى موسكو تغير حالهن بين عشية وضحاها ، تغيراً مفاجئاً لا يعرف المرء له مثيلا الا فى الحكايات العربية . لقد فقدت قريبتُها الجنرالة ابنتى أختها على حين فجأة ، وهما أقرب ورثتها اليها ، فقدتهما مصابتين بالجدرى الذى خطف الأولى ثم خطف الثانية بعد أيام قليلة ، فاهتزت الجنرالة اهتزازا عميقا لهذا المصاب فاحتضنت كترينا وفرحت برؤيتها كأنها ابنتها ، وأصبحت كاترينا عندها نجمتها الهادية . استولت الجنرالة على كاترينا ، وسرعان ما كتبت وصية جديدة لمصلحتها . على أن الوصية تخص المستقبل ، أما الآن فقد وهبت لها ثمانين ألف روبل أعطتها اياها بغير ابطاء ، بحجة أن هذا المبلغ مهر لها ، من أجل أن تستطيع التصرف فيه على ما يشاء لها هواها . كانت الجنرالة امرأة هسترية ، وقد أتيح لى أن ألاحظها بعد ذلك فى موسكو. فى ذات يوم ، تلقيت بالبريد أربعة الاف وخمسمائة روبل ، فاستغربت طبعا وعقدت الدهشة لسانى . وبعد تلقى المال بثلاثة أيام وصلتنى الرسالة

الموعودة . ان الرسالة معى الآن ، فأنا أحملها دائما ، وسأحتفظ بها حتى الممات . هل تريد أن ترى الرسالة ؟ اقرأها . . . اننى أحرص على أن تقرأها حتماً ، ان كاترينا ايفانوفنا تعرض علىّ فى هذه الرسالة أن تصبح خطيبتى ، تعرض علىّ هذا بنفسها . كتبت تقول ما معناه : «اننى أشعر نحوك بحب لا حدود له . لكن أنك لا تحبنى ، لا يهم ، كل ما أطلبه منك هو أن توافق على أن تتزوجنى . لا تخش شيئا : فاننى لن أزعجك . ولن أكون الا قطعة أثاث فى منزلك ، لن أكون الا السجادة التى سوف تمشى عليها . . . اننى أريد أن أحبك الى الأبد ، اننى أتمنى لو أنقذك من نفسك . . .» لا أستحق يا أليوشا أن أكرر هذه الأسطر التى كتبتها لى ، لا أستحق أن أرددها بألفاظى القذرة ، بهذه النبرة الحقيرة التى لازمتنى طوال حياتى والتى لم أستطع التخلص منها فى يوم من الأيام ! لقد حطمت تلك الرسالة قلبى ، فما يزال ينزف بتأثيرها حتى الآن . أتظن أننى مرح النفس فى هذه الأيام ، وأن وضعى لا يعذبنى عذابا شديدا ؟ ولقد أسرعت أجيبها (لأننى كنت لا أستطيع أن أسافر الى موسكو فورا) ، كاتباً لها من خلال الدموع . غير أن هناك شيئاً سأظل أشعر منه بالخزى والعار ماحييت . لقد ذكرت فى رسالتى التى بعثت بها اليها أنها أصبحت تملك الآن ثروة طائلة ، وأن لها بائنة ضخمة ، أما أنا فلست الا ضابطا شحاذاً . نعم ، لقد كلمتها عن المال ، كلمتها هى عن المال ! كان ينبغى لى أن أقبل هذا التفاوت بينى وبينها صامتاً ، ولكن هذا الكلام قد أفلت منى رغم أنفى . . . وكتبت فى الوقت نفسه الى ايفان الذى كان يومئذ بموسكو . عرضت عليه الموقف عرضا دقيقا فى حدود الامكان ــ ضمّت الرسالة ست صفحات ــ وكلفت ايفان أن

يذهب اليها . لماذا تنظر اليّ هكذا ؟ ما بالك تحملق هذه الحملقة ؟ نعم . . . لقد وقع ايفان فى حبها ، وما يزال يحبها ، أنا أعرف ذلك . . . فى رأيكم أنتم وفق رأى الناس أننى ارتكبت بهذا حماقة كبرى . . . ولكن من الممكن أن تكون الحماقة هى الآن سبيلنا الوحيد الى الخلاص جميعا ! ألست ترى مدى ما تكنه له من تقدير ، بل وما تحمله له من احترام ؟ كيف يكون فى وسعها اذا هى وازنت بينى وبينه ، أن تحب رجلا مثلى ولا سيما بعد كل ما حدث هنا ؟

— أما أنا فأعتقد أنها لا تستطيع أن تحب الا رجلاً مثلك أنت لا مثله هو .

— هى ؟ لا . . . انها لا تحبنى أنا ، وانما تحب نبل نفسها . . .

ذلك ما أفلت من لسان دمترى فيدوروفتش مع شيء يشبه أن يكون كرهاً . ثم سرعان ما أخذ يضحك ، ولكن عينيه سطعتا بعد بضع ثوان ، واحمر وجهه ، وضرب المائدة بقبضة يده ضربة عنيفة ، وصاح يقول بغضب رهيب على نفسه ، غضب رهيب لكنه صادق :

— أحلف لك يا أليوشا . . . صدّق أو لا تصدق . . . أحلف لك صادقاً صدق وجود الله وصدق أن يسوع المسيح ربّنا ، أحلف لك أننى ، مهما أكن قد سخرت منذ لحظة بعواطفها الرفيعة ، أعلم حق العلم أن نفسى لا تعدل جزءا من مليون جزء من نفسها ، وأن لها من صدق نبل القلب ما لا ينعم به الا ملاك من ملائكة السماء ! وان يقينى من هذا هو بعينه مأساتى كلها ! . . أى ضير فى أن يحب الانسان العبارات الجميلة وأن يشوبَ أطهرَ اندفاعاته شيء من تمثيل ؟ ألست أستعمل

أنا عبارات مصطنعة ؟ ومع ذلك فأنا صادق ، صادق تماما . أما ايفان فاننى أتخيل أنه فى هذه الساعة يلعن الطبيعة ولا شك ، يلعن الطبيعة هو الرجل الذكى ذلك الذكاء كله ! من الذى تفضله المرأة ؟ انها تخص بايثارها الانسان النذل الذى برهن هنا ، وهو خاطب يعرفه الجميع ، على عجزه عن أن يتحكم بميله الى الدعارة والفجور ، وفى حضور خطيبته ، هل تفهم ؟ نعم . . . فهذا الرجل الذى هو أنا ، يُؤثَر ، أما الآخر فيُبعَد . . . ولماذا ذلك كله ؟ لأن فتاة من الفتيات تريد انسياقا لنبلها أن تتحدى قدرها ، وأن تقهر سعادتها ! سخف ! أنا طبعاً لم أطلع ايفان على خواطرى هذه فى يوم من الأيام ، ولا هو اعترف أى اعتراف أو أشار أية اشارة حول هذا الأمر . ولكن يجب أن ينال كل واحد منا نصيبه ، فأما الأفضل فيحتل المكان الذى يستحقه ، وأما الآخر الذى لا يستحق ذلك المكان فيغوص فى الأزقة المظلمة القذرة . ان هذا الآخر سيجد له مأوى فى الأزقة الموبوءة العفنة التى يحبها ، والتى تستهويه وتجذبه اليها ، والتى يشعر فيها أنه فى بيته ، ليهلك هنالك فى الحقارة المقززة راضيا عنها متلذذا بها . اننى أسترسل الآن فى عبارات جوفاء ، وأقول ألفاظاً بالية أجمعها من هنا وهناك . ولكن الأمور ستجرى هذا المجرى الذى أصفه . سأغطس أنا فى الأزقة ، وستتزوج هى ايفان .

قاطعه أليوشا مرة أخرى يقول وقد اضطربت نفسه اضطرابا شديدا :

— لحظةً يا أخى ! هنالك نقطة لم تشرحها لى مع ذلك حتى الآن : أنك خطيبها ، أليس كذلك ؟ أنت خطيبها رغم كل شيء . . . فكيف يخطر ببالك والحالة هذه أن تفصم خطبتك

اذا كانت هى ، خطيبتك ، لا تريد ذلك ؟

— أنا خطيبها ، هذا صحيح . وقد احتفلنا بخطوبتنا وفقا لجميع القواعد المقررة ، ونلنا جميع المباركات المألوفة المعهودة . تمّ ذلك فور وصولى الى موسكو وعلى افضل صورة فى كثير من الأبهة والأيقونات . وقد باركتنا الجنرالة ، حتى لقد هنأت كاتيا — هل تصدق ذلك ؟ — هنأتها قائلة لها : «أحسنت الاختيار يا بنيتى . . . اننى أرى قرارة نفس هذا الفتى» . أما ايفان فقد ناصبته العداء — هل تتصور ؟ — ولم ترض أن تهنئه . . . وقبل أن أترك موسكو جرت بينى وبين كاتيا أحاديث طويلة ، فكشفت لها عن نفسى كاملة بنبل واخلاص ، ووصفت لها أخلاقى وصفا دقيقا صادقا ، فكانت تصغى الى ما أقول بانتباه شديد .

فكان استحياء وديع
وكان كلام رقيق وديع

وكان كذلك كلامٌ فيه كبرياء وخيلاء . وأجبرتنى على أن أقطع على نفسى عهداً لأُصلحنّ حالى . قطعت لها على نفسى ذلك العهد . وهأنت ذا ترى . . .

— ماذا ؟

— لقد ناديتك اليوم ، ودعوتك أن تجىء الى هنا فى هذا النهار — تذكّر التاريخ ! — من أجل أن أوفدك قبل حلول المساء الى كاترينا ايفانوفنا ، فتبلغها . . .

— أبلغها ماذا ؟

— اننى لن أذهب اليها بعد اليوم قط . وانقل اليها تحيتى واحترامى .

— أهذا ممكن ؟

— غير ممكن طبعا ، ولذلك أرسلك اليها بدلا منى ، فكيف أستطيع أن أقول لها هذا الأمر ؟

— وما الذى ستفعله بعد ذلك ؟

— أضيعُ نفسى فى الأزقة !

— هى اذن جروشنكا ! ستذهب الى جروشنكا ؟

بهذا هتف أليوشا سائلاً بلهجة مرة وهو يضم يديه احداهما الى الأخرى . وتابع كلامه :

— أيكون ما قاله راكيتين هذا صحيحا ؟ أعترف لك بأننى قد خطر ببالى أنك قد ترددت عليها هكذا ، ثم تركتها .

— أتردد عليها وأنا خطيب ؟ أتظن أن هذا ممكن ومقبول ، على مرأى ومسمع من جميع الناس ، لا سيما والخطيبة فتاة كتلك الفتاة ؟ ان لى شيئا من شرف رغم كل شىء . صحيح أننى منذ اللحظة التى بدأت أختلف فيها الى جروشنكا قد فقدت صفة الخطيب وفقدت صفة الانسان الشريف . ذلك أمر أفهمه كل الفهم . ما بالك تنظر الىّ هكذا ؟ اعلم اننى حين ذهبت اليها أول مرة انما ذهبت اليها لغرض واحد هو أن أضربها . كنت أعلم وأعلم الآن علم اليقين أن ذلك الضابط الذى يكلفه أبى بقضاء أعمال له ، قد أعطى جروشنكا سنداً ممهوراً بامضائى ، لتطالب بملاحقتى فتضطرنى بهذه الوسيلة أن أنسحب . لقد أرادوا تخويفى . لذلك قررت أن أضربها وكنت قد رأيتها مرة من بعيد ، فلم تحدث فى نفسى أثراً كبيرا لأول وهلة ، وكنت أعرف وجود صاحبها ذاك التاجر العجوز ، الذى هو الآن مريض راقد فى فراشه قد بارحته قواه ، ولكنه سيترك لها مع ذلك بعد موته كنزا كبيرا ؛ وكنت أعلم أيضا أنها تحب المال حباً عظيما ، وتحاول أن تربح المزيد منه بالاقراض بربا فاحش لا يعرف الشفقة

ولا الرحمة ، هذه الوغدة ، هذه الحقيرة . . . فذهبت اليها لأضربها . . . فاذا أنا أوخذ بها . . . كان الأمر صاعقة أو طاعونا أو ماشئت فسمه . . . ولكننى قد أصبت وما أزال . وأنا أعلم أن كل شىء قد انتهى ولن أرى فى الحياة بعد اليوم شيئا سواها . دارت دورة الزمن . هذا هو حالى . وقد اتفق عرضاً فى تلك اللحظة ، كانما على عمد وقصد ، أن كان معى ثلاثة آلاف روبل ، أنا الذى لست الا شحاذا . . . فذهبنا معا الى موكرويه التى تبعد عن هنا مسافة خمسة وعشرين فرسخا ، فاستدعيت هنالك غجراً ، رجالا ونساء ، وفتحت زجاجات شمبانيا ، فأخذت أسقى جميع الفلاحين وجميع الفلاحات وجميع البنات ، أسقى بسخاء ، بوفرة . . . كنت لا أحسب ما أنفق من مال ، فالآلاف تذهب بعضها وراء بعض ، فما هى الا ثلاثة أيام حتى خلا وفاضى فلم يبق معى شىء . . . فهل تظن أننى قد وصلت معها الى شىء ؟ أبدا . . . لم أنل منها شيئا البتة لم ترنى جسدها حتى عن بعد ! ان فى جسمها نوعا من تثنٍ . . . لن أقول لك الا هذا . . . تراه فى الساق أيضا ، وتراه حتى فى الاصبع الصغير من قدمها اليسرى . لقد رأيت هذا الاصبع ، وقبلته . . . ولكن ذلك كان كل شىء ، أحلف لك ! كانت تقول لى : «أتزوجك اذا شئت ، رغم فقرك ــ عدْنى بأن لا تضربنى ، وبأن تدع لى أن أفعل فى المستقبل ما يحلو لى ، فربما قبلت عندئذ أن أصبح زوجتك» . كانت تقول ذلك ضاحكة ، وهى ما تزال تضحك الى الآن !

نهض دمترى فيدوروفتش على حين فجأة وقد بدا عليه نوع من غضب مسعور . اصبح كالسكران دفعة واحدة . احتقنت عيناه دماً .

ــ وهل تريد أنت حقا أن تتزوجها ؟

ــ اذا وافقتْ تزوجتها فورا ؛ واذا رفضت بقيت الى جانبها ولو كناسا فى فناء بيتها هل تعلم أنت . . . أنت . . . ــ توقف دمترى فيدوروفتش فجأة أمام أليوشا ، فأمسكه من كتفيه ، وأخذ يهزه بكل ما أوتى من قوة . ــ هل تعلم ، أيها الطفل البرىء ، هل تعلم أن هذا كله ليس الا هذيانا ، ليس الا كلاما يدل على جنون ، وأن الأمر فى الواقع أمر مأساة ؟ اسمع يا أليوشا : قد أكون احيانا رجلاً دنيئا منحطا تستبد به رغبات حقيرة وتضيعه شهوات سافلة ، أما أن أكون لصاً ، لصاً صغيرا يسرق من جيوب السترات فى المداخل ، فذلك ما لن يكونه دمترى كارامازوف أبدا ! ألا فاعلم اذن أننى لص صغير يسرق المال من المداخل ومن الجيوب ! ففى ذلك الصباح الذى ذهبت فيه الى جروشنكا لأضربها ، كانت كاترينا ايفانوفنا قد استدعتنى الى منزلها سراً ، وكلفتنى (راجيةً أن أنفذ طلبها فى الخفاء فما يعلم به أحد) ، أن أذهب الى مركز الاقليم فأرسل هناك بالبريد ثلاثة آلاف روبل الى أختها أجافيا ايفانوفنا بموسكو . ذلك أنه كان يجب أن لا يطلع أحد من سكان مدينتنا على هذا الامر . فهذه الثلاثة آلاف روبل هى التى كانت فى جيبى حين ذهبت الى جروشنكا ، وبهذه الثلاثة آلاف روبل انما مضيت أنا وجروشنكا الى موكرويه . ولقد تظاهرت بعد ذلك بأننى ذهبت الى مركز الاقليم ، ولكننى لم أسلّم كاترينا ايفانوفنا ايصال البريد ، وانما أكدت لها أننى أرسلت المال ووعدتها بأن آتيها بالايصال فى يوم آخر . ولم أعطها الايصال طبعا حتى هذه الساعة ، متعللا بالنسيان . فتخيل الآن أنك ذهبت اليها اليوم ، فنقلت اليها تحيتى واحترامى ، فسألتك : «والمال ؟» ، فعندئذ تقول لها :

«انه شهوانى وضيع ومخلوق حقير يستسلم لأهوائه . انه لم يرسل نقودك آنذاك ، بل بددها لأنه لم يستطع ان يكبح نفسه ، كالحيوان» . ولكن كان بوسعك أن تضيف : «ولكنه ليس لصا مع ذلك ، هذه هى نقودك ، الثلاثة آلاف ، يردها إليك ، فلترسليها بنفسك الى أجافيا ايفانوفنا ، اما هو فيبلغك تحياته» . فما عساك قائلا لها اليوم اذا سألتك «والمال ؟»

— أنت شقى يا ميتيا . . هذا أكيد ! ولكن لا تبالغ ! ان البلية أهون مما تظن . لا تدع لليأس أن يصعقك ، لا تدع لنفسك أن تتحطم هذا التحطم !

— أتراك تظن أننى سأنتحر لأننى لن أستطيع أن أجد ثلاثة آلاف روبل أردها اليها ؟ ألا ان البلية بعينها هى أننى لن أنتحر ، فلست أملك من القوة ما يمكننى من الانتحار الآن . قد أفعله فى المستقبل . أما الآن فاننى ذاهب الى جروشنكا . . . وليكن ما يكون !

— وما الذى ستفعله عندها ؟

— أصبح زوجها . أنال هذا الشرف . فاذا جاء عشيقها يزورها انسحبت الى الغرفة المجاورة . وسأنظف أحذية أصدقائها ، وسأغلى الماء فى السماور ، وأكون صبياً عندها . . .

قال أليوشا فجأة بصوت مهيب :

— ان كاترينا ايفانوفنا ستفهم كل شىء ، ستفهم مدى شقائك ، وستغفر لك . ان لها ذكاء فذاً . لا يمكن أن يكون أحد أشقى منك ، وستدرك هى هذا .

فأجابه ميتيا يقول مكشراً :

— لن تغفر لى قط . هناك يا أخى أشياء لا يمكن أن تقبلها أية امرأة . هل تعرف ما هو أفضل شىء يجب أن نعمله ؟

— ماذا ؟

— أن نرد اليها الثلاثة آلاف روبل .

— ولكن من أين ؟ اسمع : اننى أملك ألفى روبل ، ولا شك أن ايفان سيعطى ألفا آخر ، فيكون المجموع ثلاثة آلاف . خذها ورُدَّها اليها .

— ولكن متى تصبح هذه الآلاف الثلاثة فى جيبك ؟ انك ما زلت الى الآن قاصراً ، ولا بد حتما أن تذهب اليها موفدا منى ، فى هذا اليوم نفسه ، بالمال أو بدون المال ، لأننى لا أستطيع أن أماطل اكثر من ذلك . لقد بلغت الأمور حداً لا يمكن معه التأجيل . فى غد سيكون الأوان قد فات ، سيكون قد فات . سوف أرسلك الى أبينا .

— الى أبينا ؟

— نعم ، تذهب اليه قبل أن تذهب اليها ، وتطلب منه هذه الثلاثة آلاف روبل .

— ما هذا الكلام يا ميتيا ؟ انه لن يعطيك المبلغ بحال من الاحوال .

— أقدِّر ذلك . هل تعلم يا أليوشا ما هو اليأس ؟

— أعلم .

— فاسمع اذن : اننى أعلم أن أبانا ليس مديناً لى بشىء من الناحية القانونية ، فقد أخذت حقوقى كاملة . ولكنه مدين لى من الناحية الأخلاقية ، أليس كذلك ؟ لقد شق طريقه فى الحياة بمبلغ الثمانية وعشرين ألف روبل التى خلفتها أمى ، فجنى من استثمار هذا المبلغ مائة ألف . فليعطنى من هذه الثمانية وعشرين ألفاً ثلاثة آلاف فقط ، فينقذ روحى من هذا الجحيم ، وتغفر له بذلك خطايا كثيرة فى مقابل ذلك ! وأقسم لك يمينا

لا مين فيه أنني سأختفى متى ملكت هذه الآلاف الثلاثة ، فما يرى وجهى بعدئذ ولا يسمع عنى . هذه آخر فرصة أتيحها له ليتصرف تصرف أب . قل له ان الله نفسه هو الذى يهب له هذه الفرصة .

— أوه . . . ميتيا . . . انه لن يعطيك المبلغ بحال من الأحوال .

— أعلم أنه سيرفض أن يعطى المبلغ . أنا من ذلك على يقين مطلق ، اليومَ أكثر من أى وقت مضى ! بل اننى أعلم شيئاً آخر أيضا : لقد أدرك منذ زمن قصير جدا ، فى الأيام الأخيرة ، وربما أمس فقط ، ولأول مرة ، أدركَ فعلاً (لاحظ كلمة «فعلاً» هذه) ، أن جروشنكا لا تمزح ، لا تهـــزل ، وأنها قد تريد أن تتزوجنى حقا . انه يعرف طبعها ، انه يعرف أية قطة هى ! فهل يمكن علاوة على ذلك أن يعطينى مالاً ليمهد سبيلا لهذه الفرصة ، بينما هو مجنون بها هياماً ؟ وليس هذا كل شىء ، فسأقول لك المزيد : أنا أعلم أنه ، منذ خمسة أيام ، قد سحب من البنك ثلاثة آلاف روبل ، وأبدلها أوراقا نقدية من ذات المائة روبل ، فوضعها فى حزمة كبيرة مختومة ، وربط الحزمة بشريط أحمر متصالب فى الاتجاهين . هأنت ذا تلاحظ اننى مطلع على أدق التفاصيل ! وقد كتب على الحزمة هذه العبارة : «الى ملاكى جروشنكا ، اذا هى رضيت أن تجىء» . كتب هذه العبارة بخط يده فى كثير من العناية ، وفعل ذلك كله سراً فى الخفاء ، فما من أحد يخطر بباله أن هذا المبلغ يوجـد الآن عنده ، ما مـن أحـد يعـرف هذا الأمر الا الخادم سمردياكوف الذى يثق به ثقته بنفسه . وهو الآن ينتظر مجىء جروشنكا منذ ثلاثة أيام أو أربعة آملاً أن يجتذبها

هذا المبلغ . لقد أبلغها أنه يضع هذا المبلغ تحت تصرفها ، فأجابته بأنها «قد تعزم أمرها» . ولكن اذا ذهبت الى العجوز فكيف أستطيع أن أتزوجها بعد ذلك ؟ فهل أدركت الآن لماذا أختبئ فى هذا المكان مترقباً وما الذى أترصده ؟

— أتترصدها هى ؟

— نعم . ان هاتين العجوزين الشمطاوين ، صاحبتى المنزل ، قد أجّرتا فوما غرفةً من بيتهما الصغير ، فوما هذا رجل من مدينتنا كان قد خدم جندياً ، وهو لهما الآن بمثابة خادم وحارس فى الليل . انه فى النهار يمضى الى صيد ديوك الغابة فيجنى من ذلك بعض الرزق . وأنا الآن مقيم عند فوما هذا . فلا هو ولا العجوزتان يعرفون السرَّ ، أو يخطر ببالهما أننى هنا أترقب وأترصد . — هل سمردياكوف وحده مطلع على الأمر ؟

— وحده . ثم انه سيبلغنى مجيئها باشارة سريعة اذا هى جاءت الى العجوز .

— أهو الذى حدثك عن تلك الحزمة ؟

— نعم ، فى الخفاء . وايفان نفسه لا يعرف شيئاً عن المال وعن بقية الأمر . لقد قرر العجوز أن يرسل ايفان الـى تشرماشنيا يومين او ثلاثة . لقد جاء اليه أحد المشترين يعرض عليه قطع أخشاب بمبلغ ثمانية آلاف روبل ، فألحّ العجوز على ايفان قائلا له : «اذهب الى هناك نيابةً عنى . قدم لى هذه الخدمة» . وانما يهدف العجوز الى أن لا يكون حاضرا حين تجىء جروشنكا .

— أهو ينتظر اذن أن تجىء اليه جروشنكا اليوم كما انتظر فى الأيام الماضية ؟

— لا . . . لن تجىء اليه اليوم . سالك قرائن تثبت لى

ذلك . لن تجيء اليوم حتماً ! (كذلك صاح ميتيا فجـــأة) وهذا رأى سمردياكوف أيضاً . ولا بد أن يكون الأب جالسا الآن الى المائدة يسكر ، والى جانبه أخونا ايفان . اذهب اليه يا ألكسى ، واطلب منه هذه الآلاف الثلاثة . . .

— ميتيا ، عزيزى ، ماذا دهاك ؟

بهذا صاح أليوشا وهو ينهض فجأة ، ويتفرس فى دمترى فيدوروفتش الذى أصبح خروجه عن طوره واضحا . حتى لقد خطر ببال أليوشا أن أخاه قد جُن .

قال دمترى فيدوروفتش ببطء فيه ما يشبه الأبهة والجلال وهو يحدق الى أخيه هادئاً :

— اطمئن . ما زلت أملك عقلى كاملا . اننى أعرف ما الذى أعمله حين أرسلك الى أبينا . اننى أعتقد بحدوث معجزة .

— معجزة ؟

— معجزة الهية . ان الله يعرف ما بقلبى ، ويعلم ما أنا فيه من يأس . انه يرى ما يجرى هنا . فلن يرضى — أنا واثق من هذا — لن يرضى أن يتم هذا الأمر الفظيع . اننى أؤمن بالمعجزة يا أليوشا ! اذهب اليه !

— سأذهب . هل ستنتظرنى هنا ؟

— سأنتظر . أنا أعلم أن الأمر سيستغرق زمناً ، وأنك لن تستطيع أن تنجح فى مهمتك فورا ، وأنه لن يكفى أن تذهب اليه فتقول له : «هأنذا . . . هات المال !» لا بد أنه فى هذه اللحظة سكران . سأنتظر ما وجب الانتظار ، سأنتظر ثلاث ساعات ، أربعاً ، خمساً ، بل سبعاً بل اذا لزم . واعلم مع ذلك أن عليك أن تذهب فى هذا اليوم نفسه ، ولو فى منتصف

الليل ، أن تذهب الى كاترينا ايفانوفنا ، **بمال أو بغير مال** ، لتقول لها : «كلفنى بأن أنقل اليك تحياته» . اننى أحرص حرصا مطلقا على أن تقول لها هذه العبارة : «كلفنى بأن أنقل اليك تحياته» .

— ميتيا ! فماذا لو جاءت جروشنكا غدا أو بعد غد . . . هذا اذا لم تجيء اليوم ؟

— جروشنكا ؟ سأترصدها ، ثم أسرع الى منزل العجوز فأحول دون الأمر مهما يكن الثمن . . .

— فاذا حدث رغم كل شيء أن . . .

— اذا حدث ؟ عندئذ سأقتل ! لن أطيق الاحتمال .

— من تقتل ؟

— أقتل العجوز . أما هى فلن أقتلها .

— أخى ، أخى ، ما هذا الكلام الذى تقوله ؟

— لا أدرى ، أصبحت لا أدرى . . قد لا أقتل ، ولكن قد أقتل . . أخشى أن لا أطيق رؤية وجهه القـــذر الكريه فى تلك اللحظة ! اننى أكره جوزة عنقه ، أكره أنفه ، أكره عينيه ، أكره ضحكته الصغيرة الوقحة . انه يوقظ فىّ اشمئزازا جسمياً . ذلك ما أخشاه خاصة . قد لا أستطيع أن أسيطر على نفسى . . .

— أنا ذاهب اليه يا ميتيا . اننى مؤمن بان الله سيفعل كل شيء حتى لا تقع هذه الفظاعة .

— وسأنتظرك أنا هنا آملا أن تحدث معجزة . أما اذا لم تحدث المعجزة فـ . . .

اتجه أليوشا الى منزل أبيه مطرقاً مفكراً .

٦

سمردياكوف

دخل أليوشا على ابيه فوجده ما يزال جالساً الى المائدة فعلاً . ولقد قُدِم الطعام فى الصالون ، كما جرت العادة بذلك ، رغم أن بالمنزل غرفة طعام . الصالون أوسع حجرة فى المنزل ، وقد حرص صاحبه على أن يكون اثاثه قديماً من باب الابهة والعظمة . ان الأثاث كله قديم جداً ، أبيض اللون منجد بقماش عتيق أحمر من حرير وقطن . وعلى الجدران بين النوافذ قد صُفَّت مرايا لها أطر مفخمة من طراز بال ، بيضاء اللون أيضاً ، ولكنها مذهبة . والحيطان المغطاة بالورق الأبيض المتشقق فى مواضع كثيرة ، مزدانة بلوحتين كبيرتين ، احداهما صورة أمير من الامراء كان حاكماً للمنطقة قبل أكثر من ثلاثين عاماً مضت ، والثانية صورة أسقف مات هو ايضاً منذ زمن بعيد جداً . وفى الركن الذى يواجه باب المدخل توجد عدة أيقونات تُشعل أمامها فى المساء مصابيح زيت ، لا من قبيل التقى بل لتظل الغرفة مضاءة اثناء الليل . ذلك ان فيدور بافلوفتش لا ينام الا فى ساعة متأخرة جداً ، فهو يأوى الى فراشه فى الثالثة او الرابعة من الصباح ، ويقضى وقته قبل ذلك سائراً فى الغرفة الى غير نهاية ، أو جالساً على مقعد من المقاعد يفكر طويلاً . لقد أصبح هذا عادة فيه . وكان فى بعض الأحيان يبقى وحيداً اثناء الليل ، بعد أن يصرف خدمه الى المبنى الملحق . ولكنه فى أكثر الأحيان يحتفظ بخادمه سمردياكوف الذى ينام فى الدهليز على دكة . حين دخل اليوشا الغرفة كانت وجبة الطعام قد انتهت ، وجىء بمربى وقهوة . ان

فيدور بافلوفتش يحب ان يصيب شيئاً من الحلوى بعد الغداء ، أثناء شرب قدح صغير من الكونياك . وكان ايفان فيدوروفتش بجانبه يحتسى القهوة معه . وكان الخادمان جريجورى وسمردياكوف واقفين قرب المائدة . وكان يبدو فى تصرف السيدين والخادمين ، على السواء ، مرح غير مألوف وفرح غير معهود . كان فيدور بافلوفتش يضحك ملء حنجرته ، وقد سمع أليوشا ، منذ وصل الدهليز ، النبرات الحادة التى تتصف بها هذه الضحكة والتى يعرفها فى أبيه حق المعرفة من قبل ؛ فاستنتج من هذه النبرات أن أباه ما يزال بعيداً عن حالة السكر ، بل هو منشرح المزاج فحسب .

صرخ فيدور بافلوفتش يقول ضاجاً صاخباً وقد سرَّه فجأة أن يرى أليوشا :

— ها هو ذا ! ها هو ذا ! تعال معنا ! اجلس . قهوة ؟ انها شراب صيامى ، وهى ساخنة ولذيذة . لا أقدم اليك كونياكاً ، فأنت صائم ، بل ربما تريد ؟ الأفضل أن أعطيك خمرة لذيذة ، خمرة عظيمة ! يا سمردياكوف ، افتح الخزانة . . . الخمرة على الرف الثانى يمنة ، اليك المفاتيح . هيّا أسرع !

حاول أليوشا أن يرفض شرب الخمرة ، فقال له ابوه مشرق الوجه متهلل الأسارير :

— على كل حال سيؤتى بها الينا نحن ، ما دمت لا تريد أن تشربها . . . بالمناسبة ، هل تغذيت ؟

— تغذيت ، ولكن هل لى أن أشرب قليلاً من قهوة ساخنة ؟

بهذا أجاب أليوشا الذى لم يكن قد أكل فى الواقع الا كسرة من خبز واحتسى قدحاً من شراب الكفاس فى مطبخ كبير الرهبان .

قال الأب :

— مرحى ! ألا انك لفتى طيب ! سوف يشرب قهوة . ألا يحسن تسخين القهوة ؟ ولكن لا . . . انها ما تزال تغلى . هى قهوة ممتازة ، هل تعلم ؟ لقد أعدها سمردياكوف . ان صاحبى سمردياكوف فنان فى اعداد القهوة وتحضير أنـــواع الكولبياكا ، وكذلك فى طهى حساء السمك . هذا حق . يجب أن تجيء الينا ذات يوم ، فتذوق حساء السمك هذا ، ولكن عليك أن تنبئني بمجيئك سلفاً . آ . . صحيح . . نسيت ! ألم آمرك فى هذا الصباح بأن تترك الدير مع وسادتك وفراشك وأن تعود الى المنزل نهائيا ؟ هل أتيت بفراشك ؟ هأ هأ هأ . . .

أجابه أليوشا وهو يضحك أيضا :

— لا ، لم آت به .

— لقد أخفتك فى هذا الصباح ، هه ؟ لقد روّعتك ، أليس كذلك ؟ يا طائرى الصغير ، أنت تعلم أننى لا أستطيع أن أدخل الحزن الى قلبك . ايفان ، ايفان ، اننى لأشعر باضطراب شديد حين ينظر الى عينيّ هذه النظرة ضاحكاً . ان أحشائى لتأخذ تتحرك عندئذ . . . ذلك أننى أحبه ، هذا الفتى ! اقترب يا أليوشا ، فاننى أريد أن أمنحك بركتى الأبوية .

نهض أليوشا ، ولكن أباه كان قد عدل عن رأيه ، فقال له :

— لا بل حسبى اليوم أن أرسم عليك اشارة الصليب ، هكذا . . . اجلس هنا . . . سوف تتسلى الآن ، وذلك بصدد مسألة مألوفة عندك . سوف تضحك يا عزيزى . تخيل ان حمارة بلعام « قد أخذت تتكلم . هى تتكلم الآن ، تتكلم . . . وما أفصحها !

ولم تكن حمارة بلعام التى يعنيها الأب الا الخادم سمردياكوف . ان سمردياكوف ، وهو شاب لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره ، كان يبدو شديد التوحش دائم الصمت ، لا لأنه خجول ، فهو فى الواقع متكبر حتى ليظهر عليه أنه يحتقر جميع الناس ، ولا بد أن نقول فى هذه المناسبة : ان مارفا اجناتيفنا وجريجورى فاسيليفتش هما اللذان توليا تربيته ولكنه « قد شب على نكران الجميل » كما كان يقول جريجورى عنه ، صبياً متوحشاً ينظر الى جميع الناس نظرة شزراء . كان اثناء طفولته يجد لذة كبيرة فى أن يشنق قططاً ثم يدفنها بعد ذلك محتفلاً بدفنها احتفالاً كبيراً ، فهو يتدثر فى هذه المناسبات بيطانية يتخذها بمثابة جبة كاهن ، ويأخذ يرتل بعض الصلوات محركاً يديه فوق جثة القطة كمن يحمل مبخرة . وكان يسترسل فى هذه اللعبة فى خلوة تامة وخفاء كامل فلما فاجأه جريجورى فى ذات يوم يمارس هذه الرياضة عاقبه بالسياط معاقبة شديدة . فانزوى الصبى يومئذ فى ركن من الاركان ، وصام عن الكلام أسبوعا برمته . كان جريجورى يقول لمارفا اجناتيفنا : « ان هذا الصبى الشاذ لا يحبنا كلينا ، وهو لا يحب أحدا على كل حال . — ثم يضيف وهو يلتفت فجأة الى سمردياكوف : « أأنت كائن انسانى ؟ ما أنت بانسان . . . لقد نشأت من رطوبة الحمامات ، هذا أنت . . . » لم يغفر سمردياكوف لجريجورى تلك الأقوال فى يوم من الأيام ، كما اتضح ذلك فيما بعد . ولقد علّمه جريجورى القراءة ، فلما تجاوز الصبى السنة الثانية عشرة من عمره ، أراد جريجورى أن يعلمه « التاريخ المقدس » . ولكن هذه المحاولة قد باءت بالفشل فلم يكن لها غد . ففى ذات يوم ، اثناء الدرس الثانى او الثالث أخذ الصبى يضحك على

حين فجأة . سأله جريجورى وهو يرشقه بنظرة قاسية من وراء نظارتيه :

— ما بك ؟

— لا شيء . ان الرب قد خلق الضياء فى اليوم الأول ، وفى اليوم الرابع خلق الشمس والقمر والنجوم . . فمن اين جاء الضياء اذن فى اليوم الأول ؟

بُهت جريجورى لحظة . وكان الصبى ينظر الى معلمه نظرة ساخرة ، حتى لقد كانت عيناه تعبران عن استعلاء . فلم يستطع جريجورى ان يكظم غيظه ، فاذا هو يلطم تلميذه على وجه لطمة قوية وهو يقول له صائحا : «من اين ؟ من هنا !» تلقى الصبى الصفعة دون أن يقول كلمة واحدة ، ولكنه حرن وأمسك عن الكلام مرة أخرى بضعة أيام . وبعد ذلك الحادث بأسبوع انما وقعت له أول نوبة من نوبات الصرع ، وهو المرض الذى لم يبارحه بعد ذلك طوال حياته . فلما علم فيدور بافلوفتش بالأمر تبدل موقفه من الفتى تبدلاً كاملاً بعد أن كان حتى ذلك الحين لا يعبأ به ولا يكترث له ، رغم أنه لم يقرِّعه في يوم من الأيام ، حتى لقد كان ينفحه كوبيكاً كلما لقيه ، وكان يتفق له فى حالات الكرم والطيبة التى يمر بها أن يرسل الى الصبى من مائدته بعض الحلوى . ولكن فيدور بافلوفتش ، بعد أن عرف بمرضه ، اخذ يهتم به اهتماماً جاداً ، حتى لقد استدعى طبيبا وأراد أن يعالجه . غير أن المرض استعصى على الشفاء ، واتضح أنه لا برء منه . كانت نوبات الصرع توافى الصبى مرة فى الشهر وسطياً ، على تفاوت فى طول المدة ، واختلاف فـى قوة النوبة ، فالنوبة خفيفة تارة ، خطيرة كل الخطورة تارة أخرى . وقد حظر فيدور بافلوفتش على جريجورى أن ينزل فى الصبى

عقوبات جسمية حظراً صارماً ، وسمح للصبى أن يأتى اليه من حين الى حين ، كما عارض فى تعليم الصبى أى شيء خلال تلك الفترة . ومع ذلك حدث فى ذات يوم أن فاجأ فيدور بافلوفتش الفتى الذى أصبح مراهقا فى نحو الخامسة عشرة من عمره ، فاجأه قرب خزانة الكتب يقرأ عناوين المؤلفات من خلال زجاج الخزانة . كان فيدور بافلوفتش يملك عدداً كبيراً من الكتب ، كان يملك نحو مائة كتاب ، ولكن أحدا لم يره قارئا فى يوم من الأيام . وسرعان ما بادر فيدور بافلوفتش فأعطى الفتى مفاتيح خزانة الكتب قائلا له : «اقرأ ما يحلو لك ان تقرأه ، وستكون بعد اليوم أمين مكتبتى . . ذلك خير من التسكع فى فناء المنزل . تناول كتابا واجلس . اسمع ، خذ هذا الكتاب اولاً» . ومد فيدور بافلوفتش اليه كتاب «سهرات فى المزرعة قرب ديكانكا» .

قرأ الفتى الكتاب ، ولكن لم يظهر عليه أنه افتتن به . حتى انه لم يبتسم مرة واحدة اثناء قراءته ، بل انه قطَّب حين فرغ منه .

سأله فيدور بافلوفتش :

— هيه . . كتاب مضحك أليس كذلك ؟

فصمت سمردياكوف ولم يجب بشيء .

فألح فيدور بافلوفتش قائلاً :

— هلاَّ أجبت يا أهبل ؟

فتأتأ سمردياكوف يقول وهو يطلق ضحكة صغيرة :

— هذا كله أكاذيب ! . . أمورٌ لم تحدث

— شيطان يأخذك ! نفس خادم ! . . طيب خذ . . اقرأ اذن «التاريخ العام» من تأليف سماراجدوف » . ستجد ههنا أحداثاً صادقة . . اقرأ .

ولكن سمردياكوف لم يصل من الكتاب حتى الى صفحته العاشرة ، فقد رآه مملاً . وأُعيد اغلاق المكتبة . وبعد ذلك بقليل نقل جريجورى ومارفا الى فيدور بافلوفتش أن الصبى أصبح يقف من الطعام موقفاً فيه حساسية شديدة وتأذ كبير يتفاقمان يوماً بعد يوم : أصبح حين يجلس الى المائدة ليتناول حساءه يمسك الملعقة فيأخذ يقلب بها الحساء مرة بعد مرة فاحصاً مدققاً ، ويميل على الطبق فينعم النظر فيه طويلاً ، ثم يملأ ملعقة ويمضى بها نحو الضوء يتأملها ملياً . فكان جريجورى يسأله :

— هل وجدت فى الحساء خنفسة ؟

وتضيف مارفا ساخرة :

— أم لعلك وجدت فيها ذبابة ؟

ولكن الفتى العيوف المحب للنظافة لم يجب بشىء أبداً . وقد تصرف هذا التصرف نفسه ازاء جميع أنواع الطعام ، سواء أكان خبزاً أم لحماً أم غير ذلك . انه يرفع شوكته فيأخذ ينعم النظر فى اللقمة طويلاً قبل أن يأكلها ، كأنما هو يفحصها بمكروسكوب ، ويظل يتردد برهة طويلة ، الى أن يعزم أمره فجأة فيضعها فى فمه . فكان جريجورى ينظر اليه فيهمهم قائلا : «يا له من ابن سادة جديد» . فلما أُبلغ فيدور بافلوفتش بخصلة سمردياكوف الجديدة هذه ، قرر فورا أن الفتى يصلح أن يصبح طاهياً فأرسله الى موسكو ليتعلم فيها المهنة . قضى سمردياكوف عدة سنين يتعلم الطهى فى موسكو ، ثم عاد منها وقد تغيرت سحنته تغيراً كبيراً . لقد دبت فيه الشيخوخة على نحو غريب ، فتغضن وجهه تغضناً لا يتفق وسنّه ، واصفرّ وأصبح شبيهاً بخصيّ . اما من الناحية النفسية فانه لم يكد يتغير : فهو ما يزال ، كما كان من قبل ، متوحشاً لا يشعر بحاجة الى أن يعيش

فى صحبة الناس . ولقد لبث فى موسكو كما عُرف ذلك فيما بعد كثير الصمت أيضا . ولم تشغفه المدينة الكبيرة كثيراً ، ولم يعرف منها الا أماكن قليلة ظل يجهل كل ما عداها . وقد شهد فى ذات مرة حفلة تمثيلية ، فلم تخرجه هذه الحفلة عن صمته المطبق ، ولا أبدلت استياءه رضى . غير أنه ، فى مقابل ذلك ، قد عاد الينا من موسكو شديد العناية بهندامه ، فهو يرتدى ثياباً أنيقة وملابس داخلية نظيفة جدا ، وهو ينظف ثيابه بالفرشاة مرتين فى اليوم على الأقل ، وهو يجد لذة خاصة فى ان يدهن حذاءيه الأنيقين ، المصنوعين من جلد العجل ، بدهن انجليزى خاص ، ثم ما يزال يفركهما الى أن تلمعا لمعان مرآة . وبرهن سمردياكوف على أنه طاه عظيم . وحدّد له فيدور بافلوفتش أجراً معلوماً ، فكان ينفق كلّ اجره تقريباً فى اقتناء الملابس وشراء العطور وما الى ذلك . وكان يبدو مع ذلك أنه يحتقر النساء احتقاره للرجال . فهو يعاملهن برصانة ، حتى لكأن وصولهن اليه مستحيل . وقد دهش فيدور بافلوفتش من هذه الظاهرة ، وأخذ ينظر اليها نظرة خاصة ، لان له رأيه فى هذا الموضوع . ذلك أن نوبات الصرع قد اشتدت وتكاثرت فى ذلك الأوان ، حتى أن مارفا اجناتيفنا اضطرت أن تقرر اعداد وجبات الطعام بنفسها فى تلك الأيام ، وذلك أمر لم يحفل به فيدور بافلوفتش ، وانما كان يقول للطاهى الجديد فى بعض الأحيان ، وهو يتفرس فى وجهه وينظر اليه نظرة اشتباه :

— انني أتساءل لماذا تتكاثر عليك نوبات الصرع ، أفلا يكون من المستحسن أن تتزوج ؟ هل تريد أن أجد لك زوجة ؟ . .

ولكن سمردياكوف لا يجيب عن هذه الاسئلة ، ولا يزيد على أن يصفرّ وجهه حزناً وحسرة ؛ فينصرف عنه فيدور بافلوفتش

عندئذ محركاً يده بحركة تعبر عن العجز . المهم أن أمانة هذا الخادم لم تكن محلَّ شبهة أو شك ، كما أمكن أن يقتنع فيدور بافلوفتش بذلك مرة الى الابد . فهو لا يمكن ان يسطو على شيء ، ولا يمكن أن يسرق مولاه يوما . ان فيدور بافلوفتش ، وقد استبد به السكر في ذات يوم ، قد أضاع في فناء منزله ثلاث أوراق نقدية ملونة « كان قد قبضها منذ قليل : سقطت الاوراق في الوحل ، ثم لم يفتقدها فيدور بافلوفتش الا في الغداة ، ولكنه ما ان أخذ ينبش جيوبه كلها باحثاً عنها حتى لمحها على مكتبه . فمن أين جاءت الى هنا ؟ وعرف فيدور بافلوفتش أن سمردياكوف قد عثر بها فحملها الى مكتب مولاه منذ البارحة . قال فيدور بافلوفتش آنذاك لخادمه بلهجة جازمة : «يمينا ما لقيت في حياتي أناسا مثلك» . ثم أسرع يهدي اليه عشرة روبلات . يجب أن نضيف الى هذا أن فيدور بافلوفتش لم يكن مقتنعا بأمانة سمردياكوف فحسب ، وانما كان يحبه أيضا ، لا يدري أحد لماذا ، رغم ان الفتى كان ينظر اليه نظرة شزراء كنظرته الى الآخرين ، وهو لا يكاد يفتح فمه بكلمة في حضوره يوما . وكان الفتى لا يتكلم الا نادرا على كل حال . فلو تساءل متسائل في ذلك الأوان ، وهو ينظر الى سمردياكوف ، عمّا لعله يشغل بال الفتى ، وعن الهموم التي يمكن أن تكون مسيطرة على فكره ، لما استطاع أن يجد لهذا السؤال جواباً . ومع ذلك كان يتفق لسمردياكوف ، سواء في المنزل ، أو في الفناء ، او في الشارع ، ان يتوقف على حين فجأة ، فاذا هو يبدو عليه أنه يسترسل في تفكير عميق خلال عشر دقائق أو أكثر . وأغلب الظن رغم هذا أنه لو نظر اليه في مثل تلك اللحظات عالم من علماء الفراسة لأدرك من دراسة قسمات وجهه

أن ليس ثمة تفكير أو تأمل من أي نوع ، وأن الأمر لا يعدو أن يكون استسلاما لأحلام عابرة . ان هناك لوحة جميلة رسمها الرسّام كرامسكوي ، وجعل عنوانها «المتأمل الحالم» . ان اللوحة تمثل غابة في فصل الشتاء ، قد وقف على الممر الذي يقطعها ، فلاحٌ يرتدي قفطاناً ممزقاً وينتعل خفين باليين ، فهو في عزلة تامة . لقد ضل الفلاح طريقه هناك ، فهو يبدو في هذه الخلوة الكاملة مسترسلاً في التأمل . والحق أن الرجل لا يتأمل ، وانما هو غارق في «أحلام غامضة» ، فلو لكزه أحد بكوعه في تلك اللحظة لانتفض فجأة كأنه يستيقظ من حلم ، ناظراً حوله لا يفهم شيئاً مما جرى له ، وسرعان ما يثوب الى رشده ، فلو سألته في تلك اللحظة عما كان يفكر فيه لما استطاع أن يجيبك بشيء . ولكن لا شك في أنه سيظل محتفظاً في قرارة نفسه بالمشاعر التي تجمعت له أثناء استرساله ذاك في أحلامه ، وهي مشاعر عزيزة عليه ، يجمعها في نفسه طوال حياته على نحو لا يدركه بل ولا يشعر به . وهو لا يدري طبعا لماذا يفعل ذلك . ولعل هذه المشاعر التي تراكمت في نفسه خلال سنين أن تدفعه ذات يوم الى أن يهجر كل شيء على حين فجأة فيمضي الى القدس حاجاً ينشد الخلاص ، أو تدفعه ، لا تدري لماذا ، الى أن يشعل النار في قريته فيحرقها ، وقد يفعل الأمرين كليهما . ان هؤلاء الحالمين كثر في شعبنا . ولا شك ان سمردياكوف واحد منهم ، فهو يراكم في نفسه مشاعر فوق مشاعر ، مندفعا الى ذلك في حماسة وحميّا ، دون أن يعرف بعد لماذا يفعل ذلك .

٧

مجادلة

شرعت حمارة بلعام تتكلم فعلاً . وكانت المناسبة غريبة غرابة كافية : ان جريجوري ، حين كان في الصباح عند التاجر لوكيانوف لشراء بعض الاشياء قد سمع قصة ذلك الجندي الروسي الذي وقع في أيدي أفراد قبيلة مسلمة على حدود آسيا ، فأرادوا اكراهه على انكار المسيحية واعتناق الاسلام ، والا عذبوه وقتلوه ، فرفض ان يرتد عن دينه ، وارتضى ان يستشهد في سبيل عقيدته ، فسُلخ جلده حياً ومات وهو يمجد المسيح . كانت الصحف في ذلك اليوم تتحدث عن هذا الجندي ، وعن تضحيته البطولية ، وكان جريجوري قد روى ما سمعه أثناء الغداء . أن فيدور بافلوفتش يحب أن يمزح بعد الغداء عند تناول الحلوى ، ولا يأنف أن يدخل في حديث لهذا الغرض ولو مع الخادم جريجوري . ثم انه كان في ذلك اليوم هاشاً هشاشة خاصة ، وكان مرح المزاج مبتهج النفس . فبعد أن أصغى الى ما رواه جريجوري وهو يشرب قدح كونياك ، قال ان من الواجب أن تبارك الكنيسة ذلك الجندي وأن تعده وليا من الأولياء بغير ابطاء ، وان من المستحسن أن يهدى جلده المسلوخ الى دير من الأديرة ، «بغية أن يجتذب الجماهير والمال» . فقطب جريجوري حاجبيه عابساً ، حين لاحظ ان مولاه استرسل في التجديف على عادته بدلاً من أن يتأثر . وفي تلك اللحظة انما سُمع سمردياكوف يُطلق ضحكة ساخرة من مكانه قرب الباب . كان الخادم الشاب قد سُمح له مرارا ، حتى في السنوات الماضية ، أن يشهد وجبات الطعام ، أعني

أن يشهد المناقشات التي تعقبها . ولكنه تعوّد منذ وصول ايفان فيدوروفتش الى مدينتنا أن لا يفوته حضور وجبة الغداء في يوم من الأيام تقريبا .

سأله فيدور بافلوفتش حين سمع ضحكه فأدرك على الفور أنه يسخر من جريجوري ، سأله قائلا :

— ما بك ؟

فاندفع سمردياكوف يلقي خطابا بصوت عال وطريقة لم تكن في الحسبان ، فيقول :

— بصدد تلك القصة . فأنا أرى أن فعل ذلك الجندي الجدير بالاطراء والثناء قد كان فعلا بطوليا عظيما ولا شك ، ولكنني أرى أنه ما كان ليعد خاطئاً آثماً لو أنكر اسم المسيح في ذلك الظرف وتنازل عن تعميده انقاذاً لحياته بهذه الوسيلة واحتفاظا بها لحسنات تكفّر ، بعد سنين ، عن لحظة الضعف والتخاذل تلك .

تدخل فيدور بافلوفتش قائلا :

— ما كان ليعد خاطئاً آثماً ؟ كيف هذا ؟ أنت تكذب ، وستذهب الى جهنم رأساً بسبب ذلك وستُشوى كما يُشوى خروف .

وفي تلك اللحظة بعينها انما وصل أليوشا فابتهج أبوه لوصوله ابتهاجا قوياً ، كما سبق أن رأينا ذلك ، وقال لأليوشا وهو يدعوه أن يجلس وأن يصغي الى المناقشة :

— هذا موضوع مألوف لك . انما هو موضوعك !

قال سمردياكوف مؤكداً :

— لا أوافق على موضوع الخروف المشوي . ولن يكون هناك عقاب بسبب ذلك ، ولا يجب أن يكون هناك عقاب اذا أردنا العدل والانصاف .

— اذا أردنا العدل والانصاف ؟ ماذا تقول ؟

كذلك صاح فيدور بافلوفتش بصوت فيه مزيد من المرح وهو يلكز ركبة أليوشا .

قال جريجورى فجأة ، وهو يحدق الى عينى سمردياكوف بغضب مسعور :

— هذا وغد لا أكثر !

فأجابه سمردياكوف قائلاً بلهجة هادئة صابرة :

— أما عن قولك بأننى وغد ، فأرجو يا جريجورى فاسيلفتش أن تتمهل قليلاً وتقضى فى الأمر بنفسك : هب أن جلادى الجنس المسيحى قبضوا عليَّ ذات يوم وطالبونى بأن ألعن اسم الرب وأن أتنكر لتعميدى المقدس : ان العقل يجيز لى فى هذه الحالة أن أفعل ذلك ، ولن يكون فى هذا اثم .

صاح فيدور بافلوفتش يقول :

— سبق أن قلت ذلك . فلا تكرر ما سبق أن قلته ، وانما عليك أن تبرهن على رأيك بالأدلة !

ودمدم جريجورى يقول باحتقار :

— طاهى حساء !

فقال سمردياكوف :

— أما عن قولك بأننى طاهى حساء ، فأرجو يا جريجورى فاسيلفتش أن تتمهل بعض التمهل أيضا . لا تشتمنى ، وانما فكرّ قليلاً : هب أننى قلت للذين يعذبوننى : «ليكن لكم ما تريدون . . اننى أرتد عن دينى المسيحى وأتنكر لالهى الحق» . أفلا تديننى المحكمة الالهية فى تلك اللحظة نفسها ، وتكفرنى على الفور صراحة ؟ اذن سأكون منذ تلك الدقيقه قد أُخرجت من الكنيسة المقدسة ، وسأكون قد حُرمت منها كأى وثنى ، منذ تلك الدقيقة ،

بل منذ اللحظة التى نطقت فيها بتلك الكلمات ، بل منذ اللحظة التى راودتنى فيها نية النطق بهذه الكلمات ، بحيث لا يمضى ربع ثانية الا وأكون قد حُرمت من الكنيسة ؟ أليس هذا صحيحا يا جريجورى فاسيلفتش ؟

كان واضحا أن سمردياكوف يجد لذة فى الاتجاه بكلامه الى جريجورى ، رغم أنه لا يجيب فى الواقع الا عن أسئلة فيدور بافلوفتش ، وذلك أمر كان سمردياكوف يشعر به شعورا تاما ، ولكنه يتخابث فيتظاهر بأن تلك الأسئلة انما طرحها جريجورى .

هتف فيدور بافلوفتش فجأة يقول :

— ايفان ! ملْ عليَّ حتى أستطيع أن أهمس فى أذنك بشىء . من أجلك انما يقول هذا الكلام ، وهو ينتظر استحسانك فامدحه اذن .

أظهر ايفان كثيرا من الاهتمام والجد فى الاصغاء الى هذه الملاحظة التى أسرَّ بها اليه أبوه . وعاد فيدور بافلوفتش يقول :

— اسكت الآن يا سمردياكوف .

ثم أهاب بابنه ايفان مرة أخرى أن يميل عليه قائلا له :

— هناك شىء آخر أريد أن أهمس به فى أذنك .

فمال ايفان على أبيه من جديد مظهرا ذلك الجد نفسه الذى أظهره فى المرة الأولى . فقال له الأب :

— اننى لا أحبك أقل مما أحب أليوشا . لا يخطرن ببالك أننى لا أحبك . قليلاً من الكونياك ؟

— بكل سرور .

وقال ايفان لنفسه وهو يتفرس فى أبيه : «لقد سكر بعض السكر منذ الآن» . وكان من جهة أخرى يرقب سمردياكوف بانتباه شديد .

وصاح جريجورى يقول فجأة :

— كافر ! أنت ملعون منذ الآن . كيف تجرؤ أن تستمر فى المناقشة أيها الوغد ؟

فقاطعه فيدور بافلوفتش :

— لا تشتمه ، يا جريجورى ، لا تشتمه !

وقال سمردياكوف :

— مهلاً يا جريجورى فاسيلفتش اصبر عليَّ ولو لحظة قصيرة ، واصغ الى كلامى حتى النهاية ، لأننى لم أتممه بعد . أعود فأقول اننى متى لعننى الله فورا ، يصبح شأنى فى تلك اللحظة بالذات ، تلك اللحظة الحاسمة شأن أى وثنى ، ويكون تعميدى قد أُلغي تبعاً لذلك ، فلا يحسب له أى حساب ، أليس هذا صحيحاً ؟

فاستحثه فيدور بافلوفتش وهو يتلذذ ببلع جرعة من الكونياك ، استحثه قائلاً :

— أوصلنا الى النتيجة التى تريد أن تخلص اليها ، أسرع يا بنى .

فتابع سمردياكوف حديثه :

— فاذا لم أعد مسيحياً ، فاننى لا أكذب على الذين يعذبوننى ويسألوننى : «أتعد نفسك مسيحيا ام لا ؟» ، ذلك أن الله نفسه يكون قد أخرجنى من المسيحية بسبب نيتى وحدها قبل ان يتسع وقتى للاجابة عن سؤال معذبيّ بكلمة واحدة . فاذا كنت قد أخرجت من المسيحية فكيف يمكن أن أحاسب فى العالم الآخر ، وأية عدالة ترضى أن أحاسب فى العالم الآخر كما يُحاسب مسيحى ارتد عن دينه ، مع أننى أكون قد جُرِّدت من تعميدى بسبب نيتى وحدها حتى قبل ان أرتد عن

دينى بالقول ؟ اننى بعد أن جُرِّدت من مسيحيتى ، لا أكفر بالمسيح ، لأننى لا يكون قد بقى لى دين أرتد عنه . هل يخطر ببال أحد يا جريجورى فاسيلفتش أن يلوم تترياً كافراً على أنه لم يولد مسيحياً ؟ من ذا الذى يريد أن يعاقب مثل هذا التترى ، حتى فى السماء ؟ ما من أحد يسلخ بقرة واحدة مرتين ! وهب أن الله العلى القدير سيحاسب هذا التترى بعد موته : انه لن يوقع فيه الا عقاباً يسيراً (فمن غير المقبول أن لا يعاقَب البتة) ، ذلك أن الله يقدر أن هذا التترى لم يأثم حين ولد كافرا من أبوين كافرين . ان الله لا يمكن أن يبطش بهذا التترى ويقول عنه انه كان مسيحيا أيضا . فان عدّه مسيحيا كان هـذا كذبا ظاهرا واضحا ، والله الذى هو رب السماوات والأرض لا يمكن أن يكذب ولو فى كلمة واحدة من كلماته !

أُصيب جريجورى بالبكم من شدة ذهوله ، ونظر الى الخطيب محملقا . فهو رغم أنه لم يستطع أن يتابع المناقشة قد أدرك ادراكا غامضا بعض ما يشتمل عليه هذا الكلام المضطرب ، فتجمد كرجل صدم الحائط بجبهته على حين فجأة . وأفرغ فيدور بافلوفتش فى جوفه قدح الكونياك ، وأطلق من صدره ضحكة حادة .

— أليوشا ، أليوشا ، ما رأيك ؟ يا له من مجادل ! لا شك أنه تعلم هذا لدى اليسوعيين ، الا ترى ذلك يا ايفان ؟ اذهب أيها اليسوعى العفن ، من ذا الذى لقنك هذه الضلالات ؟ غير أن ما تقوله كذب ، كذب ، كذب أيها المتحايل . اطمئن يا جريجورى ، سوف نهدم آراءه ، سوف نحيلها دخاناً ، سوف نحيلها عدماً ، حالاً بلا ابطاء ! أجب عن هذا السؤال يا حمارة : لنفرض أنك على صواب فى موقفك من معذّبيك . ان هذا لا

ينفى أنك أنكرت دينك فى قرارة نفسك ، وأصبحت فى تلك اللحظة كافرا ، كما تعترف بذلك أنت نفسك ، فاذا كفرت فلن تكافأ على هذا فى جهنم فيما أتخيل . فبماذا تجيب عن هذا السؤال ايها اليسوعى الظريف ؟

— لا انكر أننى أكون قد ارتددت عن دينى فى قرارة نفسى ، ولكن ليس في هذا أى اثم كبير ، واذا كان ثمة خطأ فهو خطأ عادى جداً .

— عادى ؟ كيف ؟

قال جريجورى بصوت صافر :

— أنت تكذب ، ايها الملـ . عون .

تابع سمردياكوف كلامه يقول بلهجة هادئة واثقة ، شاعرا بانتصاره ولكن مصطنعاً هيئة الكرم والتسامح مع خصم طُرح أرضا :

— اقض فى الأمر بنفسك يا جريجورى فاسيلفتش : لقد جاء فى الكتاب المقدس أن الذى يملك الايمان الحق ، ولو لم يملك منه الا ذرة صغيرة ، يستطيع أن يأمر الجبل قائلاً له : «اذهب أيها الجبل الى البحر» ، فاذا بالجبل يذهب الى البحر فورا عند أول أمر يصدر اليه . فياجريجورى فاسيلفتش ، ما دمت تبلغ من عمق الايمان ما يهب لك حق اهانتى بغير انقطاع ، فحاول أن تأمر هذا الجبل القريب لا ان يذهب الى البحر (فالبحر بعيد جدا) بل ان يتقدم قليلا نحو ذلك الجدول الصغير النتن الذى يجرى وراء حديقتنا . فلسوف ترى عندئذ ان الجبل لن ينصاع لأوامرك ، وأن كل شىء سيبقى على ما كان مهما يكن صراخك شديدا . فهذا يبرهن يا جريجورى فاسيلفتش على أنك أنت أيضا لا تملك الايمان الحق ، على حين أنك لا

تكف عن اهانة الناس بحجة أنهم لا يملكون الايمان الحق . يجب أن نعترف على كل حال أنه ليس فى زماننا هذا أحد ، لا أنت فقط ، بل لا أحد على الاطلاق ، سواء أكان أقوى الناس سلطانا وأرفعهم منزلة أم كان أحقر فلاح من الفلاحين يملك القدرة على أن يدحرج هذا الجبل الى البحر وربما باستثناء رجل واحد أو رجلين اثنين فى أكثر تقدير ، ولكن هذين الرجلين لا بد أن يكونا مختبئين فى صحراء ما من صحارى مصر ، يحققان لنفسيهما هنالك الخلاص والسلام ، فلا نستطيع أن نهتدى اليهما ونعثر عليهما مهما نبحث عنهما . فاذا كان الرجال الآخرون ليسوا بالمؤمنين حقا ، فكيف نسلّم بأن الرب سيلعنهم جميعا ، وبأنه سيحرم الانسانية كلها الا ذينك الرجلين فى الصحراء ، وبأنه لن يغفر لاحد وهو الغفور الرحيم ؟ لذلك ترانى آمل ، اذا أنا شككت أن احظى بمغفرة الرب ، بعد أن أسكب دموع الندم والتوبة .

— قف ! أنت تسلّم اذن بأن هناك رجلين على الأقل فى العالم يستطيعان أن يحركا الجبال ! سجّل هذا يا ايفان ، سجل هذه النقطة ! هنا يتبدى الانسان الروسى كله !

كذلك صرخ فيدور بافلوفتش بصوت حاد وهو فى قمة الاعجاب .

فقال ايفان فيدوروفتش مؤمناً على رأى أبيه مبتسماً ابتسامة تأييد :

— ملاحظتك صحيحة تماماً . تلك سمة خاصة يتميز بها ايمان الشعب الروسى .

— أنت تشاطرنى هذا الرأى ! لا بد اذن أن أكون على

صواب ! أليس كذلك يا أليوشا ؟ ذلك هو الايمان الروسى الحق ، أليس كذلك ؟

فقال أليوشا بلهجة جادة حاسمة :

— لا . . . ان ايمان سمردياكوف ليس روسياً البتة .

— لست أتكلم عن ايمانه ، بل عن هذه السمة ، عن فكرة ذينك الناسكين عن هذه السمة الصغيرة وحدها ، أليس هذا سمة روسية خاصة ؟

قال أليوشا يوافق مبتسما :

— نعم هي سمة روسية ، روسية جدا .

قال فيدور بافلوفتش يخاطب سمردياكوف :

— قولك هذا يساوى عشرة روبلات ذهبية يا حمارة ، سأرسلها اليك فى هذا اليوم نفسه . اما في كل ما عدا ذلك فقد كذبت ، نعم كذبت ، أعود فأكرر لك ذلك . ألا فاعلم أيها الغبى أن خفة العقل وحدها هى التى جعلتنا جميعاً غير مؤمنين ، ذلك أن وقتنا لا يتسع للايمان : فنحن أولاً منصرفون الى أعمالنا تحتكرنا احتكارا ، والرب ثانيا قد ضنَّ علينا بالساعات فجعل يومنا أربعا وعشرين ساعة فقط ، فنحن لا نملك حتى الوقت اللازم لأن ننام نوما كافيا . فأين لنا الوقت اللازم للندامة والتوبة ؟ أما أنت فقد ارتددت عن دينك أمام معذبيك فى اللحظة التى لا يمكن أن يكون فى ذهنك خلالها ، فكرة أخرى غير فكرة الايمان والتى كان لا بد فيها من أن تؤكد ايمانك ! ألم تجر الأمور على هذا النحو يا صديقى ؟

— لقد جرت الأمور على هذا النحو حقا . ولكنك تسلم انت نفسك ياجريجورى فاسيلفتش ، أن ذلك يجعل الخطيئة أهون شأنا ما دامت الأمور قد جرت على هذا

النحو . لنفرض اننى اعتقدت ، فى ساعة المحنة ، بما كان يجب أن أعتقد به : اننى لأرتكب عندئذ اثما اذا انا رفضت الاستشهاد فى سبيل دينى ، وارتضيت اعتناق دين محمد . ولكننى فى مثل هذه الحالة لا أصل الى الاستشهاد ، اذ يكفينى أن أقول للجبل فى تلك الدقيقة : «تحرك أيها الجبل فاسحق الجلاد» ، فاذا بالجبل يرتمى على الجلاد فيخنقه بثقله كأنه خنفساء ، واذا أنا أمضى فى سبيلى هادئا امدح الله وأمجده . فاذا راودتنى هذه الافكار لتحقيق هذه الغاية مناديا : «اسحق الجلادين أيها الجبل» ، فاذا بالجبل لا يستجيب لندائى ، أفلا يهاجمنى الشك عندئذ لا محالة ؟ هلاَّ قلت لى كيف يمكننى فى تلك الساعة الرهيبة من الخوف القاتل أن لا يراودنى الشك ؟ لقد علمت سلفاً اننى لن أظفر بملكوت السماوات كاملا (لأن الجبل لم يطع أوامرى ، وذلك دليل على أن ايمانى ليس محلَّ ثقة هناك فى السماء ، ودليل على أننى لا أستطيع أن أتوقع مكافأة كبيرة فى الحياة الآخرة) . فأى جدوى اذن فى أن أدع لهم أن يسلخوا جلدى حياً بغير فائدة البتة ؟ وحتى حين يكونون قد سلخوا من جلدى نصفه ، فناديت الجبل مرة أخرى أهيب به أن يسحقهم ، فان الجبل لن يتحرك من مكانه رغم جميع صرخاتى . وفى تلك اللحظة يمكن ان لا يساورنى الشك فحسب ، وانما يمكن أيضا أن افقد عقلى بسبب ذعرى الشديد بحيث اصبح عاجزاً حتى عن التفكير . أفيكون اثمى والحالة هذه كبيرا اذا أنا أردت عندئذ ، بعد أن لم أظفر بنفع لا من هنا ولا من هناك ، وبعد أن لم أستطع أن أرجو مكافأة أن أنقذ جلدى على الأقل ؟ ذلك هو السبب وأنا واثق ثقة كاملة بالرحمة الالهية ، فى أننى آمل أن تغفر لى السماء غفراناً كاملاً .

٨

اثناء شرب الكونياك

انتهت المجادلة ، ولكن الأمر الغريب هو أن فيدور بافلوفتش الذى كان مرحاً فى أول الأمر قد عبس واكفهر وجهه فى النهاية . وها هو ذا ، وقد بدا عليه الامتعاض واضحاً ، يفرغ فى جوفه قدحاً آخر من الكونياك ، متجاوزاً الحدَّ الممكن تجاوزاً كبيراً . وصاح يقول للخادمين :

— انصرفوا ، اخرجوا . . . أيها اليسوعيون ! امض يا سمردياكوف . ستصلك العشرة الذهبية التى وعدتك بها ، ولكن هيّا انصرف ! وهوّن عليك يا جريجورى ، عُدْ الى مارفا فتردّ اليك هدوءك وتضعك فى سريرك .

فما ان نفذ الخادمان أمره فانصرفا ، حتى أضاف يقول بحدة وشراسة :

— ان هؤلاء الأوغاد لا يدعون لى شيئاً من راحة بعد الغداء . وسمردياكوف هذا يجيز لنفسه الآن ان يجىء كل يـوم عند الغداء ، أنت الذى تجتذبه يا ايفان . ماذا فعلت حتى فتنته؟

كذلك سأل الأب ابنه ايفان ، فأجابه هذا بقوله :

— لم أفعل شيئا البتة . خطر له أن يظهر احتراما نحوى لا أدرى لماذا . . . هو خادم ووبش . . . ولكنه واحد من أولئك الذين يندفعون الى الصف الأمامى متى حانت الساعة .

— الى الصف الأمامى ؟

— سيكون هنالك آخرون ، وسيكون هنالك أناس أفضل منه . ولكن سيجىء أيضا أناس مثله . وأمثاله هم الذين سيؤكدون

أنفسهم أولا ، ثم يجىء دور من هم أفضل منه .

— ومتى تحين تلك الساعة ؟

— سوف تشتعل الأسهم النارية ثم ربما انطفأت فالشعب لا يحب بعد الاصغاء الى هؤلاء المحرِّضين كثيرا .

— ان تلك الحمارة قد أخذت تفكر ، ولا يدرى الا الشيطان الى ماذا يمكن أن تؤدى أفكارها .

قال ايفان ماكرا ساخرا :

— انه يجمّع آراء ويراكم أفكارا .

قال الأب :

— أنا أعلم تماما أنه يكرهنى كما يكره الآخرين ، وكما يكرهك أنت أيضا رغم ما تظنه من أنه يكنّ لشخصك «الاحترام» . أما شعوره نحو أليوشا فهو أسوأ من ذلك أيضا : انه يحتقره . ولكن يجب أن نعترف أنه فى مقابل ذلك لا يسرق ، وأنه ليس بنمّام ، فهو يعرف كيف يصمت ، ولا يثرثر خارج المنزل فيما يسمعه بالمنزل . وهو الى هذا يجيد طهى أنواع الكوليبياكا . أما فيما عدا ذلك ، فشيطان يأخذه ! أليس هذا صحيحا ؟ وهل يستحق منا عناء التحدث عنه طويلاً ؟

— لا . . . لا يستحق طبعا .

— اما فيما يتعلق بالأفكار التى يمكن أن تقوم فى رأسه ، فأنا من جهتى أعتقد على وجه العموم بأن الفلاح الروسى يستحق أن يُضرب ضربا مبرحاً . لقد أكدت هذا الرأى دائما . ان فلاحينا أوغاد لا يستحقون الشفقة . ويمينا انه لمن الخير أنهم يضربون من حين الى حين ، فى ايامنا أيضا . ان قوة روسيا فى أشجار البتولا فمتى قطعت الغابات ضاعت بلادنا . أنا شخصيا

أحب العقل . ولا شك أننا قد كففنا عن ضرب الفلا
لافراطنا فى حب العقل . ولكن الفلاحين مستمرون على ج
أنفسهم بأنفسهم » . وخيرا يفعلون : على قدر الفعل يك
الجزاء . . . أو شيئا من هذا القبيل . . . على كل حال .
ينالون الجزاء . . . أما روسيا فهى بلد قذر حقير . . . ليتك تع
يا صديقى كم أكره روسيا . . . او قل اننى لا أكره روسيا
أكره هذه العيوب . . . وربما كرهت روسيا أيضا . . . tout
cela c'est de la cochonnerie...[1] هل تعرف ما الذى أ
أنا ؟ أنا أحب الظرافة .

— لقد شربت قدحاً آخر منذ هنيهة . أظن يكفيك

— لا ، مهلاً . سأشرب قدحاً ، فقدحاً ثانياً ، ث
أمسك بعد ذلك . ماذا كنت أريد أن أقول ؟ قطعتَ سل
أفكارى . ها . نعم . حين كنت ماراً بموكرويه سألت ر
عجوزاً فأجابنى بما يلى : «نحن نحب كثيراً أن نحكم ع
البنات بالجلد ، ونعهد بذلك الى الشباب . فكثيراً ما يحد
أن نرى الفتى الذى جلد الفتاة بالأمس يجيئها اليوم خاطبا
وهكذا تنتفع البنات أيضا من الأمر ، كما يقال» . ما رأ
فى شبابنا أنصار المركيز دى ساد » ؟ منظر ظريف على ك
حال . ليتنا نذهب يوماً لرؤية المشهد ، هه ؟ مالك يا أليو
تحمر ؟ لا تخجل يا صغيرى ! يا لها من خسارة اننى
أحضر مأدبة كبير الرهبان لاقص على الرهبان قصة بنات موكرو
هذه ! لا تؤاخذنى يا أليوشا على أننى أهنت صاحبك ك
الرهبان منذ قليل . فالغضب يستبد بى احياناً . . . لا ش

[1] هذه كلها قذارة خنازير (بالفرنسية فى الأصل) .

أننى أكون آثما ، ولا شك أننى سأعاقب ، اذا كان الله موجوداً .
ولكن اذا لم يكن الله موجوداً فانه لا بد من أن يُعامَل آباؤك
الرهبان بقسوة أكبر ! اذا لم يكن الله موجوداً فانه لقليل جداً
أن نقطع رءوسهم ، لأنهم يعوقون التقدم ! هل تصدقنى يا
ايفان اذا قلت لك ان هذا يعذب عواطفى ؟ لا . . . أنت لن
تصدقنى . . . اننى أرى هذا فى عينيك . أنت تظن كما يظن
سائر الناس أننى مهرج لا أكثر . أليوشا ، هل تصدق اننى
لست مهرجاً فحسب ؟

— أنا أعلم أنك لست مهرجاً فحسب .

— أصدقك . أعرف أنك تتكلم الآن مخلصا . أنت
تقول الحقيقة . وعيناك لا تكذبان ، اما ايفان فلا . . . هو رجل
مزهو بنفسه . . . مع ذلك ، لو كنت فى مكانك لتركت هذا
الدير وانتهيت منه . . . هذه الصوفية يجب الغاؤها الغاء تاما
من الأرض الروسية كلها فى ذات يوم ، لنردَّ الاغبياء الى العقل ،
ونرجعهم الى الرشاد . ما أكثر الفضة ما اكثر الذهب الذى يمكن
أن يرد الى دار السك بهذه الطريقة !

سأل ايفان :

— لماذا نلغيها ؟

— لماذا ؟ لنعجِّل انتصار الحقيقة فى هذا العالم .

— أفلا تدرى اذن أنه اذا انتصرت الحقيقة فستكون
أنت أول من ينهبونه فى البداية ، ثم . . . يلغونه ؟

— هه ! . . . بالفعل ، قد تكون مصيبا ، يا لى من
حمارة ! — قال فيدور بافلوفتش ذلك ثم لطم جبينه بيده لطمة
خفيفة على حين فجأة ، وأضاف :

— اذن فلا نمسنَّ ديرك بسوء يا أليوشا ، ما دام الأمر

10-1089

كذلك . أما نحن ، معشر الأذكياء ، فلنستمر . . . نعيش فى رخاء ونحتسى الكونياك ! ان الله نفسه ، يا عزيزى ايفان ، هو الذى لا بد أنه أراد اقامة ذلك النظام . ولكن قل لى يا ايفان : هل الله موجود أم غير موجود ؟ ولكن قف ! اننى أريد جواباً صادقاً ، جواب جاد لا هازل ! لماذا تضحك من جديد ؟

— أضحك لأننى تذكرت الفكرة التى عبرت عنها منذ برهة تعبيراً فكهاً فى اعتقاد سمردياكوف بوجود ناسكين قادرين على تحريك الجبال .

— هل يذكرك كلامى الذى أقوله الآن بسمردياكوف فى هذه النقطة؟

— جدا .

— معنى هذا أننى أنا أيضا روسى حقا ، أتصف بما يتصف به الروسى من خصائص تميزه . ولا بد أن تكون أنت أيضا متصفاً بهذه الخصائص ، مهما تكن فيلسوفا . هل تريد أن أبرهن لك على ذلك بالوقائع ؟ اننى أراهن على اننى سأستطيع ذلك منذ الغد . ومع ذلك أجبنى : هل الله موجود أم لا ؟ أياك أن تهزل ! فاننى أريد الآن أن تتكلم جاداً .

— لا . لا يوجد اله .

— أليوشا ، هل الله موجود ؟

— الله موجود .

— سؤال آخر يا ايفان : هل هناك خلود ؟ هل هناك أى خلود ، ولو صغير ، صغير جداً ؟

— لا يوجد خلود كذلك .

— أيا كان ؟

— أيا كان .

— أهو العدم المطلق اذن ؟ أم يوجد شىء ما ؟ ربما يوجد شىء ما مع ذلك ؟

— لا شىء الا العدم الكامل .

— أليوشا ، هل هناك خلود ؟

— نعم هناك خلود .

— اذن يوجد اله ويوجد خلود ؟

— نعم ، يوجد اله ويوجد خلود والخلود يوجد فى الاله .

— هِمْ . . لا شك أن ايفان هو صاحب الرأى الصحيح . ومع ذلك ما أكثر التضحيات التى ضحاها الانسان فى سبيل هذا الاعتقاد ، وما أكثر القوة التى أنفقها على هذا الأمل فى غير طائل ، منذ ألوف السنين ! . . فمن ذا الذى يضحك على الانسان هذا الضحك ؟ قل لى يا ايفان ! اننى ألقى عليك هذا السؤال آخر مرة ، ألقيه عليك قاطعا جازما : الله موجود أم لا ؟ اسألك لآخر مرة !

— أجيبك لآخر مرة : لا !

— فمن ذا الذى يسخر اذن من البشر يا ايفان ؟

فقال ايفان ضاحكاً بسخرية :

— قد يكون الشيطان .

— وهل الشيطان موجود ؟

— لا . . والشيطان أيضاً غير موجود .

— خسارة . . لا يعلم أحد ماذا كان يمكن أن أصنع به ، ذلك الذى اخترع الله أولَ من اخترعه ! ان الشنق قليل عليه .

— لولا أن أخترُع الله لما وُجدت المدنية .

— المدنية ؟ لو لا الله لما وُجدت المدنية ؟

— بلى . . . ولما وُجد الكونياك أيضاً ! أحسب أنه قد آن مع ذلك أن ننتزع منك قارورة الكونياك هذه .

— لحظة ، لحظة يا عزيزى ! كأساً صغيرة اخرى . . . لقد أسأتُ الى أليوشا . ألم تزعل منى يا ألكسى ؟ الم تغضب منى يا عزيزى الصغير أليوشا ، يا بنيَّ الطيب الشهم ؟

— لا . . . لست غاضباً . أنا أعرف أفكارك . ان القلب فيك خير من الرأس .

— قلبى خير من رأسى ؟ وهو الذى يقول هذا الكلام يا رب ! ايفان ، هل تحب أليوشا ؟

— أحبه .

— يجب أن تحبه (كان فيدور بافلوفتش فى تلك اللحظة قد أخذ السكر منه مأخذه) . اسمع يا أليوشا . لقد أسأت الى شيخك فى هذا الصباح . ولكننى كنت مهتاجاً اهتياجاً شديداً . ألا ان لهذا الشيخ شيئاً من ظرافة ، ما رأيك يا ايفان ؟

— صحيح .

— نعم نعم . . . il y a du Piron là-dedans [1] انه يسوعى ، أقصد أنه روسى . وهو ، ككل انسان ذى عواطف رفيعة ومشاعر سامية لا بد أن يسوءه أحيانا فى الخفاء أن يضطر الى التظاهر . . أن يصطنع مظاهر قديس .

— لكنه يؤمن بالله .

— هو ؟ أبدا . ألم تكن تعرف ذلك ؟ ثم انه يعترف بهذا هو نفسه لجميع الناس . . . لا لجميع الناس طبعا . . . بل للأذكياء ممن يزورونه . لقد قال جازما قاطعاً وهو يتحدث

[1] ان فى داخله شيئا من بيرون* (بالفرنسية فى الأصل) .

الى المحافظ شولتس : credo [1] ، ولكن لا أدرى بماذا .

— أهذا ممكن ؟

— تماماً . وأنا أحترمه مع ذلك . انه فيه عنصرا مفستوفيلسياً ، أو قل ان هناك شيئاً بينه وبين «بطل من هذا الزمان» ، آربينين* اذا صدقت ذاكرتى . . . أقصد أنه رجل شهوانى . وهو يبلغ من الميل الى النساء أننى أكون ، حتى اليوم ، قلقاً على زوجتى أو على ابنتى ، اذا هما ذهبتا تعترفان له . . . فتخيل ! . . هل تعلم أنه يتفق له أن يروى قصصاً من تلك القصص . . . منذ ثلاث سنين دعانا الى احتساء الشاى عنده مع خمور (ان السيدات يرسلن اليه خموراً) ، فأخذ يستحضر صوراً من ماضيه . . . حتى أننا أمسكنا بطوننا حتى لا ننفجر من شدة الضحك . . . ولا سيما حين حدثنا عن تلك المرأة العاجزة التى شفاها . . . لقد قال لنا : «لولا أن ساقيَّ مريضتان هذا المرض ، لرقصت لكم رقصة من تلك الرقصات !» هه ؟ ظريف ، أليس كذلك ؟ وقد اسرَّ الينا يومئذ قوله : «كانت لى فى حياتى مغامرات !» وقد سلب التاجر ديميدوف ستين ألف روبل .

— ماذا ؟ سرقها ؟

— استودعه الرجل المبلغ أمانةً لما عرف به من صلاح وفضل . قال له : «احتفظ لى به عندك ، لأن منزلى سيفتَّش فى الغد» . فاحتفظ الآخر بالمبلغ . قال له : «أنت قد وهبت المبلغ لمبرات الكنيسة» . فقلت له أنا : «أنت وغد» . فقال لى : «لا . . . لست وغداً ، بل أنا رجل واسع النظرة» . . . ولكن لا . . . لا . . . لقد أخطأت . . . لم يجر الحديث معه

[1] أنا أؤمن (بالاتينية فى الأصل) .

هو . . . لقد خلطت بينه وبين شخص آخر . . دون أن ألاحظ ذلك . كأساً أخرى ، كأسا أخيرة ، يا ايفان ، ثم ارفع قارورة الكونياك . لقد كذبت ، لماذا لم توقفني عن الكلام يا ايفان ؟ لماذا لم تقل لي انني أكذب ؟

— كنت أعرف أنك ستتوقف من تلقاء نفسك .

— غير صحيح ! انك لم تفعل ذلك بدافع الخبث ، بدافع الخبث وحده . انك تحتقرني . لقد جئت تعيش معي ، ثم أنت تعاملني باحتقار حتى في منزلي .

— سأرحل اذن . ان الكونياك قد شوش عقلك !

— لقد تضرعت اليك ، باسم يسوع المسيح ، أن تذهب الى تشرماشنيا . . يوما أو يومين . . . ثم لم تفعل !

— سأذهب غدا ما دمت تلح .

— لن تذهب . انك تريد أن تراقبني هنا . تلك هي غايتك يا ذا النفس السوداء ! لذلك لن تذهب !

لم تهدأ ثائرة العجوز . لقد وصل من نشوة الكحول الى تلك المرحلة التي يشعر فيها بعض السكيرين الذين هم في العادة أناس مسالمون بحاجة مفاجئة الى أن يغضبوا ، وأن يظهروا ما هم قادرون عليه .

— مالك تتفرس فيّ هكذا ؟ يا لعينيك هاتين ما اقذرهما ! انك تنظر اليّ فاقرأ في نظرتك قولك : «ايها السكير الدنيء» ! آه من هاتين العينين اللتين تفيضان شكاً وريبة واحتقارا ! . . أنت انما جئت الى عندي لغاية معينة في نفسك . . ولا كذلك أليوشا . . انه ينظر اليّ بعينين تشرقان صراحة . أليوشا لا يحتقرني . يا الكسي اياك أن تحب ايفان . . .

قال أليوشا بحزم مباغت :

— لا تغضب من أخي ! أكفف عن اهانته .

— طيب ، أظن أنني فعلاً . . . اف . . . ما أشد هذا الصداع ! هذا الكونياك يا ايفان ! هذه ثالث مرة أطلب اليك فيها أن ترفع هذا الكونياك .

قال فيدور بافلوفتش ذلك ، ثم أطرق يفكر ، واستطالت شفتاه بابتسامة ماكرة :

— لا تغضب يا ايفان من هذا العجوز المهووس . أنا أعرف أنك لا تحبني ومع ذلك لا تغضب مني . وليس هناك ما يوجب أن تحبني على كل حال . . . اذهب الى تشرماشنيا ، وسألحق بك حاملاً اليك حلوى . . . وسأعرّفك هناك ببنت من تلك المنطقة لاحظتها منذ زمن طويل . هي الآن فتاة صغيرة رثة بائسة . لا تخش الصبايا الرثات . لا تحتقرهن قط . . . فهنّ لآلئ في كثير من الأحيان !

قال ذلك وقبّل يده قبلة مدوية . ثم أردف وقد انتعش فجأة كأن اثارة موضوعه المفضل قد ردته الى الوعي للحظة .

— أيها الفتيان العزيزان ! أيها الخنزيران الصغيران . . . أنا لم توجد بالنسبة لي طوال حياتي امرأة قبيحة . . . تلكم هي مبادئي ! أأنتم قادرون على أن تفهموا هذا ؟ ولكن أنى لكم أن تفهموه ! ان عروقكم ليس فيها بعد الا لبن . . . ما أنتم الا أفراخ ! ان القاعدة التي التزمها في سلوكي هي أن في كل امرأة شيئا خاصا شائقاً لا يمكن أن يوجد في امرأة أخرى . . وانما المهم أن يستطيع المرء اكتشافه . . . وذلك فن . . . ذلك فن يحتاج الى موهبة ! ما من امرأة أمكن أن تكون في نظري دميمة في يوم من الايام . حسبها أن تكون امرأة . . هذا وحده نصف الأمر . . ولكن أنى لكم أن تفهموه !

حتى العوانس لا بد أن يكتشف المرء فيهن متى عرضت الفرصة أشياء يُذهله أن يتصور أن هناك اناسا أغبياء تركوا لهن أن يشخن دون أن يلاحظوهن ! وأول شيء يجب أن يعمد اليه الرجل مع هاته الصغيرات الرثات الدميمات هو أن يدهشهن . بهذه الوسيلة انما يجب التوسل اليهن . ألم تكن تعرف ذلك ؟ يجب أن تبلغ بهن الدهشة حد النشوة ، حدَّ التأثر ، حدَّ الشعور بالخزى من أن سيداً أنيقاً أمكن أن يتوله حباً ببنت من الرعاع أمثالها . ألا انه لشيء رائع أنه سيبقى فى هذا العالم الى الأبد سادة وخدم ، ففى هذه الحالة سيظل هناك صغيرة رثة ما يحلو لها أن تفرح سيدها ومولاها . تلك هى سعادة الحياة ! انتظر . . . هل تعرف يا أليوشا ؟ اننى قد بعثت الدهشة دائما فى نفس المرحومة أمك ، ولكن بمعنى آخر . كنت أدعها مدة طويلة بلا ملاطفات ومداعبات ، ثم اذا أنا فى ذات يوم ، فى دقيقة من تلك الدقائق التى يتفق لى أن أعرفها ، أسترسل فجأة فى أظهار جميع أنواع العواطف ، حتى لأزحف على ركبتى ، وأقبل قدميها الصغيرتين ، فأنقلها فى كل مرة — ما زلت أتذكر هذا كأنه حدث بالأمس — أنقلها فى كل مرة الى حالة نفسية خاصة ، فاذا هى تأخذ تضحك . . . تأخذ تضحك ضحكاً فريداً فى نوعه . . . ضحكاً واهناً رناناً فى آن واحد ، ضحكاً عصبياً خاصاً . وكان ذلك على كل حال هو النوع الوحيد من الفرح الذى عرفته . وكنت أعلم أن مرضها انما يبدأ عندها بهذه الطريقة نفسها ، فهى تأخذ فى الغداة تصرخ مثل كليكوشا ، وأن ذلك الضحك الخاص لم يكن يعبّر فى الواقع عن أى فرح . ومهما يكن ذلك خداعا فهو فرح على كل حال . فهل رأيتم أنه لا بد من مهارة العثور فى كل شىء على جانب مميز

جذاب ؟ وقد اتفق فى ذات يوم أن بيليافسكى — وهو رجل غندور غنى جدا كان يسعى اليها واستطاع أخيرا أن يدخل بيتى — قد صفعنى على وجهى فى بيتى بحضورها ! فماذا حدث ؟ لقد أوشكت هذه المرأة التى تشبه أن تكون حملاً ، أوشكت أن تضربنى بسبب هذه الصفعة ! ليتكم سمعتم كيف أخذت تؤنبنى وتقرعنى : «سمحت له أن يضربك ؟ أن يضربك ؟ . . . ارتضيت أن تتلقى صفعة من هذا الشخص ؟ لقد أردت أن تبيعنى له . . . كيف تجرأ أن يصفعك أمامى ؟ لا أريد أن أراك بعد اليوم قط ! هيًّا اطلبه الى المبارزة . . . اسرع» . . . هكذا أخذت تقول لى . أخذتها آنذاك الى الدير لأهدىء روعها ، ولكى يزجرها الرهبان هناك . ولكننى أقسم لك يا أليوشا أمام الله أننى لم ألحق بها أذى فى يوم من الايام ، لم ألحق أى أذى بصغيرتى العزيزة الكليكوشا ! . . اللهم الا مرة واحدة ، أثناء السنة الأولى من حياتنا . وكانت فى ذلك الأوان تسرف فى الصلاة فى رأيى ، وتراعى أعياد السيدة العذراء مراعاة دقيقة ، فتطردنى الى مكتبى للنوم بعيداً عنها . خطر ببالى مرة أن أطرد هذه الأفكار من ذهنها ، فقلت لها : «هل ترين هذه الأيقونة ؟ سأمضى اليها الآن ، فأرفعها من مكانها . . . انك تعتقدين بأن هذه الصورة تحقق معجزات . . . طيب . . سأبصق عليها الآن أمامك ، فلا يحدث لى شىء ! . . .» يا الهى ! حين نظرت اليها عندئذ فرأيت تعبير وجهها ، خيلَ اليَّ أنها ستقتلنى فوراً . ولكنها لم تزد على أن نهضت ورفعت ذراعيها فى الهواء ، ثم غطت وجهها بيديها ، وأخذت ترتعش من قمة رأسها الى أخمص قدميها ، ثم هوت على الأرض منهارة انهياراً تاماً أليوشا ، أليوشا ؟ ما بك ؟ ماذا دهاك يا صغيرى ؟

وثب العجوز عن مقعده مذعورا . كان وجه أليوشا قد بدأ يتغير تعبيره شيئاً فشيئاً منذ أخذ العجوز يتحدث عن أمه . لقد أحمر في أول الأمر ، واشتعلت عيناه ، وأخذت شفتاه تختلجان . . . وكان العجوز السكران يقذف من فمه رذاذا من لعاب اثناء كلامه دون أن يلاحظ شيئاً ، الى أن استولت على أليوشا تلك الحالة من الاضطراب الغريب : لقد صار اليوشا الى تلك الحالة نفسها التي وصفها أبوه في كلامه عن الكليكوشا : نهض عن مكانه فجأة كما فعلت أمه في القصة التي رواها أبوه عنها ، ورفع ذراعيه في الهواء ، ثم غطى وجهه بيديه ، ثم عاد يتهاوى على كرسيه كتلة واحدة ، وأخذ يرتجف جسمه كله ويهتز في نوبة هسترية تصاحبها دموع صامتة . وقد دُهش العجوز دهشة خاصة من هذا التشابه الخارق الذي ظهر في تلك اللحظة بين أليوشا وأمه . فقال ينادي ايفان :

— ايفان ! ايفان ! هات ماء ، أسرع ! هو مثلها ، مثل أمه تماماً آنذاك ! رشّ عليه ماء من فمك ، فذلك ما كنت أفعله أنا بها . — ودمدم مخاطباً ايفان : — هذا بسبب أمه ، أمه . . .

— أمه ؟ أعتقد أن أمه كانت هي أمي أيضا ، ألا ترى ذلك ؟

هكذا انفجر يقول ايفان على حين فجأة ، في سورة من غضب شديد واحتقار هائل ، فانتفض العجوز حين رأى نظرته الخانقة المسعورة . عندئذ حدث شيء عجيب ، ولكنه لم يدم الا بضع ثوان . يبدو أن العجوز قد نسى فعلاً أن أم أليوشا هي أم ايفان أيضا ، فها هو ذا يقول مدمدماً دون أن يفهم :

— أمك ؟ كيف ؟ ماذا تريد أن تقول ؟ عن أي أم تتكلم ؟ أتكون هي حقاً ؟ . . . آه . . . لعن الله الشيطان ! نعم . . . هي أمك ايضا ! لعن الله الشيطان ! يا لاختلال العقل هذا ، الذي لم أعرف مثله في حياتي ! معذرة يا ايفان . لقد خيِّل اليَّ أن . . . ها ها ها ! . . .

قال العجوز ذلك ثم توقف . وملأت وجهه ابتسامة بلهاء طويلة من ابتسامات السكيرين . وفي تلك اللحظة نفسها سمعت فجأة من الدهليز جلبة رهيبة ، وضوضاء شديدة تقطعها صرخات حادة عنيفة . وانفتح الباب بما يشبه الاعصار ، وظهر دمتري فيدوروفتش مندفعا الى الغرفة . ارتمى العجوز نحو ايفان وقد استولى عليه جزع هائل ، وطفق يصيح وهو يتشبث بحافة رداء ايفان بكل ما أوتي من قوة :

— سيقتلني ، سيقتلني ! . لا تتركني له . . لا تتركني !

٩

الشهوانيون

ما ان دخل دمتري فيدوروفتش الغرفة حتى هرع جريجوري وسمردياكوف في أثره . كانا قد حاولا في الدهليز أن يمنعاه بالقوة من الدخول (تنفيذا للأوامر التي أصدرها اليهما فيدور بافلوفتش منذ بضعة أيام) ، فلما صار دمتري فيدوروفتش في الصالون فتوقف لحظة قصيرة ليعرف ما حوله ، انتهز جريجوري هذه الفرصة فدار حول المائدة ، ومضى الى الباب الذي يوجد في

آخر الصالون ويفضى الى الغرف الداخلية فأغلق مصراعيه ووقف أمامه مصالباً عليه ذراعيه كأنه مستعد لأن يمنعه من الدخول منه الى آخر رمق . فلما رآه دمترى لم يطلق صرخة حادة فحسب ، بل قل زأر زئيراً رهيباً وارتمى على الخادم العجوز ، قائلا :

— هى اذن هنا ! خبأتموها هنا ! ابعد أيها الشقى !

أراد دمترى أن يقصى جريجورى ، ولكن جريجورى دفعه عنه ، فجُنَّ جنون دمترى حنقاً ، فرفع ذراعه وهوى على الخادم بضربة قوية ، فسقط الخادم على الأرض كتلة واحدة ، وقفز دمترى من فوقه ، واقتحم الباب . أما سمردياكوف فقد ظل فى الطرف الآخر من الصالون يشد نفسه الى فيدور بافلوفتش شاحب الوجه مرتعد الجسم .

صرخ دمترى فيدوروفتش يقول :

— هى هنا حتماً ! رأيتها تتجه الى هذا المنزل منذ هنيهة ، ولكننى لم أستطيع أن أدركها . أين هى ؟ اين هى ؟

أحدثت هذه الصرخة «هى هنا !» فى فيدور بافلوفتش أثراً خارقاً ، فتبدد خوفه وزال جزعه دفعة واحدة ، وزأر يقول وهو يندفع وراء دمترى فيدوروفتش :

— أوقفوه ! أوقفوه !

وكان جريجورى قد نهض عن الأرض أثناء ذلك ، ولكنه ما يزال طائش اللب . وأسرع ايفان فيدوروفتش وأليوشا يجريان وراء أبيهما ليصداه . وسُمعت فى الغرفة الثالثة ضجة سقوط شىء وتناثر حطام : انها زهرية كبيرة من الزجاج (ليست من أثمن الزهريات) كانت موضوعة على قاعدة من المرمر ، فاصطدم بها دمترى فيدوروفتش أثناء جريه .

أعول العجوز من جديد يقول :

— أمسكوه ! النجدة !

وأدرك ايفان فيدوروفتش وأليوشا العجوز فى تلك اللحظة ، واستطاعا أن يرجعاه الى الصالون بالقوة .

صرخ ايفان فيدوروفتش فى غضب مخاطباً أباه :

— دعك من ملاحقته انه سيقتلك هناك فعلاً !

— بنىَّ فانيا ، بنى ليوشا* ! جاءت اذن جروشنكا . هى هنا . رآها بنفسه تجرى نحو دارى . . .

كان فيدور بافلوفتش يشرق بالكلام . كان لا يتوقع أن تجىء جروشنكا فى ذلك اليوم ، فلما سمع أنها جاءت طاش عقله . كان جسمه كله يرتعد . وكأنه قد أصيب بالجنون .

قال له ايفان حانقاً :

— لقد رأيت بنفسك انها لم تأت !

— لعلها دخلت من الباب الآخر .

— ولكن الباب الآخر مقفل ، ومفتاحه فى جيبك . . .

وفجأة ظهر دمترى مرة أخرى فى الصالون . لقد وجد الباب الثانى مغلقاً بطبيعة الحال ، لأن مفتاح ذلك الباب كان فى جيب فيدور بافلوفتش ، وكانت النوافذ موصدة فى جميع الحجرات من جهة أخرى ، فما كان لجروشنكا اذن أن تستطيع دخول المنزل من اى مدخل ولا أن تغادره من أى مخرج .

أعول فيدور بافلوفتش حين رآه ، قائلاً :

— اقبضوا عليه ! لقد ذهب يسرق مالاً من غرفة نومى !

واستطاع فيدور بافلوفتش أن يتملص من يدى ايفان ، فهجم ثانية على دمترى . ولكن دمترى رفع ذراعيه ، وأمسك العجوز فجأة من خصلتى شعره الباقيتين على صدغيه ، وشده منهما شداً قوياً فرماه على الأرض فى قرقعة ، واتسع وقته كذلك

لأن يطرق وجه أبيه بكعب حذائه مرتين أو ثلاثاً وهو متمدد بين قدميه ، فأطلق العجوز من صدره أنيناً حاداً . ولكن ايفان فيدوروفتش ، رغم أنه لا يملك ما يملكه أخوه من قوة ، طوق أخاه بكلتا ذراعيه واستطاع أن يبعده عن الأب ، وعاونه أليوشا الضعيف على ذلك فى حدود طاقته ، ممسكاً دمترى من أمام .

صرخ ايفان يقول :

— أيها المجنون ، لقد قتلته .

فصاح دمترى يقول وهو يختنق :

— هذا ما يستحقه ! واذا أخطأته هذه المرة ، فسأعود مرة أخرى لأجهز عليه ! ولن تحموه منى عندئذ !

وقال أليوشا بلهجة آمرة :

— اذهب يا دمترى ! اخرج من هنا فوراً !

— ألكسى ! قل لى الحقيقة كلها . أنت الانسان الوحيد الذى أثق به وأطمئن الى صدقه : أكانت هنا منذ قليل أم لا ؟ لقد لمحتها متسللة على طول السياج فى آخر الزقاق ، متجهة نحو هذه الدار ، فناديتها فولت هاربة . . .

— أحلف لك انها لم تأت هنا ، وأن أحداً هنا لم يكن ينتظرها اطلاقاً !

— ولكننى رأيتها بعينى . . . اذن هى . . . سوف أعرف حالا أين هى الآن . . . الى اللقاء يا ألكسى ! لا تقل لايزوب » كلمة واحدة فى أمر المال الآن . ومن كل بد اذهب فورا الى كاترينا ايفانوفنا . قل لها : «انه يبلغك احترامه ، احترامه ، احترامه ، يبلغك احترامه مودعا !» وصِفْ لها هذا المشهد .

وكان ايفان وجريجورى قد أنهضا العجوز أثناء ذلك ،

وأجلساه على مقعد . كان وجهه دامياً ، ولكنه ليس مغشياً عليه فهو يتابع أقوال دمترى وصيحاته بشراهة ، وما يزال يسيطر عليه الشعور بأن جروشنكا مختبئة فى مكان ما بالمنزل . وحين همَّ دمترى فيدوروفتش أن ينصرف رشق أباه بنظرة تفيض كرهاً وبغضاً ، وقال له :

— لست نادماً على أننى سفحت دمك ! حذار أيها العجوز ! اذا كان ما يزال لك أمل ، فاحذر من أملى انا ! اننى ألعنك واتبرأ منك ! . . .

قال ذلك وخرج من الغرفة مسرعاً .

— هى هنا ، هى هنا قطعاً ! سمردياكوف ، سمردياكوف !

هكذا نادى العجوز بصوت محشرج لا يكاد يُسمع ، وهو يومىء بأصبعه الى الخادم .

فصاح ايفان بصوت حانق يقول :

— بل ليست هنا ، ليست بالمنزل ، أيها العجوز المعتوه . . ها هو ذا يُغمى عليه . هاتوا ماء ، أسرعوا ، وهاتـــوا منشفة أسرع يا سمردياكوف !

مضى سمردياكوف بأقصى سرعة لاحضار ماء . وخلعوا عن العجوز ثيابه أخيراً ، ونقلوه الى غرفة نومه ، وأرقدوه على سريره ، وأحاطوا رأسه بمنشفة مبللة . فما أن لامس رأس العجوز مخدته ، وقد أوهنه الكونياك وأضعفته الانفعالات العنيفة والضربات القوية ، حتى أغمض عينيه ونام . وعاد ايفان فيدوروفتش وأليوشا الى الصالون . ولمَّ سمردياكوف حطام الزهرية المهشمة . ولبث جريجورى جامداً قرب المائدة ، مظلمَ الوجه ، خافض الرأس فى عناد .

قال أليوشا لجريجورى :

— يحسن بك أنت أيضاً أن تلفع رأسك بمنشفة مبللة وأن ترقد فى فراشك . سنبقى هنا ونعتنى به . لقد ضربك أخى ضربة قوية . . . على رأسك .

قال جريجورى بصوت مبحوح بطىء :

— تجرأ أن يضربنى !

فقال ايفان فيدوروفتش وقد أعوج شدقاه :

— تجرأ ؟ لم «يتجرأ» أن يضربك وحدك ، بل ضرب أباه أيضاً !

— كنت أتولى غسله بنفسى . . ثم هو يتجرأ عليّ الآن فيضربنى !

كذلك ردد جريجورى .

واستأنف ايفان كلامه مخاطباً أليوشا بصوت هامس :

— من يدرى ؟ لعله كان سيقتله لو لم أبعده عنه بالقوة . تكفى ايزوب ضربة او ضربتان !

فهتف أليوشا يقول :

— حمانا الله من هذا !

فاستأنف ايفان كلامه هامساً مرة أخرى ، ملتوى الوجه من الحنق :

— حمانا الله من هذا ؟ فليفترس أحد الاوغاد وغداً آخر ! ذلك هو المصير الذى يستحقانه !

ارتعش أليوشا .

— طبعاً سأحول دون وقوع الجريمة كما فعلت منذ هنيهة . ابق هنا يا أليوشا . وسأخرج أنا الى الفناء ، فقد بدأت أشعر بصداع فى رأسى .

عاد أليوشا الى غرفة نوم أبيه ، ولبث عند سريره قرابة

ساعة ، جالساً بين السرير والحاجز . ثم اذا بالعجوز يفتح عينيه فجأة ، فيطيل النظر الى أليوشا صامتاً ، وهو يحاول أن يتذكر وأن يفهم ، ثم اذا باضطراب خارق ينعكس على وجهه فيدمدم قائلاً بوجل وخوف :

— أليوشا ، أين ايفان ؟

— فى الفناء . ان به صداعاً . ولكنه ساهر على حراستنا .

— ناولنى المرآة . هى هناك ، هل تراها ؟ ناولنيها .

مد اليه أليوشا المرآة الصغيرة المدوّرة ذات المسند المطوى التى كانت موضوعة على المنضدة . نظر العجوز فى قسمات وجهه : كان أنفه قد تورم تورماً شديداً ، وكانت فوق حاجبه الأيسر بقعة حمراء تدل على أن دماً قد نزف .

— ماذا دها ايفان ؟ أليوشا ، بنى الطيب الشهم ، أنت وحدك ابنى ! اننى أخشى ايفان ، أخشاه أكثر مما أخشى الآخر . أنا لا أخاف منك وحدك . . .

— ولا تخف من ايفان أيضا . صحيح أنه يغضب ، ولكنه سيدافع عنك .

— أليوشا ! والآخر ، أين هو ؟ ذهب الى جروشنكا ، أليس كذلك ؟ يا ملاكى الطيب ، قل لى الحقيقة كاملة : أجاءت جروشنكا الى هنا أم لا ؟

— لم يرها أحد هنا . تلك كذبة . انها لم تجىء !

— يريد دمترى أن يتزوجها ، هل تعلم ذلك ؟ أن يتزوجها !

— لن توافق هى على هذا .

— لن توافق ، لن توافق على أن تتزوجه ، لن توافق على هذا أبداً ! . .

كذلك صاح العجوز جذلاً فرحاً ، وقد انتعش دفعة واحدة على حين فجأة ، كأنه ما من شيء يمكن أن يسره كما تسره فى تلك الدقيقة هذه الفكرة التى عبَّر عنها أليوشا . ومن فرط حماسته ، أمسك يد أليوشا فوضعها بقوة على قلبه ، حتى لقد تلألأت دموع فى عينيه . — خذ الأيقونة ، ايقونة العذراء المقدسة ، التى تكلمت عنها منذ برهة . اننى أهب لك هذه الأيقونة ، انقلها الى مسكنك . وانى لأعدك أيضاً بأن تعود الى الدير . لا تؤاخذنى يا أليوشا ، فاننى ما أردت الا المزاح . بى صداع يا أليوشا ، يا عزيزى أليوشا . . . هدىء روعى ، طمئن قلبى يا من أنت كالملاك ، قل لى الحقيقة كلها !

— أفى أمر جروشنكا ثانية ؟ أأنها جاءت الى هنا ؟

كذلك سأل أليوشا بلهجة مرة . فقال له أبوه .

— لا . . لا . . . اننى أصدقك . اليك ما أريده منك : اذهب الى جروشنكا ، او دبِّر أمرك بحيث تراها ، واسألها بأقصى سرعة ممكنة دون أن تضيِّع من الوقت دقيقة واحدة . . . حاول أن تعرف منها هى ، أو أن تحزر من كلامها : أيُّنا تفضل ، هو أم أنا ؟ هه ؟ هل تستطيع أن تفعل هذا فى سبيلى ؟

دمدم أليوشا يقول مضطرباً :

— سأسألها عن ذلك اذا رأيتها

— لا ، انها لن تقول لك شيئاً . انها امرأة متقلبة . سوف تأخذ تقبلك وتجيبك قائلة انها تؤثرك أنت ، انها تريدك أنت ! هى امرأة كذابة ، امرأة قليلة الحياء . ما ينبغى أن تذهب اليها ، ما ينبغى أبداً !

— ثم ان الذهاب اليها ليس بالأمر الحسن ، يا ابتاه !

— قل لى : الى أين كان يريد أن يرسلك حين صاح قائلاً لك لحظة انصرافه «اذهب اليها» ؟

— الى كاترينا ايفانوفنا .

— للحصول على مال ؟ ليسألها مالا ؟

— لا . . . ليس الأمر أمر مال .

— انا أعلم أنه لا يملك كوبيكاً واحداً . اسمع يا أليوشا . سأرتاح حتى صباح الغد ، وسأفكر فى جميع هذه الأمور . دعنى الآن . قد تلقاها فى طريقك . . . ولكن تعال الىَّ غداً فى ساعة مبكِّرة ، تعال حتماً . هناك مسألة صغيرة أريد أن أحدثك فيها . هل تجىء ؟

— أجىء .

— تظاهر بأنك تجىء من تلقاء نفسك لتسأل عن أخبارى . لاتذكر لأحد انى رجوتك أن تجىء . ولا تقل كلمة واحدة لايفان خاصة .

— طيب

— الى اللقاء يا ملاكى . لقد دافعت عنى ، فلن أنسى هذا أبداً . . . سأقول لك فى الغد شيئاً . . . يجب أن أفكر فى هذا الشىء مزيداً من التفكير . . .

— وكيف حالك الآن ؟

— سأنهض منذ الغد فأخرج . سأكون فى غد قد شُفيت سأكون قد أبللت تماماً . . .

وحين قطع أليوشا فناء المنزل وجد أخاه ايفان جالساً على دكة قرب الباب . كان ايفان بسبيل تدوين بعض الأشياء فى دفتره الصغير بالقلم الرصاص . أبلغه أليوشا أن العجوز قد

استيقظ واسترد شعوره وأضاف الى ذلك أنه قد أذن له بالعودة الى الدير لليل .

قال له ايفان ناهضاً وقد بدا فى وجهه كثير من التودد والتحبب :

— أليوشا ، أحب كثيراً أن أراك غـــدا فـــى الصباح .

فدُهش أليوشا من هذه البشاشة التى لم يألفها فيه . وأجابه :

— سأكون غدا عند السيدة خوخلاكوفا وابنتها . ومن الجائز أيضاً أن أذهب غداً الى كاترينا ايفانوفنا اذا لم أجدها الآن فى دارها : ؟ . .

— أأنت ذاهب اذن الى كاترينا ايفانوفنا مع ذلك ؟ لتنقل اليها «احترامه» ؟

كذلك سأله ايفان وهو يبتسم على حين فجأة . اضطرب أليوشا وأردف ايفان يقول :

— أحسب اننى فهمت الموقف مما قاله لك منذ قليل ، ومن ملاحظات أخرى سابقة . أغلب الظن أن دمترى رجاك أن تذهب اليها لتبلغها أنه يريد . . . أنه يريد . . . أقصد أنه يريد أن «يودعها» أليس كذلك ؟

سأله أليوشا :

— قل لى يا أخى ! كيف ستنتهى هذه القطاعة بين دمترى وأبينا ؟

— يستحيل التنبؤ بذلك . قد يسوّى الأمر ، وقد يهدأ الخلاف من تلقاء نفسه . ان هذه المرأة وحش كاسر . مهما يكن من أمر ، يجب احتجاز العجوز فى المنزل ومنع دمترى

من الدخول اليه .

— اسمح لى بسؤال آخر يا أخى : هل يمكن فعلاً أن يكون من حق كل انسان ان يعين ، حين ينظر الى أقرانه البشر ، أولئك الذين يستحقون أن يعيشوا وأولئك الذين يجب أن يزولوا ؟

— ما جدوى أن نعالج هذا السؤال من وجهة نظر الاستحقاق ؟ ان أكثر الناس لا يحسمون هذا السؤال فى قلوبهم على هذا الأساس ، وانما هم يحسمونه مستلهمين اعتبارات مختلفة جدا عن هذا الاعتبار ، اعتبارات أقرب كثيرا الى الطبيعة . أما عن الحق فهل يمكن أن ننكر على انسان من الناس حقَّ أن يتمنى ما يناسبه ؟

— أن يتمنى موت انسان آخر ؟

— حتى ولو كان الموت ، فماذا ؟ ما ينبغى للمرء ان يكذب على نفسه . . ان جميع الناس يعيشون على هذا النحو ، وقد لا يكون من الممكن أن يعيشوا على غير هذا النحو . . . أأنت تلقى عليَّ هذا السؤال بسبب فكرتى تلك عن الوغدين ؟ فاسمح لى اذن أن ألقى عليك أنا أيضا هذا السؤال : هل تعتقد اننى قادر ، مثل دمترى ، على أن أسفح دم ايزوب ، أى أن أقتله ؟ هه ؟

— ما هذا الكلام يا ايفان ؟ لم يخطر ببالى شىء من هذا فى يوم من الأيام ! وحتى دمترى ، ما اظنه قادرا على أن . . .

قال ايفان ساخراً :

— أشكر لك هذه الثقة على الأقل . اعلم أننى سأدافع عنه فى كل ظرف . أما عن أمنياتى مع ذلك ، فاننى أحتفظ

في هذا المجال بحريتي . الى اللقاء . الى الغد . لا تُدِنّي ولا تحسبنّي مجرما .

كذلك اضاف وهو يبتسم .

تصافح الأخوان بقوة كما لم يتصافحا قبل ذلك قط . وأحسَّ أليوشا أن أخاه قد خطا الخطوة الأولى نحوه لغاية في نفسه ، وأنه يبيِّت نية من النيّات حتماً .

١٠

المرأتان معاً

خرج أليوشا من دار أبيه أشد حزناً مما كان حين دخلها . انه يشعر باضطراب عميق في ذهنه . افكاره تتلاحق وتتبعثر بغير تسلسل ينظمها ، وبغير رابطة تصلها بعضها ببعض . ولكنه يدرك في الوقت نفسه أنه يخشى تجميع أفكاره المشتتة واستخلاص اية نتيجة من المشاعر المتناقضة المعذّبة التي عاناها في هذا النهار . ان نوعا من القلق يستبد بقلب أليوشا ويوشك ان يكون يأساً ، وذلك أمر لا عهد له بمثله من قبل . هناك مسألة أساسية فاجعة مستعصية كانت تسيطر في فكره على سائر الهموم الاخرى كأنها الجبل ثقلاً : ما عسى يصير اليه هذا النزاع بين أبيه وأخيه دمترى على تلك المرأة الرهيبة ؟ انه شهد خطورة هذه المشكلة الآن ، ورأى الرجلين يواجه أحدهما الآخر. دمترى أحق الناس بالرثاء على كل حال وقد يكون أخوه ، لأن شقاءه يبدو رهيبا : ان الكارثة التي لا شك في وقوعها كانت

تتربص به . وهناك اشخاص آخرون تمسهم هذه المشكلة أكثر بكثير مما كان يتراءى لأليوشا حتى ذلك الحين . هذا كله كان يبدو غامضا ، لا يفهم . من ذلك مثلا أن أخاه ايفان قد خطا الخطوة الاولى نحوه متقربا منه ، ولقد طالما تمنى أليوشا هذا التقارب بينه وبين أخيه ، ومع ذلك فان خطوة اخيه هذه قد بثّت في نفسه جزعاً لا يفهم له علة . وهاته النساء أيضا ؟ ما أغرب ما يحس به أليوشا الآن ! حين كان ذاهبا الى كاترينا ايفانوفنا منذ بضع ساعات ، فانه قد ملأته تلك الزيارة اضطرابا . ولا كذلك في هذه اللحظة ، فانه ماض اليها بغير وجل البتة . أكثر من ذلك أنه يستعجل الآن رؤيتها كأنها تستطيع أن ترشده ! على أن المهمة التي كلِّف بها تبدو له الآن أصعب : لقد عدل دمترى عدولا نهائيا عن ردّ الثلاثة آلاف روبل . هو يرى الآن أن شرفه قد تلطخ الى الأبد ، وهو قد فقد كل أمل ، فلن يتردد بعد اليوم عن أى سقوط . ثم انه قد ألحّ على أليوشا أن يروى لكاترينا ايفانوفنا المشهد الذى جرى في دار أبيه .

حين وصل أليوشا الى امام مسكن كاترينا ايفانوفنا التي تشغل في «الشارع الكبير» منزلاً واسعاً فخماً ، كانت الساعة قد بلغت السابعة ، وكان الظلام قد أخذ يهبط . ان أليوشا يعلم أن كاترينا ايفانوفنا تعيش في هذا المنزل في صحبة قريبتين لها . فأما أولاهما فلا تمت اليها بقربى الا من جهة أختها اجافيا ايفانوفنا ، وهي بعينها تلك الانسانة الخضوع الطيعة التي عُنيت مع اجافيا تلك العناية كلها بكاترينا بعد خروجها من المدرسة الداخلية . وأما الثانية فهي سيدة من موسكو فارعة القامة شاعرة بخطورة شأنها وعلو منزلتها رغم أنها ليست

على جانب كبير من الثراء . وكان يقال ان هاتين القريبتين كلتيهما تخضعان لكاترينا ايفانوفنا في كل شيء ، ولا تعيشان قربها الا مراعاةً للمواضعات الاجتماعية . أما كاترينا ايفانوفنا فهي لا تطيع الا الجنرالة ، المحسنة اليها ، التي لبثت في موسكو بسبب حالتها الصحية ، والتي كان على كاترينا ايفانوفنا ان تكتب اليها مرتين في الاسبوع لتطلعها على تفاصيـــل حياتها .

حين دخل أليوشا الدهليز ورجا الخادم التي فتحت له الباب أن تبلغ أهل الدار وصوله ، كان يبدو أن أهل الدار الجالسين في الصالون كانوا على علم بزيارته (لعلهم قد لمحوه من خلال النافذة) . فقد سمع أليوشا حركة غامضة ووقع خطوات نساء يبتعدن بسرعة ، وحفيف أثواب ، كأن امرأتين أو ثلاثا قد هرعن يبارحن الغرفة . استغرب أليوشا أن يحدث وصوله كل هذا الاضطراب . ومع ذلك أُدخل الصالون فورا وهي غرفة واسعة يزدحم فيها أثاث كثير أنيق ، على ذوق ليس فيه من ذوق الأرياف شيء . دواوين وصوفات وكنبات وموائد ومناضد ، ولوحات تزين الجدران ، ومزهريات ومصابيح تنتصب على الموائد ، وأزهار كثيرة في كل ركن ، بل وحوض أسماك قرب احدى النوافذ . والغرفة مظلمة قليلا في هذا الوقت من الغسق . ورأى أليوشا خماراً من حرير ملقى على ديوان لا شك أن احدا كان جالسا عليه قبل لحظات ، ورأى على المائدة الصغيرة القريبة من الديوان فنجانين ما يزال نصفهما ممتلئاً بالشوكولاته ، وبسكويتاً وآنية من الكريستال فيها زبيب من زبيب كورنثيا وآنية أخرى فيها سكاكر . لا شك اذن في أن أهل الدار كانوا يقدمون حلوى لضيوف عندهم . فلما أدرك أليوشا أنه قد وصل

أثناء زيارة شعر بحرج كبير . ولكن الستارة أزيحت في تلك اللحظة نفسها ، ودخلت كاترينا ايفانوفنا الغرفة بخطى سريعة عجلى ، مادةً الى أليوشا يديها كلتيهما ، مبتسمة له ابتسامة فرحة مبتهجة . وسرعان ما دخلت في اثرها خادم تحمل شمعدانين مشتعلين وضعتهما على المنضدة .

ـ الحمد لله ! هاأنت ذا أخيراً ! لقد لبثت طول الوقت أضرع الى الله أن تجيء . اجلس من فضلك !

ان جمال كاترينا ايفانوفنا كان قد لفت نظر أليوشا حين أخذه أخوه دمتري اليها قبل ثلاثة أسابيع ليعرّفها به لأنها أحبت كثيرا أن تعرفه . ولم يتحدثا أثناء تلك الزيارة كثيرا على كل حال . ذلك أن كاترينا ايفانوفنا قد لاحظت ما كان فيه أليوشا من حرج ، فدارته في تلك المرة فلم تتجه بكلامها الا الى دمتري ، وصمت أليوشا طوال الوقت ، ولكنه لاحظ المرأة الشابة فأحسن ملاحظتها ، وخطف بصرَه ما رآه فيها من مظهر الارادة المتسلطة والثقة بالنفس وانطلاق الحركات على كبرياء وخيلاء . كانت هذه السمات في طبعها واضحة ، وأحسّ أليوشا أنه لم يضخمها ولا بالغ في تصورها . وقد أعجب أشد الاعجاب بعينيها الواسعتين السوداوين الحادتين اللتين تتسقان اتساقاً تاماً مع لونها الشاحب الضارب قليلا الى الصفرة ، ومع وجهها المستطيل بعض الاستطالة . ومع ذلك كان في عينيها ، كما كان في رسم شفتيها الرائع ، شيء يمكن أن يتوله به أخوه تولهاً جامحاً من غير شك ، ولكنه لا يبدو انه يوقظ في النفس حباً باقياً مستمراً . ولقد اعرب أليوشا لأخيه دمتري عن شعوره هذا بدون لف ولا دوران تقريباً ، حين اصرّ دمتري ، بعد انتهاء الزيارة ، على أن لا يخفى عنه أخوه رأيه ، وحين تضرع

اليه أخوه أن يفصح له بصراحة عن حكمه على خطيبته . لقد قال له أليوشا يومئذ :

ــ سوف تكون سعيداً معها . . ولكن سعادتك قد لا تكون هادئة . . .

ــ هذه هى الحقيقة يا أخى ! ان النساء اللواتى هن من هذا النوع لا يتغيرن أبدا ، ولا يذعنَّ للقدر . أأنت تعتقد اذن أننى لن أحبها الى الأبد ؟

ــ كلا . . ربما أحببتها الى الأبد ، ولكن من الجائز أن لاتسعد معها دائما . . .

أفصح أليوشا عن هذا الرأى وهو يحمر إستياء فى قرارة نفسه ، من رضوخه لالحاح أخيه وقبوله الاعراب عن أفكار «حمقاء» كهذه الأفكار . ذلك ان رأيه قد بدا له نفسه غبياً غباء رهيباً منذ عبَّر عنه . ثم انه قد شعر بخزى شديد من جزمه فى الحكم على امرأة مثل هذا الجزم ، وقد ازدادت دهشته الآن حين لاحظ منذ أول نظرة ألقاها على كاترينا ايفانوفنا التى هرعت تستقبله هاشة باشة ، أنه لعله قد أخطأ فى الحكم عليها خطأ فاحشا فى المرة الماضية . لقد كان وجهها فى تلك اللحظة يشرق طيبة بسيطة خالية من أى تصنع ، وكانت قسمات وجهها تعبر عن صراحة ملتهبة حارة . ولم يبق من «الكبرياء والخيلاء» اللتين خطفتا بصره من قبل الا تعبير عن جرأة نبيلة وايمان بنفسها قوى واضح . وأدرك أليوشا دفعة واحدة ، من هيئة الفتاة ومن أولى الكلمات التى نطقت بها ، أن مأساة وضعها ازاء رجل تحبه هذا الحب الحاد المندفع كله لم تكن خافيةً عنها ، وأنها ربما كانت على علم بكل شىء ، بكل شىء اطلاقاً . ورغم ذلك كان يشع منها كل هذا الضياء ،

وكان يشع منها كل هذا الأمل بالمستقبل . وشعر أليوشا فجأة بأنه مذنب فى حقها ، كأنما هو أساء اليها اساءة كبيرة ، عن عمد . لقد غلب أليوشا وانجذب فورا ، ولكنه لاحظ مع ذلك ، منذ أولى الكلمات التى قالتها ، أنها فى حالة انفعال نفسى عنيف لعله لم يكن مألوفا لها أو معهودا فيها ، وهو انفعال يكاد يشبه الحماسة .

قالت كاترينا ايفانوفنا :

ــ انتظرتك نافدة الصبر ، لأنك الانسان الوحيد الذى أستطيع أن أعرف منه الحقيقة كلها . . انت وحدك !

فتمتم أليوشا يقول وقد اضطربت أفكاره . واختلطت على حين فجأة :

ــ أنا جئت . . أنا جئت . . موفدا منه . . .

ــ آ . . . اذن هو الذى أرسلك . لقد أوجست ذلك . الآن فهمت كل شىء ، كل شىء !

بهذا هتفت كاترينا ايفانوفنا وقد اشتعلت عيناها فجأة ، ثم تابعت كلامها تقول :

ــ لحظة يا ألكسى فيدوروفتش ! اننى أحرص على أن أشرح لك أولا لماذا انتظرتك فارغة الصبر . أننى ربما أعلم من الأمر اكثر مما تعلمه انت نفسك . فلن أسألك اذن معلومات ، وانما أنا أعتمد عليك فى شىء آخر : اننى أريد أن تطلعنى على رأيك ، على شعورك ، على آخر ما رأيته فيه ولاحظته عليه فى الآونة الأخيرة . اننى أحرص على أن تذكر بصراحة تامة ، دون أية مداراة أو مراعاة ، بل وبخشونة اذا لزمت الخشونة (بأكبر خشونة تريدها) أن تذكر لى رأيك فيه وفى حالته الآن بعد لقائك معه اليوم . فلعل ذلك خير من أن أمضى أفاتحه

أنا فى الأمر ، أنا التى اصبح لا يريد أن يراها . هل فهمت ما أريده منك ؟ والآن قل لى : ما هى الرسالة التى كلفك بنقلها اليَّ (كنت أتنبأ بأنه سيرسلك !) تكلم بلا تردد . قل كل شىء ، ولا تخش أن تسىء اليَّ !. .

— لقد كلفنى بأن . . . أنقل اليك احترامه . . . وأن أقول لك انه لن يجىء بعد اليوم . . . وأن احترامه . . .

— احترامه ؟ أهذا ما قاله ؟

— نعم .

— لعله استعمل هذه الكلمة عرضاً ومصادفةً ، دون أن يريد ذلك ، لأنه لم يجد كلمةً اخرى ؟

— بل لقد حرص حرصاً على أن استعمل كلمة «الاحترام» هذه . حتى لقد ألحَّ عليها ثلاث مرات ، مخافة أن أنساها .

تخضب وجه كاترينا ايفانوفنا بحمرة شديدة .

وقالت :

— ساعدنى الآن يا ألكسى فيدوروفتش ، أنا فى حاجة الى مساعدتك . سأفتح لك أعماق فكرى ، وستقتصر أنت على أن تقول لى هل تعد رأيى صحيحا أم لا ؟ اصغ اليَّ جيدا . لو كان قد كلفك عرضا ومصادفةً بأن تبلغنى «احترامه» دون أن يلح على هذه الكلمة الحاحاً خاصا ، فان كل شىء يكون قد قيل ! . . ويكون الأمر فى هذه الحالة قد انتهى ! أما وأنه قد ألح على هذه الكلمة الحاحا خاصا ، وأنه رجاك رجاء خاصا أن تستعمل تعبير «الاحترام» هذا ، فمعنى ذلك أنه كان فى حالة اضطراب شديد ، بل لعله كان خارجا عن طوره ! لقد اتخذ قرارا ، ولكن قراره نفسه يبث الجزع فى نفسه ! انه لم يتركنى بخطى حازمة ، وانما هو أسرع يسقط

فى هاوية . ان اصراره على استعمال هذه الكلمة قد يفسر بأنه تبجح وتحد . . .

فقال أليوشا مؤيدا :

— هو كذلك ، هو كذلك تماما . وهذا هو شعورى الآن ايضا .

— فاذا صح هذا فانه لم يضع بعد ، وليس الأمر اذن الا أمر فعلٍ يدفع اليه اليأس . ولكننى أستطيع بعد أن انقذه . لحظة ! ألم يكلمك فى موضوع مال ، فى موضوع ثلاثة الاف روبل ؟

— طبعا . . . حدثنى فى هذا الموضوع . . . بل ان هذا هو ما يرهقه أكثر من أى شىء آخر . قال أن شرفه قد تلطخ ، وان جميع الامور تستوى لديه بعد الآن .

كذلك قال أليوشا بحرارة وكان يحس فى تلك اللحظة بالأمل يملأ قلبه وبأنه قد يكون هنالك فعلاً مخرج لأخيه ، وسبيل الى خلاصه . ثم أضاف يقول وهو يضطرب على حين فجأة :

— أأنت اذن على علم . . . بما حدث لذلك المبلغ ؟

— أنا أعلم بما حدث له ، منذ زمن طويل . وعلما اكيدا لقد أرسلت برقية الى موسكو لأسأل هل وصل المال ، فما لبثت أن عرفت الحقيقة منذ زمن طويل . انه لم يرسل المبلغ ، ولكننى لم أحدثه فى الأمر . حتى لقد علمت فى هذا الاسبوع الاخير مدى حاجته الى المال . . . ولم يكن لى فى هذا الشأن الا هدف واحد : هو أن يعرف من الذى يستطيع أن يتجه اليه فى مثل هذه الحالة ، ومن هو خير صديق له ولكن لا . . . انه لا يؤمن باننى خير صديق له ، لم أخطر بباله

فى هذا الطرف . هو لا يرى فىَّ الا المرأة . ان هناك سؤالا يعذبنى منذ اسبوع : ما الذى يجب علىَّ أن أفعله حتى لا يشعر تجاهى بالخزى والعار من أنه اتلف تلك الثلاثة آلاف روبل ؟ افهمنى حق فهمى : فليشعر بالخجل أمام الآخرين أو أمام نفسه ، ولكن ما ينبغى له ان يشعر بالخجل تجاهى ! هل يخجل أمام الله من الافضاء اليه بسره ؟ فلماذا لا يعرف حتى الآن ما أنا قادرة على احتماله فى سبيله ؟ لماذا ، نعم ، لماذا يجهلنى هذا الجهل كله ؟ كيف يجرؤ ان يجهلنى بعد كل ما جرى بيننا ؟ اننى أريد أن أنقذه الى الأبد . فلينس أننى خطيبته ، لينس أن لى هذه الصفة ولكنه يخشى أمامى أن يحط من شرفه ! هل خشى الاعتراف بالحقيقة لك أنت يا ألكسى فيدوروفتش ؟ فلماذا لا أكون حتى الآن جديرة بمثل هذه الثقة ؟

نطقت كاترينا ايفانوفنا بهذه الكلمات الأخيرة ، بصوت متهدج باك وانبجست الدموع من عينيها .

قال أليوشا بصوت متهدج ايضا :

— علىَّ أن أروى لك ما وقع بينه وبين أبينا منذ قليل . — وقص عليها القصة ، ذاكراً أن أخاه كان قد كلَّفه بأن يطلب له مالاً من فيدور بافلوفتش ، ثم اذا هو يقتحم الغرفة على حين فجأة . وصف لها كيف ضرب أخوه أباه ، وذكر لها ان أخاه قد الح عليه ، بعد ذلك ، مرة أخرى ، أن يجىء اليها ليبلغها «احترامه» . . . — وختم أليوشا كلامه قائلاً وهو يخفض صوته :

— ثم ذهب الى تلك المرأة . . .

— أتظن أننى لا أستطيع احتمال وجود تلك المرأة

فى حياته ؟ أيحسب أننى لن أطيق وجودها فى حياته ؟ ألقت كاترينا ايفانوفنا هذا السؤال ، ثم قالت فجأة وهى تضحك ضحكا عصبيا — ولكنه لن يتزوجها . هل يستطيع رجل من آل كارامازوف أن يلتهب قلبه بهوى من هذا النوع الى الأبد ؟ ذلك هوى وليس حباً . ثم انه لن يتزوجها لأنها لن ترضى هى أن تتزوجه . . .

كذلك رددت كاترينا ايفانوفنا وهى تضحك من جديد تلك الضحكة الغريبة نفسها .

فقال أليوشا فى حزن وهو يغض بصره :

— ولكنه هو قد يتزوجها .

— قلت لك أنه لن يتزوجها ! ان هذه الفتاة ملاك حق ، هل كنت تعرف ذلك ؟ انك تعرف ذلك !

كذلك هتفت كاترينا ايفانوفنا بحرارة وحماسة قوية . وتابعت تقول : — هى أروع انسان يمكن أن يلقاه المرء فى حياته ! أنا أعرف مدى ما تتصف به من فتنة واغراء ، ولكننى أعرف ايضا طيبتها وشهامتها ونبلها . لماذا تنظر الىَّ هكذا يا ألكسى فيدوروفتش ؟ لعل كلماتى تدهشك ؟ أغلب ظنى أنك لا تصدقنى ، أليس كذلك ؟ يا آجرافينا ألكسندروفنا ، يا ملاكى (كذلك نادت كاترينا ايفانوفنا وهى تنظر الى الغرفة المجاورة) ، تعالى الينا ! انه فتى لطيف ! انه أليوشا . هو على علمٍ بكل ما يتصل بنا . تعالى !

فأجاب صوت نسوى لطيف بل وحتى معسول قليلا :

— انما كنت أنتظر من وراء الستارة اللحظة التى تنادينى فيها .

وأزيحت الستارة فاذا . . . بجروشنكا نفسها تظهر . اقتربت

من المائدة ضاحكةً وقد بدت فى وجهها سعادة . احسَّ أليوشا فى اللحظة الأولى شيئا من التشنج فى داخله . حدق الى المرأة الشابة بنظرة عنيفة ، دون أن يستطيع تحويل عينيه عنها . أهذه هى اذن تلك المرأة المخيفة ؟ أهذه هى اذن ذلك «الوحش الكاسر» على حد التعبير الذى أفلت من أخيه ايفان قبل نصف ساعة ؟ ان أليوشا لا يرى أمامه الآن الا امرأة عادية بسيطة طيبة محببة ، قد تعدها حسناء ان شئت ، ولكنها شبيهة بجميع النساء الأخريات اللواتى يُحسبن حسناوات ولكنهن «عاديات» ! والحق أنها جميلة ، بل جميلة جدا . . لها ذلك الجمال الروسى الذى قد يوقظ فى بعض الرجال حباً جامحاً وهوى قوياً . هى طويلة القامة ، ولكنها أقل طولاً من كاترينا ايفانوفنا (الطويلة جدا) ، ويتميز جسمها الممتلىء بحركات لينة حلوة تشبه أن تكون صامتة ، حركات تتصف تلوياتها وانعطافاتها بنفس الليونة المعسولة التى تظهر فى تثنيات صوتها . اقتربت ، ولكن مشيتها ليست صلبة حازمة كمشية كاترينا ايفانوفنا . انها تمشى بلا جلبة ولا ضوضاء . وتهالكت على مقعد من المقاعد ، فكان لحفيف ثوبها الحريرى الأسود الفاخر شىء من عذوبة ورقة فى السمع أيضا . وكان يلتف علي جيدها الناصع البياض كالزبد ، وعلى كتفيها العريضتين ، شال ثمين من صوف أسود ، يلتف التفافاً منعَّما . انها فى الثانية والعشرين من عمرها . وان قسمات وجهها تدل على أنها فى هذه السن تماما . لونها ناصع البياض ، وخداها متوردان توردا خفيفا عند الوجنتين ، وكانت تقاطيع وجهها تبدو وكأنها عريضة أكثر مما ينبغى . وفكها الاسفل بارز بعض البروز ، وشفتها العليا دقيقة على حين أن شفتها السفلى الناتئة قليلا تبدو أسمك من الشفة العليا مرتين حتى لكأنها منتفخة

قليلا . ولكن شعرها الكستناوى الغزير الرائع وحاجبيها القاتمين المخمليين ، وعينيها الزرقاوين الرماديتين الفاتنتين ، وأهدابها الطويلة ، كل ذلك خليق بأن يجعل اقل الرجال اكتراثا ، واشدهم ذهولا ، ولو فى وسط جمهور مضطرب متدافع او فى زحمة الشوارع يتوقف لحظةً امام هذا الوجه ويذكره طويلا . وقد أخذ أليوشا خاصةً بما فى هذا الوجه من تعبير عن براءة واضحة صريحة . ان لها نظرة طفل ، وكأنها فرحة فرح صبية صغيرة لسبب مجهول . ولقد تقدمت من المائدة فى الواقع «متهللة» الأسارير ، كأنها تنتظر حادثا وشيكا ، متعجلة حدوثه نافدة الصبر مطمئنة النفس كطفل . وكان فى نظرتها ضياء يبهج القلب ، ضياء احس به أليوشا . وكان يشع منها شىء آخر لم يستطع أليوشا أن يستبينه جليا فى تلك اللحظة ، ولكنه أثر فيه تأثيرا لاشعوريا ، أعنى تلك العذوبة وتلك الرقة فى حركات جسمها الشبيهة بحركات القطة فى رشاقتها الصامتة . ومع ذلك كان ذلك الجسم قويا ، وافرا . ان كتفيها العريضتين ترتسمان تحت شالها ؛ ومن ينظر اليها يدرك أن لها صدرا كاعباً ما يزال صدر فتاة مراهقة . ان جسدها يَعد بأن يكتسب مع تقدمها فى النضج اتساق جسد فينوس ميلو ، مع أنه حتى الآن كانت نسبه مفرطة قليلا وكان ذلك ملموساً . على أنها لو رآها خبير فى جمال المرأة الروسية لتنبأ بأن هذه الرشاقة النضرة الربيعية فى جسدها ستفقد انسجامها فى نحو الثلاثين من عمرها ، وأنها ستثقل ، وأن عضلات وجهها سترهل عندئذ ، وأن غضوناً ستظهر عند عينيها وعلى جبينها فى وقت مبكر ، وان بشرة وجهها ستخشوشن ، وقد تصاب بداء الاحمرار ، أى ان جمالها ، بايجاز ، جمال عارض ليس له غد ، كالجمال

11-1089

الذى يلاحظ كثيرا لدى النساء الروسيات . ان أليوشا لم يسترسل فى أفكار من هذا النوع طبعا ، ولكنه ، رغم افتتانه بالمرأة الشابة ، قد تساءل وهو يحس احساسا غامضا بنوع من النفور وبنوع من الأسف ، لماذا تجر هذه المرأة كلامها جراً ، ولا تطلق صوتها فى الحديث على سجيته طبيعياً ؟ ان المرء ليشعر أنها تحسب الجمال فى هذه الطريقة فى تلوين ألفاظها بنبرات الغناء المعسولة . والحق أن تلك عادة رديئة تدل على ذوق ردىء وتربية وضيعة وعلى الافكار المبتذلة التى تكونت فى ذهنها منذ طفولتها عن الآداب الاجتماعية . وقد بدا لأليوشا أن هناك تناقضاً لا يكاد يُطاق بين هذا النطق المتصنع والتنغيم المفتعل وبين ما يظهر فى وجهها من تعبير عن الفرح البرىء والابتهاج الساذج وما يشع فى نظرتها الوديعة وداعةَ نظرة الطفل من سعادة هادئة عذبة . وقد اجلستها كاترينا ايفانوفنا على مقعد قبالة أليوشا وقامت بتقبيلها على شفتيها الباسمتين عدة مرات بحماسة وحرارة ، حتى لكأنها هائمة بها غراماً . . .

قالت كاترينا ايفانوفنا مخاطبة أليوشا بفرح وافتتان :

— اننا نلتقى اليوم لأول مرة يا ألكسى فيدوروفتش . كنت أتمنى أن أعرفها ، أن أراها ، وقد فكرت فى أن أزورها ، ولكنها جاءتنى من تلقاء نفسها منذ عرفت برغبتى . وكنت على ثقة سلفا بأننا سنحل معا كل شىء ، كل شىء بالضبط ! قلبى أدرك ذلك . . . وقد حاولوا أن يثنونى عن انفاذ هذه النية ، ولكننى كنت أتنبأ بالنتيجة ، فلم يخطىء ظنى . لقد شرحت لى جروشنكا كل شىء ، وأطلعتنى على جميع ما عقدت النية عليه . جاءتنى الى هنا تحمل الىّ السلام والفرح ، كملاك طيب . . .

قالت جروشنكا بصوت منغم متباطىء ، وهى تبتسم تلك الابتسامة الباشة السعيدة نفسها :

— الفضل لك يا آنستى العزيزة المحترمة ، فقد ارتضيت صحبتى ولم تحتقريها .

— اياك أن تقولى أمامى مثل هذه الأشياء ، أيتها الفاتنة ، أيتها الساحرة ! أأحتقر صحبتك أنت ؟ دعينى أقبل هذه الشفة السفلى مرة اخرى . لكأنها متورمة قليلا ، فلأزدها تورماً ! هذه قبلة . . . هاتِ قبلةً أخرى . . . وقبلة أخرى ايضا . . . انظر اليها كيف تضحك يا ألكسى فيدوروفتش ! ان رؤية هذا الملاك تملأ القلب بهجة وفرحاً . . .

احمر أليوشا وأخذ يرتعش ارتعاشاً خفيفاً لا يُرى .

— أنت تدلليننى يا آنستى اللطيفة ، مع أننى قد لا أستحق ملاطفاتك ومداعباتك .

— أنت ؟ فمن يستحق ذلك غيرك ؟

كذلك صاحت كاترينا ايفانوفنا تقول من جديد بحرارة شديدة ، ثم أردفت :

— اعلم يا ألكسى فيدوروفتش أنها فتاة جامحة الخيال ، متسلطة القلب ، ولكنها ذات كبرياء وكرامة ! هى نبيلة الروح يا ألكسى فيدوروفتش ، سامية النفس ، هل تعلم ذلك ؟ ولكنها كانت شقية عاثرة الحظ . لقد تعجلت فأرادت أن تضحى بكل شىء فى سبيل رجل خسيس الطبع ، أو ربما طائش العقل . كان ضابطا هو أيضا . أحبته ووهبت له كل شىء . حدث ذلك منذ زمن طويل ، منذ خمس سنين . ثم هجرها ، ونسيها ، وتزوج . وقد توفيت امرأته فهو الآن ارمل ، وقد كتب اليها يبلغها أنه آت اليها . اعلم يا ألكسى

فيدوروفتش أن هذا هو الرجل الوحيد الذى احبته فعلا وما تزال تحبه ! وسيجيء وستعود الى جروشنكا سعادتها ، لأنها لم تزد على أن تتألم وتتعذب خلال خمس سنين . من ذا الذى يجرؤ أن يلومها ، من ذا الذى يستطيع أن يتباهى بأنه حظى بعطفها ؟ هو ذلك العجوز وحده — التاجر — ولكنه كان لها أبا ، كان لها صديقا ، كان لها حارساً . وجدها فريسة اليأس ، قد هجرها الرجل الآخر ، الرجل الذى محضته ذلك الحب كله . . . وقد فكرت فى أن ترمى بنفسها الى الماء ، هل تعلم ذلك ؟ فأنقذها ذلك العجوز ، أنقذها !

عادت جروشنكا تقول بصوتها المتباطىء :

— أنت تدافعين عنى بحرارة فيها غلو يا آنستى العزيزة ، ولعلك فى هذا تسرفين فى التعجل .

— أأنا أدافع عنك ؟ هل علينا نحن ان ندافع عنك فى حقيقة الامر ؟ وكيف يمكن ان نجرؤ على ذلك اصلاً ؟ جروشنكا ملاكى ، هاتى يدك الصغيرة ! انظر الى هذه اليد الجميلة يا ألكسى فيدوروفتش ، انظر الى هذه اليد الصغيرة البضة الرائعة ! انظر اليها ! لقد حملت الىَّ السعادة ، لقد ردتنى الى الحياة . سأقبلها ، هذه اليد الصغيرة ، وجهاً وقفا . . . هكذا ، وهكذا ، ومرة اخرى ! . . .

قبلت كاترينا ايفانوفنا يد جروشنكا ثلاث مرات فعلا ، وهى فى حالة تشبه أن تكون نشوة ووجداً . . . قبلت تلك اليد الرائعة حقا ، وان تكن مسرفة فى البضاضة . وكانت جروشنكا قد مدت اليها ذراعها ، واخذت تلاحظ «الآنسة اللطيفة» ضاحكة ضحكتها العصبية الرنانة الفاتنة ، مغتبطة اغتباطا واضحا بتقبيلها على هذا النحو . قال أليوشا لنفسه سراً : «لعلها تسرف فى

الحماسة» ، واحمر وجهه . ان نوعاً من القلق كان يعتلج فى قلبه طوال ذلك الوقت .

قالت جروشنكا :

— لا تخجليني يا آنستى اللطيفة بتقبيل يدى هذا التقبيل أمام ألكسى فيدوروفتش .

فأجابت كاترينا ايفانوفنا مدهوشة بعض الدهشة :

— أأنا خطر ببالى ان أخجلك ؟ آه . . . يا عزيزتى انك تسيئين فهمى كثيراً !

— وأنت أيضا تسيئين فهمى فيما يخَيل الىَّ يا آنستى اللطيفة . أنا قد أكون أخبث كثيرا مما تقدرين . ان لى قلبا شريرا ذا نزوات . لقد اجتذبت دمترى فيدوروفتش المسكين الىَّ آنذاك لغاية واحدة هى أن أسخر منه وأستهزئ به .

— ما قيمة هذا ما دمت ستنقذينه الآن ؟ لقد قطعت على نفسك عهداً . . . ستردينه الى الصواب . . . ستقولين له انك تحبين رجلا آخر ، منذ زمن طويل ، وان هذا الرجل يريد أن يتزوجك الآن . . .

— آه . . . كلا . . . أنا لم اقطع لك على نفسى هذا العهد . أنت قلت لى هذا الكلام كله ، أما أنا فلم أعد بشىء .

قالت كاترينا ايفانوفنا فى لين ورفق وقد بدت فى وجهها صفرة خفيفة :

— اذن فهمت الأمر على غير هذا النحو ، وأحسب أنك وعدت . . .

— كلا يا ملاكى ، كلا يا آنستى ، أنا لم أعدك بشىء البتة .

كذلك قالت جروشنكا بصوت متساو هادئ ، وما تزال

تبدو عليها هيئة السعادة والبراءة تلك . ثم أضافت تقول :

— فهأنت ذى ترين الآن ، يا آنستى المحترمة ، مدى ما يشتمل عليه سلوكى معك من خبث ونزوة . انا افعل ما يبرق فى رأسى . قد أكون وعدتك بشىء منذ قليل ، ولكننى فى هذه اللحظة أقول لنفسى : «فماذا لو أعجبنى من جديد ميتيا هذا» ؟ ذلك أنه قد أعجبنى جدا مرة فى الماضى ، بل لقد أعجبنى طوال ساعة بكاملها ! وقد أذهب الآن اليه لأقول له : تعال اسكن فى منزلى نهائيا منذ الآن . . هكذا أنا : متقلبة لا أستقر على حال . . .

قالت كاترينا ايفانوفنا بصوت ضعيف واهن :

— كنت منذ لحظات تتكلمين . . . بطريقة أخرى مختلفة تماما . . .

— كان ذلك منذ لحظات ! . . ولكن لى قلباً حنوناً غبياً . . . فحين أتصور كل ما قاساه من آلام بسببى . . . ثم ماذا لو أخذتنى به شفقة على حين فجأة منذ أن أرجع الى الدار ؟ ما عسى يحدث عندئذ ؟

— لم أكن أتوقع أن . . .

— أوه . . آنستى العزيزة ! فما أطيبك وما أنبلك اذن بالقياس الىّ ؟ لا شك أنك ستكفين عن حبى الآن ، أنا الحمقاء الغبية ، بسبب سوء طبعى . هاتى يدك الصغيرة أنت أيضا ، أيتها الملاك (قالت ذلك راجية ضارعة بصوت رقيق ناعم ، ثم امسكت يدها كأنما بنوع من الاجلال) . سآخذ يدك يا آنستى العزيزة وأقبلها ، كما قبلتِ يدى . لقد قبلتنى ثلاث مرات فيجب علىّ اقبلك ثلاثمائة مرة لأرد اليك دينك علىّ . ولندع الأمور على ما هى عليه الآن ، ولنسلم أمرنا الى

الله ! من يدرى ؟ قد أنتهى الى الخضوع لارادتك خضوعا أعمى ، فأفعل كل ما تأمريننى به . لندع الأمور تجرى على مشيئة الله ! فلا نقطع على أنفسنا عهودا ، ولا نقيد أنفسنا بوعود ! ما أجمل يدك ! أوه ، ما أجملها يداً فاتنةً أخاذة ! آنستى اللطيفة ، انك جميلة جمالاً لا يتصوره الخيال !

قالت جروشنكا ذلك ورفعت يد كاترينا ايفانوفنا الى شفتيها ، على تلك النية الغريبة حقاً ، وهى أن «ترد اليها دينها عليها» . لم تسحب كاترينا ايفانوفنا يدها . كانت قد أصغت بأمل واهن الى الوعد الذى وعدتها به جروشنكا ، وهو أنها قد تخضع «لارادتها خضوعا أعمى» ، رغم أن الوعد قد قيل على نحو غريب ايضا . وهى تحدق الآن الى عينيها اللتين ما تزالان تعبران عن تلك البراءة نفسها ، وعن تلك الثقة نفسها ، وعن تلك السعادة المشعة نفسها . . . ومرق الأمل فى قلب كاترينا ايفانوفنا فقالت فى نفسها : «لعلها ساذجة مسرفة فى السذاجة !» وفى أثناء ذلك الوقت كانت جروشنكا التى تبدو نشوى أمام «اليد الصغيرة الرقيقة» ، ترفع هذه اليد الى فمها على هون وبطء . ولكنها بعد أن قرَّبتها من شفتيها ، لبثت بضع لحظات لا تقبِّلها ، وكأنها تفكر فى شىء ما ، ثم قالت فجأة بصوت ممدود ، أكثر ما يكون رقة ومعسولية :

— هل تعلمين يا ملاكى ؟ لقد قررت فجأة أن لا أقبِّل يدك الصغيرة .

ثم انطلقت تضحك ضحكة خفيفة مرحة .

قالت لها كاترينا ايفانوفنا وهى تنتفض :

— كما تشائين . . . ولكن ماذا بك !

— لا شىء . عيشى بعد اليوم مع ذكرى تقبيلك يدى

ورفضى تقبيل يدك ! — وفجأة لمع فى عينيها شىء ما وحدقت فى كاترينا ايفانوفنا بامعان بالغ .

— وقحة !

بهذا قذفتها كاترينا ايفانوفنا كأنها أدركت شيئاً فى هذه اللحظة فقط . لقد تخضب وجهها بحمرة شديدة ، ونهضت عن مكانها فجأة ، فنهضت جروشنكا أيضا ولكن بغير اسراع .

— بعد لحظة سأذكر لميتيا أنك قبلت يدى أما أنا فرفضت أن أفعل . أوه ، كم سيضحك !

— سافلة ! اخرجى من هنا !

— يا آنسة ألا تستحين أن تتكلمى على هذا النحو ؟ ألا تعلمين أنه لا يليق بك أن تستعملى مثل هذه الألفاظ يا آنستى العزيزة ؟

زأرت كاترينا ايفانوفنا :

— اخرجى من هنا أيتها المخلوقة التى تبيع نفسها !

— ها ، ها ! تبيع نفسها ؟ أنسيت اذن أنك حين كنت فتاة عذراء ، كنت تذهبين فى الظلام الى منازل شباب لتبيعى جمالك ؟ ثقى اننى على علم بهذا الأمر .

صرخت كاترينا ايفانوفنا صرخةً قوية ، وانقضت عليها ، ولكن أليوشا أمسكها بكل ما أوتى من قوة قائلا لها :

— اياك ان تقولى كلمة واحدة ! لا تجيبيها بشىء ، لاتنطقى بحرف ، سوف تنصرف ، سوف تذهب فورا !

سمعت قريبتا كاترينا ايفانوفنا صرختها ، فهرعتا الى الغرفة وتبعتهما الخادم ، وأحطن بها جميعا .

قالت جروشنكا وهى ترفع شالها عن الديوان :

— أنا ذاهبة أليوشا ، يا عزيزى ، رافقنى !

فقال لها أليوشا متضرعاً ضاماً يديه احداهما الى الأخرى :

— اذهبى ، اذهبى بسرعة !

— صغيرى العزيز أليوشا ، رافقنى ! سأقول لك أثناء الطريق شيئا يسرك ، يسرك كثيرا ! . . من أجلك أنت يا ملاكى انما مثلت هذه المهزلة . رافقنى ، يا طائرى الصغير ، ولن تندم على أنك فعلت .

تحول عنها أليوشا وهو يعقف يديه . وخرجت جروشنكا راكضة وهى تضحك ملء حلقها .

وأصيبت كاترينا ايفانوفنا بنوبة عصبية عنيفة ، فأخذت تبكى منتحبة ، وأخذت تخنقها تشنجات قوية . ومن حولها كان الجميع يتحركون ويضطربون .

قالت لها كبرى قريبتيها :

— لقد حذرتك . . أردت أن أمنعك من الاقدام على هذه الخطوة . . . أنت مسرفة فى الاندفاع . . . كيف أمكنك أن تقررى القيام بهذا المسعى ؟ أنت لا تعرفين أمثال هاته المخلوقات ، وهذه أسوأهن كافة ، فيما يؤكد الناس . . . أنت مسرفة فى التشبث برأيك .

زأرت كاترينا ايفانوفنا :

— انها نمرة ! لماذا صددتنى عنها يا ألكسى فيدوروفتش ؟ لقد اردت أن أضربها ، أن أضربها !

أصبحت كاترينا ايفانوفنا لا تسيطر على نفسها بحضور أليوشا ، ولعلها لم تشأ أن تكبح جماحها .

— انها لا تستحق الا الجلد بالسياط . يجب أن يجلدها جلاد على رؤوس الأشهاد ! .

اتجه أليوشا نحو الباب .

وهتفت كاترينا ايفانوفنا تقول فجأة :

— آه . . . يا رب ! وهو ! هو أيضا ! لم يخجل أن يكون حقيراً الى هذا الحد ، أن يكون بلا قلب ! لقد قصَّ على هذه المخلوقة ما جرى فى ذلك اليوم المشئوم ، ذلك اليوم الملعون ، الملعون الى الأبد ! «أما ذهبت تبيعين جمالك يا آنستى العزيزة !» هى تعلم اذن ! ان أخاك وغد دنىء يا ألكسى فيدوروفتش !

ودَّ أليوشا لو يجيب ، ولكن الكلمات لم تسعفه . كان قلبه ينهصر ألماً .

— اذهب يا ألكسى فيدوروفتش ! اننى أشعر بالعار ، اشعر بالرعب ! عُدْ غدا . . . أضرع اليك جاثية أن تجيئنى غدا . لا تؤاخذنى ، سامحنى ، اغفر لى . أصبحت لا أعرف ماذا أصنع بنفسى !

خرج أليوشا الى الشارع يمشى كالمترنح ترنحاً . كان يود لو يبكى مثلها . وأدركته الخادم راكضةً بضع خطوات فقالت له :

— نسيت الآنسة أن تسلمك هذه الرسالة من السيدة خوخلاكوفا . لقد احتفظت بها الآنسة لك منذ الغداء .

تناول أليوشا الظرف الوردى الصغير ، ودسَّه فى جيبه دون أن يوليه انتباها .

١١

اخرى تعرض نفسها للضياع

المسافة بين المدينة والدير لا تزيد كثيرا على فرسخ واحد. كان أليوشا يسير بخطى سريعة على الطريق الخالى فى تلك

الساعة .

لقد هبط الليل تقريبا ، فأصبح البصر لا يستبين الأشياء واضحة على بعد ثلاثين خطوة . وفى منتصف الطريق كان على أليوشا أن يجتاز تقاطع دروب . فها هو ذا شبح يظهر تحت شجرة صفصاف وحيدة عند ذلك التقاطع ، فما أن يصل أليوشا الى ذلك الموضع حتى يندفع الشبح هاجما عليه قائلا له بصوت صارخ مروع :

— مالك أو حياتك !

ارتعش أليوشا ارتعاشا قويا ، ثم قال مدهوشا :

— كيف ؟ أهذا أنت يا ميتيا ؟

قال دمترى فيدوروفتش وهو يضحك :

— ها ها ها ! لم تكن تتوقع هذا ، أليس كذلك ؟ لقد تساءلتُ أين عساى أستطيع ان أترقبك ؟ قرب منزلها ؟ ثم تذكرت أن هناك ثلاث طرق مختلفة يمكن أن تسلكها حين تخرج من عندها ، وبذلك قد يفوتنى أن ألقاك . فقررت أخيرا أن أرابط هنا قائلاً لنفسى أنك لا بد أن تمر بهذا المكان ، اذ ليس هناك طريق آخر يؤدى الى الدير . طيب . . . قل لى الحقيقة الآن ، اسحقنى كما تُسحق حشرة خبيثة . ولكن ماذا بك ؟

— لا شىء يا أخى . . هو الخوف وحده . آه يادمترى ! دم أبينا الذى سُفح منذ قليل . . (قال أليوشا ذلك وأخذ يبكى . كان يود لو يبكى منذ مدة طويلة ، وها هو ذا شىء ينفجر فى نفسه فى تلك اللحظة) . . لقد اوشكتَ أن تقتله . . وقد لعنته . . ثم هأنت ذا الآن تمزح . . وتتفكه . . قائلا : مالك أو حياتك !

— آ . . هذا هو الأمر اذن ؟ لعل مزحتى لم تكن لائقة ؟ لا تتفق والظرف القائم ؟

— لا . . ليس هذا . . .

— لحظة يا أخى . انظر من حولك . الظلام دامس ، أليس كذلك ؟ والغيوم تغطى السماء ، والريح قد هبَّت ، لقد رابطت هنا ، تحت الشجرة ، لأنتظرك . . . فاذا أنا أقول لنفسى فجأة ، اقسم بالله : «فيم التأجيل يا هذا ؟ ماذا تنتظر ؟ هذه شجرة . . ومعك منديل وعليك قميص . . فلا شىء أسهل من أن تصنع منهما حبلاً أضف الحمالة اليه ، ثم لا تدنّس الأرض بعد ذلك بحقارة حياتك ولا تثقلها بدناءة وجودك !» ، فى تلك اللحظة التى خطرت لى فيها هذه الفكرة ، انما سمعت وقع خطواتك على الطريق ! يا رب ! ومضت فى رأسى عندئذ فكرة تشبه أن تكون الهاماً مباغتاً ، قلت لنفسى : «هناك اذن انسان أحبه أنا أيضا . وهذا هو ذلك الانسان ، انه اخى الصغير الذى أعبده اكثر من أى شخص فى هذا العالم ، انه الانسان الوحيد الذى أحبه حقا !» وشعرت نحوك فى تلك اللحظة بحب يبلغ من القوة أننى وددت لو أرتمى عليك معانقا ! غير أن فكرة غبية خطرت فى ذهنى عندئذ . قلت لنفسى : «سأخيفه قليلا لأسلّيه» لذلك صرخت أقول كغبى : «مالك أو حياتك !» فاغفر لى هذه المزحة البلهاء ، لقد فعلتها دون تفكير . . . أما عن حالتى النفسية فهى مقبولة . . . بئست هذه الأفكار كلها على كل حال ! قل : كيف جرت الأمور هناك ؟ ماذا قالت لك ؟ هيا اعدمنى ، هيا اسحقنى ، بلا مراعاة ولا مداراة ! هل طاش صوابها ؟

— لا . . ليس هذا هو الأمر . . كان هناك شىء آخر

يا ميتيا . . . كان هناك . . لقد وجدتهما كلتيهما هناك . . .

— كلتيهما ؟ من هما ؟

— كانت جروشنكا عند كاترينا ايفانوفنا . . .

جمد دمترى فيدوروفتش دهشةً وذهولاً .

ثم صرخ يقول :

— مستحيل ! لا شك أنك حلمت ! أجروشنكا عندها ؟

قصّ أليوشا على أخيه كل ما جرى منذ وصوله الى منزل كاترينا ايفانوفنا ، قصّه عليه تفصيلاً . دامت روايته نحو عشر دقائق ، ولا نستطيع أن نقول هل كان حديثه واضحا وضوحا تاما ، ومتسقا اتساقا كاملاً . لكنه استطاع أن يذكر ، بدقة ، الوقائعَ الأساسية التى جرت ، والأقوال الهامة التى تبودلت ، مستعينا على ايضاحها بمشاعره الخاصة التى وصفها وصفا حياً ، مركزا فى بعض الأحيان على هذا الأمر او ذاك من الأمور البارزة . اصغى أخوه الى حديثه صامتاً وقد جمدت نظرته جمودا مرعبا وشعر أليوشا ، منذ الكلمات الأولى التى قالها ، أن أخاه قد فهم كل شىء منذ الآن ، وأنه أدرك دلالة الحادث ادراكا صحيحا . كان تعبير وجهه ، كلما أوغل أليوشا فى سرد القصة يصبح لا متجهما بل رهيبا . . فحاجباه يقطبان ، وأسنانه تكز ، وجمود نظرته يتفاقم مزيدا من التفاقم ، ويصبح عنيدا مروعا . ولكن ما كان أشد دهشة أليوشا حين رأى وجه أخيه الذى كان حتى ذلك الحين متوحشا مهددا ، يتغير على حين فجأة تغيرا عجيباً محيراً . فقد انفرجت شفتاه بغتةً ، وانفجر يضحك مقهقهاً قهقهة صريحة لا تغالَب ولا تقاوَم ، حتى أصبح جسمه يتلوى تلوياً من شدة الضحك ، وظل على هذه الحال مدة طويلة لا يستطيع ان يقول كلمة . ثم صاح يقول بنوع من

الحماسة المرضية التى كان يمكن أن تكون وقحة لولا أنها عفوية منطلقة على سجيتها :

— اذن لم تقبل يدها . . هأها . . رفضت أن تقبل يدها وانصرفت بكل بساطة ! والأخرى زارت تقول عنها انها نمرة ؟ حقاً أنها لنمرة ! وقالت عنها كذلك انها تستحق أن تجلد على رؤوس الأشهاد ؟ طبعاً . . أنا أيضا أرى هذا الرأى . انها تستحق ذلك . . تستحقه منذ زمن طويل ! أنا لا أعارض أيها الأخ أن تنزل فيها هذه العقوبة ، ولكن يجب أن أشفى أولاً . انني أفهمها هذه الملكة من ملكات الوقاحة ! ان رفضها تقبيل اليد يعبر عن حقيقتها ، انه هى بعينها ، هذه البنت الجهنمية ! انها ملكة جميع البنات الجهنميات اللواتي يمكن تصورهن فى هذا العالم ! هذا كله مثير للاعجاب فى نوعه ! اذن لقد هربت وعادت الى منزلها . . أنا الآن سأذهب اليها ، هه ؟ لا تُدِنّى يا أليوشا ! أنا أعلم حق العلم أن ذبحها قليل عليها . .

قال أليوشا فى حزن :

— وكاترينا ايفانوفنا ؟

— انني أتصورها هى أيضا ، أراها رؤية كاملة ، أنفذ الى نفسها كما لم أنفذ اليها قبل الآن فى يوم من الأيام ! اكتشفها اكتشاف القارات الأربع او قل القارات الخمس ! ما هذه الخطوة التى اتخذتها ! ولكن هذه هى ، هى بعينها ، هذه هى كاتنكا التى لم تتهيب ، بعد خروجها من المدرسة الداخلية بزمن قصير ، لم تتهيب لرغبتها الكريمة فى انقاذ أبيها ، أن تذهب الى بيت ضابط فظ غبى ، معرضة نفسها لأسوأ الأذى وأبشع الاهانة ! ولكن يا لتلك الكبرياء التى تفيض

بها نفسها ، يا لهذا الميل الى المخاطرة ولهذا التحدى للقدر ، التحدى لما لا حدود له ! قلت ان خالتها أرادت أن تمنعها ؟ هل تعلم أن خالتها هذه لا تقل عنها ميلاً الى التسلط ؟ انها أخت جنرالة موسكو ولقد كانت فى الماضى تتخذ اوضاعاً فيها من الأبهة والعظمة أكثر مما فى الأوضاع التى تتخذها جنرالة موسكو ، ولكن زوجها اتهم بالاختلاس ، فأقيل من منصبه ، وفقد كل شيء ، حتى أراضيه ، فما لبثت زوجته المتكبرة أن خفضت جناحها ، وغيرت لهجتها ، ولكنها لم تستطع أن ترتفع ثانية منذ ذلك الحين . اذن لقد أرادت أن تمنع كاتيا من لقاء جروشنكا ، ولكن تلك لم تنتصح بنصائحها . «أستطيع أن أتغلب على كل عقبة ، لا شيء يمكن أن يصمد فى وجهى ، يكفى أن أشاء كى أسحر حتى جروشنكا» . ذلك ما قالته كاترينا ايفانوفنا لنفسها ، وآمنت به وازدهت بنفسها ! فمن المذنب فى هذه الحالة ؟ لعلك تظن أنها كانت البادئة فى تقبيل يد جروشنكا عن عمد ومكر ؟ أبدا . . . لقد كانت صادقة كل الصدق فى تولهها بحبها ، لا بحب جروشنكا الحقيقية ، بل بحب حلمها هى بها ، بحب الوهم الذى قام فى ذهنها هى عنها وذلك لأن الحلم **حلمها** والوهم **وهمها** . . . قل لى يا أليوشا : ماذا فعلت حتى استطعت أن تفلت من تلك النساء ؟ أحسب أنك هربت تركض ركضاً ، شامراً ثوبك الرهبانى ، هه ؟ هأهأها . . .

— أخى ! أظن أنك لم تدرك ، بعد ، مدى الاساءة الكبيرة التى ألحقتها بكاترينا ايفانوفنا حين حكيتَ لجروشنكا قصة زيارتها لك فى ذلك اليوم المشئوم ! لقد صرخت هذه المرأة فى وجهها قائلة فى غلظة وفظاظة : «ذهبتِ سرا تبيعين

جمالك لشباب !» ليس هنالك اهانة أخطر من هذه الاهانة ، يا أخى ! — لقد كان يعذب أليوشا تعذيبا خاصا تصوره أن أخاه يبدو مغتبطاً لمذلة كاترينا ايفانوفنا ، رغم ان من المستحيل أن يكون ذلك ما يشعر به فى حقيقة الأمر .

— آه . . .

كذلك تأوه دمترى فيدوروفتش فى تلك اللحظة وقد اكفهر وجهه اكفهرارا رهيبا ، ولطم جبهته بيده . لقد أدرك فى تلك اللحظة فقط ، هذا الجانب من جوانب الموقف ، رغم أن أليوشا لم يفته أن ينقل اليه أثناء سرده لوقائع المشهد الذى حدث ، منذ بضع لحظات ، الأقوال المهينة والصرخة التى أطلقتها كاترينا ايفانوفنا حين قالت تخاطب أليوشا «ان أخاك وغد حقير !» . .

قال دمترى :

— من الجائز فعلا أن أكون قد حدثت جروشنكا عن ذلك «اليوم المشئوم» ، على حد تعبير كاتيا . . . صحيح لقد حدثتها عن ذلك . . . تذكرت الآن ! وقع هذا أثناء تلك الرحلة الى موكرويه . . كنت ثملاً . . . وكانت الغجريات تغنى . . . ولكننى رويت القصة باكياً معذب النفس ، ضارعاً امام صورة كاتيا ، وفهمتنى جروشنكا حق الفهم . . فهمتْ كل شىء . . . أتذكر الآن هذا . . . وأخذت تبكى هى نفسها . . شيطان يأخذ النساء ! هل من الممكن أن يكون الأمر غير ما هو الآن ؟ . . . لقد بكت فى ذلك الحين ، ثم ها هى ذى الآن . . . الآن «تسل خنجراً تطعن به القلب» ! . . . هكذا هنّ النساء ! . . .

قال دمترى فيدوروفتش ذلك ، ثم خفض بصره ، وأخذ يفكر . وقال بعد هنيهة بصوت قاتم حزين :

— صحيح أننى وغد . لا شك من ذلك . . . سيان أن أكون قد بكيت وأن لا أكون قد بكيت . . ليس ينفى بكائى أننى وغد ! قل لهنّ هناك اننى أقبل هذا النعت ، اذا كان فى ذلك تعزية لهن . وحسبنا الآن ما قلناه ! وداعا ! فيم المزيد من الثرثرة ؟ وليس فى الأمر ما يفرح . . ستسير أنت فى طريقك ، وأسير أنا فى طريقى . . ثم اننى لا أريد أن أراك بعد الآن ، اللهم الا ان يكون ذلك فى آخر نهاية ! أستودعك الله يا ألكسى !

صافح دمترى فيدوروفتش أخاه أليوشا بقوة ، ومضى يسير كأنه ينتزع نفسه فجأة من شىء ما ، مضى يسير غاضاً بصره ، دون أن يرفع رأسه . واتجه نحو المدينة بخطى سريعة . أتبعه أليوشا نظرة دون أن يستطيع أن يصدق أن أخاه مضى نهائيا .

— لحظةً يا ألكسى ! هناك اعتراف أخير . . .

قال دمترى فيدوروفتش ذلك ، وقفل راجعا على حين فجأة . وتابع يقول :

— هو اعتراف لك وحدك ! انظر اليَّ يا أخى ! أنعم النظر اليَّ ! ان رجساً كريهاً يتهيأ هنا ، هل ترى أين ؟ هنا (قال دمترى كلمة «هنا» وهو يلطم صدره بقبضة يده وقد بدا فى وجهه تعبير غريب ، كأن الرجس الذى يشير اليه انما يوجد مدفونا فى هذا المكان بعينه ، مختبئا فى جيب السترة أو فى كيس معلق بالعنق) . انك تعرفني الآن : أنا وغد ، وغد معترف به ! ألا فلتعلم مع ذلك أنه لا شىء مما فعلته فى الماضى ومما قد أفعله فى الحاضر والمستقبل ، يمكن أن يعادل فى حقارته الدنيئة الوغدة ما أحمله فى نفسى ، فى هذه اللحظة ، هنا ، فى هذا الموضع ، على صدرى ، من رجس

يتحرك ويتحقق ويمكننى أن اكبته . . ذلك أننى حر أستطيع أن اوقفه وأستطيع ان احققه ، لاحظ هذا ! . . ولكن ألا فلتعلم أننى سأحققه ، واننى لن أوقفه ! لقد حكيت لك كل شىء منذ بضع ساعات ، حكيت لك كل شىء الا هذا الأمر وحده ، لأننى استحيت أن أعترف به ، نعم حتى أنا استحيت أن أعترف به ! ما يزال فى وقتى متسع لأن أتوقف ، واذا أنا توقفت عن الانحدار ، فسأستطيع منذ الغد أن أسترد نصف كرامتى الضائعة ، على الاقل . . . ولكننى لن أتوقف عن الانحدار ! سأمضى فى انفاذ خطتى السوداء حتى النهاية ، وأحب أن تكون شاهدا على قرارى الذى اتخذته سلفا وأنا فى تمام وعيى ! رعب وظلمات ! لن أشرح لك شيئا ، ستعرف كل شىء قريبا . زقاق عفن وامرأة جهنمية ! وداعا . لا تصلِّ من أجلى ، لا تدعُ لى . . . فأنا لا استحق ذلك . . ثم ان صلاتك من أجلى ودعاءك لى أمران نافلان لا حاجة بى اليهما ، اؤكد لك هذا . والآن ، انصرف ! . .

قال دمترى فيدوروفتش ذلك ، ومضى فى هذه المرة نهائيا . واستأنف أليوشا سيره فى الطريق الى الدير . «كيف هذا ؟ ألن أراه بعد اليوم قط ؟ ماذا يريد أن يقول ؟» بهذا كان أليوشا يحدث نفسه دون أن يستطيع قبول هذه الفكرة . «دعك من كلامه ! سأذهب اليه غدا ، وسأراه حتما ، سأذهب اليه خصيصا . . كيف يمكنه أن يقول كلاما كهذا ؟»

دار أليوشا حول الدير واجتاز غابة أشجار الصنوبر ليذهب الى المنسك رأسا . فتح له الباب ، رغم أن القاعدة هى أن

لا يسمح لأحد بالدخول فى هذه الساعة المتأخرة . وانقبض صدر أليوشا حين دخل الحجرة . سأل نفسه : «لماذا ؟ لماذا ابتعدت ؟ لماذا أرسلنى الى «الدنيا» ؟ هنا مكان صمتٍ وقداسة ، أما هناك فيسود الاضطراب وتخيم الظلمات ، هناك يتيه الانسان ويضل . . .»

وجد فى الصومعة الراهب المبتدىء بورفيرى والراهب الكاهن بائيسى الذى ظل طوال النهار يجىء ساعةً بعد ساعة يستطلع اخبار صحة الأب زوسيما . كانت حالة الأب زوسيما تتفاقم مزيدا من التفاقم ، كما عرف أليوشا ذلك مذعوراً . حتى لقد ارتُئى الاستغناء عن الحديث الذى اعتاد الأب زوسيما أن يجريه فى المساء مع رهبان الدير . لقد جرت العادة أن يجتمع الرهبان كل مساء ، بعد القداس ، وقبل راحة الليل ، فى صومعة الشيخ ، فكان كل واحد منهم يعترف له جهارا بالخطايا التى ارتبكها أثناء النهار ، وبالخواطر الآثمة التى ساورت ذهنه ، وبالأحلام المحظورة التى رآها ، وبالاغراءات المباغتة التى فاجأته ، وحتى بالمشاجرات الداخلية اذا كان قد حدث شىء من ذلك . وكان بعضهم يجثون على ركبهم ليعلنوا أخطاءهم . وكان الشيخ يصغى اليهم ، ويفصل فى أمورهم ، ويصالح بينهم ويرشدهم ، ويعرض عليهم كفارات ، ثم يباركهم جميعا قبل أن يصرفهم فينفضوا عنه . وعلى هذه الطريقة فى الاعتراف الدينى انما كان يعترض خصوم طريقة المشايخ ، قائلين انها تبتذل هذا السر من الأسرار المقدسة وانها بدعة تفسد الدين وتدنس العقيدة ، وتلك تهمة باطلة فى واقع الأمر . حتى لقد حاول بعضهم أن يبرهن لسلطات الأسقفية أن هذا النوع من الاعتراف لا يقتصر شره على أنه لا يحقق الهدف الأخلاقى المنشود ، وانما هو

يقصد أن يقود النفس الى الخطيئة والغواية فعلا . وقالوا فيما قالوا ان عددا كبيرا من الرهبان يكرهون أن يكشفوا عن أنفسهم للشيخ ، وانهم لا يذهبون اليه الا لأن الآخرين يفعلون ذلك ، فهم يخشون أن يُتهموا بالتكبر والاستعلاء والتمرد اذا هم امتنعوا عن الذهاب الى الشيخ كسائر من عداهم . بل لقد حكى فيما حكى أن هناك رهباناً كانوا يتفقون فيما بينهم أحياناً قبل أن يذهبوا الى الاعتراف فى المساء على أن يمثلوا أدوارا معينة : «سأقول للشيخ انى غضبت منك ، فتؤكد أنت ذلك» ، حتى يكون هنالك ما يقولونه فيتخلصون من هذه المهمة . وكان أليوشا يعرف أن ذلك يحدث فعلا فى بعض الأحيان . وكان لا يجهل أيضا أن هناك رهبانا كانوا يستاءون استياء شديدا من أن رسائل أقربائهم التى ترد اليهم ، انما يستلمها الشيخ أولا فيفضها ويطلع عليها قبل أن يطلع عليها أصحابها . الحق أن الأصل في هذا الأسلوب أنه يُتبع برضى الرهبان أنفسهم ، عن اندفاع روحى ، وخضوع نفسى ، واذعان ارادى ، تحقيقا لأهداف السلامة ، وغايات الارشاد المخلص . ومع ذلك كان الرهبان فى الواقع يرضخون لهذا الأمر فى كثير من الأحيان ، كما برهنت التجربة على ذلك رضوخا لا يشتمل على كثير من الصدق ، ويسلمون به تسليما فيه مذلة مصطنعة وخشوع مفتعل . على أن القدامى والحكماء من أفراد هذه الرهبنة كانوا يصرون على رأيهم ، فهم يرون أن «من دخل الدير نشدانا للخلاص والسلامة بنية صادقة فلا بد أن يجنى فائدة روحية واخلاقية كبرى من مراعاة هذه القواعد أو الكفارات المختلفة ، وأن التقيد بهذه القواعد والكفارات لا بد أن يعود عليهم بنفع عظيم على طريق الخلاص ، وأن أولئك الذين تثقل هذه الأمور عليهم

ويتذمرون منها ، ليسوا برهبان حقا ، وما كان ينبغى لهم أن يدخلوا الدير ، لأن المكان الذى خلقوا له انما هو الدنيا ؛ وأن هؤلاء لا يمكن أن يفلتوا من الخطيئة ولا أن ينجوا من الشيطان لا فى الدنيا ولا فى الكنيسة على السواء ، فلا مجال والحالة هذه للتغاضى عن الخطيئة» .

اسرَّ الأب بائيسى الى أليوشا بعد أن باركه ، قائلاً بصوت خافت :

— انه ضعيف جدا قد سيطر عليه الوسن فيصعب ايقاظه ، والأولى أن لا يوقظ على كل حال . لقد فتح عينيه خمس دقائق ، ورجانا أن نبلغ الرهبان بركته وأن تطلب منهم أن يصلُّوا فى الليل من أجله . وفى نيته ان يتناول القربان المقدس غدا مرة أخرى . وقد تذكرك يا ألكسى ، وأراد أن يعرف هل ذهبت ، فأجبناه بأنك مضيت الى المدينة ، فقال : «لقد باركته من أجل أن يمضى الى المدينة ، فهناك مكانه الآن لا هنا» . ذلك ما قاله عنك . وكان يتكلم عنك بمحبة واضحة ، وكان ظاهرا أنه مهتم بمصيرك اهتماما كبيرا . فهل تدرك هذا الشرف الذى تناله ؟ ولكنى أتساءل لماذا أمرك أن تعيش فى الدنيا زمنا ؟ معنى ذلك أنه يتنبأ بشىء عن قدرك ! اعلم مع ذلك يا ألكسى أن غاية عودتك ، اذا عدت الى الدنيا ، يجب أن تكون العيش بروح الخضوع للقاعدة التى ألزمك بها شيخك ، لا العيش فى جو الأفكار الطائشة والمباهج المبتذلة . . .

وخرج الأب بائيسى . فأما أن الشيخ بسبيل الانطفاء ، فذلك أمر أصبح أليوشا لا يشك فيه ، ولكن الشيخ يمكن أن يعيش يوما آخر او يومين . لذلك قرر أليوشا ، بصلابة وحرارة

أن لا يبارح الدير فى الغد رغم الوعود التى قطعها على نفسه بالذهاب الى أبيه ، وبالذهاب الى السيدتين خوخلاكوفا ، الأم وابنتها ، وبالذهاب الى كاترينا ايفانوفنا ، وكذلك رغم القرار الذى اتخذه هو نفسه بالذهاب الى أخيه دمترى . فلن يترك الدير ، وانما يظل قرب شيخه حتى موته . وامتلأ قلبه بحب قوى للشيخ ، ولام نفسه لوماً مراً على أنه أثناء زيارته للمدينة قد نسى ، ولو لحظة واحدة ، ذلك الانسان الذى تركه فى الدير بين يدى الموت ، والذى يحترمه أكثر مما يحترم أى انسان فى هذا العالم . ودخل أليوشا غرفة نوم الشيخ ، فجثا على ركبتيه ، وسجد امام الشيخ النائم . كان الشيخ يرقد ساجيا بلا حركة ، وكان تنفسه الضعيف جدا يجرى مطردا منتظما ، رغم أنه لا يكاد يدرك . وكان وجهه ساكنا هادئا .

فلما عاد أليوشا الى الغرفة الأخرى — وهى الغرفة التى استقبل فيها الشيخ ضيوفه صباحا — اضطجع ، دون أن ينضو عنه ملابسه ، وبعد أن خلع حذاءيه وحدهما ، اضطجع على الديوان الصغير الضيق الصلب ، المنجّد بالجلد ، الذى اعتاد منذ زمن طويل أن ينام عليه كل ليلة . كان أليوشا يكتفى بأن يضع تحت رأسه وسادة ، مستغنياً منذ مدة طويلة عن وضع الفراش الذى كلمه أبوه عنه . وكان يكتفى بأن يخلع عنه ثوب الراهب ليتخذ منه غطاء يلتحفه . ومع ذلك جثا أليوشا على ركبتيه قبل أن ينام ، ولبث يصلى زمنا طويلا . لم يدعُ الله فى صلاته الحارة أن يهديه فى اضطرابه لأن ظمأه الوحيد هو أن يظفر بمشاعر الحنان السعيد الذى عرفه من قبل والذى كان يغزو نفسه دائما بعد تلاوة الآيات التى تمجد الله . . . فتلك هى صلاة الليل كلها عادةً . . . ان الفرح الذى يغمر

قلبه فى تلك اللحظات كان يكفل له نوماً هادئاً مريحاً . وانه ليصلى فى ذلك المساء اذا هو يحس فجأة بوجود ذلك الظرف الصغير الوردى الذى أعطته اياه خادم كاترينا ايفانوفنا حين أدركته فى الشارع . فاضطرب أليوشا ، ولكنه أكمل صلاته ، حتى اذا فرغ منها ، فض الظرف بعد لحظات من تردد ، ونظر الى ذيل الرسالة فاذا هو يقرأ توقيع **Lise** ، بنت السيدة خوخلاكوفا ، الصبية الصغيرة التى سخرت منه ذلك السحر كله فى الصباح بحضور الشيخ . وأخذ أليوشا يقرأ رسالتها اليه :

«ألكسى فيدوروفتش ! أكتب اليك خفيةً ، على غير علم من الجميع ، ومن أمى أيضا ، وذلك عيب ، أنا اعرف ذلك . ولكن أصبح يستحيل علىَّ أن اعيش دون ان ابوح لك بما وُلد فى قلبى ، وما يجب أن يجهله جميع الناس الآن ، الا نحن الاثنين . ولكن كيف أتدبر الأمر لأقول لك ما أتحرق شوقاً الى قوله ؟ يقال أن الورق لا يمكن أن يحمر خجلا وحياء . . . ولكننى أؤكد لك أن هذا القول خطأ ، لأن الورق يحمرُ الآن أمامى مثلما أحمرُ أنا ! عزيزى أليوشا ، اننى أحبك احبك منذ طفولتى ، منذ سنى موسكو التى كنت فيها مختلفاً عنك الآن اختلافا كبيرا . لقد أحببتك وسأحبك مدى عمرى . اختارك قلبى لاشاطرك الحياة كلها ، ولنختم أيامنا معا فى الشيخوخة . شريطة أن تترك الدير طبعا ، أما عن السن ، فان فى وسعنا أن ننتظر المدة التى يقتضيها القانون . والى أن يحين ذلك الأوان أكون أنا قد شفيت من مرضى شفاء كاملا ، فأستطيع ان أمشى وأن أرقص . ذلك أمر لا ريب فيه .

هأنت ذا ترى أننى فكرت فى كل شىء . ومع ذلك هناك نقطة عجزت عن أن أستجمع فيها شتات فكرى : ما

عسى أن يكون رأيك فيَّ بعد أن تقرأ هذه الرسالة ؟ أنا صبية «شيطانة» أكثر من الضحك عادةً ، حتى لقد أغضبتك فى هذا الصباح . ولكننى أحلف لك أننى صليت منذ قليل أمام ايقونة العذراء المقدسة قبل أن أقرر الكتابة اليك ، واننى لأصلى حتى هذه الدقيقة ، وأوشك أن أبكى !

هذا سرى وضعته بين يديك . وانى لأتساءل كيف سأستطيع أن أنظر اليك غدا حين تجىء ؟ أوه ! ألكسى فيدوروفتش ! ما عسى يحدث اذا أنا لم أملك أن أسيطر على نفسى فاذا أنا الحمقاء أنفجر ضاحكةً مقهقهة حين أراك . كما حدث لى هذا من قبل . لسوف تظننى عندئذ فتاة خبيثة ساخرة ، ولن تصدق عندئذ ما عبَّرت لك عنه فى رسالتى . لذلك أضرع اليك ، يا صديقى العزيز ، اذا كنت ترحمنى بعض الرحمة أن لا تنظر الى عينيَّ كثيرا حين تجىء الينا غداً ، ذلك أننى قد يتملكنى ضحك لا سبيل الى مغالبته متى التقى نظرى بنظرك ، ولا سيما بسبب هذا الثوب الطويل الذى ترتديه . . . حتى فى هذه اللحظة ، أشعر برعدة تسرى فى جسمى حين أتصور أن من الممكن أن يحدث شىء من ذلك . أستحلفك أن لا تنظر اليَّ البتة ، خلال مدة من الوقت ، حين تجىء الينا غدا ، وانما تلتفت بنظرك نحو أمى أو نحو النافذة . . .

هأنذا كتبت اليك رسالة حب ، رباه ، ما هذا الذى فعلته ؟ آه يا أليوشا ، لا تحتقرنى ! اذا كان ما أفعله مشينا جدا واذا كنت أحدث لك ضيقا وألماً فاغفر لى ! واعلم على كل حال أن سرى الذى قد يضيع سمعتى — ربما الى الأبد — هو الآن بين يديك .

سأبكى فى هذا اليوم حتماً . والى اللقاء ، بانتظار المقابلة

المرعبة فى الغد . Lise

حاشية : أليوشا ، يجب أن تأتى قطعاً ، قطعاً ، قطعاً !

"Lise!

قرأ أليوشا الرسالة مدهوشا ، وأعاد قراءتها مرتين ، ثم فكَّر قليلا ، فاذا هو يضحك فجأة بغير صوت ، شاعراً بسعادة ثم اذا هو يرتعد بعد ذلك حين تصور أن هذا الضحك قد يكون اثماً . ولكنه عاد يضحك ضحكا هادئا بعد لحظة ، وقد غمرته تلك الهناءة الهادئة نفسها . وطوى الرسالة ببطء ، وأعادها الى الظرف ، ورسم على نفسه اشارة الصليب ، ورقد . وفجأة زال من نفسه كل اضطراب . «اللهم اشملهم برحمتك ، اشمل برحمتك جميع أولئك الذين لقيتهم فى هذا النهار ، لأنهم أشقياء ، لأن العاصفة تهمهم فى نفوسهم . اللهم احرسهم وسدد خطاهم ! أنت سيد المصائر ، وان لك طرقاً فانقذهم يا رب بطرقك . ارسل اليهم السعادة لأنك انت المحبة» !

بهذا تمتم أليوشا وهو يرسم اشارة الصليب ، ثم نام نوماً هادئا .

الجزء الثانى

الباب الرابع

التمزقات

١

الأب فيرابونت

استيقظ أليوشا فى ساعة مبكرة قبل أن يطلع الصباح . وكان الشيخ قد صحا فلا يستطيع النوم ، وكان يشعر بوهن شديد وضعف هائل ، ولكنه أصرّ مع ذلك على أن يبارح سريره وأن يجلس على مقعد . انه كامل الوعى ، وان وجهه يبدو مضيئا حتى لكأنه فرح ، رغم آثار التعب الشديد الظاهرة فيه ، وان نظرته مرحة باشة هاشة مشجعة . قال لأليوشا : — قد لا أعيش الى آخر هذا اليوم — ثم أعرب عن رغبته فى أن يعترف وأن يتناول القربان المقدس فورا . وكان الاب بائيسى هو الذى يقوم له بدور الكاهن فى اعترافه . فبعد أن أتم الشيخ التناول بنوعيه ، استعد للقيام «بالمسحة الأخيرة» . فاجتمع الرهبان الكهنة فى صومعته التى أخذت تمتلىء بالنساك شيئا بعد شىء . وكان النهار قد طلع حين أخذ الرهبان الذين يعيشون فى الدير يتوافدون هم أيضا . وبعد القداس أظهر الشيخ نيته

في توديع الجميع ، فأخذ يقبل كل واحد . واذ كانت الصومعة ضيقة فقد كان الواصلون الأول يجلون المكان للواصلين بعدهم . ولبث أليوشا الى جانب الشيخ زوسيما الذى كان قد جلس على مقعده من جديد . فكان الشيخ يتكلم ويعلّم بقدر ما كانت تسمح له قواه ، وكان صوته ، رغم ما أصابه من ضعف شديد ، ما يزال صلبا . «انقضت سنين كثيرة وأنا أعلمكم حقائق الدين . انقضت سنين كثيرة وأنا أتكلم اذن بصوت عالٍ ! وقد بلغت من شدة التعود على مخاطبتكم وعلى البحث عن الحقيقة معكم حين أتحدث اليكم ، أيها الاباء والأخوة الأعزة ، أنني اصبحت لا أستطيع الاستغناء عن هذا الامر ولو أردت ، وأن الكلام أصبح أسهل عليّ من الصمت فى هذه اللحظة رغم ضعفي» — كذلك قال مازحاً ، وهو يجيل على الرهبان الذين يزدحمون حوله نظرة ودوداً حنونا . تذكر أليوشا فيما بعد بعض الافكار التى عبّر عنها الشيخ فى ذلك اليوم . ورغم ان الشيخ قد تكلم كلاما واضحا متميزا ، ورغم ان صوته ظل صلبا صلابة كافية ، فان أقواله لم يكن فيها تسلسل كثير . لقد عالج مسائل كثيرة ، كأنه يريد أن يقول كل ما كان يزخر به قلبه ، وأن يفصح مرة أخيرة ، وهو على مقربة من الموت ، عن أعمق خطرات نفسه ، عن تلك الخطرات التى لا يتوصل المرء أثناء حياته أن ينقلها الى الناس نقلا كاملا . وكان لا يفعل ذلك بنية تعليم الآخرين بقدر ما كان يفعله مدفوعا اليه بظمأ حار الى اشراك كل ما حوله ومن حوله فى الفرحة والحماسة اللتين كانتا تملآن نفسه ، والى نشر حبه فى العالم مرة أخرى . .

كان الشيخ يعلّم قائلا وفقا لما تذكره أليوشا : «احبوا بعضكم بعضا ايها الأباء . أحبوا جميع أبناء الرب . لا تظنوا

أنكم أقدس من الدنيويين لأنكم اخترتم أن تعيشوا فى الدير ، ولأنكم مسجونون داخل جدرانه . بالعكس : ان كل واحد من الذين جاءوا الى هنا قد أحس واعترف هو نفسه ، من مجرد اعتكافه فى الدير ، بأنه كان شراً من الانسان العادى وأسوأ من جميع الدنيويين وجميع الناس عامة على هذه الأرض . . . هذه الحقيقة يجب على كل راهب أن يتشربها تشربا ما ينفك يزداد عمقا كلما طالت حياته فى الدير . فلولا أن الامر كان كذلك ، لما كان ثمة أى سبب يبعث على الالتجاء الى الدير . يجب على الراهب أن يدرك أنه ليس أسوأ من الدنيويين فحسب ، بل أنه كذلك مذنب فى حق جميع البشر الآخرين ، مسئول عن كل الشر الذى يقع على الأرض بفعل الافراد أو بفعل الجماعات . فبهذا الشرط وحده انما يتحقق الهدف من اعتزالنا فى الدير . اعلموا أيها الاخوة الأعزة أن كلا منا يتحمل حتما المسئولية عن جميع البشر وعن كل شيء على الأرض لا بسبب الخطيئة الأصلية المشتركة وحدها ، بل ان كلاً منا مسئول بمفرده عن جميع البشر وعن كل انسان على هذه الأرض . ان الشعور بهذه الحقيقة هو الذى يتوج الحياة الرهبانية ، كما يتوج من جهة أخرى حياة كل انسان أياً كان . ذلك أن الرهبان لا يختلفون عن سائر البشر ، كل ما هنالك أنهم على تلك الصورة التى ينبغى لكل الناس أن يكونوا عليها . عندئذ تنفتح قلوبنا أخيرا للحب اللانهائى ، الشامل ، الذى لا يرتوى ظمؤه قط . وعندئذ سوف يجد كل منكم فى نفسه القدرة على غزو العالم كله بالحب ، وعلى أن يكفّر بدموعه عن خطايا الأرض . . . ألا فلتصغوا جميعا الى صوت قلوبكم ، ألا فلتعترفوا جميعا بأخطائكم لأنفسكم فى غير مهادنة . لا تخشوا خطاياكم وان

تكن واضحةً لأبصاركم ، شريطة أن تندموا على ارتكابها .
ولكن اياكم أن تفرضوا على الرب شروطا . وأكرر لكم خاصة :
لا تتعالوا . لا تتعالوا على الصغار ، ولا تتعالوا كذلك على
الكبار . لا تكرهوا أولئك الذين ينبذونكم ويهينونكم ويهاجمونكم
ويغتابونكم . ولا تكرهوا الملحدين ، ودعاة الشر والماديين ،
لا تكرهوا حتى اسوأ هؤلاء واخبثهم ، ناهيكم عن أخيارهم ،
لأن بينهم أخيارا ، فى عصرنا هذا خاصة . اذكروهم فى
صلواتكم على النحو التالى : «انقذ جميع الناس يا رب !
انقذ جميع الذين لا يصلى لهم أحد ، واولئك الذين يريدون
ان يصلوا لك !» ولكن عليكم ان تبادروا فتضيفوا الى ذلك
فورا : «اللهم انى لا أسألك هذا زهوا بنفسى ، فاننى شر الناس
طراً واشقاهم قاطبة» . . . احبوا أبناء الرب ، أحبوا الشعب ،
لا تسمحوا للغرباء ان يسلبوكم القطيع . فاذا استسلمتم للكسل ،
وسيطر عليكم وهم الاكتفاء والتفوق ، أو اذا انسقتم الى حب
الرخاء والخيرات المادية (وذلك أسوأ وأنكى) ، فان رجالا من
جميع البلاد سيظهرون عندئذ ليسلبوكم قطيعكم . بشروا بالأناجيل
فى صفوف الشعب بغير كلال ولا ملال . . . اياكم والطمع ،
اياكم والتعلق بالذهب أو الفضة . . . ازهدوا فى امتلاك الذهب
والفضة . . . آمنوا بالله ، وارفعوا راية العقيدة بيد قوية صلبة ،
ارفعوها عالية ، عالية . . .»

كان الشيخ يقول كلاما فيه من التقطع والتفكك أكثر
مما يظهر منهما هنا فيما دونه بعد ذلك أليوشا . كان يتوقف
عن الكلام من حين الى حين ، كأنما ليستجمع قواه ، وكان
يلهث لهاثاً واضحا ، ولكنه كان يشعر بنوع من الحماسة .
وكان الحشد يصغى اليه فى تأثر وخشوع ، رغم أن أقواله بدت

غريبة لبعضهم ، غامضةً لبعضهم الآخر . . . وقد تذكر المستمعون
هذه المعانى التى عبر عنها الشيخ ، تذكروها فيما بعد . وقد
تغيب أليوشا عن الصومعة لحظات ، فما كان أشد دهشته
حين عاد فلاحظ اضطرابا شديدا قد استولى على جميع من
كانوا فى الصومعة ومن كانوا يحتشدون ويزدحمون وراء الباب .
كان جميع الرهبان فى حالة انتظار شديد يمازجه قلق لدى بعضهم ،
ويصطبغ بجلال وأبهة لدى بعضهم الآخر . كان يبدو عليهم
جميعا أنهم يرتقبون حدوث معجزة خارقة بعد موت الشيخ فورا .
قد تدل هذه الحالة النفسية على شيء من خفة وطيش ، ولكنها
غزت قلوب جميع الرهبان ، حتى أكثرهم هدوءا وأشدهم صرامة .
وكان وجه الكاهن الراهب بائيسى يعبر عن خطورة خاصة .
لقد غاب أليوشا عن الصومعة لحظة لأن راكيتين الذى عاد
من المدينة حاملا اليه من السيدة خوخلاكوفا رسالة غريبة بعض
الغرابة ، قد أرسل اليه احد الرهبان يستدعيه خفية . ان هذه
الرسالة تبلغ اليوشا خبراً طريفا جاء الآن فى انسب وقت .
فالمسألة هى أن من بين نساء الشعب المؤمنات اللواتى جئن
أمس الى الشيخ ليحيينه وليتلقين بركته كانت هنالك امرأة
عجوز من بلدتنا اسمها بروخوروفنا وهى أرملة صف ضابط .
ان هذه المرأة قد سألت الشيخ هل فى وسعها أن تطلب اقامة
صلوات فى الكنيسة على روح ابنها فاسيا الذى سافر بمهمة الى
منطقة نائية من سيبيريا تقع فى جهة ايركوتسك ، ثم لم تصلها
أنباؤه منذ سنة ، سألت هل فى وسعها أن تطلب اقامة صلوات
على روحه كما لو كان قد مات ؟ وقد نهاها الشيخ عن هذا
نهياً قاسياً ، ووصف اللجوء الى مثل هذه الصلوات بأنه شعوذة
وسحر . ولكنه غفر لها بعد ذلك بسبب جهلها ، وختم كلامه

لها من باب المواساة قائلا لها «كأنه قد وهبت له القدرة على القراءة فى كتاب المستقبل» (هذه هى العبارة التى استعملتها السيدة خوخلاكوفا فى رسالتها) ، ان «ابنها فاسيا ما يزال على قيد الحياة حتما ، وانه عائد اليها قريبا ، أو انه سيكتب اليها على كل حال ، وان عليها أن ترجع الى بيتها مطمئنة تنتظر أوبته . فما الذى حدث ؟ (تابعت السيدة خوخلاكوفا بحماسة) حدث أن النبوءة قد تحققت كاملة ، بل أكثر من ذلك ! فان المرأة العجوز ما ان رجعت أمس الى مسكنها حتى أعطيت رسالة وصلت من سيبيريا أثناء غيبتها ، وفى هذه الرسالة التى كتبها اليها فاسيا فى طريق عودته ، من ايكاتيرنبورج » ، يبلغ الولد أمه أنه عائد الى روسيا بصحبة موظف ، وأنه «يأمل أن يستطيع تقبيل أمه» بعد ثلاثة أسابيع فى أكثر تقدير . ان السيدة خوخلاكوفا ترجو أليوشا ملحةً ان ينقل الى علم كبير الرهبان وسائر أهل الدير نبأ هذه «المعجزة الجديدة من معجزات النبوءة» ، وتقول له هاتفة فى ختام رسالتها : «يجب أن يعلم جميعهم هذا النبأ ، يجب أن يعلمه جميعهم حتما !» وكان واضحا أنها قد كتبت هذه الأسطر متعجلة تعجلا شديدا ، وكان واضحا ان كل كلمة من كلماتها تزخر بانفعال قوى وتأثر عميق . غير أن أليوشا لم يحتج الى ابلاغ الرهبان النبأ ، لأنهم كانوا قد اطلعوا عليه ، لأن راكيتين ، حين كلف أحد الرهبان باستدعاء أليوشا اليه ، قد رجاه فى هذه المناسبة نفسها أن «يبلغ الاب المحترم بائيسى ، بكثير من الاحترام ، أنه يود لو يراه حالا ليكلمه فى أمر هام جدا يرى أن من واجبه أن يطلعه عليه فى غير ابطاء ، بسبب ما تتصف به الظروف الراهنة من خطورة خاصة ، آملاً فى كثير من المذلة والتواضع

أن تُغتفر له هذه الجرأة» . ولما كان الراهب قد نقل هذه الرسالة الى الأب بائيسى قبل أن يستدعى أليوشا ، فانه لم يبق على أليوشا بعد عودته الى الصومعة وقراءة الرسالة الا أن يُظهر عليها الأب بائيسى بصفتها مجرد وثيقة تؤكد الخبر . أخذ هذا الرجل الصارم الريّاب يقرأ الرسالة مقطبا حاجبيه ، فلم يملك هو أيضا حين اطلع على رواية «هذه المعجزة» أن يمسك عن اظهار بعض العواطف التى هزت نفسه ، فاذا نظرته تسطع ، واذا شفتاه تلينان قليلا ، واذا فمه يبتسم ابتسامة رزينة عميقة ، واذا لسانه تُفلت منه هذه العبارة على غير ارادة منه :

— سنرى معجزات أخرى كثيرة !

فردد الرهبان الذين كانوا يحيطون به ، رددوا يقولون :

— سنرى معجزات أخرى كثيرة !

ولكن الأب بائيسى قطب حاجبيه من جديد ، ورجاهم أن يمتنعوا ، الآن على الأقل ، عن التعليق على هذا الحادث جهارا ، وأن لا ينقلوه الى أحد قبل الأوان :

— يحسن أن ننتظر معرفة تفاصيل أخرى أشد اقناعا ، لأن الدنيويين كثيرا ما يظهرون خفة وطيشا فى هذه الأمور .

ثم أضاف يقول بحذر كأنما ليهدئ ضميره :

— ثم ان هذا الحادث الذى أمامنا ، ربما قد وقع بصورة طبيعية . . .

قال الأب بائيسى ذلك ، ولكن هذا التحفظ لم ينقص من اقتناعه شيئاً ، وذلك ما أدركه الحضور ادراكا قويا واضحا وسرعان ما انتقل نبأ «المعجزة» من فم الى فم ، فما هى الا برهة قصيرة حتى عرفه جميع سكان الدير ، وحتى عرفه كذلك

كثير من الزائرين الذين جاءوا الى الدير لحضور الطقوس . وكان أشد الناس انبهارا فى الظاهر انما هو راهب «صغير من القديس سيلفستر» وصل أمس من دير أوبدورسك الصغير بالشمال الأقصى . كان بالأمس قد انتظر الشيخ واقفا الى جانب السيدة خوخلاكوفا ، فبعد أن حيَّا الشيخ سأله ، بمناسبة «شفاء» ابنة تلك السيدة ، سأله بانفعال : «كيف تجسر على تحقيق مثل هذه الأمور ؟»

فهذا الراهب يشعر الآن بحيرة شديدة ، فهو لا يعرف ماذا يجب أن يصدق وبماذا يجب أن يؤمن . ذلك أنه فى مساء أمس قد زار واحدا من رهبان الدير هو الأب فيرابونت ، فى الصومعة الخاصة التى يسكنها وراء خلايا النحل ، وقد تأثر تأثرا عميقا بالحديث الذى جرى بينه وبينه ، حتى لقد شعر من هذا الحديث برعب ، وساوره منه جزع . والأب فيرابونت انما هو بعينه ذلك الراهب العجوز المنزوى الذى اشتهر بصيامه عن الطعام والكلام ، والذى كان يعد ، كما سبق أن ذكرنا ذلك من قبل ، خصما للشيخ زوسيما ، وكان يحارب نظام المشايخ خاصة ، ويرى فيه بدعةً طائشة ضارة . وانه لخصم خطر جدا رغم أنه لا يكاد يكلم أحداً من الناس ، تقيداً بقاعدة الصمت . وكان يبدو خطرا بوجه خاص لأن رهبانا كثيرين كانوا يشاطرونه آراءه مشاطرة تامة ، ولأن بين الزوار الدنيويين أناسا كثيرين أيضا كانوا يرون فيه زاهدا كبيرا ورجلا مقدسا ، رغم تسليمهم بأنه رجل عبيط دون شك . ولكن عباطته هذه هى بعينها عنصر الجاذبية فيه . كان الأب فيرابونت لا يذهب الى الشيخ زوسيما قط . ورغم أنه عاش فى المنسك ، فما من أحد كان يماحكه كثيرا فى أمر مراعاة القواعد المتبعة فى المنسك لأن تصرفه فى هذه النقطة أيضا كان تصرف رجل

عبيط . انه فى الخامسة والسبعين من عمره أو تزيد ، وهو يعيش وراء خلايا النحل ، عند زاوية الجدار ، فى صومعة قديمة جدا مبنية من خشب تشبه أن تكون أطلالاً متداعية منذ الآن ، وقد بنيت هذه الصومعة خلال القرن الماضى فيما يقال ، لراهب آخر اشتهر هو أيضا بكفارات الصيام عن الطعام والكلام : ذلك هو الأب يوحنا الذى عمَّر مائة وخمس سنوات ، وعرف بأعمال قداسة ما يزال الناس فى الدير وفى المنطقة المجاورة يذكرون عنها تفاصيل شائقة . وقد استطاع الأب فيرابونت أن يظفر أخيرا ، منذ سبع سنين ، بسكنى هذه الصومعة المنزوية التى تكاد تكون خِرْبةً بسيطة ولكنها شبيهة جدا بمعبد صغير ، لكثرة أيقونات النذور التى تملؤها ، والتى تشتعل مصابيح النذور أيضا أمامها بغير انقطاع . وقد كُلِّف الأب فيرابونت نوعا من التكليف بأن يتولى صيانة هذه المصابيح الصغيرة واشعالها . وكان طعامه ، كما يقال (وهذا صحيح) ، لا يزيد على رطلين من الخبز كل ثلاثة أيام فى أكثر تقدير ، يحمله اليه كل ثلاثة أيام ، النحال الذى يسكن فى المنحل أيضا . فكان الأب فيرابونت ، حتى مع هذا النحال الذى يخدمه ، لا يتحدث الا نادرا جدا . وهو لا يأكل طوال الأسبوع ، الا الارطال الاربعة من الخبز ، اضافةً الى لقم القربان المقدس التى كان كبير الرهبان يرسلها الى هذا الراهب الناسك بعد الصلاة الثانية فى أيام الآحاد . وكانت جرة الماء التى يشرب منها تُملأ له كل يوم . وكان الأب فيرابونت لا يكاد يحضر القداس أبدا . وقد لاحظ زواره والمعجبون به أنه كثيرا ما كان يقضى أياما بكاملها فى الصلاة جاثيا على ركبتيه طول الوقت لا ينظر حوله يمنة ولا يسرة . فاذا اتفق له فى مناسبة من المناسبات أن

يكلمهم ، كان كلامه لهم موجزا مقتضبا غريبا ، حتى ليكاد يكون فظا غليظا فى جميع الأحيان . صحيح أنه كان يحدث ، فى القليل النادر ، أن يندفع فى مناقشات أطول ، ولكنه كان فى أكثر الأحيان يكتفى باطلاق جملة عجيبة يكون وقعها فى نفس زائره وقع لغز محير ، ثم يرفض أن يعقب عليها بأى شرح رغم جميع التوسلات . ولم يكن الأب فيرابونت فى رتبة كاهن ، وانما ظل راهبا بسيطا . وقد راجت عنه فى بعض الأوساط ، وهى الأوساط الجاهلة والحق يقال ، شائعة غريبة مفادها أن الأب فيرابونت على اتصال بالأرواح السماوية ، فهو لا يتحدث الا مع تلك الأرواح ، وهو لهذا السبب يلزم الصمت مع البشر . استطاع راهب أوبدورسك الصغير أن يهتدى الى الطريق المفضى الى المنحل ، فاتجه متبعا اشارات النحال ، وهو راهب صموت متجهم أيضا ، نحو ركن الحائط الذى توجد عنده صومعة الأب فيرابونت . وقد أنذره النحال قائلا : «ربما رضى أن يخاطبك ببضع كلمات ، لأنك راهب حاج ، ولكن قد لا تستطيع مع ذلك أن تنتزع منه كلمة واحدة» — اقترب الراهب الصغير من صومعة الناسك وهو يشعر برعب شديد ، كما روى ذلك هو نفسه فيما بعد . وكان ذلك فى ساعة متأخرة . ان الأب فيرابونت جالس فى هذه المرة أمام باب مسكنه على دكة واطئة جدا وفوقه يُسمع حفيف أغصان شجرة دردار كبيرة ، والهواء قد أنعشته طراوة المساء . سجد راهب أوبدورسك أمام الناسك المقدس ، وطلب اليه أن يباركه . فقال له الأب فيرابونت :

— أتراك تريد أيها الراهب أن أسجد أنا أيضا على الأرض أمامك ؟ هيا انهض !

نهض الراهب الصغير .

— ألا فلتحل عليك البركة . اجلس بجانبى . من أين أنت ؟

دُهش راهب أوبدورسك خاصة من أن الأب فيرابونت ، رغم أنه طاعن فى السن ، ورغم الصيام القاسى الذى يفرضه على نفسه ، ما يزال صحيح البنية قوى الجسم ، وهو فارع الطول منتصب القامة ، له وجه نحيل لكنه نضر سليم . ان المرء يشعر أنه ما يزال محتفظا بقوة بدنية عظيمة . ولقد كانت بنيته بنية رجل رياضى على كل حال . ثم انه على تقدمه فى العمر لم يشب تماما ، وما يزال شعر رأسه ولحيته ، الذى كان فى الماضى فاحم السواد ، ما يزال غزيرا كثيفا . وعيناه الشهباوان كبيرتان ساطعتان ، ولكنهما جاحظتان كثيرا ، وتلك سمةٌ تخطف البصر رأساً . وهو يتكلم مشددا حرف «الواو» تشديداً قويا . أما لباسه فعباءة طويلة ضاربة الى حمرة من ذلك القماش الذى كان يسمى فى الماضى «جوخ السجناء» ، مع حبل طويل يتخذه حزاما . والعنق والصدر عاريان . وتحت الثوب يُرى قميص من خيش يكاد يبدو أسود اللون لأن الاب فيرابونت لا يبدله طيلة شهور . وكان يقال انه يثقل جسمه بسلاسل تزن ثلاثين رطلاً . وقدماه بلا جوربين ، وانما هو ينتعل حذاءين عتيقين قد تشوه شكلهما كل التشوه .

— أنا آت من دير القديس سيلفستر الصغير فى أوبدورسك .

كذلك قالَ الزائر مجيبا بلهجة ذليلة وهو ينظر الى الناسك بعينيه الصغيرتين الحادتين اللتين ما تزالان مروَّعتين قليلا .

— أنا أعرف صاحبك سيلفستر . لقد عشت عنده زمنا . كيف حاله ؟ كيف صحته ؟

اضطرب الراهب الصغير .

— يا لكم من رجال حمقى مجانين ! كيف تصومون هناك ؟

— طعامنا تحكمه القاعدة الرهبانية القديمة : ففى أثناء الصيام الكبير لا نطعم شيئا فى أيام الاثنين والأربعاء والجمعة . وفى أيام الثلاثاء والخميس يأكل الرهبان خبزاً أبيض وفاكهة مسلوقة بعسل ، وتوتاً برياً أو كرنباً مملحاً ، مع شىء من طحين الشوفان مخلوط بالماء . وفى أيام السبت نأكل حساء بالكرنب وشعيرية بالحمص وبرغلاً خشناً ، وذلك كله مطبوخ بالزيت . ويضاف الى حساء الكرنب شىء من سمك مقدّد وبرغل عادى فى أيام الأحد . أما فى الأسبوع المقدس فلا نأكل ، من صباح الاثنين الى مساء السبت ، أى خلال ستة أيام ، الا خبزا وماء وخضارا نيئة — وحتى هذا يجب أن نلتزم فيه حدود القصد والاعتدال . ذلك أنه اذا كان مباحا لنا أن نأكل فى ذلك الأوان ، فيجب أن لا نفهم هذا بالمعنى الواسع ، ولا أن نفعله كل يوم . ففى يوم الجمعة من الأسبوع المقدس نصوم صوما كاملا ، وفى يوم السبت من هذا الأسبوع نمتنع عن الطعام حتى الساعة الثالثة ، ثم يُسمح لنا بعد هذه الساعة أن نصيب شيئاً من خبز وماء وأن نحتسى قدحا واحدا من النبيذ ؛ وفى يوم الخميس من الأسبوع المقدس يقدم الينا طعام مطبوخ بغير زيت ، وشىء من نبيذ ، وبعض المآكل الناشفة . ذلك أن مجمع الأساقفة الذى انعقد فى لاوديكيا « قد أقر النظام التالى فى أمر يوم الخميس من الأسبوع المقدس : لا يحسن قطع الصيام فى خميس آخر الأسبوع ، حتى لا يفسد بذلك الصيام كله » . ذلك هو صيامنا . وهو مع ذلك لا يعد شيئاً مذكورا

بالقياس الى القاعدة التى فرضتها على نفسك يا أبانا المبجل (كذلك أضاف يقول الراهب الصغير الذى بدا أنه استرد شيئا من رباطة جأشه) ، لأنك لا تتغذى الا بخبز وماء طوال السنة ، حتى فى يوم الفصح المقدس ، ولأن مقدار الخبز الذى نأكله فى يومين يكفيك أنت أسبوعا كاملا انه لمن المدهش حقا هذا التقشف العظيم .

سأله الأب فيرابونت على حين فجأة بطريقته الخاصة فى نطق بعض الأحرف محوّرة :

— وفطر الغابات ؟

فكرر الراهب الصغير يقول دهشاً :

— فطر الغابات ؟

— طبعا ! أنا أستطيع أن أستغنى عن خبزهم ، فما بى اليه حاجة قط : أذهب الى الغابة اذا لزم ذلك ، فأتغذى فيها بالفطر والثمار . ولا كذلك الرهبان هنا ، فانهم لا يستطيعون الاستغناء عن الخبز ، فهم اذن مشدودون الى الشيطان . ان فى زماننا هذا كفرة كريهين يؤكدون أن مثل هذا الصيام لا حاجة اليه . فتفكيرهم مشبع بالزهو والصلف والكبر .

قال الراهب الصغير متنهدا :

— ما أصدق هذا الكلام !

سأل الأب فيرابونت :

— هل رأيت الشياطين حين كنت عندهم ؟

— عندهم ؟ عند من ؟

كذلك سأل الراهب الصغير فى وجل .

قال الأب فيرابونت :

— زرت كبير الرهبان فى عيد الخمسين من السنة الماضية ،

ولكنني لم أعد اليه منذ ذلك الحين . رأيت عند أحد الرهبان شيطانا على صدره ، ورأيت شيطانا يختبئ تحت ثياب راهب آخر فما تظهر منه الا قرونه . حتى لقد رأيت واحدا منهم يقبع في جيب راهب ، فما يظهر منه الا رأسه ، فلاحظت عينيه الحادتين المتحركتين . كان خائفا منى فيما يبدو . وبعض الرهبان يؤوون شياطينا في بطونهم بين أحشائهم النجسة ، وبعضهم يحملونهم على رؤوسهم حول الأعناق يتشبث بها الشياطين دون أن يلاحظهم الرهبان أنفسهم .

سأله الراهب الصغير :

— وهل . . وُهبت لك القدرة على رؤيتهم ؟

— قلت لك انني أراهم . ان نظرتي تخترقهم اختراقاً . حين خرجت من عند كبير الرهبان ، فاجأت واحدا منهم حاول أن يختبيء وراء الباب حين لمحنى . كان هذا طويل القامة ، يبلغ طوله مترا أو يزيد . وكان له ذيل ضخم بنى ، طويل جدا ، قد انحشر في شق الباب في تلك اللحظة . ولم أكن غبياً فدفعت الباب بقوة فسحقت له ذيله ، فأطلق من صدره أنينا حادا ، فبينما كان يتخبط رسمت عليه اشارة الصليب ثلاث مرات ، فاذا هو يفطس كما يفطس عنكبوت ديس بالقدم ، وقد تفسخت جثته منذ ذلك الحين عند زاوية الباب ، فصار الهواء هنالك موبوءا ، ولكن هؤلاء الرهبان لا يرون شيئا ولا يشمون شيئا ! وقد انقضت سنة لم أعد خلالها الى ذلك المكان . انى أسرُّ اليك وحدك بهذا الأمر ، لأنك غريب عن هذا الدير .

هتف الراهب الصغير يقول :

— رهيب ما تقوله !

ثم أضاف وقد ازدادت جرأته شيئا بعد شيء :

— وددت لو أعرف أيها الاب العظيم المحترم المبجَّل ، هل صحيحة تلك الشائعة المجيدة التى راجت حتى بلغت أبعد المناطق النائية ، وهى أنك على صلة مستمرة بالروح القدس ؟

— الروح القدس يهبط الى هنا أحيانا . ذلك يحدث .

— يهبط الى هنا ؟ فى أية صورة ؟

— فى صورة طائر .

— الروح القدس يظهر لك فى صورة حمامة ؟

— يجب أن لا تخلط بين الروح القدس وبين روح القداسة . فأما روح القداسة فيمكن أن تتجلى فى صور شتى ، فتارة تظهر فى صورة سنونو ، وتارة تظهر فى صورة حسون أو فى صورة قرقب أيضا .

— فكيف تميزها عن قرقب عادى ؟

— أعرفها لأنها تتكلم .

— كيف هذا ؟ بأى لغة ؟

— بلغة الانسان .

— ماذا تقول لك ؟

— فى هذا الصباح مثلاً أبلغتنى أن زائراً غبيا سيزورنى وسيزعجنى بأسئلة خبيثة . هل تعرف أيها الراهب أنك تسرف فى الاستطلاع ؟

— أيها الأب المحترم جدا ، المقدس جدا ، ان كلماتك تبعث الرعب !

كذلك قال الراهب الصغير وهو يحرِّك رأسه . على أن شيئا يسيرا من عدم التصديق قد ظهر فى عينيه الخائفتين .

سأله الأب فيرابونت بعد صمت قائلا :

— هل ترى هذه الشجرة ؟

— أراها يا أبى المحترم .

— لا شك أنك تظنها شجرة دردار . أما أنا فأرى فيها شيئا آخر .

وانتظر الراهب الصغير بضع لحظات يرتقب أن يقول له الاب فيرابونت ماذا يرى فيها ، فلما لم يفعل الاب فيرابونت ذلك ، قرر أن يسأله ، فقال :

— فماذا ترى فيها ؟

— يظهر فى الظلام . هل ترى هذين الغصنين ؟ انه المسيح يمد الىّ ذراعيه حين يخيّم الليل ، ويبحث بهما عنى . اننى أراه رؤية واضحة ، فأرتعش عندئذ خوفا . ذلك شىء مخيف ، مخيف جداً .

— لماذا الخوف ما دام هو المسيح ؟

— قد يقبض علىّ ويرفعنى الى السماء .

— حيا ؟

— ألم تسمع اذن عن النبى ايليا ومجده ؟ سوف يحيطنى المسيح بذراعيه ويأخذنى . . .

رغم أن راهب أوبدورسك الصغير قد شعر باضطراب شديد وحيرة كبيرة حين رجع بعد هذا الحديث الى الصومعة التى عُيِّنت له والتى كان عليه أن يشارك فيها أحدَ رهبان الدير مدة اقامته ، فقد كان فى قرارة قلبه يشعر بأن الأب فيرابونت قد اجتذبه أكثر كثيرا مما اجتذبه الشيخ زوسيما . ان هذا الراهب الصغير ، وهو من الأنصار المتحمسين للصيام الذى يحترمه أكثر مما يحترم سائر شعائر الرهبانية ، قد اعتقد أن صائما يملك من القوة ما يملكه الأب فيرابونت يمكن حقا أن يكون

قد أوتى موهبة «رؤية المعجزة» . صحيح أن الأقوال التى قالها الأب فيرابونت تبدو مفككة بعض التفكك ، ولكن الرب وحده قادر على أن يعرف ما لعلها تشتمل عليه من دلالة عميقة . ثم ان جميع العبطاء المأخوذين بالمسيح انما يقولون كلاما أو يفعلون أفعالا أبعث على الدهشة . أما قصة الشيطان الذى حشر ذيله الضخم فى شق الباب وسُحق ، فان الراهب الصغير لم يصعب عليه أن يسلم بها ، لا بالمعنى المجازى بل بالمعنى الحقيقى ، وكان يشعر أنه مستعد لتصديقها بكل نفسه ، وبفرح أيضا . ثم انه ، عدا ذلك ، كانت تراوده ، حتى قبل وصوله الى الدير ، شكوك كثيرة حول نظام المشايخ ، حتى لقد كان يشعر بعداوة لهذا النظام الذى لم يكن يعرفه الا عن طريق السماع على كل حال ، وكان يعده مع كثيرين غيره بدعةً ضارة ضررا صريحا . وكان قد أتيح له بعد أن تعرف على الحالة فى الدير أن يسمع دمدمات الاستنكار الخفية من بعض الرهبان ذوى العقول السطحية ، الذين كانوا ينتقدون هذا النظام . واذ كان بطبيعته امرءاً طلعة يعرف كيف يتسلل الى كل مكان ، فان النبأ الباهر الخارق عن آخر «معجزة» حققها الأب زوسيما قد هزّ نفسه هزاً قوياً وبث فيها حيرة قصوى . وقد تذكر أليوشا فيما بعد أنه لمح ، عدة مرات ، فى زحمة الرهبان المحتشدين قرب الشيخ أو فى جوار الصومعة هذا الراهب الصغير الفضولى ينتقل من جماعة الى جماعة ، يصغى الى كل شىء ويسأل كل واحد . ولكن أليوشا لم يهتم به فى حينه ، وانما تذكر ما جرى فيما بعد . . . وهل كان بوسعه ان يلتفت الى ذلك الراهب الصغير فى ذلك اليوم ؟ ! فالأب زوسيما الذى خارت قواه من جديد ، قد انتقل الى سريره ، فلما أغمض عينيه

تذكر أليوشا فجأة ، فطلب احضاره ، فهرع اليه أليوشا فورا . ولم يكن الى جانب الشيخ عندئذ الا الأب بائيسى ، والراهب الكاهن يوسف والراهب المبتدئ بورفيرى . فتح الشيخ عينيه المتعبتين بكثير من العناء ، وحدق الى أليوشا ، ثم سأله فجأة :

— هل ينتظرك ذووك يا بنى المحبوب ؟

فاضطرب أليوشا .

وعاد الشيخ يسأله :

— أليسوا فى حاجة الى حضورك ؟ هل وعدت أحدا بالعودة اليه اليوم ؟

— وعدت أبى ... وأخوىّ ... وآخرين أيضا ...

— ذلك ما قدَّرته . فاذهب اليهم حتماً ولا تحزن . اعلم اننى لن أموت قبل أن أنطق آخر كلماتى على هذه الأرض بحضورك . اليك سأوجه آخر أقوالى يا بنى المحبوب ، اليك سأعهد بها ... اليك أنت يا بنى لأنك تحبنى . امض الآن الى من ينتظرونك .

سارع أليوشا يطيع أمر الشيخ ، رغم أنه قد شق على نفسه أن ينصرف فى هذه اللحظة . ولكن الوعد الذى قطعه له الشيخ ، وهو أن يُسمعه آخر كلماته على هذه الأرض ، ولا سيما ما ذكره الشيخ من أنه سيوجه هذه الكلمات اليه هو ، وأنه سيعهد بها اليه على أنها وصيته الروحية ، قد ملأ نفس أليوشا حماسة . لذلك أغذَّ خطاه حتى يستطيع أن يفرغ مما كان عليه أن ينجزه فى المدينة وأن يعود الى الدير بأقصى سرعة . وقد تحدث الأب بائيسى هو أيضا الى أليوشا عند انصرافه ، وما قاله له الأب بائيسى عندئذ قد أحدث فى نفسه

أثراً عميقا غير متوقع . لقد توجه اليه الأب بائيسى ، بعد أن خرجا من صومعة الشيخ ، قائلا :

— تذكر أيها الفتى (بهذا انما بدأ الأب بائيسى كلامه دون أى تمهيد) ، تذكر أن المعرفة العلمانية التى نمت نمواً كبيراً وأصبحت قوة عظيمة ، قد هجمت ، فى خلال هذا القرن خاصة ، على كل ما تركته لنا النصوص المقدسة من حقائق سماوية . فعلماء هذا العالم ، بعد أن قاموا بنقد قاس لم يحتفظوا بشىء البتة مما كان يُعدُّ مقدساً في القرون الماضية . لقد حللوا كل جزء على حدة ، ولكن فاتهم ادراك الدين فى مجموعه ، وبلغوا من ذلك أن المرء تذهله فيهم هذه العماوة حقا . ذلك رغم أن «المجموع» يظل باقياً كما كان من قبل ، لا تقدر أبواب الجحيم أن تنتصر عليه . ألم يعش ذلك تسعة عشر قرنا ؟ ألا يزال يعيش اليوم فى خوالج نفوس الأفراد وجماهير الناس ؟ ألا انها لباقية ، هذه الحقيقة ، حتى فى قلوب أولئك الملحدين الذين دمَّروا كل شىء ، باقية كما فى الماضى ! ذلك أن هؤلاء الذين جحدوا المسيح وتمردوا عليه ليسوا أنفسهم الا صورة المسيح نفسها ، وما يزالون يمثلون هذه الصورة لأنه استحال عليهم فى الواقع ، رغم الرغبة القوية التى اضطرمت فى نفوسهم ورغم الجهود الكبيرة التى بذلها عقلهم ، أن يقدموا مثلا أعلى آخر للانسان ولكرامته ، أسمى من المثل الأعلى الذى قدمه الينا المسيح فى الزمان القديم . ان جميع المحاولات التى من هذا النوع لم تؤدِّ الى غير الحطة والغلطة . فاحفظ هذا جيدا أيها الفتى ما دام شيخك المحتضر قد أرسلك الى العالم . فلعلك حين تتذكر فى المستقبل هذا اليوم العظيم تفكر أيضا فى هذه الكلمات التى قلتها لك صادرة من أعماق

قلبي لتضيء لك طريقك . ذلك لأنك شاب ، ولأن مغريات العالم قوية ، ولن تكفيك قواك وحدها للتغلب عليها . والآن امض أيها اليتيم .

وبعد أن قال الأب بائيسي هذا الكلام بارك أليوشا وقد أدرك أليوشا فجأة ، وهو يبتعد عن الدير ويتدبر هذه الأقوال التي لم يكن يتوقعها ، أدرك فجأة أن هذا الراهب الذي كان الى ذلك الحين صارماً تلك الصرامة كلها قاسياً تلك القسوة كلها في معاملته ، سيكون له بعد اليوم صديقا جديدا وموجهاً روحيا يحمل له أعمق المودة والعطف — كأن الأب زوسيما هو الذي عهد اليه بهذه المهمة وهو يحتضر . قال أليوشا يحدث نفسه : «من يدري ؟ لعلهما قد اتفقا على هذا» . ألا تدل هذه الشروح العليمة النقية التي سمعها من فم الأب بائيسي ، وهي شروح أدهشته في أول الأمر وأثارت استغرابه ، ألا تدل أكثر مما يمكن أن يدل أي حديث آخر ، على أن الأب بائيسي يضمر له عاطفة صادقة حارة ؟ لقد أسرع الأب بائيسي يزود عقله الفتي بالأسلحة التي تسهل عليه مكافحة مغريات هذا العالم ، وأراد بغير ابطاء أن يحصن نفسه الفتية التي عُهد اليه بها بأقوى الدروع الروحية الأخلاقية .

٢

في منزل الأب

ذهب أليوشا أولا الى أبيه . فتذكر وهو يقترب من المنزل ان أباه قد ألح عليه كثيرا بالامس ان يتدبر أمره بحيث يدخل

دون ان يراه ايفان . فتساءل فجأة : «لماذا ؟ اذا كان أبي يريد أن يبوح لي بشيء من الاشياء سراً ، فهل هذا سبب كاف لأن أدخل المنزل سراً ؟ أحسب أن أبي قد أساء التعبير من شدة اضطرابه امس فلم يجد الكلمات المناسبة التي يفصح بها عن مراده» . هذا ما قاله لنفسه . ومع ذلك شعر بارتياح شديد حين فتحت له مارفا اجناتفنا الباب الحديدي (كان جريجوري قد مرض فلزم سريره فيما قالت مارفا) ، فعلم منها ، جوابا على سؤال ألقاه عليها ، أن ايفان فيدوروفتش قد خرج من المنزل منذ ساعتين .

— وأبي ؟

— نهض من فراشه ، وهو يحتسي الآن قهوته .

هكذا أجابته مارفا اجناتفنا بشيء من الجفاف والخشونة . دخل أليوشا ، فوجد أباه وحيدا الى المائدة ، منتعلاً خفين ، مرتديا معطفا عتيقا . كان الاب بسبيل التدقيق في بعض الحسابات تزجيةً للوقت ، دون أن يبدو عليه أنه مهتم فعلا بهذا العمل الذي يقوم به . ولم يكن في المنزل احد غيره (كان سمردياكوف قد خرج هو أيضا لشراء بعض الأشياء من أجل اعداد طعام الغداء) . كان الأب يتصفح حساباته اذن ، ولكن فكره منصرف الى غير ذلك . وكان يبدو عليه التعب والضعف ، رغم أنه صحا في ساعة مبكرة من الصباح وحاول أن يستجمع قواه . وقد عقد على جبينه الذي ظهرت فيه بقع ارجوانية كبيرة اثناء الليل ، منديلاً أحمر . وكانت على أنفه الذي تورم كثيرا منذ البارحة ، بقع مماثلة ان لم تكن واسعة كثيرا فهي تضفي على وجهه تعبيراً عن غضب حانق خبيث . وكان العجوز يعرف هذا على كل حال ، فهذا هو يرشق أليوشا حين دخل ،

بنظرة فيها عداوة . وصاح يقول له بلهجة قاطعة :

— القهوة باردة ، فلن أقدم لك منها شيئاً . وأنا نفسي ألتزم اليوم حميةً قاسية ، فلا أطعم الا حساءً بالسمك ولا أدعو الى مائدتي أحدا . لماذا جئت ؟

قال أليوشا :

— أردت أن أسأل عن صحتك .

— أعرف . ثم انني أمرتك أنا نفسي بالأمس أن تزورني . تلك كلها سخافات ! لقد أزعجت نفسك في غير طائل . أنني تنبأت بأنك ستسارع الى المجيء . . .

قال الأب هذه العبارة الأخيرة بلهجة منفرة كريهة ، ونهض في الوقت نفسه ليرى حالة أنفه في المرآة وقد بدا في وجهه الهم والقلق (لعله ينظر في انفه للمرة الأربعين منذ هذا الصباح) ؛ وفي هذه المناسبة عدل المنديل الأحمر الذي يلف جبينه وجهد أن يعقده على آنق طريقة . وقال بلهجة متكلفة :

— لقد اخترت اللون الاحمر ، لأن الأبيض يذكـــر بالمستشفى . هيه ! ماذا وراءك من جديد ؟ كيف حال شيخك ؟

فأجاب أليوشا قائلاً :

— حاله سيئة جدا ، وقد يموت في هذا النهار .

ولكن الأب لم يصغ الى جواب ابنه ، وكان قد نسي السؤال الذي ألقاه عليه .

قال العجوز بدون تمهيد :

— خرج ايفان . انه يهيئ جميع المكائد لينتزع من ميتكا خطيبته .

ثم أضاف يقول بخبث وقد لوى شفتيه على ابتسامة مكشرة :

— وذلك هو الهدف الوحيد الذي بقي من أجله هنا .

فسأله أليوشا :

— هل باح لك بهذا بنفسه ؟

— طبعا . قال لي ذلك منذ زمن طويل . ماذا كنت تظن اذن ؟ اعترف لي بهذا منذ ثلاثة اسابيع . ما أحسب أنه جاء الى هنا ليذبحني خفية هو أيضا . فلا بد ان يكون هنالك سبب يدفعه الى المكوث في هذه المدينة .

سأله أليوشا مضطربا اضطرابا شديدا :

— ولكن ما هذا الذي تقوله ؟ لماذا تتكلم هكذا ؟

— صحيح انه لم يطلب مني مالاً ، ولن أعطيه شيئا على كل حال . انني أريد ، يا ألكسي فيدوروفتش المحترم جدا ، أن أعيش في هذا العالم أطول عمرٍ ممكن . . ضع هذا في ذهنك ! . . لذلك سأكون في حاجة كبيرة الى كل كوبيك مما املك . — ثم اضاف وهو يذرع الغرفة ، واضعا يديه في جيبي معطفه الفضفاض المتسخ المصنوع من نسيج صيفي خفيف أصفر اللون . — وكلما طعنت في السن وتقدمت في الشيخوخة ازدادت حاجتي الى المال . أنا الآن ما أزال رجلا ، فعمري لا يزيد على خمسة وخمسين عاما ، وأريد أن أعيش عشرين سنةً أخرى دون أن أتنازل عن رجولتي . واذ أنني سأشيخ طبعا ، فسأصبح منفراً ، فلا يأتين اليّ من تلقاء أنفسهن راضيات ، فيصبح المال عندئذ ضرورة لا بد منها . لذلك تراني الآن أجمع أكبر مقدار ممكن من الثروة لنفسي وحدها يا بني العزيز ألكسي فيدوروفتش . . . ضع هذا في بالك . . . ذلك أنني أعزم عزماً قاطعا — اعلم هذا أيضا — على أن أسترسل في خلاعتي الى آخر أيام عمري . ان الخلاعة تلطف الحياة : جميع الناس يعيبون الخلاعة ، ولكنهم جميعا يتعاطونها . كل ما هنالك أنهم

يتعاطونها سراً على حين اننى أتعاطاها علانية . ان صراحتى وسذاجتى هما اللتان تعرضانى لهجوم ونقد تلك العصبة الفاسقة من الواعظين بالأخلاق . أما جنتك يا ألكسى فيدوروفتش فاننى لا أريدها لنفسى . . . اعلم هذا . . . وسيكون من غير الحشمة أن يذهب الانسان اللائق الى جنتك ، اذا وجدت هناك جنة . وفي رأيى أنا أن المرء ينام ثم لا يستيقظ ، ولا شىء بعد ذلك . صلّوا من أجلى بعد موتى اذا شئتم ، وان لم تشاءوا فـــلا تصلوا . . شيطان يأخذكم . . . تلك هى فلسفتى كلها . لقد تكلم ايفان بالأمس فأحسن الكلام ، رغم أننا كنا جميعا سكارى . ان ايفان انسان متبجح . ليس هو بالعالم قط . بل انه ليس على شىء من ثقافة حقيقية . انه لا يزيد على أن يسكت ، وأن يسخر من جميع الناس صامتا . ذلك كل ما يربح به ايفان هذا .

كان أليوشا يصغى الى أبيه دون أن يقول كلمة واحدة .

وتابع الأب كلامه قائلاً :

— لماذا لا يكلمنى أبدا ؟ انه اذا كلمنى كان يمثل تمثيلا ! انه وغد حقير ، أخوك ايفان هذا ! أما جروشكا فسأتزوجها متى حلا لى أن أتزوجها . ما دمت أملك المال فيكفى أن أريد حتى أبلغ كل شىء يا ألكسى فيدوروفتش ! وذلك بعينه هو ما يخشاه ايفان ! انه يراقبنى حتى لا أتزوج ، ويحض ميتيا على أن يتزوج جروشكا : هو يأمل أن يبعدنى عن هذه المرأة بهذه الوسيلة (كأننى سأورثه مالا حتى ولو لم أتزوج جروشكا) ومن جهة أخرى سيسلب ميتيا خطيبته الثرية اذا تسنى لميتيا أن يتزوج جروشكا . ذلك هو الحساب الذى يجريه . انه وغد ، صاحبك ايفان هذا !

قال أليوشا :

— ما أشد اهتياجك اليوم ! ان مرد هذا الى ما حدث لك بالأمس . فالأفضل أن ترقد فى السرير .

أجاب الأب العجوز يقول وكأن هذه الفكرة قد ساورت ذهنه فى هذه اللحظة وحدها :

— انك الآن تنصحنى فما أغضب . ولكن لو سمح ايفان لنفسه بأن يقول لى ما قلته أنت ، اذن لثارت ثائرتى معك وحدك انما أتيح لى أن أقضى لحظات لطيفة ، وأن أكون طيبا ، لأننى شرير فى العادة .

قال أليوشا مبتسما :

— ما أنت بشرير ، انك مخرِّب .

— اسمع يا أليوشا . لقد أردت اليوم أن أطلب اعتقال هذا اللص ميتكا ، ولا أدرى حتى الآن هل أعزم أمرى على ذلك أخيرا . أنا لا أجهل أن «الموضة» الرائجـــة الآن هى أن يُعدَّ احترام الأبناء آباءهم وهماً باطلاً وعادة سخيفة . ولكن القانون لا يجيز ، حتى فى عصرنا هذا ، أن يجرَّ ابن أباه العجوز من شعره ، وأن يركل وجهه فى عقر داره ، وأن يتباهى كذلك أمام شهود بأنه سيعود ليجهز عليه فيما بعـــد . فلو شئت لرميته فى السجن منذ هذا اليوم لما جرى بالأمس .

— وقد عدلت عن شكواه ، أليس كذلك ؟

— ثنانى ايفان عن عزمى . على أننى لا أحفل برأى ايفان ، وانما خطر ببالى شىء آخر .....

قال الأب ذلك ثم مال على أليوشا وتابع كلامه بلهجة البوح وهو يكاد يهمس همساً :

— لو اعتقل هذا الوغد ، لعلمتْ هى بأننى أودعته السجن ،

فهرولت تسعى اليه فورا . أما اذا رُوى لها اليوم أن هذا اللص قد أوشك أن يقتلني أنا الشيخ العجوز ، فقد تهجره وستعودني . . . ذلك هو طبعها الذى فطرت عليه : تحب أن تفعل نقيض ما يُنتظر منها ، بدافع حب المناقضة وحده ! انني أعرفها حق المعرفة ! بالمناسبة ، هل لك بقليل من الكونياك ؟ اشرب هذه القهوة الباردة ، سأضيف اليها ربع قدح من الكونياك فيطيب مذاقها .

— لا . . شكرا . . لا أريد . . سآخذ هذا الرغيف من الخبز اذا سمحت بذلك .

قال أليوشا هذا وتناول رغيفا صغيرا من الخبز أبيض ثمنه ثلاثة كوبيكات ، ودسَّه في جيب ثوبه . ثم أضاف يقول في خشية وهو يتفرس في وجه أبيه :

— أما الكونياك فلعلك تحسن صنعاً اذا عدلت عنه أنت أيضا .

قال الأب :

— أنت على حق . ان الكونياك يثيرني بدلا من أن يهدئني . لذلك لن أشرب الا كأسا واحدة . . كأسا واحدة . الكونياك هناك ، في الخزانة الصغيرة . .

وأدار مفتاح «الخزانة الصغيرة» ، فملأ كأساً ، وأفرغها في جوفه ، ثم أقفل الخزانة من جديد ، وردَّ المفتاح الى جيبه .

— يكفيني هذا . كأس واحدة لن تقتلني .

قال أليوشا وهو يبتسم :

— ها قد عدت طيباً .

— طيب ؟ همْ . . . اعلم أنني أحبك أنت دون أن أشرب شيئاً من الكونياك . . أما الأوغاد فانني اعاملهم كوغد

ايضا ! لم يذهب فانكا الى تشرماشنيا ! لماذا ؟ لأنه يريد أن يبقى هنا ليتجسس عليَّ : انه يحب أن يعرف هل سأعطى جروشنكا مالا كثيرا اذا هي جاءت . انهم جميعا أوغاد ! أما ايفان فانني لا أعترف به ابناً لي . من أين جاء ، هذا الوبش ؟ ان له نفساً غير نفوسنا ! أيظن أنني سأورثه شيئا من مال ؟ ألا انني لن أكتب حتى وصية . . اعلموا هذا ! . . وأما ميتكا فلأسحقنه كما تُسحق خنفساء قذرة . انه يتفق لي أن أسحق خنفساوات في الليل ، فتطقُّ طقيقاً جافاً حين تفطس ، فبهذه الطريقة سأسحقه ، صاحبك ميتكا هذا . . واذا قلت صاحبك ، فلأنك تحبه ولكن تعلقك به لا يقلقني . . على حين أنه لو أخذ ايفان يحبه لخشيت عندئذ على نفسي . غير أن ايفان لا يحب أحدا . انه ليس منا . ان أناسا مثل ايفان ليسوا بشراً مثلنا ، هم تراب أثارته الريح . . تذهب الريح ويعود يتساقط التراب . . . لقد خطرت ببالي فكرة سخيفة أمس حين أمرتك بأن تجيء اليوم . أردت أن أكلفك بأن تسأل ميتكا : هل اذا أنا نقدته الآن الف روبل أو حتى ألفين ، هل يوافق هذا الشقي ، هذا الشحاذ ، هل يوافق عندئذ على أن يبارح هذه المدينة خمس سنين ، بل خمساً وثلاثين سنة ، بدون جروشنكا طبعا ، متنازلاً عنها الى الأبد ؟

تمتم أليوشا يقول :

— سوف . . سوف . . أسأله . . واذا زدت المبلغ فجعلته ثلاثة آلاف ، فمن الجائز انه . . .

— خطأ ! لا تكلمه في هذا الامر الآن ! لا تقل له كلمة واحدة ، هل تسمع ؟ لقد غيَّرت رأيي منذ الأمس . هي فكرة غبية خطرت ببالي . لن أعطيه شيئا ، لن اعطيه كوبيكا واحدا ،

لأننى فى حاجة الى هذا المال أنا نفسى (كذلك صرخ الأب العجوز وهويحرك ذراعيه) . لسوف اعرف كيف اسحقه كما تُسحق خنفساء ، بدون هذا . لا تقصص عليه شيئاً ، والا فقد تراوده آمال . ثم انه ليس ثمة ما تفعله عندى . فاذهب الآن . ولكن قل لى : هل تريد خطيبتهُ ، هل تريد كاترينا ايفانوفنا تلك التى حرص أشد الحرص على أن يخفيها عنى ، هل تريد أن تتزوجه أم لا ؟ لقد ذهبت أنت اليها بالأمس فيما أظن ، أليس كذلك ؟

— انها لا تريد أن تتركه ، مهما يحدث .

— هؤلاء هم الرجال الذين تحبهم بنات الصالونات الرقيقات هاته ! انهن يحببن شبابا عابثين لاهين أوباشاً ! ثق ان هاته الآنسات الشاحبات لا يساوين شيئا . ما أكبر الفرق بينهن وبين . . الخلاصة ! آه ، لو كان لى عمره ووجهى ايام شبابى (لقد كنت اجمل منه فى الثامنة والعشرين من عمرى) . اذن لكانت لى غزوات وانتصارات مثله . . ألا انه لشقى ! أما جروشنكا فلن ينالها ، لن يحظى بها . لأمرغنَّه فى الوحل ! . .

استعر حنق العجوز من جديد وهو ينطق بهذه الكلمات . ثم قال بلهجة قاطعة :

— اذهب الآن . لا عمل لك اليوم هنا .

اقترب أليوشا من أبيه ليودعه ، وقبله فى كتفه . فسأله الأب دهشاً : — ماذا بك ؟ سوف نلتقى بعد الآن . ام تُراك تقدر أننا لن نلتقى قط ؟

— لم يخطر ببالى هذا . لقد قبلتك بغير نية ، وعلى غير قصد .

— ولا خطر ببالى أنا أيضا . . .

كذلك قال العجوز وهو ينظر الى أليوشا . وفيما كان أليوشا يبتعد صرخ الأب يناديه :

— اسمع ! اتسمعنى ؟ تعال الىَّ فى أقرب فرصة . سأذيقك ما أعده من حساء السمك ، هو حساء خاص ، لا كحساء اليوم ! تعال حتماً ، هل فهمت ؟ تعال غدا ، هل سمعت ؟ فى الغد !

وحين أغلق الباب وراء أليوشا ، اقترب العجوز من الخزانة الصغيرة مرة أخرى فأفرغ فى جوفه نصف كأسٍ اخرى دفعة واحدة . ثم دمدم وهو يتنحنح :

— لن اشرب بعد !

ثم أقفل الخزانة ، وردَّ المفتاح الى جيبه ، ومضى بعد ذلك الى غرفة نومه ، واضطجع على سريره وهو يشعر بأنه منهك مرهق . وسرعان ما نام .

٣

لقاء مع تلامذة

حدَّث أليوشا نفسه قائلا حين خرج من عند أبيه متجهاً نحو منزل السيدة خوخلاكوفا : «الحمد لله على أنه لم يُلق علىَّ أسئلة عن جروشنكا ، فلو فعل لاضطررت أن أحدثه عن مقابلة الأمس» . وقد قدرَّ أليوشا ، وهو يشعر بكثير من الشجن ، أن الأهواء قد ازدادت استعارا اثناء الليل ، وان الخصوم يستعدون

للمواجهة والمجابهة بقوى غضة جديدة ، وان الصبح قد طلع عليهم وهم أقسى قلباً وأعتى نفساً . قال يحدث نفسه : «الأب حانق سيء المزاج وقد نبتت فى رأسه فكرة لن يتخلى عنها . . . ودمترى ؟ لا شك أن كرهه قد اشتد رسوخا واصرارا منذ أمس ، وانه حانق سيء المزاج ايضا ، ولا شك أنه أخذ يبيت أمرا . . . أوه ! يجب عليَّ حتما أن أجده اليوم مهما كلف الأمر . »

ولكن أليوشا لم يتسع وقته للتفكير طويلا ! فقد وقعت له أثناء الطريق حادثة قد لا يكون لها فى الظاهر شىء من خطورة الشأن ، ولكنها أحدثت فى نفسه أثرا قويا جدا . كان قد اجتاز الميدان وانعطف الى زقاق يؤدى الى شارع «ميخائيلوفسكايا» الذى يوازى «الشارع الكبير» ، ولكن تفصله عنه قناة صغيرة (ان مدينتنا تقطعها فى جميع الاتجاهات قنوات صغيرة) ؛ وانه ليسير فى هذا الزقاق اذا هو يلمح تحت ، قرب الجسر الصغير ، عصبةً من التلاميذ هم جميعا أطفال تتراوح أعمارهم بين التاسعة والثانية عشرة فى أكثر تقدير . انهم عائدون من المدرسة ، يحملون على ظهورهم القماطر ، ويحمل بعضهم على الجنب كيساً من جلد له سيور طويلة يضعونها فوق الكتف . بعضهم يرتدى دراعة ، وبعضهم يرتدى معطفا قصيرا ، وبعضهم ينتعل جزمة عالية على ساقها أخاديد ، من تلك الجزمات التى يحب انتعالها الاطفال الذين يدللهم آباؤهم الأغنياء . وكان الاطفال يتناقشون بحرارة ، وكان يبدو أنهم أجمعوا أمرهم على شىء . ان أليوشا لا يمكن أن لا يحفل يوما بمنظر الاطفال ، فكذلك كان شأنه ايضا فى موسكو ؛ ولئن كان يؤثر الصغار الذين تحوم أعمارهم حول السنة الثالثة ، فان التلاميذ الذين هم

فى العاشرة او الحادية عشرة يعجبونه كثيراً ايضاً . لذلك احب فجأةً ، رغم الهموم التى كانت ترهق نفسه ، ان ينضم الى هؤلاء التلاميذ وأن يدخل معهم فى حديث . فلما اقترب منهم متفرساً فى وجوههم الموردة المنتعشة لاحظ ان كلاً منهم يحمل بيده حصاةً ، حتى أن بعضهم يحمل حصاتين اثنتين . ورأى فى الجهة الأخرى من القناة ، على مسافة ثلاثين خطوة من عصبة التلاميذ هذه تقريبا ، طفلا آخر واقفا قرب سياج من أوتاد . ان هذا الطفل تلميذ هو أيضا ، يحمل كيسه على الجنب ، وأغلب الظن أنه فى العاشرة من عمره وربما كان أصغر من ذلك سناً ، كما يدل على هذا طول قامته . كان الصبى يراقب عصبة التلاميذ الستة ، وهم رفاقه الذين خرج معهم من المدرسة لتوه ، ولكنه كما يبدو ، كان يعدهم اعداءه . انه يبدو شاحب الوجه عليل الصحة ، ولكن عينيه السوداوين تسطعان . تقدم أليوشا بضع خطوات أخرى ، فلما لمح صبيا أشقر مجعد الشعر متورد الوجه يرتدى دراعة سوداء ، نظر اليه بانتباه وقال له :

— ايامَ كنت أحمل أنا كيساً مثل كيسك ، كانت العادة أن نضعه فى الجنب الأيسر ، حتى تناله اليد اليمنى بسهولة أكبر . أما أنت فالكيس يتدلى عندك على الجهة اليمنى ، فلا تستطيع امساكه على وجه مريح .

وقد أبدى أليوشا هذه الملاحظة الجدية العملية بطريقة عفوية ، دون أن يعمد الى أية حيلة . ومن المؤكد على كل حال أن خير وسيلة لكسب ثقة طفل من الاطفال ، ولكسب ثقة عصبة من الاطفال خاصة ، هى أن تدخل فى الحديث معهم على الوجه الذى عمد اليه أليوشا ، أى أن تخاطبهم جادا

فى أمور محسوسة ملموسة جاعلا نفسك واقفاً على قدم المساواة معهم . وكان أليوشا يدرك ذلك بغريزته .

— ولكنه اعسر !

كذلك اسرع يجيب واحد من الصبية جرئ الهيئة ظاهر الصحة يبدو فى نحو الحادية عشرة من عمره . واخذ الصبية الخمسة الآخرون يحدقون الى أليوشا .

وقال تلميذ ثالث :

— وهو يستعمل يده اليسرى أيضا فى قذف الحجارة .

وفى تلك اللحظة نفسها سقط حجر على عصبة الاطفال ، فلامس الأعسر الصغير لكنه اخطأه رغم أنه قد قُذف بمهارة وقوة . ان ذلك الصبى المرابط فى الجهة الأخرى من القناة هو الذى رمى الحجر .

هتف جميع الصبية يقولون دفعة واحدة :

— هيَّا يا سمورِوف . سدِّد اليه . ارمه بحجر ! . .

ولكن سمورِوف (الصبى الأعسر) لم ينتظر أن يشجعه رفاقه هذا التشجيع ، وانما بادر الى الردِّ فورا ، فرمى الصبى الواقف فى الجهة الاخرى من القناة بحجر ، ولكنه لم يصبه ، وانما سقطت الحصاة على الارض . وسرعان ما ردَّ الصبى على ذلك ، فرمى الجماعة بحجر ثان ، ولكنه رمى فى هذه المرة مستهدفاً أليوشا ، فأصابه فى كتفه ، فأوجعه وجعاً شديداً . وكانت جيوب الصبى ملأى بالحصى ، فذلك ما يراه الرائى حتى على بعد ثلاثين خطوة ، لأنها كانت بارزة من تحت المعطف .

ضاح الصبية يقولون وهم يقهقهون :

— انه كان يسدد اليك انت ، اليك انت ! لقد استهدفك

خصيصاً . ألست من آل كارامازوف ؟ ألست من آل كارامازوف ؟ هيَّا بنا يا اولاد ، فلنحكم التسديد اليه جميعاً ، جميعاً فى هذه المرة !

وطارت حجارات ستة فى آن واحد معاً . فأصابت احداها الصبى فى رأسه ، فسقط ، ولكنه لم يلبث ان نهض واخذ يقصف حانقاً مسعوراً عصبة الصبية ، فكانت الحجارة تطير بلا توقف فى الاتجاهين . وكان جيوب عدة أطفال حول أليوشا ملأى هى أيضاً بقذائف .

صاح أليوشا يقول لهم :

— ما هذا الذى تفعلونه ؟ ألا تستحون ايها السادة ؟ أستة على واحد ؟ سوف تقتلونه !

ووثب أليوشا الى أمام ، ووقف فى مسار القذائف ليحمى بجسمه الصبى الواقف فى الجهة الأخرى من القناة . فهدأ ثلاثة اطفال او اربعة بضع لحظات .

وصرخ صبى يرتدى قميصا احمر يقول بصوت حانق :

— هو الذى بدأ ! انه وغد . لقد جرح كراسوتكين فى المدرسة بطعنة موسى . وتدفق دم كراسوتكين غزيراً . ولم يشأ كراسوتكين أن يشكوه . ولكن هذا يستحق عقاباً . .

— ماذا كان السبب ؟ لا شك انكم شاكستموه فى البداية ، أليس كذلك ؟

صاح الأطفال يقولون :

— ها هو ذا قد ضربك مرة أخرى فى الظهر . لقد عرفك . انه يستهدفك أنت الآن ولا يستهدفنا نحن . هيَّا بنا ! عليه يا أولاد ! لا تخطئه يا سمورِوف !

وعاد القصف يتتالى من الجهتين ، اشدَّ هولاً فى هذه

المرة . فأصيب صدر الصبي الواقف في الجهة الأخرى من القناة ، فأطلق صرخة ألم ، وأخذ يبكي ، ثم هرب راكضاً نحو قمة الرابية في اتجاه شارع ميخائيلوفسكايا ، فأخذت عصبة الصبية تقول مولولة : «آه . . خاف . . هرب . . جبان . . خرقة مبللة !»

وعاد الصبي الذي يرتدي دراعة ، عاد يقول لأليوشا وقد اشتعلت عيناه بحمى :

— انت لا تعرف حتى الآن اى سافل هو هذا الصبي يا كارامازوف . ان قتله قليل عليه .

وكان واضحاً ان هذا الفتى هو أكبر أفراد العصبة سناً .

— ماذا تأخذون عليه ؟ أهو واشٍ مثلاً ؟

تبادل الصبية نظرة تنسم بالسخرية .

وتابع الصبي نفسه كلامه فقال :

— أأنت ذاهب في اتجاهه ، نحو شارع ميخائيلوفسكايا ؟ ادركه اذن . . . أنظر ! لقد توقف . . يبدو عليه أنه ينتظر . . . وهو يتفرس فيك .

وردد الصبية الآخرون يقولون جوقة واحدة :

— هو يتفرس فيك ، يتفرس فيك .

— أدركه اذن . . . واسأله هل يحب ليفة الحمام ! اسأله هذا السؤال ، هذا السؤال بالذات .

ما ان سمع الصبية هذا الكلام حتى انفجروا ضاحكين .

فنظر اليهم أليوشا ونظروا اليه صامتين .

وصرخ سموروف يقول له محذراً :

— اياك أن تذهب اليه ، فلسوف يضربك . . .

قال أليوشا :

— لن أكلمه ، ايها السادة ، عن ليفة الحمام ، لأنني أظن أنكم تشاكسونه وتغيظونه بهذه الكلمة . . ولكنني سأعرف منه لماذا تكرهونه هذا الكره . . .

فأجابه الصبية ضاحكين :

— فاسأله اذن ، اسأله !

عبر أليوشا الجسر الصغير ، واتجه الى قمة الرابية ، ماراً قرب سياج الأوتاد ، بحيث يصل الى الصبي المغضوب عليه .

قال الاطفال يحذرونه مرة أخرى وهو يبتعد عنهم :

— انتبه ! انه لا يخاف منك ، وسوف ينبجس فجأة ليطعنك خفية ، كما فعل بكراسوتكين .

كان الصبي ينتظره دون أن يتحرك من مكانه . فلما اقترب أليوشا كل الاقتراب رأى أمامه طفلاً في التاسعة من عمره على أكثر تقدير ، ضعيفاً هزيلاً له وجه مستطيل تسطع فيه عينان واسعتان دكناوان ترشقانه بنظرات شريرة . انه يرتدي معطفاً عتيقاً جداً أصبح صغيراً على قامته وجعل منظره مضحكاً ، وذراعاه العاريتان تخرجان من الكمين المسرفين في القصر . وعلى السروال ترى رقعة عند الركبة اليمنى . كان ثقب فاغر في حذاء القدم اليمنى ، في مكان الابهام ، مطلياً بالحبر من قبيل الاخفاء . وجيبا المعطف منتفخان بما فيهما من حجارة .

وقف أليوشا على بعد خطوتين منه ، وألقى عليه نظرة سائلة ، فأدرك الصبي من نظرته فوراً أنه لا ينوي ان يضربه . فبدا عليه شيء من التأنس ، حتى لقد بدأ هو الكلام :

— أنا واحد وهم ستة . . . ولكنني سأغلبهم دون أية مساعدة .

قال ذلك واشتعلت عيناه فجأة .

قال أليوشا :

— لا شك أن احدى تلك الحجارات قد أوجعتك كثيرا .

فهتف الصبى يقول :

— ولكننى اصبت سموروف فى رأسه !

سأله أليوشا :

— هم يزعمون أنك تعرفنى ، وأنك رميتنى بالحجر عامدا . فلماذا ؟

لم يجب الطفل وانما ألقى على اليوشا نظرة قاتمة .

قال أليوشا ملحاً :

— أما أنا فلا أعرفك ، فهل تعرفنى أنت ؟

فصرخ الصبى فجأة يقول بعصبية وببريق غاضب فى عينيه ولكن دون ان يتحرك فكأنه ينتظر شيئا ما :

— دعنى وشأنى !

قال أليوشا :

— طيب . سأنصرف . ولكن لاحظ أننى لا أعرفك ولم أشاكسك أبدا . وقد ذكروا لى كيف يشاكسونك ، ولكنى لا أنوى أن أفعل ذلك . استودعك الله !

ومضى أليوشا .

— راهب منافق ! انك ترتدى تحت مسوحك سروالاً !

بهذا الكلام قذف الصبى أليوشا وهو يتابعه بنظرة كارهة متحدية ، ووقف وقفة متحدية ايضا ، لاعتقاده بأن أليوشا لا بد أن يهجم عليه الآن . ولكن أليوشا لم يزد على أن التفت الى وراء ، فنظر الى الصبى صامتا ، ثم ابتعد . . . ومع ذلك فانه ما كاد يسير ثلاث خطوات حتى شعر بألم شديد فى ظهره . لقد أصابه الصبى بأثقل حصاة كان يحملها فى جيوبه ؛ فالتفت

أليوشا من جديد ، فقال للصبى :

— آ . . . تهاجم من خلف ؟ لقد صدق الصبية اذن حين ذكروا انك تهاجم خلسة !

غير أن الصبى وقد استبد به غيظ شديد قد رماه فى هذه المرة بحجر على وجهه ، فلولا أن أليوشا سارع يحمى وجهه بذراعه ، اذن لأصيب وجهه ، وهكذا أصاب الحجر كوعه .

هتف أليوشا يقول له :

— الا تستحى ؟ ماذا فعلت لك ؟

صمت الصبى جامدا فى مكانه وقد لاح فى وجهه التحدى والانتظار بأن أليوشا سيهجم عليه فى هذه المرة ، فلما أدرك أن أليوشا لا يخطر بباله ، حتى بعد هذه الضربة ، أن يهاجمه ، استبد به حنق مسعور كوحش صغير مفترس ، فوثب هو نفسه على أليوشا . وقبل أن يتسع وقت أليوشا للقيام بأية حركة ليدافع عن نفسه كان الولد الشقى قد خفض رأسه فأمسك ذراع أليوشا اليسرى بكلتا يديه ، وعض اصبعه الاوسط عضةً قاسية رهيبة ، غارساً اسنانه فى لحم الاصبع بكل ما اوتى من قوة مدة عشر ثوان .

صرخ أليوشا من شدة الألم ، وحاول أن يسحب اصبعه من بين أسنان الصبى . فلما أرخى الصبى أسنانه أخيرا ، أسرع يهرب ثم وقف على مسافة من أليوشا هى المسافة السابقة نفسها . كانت العضة قوية ، قريبة من الظفر ، قد وصلت الى العظم . انبجس الدم من اصبع اليوشا ، فأخرج منديله وربط به الجرح ربطاً قوياً ، فقضى فى هذا التضميد دقيقة كاملة . وفى أثناء ذلك ظل الصبى واقفا فى مكانه ينتظر . وعندئذ رفع أليوشا رأسه ، وألقى عليه نظرة هادئة وقال له :

— هل رأيت الجرح العميق الذى أحدثته فى اصبعى ؟ أحسب أن هذا كاف ، ألا ترى هذا الرأى ؟ فقل لى الآن : بماذا أسأت اليك ؟

فنظر اليه الصبى مشدوها . وتابع أليوشا كلامه يقول بتلك اللهجة الهادئة نفسها :

— انا لا أعرفك . وهذه أول مرة أراك فيها . . ومع ذلك لا أستطيع أن أتصور أننى لم أسىء اليك أية اساءة ، فلولا أننى أسأت اليك لما عذبتنى هذا التعذيب بغير سبب حتما . فما هو الذنب الذى اقترفته فى حقك ، وما هو الشر الذى أنزلته فيك ، قل لى ! . .

ولكن الصبى ، بدلا من ان يجيب ، اخذ يبكى بكاء قويا جدا على حين فجأة ، ثم ولّى هارباً . . . وتبعه أليوشا بخطى بطيئة ، متجهاً نحو شارع ميخائيلوفسكايا ، وظل مدة طويلة يرى أمامه الطفل الهارب لا يخفف سرعته ولا يلتفت الى وراء ولعله ما يزال يبكى . وعزم أليوشا عزماً قاطعاً على أن يسعى الى رؤية الطفل متى أتيحت له لحظة من حرية ، ليجلو هذا السرّ الذى أحدث فى نفسه اثراً قوياً . أما الآن فان وقته لا يتسع لهذا .

٤

فى منزل اسرة خوخلاكوف

لم يلبث اليوشا أن وصل الى منزل السيدة خوخلاكوفا وهو مبنى أنيق من حجر ، مؤلف من طابقين ، تملكه السيدة

خوخلاكوفا . انه من أجمل مبانى مدينتنا . ورغم أن السيدة خوخلاكوفا قد عاشت أكثر وقتها فى مقاطعة اخرى تملك فيها ضيعة ، وعاشت كذلك فى موسكو حيث تملك بيتا خاصا ، فقد احتفظت بالمنزل الذى تملكه فى مدينتنا والذى ورثته عن آبائها وأجدادها . يجب أن نذكر مع ذلك ان ضيعتها فى مدينتنا هى أوسع الضيعات الثلاث التى تملكها . ورغم هذا لم تكن السيدة خوخلاكوفا قد أقامت بمدينتنا الا نادرا حتى الآن . هرعت السيدة خوخلاكوفا تستقبل أليوشا فى غرفة المدخل ، وسألته بسرعة عصبية :

— هل تلقيت ، هل تلقيت رسالتى بشأن المعجزة الجديدة ؟

— تلقيتها .

— هل نقلت النبأ ، هل أطلعت الناس على الرسالة ؟ لقد ردَّ الشيخ الى هذه المرأة ابنها !

قال اليوشا :

— سيموت الشيخ فى هذا اليوم .

— أعلم ، أعلم ، لقد قيل لى هذا . آه . . . ما أشد رغبتى فى التحدث اليك ! ما أشد رغبتى فى التحدث عن جميع هذه الأشياء اليك ، أو الى شخص آخر . . بل اليك اليك أنت ! خسارة أننى لا أستطيع أن أزوره ! ان المدينة كلها مضطربة ، جميع الناس ينتظرون . . . ولكن هل تعلم أن كاترينا ايفانوفنا هى الآن عندنا ؟

هتف أليوشا قائلا :

— صحيح ؟ هذا حظ موفق ! سأراها اذن عندكم . لقد اصرّت أمس أن أزورها اليوم .

— أعرف هذا . أنا على علم بكل شىء . لقد رُوى لى ما حدث فى منزلها بالأمس تفصيلاً . . . عرفت كل فظاعات تلك . . . المخلوقة ! C'est tragique,[1] لوكنت فى مكانها . . . حقا اننى لا أعرف ماذا كان يمكن أن أفعل فى هذه الحالة ! ولكن ما رأيك أيضا فى أخيك هذا دمترى فيدروفتش ؟ آه . . . يا رب ! . . أصبحت لا أعرف ماذا أقول يا ألكسى فيدوروفتش : تصور أن أخاك موجود الآن هنا . . . لا أقصد اخاك ذاك نفسه ، أخاك ذاك الرهيب الذى فعل ما فعل بالأمس ، بل أخاك الآخر ايفان فيدوروفتش ! هو الآن هنا يتحدث معها . ان حديثاً مهيباً يدور بينهما . . . ليتك تعلم ما يجرى بينهما الآن ! شىء فظيع ، شىء فظيع ، أؤكد لك . . . تمزق حقيقى ! قصة لا يصدقها العقل ، حكاية لا يتصورها الخيال : كل منهما يضيع نفسه الآن ، لا يدرى أحد لماذا ! وهما يدركان ذلك ، ويجدان فيه نوعاً من لذة . أوه ! لقد انتظرت وصولك . . . كنت اتحرق الى أن أراك . يستحيل علىَّ ، يستحيل علىَّ اطلاقاً أن أشهد ذلك ! سأقص عليك هذا فيما بعد . ولكن يجب علىَّ الآن أن أقول الشىء الأساسى . آه . . . كدت أنسى أن ما علىَّ أن أقوله هو الشىء الأساسى . هل تستطيع أن تشرح لى لماذا أصيبت Lise بنوبة عصبية منذ قليل ؟ انها ما كادت تعلم بنبأ وصولك حتى ألمت بها نوبة هستريا !

— Maman ، أنت المصابة بنوبة هستريا الآن ، لا أنا .

[1] هذه فاجعة (بالفرنسية فى الأصل) .

بهذا ارتفع صوت Lise المزقزق ، من خلال شق الباب ، فى الغرفة المجاورة . ان شق الباب ضيق جداً والصوت يبدو متوتراً الى أقصى حدود التوتر ، حتى ليوشك أن ينكسر كما يحدث حين يحس المرء برغبة فى الضحك لا سبيل الى مقاومتها ثم هو يكظم ضحكته ويكبحها بكل ما أوتى من قوة . ولم يلبث أليوشا أن لاحظ هذا الشق ، فأيقن ان Lise تنظر اليه من خلاله ، جالسةً على مقعدها المتحرك ، ولكنه لا يستطيع أن يلمحها .

— لو أصبت بنوبة هستريا لما كان فى هذا غرابة يا Lise ، لما كان فيه غرابة البتة ! . . ان نزواتك المستمرة الدائمة ستجعلنى أصاب بهذه النوبة . ليتك تعلم يا ألكسى فيدوروفتش الى أى حد هى مريضة ! لقد لازمتها الحمى طوال الليل ، حتى كانت تئن ! . . ولم أكد أملك القدرة على الانتظار حتى هذا الصباح لاستشارة الدكتور هرتسنشتوبه . وقد أكد الدكتور أنه لم يفهم من الأمر شيئا ، وأن علينا أن نصبر ، فنرى كيف ستتطور حالتها . ان هرتسنشتوبه هذا يجىء فيصرخ فى كل مرة أنه لا يفهم من الأمر شيئاً ! وما ان اقتربت أنت من المنزل حتى أطلقت صرخة وألمت بها نوبة ، ثم طالبت بأن تنقل الى غرفتها القديمة هنا . . .

— ولكننى ، يا ماما ، لم أكن أعرف ابداً أنه هنا . فأنا لم انتقل الى هذه الغرفة بسببه هو .

— غير صحيح يا Lise ! لقد أسرعتْ يوليا تبلغك أن ألكسى فيدوروفتش قادم ، وكنتِ قد كلفتها بأن ترابط هنا لترقب وصوله .

— ماما ، يا حبيبتى ! ليس هذا الذى تدعينه بالدعابة

الفكهة . فاذا أردت أن تصلحي الخطأ وأن تقولي شيئاً يكون على جانب كبير من الذكاء فأبلغي ألكسي فيدوروفتش المحترم ، الذي وصل منذ هنيهة أنه قد أخطأه الذكاء حين قرر أن يجيء الينا اليوم بعد الذي حدث بالأمس ، وبعد أن أصبح جميع الناس يسخرون منه ويضحكون عليه .

— Lise ، انك تسرفين ! ثقي أنني سأتخذ في حقك اجراءات قاسية آخر الأمر . من ذا الذي يسخر منه أو يضحك عليه ؟ انني من جهتي سعيدة جدا برؤيته . أنا في حاجة اليه ، أنا لا غنى لي عنه . آه يا ألكسي فيدوروفتش ! ليتك تعرف مدى شقائي وتعاستي !

— ماذا بك يا ماما ، يا ملاكي ؟

— هي نزواتك يا Lise ، وتقلب مزاجك ، ووطأة مرضك وهذه الليلة الرهيبة التي عانيت فيها الحمى ، ثم هذا الطبيب القطيع الأبدي هرتسنشتوبه ، هذا الطبيب الأبدي خاصةً ، هذا الطبيب الابدي الابدي ، الابدي ! ثم كل شيء ، نعم ، كل شيء ، كل شيء اطلاقا . . . وحتى هذه المعجزة ! . . لا تستطيع أن تتصور يا عزيزي ألكسي فيدوروفتش مدى الاضطراب الذي أحدثته هذه المعجزة في نفسي ! ثم هذه التراجيديا التي تجري الآن في الصالون والتي يستحيل عليَّ احتمالها ، يستحيل ، يستحيل كل الاستحالة . . . أؤكد لك ذلك منذ الآن . ولعلها كوميديا لا تراجيديا ! قل لي : هل يعيش الأب زوسيما حتى الغد ، حتى الغد على الأقل ؟ آه . . . يا رب ! . . أصبحت لا أدري ماذا يقع لي . في كل لحظة أغمض عيني ، فأرى ان كل شيء تافه ، كل شيء تافه .

قاطعها أليوشا سائلا :

— هل أستطيع أن أرجوك أن تعطيني خرقةً نظيفة أعصب بها اصبعي ؟ لقد جُرحت جرحاً عميقاً يؤلمني الآن ايلاماً شديداً .

نزع أليوشا الضماد عن جرح العضة ، فكان المنديل أحمر من الدم ، فأطلقت السيدة خوخلاكوفا صرخة وأغمضت عينيها وغضنت حاجبيها .

— يا رب ! يا لهذا من جرح ! فظيع ! . .

ولكن ما ان لمحت Lise اصبع اليوشا من شق الباب حتى فتحت الباب بدفعة قوية ، وصاحت تقول بصوت آمرٍ صارم :

— ادخل الى هنا ، ادخل فورا ، لا محل الآن لتبادل أقوال سخيفة ! آه . . . يا رب ! كيف أمكنك ان تسكت عن هذا طوال هذه المدة ؟ كان يمكن أن يفقد دمه يا ماما ! كيف جُرحت هكذا ؟ هاتوا ماءً قبل كل شيء ، هاتوا ماء ! . . يجب أن نغسل الجرح أولاً ثم تغطس اصبعك في الماء البارد تهدئةً للألم . لن يكون عليك الا أن تبقي اصبعك مدة طويلة في الماء . . . اسرعي يا ماما ، هاتوا ماءً على الفور ، وهاتوا طستاً !

ثم صاحت تقول في عصبية :

— هلاَّ اسرعتم !

كانت ليزا مروَّعة جدا ، فقد أحدث جرح أليوشا في نفسها أثراً رهيبا .

هتفت السيدة خوخلاكوفا تقول :

— ألا يستحسن ان نستدعي الدكتور هرتسنشتوبه ؟

— سوف تقتلينني يا ماما ! ان صاحبك هرتسنشتوبه

سيجيء فيقول انه لم يفهم من الأمر شيئا ! هاتوا ماءً ، هاتوا ماءً ! هاتى الماء بنفسك يا أماه ، ناشدتك الله ، أو قولى ليوليا أن تسرع ! ان يوليا بطيئة دائما ، ولا تستطيع أن تقوم بما يجب القيام فى حينه . أسرعى يا ماما ، انك تميتيننى . . .

تدخل أليوشا يقول وقد اقلقه جزعهما :

— ولكن ليس هذا الجرح الصغير بشىء .

وهرعت يوليا فى تلك اللحظة حاملةً طستا مملوءاً بالماء . فغطس فيه أليوشا اصبعه .

— ماما ! ناشدتك الله ، هاتى لنا تسالة الكتان ، وهاتى لنا أيضاً من ذلك السائل العكر الذى يحرق والذى يستعمل فى مداواة الجروح . . لقد نسيت اسمه ! . . عندنا منــــه . . نعم ، عندنا منه . . أنت تعرفينها يا ماما . . . تلك القارورة الموجودة فى غرفتك ، فى الخزانة ، على اليمين . . ويوجد هنالك شاش ايضا . . .

— سأجىء لك به ، ولكن لا تصرخى ولا تضطربى يا Lise . انظرى كيف يحتمل ألكسى فيدوروفتش الألم صابراً ! ولكن أين جُرحت هكذا يا ألكسى فيدوروفتش ؟

وخرجت السيدة خوخلاكوفا مسرعة . وذلك بعينه ما كانت تنتظره Lise .

قالت لأليوشا متعجلة :

— أجب عن سؤالى أولا : أين جُرحت هذا الجرح ؟ ثم نتكلم بعد ذلك فى أمر آخر . هيه ؟

واذ أدرك أليوشا بفطرته أن الدقائق القليلة التى ستنقضى الى حين وصول الأم ثمينة جدا فى نظر ليزا ، فقد روى لها قصة لقائه الغامض بالتلاميذ ، فى عجلة مقتضباً مسقطاً

تفاصيل كثيرة ، ولكنه روى لها القصة مع ذلك واضحة دقيقة . فبعد ان اصغت Lise الى روايته ، ضمت يديها احداهما الى الأخرى ، وصاحت تقول غاضبة ، كأن من حقها ان تؤنبه وتقرعه :

— كيف أمكنك أن تتدخل فى أمر أولاد صغار وأنت فوق ذلك ترتدى مسوح راهب ؟ ألا انك لطفل صغير ، ألا انك لصبى غر أنت أيضا . . ومع ذلك اسأل عن هذا الولد الشقى ، ثم حدثنى بعد ذلك فى أمره ، فلا شك أن ههنا سراً . شىء آخر الآن . قل لى أولا يا ألكسى فيدوروفتش : هل أنت قادر رغم الألم على ان تتحدث فى أمور تافهة حقا ، شريطة أن تتحدث فيها جاداً ؟

— أنا قادر على ذلك كل القدرة . ثم اننى أصبحت لا أشعر بألم شديد فى اصبعى .

— لأنك غطستها فى الماء . يجب تغيير الماء حالاً ، لأنه يدفأ بسرعة . يوليا ! أسرعى الى القبو فائتينى بقطعة من ثلج ، وائتينى كذلك بطست آخر فيه ماء بارد . ها هــــى ذى قد مضت الآن فسأتحدث فى أمرى : هل لك أن ترد الىَّ فورا ، أيها العزيز ألكسى فيدوروفتش ، الرسالة التى بعثت بها اليك أمس ؟ هيَّا ردها الىَّ بسرعة ، لأن أمى قد تصل من لحظة لأخرى ، وأنا لا أريد لأمى ان . . .

— ليست الرسالة معى .

— كذب ! هى معك ! كنت أتوقع هذا الرد . . الرسالة معك ، فى هذا الجيب . ما كان أشد ندمى طوال الليل على هذه المزحة . رد الىَّ الرسالة فورا ! اعطنيها !

— تركتها هناك .

— لا تحسبنى طفلةً صغيرة ، صغيرة جداً ، بعد مهزلة هذه الرسالة . . . انها مهزلة خبيثة سيئة ! . . أرجوك أن تغفر لى هذا الشذوذ الأحمق . أما الرسالة فيجب ان تأتينى بها حتماً ، اذا هى لم تكن معك الآن . بل يجب ان تأتينى بها فى هذا اليوم نفسه ، حتما ، حتما !

— أما أن آتيك بها اليوم فهذا مستحيل . ذلك اننى عائد الى الدير ، ولن أراك قبل انقضاء يومين او ثلاثة وربما أربعة ، لأن الأب زوسيما . . .

— أربعة أيام ؟ هذا هراء ! قل لى بصراحة : هل سخرت منى كثيراً ؟

— لم أسخر البتة

— لماذا ؟

— لاننى صدقت كل ما كتبته تصديقا قاطعا .

— أنت تهيننى !

— أبدا . اننى بعد أن قرأت رسالتك قلت لنفسى فورا : لتجرينَّ الأمور على هذا النحو . فمتى مات الأب زوسيما ، سأضطر الى مغادرة الدير ، وسأستأنف دراستى ، وسأتقدم الى الامتحانات . حتى اذا انقضت المدة القانونية تزوجنا . وسوف احبك . فرغم اننى لم يتسع وقتى لأن أفكر فى الأمر ملياً ، قد قدّرت أننى لن أجد لنفسى زوجة أفضل منك ، وقد أمرنى الشيخ بأن اتزوج . . .

هتفت ليزا تقول وهى تنفجر ضاحكة ، بينما اشتعلت وجنتاها بحمرة شديدة :

— ولكننى دميمة ، مقعدة ينقلوننى فى الكرسى !

— سأجر الكرسى المتنقل بنفسى اذا لزم الأمر . ولكننى

على يقين من أنك ستكونين قد شفيت اثناء هذه المدة .

قالت ليزا بعصبية :

— ألا انك لمجنون ! أنا انما كنت أمزح ، فاذا بك تبنى على هذا المزاح مشاريع سخيفة مضحكة ! آ . . . هذه ماما قد رجعت . أحسب أنها عادت فى الوقت المناسب . ماما ، أنت دائما تتأخرين ! هذه يوليا قد جاءت بقطعة الثلج !

— أوه ! Lise ! لا تصرخى هذا الصراخ ! أستحلفك بالله ! . . ان هذا الصراخ يطيش عقلى . . . ليس ذنبى أنك قد دسست هذه النسالة فى غير الموضع الذى ذكرته لى . . . لقد بحثت عنها فى كل مكان فلم اظفر بها . . . انى لأتساءل ألم تفعلى هذا عامدة .

— تماما . . . عامدة ! لم يكن فى وسعى أن اتنبأ أنه سيصل بجرح فى اصبعه ، ولو قد تنبأت بذلك لاخفيت النسالة فعلاً ! ماما ، ملاكى الصغير ، انك تقولين اليوم فكاهات ظريفة حقا !

— ظريفة أو غير ظريفة ! المهم أننى اخذت أرى أنك لا تشفقين على ألكسى فيدوروفتش من جرحه ، كما لا تشفقين على أحد من شىء على كل حال ! ليتك تعلم يا عزيزى ألكسى فيدوروفتش مدى ما أقاسى من ألم وعذاب ! ليست هذه التفاصيل الصغيرة هى التى تقتلنى ، ليس هذا الطبيب هرتسنشتوبه وحده هو الذى يرهقنى . . . بل جملة الأمر . . . جملة الأمر . . . ذلك هو ما أصبحت لا أملك القدرة على احتماله .

قاطعتها ليزا تقول وهى تضحك مرحة :

— كفى كلاما عن هرتسنشتوبه يا ماما ! ناولينى النسالة والسائل . هو غسول بسيط من محلول الرصاص يا ألكسى

فيدوروفتش . . تذكرت الآن . . . ولكنه نافع جدا . اعلمى يا ماما أنه اقتتل فى الشارع مع صبية صغار ، وأن طفلا قد عضه فى اصبعه ! أليس هو نفسه صبيا صغيرا ؟ ما رأيك يا ماما ؟ هل يمكنه بعد هذا أن يتزوج ؟ ذلك أنه ينوى أن يتزوج يا ماما . . تخيلى هذا . . . هل تتصورينه متزوجا ؟ شيء يُميت من الضحك ! . . أليس هذا فظيعا ؟

وكانت Lise تضحك ضحكتها العصبى بلا توقف ، وهى تلقى على أليوشا نظرة ماكرة .

— ما هذا الذى تقولينه يا Lise ؟ كيف يمكنه أن يتزوج ؟ دعيك من هذه السخافات ! ثم ان هذا الامر لا يعنيك . . . أما ذلك الصبى الذى عضّه ، أفلا يمكن ان يكون مصابا بداء الكَلَب ؟

— ولكن يا ماما ، هل يوجد اطفال مصابون بداء الكلب؟

— ما هذا السؤال يا Lise ؟ لكأننى قلت اذن سخافة حمقاء ! ان من الجائز ان يكون الصبى قد عضه كلب مصاب بداء الكلب ، واصبح مصابا بداء الكلب ، فاذا هو يعض بدوره كل من يقتربون منه ! لقد ضمدت اصبعك تضميدا رائعا يا ألكسى فيدوروفتش ! ما كان لى أنا أن أتقن التضميد هذا الأتقان ! اما تزال تشعر بوجع ؟

— قليلا جدا .

وسألته Lise :

— الا تخشى الماء ؟

قالت الأم :

— لا تسرفى يا Lise . لقد تعجلت أنا حين تكلمت عن داء كلب بصدد ذلك الصبى ، فأخذت تستنتجين

استنتاجات ! يا ألكسى فيدوروفتش ان كاترينا ايفانوفنا ، وقد علمت الآن انك هنا ، تصرّ على أن تراك حالاً . . . انها تتحرق الى التحدث اليك !

قالت ليزا :

— اذهبى اليها وحدك يا ماما ! اما هو فانه لا يستطيع ان يمضى اليها الآن ، لأن اصبعه توجعه كثيرا . .

فقاطعها اليوشا قائلا :

— كلا ! . . اننى لا اشعر الآن بوجع . فى امكانى أن أذهب اليها . . . .

— ها ! . . تذهب ؟ أهكذا اذن ؟ هكذا ؟

— ولم لا ؟ متى فرغت من الحديث معها عدت الى هنا ثانية ، فاستطعنا أن نتكلم عندئذ ما شئت أن نتكلم . اننى أحرص فى الواقع حرصا شديدا على أن أرى كاترينا ايفانوفنا بأقصى سرعة ، لأننى أريد أن أرجع الى الدير فى أقرب وقت .

— خذيه يا ماما ، وقوديه اليها بسرعة ! ويا ألكسى فيدوروفتش ، وفّر على نفسك عناء العودة الىّ بعد مقابلة كاترينا ايفانوفنا . ارجع الى ديرك رأساً ، فهنالك انما يطيب لك المقام أكثر مما يطيب لك فى أى مكان آخر ! أما أنا فأحب أن أنام ، لأننى قضيت فى البارحة ليلة بيضاء .

هتفت السيدة خوخلاكوفا تقول :

— انت تمزحين يا Lise ! ومع ذلك سأكون سعيدة جدا اذا أنت استطعت أن تنامى قليلاً .

وتمتم أليوشا يقول :

— لا أدرى ماذا فعلت حتى . . . وعلى كل حال ، سابقى معك ثلاث دقائق أخرى ، بل وحتى خمس دقائق

اذا كنت تحرصين على ذلك .

— وحتى خمس دقائق ؟ ياه ! . . خذيه يا ماما . ماذا تنتظرين ؟ انه غول حقيقى !

— Lise ! انت مجنونة ! هيَّا بنا يا ألكسى فيدوروفتش ! انها اليوم شديدة النزوات ، وأخشى أن نثير أعصابها . . . ما أشقى التعامل مع نساء عصبيات يا ألكسى فيدوروفتش ! على كل حال ، لعلها شعرت حقا بحاجة الى النوم اثناء حديثكما . ماذا فعلت حتى استطعت أن ترد اليها النعاس بهذه السرعة ؟ ذلك توفيق فى الواقع ! . .

— مرحى يا ماما ! هأنت ذى الآن تقولين كلاماً لطيفاً ! أحب أن أقبلك .

— وأنا أيضا يا Lise !

كذلك قالت السيدة خوخلاكوفا لابنتها ثم أضافت تخاطب أليوشا وهما يخرجان من الغرفة :

— اصغ اليَّ يا ألكسي فيدوروفتش . . .

وراحت تكلمه متعجلة بصوت خافت ، فيه غموض وأهمية .

— لا أريد أن أؤثر فيك . . . لن أزيح الحجاب قبل الأوان ، ولكنك سترى بعينك كل ما يجرى الآن هناك ، وستحكم عليه بعقلك . شيء رهيب . تمثيلية عجيبة ! . . انها تحب أخاك ايفان فيدوروفتش ، ثم هى تحاول أن تقنع نفسها ، بكل ما أوتيت من قوة ، بأنها تحب أخاك دمترى فيدوروفتش . شيء فظيع ! سأدخل معك ، فاذا لم أطرد بقيت لأرى خاتمة هذا كله .

٥

التمزق فى الصالون

غير أن الحديث فى الصالون كان يشارف نهايته . ان كاترينا ايفانوفنا تبدو مضطربة اضطرابا شديدا ، رغم أن فى وجهها تعبيراً عن عزم وحسم . وحين دخل أليوشا والسيدة خوخلاكوفا كان ايفان فيدوروفتش ينهض استعدادا للانصراف . انه شاحب الوجه . لاحظه أليوشا فى قلق . ذلك أن أليوشا راحت تتضح له ، فى تلك اللحظة ، شبهة كانت تعذبه منذ زمن طويل ، ولغز مقلق كان يشغل باله . ان أشخاصا كثيرين كانوا قد أكدوا له مرارا ، منذ أكثر من شهر ، أن أخاه ايفان يحب كاترينا ايفانوفنا ، وأنه خاصةً ينوى أن «ينتزعها» من ميتيا فعلا . ولم يستطع أليوشا حتى هذه الأيام الاخيرة أن يصدق هذا الأمر ، لأنه كان يبدو له شاذا فظيعا ، غير أن تلك المزاعم كانت تقلقه مع ذلك . انه يحب أخويه كليهما ويخشى أن يقوم بينهما تنافس كهذا التنافس . على أن دمترى فيدوروفتش قد قال له من تلقاء نفسه أمس ان التنافس بينه وبين الاخ ايفان يسعده ويبهجه ، لأنه ييسِّر عليه الأمر كثيرا . وكان أليوشا يتساءل : اى أمر ؟ ألأنه يتيح له أن يتزوج جروشنكا ؟ ولكن هذا ، كما يعتقد أليوشا فعل يائس وحل رهيب . ثم أن أليوشا كان الى أمس مقتنعا اقتناعا جازما بأن كاترينا ايفانوفنا تحب أخاه دمترى حباً قوياً عارماً . ولكن هذا الاقتناع قد تزعزع فى نفسه الليلة البارحة . يضاف الى ذلك أنه كان يخيّل اليه ، دون أن يعرف لماذا ، ان كاترينا ايفانوفنا لا يمكن أن تحب رجلاً من نوع

ايفان ، وأنها انما تحب دمترى كما هو ، على علاته رغم ما فى هذا الحب من أمور مستحيلة سخيفة ! غير أن المشهد الذى جرى أمس مع جروشنكا قد أنبت فى نفسه على حين فجأة شعورا معارضا لهذا الشعور تماما . ان تعبير «التمزق» الذى استعملته السيدة خوخلاكوفا منذ لحظات قليلة قد جعل أليوشا ينتفض ، لأنه فى تلك الليلة نفسها ، اثناء «شبه النوم» الذى ينامه المرء عند الفجر ، قد كرّر كلمة «حب التمزق» هذه عدة مرات ، جوابا على أحلام لم تكد تتبدد . وكانت جميع أحلامه فى الليلة البارحة انما تدور على المشهد الذى وقع أمس فى منزل كاترينا ايفانوفنا . فلما قالت له السيدة خوخلاكوفا جازمة ان كاترينا ايفانوفنا انما تحب فى الواقع ايفان ، وانها تكذب على نفسها عمدا ، من باب التكلف ، من قبيل الميل الى «التمزق» وتعذّب نفسها بحبها المصطنع لدمترى بسبب اندفاعة شكران غامضة غير مفهومة ، اهتز أليوشا اهتزازاً قوياً واضطرب اضطراباً شديداً ، وتساءل : «ألا يمكن أن تكون هذه هى الحقيقة رغم كل شىء ؟» ولكن اذا صحّ هذا فما هو وضع ايفان ؟ لقد كان أليوشا يقدّر بفطرته وغريزته أن امرأةً مثل كاترينا ايفانوفنا تشعر بحاجة الى السيطرة والتسلط ، وهى لا تستطيع ان تمارس هذه السيطرة وهذا التسلط الا على رجل مثل دمترى ، ولا على شخصية من طراز ايفان . ذلك ان دمترى وحده قادر على الخضوع لسلطانها في آخر المطاف (لا على الفور طبعا ، بل بمرور الزمن) ، وذلك «يحقق له الخير كله» (وهو ما يتمناه له أليوشا) . ولا كذلك ايفان . فان ايفان لن يقبل الرضوخ فى يوم من الأيام ، ولن يجعله الخضوع سعيدا بحال من الاحوال ؛ أو هذا على الاقل ما كان أليوشا يقدّره على أساس الفكرة التى

قامت فى ذهنه عن ايفان . هذه الترددات وهذه الخواطر قد ازدحمت فى فكر أليوشا لحظة دخل الصالون . ثم هاجمته فكرة أخرى ، فاذا هو يتساءل : «فماذا لو كانت لا تحب لا هذا ولا ذاك ؟» ويحسن أن نلاحظ هنا أن أليوشا كان يشعر بخجل من خواطره هذه ، وأنه قد لام نفسه عليها مرارا أثناء هذا الشهر الأخير حينما حدث ان خطرت بباله : «ما معرفتى أنا بالنساء وبالحب ، وكيف أجيز لنفسى أن أطلق أحكاما من هذا القبيل ؟» كذلك كان أليوشا يقول لنفسه مستاءً كلما اتفق له أن يسترسل فى تأملات أو تخمينات فى هذا المجال . ولكن كان يستحيل عليه من جهة أخرى أن لا يفكر فى هذه المسائل . كان يدرك بغريزته ، مثلا ، أن هذا التنافس بين أخويه الآن يجثم ثقيلا على مصيريهما ، وأنه يحمل فى طياته عواقب ضخمة . «ان حشرة تفترس حشرة أخرى !» — كذلك قال ايفان بالأمس وهو يتحدث حانقاً عن أبيه وعن أخيه دمترى . معنى ذلك أنه يعدُّ أخاه حشرة ، ولعله يعده كذلك منذ زمان طويل . أفلا يمكن أن يكون قد أصبح يعده حشرة فى اللحظة التى عرف فيها كاترينا ايفانوفنا ؟ صحيح أن هذه الكلمة قد أفلتت من ايفان أمس على غير ارادة منه ، ولكن هذا نفسه يجعلها أصدق دلالة . فكيف يمكن والحالة هذه أن نأمل أن يحل السلام والوئام بينهما ؟ أليس فى هذا مزيد من أسباب العداء وعوامل الكره فى داخل الأسرة ؟ وتساءل أليوشا خاصة أيهما فى هذا النزاع أحق بالشفقة عليه والرثاء له ؟ وما الذى ينبغى أن يتمناه لكل منهما ؟ انه يحبهما كليهما . ولكن ما الذى يمكن أن يتمناه لكل منهما وسط هذه التناقضات الرهيبة ؟ لقد ارتبك عقل أليوشا أشد الارتباك بين خيوط هذا الظرف المعقد

المتشابك المشوّش . وهو انسان ذو قلب لا يطيق الحيرة ، لأن حبه يتصف دائما بأنه حب فعال . انه لا يعرف الحب الذى يقف ساكنا بغير حركة . فمتى أحب أصبح يحترق شوقا الى أن يبادر الى المساعدة ، ولا غنى له من أجل هذا عن أن يحدد لنفسه غاية ، وأن يعرف على وجه الدقة والوضوح ما هو خير وما هو ضرورة لكل من أخويه ، حتى اذا تأكد من صحة غايته كان لا بد له ، طبعا ، أن يساعد كلاً منهما . ولكنه لم يــر غاية دقيقة أمامه ، بل كان كل شيء حوله اضطرابا واختلاطا وابهاما . لقد ذُكر أمامه تعبير «الميل الى التمزق» أو «حب التمزق» . فكيف يؤول هذا التعبير ؟ يبدو أن الكلمة الأولى فى هذا الاختلاط كانت تفوت فكره .

ما ان دخل أليوشا فرأته كاترينا ايفانوفنا ، حتى أسرعت تقول لايفان فيدروفيتش الذى وقف استعدادا للخروج ، فرحة فرحا واضحا :

— لحظة أخرى ! لا تنصرف فورا . أحب أن أعرف رأى هذا الشاب الذى أمحضه ثقة مطلقة .

ثم أضافت تخاطب السيدة خوخلاكوفا :

— ابقى أنت أيضا يا كاترينا أوسيبوفنا .

وأجلست أليوشا قربها بينما اتخذت السيدة خوخلاكوفا مجلسها أمامهما الى جانب ايفان فيدوروفتش .

وبدأت تقول بحرارة ، والدموع التى يدرك المرء أنها تهمّ أن تسيل من عينيها ، تهدّج صوتها بانفعــال صادق أليم :

— أنتم جميعا أصدقائى ، أنتم أصدقائى الوحيدون فى هذا العالم . يا أصدقائى الأخيار ، الأعزاء . . .

أحسّ أليوشا فى تلك اللحظة أن المرأة الشابة قد غزت قلبه من جديد .

وتابعت كلامها تقول :

— لقد شهدتَ بالأمس ذلك المشهد يا ألكســى فيدوروفتش . . . شهدت ذلك المشهد الفظيع ، ورأيت كيف تصرفت أنا . . . أنت لم ترنى فى تلك اللحظة يا ايفــان فيدوروفتش ، أما هو فقد رآنى . لا أدرى ما الذى رآه فىّ من رأى فى تلك الظروف . ولكنى فى مقابل ذلك أعلم علم اليقين أننى لو وُجدت اليوم فى موقف مماثل لكان ردّى هو الرد الذى بدر منى أمس ، مع تلك العواطف نفسها ، وتلك الأقوال نفسها ، وتلك الحركات نفسها . انك تتذكر يا ألكسى فيدوروفتش الحركات التى بدرت منى أمس ، وقد اعتقدتَ أن من واجبك أن تثنينى . . . (احمر وجهها واشتعلت عيناها حين نطقت بهذه الكلمات) . فاعلم يا ألكسى فيدوروفتش ، وأنا أعلن لك هذا جازمة ، أننى عاجزة عن الاستسلام لأى شيء . واعلمْ أيضا يا ألكسى فيدوروفتش أننى أصبحت لا أدرى أأنا أحبه هو الآن أم لا . اننى الآن أشعر نحوه بشفقة ، والشفقة علامة حب سيئة واذا ظللت أحبه ، اذا ظللت أحبه رغم كل شيء ، فلن أشفق عليه ، وانما سأكرهه من غير شك . . .

أخذ صوتها يرتجف ، والتمعت دموع صغيرة فى أطراف أهدابها . واضطرب أليوشا . قال لنفسه : «هذه الفتاة انسان مخلص صادق ، و . . . قد أصبحت لا تحب دمترى !»

هتفت السيدة خوخلاكوفا تقول :

— هذا صحيح ، صحيح كل الصحة !

— انتظرى يا كاترينا اوسيبوفنا ! أنا لمّا أقل بعد الشيء

الأساسى ، لم أذكر القرار الذى اتخذته الليلة ولن أتراجع عنه . اننى أوجس أن قرارى هذا سيعود علىّ بعواقب رهيبة ، ولكننى أعلم أننى لن أنكص على عقبىّ ، لن أتقهقر الى وراء ، مهما يحدث ، بأية حال من الأحوال . لقد حسمت الامر على مدى حياتى كلها . وان صديقى المخلص الوفى ، ان ناصحى النبيل الطيب الذى يعرف قلبى معرفة عميقة ، ان ايفان فيدوروفتش الصديق الوحيد الذى أنعم بصداقته فى هذا العالم ، يؤيد رأيى تأييدا تاما ، ويطرى قرارى اطراءً كاملا . . . انه يعرف قرارى .

قال ايفان فيدوروفتش بصوت خافت لكنه حازم :

— أنا أؤيد هذا القرار . . . هذا صحيح .

— أحب مع ذلك أن يقول لى أليوشا (أوه . . . اغفر لى يا ألكسى فيدوروفتش اننى سميتك أليوشا ببساطة) ، أحب أن يقول لى ألكسى فيدوروفتش هو أيضا ، بحضور صديقىّ ، أأنا على حق أم لا ؟

وتابعت تقول بحماسة وهى تمسك بيدها الحارة يدَ أليوشا الباردة :

— أنا على يقين غريزى ، يا أليوشا يا أخى العزيز (ذلك أنك أخى العزيز) . . . أنا أحس سلفا أن قرارك وتأييدك سيعيدان السلام الى نفسى رغم كل ما أقاسيه الآن من ألوان العذاب ، واننى سأقبل مصيرى وأرتضى قدرى بعد أن أسمع لكلامك . . . نعم ، أنا أحس سلفا !

قال أليوشا وقد تخضب وجهه بحمرة قانية :

— لا أعرف موضوع سؤالك ، ولكننى أعرف على اليقين أننى أحبك بكل قلبى ، وأحرص على سعادتك أكثر من حرصى على سعادتى . . .

ثم أسرع يضيف فجأة ، لسبب ما :

— على أننى لا أفهم فى هذه الأمور شيئاً . . .

— فى هذه الأمور ، يا ألكسى فيدوروفتش ، المسألة الرئيسية الآن هى مسألة شرفٍ وكرامة وواجب ، وربما شىء آخر أيضا ، شىء سام لا أستطيع أن أعرّفه ، ولكنه قد يكون حتى فوق الواجب . هو نداء أعلى أسمعه فى قلبى ، وقوة لا تقاوَم تهيب بى أن ألبيه . وأُجمل فأقول اننى قد اتخذت قرارى ، واليك هذا القرار : هَبْه تزوج هذه . . . المخلوقة (هنا أصبح صوتها مهيباً) ، التى لن أغفر لها أبدا ، أبدا . . . فاننى لن أتركه هو ، حتى فى هذه الحالة ! لن أتركه بعد اليوم ، لن أتركه أبدا ! (كذلك قالت بنوع من حماسة متكلفة واهنة ممزقة القلب) . لن أتعلق بكمّه طبعا ، لن أحاصره بوجودى دائما ، لن أعذبه بحضورى أبدا . . . بالعكس . . . سأسافر الى مدينة أخرى ، الى مدينة ما ، اذا اقتضى الامر ذلك ، ولكننى سأظل أهتم به من بعد ، واسهر عليه طوال حياتى بلا كلل . فاذا شقى مع الأخرى — وذلك أمر لن يتأخر كثيرا — فلن يكون عليه الا أن يعود الىّ ، فيجد فىّ صديقة مخلصة ، أختاً حنونا . . . أختاً لا أكثر . . . طبعا . . . ذلك أن كل شىء بيننا لن يتجاوز هذه الحدود أبدا. ولكنه سوف يعلم أخيرا اننى أخت له حقا ، أخت مخلصة ضحّت فى سبيله بحياتها كلها . سوف أحسن التصرف بحيث يعرفنى أخيرا ، سوف أجبره على أن يعرفنى ، وسيصل من ذلك الى الاعتماد علىّ بلا خجل ! سأكون الاله الذى يصلى له : ذلك أقل ما يجب عليه لى تكفيرا عن خيانته وعمّا قاسيته أمس بسببه ! وليرَ فى جميع أيام حياته أننى سأكون وفية له الى الأبد ولعهدى له الذى قطعت على نفسى

مرة والى الابد ، رغم انه لم يكن وفيا لى وخانني . سأكون . . . وسأجعل نفسى أداة لسعادته (أحسب أننى لا أجيد التعبير عما بنفسى) ، سأجعل نفسى آلة تصنع له السعادة ، وذلك طوال حياتى ، طوال حياتى . . . ليرى هو هذا طوال حياته ! ذلك هو قرارى ! ان ايفان فيدوروفتش يؤيدنى تأييدا كاملا .

كانت تلهث . لا شك أنها كانت تتمنى أن تفصح عن نفسها افصاحا أرصن وأبرع وأكثر طبيعيا ، غير أن كلماتها قد تدفقت سريعة ، مترجمة عواطفها بلغة فيها كثير من الانطلاق المباشر العنيف . ان المرء يحس ، فى جميع ما قالته ، اندفاع شبابها وبقايا غضب الأمس وحاجاتها الى تأكيد عزتها وكبريائها من جديد . وقد أدركت هى ذلك على حين فجأة ، فأظلم وجهها وغار تعبير الطيبة من عينيها . ولاحظ أليوشا هذا ، فأخذته بها شفقة . وعزز ايفان من هذا الشعور فى تلك اللحظة قائلا :

— انا لم أعبّر الا عن رأيى الشخصى . ان عواطف من هذا النوع كان يمكن أن تبدو ، عند أية امرأة أخرى غيرك ، عواطف مصطنعة هى ثمرة جهد ارادى شاق أليم ، أما عندك أنت فلا . . . لو تصرفت امرأة أخرى هذا التصرف لكانت على خطأ ، أما أنت فلا . . . لست أدرى كيف أعبّر عن شعورى ، ولكننى ألاحظ أنك صادقة الى أبعد حدود الصدق ، فاستنتج من ذلك أنك على صواب . . .

فلم تستطع السيدة خوخلاكوفا أن تمنع نفسها من أن تقول :

— هى صادقة ، ولكنها صادقة فى هذه اللحظة وحدها . . وما هى هذه اللحظة ؟ انها ليست الا اهانة الأمس فحسب . ذلك هو معنى هذه اللحظة !

كان واضحا ان السيدة خوخلاكوفا لم تكن تريد أن تقحم

نفسها فى المناقشة ، ولكنها لم تستطع أن تكبح جماح نفسها ، فأفلتت منها هذه الملاحظة السديدة تماما .

فقال ايفان بعنف مكظوم ، وقد بدا عليه الاستياء والحنق من مقاطعته :

— صحيح . . . غير ان هذه اللحظة لا تكون لدى امرأة أخرى الا اندفاعا مؤقتا مرده الى حادث الامس ، والا لحظة واحدة فعلا ، اما لدى امرأة لها طبع كطبع كاترينا ايفانوفنا فستدوم هذه اللحظة مدى الحياة . ان ما يمكن أن لا يكون من فتاة عادية الا وعداً ما يلبث أن يُنسى ، لا بد أن يصبح لدى فتاة مثل كاترينا ايفانوفنا واجباً باقياً والتزاماً مستمرا قد يكون قاسيا أليما حزينا ، ولكنه لامفر منه ولا عدول عنه . ان كاترينا ايفانوفنا ستحيا على هذا الشعور بأنها قامت بواجبها ! ان حياتك يا كاترينا ايفانوفنا ، ستنقضى بعد اليوم فى تأمل أليم لعواطفك وبطولتك وشقائك . على أن هذا الشقاء ستخف وطأته مع الزمن ، وسيستحيل شيئاً فشيئاً الى رضى هادئ عذب عن أنك عرفت كيف تخلصين حتى النهاية لقرار حاسم فيه كبرياء . . . نعم فيه كبرياء بمعنى من المعانى ، ولكن فيه يأس فى الدرجة الأولى . . . وستنتصرين آخر الأمر . . . وسيملؤك هذا الشعور يومئذ بفرح هادئ وغبطة ناعمة ، وسيصالح بينك وبين كل ما عدا ذلك . . .

تكلم ايفان بلهجة نافذة فيها غضب مكبوح . وكان واضحا أنه يسخر وأنه لا يريد أن يتخفى ، ولعله كان يتمنى أن تُدرَك سخريته .

هتفت السيدة خوخلاكوفا تقول :

— هذا كله خطأ ، هذا كله زيف !

فقالت عندئذ كاترينا ايفانوفنا وقد أخذت الدموع تسيل على خدها :

— ألكسى فيدوروفتش ! هلاّ قلت رأيك أخيرا ! اننى أشعر بحاجة شديدة قاهرة الى معرفة رأيك !

نهض أليوشا عن الديوان .

وتابعت كاترينا ايفانوفنا كلامها قائلة من خـــلال دموعها :

— ليس هذا بشىء ، ليس هذا بشىء البتة ! انه نتيجة للارهاق العصبى وهذه الليلة التى قضيتها أرقة مسهّدة . ولكننى ، بحضور صديقين مثلكما أنت وأخيك ، أشعر بأننى قوية . . . ذلك لأننى أعلم . . . أنكما لن تتركانى أبدا .

قال ايفان فيدوروفتش فجأة :

— آسف . . . قد أضطر أن أسافر الى موسكو منذ الغد ، وأن أتركك فترة طويلة . . . وهذا ، للأسف ، لا يمكـــن تغييره . . .

— الى موسكو ؟ منذ الغد ؟

قالت كاترينا ايفانوفنا ذلك وتقبض وجهها . ثم اردفت تهتف قائلة بصوت تغير فجأةً ، وقد كفت دموعها عن المسيل حتى أصبحت آثارها لا تُرى :

— ولكن . . . ولكن هذا يقع . . . يجىء فى وقته ! يا رب !

فما كان أشد دهشة أليوشا لهذا التغير المذهل الذى حدث فى نفسها ! ان الفتاة الشقية المهانة التى كانت تبكى عواطفها منذ برهة ، وهى فى حالة توتر ممزق ، قد حلّت محلها الآن امرأة تسيطر على نفسها كل السيطرة ، وتبدو راضيةً ذلك الرضى

الذى يعقب فرحاً مباغتاً .

وسرعان ما استدركت تصحح موقفها وهى تبتسم ابتسامة مهذبة :

— اوه . . . لا يذهبنّ بك الظن الى أننى ابتهجت لتركك . . . طبعا لا . . . ان صديقا مثلك لا يمكن أن يذهب به الظن هذا المذهب ، بالعكس : اننى لأحـــزن أشد الحزن حين أتصور أننى سأفقدك (قالت ذلك واندفعت نحو ايفان فيدوروفتش ، فأمسكت يديه وشدتهما بكثير من الحرارة) . ولكنه حظ سعيد موفق أن تستطيع أن تشرح بنفسك لعمتى ولأختى آجافيا ، فى موسكو ، الظرف الذى أنا فيه . حدثهما عن فظاعة الأيام التى عشتها هنا ، فأما مع آجافيا فبصراحة ، وأما مع عمتى العزيزة فبشىء من المداراة . وانى لواثقة على كل حال من أنك ستجد بنفسك الصيغة المناسبة لاطلاعهما على حقيقة الأمور . لا تستطيع أن تتصور مدى ما عانيته أمس واليوم من عذاب وأنا أتساءل كيف أتدبر أمرى لأكتب اليهما هذه الرسالة الرهيبة . . . ذلك أن من المستحيل على المرء أن يروى هذه الاشياء كتابةً . . . أما الآن فقد أصبح الأمر سهلاً : ستلقاهما بنفسك فتشرح لهما كل شىء ! آه . . . ما أسعدنى ! هذا هو السبب الوحيد فيما رأيت من فرحى . صدقنى . وانك لتعلم أنت نفسك على كل حال ، أنه ما من شىء يمكن أن يحل عندى محلّ صداقتك . . .

وختمت كاترينا ايفانوفنا كلامها قائلة وهى تتجه نحو باب الغرفة :

— سأكتب الرسالة حالا .

فسألتها السيدة خوخلاكوفا بلهجة لاذعة حانقة :

— وأليوشا ؟ أليوشا الذى كنت تحرصين ذلك الحرص كله على أن تعرفى رأيه ؟

فتوقفت كاترينا ايفانوفنا وأجابتها قائلة :

— ما نسيته .

ثم سألتها بلهجة عتاب فيها مرارة حمية :

— ولكن لماذا ، لماذا تظهرين لى الآن هذه العداوة كلها يا كاترينا أوسيبوفنا ؟ ما زلت مصرّة على ما قلته . أننى لا غنى لى عن معرفة رأيه . بل اننى أريد منه أكثر من هذا : أريد منه ان يتخذ لى قرارا ! وسأتبع ما ينصحنى بـــــه . فانظر يا ألكسى فيدوروفتش الى أى مدى أنا فى ظمأ الى سماع كلامك . . ولكن ماذا بك ؟

صاح أليوشا يقول فى ألم :

— ما كان لى أن أفكّر فى هذا فى يوم من الأيام ! ما كان لى أن أتخيل هذا فى يوم من الأيام !

— ماذا ؟

— يسافر الى موسكو ثم تهتفين قائلة : ما أسعد ذلك ! لقد قلت هذا عامدةً ! وما كدت تقولينه حتى استدركت تؤكدين له أنك لا تغتبطين لسفره ، وأنك على عكس ذلك يُحزنك . . فقد صديقك . وهذا أيضا قلته عامدة . . . كما فى المسرح . . . كما لو كنت تمثلين تمثيلاً !

— كما فى المسرح ؟ كيف ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

كذلك هتفت كاترينا ايفانوفنا وقد بلغت أوج الدهشة . لقد احمر وجهها احمرارا شديدا ، وقطبت حاجبيها .

ظل أليوشا واقفا قرب المائدة دون أن يجلس واستأنف كلامه بأنفاس لاهثة :

— وفيما ترددين على مسامعه أنك حزينة لحرمانك من صديق عزيز ، تصرحين له وجهاً لوجه أن سفره الى موسكـــــو يملؤك ارتياحاً .

— ماذا تقصد ؟ اننى لا أفهم .

— أنا نفسى لا أعرف تماما . . . لقد تراءت لى الحقيقة فجأة كأنما فى ضوء برق . . .

وتابع أليوشا كلامه يقول بصوت يختلج ألماً حتى ليوشك أن ينكسر :

— أنا أحس أننى أرتكب خطأ اذا عبرت عن مشاعرى ، ولكننى سأقول ما بنفسى مع ذلك . اليك الضوء الذى رأيته : انك لا تحبين أخى دمترى . . . ولعلك ما أحببته أبدا . . . حتى منذ البداية . . . ثم أن دمترى أيضا لا يحبك . . . فيما أظن . . . لا هو يحبك الآن ، ولا هو أحبك منذ البداية . . وانما هو يقدرك ويحترمك فحسب . . . أننى أتساءل : ما الذى يجيز لى أن أكلمك هكذا . . . ولكن لا بد أن يعزم أحد أمره على أن يقول الحقيقة أخيراً . . . ما دام لا يريد أحد هنا أن يقولها . . .

صاحت كاترينا ايفانوفنا تقول بصوت فيه شىء من الهستريا :

— أى حقيقة تعنى ؟

فتمتم أليوشا يقول وهو يحس أنه يسقط من شاهق :

— اليك الحقيقة التى أتكلم عنها . استدعى دمترى — وأنا أعرف كيف أجده — استدعيه ، وليتناول يدك فيضعها فى يد أخى ايفان . انك لا تريدين على أن تعذبى ايفان ، وذلك بسبب بسيط ، هو أنك تحبينه . . . وأنت انما تعذبينه لشغفك بالتمزق . . . لأنك تخيلت حباً مصطنعاً لدمترى . . . حباً لا تشعرين به البتة . . . وتحاولين أن تقنعى نفسك به . . .

قال أليوشا ذلك ثم توقف عن الكلام فجأة وصمت .

— ما أنت . . . ما أنت الا أبله صغير . . . ما أنت الا عبيط . . . ذلك أنت !

كذلك قالت كاترينا ايفانوفنا بصوتها القاطع الجازم ، وقد شحب وجهها شحوباً شديدا وظهر على شفتيها انهما تنعقفان غضبا مسعورا . وأخذ ايفان فيدوروفتش يضحك في تلك اللحظة ، ونهض عن مكانه حاملاً قبعته بيده . وقال يخاطب أليوشا وقد ظهر في وجهه تعبير لم يره فيه أليوشا قبل ذلك يوما ، تعبير يفيض صدقاً كصدق المراهقين ، ويفيض صراحة منطلقة على سجيتها :

— أنت مخطئ يا عزيزي أليوشا . فان كاترينا ايفانوفنا ما أحبتني في يوم من الأيام ! وكانت تعلم منذ البداية أنني أحبها ، رغم أنني لم أحدثها في حبي قط . كانت تعلم ذلك ، ولكنها لم تحبني . لا ولا كنت صديقها في ظرف من الظروف . ان هذه المرأة المتكبرة لم تكن في حاجة الى صداقتي . وهي لم تحتفظ بي الى جانبها الا لتستطيع ارواء ظمئها الى الانتقام ، الا لتثأر مني ، نعم مني أنا ، لجميع الاذلالات والاهانات التي أنزلها فيها دمتري منذ أول لقاء بينهما . . . ذلك أن ذكرى هذا اللقاء الأول قد بقيت في نفسها اهانة أليمة وجرحاً بالغاً . هذه هي كاترينا ايفانوفنا ! أما أنا فلم يكن أمامي طوال الوقت سوى الاصغاء اليها متحدثة عما تحمله من حب لدمتري وسأنصرف الآن . ولكن اعلمي يا كاترينا ايفانوفنا أنك لا تحبين حقاً الا دمتري . وستحبينه مزيداً من الحب على قدر ما سيذلك مزيدا من الاذلال . ذلك هو تمزقك كله فأنت انما تحبينه كما هو ؛ أنت انما تحبين فيه الرجل الذي يهينك . ولو أصلح

نفسه في يوم من الأيام ، اذن لاشحت وجهك عنه فوراً ، ولكففت عن حبه حتماً . ولكنك محتاجه اليه ، كيما تستطيعي أن تتأملي منظر وفائك البطولي ، وكيما يتاح لك أن تأخذي عليه خياناته . وذلك كله زهواً وتكبرا . ان ههنا جحيما من مذلة تريدينها وتتحملينها ، والكبرياء هي سبب هذا الجحيم . . . انني ما زلت في ريعان الشباب ، ولقد أحببتك فأسرفت . والآن أدرك انه ما كان عليّ أن أقول ذلك وأن ابتعادي صامتا أحفظ لكرامتي أنا ، وأخف وطأة على جروحك أنت . ولكنني سأسافر الى مدينة نائية ، ولن أعود بعدئذ أبدا . اننا نفترق الى الأبد . . . لا أرغب في أن أكون شاهدا على تمزقاتك النفسية . . أحسب أنني لا أحسن التعبير الآن عما يعتلج في قلبي . لقد قيل كل شيء . . . فوداعاً يا كاترينا ايفانوفنا . وليس من حقك ان تواخذيني ، لأن العقاب الذي أناله أنا اقسى كثيرا من العقاب الذي تنالينه أنت . حسبي عقاباً أنني لن أراك بعد اليوم أبداً . وداعاً ! لا تمدي اليّ يدك . لقد آلمتني ايلاماً فيه من الوعي والعمد ما يجعلني لا أستطيع أن أغفر لك في هذه اللحظة . سوف أغفر لك في المستقبل ، اما الآن فلا داعي للمصافحة .

Den Dank Dame, begehr ich nicht [1]

أضاف ايفان ينشد هذا البيت من الشعر وهو يبتسم ابتسامة يجبر نفسه عليها اجباراً ، مبرهناً بهذا الاستشهاد ، على نحو لم يكن في الحسبان ، أنه يستطيع هو أيضا أن يقرأ الشاعر شيلر في هوى وشغف ، وأن يحفظ أبياتا من شعره على ظهر القلب ، وذلك أمر ما كان لأليوشا أن يتخيله من قبل . ثم خرج من الغرفة حتى دون أن يودع ربة البيت .

[1] بالشكر يا سيدتي لا أحفل . (بالالمانية في الأصل) .

صاح أليوشا يناديه بصوت تائه ، ضاماً يديه احداهما الى الأخرى : ايفان ، ارجع يا ايفان ، ارجع !

ثم أضاف يقول بمرارة كأنما رسخ فى نفسه يقين مباغت :

— لا . . . لا . . . انه لن يعود . . . لن يعود أبداً . . هى غلطتى ، هى غلطتى أنا . . . اننى بما قلته سبب هذا كله ! لقد قال ايفان اشياء شريرة ظالمة . . . هذا ظلم وغلّ ! . . .

وكان أليوشا يصيح بهذه الأقوال مفككة ، كمجنون .

وفى تلك اللحظة مضت كاترينا ايفانوفنا الى الغرفة المجاورة .

وهمست السيدة خوخلاكوفا مبتهجة مسرعة تقول لأليوشا المستغرق فى أسف ولوعة :

— ليس هناك ما تؤاخذ نفسك عليه . بالعكس : لقد تصرفت تصرفا رائعا كملاك . سأفعل كل ما يمكن أن أفعله حتى لا يسافر ايفان فيدوروفتش . . .

وقد أضافت هذه الجملة الأخيرة متحمسة ، وأشرق وجهها فرحاً ، رغم ما كان فيه أليوشا من حزن شديد . ولكن كاترينا ايفانوفنا رجعت فى تلك اللحظة من الغرفة الثانية حاملةً ورقتين نقديتين كلٌ منهما بمائة روبل .

وقالت تخاطب أليوشا مباشرة ، بلهجة تبدو هادئة طبيعية الى أقصى حد ، كأن شيئا لم يحدث :

— لى عندك رجاء كبير يا ألكسى فيدوروفتش . منذ أسبوع . . . نعم ، أحسب أن هذا وقع منذ أسبوع . . . ثار دمترى فيدوروفتش ثورة عنيفة ظالمة ، فأباح لنفسه ارتكاب فعلة كريهة . ان فى هذه المدينة مكانا مشبوها هو حانة من الحانات ، التقى فيها ، فى ذلك اليوم ، بضابط محال على التقاعد هو ذلك النقيب الركن الذى يستعين به أبوك فى

بعض شئونه . وقد غضب دمترى فيدوروفتش من هذا الرجل غضبا شديدا ، لا أدرى لماذا ، فأمسكه من لحيته وجرّه الى الشارع جراً سفيهاً على مرأى من جميع الناس ، وأخذ يقوده فى الشارع على هذا النحو خلال مدة طويلة . وقد ذكر الذين شهدوا الحادث ان ابن هذا النقيب الركن ، وهو صبى يختلف الى مدرسة المدينة ، صبى صغير فيما يبدو ، قد أخذ يركض الى جانب أبيه باكياً منتحباً ، متوسلاً الى أخيك ان لا يؤذى أباه ، متضرعا الى شهود الحادثة ان يتدخلوا لحماية أبيه ، ولكنهم جميعا كانوا يضحكون . معذرة يا ألكسى فيدوروفتش ! ولكننى لا أستطيع الا أن أشعر باستياء شديد حين أتذكر هذه الفعلة المخزية التى فعلها هو . . . وهى الفعلة المشينة التى لا يستطيع أن يقدم عليها أحد غير دمترى فيدوروفتش فى حنقه . . . وبأهوائه الجامحة ! بل اننى لأعجز عن رواية هذه الحادثة على النحو المناسب ، فذلك يفوق طاقتى . . . لذا ترانى أتيه فى سردها . وقد سألت عن الرجل الذى أهانه أخوك هذه الاهانة ، فعرفت أنه يعيش فى فقر مدقع وبؤس رهيب . ان اسمه هو سنيجيريف . لقد ارتكب خطيئة ما أثناء خدمته فى الجيش ، فسُرّح . . . لا أدرى تماما . . . وقد صار هو وأسرته البائسة ، أولاده المرضى وامرأته المجنونة فيما يقال ، صاروا أخيرا الى حالة رهيبة من العوز والفاقة . انه يعيش فى هذه المدينة منذ مدة طويلة ، وكان قد وجد وظيفة فى مكتب من المكاتب فيما يبدو ولكنهم قطعوا عنه راتبه على حين فجأة . عندئذ خطرتَ أنت ببالى . . . أو قل اننى قدّرت أن . . . لا أدرى ماذا دهانى حتى صرت لا أعرف ماذا أقول . . . ان كلامى مضطرب . أردت أن أرجوك يا ألكسى فيدوروفتش ، يا عزيزى الطيب ألكسى فيدوروفتش ، أردت أن أرجوك أن تذهب الى هذا

الرجل متذرعا بحجة مناسبة ، متعللا بعذر لائق ، فتراهم ، أقصد ترى هذا الضابط . . . أوه . . . رباه ! اننى أخلط كل شىء . . . فتعطيه هذه المساعدة الطفيفة بطريقة لبقة ، كريمة . . . كما لا يستطيع أحد أن يفعل ذلك مثلك على كل حال (احمر وجه أليوشا عند سماعه هذه الكلمات) ، أن تعطيه هاتين المائتين من الروبلات . انه سيقبل هذه المساعدة حتماً . . أقصد أن عليك أن تلح فى سبيل أن يقبلها . . . هل فهمت ما أقصده ؟ اللهم الا أن . . ولكن لا . . يجب أن تشرح له أن الامر ليس استرضاء له حتى لا يشكو أمره الى القضاء (يبدو أنه نوى أن يشكو أمره الى القضاء فى لحظة من اللحظات) ، وانما هو شعور بالمودة له ، ورغبة فى مد يد المساعدة اليه . وليعلم أيضا أن هذا المبلغ هو منى أنا ، منى أنا ، أى من خطيبة دمترى فيدوروفتش ، لا من دمترى فيدوروفتش نفسه . . . الخلاصة : ستعرف كيف تتصرف . . . كان يمكن أن أذهب اليه أنا ، ولكنى أعلم أنك ستتدبر الأمر خيراً منى . انه يسكن فى شارع أوزيورنايا عند امرأة من سكان المدينة اسمها كالميكوفا . . . قدم لى هذه الخدمة يا ألكسى فيدوروفتش ، أرجوك ، أتوسل اليك . . . أشعر الآن بأننى متعبة . . . أشعر بشىء من الاعياء . . . الى اللقاء . . .

قالت ذلك واستدارت على عقبيها وبلغت من الاسراع الى الاختفاء وراء الباب ان وقت أليوشا لم يتسع حتى لقول كلمة واحدة . وكان أليوشا مع ذلك يرغب رغبة قوية فى أن يكلمها . كان يريد أن يستغفرها ، أن يتهم نفسه أمامها ، أن يقول لها شيئا ما على الأقل ، لأن قلبه كان يفيض فى تلك اللحظة شعورا ، فلم يقدر على مبارحة الغرفة قبل تحقيق رغبته هذه . ولكن السيدة خوخلاكوفا أمسكته من يده وقادته الى خارج الحجرة ، ثم توقفت

فى الدهليز ، كما فعلت قبل ذلك ، من أجل أن تكلمه .

قالت له السيدة خوخلاكوفا بصوت خافت :

— انها متكبرة تصارع نفسها ، ولكنها طيبة ، رائعة ، كريمة ، الى أقصى الحدود ! ليتك تعلم كم أحبها ، ولا سيما فى بعض اللحظات ، وكم يعاودنى الشعور بالرضى من جديد ، وكم ترتد الىّ السعادة بكل شىء ! يجب علىّ يا ألكسى فيدوروفتش أن أبوح لك بشىء كنت تجهله حتى الآن . اعلم اننا جميعا ، جميعا ، أقصد أنا وخالتيها ، أى جميعا ، وحتى Lise ، كنا نتمنى ونتوسل الى الله ، منذ أكثر من شهر الى الآن ، أن تعزم أمرها أخيراً على أن تقطع صلتها بدمترى فيدوروفتش الذى تؤثره أنت ، وذلك لأنه لا يريدها ولا يحبها ، وأن تتزوج ايفان فيدوروفتش الذى هو على جانب عظيم من سعة الثقافة وامتياز الطبع ، والذى يحبها أكثر مما يحب أى شىء فى هذا العالم . حتى لقد دبرنا مؤامرة لبلوغ هذا المأرب وتحقيق هذا الهدف ، ولعل ذلك أيضا هو السبب فى أننى لم أسافر بعد . . .

صاح أليوشا يقول :

— ولكنها عادت تبكى من شعورها بالمذلة !

— لا تصدّق دموع النساء يا ألكسى فيدوروفتش ! أنا فى هذه الحالات أتحيز للرجل على المرأة . أنا مع الرجال .

وهنا دوّى صوت Lise الرفيع الواهن من وراء الباب يهتف :

— ماما ، انك تفسدينه بالدلال ، انك تودين به الى الهلاك !

وردّد أليوشا الحزين الذى لا سبيل الى عزائه ، ردد يقول وهو يشعر بخزى شديد من غضبته ، ويخفى وجهه بيديه خجلاً وحياء :

— كلا ، أنا سبب هذا كله ! لقد قارفت خطيئة رهيبة !

فقالت له السيدة خوخلاكوفا :

— بالعكس : لقد تصرفت تصرف ملاك ، تصرف ملاك . . . لن أمل من تكرار هذا .

وصاح صوت Lise يقول مرة أخرى :

— كيف كان تصرفه تصرف ملاك ؟

وتابع أليوشا كلامه قائلاً وكأنه لم يسمع سؤال ليزا :

— لقد تراءى لى فجأة ، وأنا أنظر اليهما ، تراءى لى فجأة أنها تحب ايفان ، فأفلت منى ذلك الكلام الأحمق . . . ما عسى يحدث الآن ؟

— عمن تتكلمان يا ماما ؟ عمن تتكلمان ؟ انك تميتيننى يا ماما ! ألقى عليك أسئلة ولا تجيبين !

وفى تلك اللحظة دخلت الخادم مسرعة تقول :

— كاترينا ايفانوفنا فى حالة سيئة . . . الآنسة تبكى . . . تتخبط كأنها فى نوبة هستريا . . .

وعادت Lise تصيح قائلةً فى هذه المرة بصوت قلق مروّع :

— هلاّ قلت لى يا ماما أخيرا ما هى القضية ؟ ماما ، أنا التى سأصاب الآن بنوبة هسترية ، لا هى !

— هدئى نفسك يا Lise ، ناشدتك الله ! انك تقتليننى بهذا الصراخ ! ان عمرك لا يسمح لك بعد ان تعرفى كل شىء كما يعرفه الكبار . سأجىء اليك بعد قليل فأطلعك على ما يمكن ان أطلعك عليه . أوه ! رباه ! رباه ! أنا ذاهبة اليها ، أنا ذاهبة اليها . . . نوبة عصبية . . . ولكن هذه علامة طيبة يا ألكسى فيدوروفتش ! حسنٌ جداً أن تنتابها نوبة من هذا النوع . . .

ذلك ما يجب أن يحدث . . . أنا أقف دائما ضدّ النساء فى هذه المناسبات ، ضد نوباتهن ودموعهن . يا يوليا ، امضى اليها فقولى لها اننى آتية اليها حالاً . على كل حال ليس عليها الا ان تحمّل نفسها تبعة خروج ايفان فيدوروفتش على ذلك النحو ! ولكنه لن يسافر . Lise ، لا تصرخى ، لا تصرخى ، ناشدتك الله ! صحيح أنك لا تصرخين . فأنا التى صرخت . سامحى امك يا Lise ، ولكننى سعيدة ، سعيدة جدا ، سعيدة سعادة رهيبة ! هل لاحظت يا ألكسى فيدوروفتش كم كان وجهه فتياً ، أخوك ايفان ، حين تكلم وحين خرج على ذلك النحو ؟ انه يُشعر بأنه مثقف جدا ، عالم جدا ، ثم ها هو ذا يكشف فجأة عن أنه شاب حقا ، حار القلب ، صادق النفس ، يزخر بنضارة الفتوة ، وهو قليل التجربة ، قليل التجربة جدا . آه . . . ما اروع هذا ، ما أجمله . . . هو مثلـــك تماما ! . . وهذا البيت من الشعر الألمانى الذى رواه . . . هذا أنت أيضا . . . أنا ذاهبة اليها الآن ، أنا ذاهبة اليها . . أسرع يا ألكسى فيدوروفتش ، فقم بالمهمة التى عهدت بها اليك ثم ارجع الى هنا باقصى سرعة . Lise ، ألست فى حاجة الى شىء ؟ أستحلفك بالله أن لا تؤخرى ألكسى فيدوروفتش ، سيعود اليك بعد بضع لحظات . . .

وخرجت السيدة خوخلاكوفا أخيرا مسرعة . حاول أليوشا ، قبل انصرافه ، ان يدخل على Lise ، ولكنها هتفت تقول له :

— أبدا . . . مستحيل . . . لن أطيق الآن ان تجىء الىّ ! . . تكلم من خلف الباب . ما الذى جعلك تستحق أن توصف بأنك ملاك ؟ هذا هو الأمر الوحيد الذى أحب أن أعرفه .

— هو قولى كلاماً سخيفا غبياً يا Lise ! وداعا !

14-1089

صاحت Lise تقول :

— لا أسمح لك ان تمضى هكذا !

— Lise ! ان بى حزناً كبيرا . سأعود بعد قليل . ان عذابى كبير ، كبير جدا ، صدقينى !

وخرج مسرعاً .

٦

التمزق فى المنزل الصغير

نعم ، كان حزنه كبيرا جدا قلما شعر بمثله من قبل . لماذا تعجل فقال ذلك الكلام ؟ لقد ارتكب «حماقة» ! وفى اى موضوع ؟ فى موضوع حب . . . «انا اعلم حق العلم اننى لا أفهم فى هذا الأمر شيئا . فكيف امكن ان أشترك فى تحليل شأن من هذه الشئون ؟» كذلك ردد يسأل نفسه للمرة المائة وهو يحمر خجلاً وحسرة . «ليس العار الذى أشعر به شيئا يُذكر ، فهو العقاب الذى أستحقه وانما الشقاء الحق هو أننى سأكون سبب كوارث جديدة . . . لقد ارسلنى شيخى العالم لأوحّد بين المختلفين وأصالح المتخاصمين ، أفبهذه الطريقة يكون ذلك ؟» وتذكر أليوشا فى تلك اللحظة اليدين اللتين أراد أن يضع احداهما فى الأخرى ، فازداد خزياً الى اقصى حد . وأخيرا قال لنفسه مستنتجا فجأة دون ان يبتسم ساخراً من هذا الاستنتاج : «لئن كان تصرفى مخلصاً فى تلك المناسبة ، فيجب ان أبرهن فى المستقبل على مزيد من الذكاء والعقل» .

ان المهمة التى كلفته كاترينا ايفانوفنا ان يقوم بها ، تضطره ان يذهب الى شارع اوزيورنايا . وأخوه دمترى يسكن غير بعيد عن هناك ، فى زقاق جانبى . فقرر أليوشا ان يرى أخاه على اية حال قبل ان يمضى الى الضابط المتقاعد ، رغم احساسه بأنه لن يجده فى منزله . كان أليوشا يشعر ان أخاه سيحاول ان يتجنبه بعد اليوم ، ولكنه اراد ان يعثر عليه مهما كلف الأمر . والوقت يمضى فى أثناء ذلك سريعا . وصورة الشيخ المحتضر لم تبارح أليوشا لحظة واحدة منذ خرج من الدير ، فهى تلاحقه حيثما يذهب .

هناك نقطة اشارت اليها كاترينا ايفانوفنا ، فأثارت انتباهه اثارة قوية . لقد جاءت على ذكر ابن ذلك الضابط ، تلميذ المدرسة الذى كان يركض الى جانب أبيه باكياً منتحباً ؛ وقد قال أليوشا لنفسه فى تلك اللحظة : لا بد أن هذا الولد هو الصبى الذى عضه فى أصبعه ، حين سأله فيم أساء اليه . وأصبح أليوشا الآن على مثل اليقين من أنه هو ذلك الصبى نفسه ، دون أن يدرك سبب هذا اليقين ادراكاً واضحاً . وقد صرفته هذه التأملات لحظة عن همومه الثقيلة ، واذ استرد شجاعته ورباطة جأشه قرر ان لا «يجتر» الآن طويلاً فكرة تلك «المصيبة» التى سببها ، وأن لا يرهق نفسه بحسرات عقيمة ، وانما يعمل ويرى كيف ستجرى الأمور . وقد سرّى عنه هذا القرار وخفف ما كان يشعر به من حزن ثقيل . ولاحظ عندئذ أنه جائع ، فلما دخل فى الزقاق المؤدى الى حيث يسكن دمترى ، أخرج من جيبه رغيف الخبز الصغير الذى أخذه من عند أبيه ، فأكله فاسترد شيئاً من قوته .

لم يكن دمترى فى المنزل . فلما سأل أليوشا أهلَ المنزل —

وهم نجار عجوز وامرأته وابنهما — أخذ هؤلاء يلقون على أليوشا نظرات فيها شك وحذر .

قال العجوز لأليوشا الذى ألح فى السؤال عن أخيه :

— انه لم يبت هنا منذ ثلاث ليال ، فلعله سافر .

فبدا لأليوشا أن جواب العجوز تنفيذ لأوامر أصدرها اليه دمترى .

قال أليوشا يسأل العجوز مرة اخرى ، متعمدًا أن يذكر هذه المعلومات السرية :

— أتراه عند جروشنكا ؟ ام تراه مختبئا عند فوما مثلاً ؟

ولكن أصحاب الدار رشقوه بنظرة تشبه ان تكون مذعورة .

فقال أليوشا لنفسه : «هم يحبونه اذن ، ما داموا ينحازون الى صفه . وهذا حسن جدا» .

قفل أليوشا راجعا ووصل أخيرا الى شارع اوزيورنايا ، امام منزل ساكنة المدينة الصغيرة كالميكوفا ، وهو منزل صغير عتيق متداع ليس له الا ثلاث نوافذ تطل على الشارع ، وفناؤه قذر جدا رأى فيه أليوشا بقرة . ان الدخول من الفناء الى المنزل يتمّ عبرَ حجرة صغيرة تتصل من الجهة اليمنى بمسكن صاحبة البيت العجوز وابنتها المتقدمة فى السن كثيرا هى الأخرى . والمرأتان تبدوان صماوين ، فقد اضطر أليوشا أن يكرر لهما سؤاله عن الضابط عدة مرات . وفهمت احداهما أخيرا ان أليوشا انما يسأل عن الرجل القاطن فى دارهما مستأجرا ، فأومأت باصبعها نحو الجهة الاخرى من حجرة الدخول ، مشيرةً الى منزل نظيف . ان شقة النقيب الركن هى مجرد منزل صغير من غرفة واحدة . وضع أليوشا يده على قبضة الباب وهمّ ان يفتحه ولكنه لم يلبث أن أمسك عن فتح الباب ، ذلك أنه قد ذهل من

الصمت المطبق الذى يخيم وراء الباب . لقد كان يعرف مما قالته له كاترينا ايفانوفنا أن الضابط المتقاعد له أسرة كبيرة العدد فقال لنفسه : «انهم نائمون ، أو انهم أحسوا بمقدمى فهم ينتظرون دخولى عليهم ، فالأفضل ان أقرع الباب» . وقرع الباب فعلاً ، فأجيب ، ولكن الجواب لم يجىء رأساً ، وانما تأخر نحو عشر ثوانٍ .

قال صوتٌ عالٍ حانق :

— من ؟

ففتح أليوشا الباب واجتاز العتبة ، فاذا هو يجد نفسه فى غرفة واسعة سعةً كافية ، ولكنها مزدحمة أشد الازدحام بالأشخاص وأنواع الأمتعة المنزلية . فعلى الشمال مدفأة روسية كبيرة ؛ وفى تلك الجهة نفسها حبل مشدود من أول الغرفة حتى النافذة ، قد عُلِّقت عليه أنواع الملابس الداخلية ؛ وعلى طول الجدارين الجانبيين يمتد سريران فوق كل منهما لحاف مغزول ، فأما سرير الجهة اليسرى فعليه أربع وسادات مختلفة الاحجام بأغطية من قماش الشيت قد نُضد بعضها فوق بعض على شكل هرم ، وأما سرير الجهة اليمنى فليس عليه الا وسادة واحدة صغيرة ؛ وفى ركن ضيق تفصله عن الغرفة ستارة مشدودة بحبل أيضا قد هيئت زاوية لسرير ثالث يتألف من دكة يكمّلها كرسى ، والسرير لا يُرى الا جزء منه ؛ وتحت النافذة الوسطى مائدة من خشب مستطيلة الشكل بسيطة كل البساطة ، هى من نوع تلك الموائد التى تُرى كثيرا فى بيوت الفلاحين . والنوافذ الثلاث ذات الألواح الزجاجية الضيقة ، تبدو مغبرة فلا يتسلل منها الا ضوء قليل ، ولقد كانت مغلقة على كل حال ، فالغرفة بسبب ذلك مظلمة يشعر فيها المرء باختناق . وعلى المائدة ترى مقلاة

فيها بقايا بيض ، وقطعة خبز مقضومة ، وابريق خمر يتسع لنصف لتر ، ولكنه يكاد يكون فارغاً . وقرب السرير الأيسر تجلس على الكرسي امرأة لها شيء من مظهر سيدة . انها ترتدي ثوبا من قماش الشيت ، وهي ناحلة الوجه شاحبة اللون لها خدان خاسفان جدا ينبئان بحالتها المرضية من أول وهلة . وقد فوجئ أليوشا خاصةً بتعبير نظرة السيدة المسكينة الذي ينم عن تساؤل وتعال في آن واحد . وفيما كان أليوشا يكلم رب المنزل ، والى ان تدخلت هي في الحديث ، لم تكفّ عن تنقيل نظرة عينيها البنيتين الواسعتين بين الرجلين معبرةً عن ذلك التساؤل نفسه ، وذلك الاستعلاء نفسه . والى جانب السيدة ، على مسافة غير بعيدة عن النافذة اليسرى تقف فتاة يمكن ان تعد دميمة الوجه ، ترتدي ثيابا فقيرة ولكنها محتشمة ، لها شعر قليل الغزارة يضرب لونه الى حمرة ، وكانت تتفرس في أليوشا باشمئزاز . وعلى اليمين ، قرب السرير أيضا ، تجلس امرأة أخرى هي مخلوقة بائسة ، فتاة في نحو العشرين من عمرها ، حدباء الظهر مقعدة متيبسة الساقين ، كما شُرح ذلك لأليوشا فيما بعد ، وتُرى عكازتاها في الزاوية بين السرير والجدار . غير أن لها عينين رائعتين تشعان طيبة ، وهي تلقى على أليوشا نظرة متواضعة عذبة حلوة . وهذا رجل في نحو الخامسة والاربعين من عمره قد جلس الى المائدة ينتهي من اكل بيضة مقلية ، انه قصير القامة ، جاف الجلد ، نحيل الجسم أعجف يضرب لونه الى حمرة هو أيضا ، تذكر لحيته الحمراء المتناثر شعرها بليفة حمام مهترئة . (ان هذا التشبيه وتعبير «ليفة الحمام» على الاخص برقا في ذهن أليوشا رأساً ، كما تذكر ذلك فيما بعد) . واضح أن هذا الرجل هو الذي صاح من وراء الباب يسأل : من ؟ ذلك أنه لم يكن في الغرفة رجل

سواه . فلما رأى أليوشا نهض عن المائدة بحركة مفاجئة ، وبعد أن مسح فمه بمنشفة مثقّبة ، تقدم نحو الزائر مسرعاً .

قالت الفتاة الواقفة في الزاوية اليسرى بصوت عال :

ــ هذا راهب يجمع الصدقات لديره . يميناً لقد عرف الى اين يجيئ !

ولكن الرجل الذي اقترب من أليوشا التفت اليها بسرعة عسكرية ، وأجابها يقول بصوت قلق متقطع :

ــ في هذه المرة اخطأت يا فرفارا نيكولايفنا ! ليس الأمر ما تصورت .

ثم استأنف كلامه يقول ملتفتاً الى أليوشا من جديد :

ــ هل لي ان أسألك ما الذي جعلني أستحق شرف زيارتك . . . في هذه الأغوار ؟

تفرس أليوشا في هذا الرجل الذي يراه أول مرة . ان في مظهره شيئاً من الحدة والتعجل والحنق . لا شك انه كان قد شرب ، ولكنه لا يبدو ثملاً . وفي وجهه تُرى وقاحة قصوى ، ولكن يُرى في الوقت نفسه جبن شديد ، وهذان أمران يدهش المرءَ اجتماعهما . . . ان هيئته هيئة انسان اضطر زمنا طويلا الى احتمال الذل وقبول الخضوع ولكنه يهب الآن فجأة ليؤكد ذاته ، أو قل بتعبير أدق ان هيئته هيئة رجل يشعر برغبة قوية في أن يضربك ، ولكنه يخاف خوفا قويا من انك قد تضربه . ان المرء يلمح في أقواله ، وكذلك في نبرات صوته الحاد ، نوعاً من سخرية سخيفة مبتذلة هي تارةً شريرة خبيثة ، وهي تارة أخرى خائفة وجلى تظهر ضعفها وتتحطم في بعض اللحظات . لقد القى سؤاله عن «الاغوار» وهو يرتعش من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، محملقاً عينيه ، بالغاً من الاقتراب من أليوشا ، أن

أليوشا تراجع خطوة الى وراء بغريزته . كان الرجل يرتدى معطفاً حقيراً مهترئاً ، قاتم اللون ، مرقعاً فى مواضع كثيرة ، متسخاً ببقع كبيرة . أما سرواله فهو فاتح اللون جداً ، عليه رسوم مربّعة الأشكال ، وذلك نوع من السراويل أصبح منذ زمن طويل لا يُرى فى اى مكان . والسروال من نسيج رقيق ، قد تجعد أدناه وانشمر ، فكأن لابسه صبى طالت قامته وكبر جسمه فأصبح السروال صغيرا قصيرا عليه .

قال أليوشا يجيب عن سؤال الضابط المتقاعد :

— أنا . . . أنا الكسى كارامازوف .

— لى شرف معرفة ذلك من قبل .

كذلك أجاب الرجل ليدل على أنه لا يجهل شخصية الزائر . ثم اضاف يقول :

— فاسمح لى أن اقدم لك نفسى أنا أيضا : النقيب الركن سنيجيريف — س . ولكن هل لى ان أعرف الهدف الذى ترمى اليه من . . .

— لم أجىء لهدف معين . كل ما أردته هو أن أقول لك بضع كلمات باسمى . . . اذا كنت لا ترى فى ذلك ضيراً . . .

— فى هذه الحالة ، اليك هذا الكرسى ! تفضل فاتخذ لنفسك مجلساً . . . أليس هذا ما يقال فى الكوميديات الكلاسيكية : «تفضل فاتخذ لنفسك مجلسا» !

قال النقيب الركن ذلك وتناول كرسياً بحركة مباغتة عنيفة (هو كرسى بسيط غير منجّد ، من كراسى الفلاحين) ، فوضعه فى وسط الغرفة تقريبا ، ثم تناول كرسياً آخر من ذلك النوع نفسه

فجلس عليه امام أليوشا ، ولكنه بلغ من تقريبه من كرسى أليوشا أن رُكَب الرجلين يحتك بعضها ببعض .

— اسمى نيكولاى ايليتش سنيجيريف ، نعم ، نقيب ركن سابق فى سلاح المشاة بالجيش الروسى . واننى لأظل ضابطا رغم عيوبى ورذائلى التى هوت بى الى الحضيض . ولقد كان ينبغى ان أقول الرائد — س ، لا الرائد سنيجيريف ، ذلك أننى فى الشطر الثانى من حياتى قد أخذت أستعمل «س» . تلك عادة ناشئة عن الانحطاط .

قال أليوشا وهو يبتسم ابتسامة متحرجة :

— نعم . ولكن هل يتعود المرء هذه العادة عامداً ام هو يتعودها على غير ارادة منه ؟

— بل على غير ارادة منه ، شهد اللّه ! يمينا ما كنت اتكلم بهذه الطريقة فى الماضى طوال حياتى . ثم نهضت بعد سقوطى المفاجىء وتعودت حرف «س» . ذلك يحدث بتأثير قوة عليا . ولكنى أراك تهتم بشئون الحياة الحديثة ، فهل لى أن أعرف السبب الذى جعلنى أستحق شرف هذا الاهتمام ؟ اننى أعيش هنا فى ظروف لا تؤهلنى للقيام بواجبات الضيافة .

قال أليوشا :

— أنا انما جئت . . . من اجل ذلك الأمر الذى . . .

فقاطعه الرجل بلهفة سائلاً :

— اى أمر ؟

فأجاب أليوشا وقد اضطرب قليلا :

— أمر لقائك ذاك بأخى دمترى فيدوروفتش . . .

— أى لقاء تعنى ؟ ها . . . ذلك اللقاء ! هو اذن موضوع الليفة ؟

قال الضابط المتقاعد ذلك ، وازداد اقترابا من أليوشا حتى صدم فى هذه المرة ركبتيه . ودقّت شفتاه فى تلك اللحظة حتى لكأنهما خيط نحيل .

تمتم أليوشا يسأله :

— أية ليفة ؟

فصاح من وراء الستارة صوت عرف أليوشا فورا أنه صوت الصبى الذى لقيه منذ قليل ، صاح صوت الصبى يقول :

— بابا ! لقد جاء يشكونى أنا . أنا الذى عضضت أصبعه !

وانزاحت الستارة فلمح أليوشا عدوه فى الركن تحت الايقونات مضطجعاً على السرير الذى يتألف من دكة وكرسى . كان الصبى مغطى بمعطفه الرث وبلحاف عتيق . كان واضحا انه مريض ، واذا صدق ما يدل عليه بريق عينيه فلا بد أن تكون به حمى . انه يحدق الى أليوشا بغير خوف ولا وجل ، واثقاً ثقة لم تظهر عليه فى الشارع ، كأنه يريد أن يقول : «أنا الآن فى بيتى ، فى بيتى ، فلن تستطيع أن تصنع بى شيئا» .

سأل الضابط المتقاعد وهو ينتفض :

— عضك فى اصبعك ؟ أأنت من عضه فى اصبعه ؟

— نعم ، أنا . كان يقتتل فى الشارع مع أطفال آخرين بتراشق الحجارة . وكان واحدا وكانوا ستة . فاقتربت منه ، فرمانى أنا أيضا بحجر ، ثم رمانى بحجر آخر مستهدفا رأسى . فلما سألته ماذا فعلت له ، انقض علىّ فجأة فعضنى فى اصبعى ، لا أدرى لماذا !

صاح الرائد يقول وهو يثب عن كرسيه :

— لأجلدنّه ، لأجلدنّه !

— ولكننى لم أجئ لأشكوه ، ولا رويت لك الحادث

لتعاقبه . . . اننى لا أحب أن تعاقبه قط . ثم انه مريض فيما يبدو . . .

— أفصدّقت حقا أننى سأجلده ؟ أفصدقت أننى سأجلد عزيزى الطيب الشهم ايليوشا ، هكذا ، فورا ، لأسرك وأبهجك ؟ أأنت تحرص على أن أفعل ذلك سريعاً ؟

كذلك قال النقيب الركن ملتفتاً نحو أليوشا بحركة تهديد كأنه يهم ان ينقض عليه . ثم أضاف :

— يؤسفنى ، يا سيدى العزيز ، ما نال اصبعك من أذى . ولكنى أوثر على ضرب ايليوشا ، اذا شئت ، أن أبتر الآن أمامك أربعا من أصابعى بهذه السكين ، ارضاء لك . . . أرجو أن يكون بتر أربع أصابع من أصابعى كافيا لارواء ظمئك الى الانتقام ، وان تسمح لى بالابقاء على الاصبع الخامسة ! . . .

قال هذا وتوقف عن الكلام فجأة كأنه اختنق ، وكانت عضلات وجهه جميعاً ترتعش ، وكانت نظرته تفيض تحدياً واستفزازاً . لقد كان فى حالة اشبه ما تكون بحالة المس والخبل .

قال أليوشا بصوت خافت حزين ، دون أن يتحرك عن كرسيه :

— أحسب أننى فهمت الآن كل شىء . ان لابنك قلباً طيباً ، فهو يحب أباه ، وقد هجم علىّ لأننى أخو الرجل الذى أساء اليك . . . فهمت الآن . . . (كذلك ردّد كلامه يقول مطرقا مفكرا) . . . ولكن اخى دمترى فيدوروفتش نادم على فعلته . . . أنا أعرف ذلك . . . فاذا أذنت له أن يجيئك الى هنا ، او من الأفضل أن يلقاك فى ذلك المكان نفسه مرة أخرى ، فسيكون مستعداً لان يعتذر اليك أمام جميع الناس . . . متى رغبت فى ذلك . . .

— أهكذا اذن ؟ تُنتف لحية الانسان ، ثم يُعتذر اليه . . .

فينتهى كل شىء وسوّى كل شىء ، أليس كذلك ؟

— كلا . . . كلا ! . . انه مستعد لأن يفعل ما تطلبه منه ، على النحو الذى يرضيك !

— أمعنى هذا أن فى وسعى أن أطلب من «سموه» ان يجثو على ركبتيه فى تلك الحانة نفسها — حانة «العاصمة الكبرى» — او حتى فى الميدان العام ، فاذا هو يلبى طلبى اذا صدق ما تقول ؟

— نعم ، هو مستعد حتى لأن يجثو على ركبتيه .

— كلامك يهز قلبى ، ويؤثر فى نفسى ، حتى ليكاد يفجر الدموع من عينى ! اننى ميال للعاطفية جدا . . . فاسمح لى اذن أن اقدم اليك انفسنا على أكمل وجه . هذه أسرتى : بنتاى ، وابنى . . . هذه ذريتى المحترمة . فمن ذا الذى يلاطفهم ويداريهم ، اذا أنا مت ؟ ومن ذا الذى يمكن ان يحبنى ، أنا الانسان الشقى ، ما دمت حياً ، من ذا الذى يمكن أن يحبنى غيرهم ؟ ان الرب قد شاءت رحمته ان يكون لأمثالى عزاء كهذا العزاء . . ذلك انه لا بد لامثالى أن يجدوا ، هم أيضا ، من يمكن ان يحبهم . . .

— صحيح ، هذه حقيقة كبرى !

كذلك هتف يقول أليوشا . فصاحت الفتاة الواقفة قرب النافذة ، وهى تلتفت نحو أبيها معبرة بهيئتها عن ازدراء واشمئزاز ، صاحت مستاءةً تقول :

— دعك من هذا التهريج ! يكفى ان يظهر معتوه ما حتى تشهر بنا جميعاً !

فأجابها أبوها بلهجة آمرة ، ولكنه كان ينظر اليها مع ذلك نظرة تشجيع واستحسان :

— مهلاً يا فرفارا نيكولايفنا . . . تذرعى بشىء من الصبر . . . دعينى أكمل ما أريد أن أقوله . . .

ثم أضاف يقول ملتفتا الى أليوشا :

— ان لها طبعا كهذا . . .

لا يريد ان يبارك
شيئا فى الطبيعة بأسرها » .

صحيح أن لا بد من التغيير الى : لا تريد هى ان تبارك ولكن اسمح لى أن اقدمك الى زوجتى : أرينا بتروفنا ، سيدة مقعدة ، عمرها ثلاثة واربعون عاما ، قادرة على استعمال ساقيها ولكن قليلاً جداً ، هى من اصل بسيط . يا أرينا بتروفنا ، هلاّ بسطت أسارير وجهك ! هذا ألكسى فيدوروفتش كارامازوف . وأنت يا ألكسى فيدوروفتش ، هلا نهضت ! (قال ذلك وأمسك ذراع أليوشا بقوة لا يُتوقَّع مثلها منه ، وأنهضه عن كرسيه وتابع كلامه) . . . اننى اقدمك الى سيدة ، فعليك ان تنهض . . . اسمعى يا عزيزتى ، هذا ليس نفس كارامازوف الذى . . . الذى . . . هِمْ . . . هذا أخوه . . . شاب يشع فضائل وتزخر نفسه تواضعاً . اسمحى لى يا أرينا بتروفنا ، اسمحى لى يا امرأتى الكريمة المحترمة ، اسمحى لى ان اقبل يدك اولا .

وقبل يد امرأته باحترام ، بل وبحنان . فولت الفتاة الواقفة قرب النافذة ظهرها للمشهد باستياء ، غير ان وجه الزوجة الذى كان يعبّر عن تساؤل واستعلاء ، هش وبش على حين فجأة .

قالت :

— تفضل فاجلس يا سيد تشرنومازوف ! »

فقال زوجها مصححاً :

— بل كارامازوف . . . اسمه كارامازوف .

ثم أضاف يقول لأليوشا همساً :

— هى من أصل بسيط ، بسيط جدا .

قالت المرأة :

— طيب . . . كارامازوف . . . فليكن اسمه كارامازوف ما دمت تحرص على ذلك . كارامازوف او تشرنومازوف ، الاسمان عندى واحد . تفضل فاجلس يا سيدى . لماذا انهضك ؟ اننى مقعدة ، كما قال لك ذلك . صحيح ان لى ساقين ، ولكنهما منتفختان انتفاخ قادوسين ، أما باقى جسمى فهو يصوّح . كنت فى الماضى سمينة جدا ، وهأناذا الآن نحيلة مثل ابرة . . .

ردّد النقيب قوله :

— هى من أصل بسيط ، من أصل بسيط جدا .

فصاحت الفتاة الحدباء الظهر التى كانت الى ذلك الحين صامتة على كرسيها ، صاحت فجأة تقول :

— بابا ! آه يا بابا !

وغطت وجهها بمنديلها .

وقالت الفتاة الواقفة قرب النافذة ، بلهجة احتقار شديد :

— مهرّج !

وقالت الأم وهى تمد ذراعيها مشيرةً الى ابنتيها :

— انظر ، هذه أحوالنا كأنها سحائب . سحائب ثم تنقشع . وتعود الحاننا من جديد . فى الماضى ، حين كنا فى الجيش ، كنا نستقبل فى كثير من الاحيان زيارات كزياراتك . أنا لاأبالى بذلك يا سيدى . اذا أحببت أحدا فعليك أن تحبه . وفى ذات يوم جاءت امرأة الشماس فقالت : «الكسندر الكسندروفتش

رجل ممتاز ، أما ناستاسيا بتروفنا فهى نفثة من نفثات جهنم !» قلت لها : «لكل امرىء اذواقه الخاصة . وما أنت الا كرة صغيرة ، ولكنك كرة عفنة نتنة» . قالت : «سنعرف كيف نؤدبك ونردك الى الصواب» ، فأجبتها : «يا سوداء ! من اباح لك حق المجىء الى هنا لتلقى دروسا ؟» فقالت لى عندئذ : «أنا أجيئكم بهواء نقى ، على حين ان الهواء الذى تنفثينه أنت موبوء يفسد الجو» ، فأجبتها : «اذا كان هوائى كريه الرائحة ، فاذهبى واسألى أولئك السادة الضباط» . ومنذ ذلك الحين بقى هذا فى قلبى لا يبارحه . وهكذا حدث لى منذ قليل ، ان رأيت ، وأنا جالسة هنا ، ذلك الجنرال الذى أتى يزورنا فى عيد الفصح ، فقلت له : «يا صاحب السعادة ، هل من حق امرأة مرموقة أن تدخل هواء نقياً الى منزلها ؟» . فقال لى : «هذا صحيح ، ليس الهواء هنا نقيا . يجب فتح الباب أو النافذة» . هم جميعا سواء ! لماذا يكرهون هوائى ؟ ان الأموات ينشرون رائحة كريهة أكثر من رائحتى . قلت : «لن أفسد الهواء الذى تستنشقونه ؛ سأشترى لنفسى حذاءين ، ثم أمضى ، ما دام الأمر كذلك» . يا أولادى ، يا صغارى ، لا تدينوا امكم . يا نيكولاى ايلييتش ، يا زوجى الطيب ، اأصبحت لا أرضيك ولا أعجبك ؟ لم يبق لى الا ايليوشا . . . فهو الذى ما يزال يحبنى . يعود من المدرسة ، فيغمرنى بملاطفاته . وقد جاءنى امس بتفاحة . ارحمونى يا صغارى ، يا اولادى ، اشفقوا على امكم المسكينة التى أصبحت الآن وحيدة . بماذا أفسد الهواء الذى تستنشقونه ؟

وأخذت المرأة التعيسة تبكى منتحبة على حين فجأة ، فسكب سيولاً من دموع . أسرع اليها النقيب الركن .

— عزيزتي ، عزيزتي ، حمامتي ، هدئي روعك ، أرجوك . لست وحيدة . فالجميع يحبونك ، نحن جميعاً نعبدك !

قال لها ذلك وغمر يديها بالقبل ، ثم دغدغ خديها في رفق ولطف . ثم تناول منشفة فأخذ يجفف وجهها الذي أغرقته الدموع . وتراءى لأليوشا في تلك اللحظة أن دموعاً لمعت في عينيه . والتفت هذا فجأة نحو أليوشا ، فهتف يسأله مشيرا الى المعتوهة المسكينة ، وقد استبد به يأس شديد :

— هل رأيت وهل سمعت ؟

فدمدم أليوشا يقول :

— رأيت وسمعت .

وصرخ الصبي وقد نهض عن سريره نصف نهوض وأخذ يحدق الى أبيه بعينيه الملتهبتين ، صرخ يقول :

— بابا ! بابا ! أتراك ستعقد الآن صلةً بهذا الـ ... اتركه عنك !

وهتفت فارفارا نيكولايفنا تقول من زاوية الغرفة ، وقد استبد بها في هذه المرة غضب شديد فقرعت الارض بقدمها ، هتفت تقول لأبيها :

— دعك من هذه التهريجات المستمرة والتمثيليات الهزلية البلهاء التي لا تؤدي الى شيء ! ..

فقال الأب :

— حقا ان لحنقك ما يسوغه الآن يا فرفارا نيكولايفنا ، وسألبى أمرك على الفور . يا ألكسى فيدوروفتش ، خذ قبعتك ، وسآخذ أنا قبعتي ، فنخرج . أريد أن أكلمك كلاما جادا ، ولكنني أريد قوله خارج هذه الحيطان . ان هذه الفتاة القاعدة هناك هي ابنتي نينا نيكولايفنا التي نسيت أن أقدمها اليك .

انها ملاك تجسد وهبط على الأرض . . . هل في وسعك أن تفهم ؟

وعادت فرفارا نيكولايفنا تتكلم ، فقالت مستاءة :

— ها هو ذا يرتجف ويضطرب كأن تشنجات قد هزته هزا !

— اما هذه التي قرعت الارض بقدمها ووصفتني بأنني مهرج منذ هنيهة ، فهي أيضا ملاك من السماء ، وهي على حق اذ تسميني هذه التسمية . لنخرج يا ألكسى فيدوروفتش ، يجب ان نفرغ من هذا الأمر .

قال الرجل ذلك ، وأمسك ذراع أليوشا ، وجرّه الى الشارع .

٧

وفي الهواء الطلق

قال النقيب الركن :

— هنا يتنفس المرء ، أما في مسكني فيختنق ، بجميع معاني هذه الكلمة . سنمشي الهوينى . وددت لو اهتممت بأحاديثي !

قال أليوشا :

— هناك أمر أريد أنا أيضا أن أحدثك فيه . . . ولكنني لا أعرف من أين أبدأ .

— لقد تصورت أن هناك شيئاً تريد أن تقوله لي . ولولا ذلك لما جئت الى مسكني أبدا . اللهم الا أن يكون الهدف الوحيد من مجيئك هو أن تشكو الى الصبي ؟ ولكن هذا قليل

الاحتمال !.. وعلى ذكر هذا الصبى .. اننى لم أكن أستطيع أن أقول لك كل شىء هناك . فسأشرح لك الأمر الآن . لقد كانت الليفة منذ أسبوع أكثف مما هى الآن . . أعنى بالليفة لحيتى . . وأولئك التلامذة هم على الأخص سموا لحيتى ليفة . . فمنذ أسبوع أمسك أخوك دمترى فيدوروفتش لحيتى هذه ، فى تلك الحانة ، وجرنى الى الميدان . وكان التلاميذ راجعين من المدرسة فى تلك اللحظة نفسها ، وكان إيليوشا بينهم ، فما أن رآنى على هذه الحال حتى ارتمى علىَّ صارخا : «بابا ! بابا !» ، وأمسكنى بذراعيه الصغيرتين ، وشدنى بجماع قواه ليخلصنى ، وتشبث بى ، صائحاً مناشدا المعتدى بقوله : «دعه ! هذا أبى ، هذا أبى ، اتركه ، اغفر له !» نعم قال هكذا : «اغفر له !» وأمسك أيضا ذراع أخيك ، حتى لقد قبّل يده ، يده تلك نفسها التى كانت قابضةً على لحيتى . . . ما زلت أتذكر كيف كان وجه الصبى فى تلك اللحظة . لم أنسه ولن أنساه أبدا ! .

هتف أليوشا يقول منفعلا :

— أحلف لك ، أحلف لك أن أخى سيعبر لك عن ندمه أصدق التعبير وأكمله ، ولو اضطر أن يجثو أمامك على ركبتيه فى ذلك الميدان نفسه . . . سأجبره على أن يفعل ذلك ، والا فلن يكون أخى !

— آ . . . آ . . . فهذا الاعتذار ليس حتى الآن اذن الا مشروع اعتذار ؟ وهذه النية ليست صادرة عنه ، بل عنك أنت ، عن قلبك النبيل الحار . كان عليك أن تذكر لى هذا فورا . أما وأن الأمر كذلك ، فاسمح لى أن أصف لك روح الفروسية السامية ونبل الضباط التى أظهرها أخوك فى ذلك الظرف . انه بعد

أن جرّنى من هذه الليفة ، تركنى وقال لى : «أنت ضابط ، وأنا ضابط أيضا ، فاذا استطعت أن تعثر على رجل شريف يرضى أن يكون لك شاهدا ، فأرسله الىَّ : اننى أهب لك فرصة استرداد اعتبارك بالسلاح ، رغم أنك وغد !» هذا ما قاله أخوك ، كفارس حق ! انصرفت بعد ذلك مع إيليوشا ، ولكن هذا المشهد قد استقر فى نفس الصبى الى الأبد ، فهو لا يبارح ذاكرته فى لحظة من اللحظات . كيف يمكن أن يخطر ببالنا بعد الآن ان نستطيع المحافظة على مركزنا كأناس من النبلاء ؟ واقض فى الأمر بنفسك على كل حال ، ما دمت قد رأيت مسكننا ! مسكن جميل ، أليس كذلك ؟ ثلاث سيدات ، احداهن عاجزة ومجنونة ، والثانية مقعدة وحدباء ، أما الثالثة فليست ساقاها مريضتين ولكنها أذكى مما يحتمله ظرفنا من ذكاء . انها طالبة ، وليس لها من حلم الا أن تعود الى بطرسبرج لتبحث عن حقوق المرأة الروسية على ضفاف نهر نيفا . ولن أقول شيئاً عن إيليوشا . انه لم يتجاوز التاسعة من عمره ، وهو وحيد ليس هناك احد يحميه . فاذا مت أنا ، فما الذى سيحدث لهذه الاغوار كلها ؟ اننى ألقى عليك هذا السؤال . اذا دعوت اخاك الى المبارزة فقتلنى ، فما هو الوضع الذى سيصيرون اليه ؟ من الذى سيعتنى بهم وسيهتم بأمرهم ؟ والأنكى من ذلك أن لا يقتلنى ، وانما يصيبنى بعاهة تقعدنى : لن أستطيع بعدئذ أن أعمل ، بل أصبح فماً لا فائدة منه . من ذا الذى سيطعمنى وسيطعمهم جميعا عندئذ ؟ وقد اضطر أن أخرج إيليوشا من المدرسة ، وأن أرسله الى الشوارع كل يوم يستعطى الصدقات . ذلك ما يمكن أن تجرّه علىَّ مبارزة من عواقب . هى كلمة سخيفة ، لا أكثر . . .

هتف أليوشا يقول من جديد وقد التهبت نظرته ناراً :

— ليستغفرنَّك ، ليرتمين على قدميك في وسط ذلك الميدان !

— خطر ببالي أن أشكوه الى القضاء . ولكن يكفي أن نرجع الى نصوص القوانين حتى ندرك أن مقاضاته لن تثأر لي من الاهانة التي الحقها بي . زد على ذلك أن آجرافينا ألكسندروفنا استدعتني وقالت لي غاضبة اشد الغضب : «اعدل عن هذه الفكرة فلئن سمحت لنفسك بأن ترفع قضية ، لأرتِّبنَّ المسألة بحيث يتكشف لجميع الناس انه انما ضربك معاقبة لك على اختلاساتك ، وستكون أنت الملاحَق يومذاك !» والله يعلم هل ارتكبت أنا تلك الاختلاسات بارادتي ، أم أنني أُمرت بها فكنت أداةً لا أكثر ! انني لم أفعل ما فعلت الا بأوامر منها ، وبأوامر من فيدور بافلوفتش ! وقد أضافت تقول لي : «واعلمْ عدا هذا أنني سأطردك من خدمتي عندئذ طرداً حاسماً ، فما تجني مني بعد ذلك شيئا . وسأقول كلمة لصاحبي التاجر (بهذا الاسم تسمي عجوزها) ، فيطردك هو أيضا» . فتساءلت حينذاك : ما عسى تصير اليه حالي اذا استغنى التاجر عن خدماتي ؟ ما عساني أصنع بعد ذلك في سبيل أن اكسب رزقي ؟ ذلك أنه لم يكن قد بقي لي الا هذان بعد أن أصبح أبوك فيدور بافلوفتش لا يثق بي ، لسبب آخر . . حتى أن أباك يفكر في جرّي الى المحاكم مستندا الى الايصالات التي وقعتها بامضائي . فلهذه الأسباب مجتمعةً ، انما ارتضيت السكوت . لقد رأيت الأغوار بنفسك . ولكن قل لي الآن : هل أوجعتك كثيرا عضة صغيري ايليوشا ؟ انني لم أجرؤ أن ألقي عليك هذا السؤال في قصري أمامه ؟

— نعم . أوجعتني كثيرا . فقد كان منفعلاً جداً . لقد

ثأر مني أنا للاساءة التي أُلحقت بك ، لأنني واحد من آل كارامازوف . لقد اتضحت المسألة الآن . ولكنك لم تر كيف اقتتل مع رفاق مدرسته بتراشق الحجارة . ذلك خطر جدا . ان من الممكن أن يقتلوه . هؤلاء أطفال ، لا يفكرون . رب حجر يُقذف بقوة فاذا هو يصيب رأسه فيشق جمجمته .

— أُصيب اليوم بحجر ، ولكن لا على الرأس بل على الصدر . أصابه الحجر في موضع يعلو القلب قليلا ، فوصل الى البيت مزرقاً باكيا ، يئن أنينا شديدا ، وها هو ذا الآن مريض .

— يظهر أنه هو الذي يبادئ رفاقه بالهجوم . ان غضبه مما أصابك لا يهدأ له أوار . والتلاميذ يزعمون أنه جرح الصبي كراسوتكين في جنبه بطعنة من موسى . . .

— قيل لي هذا . شيء خطر . ان كراسوتكين هذا هو ابن موظف من الموظفين ، وأخشى أن يجرَّ علينا هذا الحادث وبالاً . . .

تابع أليوشا كلامه الحار قائلا :

— أنا أنصح بأن تخرجه من المدرسة الى حين ، الى أن تهدأ نفسه . . . الى أن يخف هذا الغضب الشديد الذي يتقد في قلبه . . .

قال الضابط المتقاعد مؤمِّناً :

— الغضب ! الغضب ! تلك هي مشكلته . غضب كبير في كائن صغير . وأنت لمَّا تعرفْ بعدُ كل شيء . فاسمح لي أن أوضح لك هذه القصة على الأخص . بعد ذلك الحادث أخذ جميع التلاميذ يناكدونه ويغيظونه ، ويسمونه ليفة . ان الأطفال الذين هم في هذه السن لا تعرف قلوبهم الشفقة . هم ملائكة اذا نظرت الى كل واحد منهم على حدة ، ولكنهم

متى اجتمعوا ولا سيما فى المدرسة أصبحوا فى كثير من الأحيان قوما دون رحمة وشفقة . لقد أخذوا اذن يشاكسونه ، فثار طبع ايليوشا الصغير النبيل . رب صبى آخر ، رب ولد فاتر التعلق بأبيه ، كان يذعن ويستسلم ويرضخ ، وكان يشعر بالخزى والعار من أبيه ، أما هو فقد هبَّ وحيدا ضدَّ جميع الأطفال ، يدافع عن أبيه ، يدافع عن أبيه ، ويدافع عن الحقيقة أيضا . . . نعم ، عن الحقيقة . . . ما من أحد يعرف فى الواقع ، ما من احد يعرف الا الله وأنا ، كم قاسى من ألم حين قبَّل يد أخيك متوسلاً اليه «أن يغفر لأبيه» . فانظر كيف يعرف أطفالنا — أطفالنا نحن لا أطفالكم أنتم ، أقصد أطفال الفقراء الهينين عليكم الكرام على أنفسهم — أنظر كيف يعرفون الحقيقة على هذه الارض منذ السنة التاسعة من عمرهم . ان الأغنياء لا يستطيعون ذلك . فهم مهما يعيشوا لن يروا أعماق الهوة فى يوم من الايام ! أما ابنى ايليوشا فقد غاص الى قرارة الحقيقة فى تلك اللحظة التى قبَّل فيها يد أخيك بالميدان . . . لقد نفذت الحقيقة كلها اليه عندئذ ، وسحقته الى الأبد .

انتعش الضابط المتقاعد وهو يقول هذا الكلام ، وألمت به حماسة مفاجئة وحمىًا قوية ، حتى أنه ضرب بقبضة يده اليمنى راحة يده اليسرى كأنما ليوضح مزيدا من التوضيح كيف سحقت «الحقيقة» ابنه ايليوشا .

وتابع الرجل كلامه فقال :

— وفى الليلة التالية انتابته حمى ، فظل يهذى طوال الوقت . ولم يكلمنى فى الغداة ، وانما التزم صمتا يشبه أن يكون مستمرا ، ولكننى لاحظت أنه كان يرقبنى ويرصدنى من الركن الذى هو فيه ، رغم ميله على النافذة وتظاهره بأنه يهئ

واجباته المدرسية . لقد أدركت أنه لم يكن يفكر فى دروسه فى تلك اللحظة . حتى اذا جاء اليوم التالى شربت فأصبحت لا أتذكر أشياء كثيرة . . . يا لى من شقى ! . . نعم لقد شربت ، من شدة ما استولى علىَّ الكرب واليأس . وأخذت زوجتى عندئذ تبكى — اننى أحبها كثيرا — ولكن ما العمل ؟ لقد أنفقت آخر كوبيك أملكه لأسكر فانسى بلواي . لا تحتقرنى يا سيدى . السكارى فى روسيا هم أطيب الناس . واطيب الناس هم الذين يسكرون أكثر من غيرهم فى بلادنا روسيا . ونمتُ ، ولم أحفل بايليوشا . وفي ذلك اليوم بعينه انما أخذ الصبية يعيرونه ، صارخين : «يا ليفة ! أخرج أبوك من الحانة مشدودا من لحيته ، فأخذت تركض الى جانبه تستغفر له !» وفى اليوم الثالث حين عاد من المدرسة ، لاحظت أنه شاحب اللون ، مروَّع الوجه . سألته : «ماذا بك ؟» فلم يجب . وكان يستحيل علينا التحدث فى القصر ، فلو قد تحدثنا هناك لتدخلت الأم والبنات فى الحديث . . . وكانت بناتى على علم بالقضية منذ أول يوم . كانت فرفارا نيكولايفنا ما تنفك تبدى استياءها وغضبها قائلة : «مهرجون ! ما عسى يُنتظر منكم ؟» قلت لها : «أنت على حق ، ما نحن بقادرين على شىء معقول .» وبذلك أرحت نفسى منها . وفى نحو المساء خرجت أتنزه مع الصغير . يجب أن أذكر لك أننى كنت قد تعودت أن أقوم بنزهة مع ابنى كل مساء . وكنا فى العادة نسلك هذا الطريق الذى نسير فيه الآن أنا وأنت : نخرج من باب فنائنا ونصل الى تلك الصخرة الكبيرة التى تراها على الطريق قرب السياج . ان البرية تبدأ هنا . المكان خال جميل . سرت فى ذلك اليوم وابنى الى جانبى . يده فى يدى ، كالعادة . ان يده صغيرة ، وأصابعه نحيلة باردة . انه

يشكو من داء فى صدره ، ابنى هذا . قال لى فجأة : «بابا ! بابا !» ، فسألته : «ماذا ؟» ورأيت عينيه تلمعان كأنما تقدحان شررا . قال : «فى ذلك اليوم ، كيف شدّك . . .» قلت : «ما العمل يا صغيرى ايليوشا ؟» ، قال : «لا تصالحه يا بابا ! لا تصالحه أبدا ! الأولاد فى المدرسة يدّعون أنه أعطاك عشر روبلات تعويضا لك عما فعله بك» . قلت له : «لا ، لا يا صغيرى ايليوشا ، لن أقبل منه مالاً فى يوم من الايام» . أخذ الصبى يرتجف جمسه كله ، وقبض على يدى بيديه الصغيرتين ، وغمرها بالقبل . ثم عاد يقول : «بابا ! اطلبه الى المبارزة ! فالأطفال يدعون فى المدرسة أنك جبان ، وأنك لن تطلبه الى المبارزة ، وانما ستقبل منه عشر روبلات» . فقلت له : «لا يمكننى أن أطلبه الى المبارزة» ، وأطلعته بايجاز على الاسباب التى تعرفها ، فأصغى الىَّ بانتباه ، ثم هتف يقول وقد اشتعلت نظرته : «بابا ! لا تصالحه أبدا . لأطلبنه أنا الى المبارزة حين أكبر ، فأقتله !» وأنا أبوه على كل حال . . . فاعتقدت أن من واجبى أن أقول له كلمة حق . قلت له : «انه لاثم أن يقتل انسان انسانا ولو فى مبارزة» . فصاح عندئذ يقول : «بابا ! سوف ألقيه ، حين أكبر ، على الأرض بعد أن أسقط له سيفه بضربة من سيفى ، ثم أرتمى عليه وأشهر سيفى فوق رأسه قائلا له : اننى أستطيع الآن أن أقتلك ، ولكننى أعفو عنك ، فذلك جزاؤك !» فانظر يا سيدى الى الخواطر التى شغلت رأسه الصغير طوال ذينك اليومين ! لقد ظل يفكر ليل نهار فى هذا الثأر الفروسى ، ولا شك أن هذيانه فى الليلة الأولى كان يدور حول هذا الثأر . ولكنه الآن يعود من المدرسة كل يوم مضروبا ، مضروبا ضربا قاسيا . ولم أعلم بأمر اشتباكاته هذه مع رفاقه الا امس الاول . . وأظن

أنك على حق : يجب أن لا يعود الى هذه المدرسة . لقد خفت عليه خوفا شديدا حين بلغنى أنه واجه كل تلاميذ صفه وناصبهم العداء وأنه هو الذى تحداهم أولا . ان الغضب يعصف فى قلبه . لقد خرجنا نتنزه مرة أخرى فى يوم من الايام ، فاذا هو يسألنى : «بابا ، هل الأغنياء أقوى من غيرهم اذن فى هذا العالم ؟» فقلت له : «نعم يا ايليوشا ، ليس هناك من هو اقوى من الرجل الغنى .» فقال لى بعد ذلك : «بابا ، سأصبح غنياً أنا ايضا فى يوم من الايام ، وسأصبح ضابطا ، أغلب الأعداء فيكافئنى القيصر ، فأعود فما يجرؤ أحد بعدئذ أن . . .» وصمت بضع لحظات ، ثم أخذت شفتاه ترتجفان كما كانتا ترتجفان من قبل ، وأضاف يقول : «بابا ، يا لها من مدينة شريرة مدينتنا هذه يا بابا !» قلت له : «نعم يا بنى ايليوشا ، ليست هذه المدينة محببة الى القلب كثيرا» ، فقال : «فلماذا لا نتركها الى مدينة أخرى طيبة ، لا يعرفنا فيها احد ؟» قلت له : «سنغادر هذه المدينة متى جمعت قليلا من المال» . لقد أسعدنى أن أصرفه بذلك عن خواطره السوداء ، وأخذنا نحلم بهذا الرحيل ، ونناقش تفاصيله . قلت له : «سنشترى حصانا وعربة . نُركب ماما والأختين على العربة ونغطيهما جيدا ، ونمشى نحن الاثنين الى جانبهما . وقد أركبك أنت أيضا من حين الى حين ، أما أنا فسأمشى على قدمى ، لأن علينا أن نراعى الحصان ونحافظ عليه ، فلا نركب جميعا حين نرحل .» تحمس الصبى تحمساً شديداً ، وكانت فكرة امتلاك حصان يستطيع هو أن يركبه هى التى تلهب حماسته أكثر من أى شىء آخر . ان الصبيان فى روسيا يولدون مع الخيل كما تعلم . وقد ثرثرنا مدة طويلة ، قلت لنفسى : «الحمد لله على أننى أستطعت أن أسرى عنه وأهدئ

نفسه» . حدث هذا فى مساء أمس الأول . ولكن كل شيء تغير مساء أمس من جديد . لقد ذهب صباحا من جديد الى هذه المدرسة وعاد منها مظلم الوجه مكفهر الأسارير أكثر من أى يوم مضى . وفى المساء أمسكته من يده لنقوم بنزهتنا اليومية . كان مصراً على الصمت فما ينطق بكلمة . الريح تهب قليلا ، والسحب تغطى الشمس ، والغسق يهبط . ان المرء يحس قدوم الخريف . كنا نسير دون أن نتكلم ، وفى قلب كل منا حزن دفين . قلت له آملاً أن نستأنف حديث الليلة البارحة : «هيه ! يجب علينا يا بنى أن نفكر قريبا فى الاعداد لسفرنا» . فلم يجب . ولكننى شعرت بأصابعه الصغيرة ترتجف فى يدى متشنجة . قلت لنفسى : «الحالة سيئة . . . لا شك أن هناك جديدا» . ومضينا الى تلك الصخرة التى تراها هناك . جلست على الصخرة . كان فى السماء طيارات كثيرة من طيارات الورق التى يطلقها الأولاد . انها تهمهم فى الفضاء وتقرقع . كان فى السماء يومئذ ثلاثون طيارة من هذه الطيارات على الأقل . ذلك هو الفصل الذى تطلق فيه هذه الطيارات فى الفضاء . قلت له : «لقد آن لنا يا أيليوشا أن نطلق طيارتنا نحن أيضا ، طيارة العام الماضى . سوف أتولى أنا اصلاحها . أين وضعتها ؟» لم يجب بشيء ، وانما أدار لى ظهره ناظراً الى جانب . وفجأة هبّت علينا ريح مثقلة بسحابة كبيرة من رمل . . . فاذا هو يرتمى علىّ ، ويحيطنى بذراعيه الصغيرتين ، ويشدنى اليه بجماع قواه . تعلم أن هذا النوع من الأطفال الصموتين المعتزين بأنفسهم يستطيعون أن يحبسوا دموعهم مدة طويلة ، ولكن حين ينفجر بكاؤهم أخيرا ، لأن عذابهم أصبح فوق طاقتهم ، فان عبراتهم تتدفق عندئذ كالسيول . فما هى الا طرفة عين حتى رطّب وجهى كله بدموعه .

كان ينتحب فى تشنج ، ويرتعد ارتعادا قويا من قمة رأسه الى اخمص قدميه ، ويشد جسمى اليه وأنا جالس على الصخرة . قال لى منتحباً : «بابا ! يا عزيزى ، ما اشد ما اذلّك !» فأجهشت ابكى أنا أيضا . وتعانقنا عناقا شديدا والدموع تهزنا كلينا . فكان ما ينفك يردد قوله : «. . . بابا حبيبى بابا !» ، وكنت أجيبه : «بنى . . . بنى الطيب ايليوشا !» . لم يرنا أحد فى تلك اللحظة . . . لم يرنا الا الرب من علياء سمائه . الرب الذى قد ينتصف لى . أشكر أخاك يا ألكسى فيدوروفتش . لا يا ألكسى فيدوروفتش ، لن أجلد ابنى لأسرّك وأرضيك !

عاد الضابط المتقاعد ، حين ختم قصته ، الى سخريته المرة الحانقة الوضيعة . ومع ذلك أحس أليوشا انه قد حظى بشيء من ثقة هذا الرجل ، وأن هذا الرجل ما كان له أن «يتحدث» الى غيره بهذه الطريقة ، وأن يقص على غيره ما قصّه عليه هو . وسُرّ أليوشا من ذلك . كان يرتعش من شدة التأثر ، وكانت دموعه تهم أن تسيل .

قال أليوشا :

— اوه ! لشد ما أتمنى ان أصالح ابنك ! ليتك تستطيع أن تهيئ . . .

فدمدم النقيب الركن يقول :

— طبعا . . . طبعا . . .

وتابع أليوشا كلامه يقول بحرارة :

— يجب علىّ الآن أن أكلمك فى شيء آخر . اصغ الىّ ! اننى مكلف بأن افاتحك فى أمر . ان أخى ذاك نفسه ، ان دمترى ذاك نفسه ، قد أهان خطيبته أيضا ، وهى فتاة نبيلة جدا أغلب ظنى أنك سمعت عنها . ومن حقى أن أكلمك عن

الاهانة التى ألحقها بها ، بل ان ذلك واجبى أيضا ، لأن هذه الفتاة بعد أن علمت بالاساءة التى نالتك ، وبعد أن عرفت حالتك البائسة . . . قد كلفتنى . . . قد عهدت الىَّ منذ قليل بمعونة صغيرة طلبت منى أن أقدمها اليك . اعلم أن هذه الفتاة هى التى ترسل اليك المعونة لا أخى دمترى الذى هجرها هى أيضا . . والمعونة ليست من دمترى على كل حال ، ولا منى أنا أخيه ، ولا من شخص آخر ، بل منها هى وحدها ! وهى تتوسل اليك أن تقبل معونتها . . . ألم يذلكما كليكما شخص واحد بعينه ثم انها لم تتذكرك الا بعد أن أُلحقت بها الاهانة نفسها التى أُلحقت بك (الاهانة نفسها بضخامتها) ! فهى اذن أخت تريد أن تساعد أخاها . . . لقد كلفتنى أن أطلب اليك قبول هاتين المائتين من الروبلات ، معونةً من أخت لأخيها . ولن يعلم أحد بالأمر ، ولن تروج أقاويل شريرة حول هـذا الموضوع . . . اليك المائتى روبل . . . عليك أن تقبلها . . . أحلف لك . . . والا كان على البشر أن يعدوا أنفسهم أعداء على هذه الأرض ! ولكن الأخوة موجودة فى هذا العالم . . . ان لك نفساً نبيلة . . . فلسوف تفهم . . . لسوف تفهم حتماً ! . . .

قال أليوشا ذلك ومدَّ الى الرجل ورقتين نقديتين جديدتين كل الجدة ، كل منهما بمائة روبل . وكانا فى تلك اللحظة قد وقفا قرب الصخرة الكبيرة الى جانب السياج ، ولم يكن حواليهما أحد . بدا أن الورقتين النقديتين قد أحدثتا فى نفس الضابط المتقاعد أثرا خارقاً . ارتعش فى أول لحظة ، ولكن ارتعاشه كان من الدهشة خاصةً . انه لم يحلم بشىء من هذا ، ولا كان يتوقع أن ينتهى الحديث بهذه الخاتمة . انه لم يخطر بباله فى لحظة من اللحظات ، حتى ولا أثناء النوم ، أن أحدا يمكن

أن يهبَّ الى مساعدته ، ولا سيما بمبلغ ضخم كهذا المبلغ . تناول الورقتين النقديتين ولبث قرابة دقيقة لا يستطيع أن يتكلم . وطاف فى وجهه تعبير جديد كل الجدة .

— أهذا لى ، لى أنا ، كل هذا المال ؟ مائتا روبل ؟ يا رب السماء ! اننى لم أر مبلغا ضخما كهذا المبلغ منذ أربع سنين ! أوه ! رباه ! وهى تعطينى هذا المبلغ كما تعطى أخت أخاها ؟ أهذا صحيح ؟ اهذا صحيح ؟

هتف أليوشا يقول :

— يميناً ما قلت لك الا الحقيقة !

احمر وجه النقيب الركن وقال :

— قل لى يا صديقى العزيز : لن أكون وغدًا اذا أنا قبلتها ، هذه الروبلات المائتين أليس كذلك ؟ أأكون وغداً فى نظرك ؟ اصغ الىَّ يا ألكسى فيدوروفتش ، اصغ الىَّ حتى النهايـة (كذلك أضاف يقول محموما وهو يلمس أليوشا بكلتا يديه فى كل لحظة) : انك تقنعنى بقبول هذا المال ، لأنه مرسل الىَّ من «أخت» ، ولكن ألن تشعر نحوى باحتقار وازدراء ، فى قرارة نفسك ، سراً ، اذا أنا أخذته ؟ قل . . . .

— يميناً لا . . . أحلف لك على هذا بخلاصى ! ثم ان أحدا لن يعلم بالأمر ، لن يعلم به أحد قـط الا نحن ، أعنى أنا وأنت وهى وسيدة أخرى هى صديقتهـا الكبرى . . .

— لا تهمنى السيدة ! دعنى أقول لك كل شىء ، يا ألكسى فيدوروفتش . اننى فى لحظة كهذه اللحظة أشعر بحاجة الى الافصاح عن كل ما بنفسى . — ثم أضاف الرجل البائس الذى أخذت تغزوه شيئا فشيئا حميًا مضطربة مشوشة توشك أن

تكون وحشية : — انك لا تستطيع حتى أن تتخيل قيمة هذه الروبلات المائتين بالنسبة الىّ اليوم . — كان يبدو على الضابط المتقاعد أنه أُفقد الصواب ، فهو يتكلم بتعجل قلق كأنه يخشى أن لا يسمح له باتمام كلامه ، وتابع يقول : — ان هذا المبلغ ليس مالاً حلالاً ترسله الىّ «أخت» محترمة مبجلة فحسب ، وانما أنا أستطيع أن أستعين به أيضا على مداواة الأم المسكينة وعلى معالجة بنتى الحبيبة ، ملاكى الحدباء ، نينوتشكا التى يمكننى أن أداويها ! لقد جاء الينا الدكتور هرتسنشتوبه فى ذات يوم ، شهامةً منه ونبلاً ، ففحصهما كلتيهما خلال ساعة كاملة ، فبعد أن قال : «اننى لم أفهم من الأمر شيئاً» ، ذكر أن الماء المعدنى (الذى وصفه للأم العزيزة) قد ينفعها كثيرا ، ويمكن شراؤه من الصيدلية فى مدينتنا . وقد وصف لها أيضاً حمامات للرجلين بأملاح طبية . وسعر الماء المعدنى ثلاثون كوبكا ، وعليها أن تشرب منه قرابة أربعين زجاجة . لقد أخذت الوصفة من الطبيب ، ووضعتها على الرف تحت الأيقونات ، وما تزال راقدةً هناك . وقد وصف كذلك لنينوتشكا حمامات ساخنة ببعض المحاليل ، قائلاً ان عليها أن تستحم مرتين فى اليوم ، مرةً فى الصباح ومرة فى المساء . فكيف يكون فى وسعنا ان نتبع هذا العلاج فى قصرنا ، بغير خادم ، بغير احد يساعدها ، وليس عندنا لا ماء ولا حوض ؟ ان نينوتشكا المسكينة تشكو من الروماتزم — لم أذكر لك هذا من قبل — وهى تشعر فى الليل بآلام شديدة فى كل الجانب الأيمن من جسمها ولكن هل تصدق ؟ ان هذه الملاك تغالب عذابها حتى لا تقلقنا ، وتمسك عن التوجع والأنين حتى لا تعكر علينا صفو نومنا . ونحن نأكل بقدر ما تتيح له مواردنا الضئيلة ان نأكل ، وما يصادف ان نلقاه . فهل

تصدق أنها تختار لنفسها فى كل مرة أسوأ قطعة من الطعام ، قطعة يتردد المرء أن يرميها لكلب ؟ وكأن عينيها الملائكيتين تقولان حينذاك : «أنا لا أستحق حتى هذا . أنا احرمكم من نصيبكم ، وانا عبء عليكم جميعا» . ونحن نساعدها ما وسعنا أن نساعدها ، فيؤلمها أننا نكلف أنفسنا عناءً فى سبيلها ، وكأنها تقول : «أنا لا أستحق هذا ! فما أنا الا مقعدة بلهاء لا فائدة منها» أهى لا تستحق ؟ هى ؟ مع أنها هى التى تفتدينا عند الرب بطيبتها الملائكية ! ألا ان الحياة لتصبح فى بيتنا جحيما بدونها ، وبدون الكلمات الحلوة الرقيقة العذبة التى تعرف كيف تقولها فى اللحظة المناسبة ! لقد استطاعت ان تليّن حتى فاريا ! واياك أن تظلم فرفارا نيكولايفنا ، انها هى أيضا ملاك . . مظلومة هى أيضا . . . لقد وصلت الينا هذا الصيف وفى جيبها ستة عشر روبلا كانت قد كسبتها من اعطاء دروس خاصة ، وقد ادخرت هذا المبلغ لتستطيع أن تدفع أجور سفرها حين عودتها الى بطرسبرج ، التى يجب أن تكون فيها فى شهر سبتمبر ، اى الآن . ولكننا أخذنا هذا المال وأنفقناه فى سدّ رمقنا . فبأية وسيلة يمكنها ان تعود الآن الى بطرسبرج . تلك هى المسألة . ثم انها لن تستطيع أن تسافر ، لأنها تعمل فى خدمتنا بالمنزل كما تعمل بهيمة مقرونة : تهتم بكل فرد من أفراد الأسرة ، وتصلح ما يحتاج الى اصلاح ، وترقع ما يجب ترقيعه ، وتغسل الثياب ، وتنظف الارض ، وتُرقد الأم فى سريرها ، والأم ذات نزوات تبكى لأيسر سبب ، فهى مجنونة ! . . وهاأنذا سأستطيع بهذه الروبلات المائتين أن أستخدم خادما . . . هل تفهم يا ألكسى فيدوروفتش ؟ سأستطيع أن أداوى المريضتين العزيزتين ، وتستطيع الطالبة أن تملك ما تسافر به الى بطرسبرج ، وسوف أشترى لحماً ،

فأحسنُ ما نصيبه عادةً من طعام . آه . . . يا رب السماء ! ما أجمله من حلم !

أسعد أليوشا كثيرا أنه استطاع أن يفرح الرجل المسكين هذا الفرح كله ، وهنأ نفسه على أن الرجل قد ارتضى قبول هذه السعادة .

ولاحت للضابط المتقاعد رؤية جديدة ، فاستأنف كلامه يقول بسرعة محمومة جياشة :

— لحظةً يا ألكسى فيدوروفتش ، لحظة أخرى ! هل تعلم أننى أملك الآن أن أحقق أمنية ايليوشا ؟ لسوف نشترى حصانا وعربة . وسيكون الحصان أكحل . ان ايليوشا يصرُّ على هذا اللون . وسنسافر ، كما وصفت له سفرنا أمس الأول . انى أعرف فى محافظة «ك» محاميا هو من أصدقاء الطفولة . وقد علمت من شخص موثوق به أن صديقى هذا سيعيننى كاتبا فى مكتبه اذا أنا ذهبت الى تلك المحافظة . من يدرى ؟ قد يستخدمنى فعلا . . . سأقعد الأم اذن على العربة ، وسأقعد عليها نينوتشكا أيضا ، ثم يمسك ايليوشا بزمام الحصان فيجره ، وأسير أنا على قدمى الى جانب العربة . وهكذا نرحل جميعا . . . يا رب السماء ! ليتنى أستطيع أن أسترد ذلك المبلغ الصغير الذى يدين لى به أحدهم هنا ، اذن لملكت من المال ما يكفينى حتى لهذه الرحلة !

صاح أليوشا يقول :

— ستملك ما أنت فى حاجة اليه ! سترسل اليك كاترينا ايفانوفنا من المال كل ما ستحتاج اليه . وأنا أيضا عندى بعض المال ، هل تعلم ذلك ؟ خذ منى ما أنت فى حاجة اليه ، خذه منى كما يأخذ أخ من أخيه ، كما يأخذ صديق من

صديقه . وسترده الىَّ فى المستقبل . . . (ذلك انك ستغتنى ، هذا مؤكد !) صدقنى اذا قلت لك ان فكرة السفر الى محافظة أخرى هى خير فكرة يمكن تخيلها ! ان فيها خلاصك ، وخلاص ابنك خاصةً . وأؤكد لك أن الاسراع أفضل شىء . سافر قبل حلول الشتاء ، سافر قبل اشتداد البرد . وستكتب الينا من هناك ، وسنظل اخوة . . . ليس هذا حلماً ، ليس هذا حلماً البتة !

ودَّ أليوشا لو يعانقه وهو فى غمرة الفرح هذه . ولكنه أمسك فجأةً حين نظر اليه . لقد مدَّ الرجل عنقه ، وقدَّم فمه ، شاحب اللون منقلب السحنة . ان شفتيه تختلجان ، كأنما هو يهمس بشىء أو يحاول أن يتكلم . ولكن لم يخرج من فمه أى صوت ، وظل يحرك شفتيه صامتا . منظر غريب مقلق .

سأله أليوشا وهو يرتعش دون أن يدرى لماذا :

— ما بك ؟

فتمتم الضابط المتقاعد يقول بصوت متقطع ، محدقا الى أليوشا بنظرة غريبة شاردة ، وقد بدا كأنسان يهمّ أن يهوى فى فراغ ، بينما شفتاه تصطنعان ابتسامة :

— ألكسى فيدوروفتش . . . اننى . . . أ . . . أنا . . . نعم . . . انى أ . . . — ثم قال فجأة بهمس سريع ، ولكن بلهجة جازمة ليس فيها الآن شىء من تقطع : — هل تريد أن أريك براعة صغيرة من براعاتى ؟

— براعة ؟

— نعم ، براعة من نوع براعة الحواة ! — كذلك أجاب الضابط المتقاعد فى همس أيضا . والتوى فمه الى الجانب الأيسر ، وضاقت عينه اليسرى ، وظل يحدق فى أليوشا دون أن يحول عنه عينيه ، وكأنما انجذب اليه

فهتف أليوشا مذعورا كل الذعر :

— ولكن ماذا بك ؟ أية براعة ؟

فقال الضابط المتقاعد فجأة بصوت حاد :

— هذه . . هى براعة . . أنظر !

قال ذلك ثم أراه الورقتين النقديتين اللتين ظل طوال الحديث يمسكهما مشدودتين بين السبابة والابهام من يمناه ، ثم اذا هو يقبض عليهما فما يزال يدعكهما فى قبضة يده بعنف وقوة حتى سحقهما سحقا وقد أخذ منه الحنق كل مأخذ .

ثم صرخ يقول لأليوشا بصوت ثاقب :

— فهل رأيت ؟ هل رأيت هذه المرة ؟

ثم رفع قبضة يده شاحب الوجه مرتعد الجسم ، فرمى الورقتين المسحوقتين على الرمل . وعاد يعول من جديد قائلا وهو يشير اليهما باصبعه :

— هل تراهما ؟ اليك هما ! . .

ثم رفع قدمه اليمنى ، فأخذ يدوسهما بحنق مسعور وحشى ، وهو يصرخ بصوت لاهث بعد كل دوسة عليهما :

— أنظر ماذا أفعل بمالك ، أنظر ماذا أفعل به ! أنظر اليهما ، ورقتيك ! . . — ثم تراجع خطوة الى وراء ، على حين فجأة ، ووقف أمام أليوشا منتصب القامة . كان وجهه يعبر عندئذ عن كبرياء لا توصف .

وهتف يقول وهو يمد ذراعه :

— قل للذين أرسلوك أن ليفة الحمام لا تبيع شرفها ! —

ثم استدار فجأة ، ومضى راكضا . ولكنه ما ان قطع خمس خطوات حتى التفت نحو أليوشا ، وحرك له يده مودعا . ثم ما ان قطع خمس خطوات أخرى حتى توقف ملتفتاً نحو أليوشا مرة

ثانية . كانت الابتسامة الساخرة قد اختفت من وجهه وحلت محلها دموع . وبصوت مختلج تقطعه شهقات انتحاب ، صاح يسأل أليوشا من خلال عبرات يحاول أن يكظمها فتشطر كلماته شطرين :

— ماذا كان يمكنني أن أقول لابنى لو قبلت مالكم ثمناً لعارنا ؟

قال ذلك وانصرف راكضا دون أن يلتفت مرة أخرى . تابعه أليوشا بنظره وهو يشعر بحزن عميق . وأدرك أليوشا أن هذا الرجل لم يكن قد خطر بباله ، حتى آخر لحظة ، أنه سيدعك الورقتين النقديتين وأنه سيرميهما . انه الآن يركض ، دون أن يلتفت الى الوراء ولو مرة . كان أليوشا على يقين من أنه لن يلتفت . ولم يشأ أليوشا لا أن يناديه ، ولا أن يجرى وراءه ليدركه وكان يعرف السبب . حتى اذا غاب الرجل عن بصره ، تناول الورقتين اللتين كانتا مدعوكتين مسحوقتين غائرتين فى الرمل ، ولكن دون ان يصيبهما أى تمزق ، وأخذ يبسطهما فيسمع قرقعتهما بين أصابعه كأنهما جديدتان . حتى اذا أزال عنهما ما نالهما من دعك ، عاد فطواهما ودسهما فى جيبه . ثم سار فى طريقه ليبلغ كاترينا ايفانوفنا ثمرة مسعاه فى انفاذ ما عهدت اليه بانفاذه .

الباب الخامس

Contra, Pro [1]

١

الخطوبة

كانت السيدة خوخلاكوفا هي أول من استقبل أليوشا من جديد في الدهليز. وكانت مستعجلة، فقد وقع حادث خطير: ان نوبة الهستريا التي أصابت كاترينا ايفانوفنا قد انتهت الى اغماء أعقبه «ضعف فظيع واعياء رهيب». لقد رقدت كاترينا ايفانوفنا، وأغمضت عينيها، وأخذت تهذي، وارتفعت حرارتها. واستدعي الدكتور هرتسنشتوبه والخالتين، فوصلت الخالتان، ولكن الطبيب تأخر وصوله. الجميع محتشدون الآن في غرفتها. انهم ينتظرون قلقين خائفين. ما عسى يحدث؟ انها في غيبوبة. الخوف أن تكون قد أصابتها حمى!»

كانت هيئة السيدة خوخلاكوفا تدل على ذعر حق. فهي تصيح في كل لحظة قائلة لأليوشا من أجل أن تطلعه على الواقع: «الأمر في هذه المرة خطير، خطير جدا!»، كأن كل ما جرى حتى ذلك الحين لم يكن على شيء من خطورة. كان أليوشا يصغي اليها بمرارة. أراد أن ينهي اليها نتيجة المساعي التي قام

[1] ما للأمر وما عليه (باللاتينية في الأصل).

بها، ولكنها كانت تقاطعه منذ أن ينطق بأول كلمة قائلة له ان وقتها لا يتسع للاستماع اليه، وطلبت منه أن يتفضل فينتظر عند Lise، واعدة اياه أن تلحق به فيما بعد.

قالت له بما يشبه الهمس في أذنه:

— تصور يا عزيزي ألكسي فيدوروفتش! لقد أدهشتني Lise أشد الدهشة منذ قليل، ولكنها تبلغ من التأثير في قلبي أنني أغفر لها راضية. ما ان خرجت أنت حتى استبدت بها ندامة صادقة جدا، لأنها فيما تزعم قد سخرت منك أمس واليوم. الحقيقة أنها لم تسخر سخراً، فأنا أعرفها، وانما هي مزحت مزاحاً. ومع ذلك فقد بلغت من الأسف العميق أنها أوشكت ان تبكي، فما وسعني الا أن أدهش. لم يتفق لها أن ندمت يوماً حين كانت تسخر مني، سخراً لا خبث فيه على كل حال. وهي تسخر مني بغير انقطاع كما تعلم. أما الآن فالأمر خطير. لقد أصبح كل شيء خطيراً. انها تحرص كثيراً على رأيك يا ألكسي فيدوروفتش، وما ينبغي لك أن تؤاخذها وأن تستاء منها. أنا شخصيا أتساهل معها وأرأف بها لأنها ذكية جدا... ليتك تعلم كم هي لطيفة وذكية! ولقد ذكرت لي منذ هنيهة أنك كنت صديق طفولتها، أنك كنت «صديق طفولتي الأكثر شأنا». الصديق الأكثر شأنا، هل تفهم؟ فأين مكاني أنا من نفسها اذن؟ ان لها في هذا المجال عواطف عميقة وحتى ذكريات. وهنالك خاصةً تلك العبارات وتلك الكلمات التي تجيد استعمالها تلك التراكيب التي لا يتوقعها المرء! ذلك يخرج من فمها فجأة، ارتجالاً. قصة الصنوبر تلك مثلاً. لقد كان في حديقتنا شجرة صنوبر، أيام كانت Lise صغيرة جدا. أحسب أن هذه الشجرة ما تزال موجودة الى الآن، فما ينبغي أن تتحدث عنها بصيغة

الفعل الماضي . ليست الأشجار بشرا يا ألكسي فيدوروفتش ، انها لا تتغير مدة طويلة . قالت Lise منذ أيام : «ماما ، انني أتذكر شجرة الصنوبر هذه كأنها في حلم ، أي "sosna kak So sna" . الحق أنها قالت لي ذلك بطريقة أخرى » . نسيت الآن كيف قالت لي ذلك . المهم أن كلمة الصنوبر كلمة سخيفة في ذاتها . ولكن Lise بلغت من الطرافة والأصالة في توشيتها أنني لا أستطيع أن أقلدها . ثم ان هذا كله قد خرج من رأسي . والآن ، الى اللقاء . ان هذه الأحداث قد قلبت نفسي رأساً على عقب ، حتى لأخشى أن تذهب بعقلي . لقد أوشكت يا عزيزي ألكسي فيدوروفتش أن أُجنّ مرتين في حياتي . فاضطروا الى معالجتي . اذهب الى Lise ، وواسها كما تجيد أنت ذلك ايما اجادة .

ثم صرخت وهي تقترب من الباب :

— Lise ! جئتك بألكسي فيدوروفتش الذي تظنين أنك أسأت اليه اساءة كبرى . انه غير غاضب منك ولا عاتب عليك ، أؤكد لك ذلك ، بل انه ليدهشه أن يكون قد خطر ببالك هذا الخاطر !

— Merci, maman! ادخل يا ألكسي فيدوروفتش .

دخل أليوشا الغرفة . ان Lise تبدو خجلى خجلاً قوياً ، فقد احمر وجهها فجأة حتى الأذنين . كان واضحاً أنها تشعر بشيء من الخزي . وكما يحدث دائما في مثل هذه الحالة ، طفقت تتحدث في أمور لا شأن لها ، متظاهرة بأنها مهتمة بها في هذه اللحظة اهتماما كبيرا . قالت :

— حدثتني أمي منذ برهة يا ألكسي فيدوروفتش عن المائتي روبل ، وعن المهمة التي كلفت بها . . . لدى ذلك الضابط

المسكين . . . وقد وصفت لي الاهانة الفظيعة التي أُلحقت به . . . رغم أن أمي لا تحسن سرد قصة من القصص ، وانما هي تخلط الأمور بعضها ببعض ، وتُسقط في جميع الأحيان تفاصيل هامة . . . لقد تأثرت تأثراً شديداً ، وبكيت . فقل لي الآن : هل أعطيته المبلغ وكيف تصرف هذا الانسان الشقي ؟ »

أجاب أليوشا متظاهراً هو أيضا بأن اخفاقه في اعطاء النقود هو ما يشغل باله :

— المشكلة هي أنني لم أعطه المبلغ ، تلك قصة طويلة !

وأدركت Lise مع ذلك، أنه يشيح عينيه في ضيق وحرج ، ويحاول مثلها تماما أن يتحدث في أمور ليست بذات بال . وجلس أليوشا قرب المائدة وأخذ يروي الحكاية ، فما ان قال بضع كلمات حتى زال ارتباكه تماما ، وحتى أسر انتباه Lise . كان يتكلم وهو تحت وطأة الانفعال الذي ما يزال قوياً في نفسه ، والتأثير الهائل الذي تركه الحادث القريب فيه . وقد عرف كيف يروي القصة رواية أمينة صادقة ، جذابة أخاذة . كان قد اعتاد في الماضي ، بموسكو ، أن يجيء الى Lise أيام كانت ما تزال طفلة صغيرة ، فيقص عليها حادثاً وقع له منذ وقت قصير ، أو يحدثها عن قراءاته ، أو يثير أمامها ذكرى من ذكريات سنيه الأولى ، فكان يتفق لهما في كثير من الأحيان أن يلفقا أحلاما مشتركة أو أن يخترعا حكايات هي في الغالب مضحكة خيالية غريبة . وها هما يستعيدان الآن جو موسكو ، ومناخ الحياة التي قضياها هنالك قبل سنتين . اضطربت Lise من رواية هذه القصة اضطرابا قوياً . لقد عرف أليوشا كيف يرسم للصبي ايليوشا صورة حارة . فلما فرغ من سرد جميع تفاصيل المشهد ، ووصف

كيف داس ذلك الرجل المسكين الورقتين النقديتين ، هتفت Lise تقول وقد استبد بها انفعال عنيف :

— ألم تعطه المال اذن ؟ أتركته ينصرف ؟ أوه ! يارب ! كان عليك أن تلحق به وأن تدركه . . .

— لا يا Lise ، لقد كنت على حق حين لم أحاول أن أدركه . ذلك أفضل . . .

قال أليوشا ذلك وهو ينهض من كرسيه ، وأخذ يسير مهموما في الغرفة .

— هذا أفضل ؟ كيف يكون هذا أفضل ؟ لسوف يهلكون الآن !

— لن يهلكوا ، لأن هاتين المائتين من الروبلات ستصلهما على كل حال . سيقبلهما في الغد حتماً .

ثم تابع كلامه يقول وهو ما يزال يسير في الغرفة مطرقاً مفكراً :

— نعم . . لن يعارض في الغد . . هذا أكيد . . .

ولم يلبث أن توقف فجأة أمامها فقال :

— لقد ارتكبت خطأ ، ولكن هذا الخطأ ستكون له ثمرات طيبة .

— اى خطأ ؟ ولماذا ستكون له ثمرات طيبة ؟

— اسمعي . ان هذا الرجل له طبع ضعيف وجل . لقد أرهقه القدر ، ولكن له قلباً طيباً . حاولت أن أفهم لماذا شعر فجأةً بأنه أُهين فأخذ يدوس هاتين الورقتين النقديتين ، ذلك أنه كان هو نفسه يجهل حتى آخر لحظة أنه سيتصرف هذا التصرف ، ثق بهذا ! وأحسب أن هناك أسبابا كثيرة جعلت شعوره يُجرح . . . وكان ذلك أمراً لا بد منه وحالته هكذا . . . فهو أولا قد أسرف

في اظهار ابتهاجه بهذا المال أمامي ، ولم يكتم سعادتـــه . فلو أنه اغتبط اغتباطا أقل ، لو أنه امتنع عن اظهار هذا الاغتباط ، لو أنه اصطنع أوضاعاً واتخذ مظاهر كما يفعل كثير من الناس لأخذ المال ، لقبل الوضع بسهولة أكبر ، ولما رفض هذه المساعدة . لقد أسرف في الصدق والاخلاص ، وذلك هو ما يجرح شعوره . آه يا Lise ! انه انسان طيب صادق ، وهذا يصعب الأمور دائما في مثل هذه الأحوال ! لقد كان طوال مدة حديثنا يتكلم بصوت ضعيف مرهق مكدود متعجل . وكان يضحك ضحكة صغيرة أيضا . . . يضحك أو يبكي . . . لقد كانت ضحكاته أقرب الى البكاء . . كان يبكي حماسةً . . . حدثني عن ابنتيه . . . عن الوظيفة التي عُرضت عليه في مدينة أخرى . . . لقد فتح لي قلبه ، وأسرَّ لي بذات نفسه ، فما لبث بعد ذلك أن شعر من ذلك بخزي وعار . . . ثم اذا هو يشعر نحوي بكره على حين فجأة . انه واحد من أولئك الناس المساكين الذين يسرفون في الاحساس بالخجل والعار . لقد شعر بالذل من انه سارع يعدني صديقا ، وأنه استسلم لي بغير مقاومة . في بيته كان قد هدَّدني وتوعَّدني تقريبا ، ثم ها هو ذا حين تلقى المال يسارع فيوشك أن يرتمي على عنقي . لقد ودَّ لو يعانقني ، وكانت يداه تلامساني في كل لحظة . فلهذه الاسباب جميعا أحسَّ أنه أذلَّ نفسه أمامي ، ومما زاد الطين بلةً أنني ارتكبت ذلك الخطأ ، أنني قارفت تلك الغلطة الخطيرة : لقد صرَّحت له فجأة بأنه سيُمنح مزيدا من المال اذا كان ما يملكه لا يكفيه للهجرة الى مدينة أخرى ، حتى لقد عرضت عليه أن أسهم أنا في ذلك بمالي اسهاماً كبيراً . ذلك ما فاجأه . لقد تساءل : لماذا أقحم نفسي في مساعدته أنا أيضاً ؟ يجب أن تعلمي يا Lise أن المذلين

أمثاله لا يحبون أن يعتبر جميع الناس أنفسهم محسنين اليهم . . . سمعت هذا الرأى كثيرا ، ولا سيما من الشيخ زوسيما . لا أعرف كيف أوضح هذه الحقيقة ، ولكن أتيح لى أن ألاحظها بنفسى مرارا . ثم اننى أشعر بذلك فى ذات نفسى . يجب أن نتصور خاصةً أنه رغم جهله حتى آخر لحظة بأنه سيدوس المال أخيرا ، كان يشعر بذلك شعورا غامضا مبهما . هذا أكيد . ولم تكن حماسته فائضة ذلك الفيض كله الا لأنه كان يحس هذا الاحساس الغامض . . . على كل حال ، مهما تكن هذه الخاتمة داعيةً الى الأسف والحسرة ، فان فيها الخير كله بل اننى لعلى يقين بان ما حدث كان هو الافضل ، بل ليس هناك ما هو افضل منه . .

— لماذا ليس هناك ما هو فضل منه ، لماذا ؟

كذلك هتفت Lise وهى تلقى على أليوشا نظرة دهشة . فقال أليوشا :

— لو أنه لم يدس الورقتين النقديتين بقدميه ، لو أنه أخذ المال ، اذن لراح يبكى فى بيته من الذل بعد ساعة او ساعتين ، ذلك أمر محتوم ، ولندم على ما فعل ولجاءنى مع الغد حانقاً ساخطا ليرمى بهما فى وجهى ، أو ليدوسهما بقدميه كما فعل منذ قليل . أما وقد صنع ما صنع ، فسيشعر بعد الآن بالكبرياء ، والظفر ، رغم علمه بأنه قد «ضيَّع بفعلته نفسه» . يترتب على ذلك أنه لن يكون هنالك شىء أسهل من ردّه الى قبول هاتين المائتين من الروبلات فى الغد ، ما دام قد برهن على شرفه برفض المال ودوسه . . ذلك أنه حين أخذ يدوس الورقتين بقدميه لم يكن يتنبأ أننى سأردهما اليه فى الغداة من جديد . وهو فى حاجة رهيبة الى هذه المساعدة المالية ؛ ومهما يبلغ

من الشعور بالكبرياء ، فانه سيظل يفكر طوال النهار فى المعونة الكبيرة التى فقدها . وسيكون أمره فى الليل أدهى ، فان الندم والحسرة سيعذبانه فى أحلامه ، فما ان يطلع الصبح حتى يكون ميالا الى المجىء الىَّ معتذراً . وفى تلك اللحظة انما آتى اليه أنا ، فأقول له معترفاً : «أنت انسان كريم على نفسك ، وقد برهنت على ذلك ، فاقبل الآن هذا المال ، واغفر لنا» . وسوف يقبل المال عندئذ ، ما فى ذلك ريب !

نطق أليوشا هذه الكلمات الأخيرة وهو فيما يشبه النشوة . وصفقت Lise يديها احداهما بالأخرى ، وقالت :

— هذا صحيح جدا ! هذا واضح جدا ! فهمت كل شىء فهماً تاماً ! أوه ! أليوشا ، كيف تستطيع أن تعرف هذه الأشياء كلها ؟ ما تزال فى ريعان الشباب ثم تدرك ما يجرى فى النفس الانسانية هذا الادراك العميق . . ما كان لى أنا أن أستطيع ذلك . . .

تابع أليوشا كلامه يقول وهو فى غمرة نشوته :

— الأمر الأساسى الآن هو أن نقنعه بأنه يقف معنا على قدم المساواة رغم أنه يقبل أخذ المال منا . يجب أن يشعر بأنه لا يقف معنا على قدم المساواة فحسب ، بل على اعلى قدم أيضا . . .

— «على أعلى قدم» هذا تعبير رائع يا ألكسى فيدوروفتش ، ولكن تابع كلامك !

— أقصد . . الحق أننى لم أحسن الافصاح . . لا . . ليس الأمر أمر أعلى قدم . . ولكن سيان . . .

— طبعا . . . سيان . . . أنت على حق ! اغفر لى يا أليوشا ، يا عزيزى أليوشا . . لقد كنت حتى الآن لا أكاد

أحترمك كثيرا ، هل تعلم ؟ أقصد . . . كنت أحترمك ، ولكن على قدم المساواة ، أما بعد الآن فسأحترمك على اعلى قدم . . .

أردفت تقول فورا بحرارة :

— لا تؤاخذنى يا صديقى العزيز اذا أنا تفكهت وتندرت قليلا . أنا فتاة صغيرة تحب أن تضحك ، ولكن أنت ، أنت . . . قل لى يا ألكسى فيدوروفتش ، ألا تظن أن فى استدلالاتنا ، أو قل فى استدلالاتك أنت — لا فى استدلالاتنا نحن — شيئاً من الاستخفاف بهذا المسكين ، شيئا من الاحتقار له ؟ ألا نضع أنفسنا فوقه بتشريح عواطفه هذا وباقتناعنا منذ الآن بأنه سيقبل أخذ المال ؟

فأجاب أليوشا بلهجة جازمة ، كأنه كان ينتظر هذا السؤال :

— لا يا Lise ، ليس يداخل هذا شىء من احتقار البتة . لقد ألقيت على نفسى هذا السؤال ذاته وأنا عائد الى هنا . فكرى قليلا : كيف يمكننا أن نحتقره ونحن جميعا مثله ، كيف يمكننا أن نحتقره والبشر جميعا مثله ؟ ذلك أننا لسنا خيراً من هذا المسكين ، وهبينا خيراً منه الآن ، فاننا لن نبقى خيراً منه متى وجُدنا فى ظرف كالظرف الذى هو فيه . . لا أستطيع أن أقطع برأى فيما يتصل بك أنت يا Lise ، ولكننى على يقين من أن نفسى صغيرة فى كثير من النواحى . أما ذلك الضابط فليست نفسه صغيرة ، بل بالعكس ، مرهفة جدا . . لا يا Lise ، صدقينى ، ليس فى موقفنا هذا أى احتقار أبدا ! هل تعرفين ماذا علمنى شيخى مرة ؟ قال لى : يجب أن تعامل أكثر الناس معاملتك أطفالاً ، وأن تعامل بعض الناس معاملتك مرضى .

— آه يا ألكسى فيدوروفتش ، آه يا صديقى ! لننذر

نفسينا أنا وأنت للاهتمام بالناس كما لو كانوا مرضى !

— أوافق يا Lise ، أتمنى . ولكننى لست متأهباً بعد كل التأهب . ان صبرى ينفد فى بعض الأحيان . وفى أحيان أخرى أرانى غائباً فما ألاحظ شيئا . أما أنت فشأنك شأن آخر .

— لا أصدق من هذا الكلام شيئاً ! آه يا ألكسى فيدوروفتش ! ما أعظم سعادتى !

— ما أحلى أن أسمعك تقولين هذا يا Lise !

— ألكسى فيدوروفتش ، أنت طيب طيبة خارقة . ولكنك تتصرف فى بعض اللحظات كمتحذلق قليلا . . . ومع ذلك ، فى واقع الأمر ، فلست كذلك أبدا . . . اقترب من الباب ، فافتحه بلا ضجة ، وتأكد من أن ماما ليست تتنصت علينا .

كذلك أضافت Lise تقول بهمس سريع عصبى .

فاتجه أليوشا نحو الباب ، فشقه قليلا ، ثم عاد فقال ان أحدا لا يتجسس عليهما .

وتابعت Lise كلامها تقول وهى تزداد احمرارا :

— اقترب منى يا ألكسى فيدوروفتش . . هات يدك . . . هكذا . . . يجب أن أبوح لك بسر كبير : ان الرسالة التى بعثت بها اليك أمس لم تكن مزاحا ، بل جداً . . .

قالت ذلك وغطت عينيها بيدها . كان واضحا أنها تشعر من هذا الاعتراف بحياء شديد . وفجأة ، أمسكت يد أليوشا فلثمتها ثلاث مرات بعنف وقوة وحرارة .

هتف أليوشا يقول :

— أوه ! Lise ! حسن منك هذا ! ولقد كنت مقتنعا كل الاقتناع بأنك كنت جادة فى رسالتك .

— كنت مقتنعا ؟ أهذا كلام ؟

قالت ذلك وأقصت عنها يد أليوشا ، ولكن دون أن تتركها ، وقد احمر وجهها احمرارا شديدا مرة أخرى ، وضحكت ضحكة خفيفة سعيدة .

— ألثم يده فيقول «حسن منك هذا» !

على أن هذا اللوم كان لا يخلو من ظلم ، فلقد كان أليوشا يشعر باضطراب شديد هو أيضا .

تمتم يقول بخراقة ، وهو يحمرُّ أيضاً :

— لشد ما أحب أن أرضيك يا Lise ، ولكننى لا أعرف كيف أحتال لهذا .

— أليوشا ، عزيزى ، أنت فاتر ووقح . أليس هذا ما يمكن أن يتصوره المرء ؟ لقد تفضل فاختارنى زوجةً له ثم ها هو ذا هادئ النفس ! كان مقتنعاً بأننى جادة فى رسالتى ، لا مؤاخذة ! ولكن هذه وقاحة ، لا غير . . .

سألها أليوشا ضاحكا :

— أكان عيباً الى هذا الحد اذن أننى كنت مقتنعاً بذلك ؟

فقالت له Lise وهى تلقى عليه نظرة حنونا سعيدة :

— أوه ! أليوشا ! بالعكس . . . كان ذلك منك حسنا جدا ، حسنا جدا جدا .

وكان أليوشا ما يزال واقفا ، ويده فى يدها ، فما هى الا لحظة حتى مال عليها فجأة فقبلها فى فمها .

هتفت Lise :

— ما هذا أيضا ؟ ماذا دهاك ؟

كان أليوشا قد انذهل تماما . قال :

— اغفرى لى . . . ان كنت قد أخطأت . . . لعلنى . . . حقا انها لحماقة رهيبة . . . لقد أخذت علىَّ أننى بارد ،

لذلك . . . قبلتك . . . ولكننى أدرك الآن أن هذا كان حماقة منى . . .

انفجرت Lise ضاحكة ، وأخفت وجهها بيديها . ولم تملك أن تمنع نفسها من أن تقول له من خلال ضحكها :

— وأنت فى مسوح الراهب ! — ثم توقفت عن الضحك فجأة ، وقد اتخذ وجهها هيئة رصينة بل قاسية ، وقالت : — ان علينا أن ننتظر قليلا فيما يتعلق بالقبلات يا أليوشا . نحن لا نعرف حتى الآن كيف نتدبرها ، لا أنا ولا أنت . لا بد لنا أن ننتظر زمنا طويلا أيضا . — بهذا ختمت كلامها فجأة . ثم أردفت بعد لحظة تقول : — ولكن اشرح لى : ما الذى حملك على أن تختار بلهاء حقيرة مثلى هى فوق ذلك كسيحة ، فى حين أنك على هذا الجانب العظيم من الذكاء والتعقل والفطنة ؟ . أوه ! أليوشا ، أنا سعيدة جدا ، لأننى لا أستحقك أبدا !

— لا تقولى مثل هذا الكلام يا Lise . سوف أترك الدير تماما بعد بضعة أيام . فاذا عشت فى الدنيا فسيكون علىَّ أن أتزوج ، أنا أعرف ذلك . ثم انه هو الذى أمرنى بهذا . فأين عسى أجد امرأة خيرا منك . . . ومن عسى يريدنى سواك ؟ لقد فكرت فى كل شىء . . . أنت أولا تعرفيننى منذ الطفولة . وأنت ثانيا تملكين مزايا كثيرة لا أملكها . نفسك أقرب الى المرح من نفسى . وأنت خاصةً أكثر براءة منى . فأنا قد عرفت حتى الآن أشياء كثيرة . . . أوه ! أنت لا تعلمين هذا ! أنا أيضا كارامازوف ! أى ضير فى أن تضحكى وأن تمزحى دائما وأن تسخرى حتى منى ؟ بالعكس : اسخرى ما شاء لك هواك أن تسخرى . . انى لأسعد بهذا . . . انك تضحكين كطفلة صغيرة ، وتفكرين بينك وبين نفسك كشهيدة .

— شهيدة ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

— نعم يا Lise . انظرى مثلا فى ذلك السؤال الذى ألقيته منذ لحظات حين قلت : أليس فى نفسنا شىء من احتقار لذلك الضابط المسكين الذى نشرح قلبه ؟ تلك فكرة جديرة بالشهداء يا Lise . . لست أعرف كيف أفصح عما أريد أن أقول ، غير أن من يشعر بمثل هذه الأنواع من القلق قادر فى رأيى على أن يتألم كثيرا . . لا شك أنك قلّبت معانى كثيرة وأنت قاعدة على هذا الكرسى . . .

قالت Lise بصوت أوهنته السعادة :

— أليوشا ، ناولنى يدك ! لماذا تسحبها دائما ؟ قل لى يا أليوشا : أى زى تنوى أن ترتدى حين تترك الدير ؟ لا تضحك ، ولا تغضب ، ذلك أن هذا الأمر يهمنى كثيرا .

— لم أفكر بعد فى الزى الذى سأرتديه يا Lise ولكننى سألبس ما يرضيك .

قالت Lise :

— أحب أن ترتدى سترةً من مخمل أزرق قاتم ، وصديرة من «بيكيه» بيضاء ، وقبعة رمادية من جوخ طرى . . قل لى الحقيقة : لقد صدّقتَ فى مساء أمس أننى لا أحبك ، حين تنكرتُ لرسالتى ، أليس كذلك ؟

— لا . . لم أصدق .

— أوه ! ألا انك لفتى لا سبيل الى اصلاحه ! انك لا تطاق ، هل تعلم ذلك ؟

— كنت أعرف أنك . . تحبيننى ، ولكننى تظاهرت باننى أعتقد بأنك لا تحبيننى . . . وذلك لأجعلك . . . أكثر ارتياحا . .

— هذا شر وأدهى ! ولكن لا . . هذا أدهى وأفضل معا ! اننى أحبك حباً رهيباً يا أليوشا ! قلت لنفسى فى هذا الصباح وأنا أنتظر زيارتك : «سأطلب منه مرة ثانية أن يردّ الىّ رسالتى ، فاذا أخرجها من جيبه بلا مقاومة فمدّها الىّ (كما يمكن توقع ذلك منه) فانه يكون فتى أبله لا يحبنى اطلاقا ولا يشعر بشىء ولا يستحق حبى . . وأكون أنا قد هلكت» . غير أنك تركت الرسالة فى الدير ، فردّ هذا الىّ شيئاً من شجاعتى . انك لم تحملها لأنك كنت تحس سلفاً أننى قد أطلبها منك ، وأنت لا تريد أن تردها ، أليس كذلك ؟ قل ! نعم ؟

— أوه ! Lise ! كلا . . الرسالة معى الآن ، ولقد كانت معى من قبل ، هى هنا ، فى هذا الجيب . انظرى !

قال أليوشا ذلك وأخرج الرسالة من جيبه ضاحكا ، وأظهرها عليها من بعيد ، ثم أضاف :

— اعلمى مع ذلك أننى لن أردها اليك . انظرى اليها من بعيد .

— كيف هذا ؟ أكذبت اذن حين طالبتك بها ؟ كذبت وأنت راهب ؟

فقال أليوشا وهو يضحك :

— ربما كذبت ! لقد أبيت أن أقول الحقيقة حتى لا أردّ اليك الرسالة . — ثم أضاف يقول بانفعال شديد وقد احمر وجهه من جديد : — هذه الرسالة عزيزة علىّ الى أقصى حد . سأحتفظ بها ما حييت ، ولن يستطيع أحد أن ينتزعها منى !

كانت Lise شاخصةً اليه ببصرها مأخوذة مفتونة . ثم قالت له هامسة :

— أليوشا ! هيّا انظر ألا تتنصت علينا ماما وراء الباب ؟

— طيب يا Lise ، سأنظر ما دمت تريدين ذلك . ولكن أليس الأفضل أن لا تحاول التثبت من هذا ؟ لماذا نظن في أملك هذا الظن ؟ لماذا تتصور أنها يمكن أن ترتكب سماجة كهذه ؟

فقالت Lise مستاءةً وقد احمرّ وجهها احمراراً شديداً :

— أية سماجة ؟ فيم الكلام عن السماجة ؟ هل من السماجة أن تراقب أمٌ ابنتها وأن تحاول سماع أحاديثها ؟ ان من حق الأم أن تفعل هذا مع ابنتها . وليس في عملها ذاك أي سماجة . كن على يقين يا ألكسي فيدوروفتش من أنني حين سيكون لي ابنة أنا أيضا ، فلن يفوتني أن أتجسس عليها في كل مناسبة !

— صحيح ؟ ولكن هذا شر يا Lise !

— لماذا يكون هذا شراً ؟ أي ضير فيه ؟ لو قد تجسست هذا التجسس على حديث عادي يجرى في المجتمع ، اذن لكان ذلك مني ضعةً وحقارة بدون ريب . أما هنا فالامر مختلف كل الاختلاف . هنا فتاة مختلية بشاب . . اسمع يا أليوشا : أحب أن أقول لك منذ الآن انني سأراقبك أنا أيضا متى تم زواجنا ، وسأفض بريدك ، وأقرأ جميع رسائلك . . . اعلم هذا . هاأناذا أبلغك منذ الآن .

— طبعا . . . ما دمت تريدين ذلك . . . ولكن هذا ليس حسناً ، صدقيني . . .

بهذا تمتم أليوشا . فقالت Lise :

— أوه ! هذا الاحتقار ! أليوشا ، صديقي ، لا نتشاجرن منذ أول يوم . انني أوثر أن أعترف لك بالحقيقة : أنا أعرف أن التجسس على الناس معيب جدا . لقد أخطأت أنا طبعا ،

وأصبت أنت . ولكنني سأراقبك مع ذلك .

فقال أليوشا ضاحكاً :

— راقبيني ، راقبيني . ولن تكتشفي أشياء كثيرة ، أقول لك ذلك منذ الآن .

— أليوشا ، هل ستطيعني ؟ تلك أيضا مسألة يجب أن نسوّيها سلفاً .

— بكل سرور يا Lise ، سأطيعك حتما ، ولكن لا في الأمور الأساسية . في الشئون الهامة ، سأعمل بما يمليه عليّ ضميري ، حتى ولو خالفتني .

— هذا لابد منه . ألا فاعلم يا أليوشا أنني مستعدة من جهتي لأن أطيعك لا في الشئون الاساسية فحسب ، بل في كل شيء ، سأتنازل لك عن كل شيء ، مدى الحياة . . . أعاهدك على هذا منذ الآن . واذا خضعت لك ، فانني أخضع راضية سعيدة فرحة ! (كذلك هتفت Lise تقول بحرارة) . واني لأحلف لك أيضا أنني لن أراقبك أبدا ، لن أراقبك مرة واحدة ، لا ولن أقرأ رسائلك قط ، في يوم من الأيام . ذلك أنك على حق ، وانني على خطأ . أعرف أن رغبة رهيبة في مراقبتك سوف تتأجج في نفسي ، ولكنني سأحبس هذه الرغبة ، لأن هذا معيب في نظرك . ستكون لي بمثابة العناية الالهية . . . اسمع يا ألكسي فيدوروفتش : لماذا أنت حزين هذا الحزن كله في هذه الآونة الأخيرة ، أمس واليوم ؟ أنا أعرف أن هناك أنواعاً من الهم والقلق تملأ جوانب نفسك ، ولكنني لاحظت فيك حزنا خاصا . . . أهو ألم سري ؟

قال أليوشا بصوت مكبوح :

— نعم يا Lise ، هو حزن سري . انني أرى أنك

تحبينني حقا ما دمت قد أدركت ذلك .

سألته Lise بلهجة فيها رجاء وضراعة :

ـــ ما سبب حزنك ؟ هل أستطيع أن أعرفه ؟

فأجابها أليوشا محرَجاً :

ـــ سأذكره لك يا Lise . . . ولكن فيما بعد . اذا حدثتك الآن عن سبب حزنى ، فلن تفهمى . ثم اننى لن أحسن شرحه كما ينبغى . . .

قالت Lise :

ـــ أحسب أن موضوع أخويك وأبيك يعذبك علاوة على آلام أخرى ، أليس كذلك ؟

قال أليوشا حالماً مفكراً :

ـــ نعم ، هناك أخواى أيضا .

قالت Lise فجأة :

ـــ أنا لا أحب أخاك ايفان يا أليوشا .

استقبل أليوشا هذا التصريح بشىء من الدهشة ، ولكنه تابع كلامه دون أن يركز عليه .

ـــ أخواى يسيران الى الضياع ، وكذلك أبى . وهم يجرّون الى الشقاء كائنات أخرى . ها هنا «القوة الغامضة التابعة من الأرض والكامنة فى أفراد آل كارامازوف» ، كما قال الأب بائيسى فى الآونة الأخيرة . . . هى قوة عارمة ، أصيلة نابعة من الأرض ، حتى أنى لست واثقا من أن روح الله تحلّق فوق هذه القوة . . . ولكننى أعلم أننى واحد من آل كارامازوف ، أنا أيضا . . . أنا فى الظاهر راهب . فهل أنا راهب حقاً يا Lise ؟ لقد قلت منذ هنيهة اننى راهب . . .

ـــ نعم قلت ذلك .

ـــ راهب . . . ومع ذلك قد لا أكون مؤمناً بالله . . .

ـــ أأنت لا تؤمن بالله ؟ ماذا دهاك ؟ ـــ كذلك سألته Lise محاذرة بصوت خافت . ولكن أليوشا لم يرد . ان هذا القول الذى أفلت من لسانه يعبّر عن فكرة غامضة تثوى فى قرارة قلبه ولعله لا يستطيع هو نفسه أن يستبينها ، ولكنها كانت تعذبه ما فى ذلك ريب . وتابع أليوشا كلامه :

ـــ وفوق ذلك كله ، هذا صديقى يموت . . . ان الانسان الذى أعده خير انسان فى هذا العالم سيبارح الأرض . آه ! Lise ! لو علمت مدى تعلقى بهذا الانسان ، ومدى شعورى بالارتباط به ارتباطاً لا انفصام له ! . . . سوف أكون بعد اليوم وحيداً . . . سأجىء اليك يا Lise . . . لن نفترق بعد الآن . . .

ـــ نعم سيظل كل منا قرب الآخر . سنكون متحدين مدى الحياة ، متحدين الى الأبد . . . أليوشا ، قبلنى الآن . . . أسمح لك الآن بذلك .

قبلها أليوشا .

ـــ والآن اذهب . كان المسيح معك ! (قالت ذلك وهى ترسم عليه اشارة الصليب .) أدركه هو وهو لا يزال على قيد الحياة . الآن أفهم أننى أضعت لك وقتاً ثميناً . سأصلى له ولك اليوم . أليوشا ، سنكون سعيدين ، سنكون سعيدين ، أليس كذلك ؟

ـــ أعتقد يا Lise .

لم ير أليوشا ، حين خرج من عند Lise ، أن من الضرورى أن يذهب أولاً الى السيدة خوخلاكوفا ، وانما تأهب لمغادرة المنزل دون أن يودعها . ولكنه ما ان فتح باب البيت وخطا خطوة على السلّم حتى انبجست السيدة خوخلاكوفا أمامه .

فأدرك أليوشا فوراً أنها كانت تترقب انصرافه .

— هذا فظيع يا ألكسى فيدوروفتش ! هذه أمور صبيانية . هذه سخافات وحماقات . آمل أن لا تحمل أقوال ابنتى على محمل الجد ، وأن لا تهدهد أوهاماً وأحلاماً ! يا للحماقة ! يا للحماقة ! يا للحماقة ! كذلك انهالت عليه . فقال لها أليوشا :

— لا تقولى هذا الكلام لها على الأقل ، والا اضطربت اضطراباً شديداً وساءت حالها كثيراً .

— هذا أخيرا كلام متزن يبرهن لى على أنك شاب عاقل . هل أفهم من كلامك هذا أنك انما وافقتها اشفاقا على حالتها ، حتى لا تثير بمعارضتك حنقها ؟

قال أليوشا بلهجة قاطعة :

— اطلاقا بل كنت جاداً فى حديثى معها كل الجد .

— لا شأن للجد هنا . هذا شىء لا يمكن تصوره ، لا يمكن تخيله ! اعلم أولاً اننى لن أستقبلك بعد اليوم فى منزلى ، واعلم ثانيا أننى سأسافر من هذه المدينة مبتعدة بابنتى . اعلم هذا .

قال أليوشا :

— لِمَ هذا كله ؟ انما الأمر أمر مشروع ما يزال تحقيقه بعيدا جدا . لا بد أن ننتظر سنة ونصفا على الأقل .

— لعلك على حق يا ألكسى فيدوروفتش . فالى ذلك الحين يتسع الوقت للتشاجر معها والانفصال عنها ألف مرة . آه . . ما أشقانى ! ما أشقانى ! صحيح أن هذا كله صبيانيات ، ولكننى صعقت حقا . أنا الآن فى موقف فاموسوف فى آخر مشاهد المسرحية . أما تشاتسكى فأنت ، وأما صوفيا فهى ،

انظر الى هذا التطابق . لقد رابطت على السلّم لأنتظرك . وفى تلك المسرحية حدثت جميع الحوادث المقدّرة على السلم أيضا . سمعت كل شىء . وتجلدت تجلداً شديداً حتى أستطيع أن أسيطر على نفسى . هذا هو اذن سرُّ الأرق الرهيب فى الليل وسر نوبات الهستريا بالأمس ! البنت عاشقة . ولم يبق للأم الا أن تموت ! هو قبرى اذن يهيأ ! أجب عن سؤالى الثانى الآن وهو أهم : ما تلك الرسالة التى كتبتها اليك ؟ أرنيها فوراً ! فوراً !

— لا داعى . والأفضل من هذا أن تقولى لى كيف حال كاترينا ايفانوفنا الآن . اننى أحرص على معرفة ذلك .

— ما زالت تهذى . لم تستردّ حواسها بعد . خالتاها معها ، ما تنفكان تتفجعان وتئنان وتصطنعان مظاهر الأبهة . أما الدكتور هرتسنشتوبه فقد وصل ، ولكنه بلغ من الذعر أننى أصبحت لا أعرف ماذا يجب علىَّ أن أعمل لأهدئ روعه . حتى لقد خطر ببالى أن أستدعى طبيبا له . قد نقلوه الى بيته فى عربتى . ثم هأنذا الآن أمام مشكلتك ومشكلة هذه الرسالة ، تتمة للشقاء والبلاء ! صحيح أن هناك سنة ونصف . . ولكننى أستحلفك بكل ما هو عزيز عندك مقدس لديك ، أستحلفك بشيخك المحتضر ، أن ترينى هذه الرسالة يا ألكسى فيدوروفتش . أرنى الرسالة ، أرنيها أنا ، أنا ، الأم ! امسكها بأصابعك اذا شئت ، فلن آخذها ، وانما أقرؤها من بعيد .

— لا يا كاترينا أوسيبوفنا ، لن أريك الرسالة . لا جدوى من الالحاح . لن أريك الرسالة حتى لو أذنت لى هى بذلك . سأعود غدا ، فاذا شئت ناقشنا جميع المشاكل . أما الآن فالى اللقاء !

قال أليوشا ذلك ، وهبط السلّم راكضا . فخرج الى الشارع .

٢

قيثارة سمردياكوف

لم يكن لديه وقت . فحين ودّع Lise كانت قد برقت فى ذهنه فكرة عن الطريقة التى يستطيع بها أن يفاجئ أخاه دمترى الذى كان واضحا أنه يحاول أن يتجنب لقاءه . الوقت متأخر : هى الساعة الثالثة بعد الظهر تقريبا . كان أليوشا يتمنى بكل كيانه أن يعود الى الدير الى شيخه «العظيم» المحتضر ، ولكن حاجته الى رؤية أخيه دمترى مرة أخرى قد تغلبت على كل شىء : ان احساسه بوشك وقوع كارثة ، بوشك حدوث أمر رهيب ، يرسخ فى نفسه مزيدا من الرسوخ كلما انقضت الساعات . أما ما هى تلك الكارثة التى ستقع ، وما هو الذى يريد أن يقوله لأخيه دمترى ، فان ذلك شىء قد لا يستطيع فى تلك اللحظة أن يوضحه حتى لنفسه . «اذا مات شيخى المحسن الىّ أثناء غيابى ، فلن ألوم نفسى فى أقل تقدير ، مدى الحياة ، على اننى كان فى وسعى أن أحول دون وقوع الشر ثم أهملت أن أفعل ذلك ، وأغفلت واجبى وأسرعت أعود الى مسكنى بأقصى سرعة . وانى اذ أفعل الآن ما أفعل انما أتبع كلمة معلمى . . . »

كانت خطته هى أن يعثر على دمترى فجأة ، متسللا الى الحديقة من خلال السياج الذى سبق أن تخطاه أمس داخلا الى العريش . وكان يقول لنفسه : «فان لم أجده ، فسأختبىء هنالك دون أن أنبىء لا أهل الدار ولا فوما ، ثم انتظر هنالك حتى المساء اذا وجب الأمر . فاذا كان ينوى أن يترقب جروشنكا كما

فعل أمس ، فربما جاء الى هذا العريش . . . » ولم يفكر أليوشا طويلاً فى خطته بجميع تفاصيلها ، ولكنه قرر أن يضعها موضع التنفيذ فورا ، ولو اقتضاه ذلك أن لا يرجع الى الدير فى ذلك اليوم . . .

وقد جرى كل شىء بغير عائق . تخطى السياج فى موضع غير بعيد عن الموضع الذى تخطاه فيه أمس ، وتسلل خفية الى العريش . وكان يريد أن لا يلاحظ حضوره أحد . ذلك أن من الجائز أن يكون أهل الدار وفوما (فى حالة وجوده بالدار) منحازين الى صف دمترى ، فقد يمنعونه اذن من دخول الحديقة ، أو قد يبلغون دمترى وصوله فى الوقت المناسب ، تنفيذاً لتعليمات دمترى نفسه . لم يكن فى العريش أحد . جلس أليوشا فى مكان الأمس وانتظر . ونظر الى العريش فبدا له أكثر تداعيا مما فى اليوم السابق ، وبدا منظره فى غاية الرثاثة هذه المرة . ولكن النهار كان مضيئا مشمساً كما كان يومَ زيارته الأولى . وعلى المائدة الخضراء تُرى علامة مستديرة خلّفها قدح الكونياك الذى لعله انسكب أمس . وساورت أليوشا خواطر تافهة لا صلة لها بالظروف الراهنة ، كما يحدث عامة أثناء انتظار مضجر . تساءل مثلاً : لماذا جلس فى المكان نفسه الذى جلس فيه بالأمس ، ولم يجلس فى مكان آخر . وتملكه شيئا فشيئا حزن كبير مردُّه الى غموض المجهول المثير للقلق . وبعد أن مكث هنالك قرابة ربع ساعة أو أقل من ذلك ، سمع ألحان قيثارة تنطلق قريبة منه . لا شك أن أحدا كان متلبثاً فى الخمائل على مسافة عشرين خطوة فى أكثر تقدير ، أو أن أحداً وصل الى ذلك المكان منذ برهة قصيرة . وتذكر أليوشا فجأة أنه حين ترك أخاه أمس ، وابتعد عن العريش قد لمح على اليسار قرب الحاجز دكة خضراء ريفية

قديمة غائرة فى الخمائل . فهنالك اذن لا بد أن يكون قد جلس الواصل أو الواصلون . ولكن من عساه يكون أو من عساهم يكونون ؟ وهذا رجل ينطلق فى تلك اللحظة مغنيا أبياتاً من الشعر يرافقها عزف على القيثارة (ان الصوت صوت مترقق من طبقة التينور ، عامىٌّ النبرات) :

بقوة عظيمة لا تغلب
الى الجميلة انجذب
رفقا بنا يا رب
بـى وبها يا رب
بـى وبها يا رب
بـى وبها يا رب

وصمت الصوت ذو التثنيات العامية . وهذا صوت امرأة لطيف وجل يُسمع عندئذ قائلاً فى غنج ودلال :

— لماذا لا تجىء الينا الا نادراً يا بافل فيدوروفتش ؟ أأنت تحتقر صحبتنا ؟

فقال صوت الرجل فى تأدب ، بلهجة يدرك المرء فيها مع ذلك شيئا من ارادة تأكيد الرصانة والوقار :

— لا . . . لا . . .

كان واضحاً أن الرجل مسيطر على الموقف ، فى حين أن المرأة تداعبه . قال أليوشا لنفسه : «ولكن هذا سمردياكوف ! هذا صوته على الأقل . أما المرأة فأتخيل أنها ابنة صاحبة الدار ، التى رجعت من موسكو فى الآونة الأخيرة بثوب طويل الذيل ، والتى تجىء كل يوم الى مارفا اجناتفنا التماسا لشىء من حساء . . .»

وعاد صوت المرأة يقول :

— اننى أعبد الأشعار ، ولا سيما اذا كانت متسقة متناغمة . لماذا توقفت عن الغناء ؟

فاستأنف صوت الرجل صداحه :

تاج الملوك هين فى نفسى
مادمت أحظى بصديقة أنسى
رفقا بنا يا رب
بـى وبها يا رب
بـى وبها يا رب
بـى وبها يا رب

قال صوت المرأة :

— غنيتها فى المرة الماضية خيراً مما تغنيها الآن . كنت فى المرة الماضية تقول : «صديقة أنسى العذبة» ، فكان ذلك أرق عاطفة . هل نسيت ؟

فقال سمردياكوف بلهجة قاطعة :

— ما الأشعار الا سخف !

— أوه ! لا . . . أنا أحب الأشعار كثيراً .

— الشعر هزل لا جد . اقضى فى الأمر بنفسك : من ذا الذى يتكلم فى هذا العالم مقفياً ؟ ولو أخذ جميع الناس يتكلمون شعراً ، حتى بأمر صادر عن السلطات مثلاً ، لما وجدوا أشياء كثيرة يقولونها . لا . . . صدقينى يا ماريا كوندراتيفنا : ما الشعر الا كذب وتصنع !

فاستأنف صوت المرأة كلامه قائلاً وقد ازداد ملاطفة :

— ما أذكاك ! كيف تفعل من أجل أن تكون على هذا الجانب العظيم من الثقافة ؟

— كان يمكن أن أفعل أكثر من ذلك ، وأن أصبح أغزر علما ، لو ان القدر لم يحاربنى منذ المهد . كان يمكننى أن أقتل فى مبارزة بالمسدس ذلك الذى قد يصفنى بأننى امرؤ جلف لأننى ليس لى أب ، ولأن أمى امرأة نتنة » . لقد قذف أحدهم هذا الكلام فى وجهى ذات يوم بموسكو ، حيث شاع سر مولدى بفضل جريجورى فاسيلفتش . ان جريجورى فاسيلفتش يعيب علىّ تمردى على ميلادى . وقد قال فى معرض حديثه عن أمى : «لقد مزقت لها أحشاءها» . اننى أسلم بذلك ، ولكننى كنت أوثر أن أُقتل فى بطنها على أن أجيء الى هذا العالم . ان الناس يتناقلون فى السوق (وقد ظنت أمك ، لقلة لباقتها ، ان من واجبها أن تقول لى ذلك أيضا) أن أمى كانت مصابة بداء تلبد الشعر ، وأن طولها كان لا يزيد على خمس أقدام . وكانت أمك تمط أحرف المد وهى تكلمنى ، فلماذا كانت تفعل ذلك مع أن من السهل جداً على المرء أن يتكلم كما يتكلم سائر الناس ؟ لأنها كانت تحب أن تظهر عاطفيتها ولكن هذه العاطفية تفوح منها رائحة الفلاح . هل يستطيع الفلاح الروسى أن يشعر بعواطف كما يشعر بها رجل مثقف ؟ انه أجهل من أن يشعر بأى شيء . اننى حين أسمع أحرف المدّ تُمطُّ هذا المط أتمنى لو ألطم رأسى بجدار . وذلك أمر أعرفه فى نفسى منذ طفولتى ! أوه ! اننى أكره روسيا كلها يا ماريا كوندراتفنا .

— لو كنت ضابطا أو من سلاح الفرسان لما فكرت هذا التفكير ، بل لجرّدت سيفك دفاعاً عن روسيا .

— لا أحب أن أكون من سلاح الفرسان يا ماريا كوندراتفنا ، بل عكس ذلك أرغب فى القضاء على جميع الجنود .

— فمن يدافع عنا اذن اذا هاجمنا العدو ؟

— لا داعى الى الدفاع . فى عام ١٨١٢ غزا امبراطور الفرنسيين ، نابوليون الأول ، وهو أبو الامبراطور الحالى » ، غزا روسيا ، فلو قد تم للفرنسيين هؤلاء الاستيلاء عليها آنذاك لكان ذلك حظاً عظيماً ، لأن أمة ذكية تُخضع لنفسها أمة غبية ، وتلحقها بها . فلو قد تم تحقيق ذلك اذن لكان عندنا الآن نظام مختلف عن نظامنا كل الاختلاف .

— كأنهم خير منا ! . . . ألا اننى لأرفض أن أستبدل بشاب واحد من شبابنا الحسان ثلاثة فتيان من الانجليز . . .

كذلك هتفت تقول ماريا كوندراتفنا بأرق صوت وأعذب نغمة .

ولا بد أنها كانت تلقى على صاحبها عندئذ نظرات تفيض دلالاً .

قال الرجل :

— المسألة مسألة ذوق !

— هيئتك أنت نفسك هيئة أجنبى ، أجنبى نبيل جداً . أعترف لك بهذا وأنا أحمر خجلاً .

— هل تريدين أن أقول لك الحقيقة ؟ انهم جميعا سواسية من ناحية التحلل من الأخلاق ، أجانب كانوا أم روسا . هم جميعا أوباش ، مع فارق واحد هو أنهم هناك ينتعلون أحذية ملمعة ، فى حين أن أهلنا الحفاة هنا قانعون ببؤسهم النتن ، لا يجدون فيه ضيراً . ان الشعب الروسى يستحق أن يُجلد . لقد صدق فيدور بافلوفتش أمس حين قال هذا الكلام ، رغم أنه مجنون ، هو وأبناؤه جميعا .

— ولكن سبق لك أن قلت انك تحترم ايفان فيدوروفتش احتراماً كبيراً .

— ذلك لم يمنعه من أن يصفنى بأننى خادم نذل . هو يتخيل أننى واحد من أولئك المتمردين ، ولكنه مخطىء . لو ملكت قدراً كافياً من المال ، اذن لسافرت منذ زمن طويل . أما دمترى فيدوروفتش فهو شر من خادم ، سواء بسلوكه وقلة ذكائه أو ببؤسه وشقائه . هذا رجل لا يصلح لشىء . ومع ذلك يحترمه جميع الناس . أنا أعلم أننى لست الا طباخاً فاشلاً ، ولكن لو أوتيت شيئا من حظ فسوف أفتتح «مقهى — مطعماً» بموسكو ، فى شارع بتروفكا . اننى أجيد اعداد أطباق حسب الطلب ، وما من أحد من زملائى قادر على ذلك ، الا الأجانب . ودمترى فيدوروفتش هذا ليس الا مفلسا ، ومع ذلك لو طلب الى المبارزة أنبلَ أبناء أحد الكونتات ، لرضى هذا أن يبارزه . فيم هو يفضلنى ؟ انه أقل منى ذكاء ! وما أكثر ما أتلف من مال فى سبيل حماقات وترهات !

قالت ماريا كوندراتفنا فجأة :

— لا بد أن مشهد المبارزة جميل جدا .

— لماذا ؟

— هناك الخطر والشجاعة ، لا سيما حين يتواجه ضباط شبان بمسدسات فى سبيل سيدة ! ما أروعه من منظر ! لو كانت تُقبل فتيات فى مشاهدة مبارزة ، لوهبت أى شىء فى سبيل أن أشهد مبارزة .

— المبارزة ممتعة حين يسدِّد المرء بنفسه ، أما حين يكون الآخر هو الذى يسدِّد اليك ، فالأمر يصبح عندئذ سخيفا ، وربما تهربين يا ماريا كوندراتفنا .

— أتهرب أنت فى مثل هذه الحالة ؟

لم يتنازل سمردياكوف فيجيب عن سؤالها . وبعد برهة

من الوقت سُمع لحن آخر تعزفه القيثارة وصوت مترقق من طبقة التينور يصدح مغنياً :

سأرحل مهما أكابد
فانى سئمت العذابا .
سيبهجنى ان أعيش بعيدا
أمتع نفسى وأحيا سعيدا
حياة العواصم
فلا شىء يمسكنى ها هنا
ولست بباك عليك كذلك
ولست بباك على أى شىء .

وفى تلك اللحظة حدث شىء ليس فى الحسبان : لقد عطس أليوشا فجأة . فصمتت الأصوات تواً . فنهض أليوشا عن مكانه واتجه نحو الدكة . الرجل هو سمردياكوف فعلاً ، بثيابه الفاخرة ، وحذاءيه الملمعَين ، وشعره المدهَّن حتى لكأنه مجعَّد . كان قد وضع القيثارة على الدكة . والمرأة الشابة هى ماريا كوندراتفنا بنت صاحبة الدار . انها ترتدى فستانا أزرق فاتحاً ذا ذيل طويل جداً . وكان يمكن أن تبدو الفتاة الشابة جميلة لو لا ذلك النمش البشع فى وجهها المسرف فى الاستدارة .

سأل أليوشا بلهجة هادئة وهو يحاول أن يسبغ على سؤاله مظهر سؤال بسيط معين :

— هل سيأتى أخى دمترى الى هنا بعد قليل ؟

فنهض سمردياكوف بدون تعجل ، وكذلك فعلت ماريا كوندراتفنا .

— أنّى لى أن أعرف ما يفعله دمترى فيدوروفتش ؟ اننى

لم أكلف بحراسته فيما أعلم . . .

كذلك أجاب سمردياكوف مقطعًا ألفاظه دون أن يرفع صوته ، وبلهجة الاستخفاف .

فقال أليوشا شارحاً :

— انما سألتك بكل بساطة لتجيبنى اذا كنت تعلم .

— أنا أجهل أين يمكن أن يكون الآن ، ولا أحرص على أن أعرف . . .

— لكن أخى أسرَّ الىَّ أنك تطلعه على كل ما يحدث فى الدار ، وأنك وعدته بابلاغه عن مجىء آجرافينا ألكسندروفنا .

فرفع سمردياكوف بصره الى أليوشا ببطء دون أن يضطرب .

ثم قال وهو يحدّق الى أليوشا ويتفرس فيه :

— هل يمكننى أن أسألك أنا أيضا كيف فعلت حتى استطعت أن تدخل الى هنا رغم أن باب المدخل مقفل بالمفتاح منذ أكثر من ساعة ؟

قال أليوشا :

— مررت بالزقاق وتخطيت السياج لأصل الى العريش رأساً . — ثم أضاف يقول مخاطباً ماريا كوندراتفنا : — أرجو أن لا تؤاخذينى على عدم تحرجى . لقد كنت أحرص على أن أرى أخى بأقصى سرعة .

فأجابت ماريا كوندراتفنا تقول بصوت ممطوط وقد بدا واضحاً أن اعتذار أليوشا اليها قد سرها كثيراً :

— كيف أؤاخذك ؟ ان دمترى فيدوروفتش يسلك هذا الطريق نفسه لبلوغ العريش . فكثيرا ما لا نلاحظ وصوله الا بعد أن يكون قد استقر فيه .

— لا بد لى أن أراه حتماً . اننى أبحث عنه فى كل

مكان . ألا تستطيعين أن تقولي لى أين يمكننى أن أعثر عليه الآن ؟ ان الأمر أمر مسألة تهمه كثيرا .

فتمتمت ماريا كوندراتفنا تقول :

— انه لا يطلعنا على تنقلاته .

واستأنف سمردياكوف كلامه فقال :

— اننى أجىء الى هنا زائراً ، فاذا هو يلاحقنى حتى الى هذا المكان ليسألنى عن أخبار سيدى . لقد طالبنى مرارا بأن أذكر له ماذا يفعل أبوه ، ومن يدخل الدار ومن يخرج منها ، وكل ما يمكننى أن أطلع عليه من أمور أخرى . حتى لقد هدّدنى بالقتل مرتين !

سأل أليوشا من الدهشة :

— بالقتل ؟ كيف يمكن هذا ؟

— انه ، بما له من طبع خاص ، لا يتورع عن شىء . . . ولقد أتيح لك أن ترى ذلك بنفسك أمس على كل حال . لقد أنذرنى بأن عاقبتى ستكون وخيمة اذا أنا تركت لآجرافينا ألكسندروفنا أن تدخل وأن تقضى ليلة فى الدار . اننى أخافه وأخشاه ، ولو لا أنه يثير فى نفسى هذا الجزع كله اذن لأبلغت عنه سلطات المدينة . الله وحده يعلم ما يمكن أن يفعله دمترى فيدوروفتش !

وأضافت ماريا كوندراتفنا تقول :

— وقد صرّح له منذ أيام : «سأسحقك بالهاون سحقا» .

قال أليوشا :

— لئن تكلم عن الهاون ، فليس الأمر بالجد . . . ليتنى أستطيع أن أعثر عليه الآن ، اذن لقلت له كلمة عن هذه التهديدات أيضا . . .

قال سمردياكوف وكأنه قد غيّر رأيه فجأة :

— اليك المعلومات الوحيدة التى أستطيع أن أنهيها اليك . اننى أجيء الى هنا كصديق قديم ، ولِمَ لا أزور جيرانا ؟ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان ايفان فيدوروفتش قد أرسلنى فى ساعة مبكرة من هذا الصباح الى أخيك فى «شارع اوزيورنايا» . لقد كلفنى ، دون أن يحملنى رسالة مكتوبة ، بأن أعلم دمترى فيدوروفتش جهاراً أنه يرجوه ملحاً أن يجيء لتناول طعام الغداء معه فى الحانة التى تقع فى الميدان . لم أجد دمترى فيدوروفتش فى مسكنه . كانت الساعة هى الثامنة صباحاً . وقالت لى صاحبتا المنزل «ان دمترى فيدوروفتش قد خرج» . أنا مستعد لأن أحلف أنهما متواطئتان معه . من الجائز جدا أن يكون أخوك دمترى فيدوروفتش الآن فى تلك الحانة مع ايفان فيدوروفتش ، لأن ايفان فيدوروفتش لم يرجع الى المنزل للغداء . أما فيدور بافلوفتش فقد تغدى وحيداً منذ ساعة ، ولا بد أنه الآن يُقيل . أتوسل اليك مع ذلك أن لا تحدثَ أخاك عنى ، وأن لا تقول له اننى ذكرت لك هذه المعلومات لانه قادر على أن يقتلنى بلا اى سبب .

سأله أليوشا كأنما ليتأكد من الأمر مزيدا من التأكد :

— هل ضرب أخى ايفان موعدا اليوم لدمترى فى الحانة ؟

— تماماً .

— أهى حانة «العاصمة الكبرى» التى تقع فى الميدان ؟

— هى نفسها .

فهتف أليوشا يقول وقد ألمَّ به انفعال شديد :

— جائز جدا ! شكراً يا سمردياكوف . هذه معلومات ثمينة . سأذهب الى هناك فوراً .

قال سمردياكوف فى اثره :

— اياك أن تفضحنى !

— اطمئن . سأتظاهر بأننى دخلت الحانة مصادفة .

وبينما كان أليوشا يتجه نحو السياج ، هتفت ماريا كوندراتفنا قائلة :

— الى أين أنت ذاهب ؟ سأفتح لك باب البستان .

— لا داعى الى ذلك . من هنا أقرب . سأتخطى السياج .

أحدث هذا النبأ فى أليوشا أثراً قوياً . وأسرع متجهاً الى الحانة . ليس من الحشمة طبعاً أن يدخل أليوشا الحانة وهو فى مسوح راهب . ولكن أليوشا قد قرر أن يسأل عن أخويه دون أن يدخل الصالة ، وأن يستدعيهما اليه على السلَّم . وانه ليقترب من مبنى الحانة اذا بنافذة من نوافذها قد فتحت ، وها هو أخوه ايفان نفسه يناديه من فوق سائلاً :

— هل تستطيع أن تجيئنى الى هنا يا أليوشا ؟ فتسدى الىَّ معروفاً .

— طبعاً . ولكننى أتحرج من الدخول بثوبى هذا .

— أنا فى حجرة خاصة . تعال الى سلَّم المدخل ، فأتلقاك هناك . . .

وبعد دقيقة ، كان أليوشا يجلس الى جانب أخيه . لقد كان ايفان وحيداً ، وكان يتناول غداءه .

٣

الأخوان يتعارفان

لم يكن ايفان يحتل حجرة خاصة بمعنى الكلمة . وانما كان جالساً قرب النافذة فى ركن تعزله عن الصالة حواجز

فالاشخاص الذين يجلسون فى هذا المكان الخاص لا يراهم روّاد الحانة الآخرون . هى قاعة مدخل تفضى الى الصالات التى بعدها ، قد نصب «بوفيه» أمام جدارها الجانبى . والخدم يجتازون هذه القاعة فى كل لحظة . ولم يكن فى القاعة حينذاك الا زبون واحد هو ضابط محال على التقاعد يجلس فى الركن ويحتسى الشاى . ولا كذلك الصالات الأخرى فهى تزخر بما تزخر بها أمثال هذه الأماكن عادة من نداءات عالية ، وصرخات فرحة ، وقرقعات الزجاجات التى تفتح ، وطقطقات الكرات على مائدة البلياردو ، مع أصوات أرغن تشق هذه الجلبة كلها . كان أليوشا يعلم أن أخاه ايفان لا يكاد يرتاد هذه الحانة أبداً ، لأنه لا يحب جو الأماكن التى من هذا النوع على وجه العموم . فقال أليوشا لنفسه : «فانما هو جاء اذن ليلقى دمترى» . ولكن دمترى لم يحضر .

هتف ايفان وكان يبدو سعيدا بحضور أليوشا :

— هل تريد أن آمر لك بحساء سمك ؟ يخيّل الىّ أنك لا تتغذى بالشاى وحده !

وكان ايفان قد فرغ من تناول طعامه ، فهو الآن يحسو فنجاناً من الشاى . أجابه أليوشا مبتهجاً مرحاً :

— هات حساء السمك ، واطلب لى كذلك شايا ، فاننى جائع .

— فما قولك اذن بشىء من مربب الكرز ؟ ان عندهم هنا مربّب كرز . وعهدى بك أنك كنت تحب هذا المربب فى الماضى حين كنت صغيراً وكنا نعيش كلانا عند أسرة بولينوف . أما تزال تتذكر هذا ؟

— أأنت تتذكره اذن يا ايفان ؟ موافق على المربب ، فاننى ما أزال أحبه .

نادى ايفان الخادم وأمر بطبق من حساء السمك ، وبشاى ، وبمربب كرز .

— اننى أتذكر كل شىء ، أتذكر طفولتك يا أليوشا حتى الحادية عشرة من عمرك . وكنت أنا عندئذ فى الخامسة عشرة . ما كان يمكن أن تنعقد أواصر رفاقة بين أخوين فى ذلك العمر اذا كانت تفصل بينهما أربع سنين . ولست على يقين من أننى أحببتك فى ذلك الأوان . وبعد سفرى الى موسكو لم تخطر ببالى قط أثناء السنين الأولى . حتى اذا جئتَ بعد ذلك الى موسكو أنت أيضا ، لم أصادفك الا مرة واحدة لا أدرى أين ! وهاأناذا أعيش هنا منذ أكثر من ثلاثة أشهر ، دون أن يتاح لنا أن نتبادل حديثا حقيقيا مرة واحدة . وانى مسافر غدا ، لذلك تساءلت منذ لحظات : «ترى أين يمكن أن أجده لأودّعه !» واذا بك تمر من هنا .

— أكنت تتوق جداً الى رؤيتى اذن ؟

— نعم ، جداً . اننى أود أن أعرفك مرة والى الأبد ، وأن تعرفنى كذلك مزيداً من المعرفة . ثم نفترق بعد ذلك . ان أفضل لحظة للتعارف هى فى رأيى اللحظة التى تسبق الفراق . لقد راقبت تعبير نظراتك خلال هذه الأشهر الثلاثة . كان فى عينيك انتظار دائم وتوقع مستمر ، وهذا ما لا أطيقه . لذلك لم أحاول أن أقترب منك . ولكننى تعلمت أن أحترمك . قلت لنفسى : «ما يزال الرجل الصغير ثابتا على مواقعه» . اننى أمزح قليلا ، ولكننى أتكلم الآن جاداً . أنت فتى ثابت جداً ، أليس هذا صحيحاً ؟ انى احب امثال هؤلاء الثابتين أيا كان

ما يشبثون عليه ، حتى لو كانوا صبية صغاراً مثلك . لهذا أصبحت نظراتك التي تعبر عن الانتظار والتوقع لا تسوءني ولا تنفرني ، حتى لقد أصبحت محبَّبة اليَّ . . يبدو لى أنك تحبنى لسبب ما يا أليوشا ، أليس كذلك ؟

— أحبك يا ايفان . دمترى يصفك بأنك «قبر» ، أما أنا فاقول انك لغز . ولم أستطع أن أحل هذا اللغز حتى الآن . هناك نقطة مع ذلك أحسب أننى أبصرتها واضحة فى نفسك ، ولكن منذ هذا الصباح فحسب !

سأله ايفان ضاحكاً :

— فما هى ؟

ضحك أليوشا هو أيضا سائلا :

— ألن تغضب ؟

— حسناً ؟

— اذن فأعلم أننى اكتشفت أنك شاب شبيه بسائر الشباب الذين هم فى الثالثة والعشرين من أعمارهم ، تزخر فتوة ونضارة وعفوية مثلهم ، ويعوزك النضج كما يعوزهم ، أى . . . هل كدرَك قولى هذا كثيراً ؟

فصاح ايفان فى مرح وتحمس :

— بالعكس ! بل أدهشنى صدق رأيك ، وهو يتفق ورأيى . لقد كنت منذ لقائنا عندها فى هذا الصباح أفكر فى هذا الجانب من طبيعتى ، فى عدم نضجى هذا فى الثالثة والعشرين ، فاذا أنت تقع على هذه الحقيقة دفعة واحدة ! هل تعلم بماذا كنت أحـدث نفسى قبل وصولك ؟ كنت أقول لنفسى : مهما تخيب الحياة ظنى ، ومهما أفقد ايمانى بالمرأة التى أحبها ، ومهما أفقد ايمانى بحكمة نظام الكون ومهما

أقتنع ، بالعكس ، بأن الكون سديم ملعون لعله خاضع لمشيئة الشيطان ، قد أغوص فى جميع وهاد اليأس الانسانى ، ثم أظل أحب الحياة مع ذلك ورغم كل شىء . أود لو أعب كأس الحياة متلذذا حتى الثمالة ، وقد لا أستطيع تركه قبل أن أفرغه ! ولكن حين أبلغ الثلاثين من العمر فقد أرمى الكأس قبل نفاده ، ثم أمضى . . . الى أين ؟ لا أدرى بعد . . . أما حتى ذلك الحين ، أى الى أن أبلغ الثلاثين ، فان شبابى سينتصر على كل شىء — أنا واثق من هذا — سينتصر على خيبة الأمل وعلى مشاعر الضيق بالحياة . لقد تساءلت مرارا : «هل فى هذا العالم يأس يمكن أن يختنق فى نفسى هذا الظمأ الى الحياة ، هذا الظمأ المسعور الذى قد لا يكون لائقاً ؟» وانتهيت الى الاعتقاد بأنه ربما لا يوجد مثل هذا اليأس ، ولكن حتى الثلاثين من عمرى فحسب ، ثم أزهد وأعف من تلقاء نفسى بعد ذلك . . . فيما أظن . . . ان الواعظين بالأخلاق ، المصدورين الفتيان الحزانى ، وكذلك الشعراء ، يحلو لهم أن يصفوا بالضعة هذا الحب الحارَّ للحياة . ويجب أن نعترف على كل حال أن من السمات الخاصة بآل كارامازوف الظمأ الى الحياة هذا بأى ثمن . لا بد أن يكون هذا الظمأ قائماً فيك أنت أيضاً . ولكن لماذا يوصف بالضعة ؟ ان القوة الجاذبة المركزية كثيرة الى درجة فظيعة في كوكبنا هذا يا أليوشا . الحياة حلوة ، وانى لأحيا ولو على خلاف كل منطق . أنا لا أؤمن بحكمة نظام الكون . لنسلم بهذا . ولكننى أحب وريقات الأشجار الطريات النديات حين تطلع فى الربيع ، وأحب السماء الزرقاء ، وأحب أيضا دون أن أدرى لماذا — هل تصدق ذلك ؟ — بعض البشر وأحب بعض أعمال البطولة الانسانية التى انقطعتُ

مع ذلك عن الايمان بها منذ زمن طويل ، ولكننى ما زلت أقدسها بحكم عادة عزيزة على نفسى أثيرة فى قلبى . جاءوك بحساء السمك . كُلْه هنيئا مريئا . انهم يحسنون اعداده هنا . أنوى أن أسافر الى أوروبا يا أليوشا . سأسافر الى هناك من هنا رأسا . وانى لأعلم مع ذلك اننى لن أجد هنالك الا مقبرة ، ولكنها أعز مقبرة ، تلك هى المسألة ! ولكننى شديد الارتباط بذكرى هؤلاء الموتى . ان كل حجر يذكرنى بحياة حارة ماضية وبسورة جامحة من سورات الايمان بالبطولة ، وبالحقيقة ، وبالكفاح ، وبالعلم أيضا . أوه ! أنا أعلم سلفاً أننى سأرتمى على ركبتىّ جاثياً أمام هذه الحجارة ، وأننى سأبكى عليها ، وأغمرها بالقبل ، مع شعورى فى قرارة قلبى بأن ذلك ماض تصرَّم ولن يعود . على أننى لن أبكى من كرب ويأس ، بل من سعادة الشعور بانسكاب دموعى . سيسكرنى حزنى وحنانى . اننى أحب وريقات الاشجار الطريات فى الربيع ، أحب السماء الزرقاء . تلك هى المسألة . . ليس الأمر أمر عقل ومنطق . بل الحب ينبجس من أرحامك ، وان قوى شبابك التى لم تضعف هى التى تحبها . أأنت تفهم شيئا من هذه المعمّيات يا صغيرى أليوشا ؟ هه ؟

ألقى ايفان هذا السؤال وهو يضحك فجأة . فأجابه أليوشا بقوله :

— أفهمها جدا يا ايفان ، أفهمها أكثر مما يجب ! من قرارة الأرحام انما ينبع حب الحياة ، لقد أجدت التعبير عن هذه الحقيقة . وانى لأبتهج لك كثيرا حين أراك راغباً فى الحياة رغبة قوية هذه القوة .

كذلك هتف يقول أليوشا ثم أضاف :

— وعندى أن على كل انسان فى هذا العالم أن يتعلم حب الحياة قبل كل شىء .

— حب الحياة أكثر من حب مغزاها ؟

— نعم ، حب الحياة ، دون اكتراث بالمنطق ، كما قلت أنت . وبهذا وحده انما يصل الانسان الى اكتشاف معنى الحياة . أنا من جهتى أفكر فى هذا منذ زمن طويل . لقد ملكت نصف الحقيقة ما دمت تحب الحياة ، ولم يبق عليك الا أن تملك نصفها الآخر حتى تحقق لنفسك الخلاص .

— أأنت تهتم بخلاصى ؟ ما كنت أحسب أننى بسبيل الضياع والهلاك . وما هو النصف الثانى فى رأيك ؟

— النصف الثانى هو بعث الموتى أصحابك الذين لعلهم لم يبرحوا الحياة . اعطنى الشاى . اننى سعيد جدا بحديثنا هذا يا ايفان .

— الاحظ فعلاً أنك تحمست قليلاً . ما أكثر ما أحب professions de foi [1] هذه التى يقولها . . . رهبان مبتدئون مثلك ! انك رجل ثابت يا أليوشا . هل صحيح أنك تفكر فى ترك الدير ؟

— صحيح . ان شيخى أمرنى بالذهاب الى الدنيا .

— سوف نلتقى اذن ، سوف نلتقى اذن فى هذه الدنيا قبل حلول الثلاثين ، قبل أن أرمى الكأس . أبونا لا يريد أن يعدل عن التمتع بكأسه قبل أن يبلغ السبعين ، وحتى يحلم أن يعيش ثمانين عاما ، كما يقول ذلك هو نفسه . انه جاد فى هذا كل الجد ، مهما يكن مهرجا . انه يتهالك على اللذة ،

---

[1] اعترافات الصدق (بالفرنسية فى الأصل) .

ويحسب أنه مقيم عليها اقامته على صخرة وطيدة . . صحيح أن الانسان لا يبقى له بعد الثلاثين شيء غير اللذة . . ولكن الحياة على هذا الطراز حتى السبعين شيء معيب مقيت . فالأفضل أن يمسك المرء حين يبلغ الثلاثين . وبذلك يستطيع أن يحافظ على «مظهر نبل» في أقل تقدير ، كاذباً على نفسه . هل رأيت دمتري اليوم ؟

— لا . . ولكنني رأيت سمردياكوف .

وقصّ أليوشا على أخيه بسرعةٍ تفاصيل لقائه بالخادم . فكان ايفان يصغي اليه وقد اكتسى وجهه تعبيرا عن الهمّ على حين فجأة ، حتى أنه استوضح أليوشا بعض النقاط .

وأضاف أليوشا قوله :

— وقد ألحّ سمردياكوف على أن لا أذكر لدمتري شيئا مما أسرّ به اليّ .

فقطب ايفان حاجبيه ، ووجم يفكر لحظة .

سأله أليوشا :

— أبسبب سمردياكوف ألمّ بك هذا الانزعاج ؟

— نعم ، بسببه . شيطان يأخذه على كل حال ! . .

ثم أضاف يقول كأنما على مضض :

— حقاً لقد كنت أرغب في أن أرى دمتري ، ولكن لم تبق بي حاجة الى ذلك الآن . . .

— هل تنوي أن تسافر بمثل هذه السرعة فعلاً ؟

— نعم .

فسأله أليوشا قلقاً :

— ما عسى يصير اليه حال دمتري والأب ؟ ترى كيف ينتهي هذا الأمر كله ؟

— انك ما تفتأ تعود الى هذا الموضوع ! فيم يعنيني نزاعهما ؟ أأنا حارس لأخي دمتري ؟

كذلك أجاب ايفان بلهجة حانقة ، ولكنه لم يلبث أن تدارك نفسه ، فابتسم ابتسامة مرة وقال :

— ذلك جواب قابيل لله عن أخيه الذي قتله ، أليس هذا ما خطر ببالك في هذه اللحظة ؟ الى جهنم على كل حال ! . . أنا لا أستطيع أن أبقى هنا حارساً لهما ! لقد أنهيت أعمالي ، وسأسافر . أتراك تتخيل أنني غيور من دمتري ، وانني حاولت خلال هذه الأشهر الثلاثة المنصرمة أن أنتزع منه جميلته كاترينا ايفانوفنا ؟ دعك من هذا ! لقد كانت لي أنا شئوني وأعمالي . وقد أنجزتها فسأسافر . أنجزتها في هذا الصباح ، وكنت أنت شاهدا عليها .

— هل تعني ذلك الحديث الذي جرى بينك وبين كاترينا ايفانوفنا ؟

— نعم . لقد قطعت صلتي بها دفعة واحدة . ثم ماذا ؟ فيم يهمني دمتري ؟ انه لا شأن له بهذا الأمر ، كانت علاقاتي بكاترينا ايفانوفنا شأناً خاصاً بي . ثم انك تعرف أنت نفسك أن دمتري قد تصرف في هذا الأمر كله تصرف متواطئ معي . أنا لم أطلب منه شيئا ، وانما هو تركها لي من تلقاء نفسه ، وزاد على ذلك فبارك . لكأنها تمثيلية . أف . . . ليتك تعلم يا أليوشا مدى شعوري بالتخفف الآن ! حين كنت أتناول غدائي منذ قليل هنا ، اشتهيتُ أن أطلب شيئاً من الشمبانيا احتفالاً بأول ساعة من ساعات حريتي حين أفكر في هذا الأمر . . . آه . . . لقد دام نصف سنة ، وهأنذا أتحرر دفعة واحدة . حتى أمس ، ما كنت لأتخيل أنني سأستطيع أن

أقطع الصلة بمثل هذه السهولة متى شئت !

— أعن حبك تتكلم يا ايفان ؟

— عن الحب أتكلم ان شئت أن تستعمل هذا التعبير . لقد عشقت آنسة من الآنسات ، فتاة هي طالبة في مدرسة داخلية ، فتألمت ، وجعلتني هي أتألم . وكنت أحسب أنني مشدود اليها . . . ثم اذا بكل شيء يتبدد في طرفة عين . في هذا الصباح كنت أكلمها مستهاماً ، حتى اذا صرت في الشارع انطلقت أضحك ضحكاً مجلجلاً ، هل تصدق هذا ؟ تلك هي الحقيقة بعينها مع ذلك .

— أنت حتى في هذه اللحظة تتكلم في الأمر بمرح وحبور . — كذلك قال أليوشا وهو يتفرس في وجه أخيه الذي لاح فيه فجأة المرح حقاً .

— كيف كان يمكنني أن أحزر أنني لا أحبها البتة ؟ هاها ! ومع ذلك فهذه هي الحقيقة . أنا لا أحبها . ولكن ما أكثر ما كانت تعجبني ! في هذا الصباح نفسه ، حين أجريت معها ذلك الحديث ، كنت لا أمل ولا أكل من الاعجاب بها ! وحتى في هذه اللحظة تعجبني كثيرا ، هل تصدق ؟ ورغم هذا فما كان أسهل تركها عليّ ! أتحسبني أقول هذا الكلام تباهياً وتبجحاً ؟

— لا . . . ولكن لعله لم يكن بالحب حقاً ؟

قال ايفان ضاحكاً :

— يا صغيرى أليوشا ، لا تندفع في اصدار آراء في الحب ! ذلك لا يناسب حالتك . انني أفكر في اندفاعك هذا الصباح يا بني ! أي . . . قد نسيت أن أقبلك لقاءه . . . ومع ذلك ما أشد ما آلمتني وعذبتني ! لقد اضطررت أن

أحتمل جميع تلك التمزقات . أوه ! كانت تعلم حق العلم أنني أحبها ! وكانت تحبني أنا لا دمتري (قال ذلك مرحاً) ، ولم يكن دمتري الا عذراً لها وتعلة في سبيل أن تعذب نفسها . ان كل ما قلته لها هو الحق ، هو الحق اطلاقاً . ولكن في حقيقة الأمر — وهذا هو الشيء الأساسي — أنها تحتاج الى خمسة عشر عاما أو الى عشرين عاما أخرى من أجل أن تدرك أخيرا أنها لا تحب دمتري البتة ، ولا تحب أحداً سواى رغم أنها تؤلمني وتعذبني . وقد لا تدرك هذه الحقيقة في يوم من الايام على كل حال ، رغم درس هذا الصباح ! فليكن ، ها قد نهضت فمضيت بلا رجعة ! بالمناسبة ، ما الذى صارت اليه ؟ ماذا حدث بعد انصرافي ؟

أطلعه أليوشا على النوبة العصبية التي ألمت بها ، وذكر له أنها ما تزال مغشياً عليها في أغلب الظن ، وأنها ما تزال تهذى .

— لعل خوخلاكوفا قد بالغت ؟

— لا أظن .

— يجب أن نستطلع أنباءها . على كل حال ، لا أحد يموت من نوبة عصبية . فلتكن نوبة عصبية ، ان الرب قد شاء كرمه أن يهب للنساء هذه النعمة : النوبات العصبية . لا . . . لن أذهب اليها ! فيم استئناف الأمر ؟

— زعمت لها منذ قليل أنها لم تحببك يوماً .

— زعمت ذلك عامداً يا أليوشا ! سأطلب شيئاً من الشمبانيا فنشرب احتفالاً باستردادى حريتي . ليتك تعلم مدى ما أشعر به من سعادة !

أجابه أليوشا بحرارة قائلاً :

— أخى ، الأفضل أن لا نشرب . ثم اننى أحس بالحزن .

— أنت حزين منذ زمن طويل ، لقد لاحظت أنا هذا .

— أأنت مصرٌ على أن تسافر غداً فى الصباح ؟

— لماذا فى الصباح ؟ أنا لم أقل اننى مسافر فى الصباح . . على أننى قد أفعل . هأنت ذا ترى أننى أصبت غدائى هنا حتى لا أخلو الى العجوز على مائدة واحدة ، فالى هذا الحد يثير العجوز اشمئزازى . . كان يمكن أن أسافر منذ زمن بعيد لأتحرر من وجوده . ولكن لماذا يقلقك سفرى هذا الاقلاق ؟ ما يزال أمامنا وقت طويل ، ما يزال أمامنا أبدٌ تقريباً ، بل خلود !

— أيكون أمامنا أبدٌ وأنت مسافر غداً ؟

قال ايفان ضاحكاً :

— فيم يهمنا هذا السفر ؟ سيكون لنا من الوقت متسع لأن نتحدث عما يهمنا نحن الاثنين ، لأن نتحدث عما جمعنا فى هذا المكان . لماذا تنظر الىَّ بهذه الدهشة ؟ ما هو الأمر الذى جئنا من أجله الى هنا ؟ أجب ! أنحن هنا من أجل أن نتحدث عن حبى لكاترينا ايفانوفنا والعجوز ودمترى ؟ عن ظروف الحياة فى الخارج ؟ عن أحوال روسيا المشؤومة ؟ عن الامبراطور نابوليون ؟ أنحن هنا من أجل أن نتحدث فى هذه الأمور ؟

— لا . . طبعاً . .

— هأنت ذا تدرك بنفسك اذن ما يجمعنا هنا . هناك أناس آخرون يتناقشون فى مثل هذه الشئون ، أما نحن ، نحن الأغرار البسطاء ، فنريد أن نحلَّ أولاً المشاكل الأزلية . ذلك

هو همنا . ان جميع شباب روسيا يتناقشون الآن فى المسائل السرمدية وينهمكون فى هذا الآن بالذات حين بدأ الشيوخ فجأة يدرسون المسائل العملية . ما الذى كان يدفعك طوال هذه الأشهر الثلاثة الى أن تنظر الىَّ نظرة فيها ذلك التعبير عن الانتظار؟ كنت تريد أن تسألنى : «أأنت مؤمن أم ملحد ؟» ذلك ما كان يثوى فى أعماق نظرتك منذ ثلاثة أشهر ، أليس هذا صحيحاً يا ألكسى فيدوروفتش ؟

أجاب أليوشا مبتسما :

— جائز جدا . ولكنك فى هذه اللحظة لا تسخر منى يا أخى ، أليس كذلك ؟

— أأنا أسخر ، أنا ؟ ألا اننى لا أحب أن أشجى قلب أخى الصغير الذى يبدو أنه انتظر منى أشياء كثيرة طوال هذه الأشهر الثلاثة . أليوشا ، انظر الىَّ جيداً . ألست ، أنا أيضا ، فتى صغيرا مثلك ، مع فارق واحد هو اننى لست راهباً مبتدئاً ؟ كيف يتصرف اليوم شبابنا الروس أو بعضهم على الأقل ؟ انهم يلتقون فى خمارة تفوح فيها رائحة كريهة كهذه الخمارة ، ويجلسون الى مائدة . . لقد عاشوا دون أن يتعارفوا حتى الآن ، وسيجهل بعضهم بعضا خلال اربعين عاما أخرى ، متى خرجوا من الخمارة ! فما الذى يتناقشون فيه أثناء هذه اللحظات القصار التى تتيحها لهم المصادفة فى الحانة ؟ يتناقشون فى الكون وسرِّ الكون حتماً . هم يتساءلون : هل الله موجود ، وهل هناك خلود ؟ والذين أصبحوا منهم لا يؤمنون بوجود الله ، يتناقشون فى الاشتراكية والفوضوية ، وفى اعادة بناء الانسانية بناء كاملاً على أسس جديدة ؛ والفريقان كلاهما سواء . فالمشكلات التى يعالجها هؤلاء ، هى المشكلات التى

يعالجها أولئك ، ولكنهم يعالجونها من الجهة المعارضة ان عددهم لا يُحصى فى بلادنا ، هؤلاء الشبان الروس ، الذين يفيضون أصالة وطرافة والذين أصبحوا الآن لا يجيدون أن يناقشوا الا المسائل السرمدية . ألستَ متفقا معى فى هذا الرأى ؟

أجاب أليوشا أخاه وهو ينظر اليه نظرة مشفوعة بابتسامة رقيقة عذبة ، كأنما ليشجعه على أن يفصح عن أعماق فكره مزيداً من الافصاح :

— حتماً . ان المسائل المتصلة بوجود الله وخلود النفس أو هذه المسائل نفسها التى تعالَج من الجهة المعارضة كما قلت ، هى فى نظر الروس الحقيقيين ذات خطورة حيوية ، ومن الخير جداً ان تكون كذلك .

— اعلم يا أليوشا انه ليس من الذكاء أبداً فى بعض الاحيان أن تكون شخصاً روسياً ، واعلم على كل حال أن هذه الأمور التى تشغل بال الشبان فى روسيا هى أغبى ما يمكن أن يتصوره الخيال من أمور . غير أن بين هؤلاء المراهقين الروس واحداً أحبه كثيراً هو أليوشا .

قال أليوشا ضاحكاً :

— هذه نتيجة بلغتَ فى استخلاصها غاية اللطف .

— بماذا تريد أن نبدأ ؟ اننى أترك لك الخيار . هل تريد أن نتكلم عن الله وأن نتساءل أهو موجود أم لا ؟ قل . . .

— أبدأ من حيث تؤثر أن تبدأ ، ولو بمعالجة تلك المسائل التى وصفتها بأنها تعالَج من «الجهة المعارضة» . ألم تؤكد أمس ، فى منزل أبينا ، أن الله غير موجود ؟

كذلك سأل أليوشا أخاه ، وهو يحدق اليه متفرساً فيه .

— تعمدت أن أقول ذلك بالأمس لدى العجوز لأناكدك وأغيظك ، ورأيت لهيباً ينبجس فى عينيك . أما الآن فأنا أشعر بأننى على أتم الاستعداد لأن أناقش هذا الامر معك ، ولسوف اناقشه جاداً لا هازلاً . اننى أحب كثيرا أن أتفاهم معك يا أليوشا ، لأننى ليس لى أصدقاء . اننى أحاول أن أقترب منك .

قال ايفان ذلك ثم أضاف يسأل أخاه ضاحكاً :

— هل تتصور أننى ربما سلَّمت ، أنا أيضا ، بوجود الله ؟ هذا يدهشك ، أليس كذلك ؟

— نعم ، طبعا ، اللهم الا أن تكون مازحا من جديد .

— «مازحا ؟» لقد أخذوا علىَّ ذلك بالأمس ، عند شيخك . اسمع يا عزيزى : ان عجوزاً آثماً عاش فى القرن الثامن عشر قد قال انه اذا كان الله غير موجود فيجب اختراعه ،

* s'il n'existait pas Dieu, il faudrait l'inventer.

والحق ان الانسان قد اخترع الله . وليس أغربَ ما فى الأمر ولا أبرزَه أن الله موجود فى الواقع ، بل المدهش أن هذه الفكرة ، فكرة ضرورة وجود الله ، قد أمكن أن تنبت فى دماغ حيوان يبلغ ما يبلغه الانسان من توحش وشر ، ذلك أن هذه الفكرة فكرة مقدسة تؤثر فى القلب ، وهى فى الوقت نفسه حكيمة عاقلة . الحق أن هذه الفكرة تشرِّف الانسان . أما أنا فقد قررت منذ أمد طويل أن لا أتساءل هل الله هو الذى خلق الانسان ، أم الانسان هو الذى خلق الله . فسأعفى نفسى اذن من فحص البديهيات التى يستند اليها شبابنا الروس فى هذه الأيام والتى يستمدونها فى حقيقة الأمر كما هى من الافتراضات التى يفترضها الناس فى البلاد الأوروبية . ذلك

أن ما هو افتراضٌ لا أكثر ، فى نظر هؤلاء الأجانب ، سرعان ما يصبح بديهية فى نظر مراهقينا ، بل وفى نظر أساتذتهم الذين لا يفضلون المراهقين سدادَ رأى وصدق حكم فى كثير من الأحيان . فسأترك جانباً جميع الافتراضات اذن ، وأتساءل ما هى غايتنا الآن على وجه الدقة ؟ انها أن أشرح لك بأقصى سرعة ممكنة طبيعتى ، أى ان أفهمك أى انسان أنا ، ما هو ايمانى ، وأين أضع آمالى؟ أليس هذا بصحيح ؟ أقول لك اننى أسلم بوجود الله فوراً وبكل بساطة . ولكننى أحب أن تلاحظ ما يلى : اذا كان الله موجوداً ، واذا كان قد خلق الأرض فعلاً ، فهو انما اتبع فى هذا الخلق ، كما أصبحنا نعرف ذلك اليوم حق المعرفة ، قوانين هندسة اقليدس ، ولم يهب للعقل الانسانى الا فكرة الأبعاد الثلاثة للمكان . ومع ذلك فقد وُجد وما يزال يوجد الى يومنا هذا أناس من أشهر علماء الهندسة ومن الفلاسفة يشكّون فى أن يكون الوجود وأن يكون الخلق كله بوجه أعمّ ، مستنداً الى قوانين هندسة اقليدس وحدها ، حتى ليتجاسرون على الأمل بان الخطين المستقيمين المتوازيين اللذين ترى هندسة اقليدس أنهما لا يمكن أن يلتقيا على الأرض ، يمكن فى الواقع أن يتلاقيا فى نقطة موجودة فى اللانهاية . ولقد قلت لنفسى يا عزيزى : اذا كنت عاجزاً عن فهم حتى هذه الحقيقة ، فكيف أستطيع أن أعرف شيئا عن الله ؟ اننى أعترف فى كثير من التواضع أننى لا أملك المواهب اللازمة للقطع برأى فى مسائل من هذا النوع ، لأن عقلى اقليدسى قد خلق للأرض ، ومن العبث الذى لا طائل تحته أن نشغل أنفسنا بأمور ليست من هذا العالم . وانك لتحسن صنعاً أنت نفسك يا أليوشا اذا أنت لم تفكر فى هذه الأمور ،

واذا أنت لم تتساءل خاصة هل الله موجود أم هو غير موجود ! هذه عناصر لا سبيل لعقلنا الى ادراكها ، لأن عقلنا قد خُلق لمعرفة مكان ليس له الا ثلاثة أبعاد . ذلك هو السبب فى اننى لست أسلم عن طيب خاطر بوجود الله فحسب ، ولكننى أسلم أيضا بحكمته العليا وبغاياته ، رغم أن من المستحيل علينا أن ندرك هذه الغايات . اننى أؤمن بحكمة نظام الكون وبمغزى الحياة ، وأؤمن بانسجام أبدى علينا أن نذوب فيه جميعا ذات يوم فيما يبدو . أؤمن «بالكلمة» التى يتجه اليها الكون ، «الكلمة التى هى الله» ، وهلمّ جرا الى غير نهاية . لقد قيل فى هذا المجال كلام كثير مسرف فى الكثرة . ولكننى على طريق الصواب ، ألا ترى هذا الرأى ؟ فاعلم اذن الآن ، ختاماً لكل ما قلته ، أننى لا أقبل العالم على نحو ما خلقه الله ، رغم علمى بوجوده . لست أرفض الله . . . افهمنى جيداً . . . وانما أنا أرفض العالم الذى خلقه ولا أستطيع الموافقة على قبوله . وهأناذا أشرح لك ما أريد قوله : اننى أؤمن ايماناً جازماً ، كايمان طفل ، بأن آلام هذا العالم ستخف شيئا بعد شىء وستزول آخر الأمر ، وأن هذه المهزلة الحقيرة ، مهزلة التناقضات الانسانية ستتبدد تبدد سراب باطل ، تبددَ شىء تافه اخترعه ذهن انسانى اقليدسى ضعيف وصغير صغر ذرّة . أؤمن بأن حقيقة عليا ستنبثق اخيراً فى خاتمة الحياة الدنيا ، حين يتأكد الانسجام الأبدى ، فاذا هى تبلغ من السمو والنقاء أنها تهدىء جميع القلوب ، وتسكن جميع أنواع الغضب ، وتكفر عن جميع جرائم الانسانية ، وتفدى كل الدم الذى سُفح على الأرض . وهذه الحقيقة لن تتيح العفو عن جميع الأخطاء الانسانية فحسب ، كائنة ما كانت تلك

الأخطاء ، وانما هي ستسوّغ كل ما جرى للناس فوق ذلك . لنسلّم بهذا كله ! ولكن حتى في هذه الحالة ، فانني لن أقبل الأمر ولن أريد أن أقبله ! ألا فلتلتق الخطوط المستقيمة المتوازية ولأر ذلك ، فاعترف بأنها التقت ، ولكنني لن أقبل ذلك . تلك طبيعتي يا أليوشا ، وتلك عقيدتي . لقد حدثتك حديثاً جاداً كل الجد في هذه المرة . تعمدت أن أبدأ حديثنا على أغبى نحو ممكن ، ولكنني قدته الى حيث أبلغ اعترافاً كاملاً صادقاً ، لأن ذلك وحده يهمك . ليس الحديث عن الله هو ما كنت تريد أن تسمعه مني ، وانما كنت تريد أن تعرف ما يدور في نفس أخ تحبه . فها أنا ذا قلت لك .

أنهى ايفان كلامه المطنب الطويل بفيض من عاطفة كان يبدو غير متوقع منه .

سأل أليوشا أخاه وهو ينظر اليه متأملا :

— قل لي : لماذا تعمدت أن تبدأ الحديث بيننا «على أغبى نحو ممكن» ؟

فأجابه ايفان بقوله :

— أولاً لأنني أحببت أن أجاري عادات الناس : فان الأحاديث حول هذا الموضوع في روسيا غبية دائماً . وثانياً لأن المرء يكون أقرب الى الحقيقة حين يكون غبياً . ان الغباء يمضي نحو الهدف رأساً . الغباء بساطة وايجاز ، أما الذكاء فمكر ومخاتلة . ان الفكر الذكي فاجر فاسد ، أما الغباء فمستقيم شريف . لقد شرحت لك يأسي ، وعلى قدر ما يكون الشرح غبياً ، يكون الأمر أفضل في نظري .

سأله أليوشا مرة أخرى :

— أتقول لي لماذا ترفض «قبول العالم» ؟

— طبعاً أقول لك . ليس هذا بسر . وأنا انما بدأت هذه المناقشة لأصل منها الى ذلك . يا أخيَّ الحبيب ! لست أريد بحال من الأحوال أن أفسدك وأن أحوّلك عن اعتقاداتك . . . بالعكس . . . قد أتمنى أنا نفسي أن أشفى وأبرأ بالاتصال بك .

بهذا أجابه ايفان ، وهو يبتسم ابتسامة بريئة كمراهق خجول لم يره أليوشا يبتسم هذه الابتسامة في يوم من الايام .

٤

التمرد

بدأ ايفان كلامه يقول : — يجب أن أعترف لك بهذا الأمر : انني لم أستطع في يوم من الأيام أن أفهم أن يحب المرء الناس القريبين منه . ففي رأيي أن أقرب الناس الينا يستحيل علينا أن نحبهم ، بل قد نستطيع أن نحب البعيدين عنا . لقد قرأت في موضع ما أن رجلا اسمه «يوحنا الرحيم» (هو قديس من القديسين) قد تضرع اليه في ذات يوم متشردٌ جائع مرتعد من شدة البرد أن ينجده ويدفئه . فأضجعه على سريره وأحاطه بذراعيه ونفخ في فمه النتن المتقيح المصاب بمرض رهيب . أنني أعتقد اعتقاداً قاطعاً بأن اندفاعة هذا القديس مصطنعة كاذبة ، وانما هو يلزم نفسه به الزاماً باسم حب لا يشعر به ، فكأنه قد قام بهذا الفعل بدافع التكفير عن ذنبه . اننا لا نستطيع أن نحب انساناً الا اذا ظل مختفياً

عن نظرنا . فمتى لمحنا وجهه تبدد الحب .

قال أليوشا :

— هذه ملاحظة طالما ردّدها الشيخ زوسيما . كان يقول ان وجه الانسان يخلق في كثير من الأحيان حاجزا يحول دون الحب لدى أولئك الذين لما يتعلموا بعدُ أن يحبوا . ومع ذلك فان في الانسانية كثيراً من المحبة ، ان هناك محبة تكاد تشبه محبة المسيح . . . أنا أعرف ذلك بتجربة يا ايفان . . .

— جائز . أما أنا فلم أستطع أن ألاحظ ذلك ولا أن أفهمه ، وما أكثر الناس الذين يشبهونني من هذه الناحية ! وانما السؤال هو : هل يرجع هذا الى خبث القلب الانساني أم هو قانون طبيعي . واني لأرى أن محبة المسيح للناس معجزة لا يمكن أن تتحقق على هذه الأرض . ان المسيح اله ونحن بشر . لنفرض مثلاً انني قادر على أن أتألم كثيراً . ان من الصعب على شخص آخر غيري أن يعرف عمق الألم الذي أعانيه ، وذلك لسبب بسيط هو أنه ليس أنا بل آخر . ثم أنه نادراً ما يسلّم المرء بألم غيره (كما لو كان ذلك رتبة ولقباً !) . فهل تعلم لماذا يعزّ عليه أن يسلّم بألمي ؟ ربما لأن رائحة فمي كريهة ، أو لأن وجهي غبـي ، أو لأنني دست على قدمه في يوم من الأيام . على أن الآلام أنواع : فهناك آلام تخفض قيمتي أو تنقص قدري ، كالجوع مثلاً ، فالمحسن يمكن أن يصدقني فيما يتعلق بهذا النوع من الآلام ، أما اذا كان الألم أرفع من ذلك ، اذا كان ألماً من أجل فكرة مثلاً ، فانه يرفض أن يصدقه ، الا في أحوال نادرة قليلة . وهو لا يصدقه لأنه حين ينظر اليّ يرى فجأة أن رأسي ليس ذلك الرأس الذي لا بد أن يكون في نظره رأس من يتألم

في سبيل قضية رفيعة تلك الرفعة كلها . وهو عندئذ يأبى أن يتعاطف معي أي تعاطف ، دون أن يكون في موقفه هذا شيء من روح الشر على كل حال . ان على الشحاذين ولا سيما حين تكون نفوسهم نبيلة ، أن يظلوا مختبئين عن الأنظار ، وأن لا يطلبوا الاحسان الا باعلانات ينشرونها في الجرائد . ان من الممكن أن يحب الانسان الانسان حباً مجرداً ، وأن يحبه في بعض الأحيان فعلاً ، ولكن من بعد . أما من قرب فذلك يشبه أن يكون مستحيلاً . لو كانت الأمور تجري كما تجري على المسرح ، في باليه نرى فيه الشحاذين يظهرون لابسين أسمالاً من حرير ومغطَّين بتخاريم ممزقة ، ويطلبون الصدقة راقصين برشاقة ، فقد نعجب بهم عندئذ ، نعجب بهم ولكن دون أن نحبهم . حسبنا الآن ما قلناه حول هذا الموضوع . كل ما أردته هو أن اطلعك على وجهة نظري . لقد كان في نيتي ان أحدثك عن آلام الانسانية عامة ، ولكنني أحسب أن من الأفضل أن نقتصر على آلام الأطفال وحدهم . ولئن كانت حجتي ستفقد من ذلك تسعة أعشار دلالتها ، فانني أظل أحسب أن هذا أفضل . لسوف تكون المناقشة أقل مواتاة لي بطبيعة الحال . ولكن الأطفال يمتازون على الأقل بأن المرء يستطيع أن يحبهم من قرب ، مهما تكن وساختهم ودمامتهم (وان كنت أعتقد أن وجه طفل لا يمكن أبداً أن يكون دميماً) ، ثم انني لا أحب أن أتكلم عن الكبار ، لا لأنهم يبعثون على الاشمئزاز ولا يستحقون الحب فحسب بل لأنهم يتمتعون من جهة أخرى بتعويض : فهم قد أكلوا التفاحة وعرفوا الخير والشر وأصبحوا «شبيهين بالآلهة» ، وما يزالون يأكلون منها . . . أما الأطفال فانهم لمّا يذوقوا تلك الثمرة ، فبراءتهم ما تزال سليمة

لم يمسسها سوء . هل تحب الأطفال يا أليوشا ؟ أننى أعلم أنك تحبهم ، ولسوف تفهم اذن لماذا لن أحدثك الا عنهم . اذا اتفق للأطفال أن يتألموا ألماً قاسياً فى هذا العالم ، فذلك لا يمكن الا أن يكون بذنب آبائهم الذين أكلوا التفاحة ، ومن أجل أن يكفّروا عن تلك الخطيئة . ألا ان هذا فهم ليس من هذا العالم ، وسيظل قلب الانسان على هذه الأرض عاجزاً عن ادراكه . ان من الظلم أن يُعذَّب أبرياء — أبرياء الى هذه الدرجة من البراءة — لذنب اقترفه غيرهم . أنا أيضا أحب الأطفال كثيرا يا أليوشا ، تخيل هذا . . . سجّل هذا ! ان القساة الضوارى أصحاب الأهواء الجامحة ، من أمثال آل كارامازوف ، كثيراً ما يحبون الأطفال جداً . فالأطفال يختلفون عن الكبار اختلافاً عظيماً ما ظلوا صغاراً لما يتجاوزوا السابعة من أعمارهم ، حتى لكأنهم ينتمون الى نوع آخر لأن طبيعتهم ليست كطبيعتنا . اننى أعرف حالة لص من اللصوص كان سجيناً فى أحد السجون . لقد اتفق لهذا اللص أثناء اقتراف جرائمه وقتل أسر بكاملها فى المنازل التى تسلل اليها ليلاً ليسرقها ، ان قتل أطفالاً كذلك . . ومع ذلك استبدت بهذا الرجل أثناء وجوده فى السجن عاطفة قوية نحو الصغار ، فكان يقضى وقته ناظراً من خلال الكوة الى الصبية يلهون ويتسلون فى ساحة السجن ، واستطاع أخيرا أن يكسب مودة واحد منهم ، فكان هذا يجىء يتحدث معه بغير تخلف واقفاً تحت الكوة . . . لا شك فى أنك تتساءل يا أليوشا لماذا أقص عليك هذا كله ؟ ان بى صداعاً ، وهأنذا أشعر بحزن شديد على حين فجأة .

قال أليوشا قلقاً :

— انك تتكلم بطريقة غريبة ، كأنك لا تملك وعيك كله .

وتابع ايفان كلامه يقول وكأنه لم يسمع ملاحظة أخيه :

— بالمناسبة . . . لقد قصّ علىّ بلغارىٌ فى الآونة الأخيرة بموسكو أن الأتراك والشراكسة يعمدون فى بلاده بلغاريا الى أنواع شديدة من القسوة بغية ارهاب الشعوب السلافية التى يخشون أن تثور عليهم ثورة عامة شاملة . فهم يحرقون القرى ، ويذبحون السكان ، ويغتصبون النساء والأطفال ، ويسمّرون بعض السجناء من آذانهم بسياج فيدعونهم هنالك طول الليل ثم يعودون اليهم فى الصباح ليشنقوهم . أمور تفوق الخيال . يقال أحيانا ان الانسان «حيوان كاسر» . ألا ان فى هذا القول اهانة للحيوانات لا داعى اليها : فالحيوانات لا تبلغ مبلغ البشر فى القسوة أبداً ، وهى لا تتفنن فى قسوتها تفنن الانسان . النمر يكتفى بتمزيق فريسته والتهامها . انه لا يمضى الى أبعد من ذلك ، ولا يخطر بباله يوماً أن يسمّر أحداً من أذنيه بسياج ، ولو قدر على ذلك . وأولئك الأتراك يتسلّون خاصة بتعذيب الأطفال تعذيباً سادياً . انهم تارة ينتزعون بالخناجر صغارا من أرحام أمهاتهم وتارة أخرى يرمون رضاعاً الى فوق ويتلقفونهم بالحراب على مرأى من أمهاتهم اللواتى يعدّ حضورهن أهم عنصر من عناصر هذه المتعة . ولقد حفظت ذاكرتى على الخصوص مشهدا وُصف لى : أمٌ ترتجف جزعاً وهلعاً وفى يديها طفل رضيع ؛ وأتراك يحيطون بها ويتخيلون لعبة صغيرة . انهم يلاعبون وجه الطفل ويلاطفونه ويسلّونه ويضحكونه . والطفل سعيد فها هو ذا يضحك . وفى تلك اللحظة يصوب اليه أحد الأتراك مسدسه ؛ فينفجر الطفل ضاحكاً ، ويمد يديه الصغيرتين ليتناول المسدس ،

فيضغط الفنان عندئذ على الزناد فينطلق الرصاص ويهشّم جمجمة الصبى . . . أليس هذا فناً فى الواقع ؟ بالمناسبة يقال أن الأتراك يحبون الحلاوى .

— أخى ، الى ماذا تريد أن تنتهى ؟

— أعتقد أنه اذا لم يكن الشيطان موجوداً ، واذا كان الانسان قد خلقه ، فلا شك فى أن الانسان قد خلقه على صورته هو .

— كما خلق الله اذن .

— انك تجيد قلب الألفاظ كما يقول بولونيوس فى «هملت» .

كذلك قال ايفان ضاحكاً ، وتابع كلامه يقول :

— هذه حرب شريفة ، وأنا أقبلها . ألا فاعترف مع ذلك أنه جميل الهك هذا اذا كان الانسان قد خلقه على صورته . لقد سألتنى الى أين أريد أن أنتهى ؟ اننى امرؤ يجمع بعض الوقائع ويقتطف ويجمع قصصا معينة من الجرائد أو من أحاديث الناس أو من أى مصدر ثم يدونها على الفور . تخيل هذا . لقد جمعت منذ الآن حصاداً كبيراً من هذه الوقائع . والأتراك يحتلون فى هذه الوقائع مكاناً كبيراً بطبيعة الحال ، ولكن الأتراك أجانب . وأنا أملك كذلك وقائع كثيرة عن حالات روسية صرفة تفوق حتى الوقائع التركية . فى بلادنا روسيا انما يُعمد خاصة الى السوط والعصا . . هذا اختصاص قومى لنا ان صح التعبير . نحن لا نسمّر الناس من آذانهم ، لأننا أوروبيون رغم كل شىء . ولكننا فى مقابل ذلك نملك السياط والعصى ، وما من أحد يستطيع أن ينتزعها منا . يظهر أن الناس فى البلاد الأجنبية قد عدلت عن هذه الأساليب .

فاما أن الاخلاق هنالك أصبحت طيبة ، واما أن القوانين النافذة هنالك أصبحت لا تجيز للانسان أن يجلد أخاه الانسان . على أن الانسان قد وجد هنالك ما يعوّض به ما افتقده تعويضا يتصف كذلك بطابع قومى خاص فيبدو للوهلة الأولى مستحيلا فى بلادنا . على أن هنالك علامات تدل ، والحق يقال ، على أن أساليب التعويض هذه قد أخذت تتسرب الى روسيا منذ زمن ، ولا سيما بفضل الحركة الدينية التى تنتشر فى الآفاق العليا من مجتمعنا . ان عندى نشرة شائقة ، مترجمة عن الفرنسية تروى قصة اعدام مجرم فى مدينة جنيف هو قاتل شاب اسمه ريشار فى الثالثة والعشرين من عمره ، فيما أظن ، قد ندم على فعلته واعتنق المسيحية قبل أن يصعد الى المقصلة . ان الواقعة حديثة قد وقعت منذ حوالى خمس سنين . وريشار هذا زنيم كان أبواه قد أهدياه وهو فى السادسة من عمره الى رعاة جبليين ربّوه بغية أن يعمل لهم بعد ذلك . شبَّ الصبى كحيوان صغير متوحش . والرعاة الذين تبنوه لم يعلموه شيئاً ، وأرسلوه يحرس القطعان منذ بلغ السنة السابعة من عمره دون أن يلبسوه ودون أن يطعموه تقريباً ، وذلك فى جميع الفصول والأجواء . وكانوا يعاملونه هذه المعاملة دون أن يشعر ضميرهم بأى عذاب ، لأن الصبى كان قد «أهدى» اليهم كما يهدى شىء من الأشياء ، فهم لذلك لا يعتقدون أن من واجبهم أن يطعموه . وقد روى ريشار هذا أمام المحكمة أنه كان يشتهى خلال هذه السنين (كالابن الضال الذى يحدثنا عنه الانجيل) أن يأكل حتى تلك العجينة التى كانت تُعلف بها الخنازير المسمَّنة للبيع . ولكن لم يكن يُسمح له بذلك ، وكان يضرب اذا سرق بعضها من المذود . هكذا عاش ريشار سنى طفولته

وشبابه الى الساعة التي شب فيها عن الطوق وشعر بأنه أصبح قوياً ، فترك الرعاة وأخذ يسرق . وأصبح هذا المتوحش يجني رزقه في جنيف من العمل بالمياومة ، ولكنه كان ينفق ما يجنيه في السكر ويعيش حياة كريهة مستهجنة . وانتهى به الأمر الى قتل رجل عجوز في سبيل أن يسلبه ما معه . وقد اعتقل وحوكم وحكم عليه بالاعدام . ان الناس ليسوا عاطفيين هناك . وسرعان ما وجد نفسه في السجن محاطاً بقسس وأعضاء جمعيات مسيحية مختلفة وسيدات من مترئسات الأعمال الخيرية ، الخ ، فاذا هو أثناء مدة اعتقاله يعلّم القراءة والكتابة ويفسّر له الانجيل ويوعظ ، ويُردُّ الى الصواب ، ويُلام ويقرَّع ، ويؤنب ويوبخ ، فاذا هو يعلن جهاراً في ذات يوم أنه نادم على فعلته وأنه تاب وأناب . وقد وجه الى المحكمة رسالة يصف فيها نفسه بأنه كان شيطاناً رجيماً ، وأضاف الى ذلك قوله ان الرب قد أدركه أخيراً برحمته فهداه الى الحق وأتم عليه نعمته .
وقد اهتزت المدينة كلها للأمر ، فاذا جنيف الفاضلة الخيِّرة تغلي وتفور ، واذا جميع الناس في المجتمع الراقي ، اذا جميع «الأخيار» يريدون أن يزوروه في سجنه : حضنوه وعانقوه وقبَّلوه ، وقالوا له : «أنت أخونا وقد أدركتك نعمة الله !» ، فكان ريشار يبكي حناناً ويكرر قوله : «نعم لقد أدركتني نعمة الله ! كنت أثناء طفولتي وشبابي أحسد الخنازير على علفها ؛ وها هو ذا الرب يرسل اليَّ الآن نعمته . سأموت في صلح مع الله !» ، فيجيبه الآخرون : «نعمَ ما تقول يا ريشار ، ستموت متصالحاً مع الرب . لقد سفحت دماً فيجب أن تموت متصالحاً مع الرب . صحيح أنك لم تكن مذنباً اذ جهلت الله أيامَ كنت تحسد الخنازير على علفها وأيام كنت تُضرب اذا أنت

سرقت بعض هذا العلف من مذودها (وأنت مخطىء في ذلك على كل حال لأن السرقة حرام) ، ولكنك سفكت دماً فلا بد أن تموت» . وحان اليوم الأخير . فكان ريشار ، وقد ضعف ضعفاً شديداً ، يبكي وما ينفك يردد بغير كلال ولا ملال : «هذا أسعد يوم في حياتي ، فانني ذاهب الى ملكوت الرب !» ، وكان القسس والقضاة والسيدات رئيسات الجمعيات الخيرية يرددون بعده متنافسين «نعم نعم . . هذا أسعد يوم في حياتك ، لأنك ذاهب الى ملكوت الرب !» وقد رافق هذا الجمهور ريشار الى المقصلة ، فبعضهم يتبع عربة العار التي تقل الجاني راكباً وبعضهم يتبعها سائراً . ووقف الجميع أمام المقصلة ، وأخذ الصياح يتعالى لريشار : «مت أيها الأخ ، مت في صلح مع الله ، لأن نعمة الله قد أدركتك !» ودُفع ريشار الى المقصلة تغمره القبلات ، وأُضجع عليها ، وقطع رأسه قطعاً أخوياً جداً لأن نعمة الله قد أدركته . أليس هذا شيئاً يتميز بطابع خاص ؟ لقد تُرجمت هذه النشرة عن اللغة الفرنسية . . . ترجمها أشخاص ينتمون الى الأوساط اللوثرية والجمعيات الخيرية من أعلى طبقات المجتمع الروسي ، أرسلوا منها أعداداً ضخمة الى جميع الصحف لتوزع مجاناً في سبيل تثقيف شعبنا . ان قصة ريشار هذا شائقة بما تتصف به من طابع قومي . فنحن في بلادنا ، والحق يقال ، لا نقطع رأس رجل لأنه أصبح أخانا ولأن نعمة الله قد أدركته . ولكن عندنا شيئاً خاصاً بنا لا بأس به هو أيضا . نحن في روسيا نضرب ضرباً قاسياً مبرِّحاً ، وقد أصبح هذا نوعاً من تقليد تاريخي ومتعة مألوفة طبيعية . لقد صوَّر نكراسوف ، في احدى قصائده ، شقاء حصان كان فلاح من الفلاحين يضربه بالسوط

على العينين ، على «عينيه الوديعتين» » . . . من ذا الذى لم يشهد فى يوم من الأيام منظراً كهذا المنظر ، الروسى جدا ان جاز التعبير ؟ ان ذلك الحيوان المسكين الضعيف الذى كان يجر عربة مثقلة بأحمال فوق طاقته قد غاص فى الوحل ثم لم يستطع أن يتخلص منه . فأخذ الفلاح يضربه ثم يضربه . . . وبلغ من شدة حنقه وهو يرفع سوطه فى الهواء ويهوى به على الحيوان أنه أصبح لا يشعر بما يفعل ، فهو فيما هو فيه من سكر وحشى بضراوته المستيقظة يضاعف ضرباته بمزيد من القسوة قائلاً : «أصبحت لا تقوى على جر العربة ، ولكنك ستجرها رغم أنفك . . . مت ان شئت ، ولكن عليك أن تجر العربة !» وأخذ الحيوان يتخبط ، فما كان من الفلاح وقد استبد به غضب أعمى الا أن أخذ يجلده على عينيه الباكيتين على «عينيه الوديعتين» العزلاوين اللتين لا تملكان ما تدفعان به عن نفسهما الأذى . واستطاع الحيوان باندفاعة مستميتة قصوى أن يتخلص من الوحل فيستأنف سيره مرتعشاً مجللاً بالخزى والعار ، لا يكاد يستطيع أن يتنفس ، يتقدم بخطى متقطعة مقهورة . ان أشعار نكراسوف هذه تحدث فى النفس أثراً رهيباً . والأمر مع ذلك أمر حصان ، ونحن نعلم ان الرب قد وهب لنا الخيول لنضربها ، أو هذا على الأقل ما تعلمناه من التتر الذين أورثونا السوط هدية تذكرنا بهم . ولكن البشر يُضربون أيضا . اننى أعرف حالة سيد مرموق مثقف تعاون مع زوجته فى ضرب ابنته الصغيرة وهى طفلة فى السابعة من عمرها » . لقد دوّنت الواقعة بجميع تفاصيلها . كان للعصىّ أشواك ، فسرّ الأب من ذلك أعظم السرور . قال : «لتشعرن بالعقوبة شعوراً أقوى» . . . وأخذ يضرب ابنته . هناك أشخاص —

وأنا أعلم ذلك علم اليقين — يسكرون من الضربات التى يكيلونها ، ويبلغون من النشوة بها حدَّ اللذة الجسدية ويتمتعون بالضرب تمتعاً وحشياً متزايداً . ضُربت الصبية دقيقة ، فخمسَ دقائق ، فعشر دقائق ، ضرباً ما ينفك يزداد قوة وضراوة . والصبية تصرخ وتبكى ، ثم تقول مختنقة الصوت بدموعها : «بابا ، بابا ، بابا الحبيب !» وبمصادفة شيطانية غير لائقة ، رُفعت القضية الى المحكمة . واستعان الأبوان بمحام . ان الشعب الروسى يقول منذ زمن طويل : «المحامى ضمير يؤجر نفسه» . وأخذ المحامى يصيح مدافعاً عن موكله أمام المحكمة : «أب أدّب ابنته . فما هذا الا حادث عادى شائع من حوادث الحياة العائلية . ومن عار هذا العصر الذى نعيش فيه أنه ظُن أن هذه قضية يجب أن ترفع الى المحكمة !» وقد تأثر المحلّفون أشد التأثر بأقوال المحامى ، فمضوا يتداولون فى الأمر ، ثم عادوا يعلنون حكمهم بالبراءة . وضجَّ الجمهور فرحا حين سمع الحكم ببراءة الجلاد . اننى لم أشهد المحاكمة ، والا لاقترحت انشاء صندوق اعانة ، تكريما لهذا الأب الجلاد ! . . هذه لوحة جميلة يا أليوشا ، غير أننى أملك لوحات أخرى ربما كانت أجمل منها ، وهى تتعلق خاصة بالأطفال من الروس . اليك قصة بنية فى الخامسة من عمرها ، غضب منها أهلها ، وهم «أناس محترمون ، موظفون مثقفون ، نشأوا نشأة كريمة وأحسنت تربيتهم» . أؤكد لك جازماً يا أليوشا أن هناك أناساً يشعرون بميل خاص الى تعذيب الأطفال ، الأطفال وحدهم دون سواهم . ان هؤلاء الجلادين يبرهنون فى تعاملهم مع سائر البشر على كثير من الدماثة والليونة ، كما يليق ذلك بأوروبيين متعلمين انسانيين . ولكنهم فى مقابل ذلك يجدون لذة كبيرة

في تعذيب الأطفال ، مع حبهم لهم على طريقتهم الخاصة .
ان منظر هذه الكائنات الصغيرة العزلاء التي لا تحسن الدفاع عن نفسها ، ولا تعرف كيف تشتكي ولا الى أين تلجأ ولا بماذا تعتصم ، مع ما تتصف به من ثقة ملائكية ، يملك القدرة على ايقاظ القسوة الغريزية في نفوس أولئك المعذِّبين . لا شك أن في قرارة كل انسان وحشاً نائماً ، وحشاً ضارياً مسعوراً يلتذ بسماع صرخات ضحيته ، فينطلق عندئذ انطلاقاً كاملاً بكل قسوته التي ضاعفها الفجور وضاعفها كل ما يولده الفجور من أمراض كالنقرس والتهاب الكبد وما الى ذلك . ولنعد الى أهل تلك البنية . لقد أنزل الأبوان المثقفان في ابنتهما المسكينة أنواعاً من التعذيب لا يتصورها الخيال . كانا يضربانها ويجلدانها ويدوسانها بدون أي سبب ، حتى انهد جسم البنية المسكينة وامتلأ بقعاً زرقاء . وشيئاً فشيئاً توصلا الى صور من القسوة فيها كثير من التفنن . من ذلك أنهما أثناء الليالي الباردة كانا يحبسان الطفلة في المرحاض ، بحجة أنها كانت لا تطلب الخروج لقضاء حاجاتها في حينها (كأن طفلاً في الخامسة من عمره يستطيع دائماً أن يستيقظ من نومه الهادئ العميق في الوقت المناسب للذهاب الى المرحاض) ؛ وكانا يلطخان لها وجهها بغائطها نفسه «لتعليمها» ، ويجبرانها على أن تبلع غائطها ، وكانت أمها ، أمها نفسها ، هي التي تكرهها على ذلك ! وكانت هذه الأم تستطيع أن تنام بعدئذ نوماً هادئاً دون أن تهزها صرخات طفلتها السجينة في ذلك المكان الموبوء ! فهل تستطيع أن تتخيل يا أليوشا ذلك الكائن الصغير الذي ما يزال عاجزاً عن أن يفهم ما يجرى له ، هل تستطيع أن تتخيله لاطماً صدره المختنق بيديه الصغيرتين في غياهب الظلام والبرد

ضارعاً الى «الرب الرحيم» بدموع شقية بريئة أن يحميه ؟ هل تستطيع أن تفهم علة وجود عالم سخيف هذا السخف ، مستحيل هذه الاستحالة . . قل لي يا صديقي ويا أخي . . . هي تستطيع أن تدرك علة وجود هذا العالم أنت يا من تتهيأ لأن تكون راهباً ينذر حياته للرب تقياً متعبداً ؟ يزعم بعضهم أن الوجود على هذه الأرض لا يمكن تصوره خالياً من الألم ومن الظلم اللذين يستطيعان وحدهما أن يهيا للانسان معرفة الخير والشر ! ألا بئست تلك المعرفة اذا كان ثمنها هذا الثمن ! ان كل ما في العالم من علم لا يكفي للتكفير عن دموع تلك الطفلة التي تتوسل الى «الرب الرحيم» . لن أقول شيئاً عن الآلام التي يعانيها الكبار . فان الكبار قد أكلوا الثمرة المحرَّمة ، فليجنوا جزاء ما فعلوا ، وليأخذهم الشيطان جميعا اذا كان الشيطان ما يزال يلوى عليهم ويهتم بأمرهم . . . أما الأطفال ، أما الصغار الأبرياء ، فما ذنبهم ؟ ألاحظ أنني أعذبك بهذا الحديث يا أليوشا . ان في وجهك حزناً وشقاء . سأمسك عن الكلام ان شئت .

تمتم أليوشا يقول :

— لا . . . انني أحب أن أتألم أنا أيضاً .

— لن أقصّ عليك الا قصة واحدة أخرى ، لأنها شائقة جداً ، ولأنها تتسم بطابع مميز حقاً . لقد قرأتها منذ زمن قصير في مجلة «الارشيف» أو مجلة «الماضي الروسي»[9] ، لا أتذكر على وجه الدقة . . يجب التحقق من ذلك . . . لقد وقعت هذه القصة في أحلك عهود نظام القنانة عند بداية هذا القرن . عاش محرر الشعب» ! كان يعيش في ذلك الزمان جنرال له علاقات رفيعة ويملك أطيانا واسعة . هو واحد

من أولئك الرجال (وقد أصبحوا قلة قليلة نادرة حتى فى ذلك الزمان) الذين يعتقدون حين يُحالون على التقاعد أنهم بما قدموا للدولة من خدمات قد أصبح لهم على أقنانهم حق الحياة والموت . لقد وجد أمثال هؤلاء الرجال فى الماضى . كان ذلك الجنرال يعيش فى ضيعته التى يعمرها ألفان من الأقنان . وكان يصطنع الأبهة والعظمة ، وينظر نظرة استعلاء الى جيرانه المتواضعين ، متظاهراً بأنه يعدهم مهرجين أو طفيليين . وكان يملك بضعة مئات من كلاب الصيد لها ما يقرب من مائة خادم يجرون وراءها على خيولهم ، لابسين زياً واحداً . ففى ذات يوم كان قن صغير هو صبى فى الثامنة من عمره يتسلى برمى الأحجار ، فاذا هو يصيب باحداها الكلب الأثير لدى الجنرال ، سهواً وغفلة . وسأل الجنرال مستطلعاً : «لماذا يعرج هذا الكلب الذى هو خير كلابى ؟» فقيل له انه قد جُرح بحصى رماها ذلك الصبى . قال الجنرال وهو يتفرس فى الصبى : «أأنت السبب اذن ؟» ثم أضاف : «احبسوه !» انتُزع الصبى من أمه ، وألقى فى زنزانة مظلمة ضيقة لبث فيها طول الليل . وفى ساعة مبكرة من صباح الغد تهيأ الجنرال للذهاب الى الصيد فى احتفال عظيم . انه يمتطى صهوة جواده وقد أحاط به طفيليوه وكلابه وخدمه الذين يجرون وراء الكلاب ومطاردو الفرائس ، وقد امتطوا صهوات خيولهم جميعاً . وأمر الجنرال بجمع الخدم فى الحوش لتلقينهم درساً ، وجُعلت أم الصبى الجانى فى أول صف من صفوفهم . وأُخرج الصبى من زنزانته . كان ذلك فى صباح كالح بارد يملؤه الضباب من أصباح الخريف ، صباح يبشر بصيد وافر . وأمر الجنرال بأن تُخلع عن الصغير ثيابه فخُلعت حتى صار عارياً كل العرى .

ان الصبى يرتعش مجنوناً من الخوف ، ولا يجرؤ أن يفتح فاه . . قال الجنرال آمرا : «اجعلوه يركض !» ، فأخذ المطاردون يدفعون الصبى قائلين له : «اركض ، اركض !» ، فأطاع الصبى أمرهم وأخذ يركض . . فاذا بالجنرال يعول صائحاً : «عليه !» مهيباً بكلابه أن تطارده ، فانطلقت الكلاب تمزق جسم الصبى على مرأى من أمه ! . أحسب أن الجنرال قد حُجر عليه بعدئذ . فما رأيك ؟ أما كان يستحق أن يعدم رمياً بالرصاص ؟ ألم يكن من الضرورى اعدامه تهدئة للضمير الأخلاقى ؟ هلاَّ أجبت يا أليوشا !

قال أليوشا بصوت خافت وهو يرفع عينيه نحو أخيه ويرسم على شفتيه المرتعشتين ابتسامة ضعيفة :

— نعم كان يجب رميه بالرصاص .

زعق ايفان بنوع من الحماسة :

— مرحى ! ما دمت تقر بذلك أنت نفسك ، فلا بد . . هاه . . . يا لرسول المحبة ! ذلك اذن هو الشيطان الذى تؤويه فى قلبك يا أليوشا كارامازوف !

قال أليوشا :

— لقد قلتُ سخافة ، ولكن . .

صاح ايفان :

— ولكن . . . هذا هو الأمر : «ولكن» . . . ألا فاعلم أيها الراهب المبتدئ أن السخافات لازمة لوجود هذا العالم . ان الكون يقوم على سخافات بدونها قد لا يوجد شىء وقد لا يحدث شىء . نحن نعلم ما نعلم !

— ماذا تعلم ؟

— لست أفهم شيئاً (كذلك استأنف ايفان كلامه قائلاً

في هذيان) ، ولقد أصبحت لا أريد الآن أن أفهم شيئاً . أريد أن أكتفي بالوقائع وأن أقتصر عليها . لقد قررت منذ زمن طويل أن لا أحاول تأويلها . فلو حاولت أن أفهم اذن لانحرفت عن الوقائع فورا ، وأنا أحرص على أن أبقى في الواقع لا أخرج منه . . .

صاح أليوشا يقول بمرارة :

— لماذا تعذبني هذا التعذيب ؟ هلاَّ قلت لي أخيراً . . .

— طبعاً سأقول لك . ذلك ما كنت أريد الوصول اليه منذ البداية . أنت عزيز في نفسي يا أليوشا ، ولا أريد أن افرِّط فيك ولن أتنازل عنك لصاحبك زوسيما .

قال ايفان ذلك وصمت لحظة ، وفجأة اصبح وجهه حزيناً جداً ، ثم أردف يقول :

— اصغ اليَّ الآن . لقد اخترت لأمثلتي أطفالاً حتى يكون برهاني أكثر اقناعا . ولن أقول شيئاً عن سائر الدموع الانسانية التي تتبلل بها الأرض من قشرتها الى وسطها ، انني أضيِّق موضوع مناقشتنا عامداً . ما أنا الا حشرة صغيرة من الحشرات . واني لأعترف ذليلاً كل الذل بعجزي عن فهم نظام هذا العالم . هل يجب أن نؤمن بأن البشر مذنبون وحدهم عن شرورهم ؟ لقد وُهبت لهم الجنة ، ولكنهم آثروا أن ينالوا حريتهم وسرقوا النار من السماء وهم يعلمون سلفاً أنهم بذلك يجلبون لأنفسهم الشقاء ، فلا داعي اذن الى أن نشفق عليهم . ولكن عقلي ، عقلي البائس الاقليدسي الأرضي يؤكد لي ، على عكس ذلك ، أن العذاب موجود دون أن يكون هنالك مذنبون ، وأن جميع الأفعال الانسانية ينحدر بعضها من بعض بالضرورة ، وأن كل شيء ينقضي آخر الأمر ، وأن التوازن يقوم مرة أخرى

من تلقاء نفسه . ذلك على الأقل وهمٌ أنشأه عقلي الاقليدسي ، أعرف هذا . . . وأنا لا أقبل أن أحيا وفقاً لهذا الوهم ! فيم يهمني أن أعلم أنه ليس هناك مذنبون ؟ انني في حاجة الى قِصاص ، والا دمرت نفسي . وهذا القصاص الذي أطالب به ، أنا لا أريده في «لا نهاية» لا يمكن الوصول اليها ، وفي «أبدية» تفوقني ، وانما أنا أريد أن أراه على هذه الأرض ، أن أراه بعيني . لقد آمنت ، وأريد أن أشهد انتصار الحقيقة ! فاذا كنت ميتا ساعة انتصارها فلأُبعث حياً ! لسوف يسيء اليَّ كثيراً أن يتحقق هذا المجد للانسان في غيابي . هل تألمت أنا من أجل أن أمهِّد الطريق بخطاياي وآلامي لانسجام مقبل لن ينتفع به الا آخرون ؟ انني أريد أن أرى الوعلة بعينيَّ مستلقية أمام الأسد في هدوء وسلام ، وأن أرى الضحية مرتدة الى الحياة تعانق قاتلها . أريد أن أكون حاضراً حين ينكشف فجأة سرُّ هذا العالم للجميع . ان هذه الرغبة هي القاعدة التي تقوم عليها جميع الأديان ، وأنا امرؤ مؤمن . ولكن الأطفال . . . ما ذنب الأطفال ؟ كيف نسوِّغ عذاب الاطفال عندئذ ؟ تلك مشكلة لا أجد الى حلها سبيلاً . أعود فأقول لك للمرة المائة : ان هناك في هذا العالم مشكلات كثيرة ، ولكنني اخترت هذه المشكلة ، مشكلة الاطفال ، لانها تتيح لي أن أعبِّر عما يقض مضجعي تعبيرا أوضح . قل لي : اذا كان على البشر أن يتألموا من أجل أن يمهدوا بالمهم للانسجام الأبدي الكلي ، فلماذا يجب أن يتألم الأطفال أيضا ؟ لماذا حُبس الأطفال في هذه الدائرة ، لماذا يجب عليهم هم أيضا أن يساهموا في الانسجام بعذابهم ؟ ذلك أمر لا سبيل الى فهمه اطلاقاً . لماذا أصبحوا هم أيضا مادة لتسميد الانسجام القادم لأناس آخرين ؟ قد

أُسلم عند الاقتضاء بتضامن البشر فى الخطيئة وتضامنهم فى التكفير عنها ولكن الأطفال لم يشاركوا فى الخطيئة فان قيل انهم يحملون فى أجسادهم خطايا آبائهم وانهم متضامنون اذن مع آبائهم فى هذه الخطايا قلت : هذه حقيقة لن تكون من هذا العالم على كل حال ولا يمكن أن يدركها عقل ! رُبَّ مازح خبيث يعترض بقوله ان الطفل سيشتد ساعده وسيقارف الخطيئة متى حان الوقت ولكننى أقول ان ذلك الصبى الذى ما يزال فى الثامنة من عمره لما يشتد ساعده بعدُ وقد مزقته الكلاب ! آه يا أليوشا هيهات أن يكون فى نيتى أن أجدِّف ! اننى أتخيل كيف سيتهلل الكون فرحاً حين ستدوى أصوات السماء والأرض جميعا منشدة للخالق نشيد الشكر معا وحين سيهتف جميع الأحياء وجميع من كانوا أحياء قائلين : «أنت على حق يا رب وقد فهمنا طرقك !» سوف تعانق الأم عندئذ الجلاد الذى أمر الكلاب بتمزيق ابنها وسوف يقول الثلاثة عندئذ من خلال دموع الحنان : «أنت على حق يا رب» ، ستنجلى عندئذ جميع الأسرار وسيكون ذلك اليوم يوم تمجيد المعرفة . ولكن ذلك بعينه هو العقدة لأننى لا أستطيع أن أقبل حلاً كهذا الحل . وأنا أسارع الى اتخاذ اجراءات ما زلت فى هذا العالم . قد يحدث يا أليوشا حين أشهد ذلك الانتصار النهائى للحقيقة او حين أبعث حياً لأشهد ذلك الانتصار أن أصيح أنا أيضا مع الجميع اذ أرى الأم والجلاد والطفل يتعانقون ويتصالحون : «أنت على حق يا رب !» ولكننى لا أريد أن أفعل ذلك عندئذ ، وأحرص على أن أحمى نفسى سلفاً من ذلك الاستسلام ولهذا السبب ترانى أتنازل تنازلاً حاسماً عن الانسجام الأعلى . ان هذا الانسجام لا يعدل فى رأيى دمعة

واحدة من دموع ذلك الطفل المعذب حتى الموت الذى كان يلطم صدره بقبضتى يديه فى مكان موبوء ويضرع الى الله الرحيم من خلال دموعه التى لا يكفر عنها شىء ! نعم ما من انسجام مقبل سيكفر عن تلك الدموع ولا بد من التكفير عنها والا فلا يمكن أن يقوم انسجام ولكن بماذا يمكن التكفير عنها ؟ وهل هذا ممكن ؟ أهو القصاص الذى سينزل بالجانى ؟ فيم يهمنى هذا القصاص ؟ اننى لا أريده ! فيم يهمنى تعذيب الجلادين فى الجحيم ، فماذا بوسع جهنم أن تفعل اذا كان الاطفال قد عذبوا حتى الموت ؟ وأين عسى أن يكون الانسجام اذا كان ثمة جحيم ؟ اننى أحب أن أغفر وأن أصالح . اننى أتمنى أن لا يبقى فى الكون عذاب . فاذا كانت آلام الأطفال أمرا لا غنى عنه لاكمال مقدار الألم الذى سيكون فدية للحقيقة فاننى أعلن جازماً أن الحقيقة لا تستحق أن يُدفع ثمنها باهظاً الى هذا الحد . اننى لا أريد أخيراً أن تصالح الأم الجلاد الذى أمر كلابه بتمزيق جسد ابنها ! ليس من حقها أن تغفر له . لها أن تتغاضى عن ألمها هى اذا شاءت ، وعن عذاب الأم العظيم الذى قاسته ، ولكن ليس لها أن تعفو عن التعذيب الذى نال ابنها حتى ولو عفا عنه ابنها ! فاذا كان الامر كذلك ، اذا لم يكن من حق الضحايا أن تغفر فأين الانسجام ؟ هل فى الكون فرد فى وسعه ومن حقه أن يغفر ؟ اننى لا أريد هذا الانسجام بل أرفضه حباً بالانسانية . اننى أفضـــل أن تبقى آلام هذا العالم بغير تكفير . اننى أوثر أن يظل ألمى بغير فدية وأن يظل استيائى متأججا بغير ارتواء ولو كنت على خطأ . ان الثمن المطلوب للانسجام باهظ جدا وهو فوق ما نطيق أن ندفع من ثمن . ان بطاقة الدخول غالية مسرفة فى

الغلاء . لذلك أسارع فأردُّ بطاقتى . اننى أشعر بأن علىَّ أن أردها بأقصى سرعة اذا اعتبرتُ نفسى انساناً شريفاً ، وذلك ما أفعله . اننى لا أجحد الرب يا أليوشا وانما أقتصر على أن أعيد اليه بطاقتى بكثير من الاحترام .

قال أليوشا بصوت رقيق وهو يخفض عينيه :

— هذا تمرد .

فقال ايفان بلهجة نافذة مؤثرة :

— تمرد ؟ لا أحب أن تحكم علىَّ أنت هذا الحكم . ان من المستحيل على المرء أن يحيا فى تمرد ، وأنا امرؤ يحرص على أن يحيا . أجبنى عن سؤال ولكن أجبنى بصراحة . فاننى أحرص على جواب صريح عن هذا السؤال : لو كنت مهندس المصائر الانسانية وأحببت أن تبنى عالماً تجد فيه الانسانية السعادة والهدوء والأمن أخيراً أفتشرع فى هذا العمل اذا علمت أنه لن يتحقق الا اذا كان العذاب ثمنه ولو لم يكن الا عذاب انسان واحد صغير هو مثلاً تلك الطفلة التى كانت تلطم صدرها بقبضتى يديها ؟ لو كان البناء لا يمكن أن يقوم الا على تلك الدموع التى لا فدية لها تذرفها تلك البنية الصغيرة ، لو كان ذلك ضرورة لا مناص منها ولا يمكن أن يتحقق الهدف بدونها أفتقبل توافق على أن تكون مهندس الكون فى تلك الشروط ؟

أجاب اليوشا بصوت خافت :

— لا . . لا أوافق .

— وهل فى وسعك أن تسلم عدا ذلك بأن يقبل البشر الذين تبنى لهم هذا العالم أن يصبحوا سعداء على حساب آلام ودماء لا مبرر لها لطفل برىء وأن يعرفوا السعادة الى الأبد بعد أن يقبلوا ذلك ؟

— لا . . . لا أستطيع أن أسلم بهذا .

كذلك قال أليوشا ثم صاح يقول فجأة وقد سطعت عيناه :

— أخى لقد سألتنى منذ لحظة هل فى الكون كائن فى وسعه ومن حقه أن يغفر ؟ ان هذا الكائن موجود يستطيع أن يغفر كل شىء وأن يغفر لجميع الناس لأنه وهب هو نفسه دمه البرىء للانسانية بأسرها . لقد نسيته أنت وهو هو الذى يقوم عليه البناء كله وهو الذى سيهتفون له : «أنت على حق يا رب فلقد أدركت طرقك» .

— آه . . . انك تتكلم عن «ذلك المبرأ وحده من الخطيئة» وعن دمه ! لا يا اليوشا أنا ما نسيته وانه ليدهشنى أن تنتظر هذه المدة الطويلة قبل أن تستشهد به فأمثالك فى العادة يبرزونه منذ بداية المناقشة ، اسمع يا أليوشا هل تعلم أننى نظمت قصيدة فى ذات مرة ؟ لا تسخر منى لقد فعلت ذلك منذ سنة فاذا وافقت على أن تضيع فى صحبتى عشر دقائق أخرى قلت لك هذه القصيدة .

— كتبت قصيدة ؟

— لا لم أكتبها (كذلك أجاب ايفان ضاحكاً) ولا كنت قادراً فى يوم من الأيام على أن أسطر بيتين من الشعر ولكننى تخيلت هذه القصيدة وحفظتها فى فكرى . لقد تصورتها وأنا فى نوع من سورة النفس وستكون أنت أوَّلَ قرائى أو قل أول المستمعين الىَّ . ولماذا يجب على المؤلف أن يتنازل عن المستمع الوحيد الذى يملك أن يتلو عليه ما ألف (كذلك أضاف ايفان مبتسماً) أأقول القصيدة أم لا ؟

أجاب أليوشا :

— أنني أُصغي اليك باهتمام وشوق .

— عنوان القصيدة «المفتش الاكبر» . هي قصة خيالية ولكن أود أن أقصها عليك .

٥

المفتش الأكبر

بدأ ايفان كلامه يقول :

— لا بد من مقدمة . هنا ايضاً ، أقصد مقدمة أدبية . (قال ايفان ذلك ضاحكاً) . وهل أنا مؤلف ؟ ان الأحداث تجرى فى القرن السادس عشر . ولقد كان رائجا فى ذلك الزمان ادخال القوى السماوية فى القصائد ، كما لا بد أنك تعلمت ذلك فى المدرسة . يكفى أن أذكرك ، حتى دون أن أستشهد بمثال دانتى ، بأن موظفى المحاكم والرهبان فى الاديرة فى فرنسا كانوا يقدمون تمثيليات تظهر فيها العذراء والملائكة والقديسون ، ويظهر فيها المسيح ، ويظهر فيها حتى الله نفسه . تمثيليات ساذجة . وقد وصف فكتور هوجو فى روايته "Notre Dame de Paris" (١) تمثيلية أخلاقية مجانية مُثلت للشعب فى قاعة دار البلدية فى عهد لويس الحادى عشر احتفالاً بميلاد ابنه البكر ، وكان عنوان التمثيلية هو "Le bon jugement

(١) «أحدب نوتردام» (بالفرنسية فى الأصل) .

de la très sainte et gracieuse Vierge Marie" (١) ، وفيها نرى العذراء تظهر بنفسها لاصدار bon jugement (٢) . وعندنا فى موسكو ، قبل عهد بطرس الأكبر ، كانت تمثيليات من هذا النوع تُمثَّل من حين الى حين ، وكانت تُستوحى من التوراة خاصة . وعدا هذه التمثيليات ، فقد انتشرت فى العالم طائفة من الاقاصيص أو «القصائد» يظهر فيها القديسون وتظهر فيها الملائكة والقوى السماوية كلها ، تبعاً للحاجات . وفى أديرتنا كانت تُترجم وكانت تنسخ أشياء كثيرة ، بل لقد كانت تؤلَّف قصائد فى بعض الأحيان ، حتى فى عهد الاحتلال التترى . فكذلك على سبيل المثال ، احتفظ بقصيدة رهبانية (مترجمة عن اليونانية طبعا) عنوانها : «درب الآلام للعذراء» ، مليئة بلوحات تكاد تبلغ فى جرأتها وجسارتها لوحات دانتى . ففى تلك القصيدة تذهب العذراء الى المعذبين فى الجحيم يقودها عبر الآلام رئيس الملائكة ميخائيل ، فترى الخطاة وترى ما يقاسون من عذاب أليم ، وترى بينهم على وجه الخصوص طائفة عجيبة من الخطاة تتخبط فى بحيرة مشتعلة ، فالذين يغوصون فى هذه البحيرة منهم لا يرجعون بعد ذلك الى سطحها قط ، ويقال عنهم «ان الله قد نسيهم» ، وذلك تعبير عميق زاخر بالقوة ؛ وقد استبدت بالعذراء شفقة قوية ، فسقطت باكية أمام عرش الرب تضرع اليه أن يعفو عن معذبى الجحيم ، وأن يغفر لهم جميعاً بغير تمييز . ان حديثها مع الرب شائق

(١) «الرأى الصائب للعذراء مريم المقدسة المنعمة» (بالفرنسية فى الأصل) .

(٢) رأيها الصائب (بالفرنسية فى الأصل) .

جداً ، فهى تضرع اليه وتلح وتأبى أن تنصرف ، فاذا أومأ الرب الى قدمى ويدى ابنها المثقوبة بالمسامير وسألها : «كيف أعفو عن هؤلاء الجلادين» ، أمرت جميع القديسين والشهداء والملائكة أن يركعوا معها وأن يسألوا العفو عن جميع الخطاة بغير استثناء . واستطاعت أخيراً أن تحصل على أن ينقطع عذاب جهنم كلَّ سنة بين الجمعة الحزينة وعيد الخمسين ، وأن يسارع المعذبون عندئذ الى أن ينشدوا من قرارة الجحيم نشيد العرفان بالجميل : «أنت على حق يا رب ، وعادل حكمك» . ان قصيدتى أنا كان يمكن أن تكون من هذا النوع لو أننى عشت فى ذلك العصر . ان الرب يظهر فى قصتى ، ولكنه لا ينطق بكلمة واحدة ، ولا يزيد على أن يجتاز المسرح . لقد انقضت خمسة عشر قرنا منذ أن وعد بأن يعود الى مملكته ، منذ أن كتب رسوله : «سأعود قريبا» . «أما اليوم والساعة فان الابن نفسه لا يعرفهما ، وانما يعرفهما أبى الذى فى السموات» ، على حد الأقوال التى نطق بها هو نفسه أثناء مروره بالارض . ولكن الانسانية ما تزال تنتظره بايمان واحد وحماسة لم تتغير ، بل ان الايمان قد قوى واشتد ، لأن خمسة عشر قرنا قد انقضت منذ أن كفت السموات عن بذل رهائن للبشر .

صدق صوت قلبك أيها الانسان
ان السموات لا تبذل رهائن .

فلا ايمان الا بما يقوله القلب ! صحيح أن المعجزات كانت كثيرة فى ذلك العصر . فلقد كان هنالك قديسون يبرئون المرضى بمعجزات فوق الطبيعة ، واذا صدق ما يروى فى سير بعض الصالحين ، فان ملكة السموات قد ظهرت لهم بشخصها .

ولكن الشيطان لم ينم ، وأخذت الانسانية تشك فى صدق هذه المعجزات . وظهرت عندئذ هرطقة جديدة رهيبة فى شمال ألمانيا . فاذا بكوكب كبير «شبيه بشعلة» (هو الكنيسة طبعاً) «يسقط على نبع المياه فتصبح المياه مرة» . لقد كان أولئك المجدِّفون الهراطقة ينكرون المعجزات . فازداد ايمان المؤمنين ، واشتدت حماستهم . وأخذت الانسانية ترفع أعينها الدامعة الى الرب منتظرة مجيئه ، محبة اياه بقلب حار ، مؤملة فيه ، ظامئة الى التألم من أجله والموت فى سبيله ، كما حدث فى الماضى . . . ان صلوات البشر ترتفع الى السموات حارة منذ قرون طويلة قائلة له : «تفضل بالمجىء الينا يا رب» ، لذلك أراد الرب برحمته الواسعة ، أن يعود الى أولئك الذين يضرعون اليه هذه الضراعة . لقد ظهر حتى ذلك الحين لبعض الصالحين والشهداء والقديسين النساك كما تروى سيرة حياتهم . وفى بلادنا روسيا تغنى الشاعر تيوتشيف به فى هذه الأبيات (وكان يؤمن ايماناً عميقاً بما يقول) :

أيتها الأرض التى ولد فيك ملك السموات «
لقد طاف فى كل جهة من جهاتك فى صورة عبد ،
منحنيا تحت ثقل صليبه ،
يهب لك بركته الواسعة .

ذلك كله صحيح ، أؤكد لك . لقد قرر الرب أن يظهر ، ولو للحظة للشعب بأسره ، لجمهرة الناس المغمورين الذين يتألمون فى خطاياهم وعارهم ولكنهم يحبونه بقلوب ساذجة كقلوب الأطفال . أحداث قصيدتى تجرى فى اسبانيا ، بمدينة

اشبيلية ، فى أحلك عهود «التفتيش» ، حين كانت الحرائق تشتعل كل يوم فى جميع أرجاء اسبانيا تمجيداً للرب و

في نيران رائعة
كان يحرق الزنادقة الأشرار .

لم يكن يقصد في هذه المرة أن يرجع الى الارض ذلك الرجوع الذى سيكون حسب وعده فى آخر الدهور ، فيتجلى فجأة بكل مجده السماوى «كبرق يسطع من الشرق الى الغرب» . فكل ما كان يريده هو أن يقضي بضع لحظات عابرة بين أبنائه فى تلك الأماكن نفسها التى تزفر فيها النيران الموقدة لأحراق الهراطقة . لقد سار بدافع من رحمته اللانهائية مرة أخرى بين الناس فى الصورة الانسانية التى اتخذها وسار فيها بين الناس قبل ذلك بخمسة عشر قرنا خلال ثلاثة أعوام . فهكذا نزل الى الشوارع الملتهبة من المدينة الجنوبية التى تم فيها أمس ، بأمر الكاردينال ، المفتش الاكبر ، احراق حوالى مائة من الزنادقة ، **ad majorem gloriam Dei** [1] وبحضور الملك ورجال البلاط والفرسان وأمراء الكنيسة والسيدات الحسناوات والجماهير الغفيرة من أهالى اشبيلية . وقد ظهر الرب خفية بدون ضوضاء ، ولكن الامر الغريب هو أن جميع الناس سرعان ما عرفوه . وها هنا مادة لأجمل أجزاء القصيدة : لماذا عرفه الناس جميعاً ؟ لقد انجذب اليه الجمهور بقوة لا تقاوم ، وأحاط به ، واحتشد حوله ، وتابع خطواته . فسار هو بين الجمهور صامتاً وهو يبتسم ابتسامة عطف لانهاية له . ان شمس المحبة تتقد فى قلبه ، ومن عينيه تنساب أشعة

(١) تمجيداً لله » (باللاتينية فى الأصل)

الضياء والتنوير والقوة فتنتشر فى المؤمنين وتشعل المحبة فيهم . وهو يمد ذراعيه نحو الشعب ليباركه . ان ملامسته ، وحتى ملامسة ثيابه ، تملك القدرة على ابراء المرضى . فهذا شيخ من الجمهور ، أعمى منذ طفولته ، يهتف قائلاً على حين فجأة : «ردَّ اليَّ البصر يا رب حتى أستطيع أن أتأملك» فما هى الا لحظة حتى سقطت الغشاوة عن عينيه ، فاذا هو يرى الرب . وبكى الشعب تأثراً ، وأغرق بالقبلات الأرض التى مشى عليها . وأخذ الأطفال يرمون الأزهار أمامه منشدين : «المجد لله !» وتعالت الصيحات من كل جانب تقول فى حماسة : «انه هو ، انه هو ، لا يمكن الا أن يكون اياه» . ووقف فى الساحة أمام كاتدرائية أشبيلية لحظة كان يؤتى الى المعبد ، بين عبرات الحضور ، بتابوت أبيض صغير مفتوح يرقد فيه جثمان بنية فى السابعة من عمرها هى البنت الوحيدة لرجل من عيون سكان المدينة . ان الطفلة مغطاة بالأزهار . صاح الجمهور يقول للأم المحزونة : «سيحيى لك ابنتك» . وكان كاهن الكنيسة قد تقدم نحو التابوت ، فظهرت عليه الحيرة وقطب حاجبيه . فأجهشت أم البنية الميتة باكية وارتمت على قدمى المسيح وضرعت اليه وهى تمد نحوه ذراعيها قائلة : «اذا كنت أنت هو حقاً ، فأحي ابنتى !» توقف الموكب ، ووضع التابوت على البلاطات عند قدميه . فألقى على جثمان البنية نظرة تفيض بالعطف ، وتحركت شفتاه فى رفق تقولان مرة أخرى : «قومى يا طليثا» . فما ان نطق بهذه الكلمات حتى انتصبت الطفلة فى التابوت ، وجلست مبتسمة ، ونظرت حولها بعينين محملقتين مدهوشتين . انها تمسك بيدها باقة من ورود بيضاء كانت قد وضعت على جثمانها . اضطرب

الجمهور وصاح وبكى . وفي تلك اللحظة نفسها ظهر الكاردينال المفتش الأكبر فى الساحة أمام الكاتدرائية . انه شيخ فى نحو السنة التسعين من عمره ، طويل الجسم منتصب القامة معروق الوجه غائر العينين ، غير أن فى عينيه شعلة تسطع . انه لا يرتدى الآن ثوب الكاردينالية الأرجوانى الفخم الذى ظهر به للشعب فى الليلة البارحة حين كان يُرمى الى النيران أعداء الكنيسة الرومانية . وانما هو يلبس فى هذه اللحظة ثوب الراهب ، المصنوع من خشن الصوف . وعلى مسافة منه يتبعه معاونوه العابسون وعبيده وحرس «القداسة» . وقف الكاردينال أمام الجمهور وتأمله من بعيد . لقد رأى كل شىء ، رأى التابوت عند قدمى المسيح ، ورأى البنية تُبعث حية ، فأظلم وجهه واكفهر . انه يقطب حاجبيه الكثيفين الأبيضين ، وان بريقاً شريراً يومض فى عينيه . وهذا هو يشير الى المسيح بسبابته آمراً الحرس بأن يعتقلوه . ان هذا الرجل الذى عرف كيف يروّض شعباً مرتجفاً وأن يخضعه لجميع اراداته يبلغ من القوة أن الجمهور سرعان ما أسرع يبتعد أمام الحرس ، فاذا بهؤلاء ، وسط صمت الموت الذى خيّم على حين فجأة ، يضعون أيديهم على المسيح ويقتادونه . وسجد الجمهور بحركة واحدة أمام المفتش الأكبر الذى بارك الجمهور صامتاً وانصرف . أخذ السجين الى المبنى العتيق الذى تقع فيه المحكمة المقدسة ، وحُبس فى زنزانة مظلمة ضيقة مقبّبة . انقضى النهار ، وهبط الليل . هى ليلة من ليالى اشبيلية تلك الحالكة الخانقة الحارة . «الهواء معطر بعبق أشجار الرَّند والليمون» . وفجأة ، فى الظلمات ، فُتح باب الزنزانة الحديدى ، وتقدم المفتش الاكبر العجوز يسير فى الممر ببطء حاملاً بيده مصباحاً . هو وحده . وما أن يدلف حتى يُغلق الباب خلفه

فوراً . وقف لحظة على عتبة الزنزانة وتفرس فى وجه السجين طويلاً . ثم اقترب منه آخر الأمر بخطى خافتة ، ووضع المصباح على المنضدة وقال له : «أهذا أنت اذن ؟ أهذا أنت ؟» — ولكنه حين لم يتلق جواباً أسرع يضيف : — اسكت ! لا تقل شيئاً ! وما عساك تقول لى ؟ اننى أعرف سلفاً كل ما قد تقوله لى . وبأى حق تريد أن تضيف أى شىء الى ما سبق أن قلته ؟ لماذا تجىء اليوم لتعرقل عملنا ؟ ذلك أنك انما جئت لتعرقل عملنا ، وأنت لا تجهل ذلك . فهل تعلم مع هذا ما الذى سيقع غدا ؟ اننى لا أعرفك ، ولا أريد أن أعرفك . أأنت هو حقا ، أم لست الا طيفه ؟ سيان . . . لأننى سأحكم عليك بالاعدام وسآمر باحراقك مثلما آمر باحراق أسوأ الزنادقة . ان ذلك الجمهور نفسه الذى كان يقبل قدميك منذ بضع ساعات ، سيهرع غدا ، باشارة بسيطة منى ، فيذرى لهيب النار ، هل تعلم ذلك ؟ — ألقى عليه الكاردينال هذا السؤال ثم أضاف يقول فى تأمل دون أن يحول بصره عن سجينه لحظة واحدة : — لا شك أنك تعلم ذلك» .

قال أليوشا الذى كان الى ذلك الحين يصغى الى أخيه صامتاً ، قال وهو يبتسم :

— لست أفهم جيداً يا ايفان . أهذه تهاويل مضطربة أنشأها خيال لا يعرف الحدود ، أم انها خطأ من أخطاء الشيخ ، شىء من qui pro.quo [1] الخارق ؟

قال ايفان ضاحكاً :

[1] «شىء بدل شىء آخر» ، الالتباس ، سوء الفهم (باللاتينية فى الأصل) .

— لنسلّم بأن افتراضك الاخير صحيح ، ما دامت واقعية هذا العصر قد دمغتك أنت أيضا الى حد لا تستطيع معه أن تقبل تهاويل خيالية . لنفرض أن هناك **qui pro quo** ، اذا كنت تحرص على ذلك .

ثم أردف ايفان يقول وهو يضحك مرة أخرى :

— يجب أن لا ننسى أن هذا العجوز هو فى التسعين من عمره ، وأن من الجائز أن يكون قد أجنّته فكرته منذ زمن طويل ، ولعل منظر السجين قد أدهشه . ولعل هذا كله لم يكن أيضا الا هذيان رجل عجوز قد أهاجه احراق المائة زنديق الذين أحرقوا فى الليلة البارحة ، أو هلوسة من تلك الهلوسات التى تسبق الموت فى بعض الأحيان . وانه ليستوى على كل حال أن يكون الأمر أمر تهاويل خيالية أو أمر **qui pro quo** ، المهم أن هذا الشيخ سيقول في هذه المرة ، وهو فى التسعين من العمر ، سيقول ما فى قلبه وما فكّر فيه صامتا طوال حياته .

— والسجين ؟ أهو صامت ؟ أهو ينظر الى زائره دون أن يفتح فمه بكلمة ؟

قال ايفان شارحاً وهو ما يزال يضحك :

— على هذا النحو انما يجب أن تجرى الأمور . ألم يُفهمه الشيخ العجوز أنه ليس من حقه أن يضيف شيئاً الى ما سبق أن قاله فى الماضى ؟ بل ان هذا فى رأيى سمة من السمات الاساسية للكاثوليكية الرومانية : «لقد عهدت برسالتك الى البابا ، ومن اختصاص البابا أن يقرر بعد الآن . فلا تأت الينا لتعرقل عملنا ، لا تأت الآن لا تأت قبل الساعة المحدَّدة على كل حال» . فهذا ما لا يقوله فحسب بل يكتبه صانعو الكنيسة الرومانية . أو هذا ما يقوله ويكتبه اليسوعيون على الأقل . لقد

قرأت هذا بنفسى فى كتب لاهوتييهم . ان العجوز قد ألقى عليه هذا السؤال : «هل من حقك أن تكشف لنا ولو عن سر واحد من أسرار العالم الذى جئت منه ؟ — ثم لم ينتظر جوابه ، بل أضاف يقول فوراً : — لا . . ليس من حقك أن تفعل هذا . . . وذلك حتى لا تضيف شيئاً الى ما سبق أن قلت فى الماضى ، ولا تحرم البشر من تلك الحرية التى كنت تقدرها قدراً عظيماً حين عشت على الأرض . ان كل قول جديد قد تأتى به سيسيء الى حرية ايمان الناس ، لأنه سوف يبدو معجزة من المعجزات ، وقد كانت حرية ايمانهم أعز شيء لديك آنذاك منذ خمسة عشر قرناً . ألم تكن تردد على مسامعهم مراراً : «اريد أن اجعلكم احرارا» ؟ — وأضاف العجوز يقول وهو يرسم على شفتيه ابتسامة مفكّرة على حين فجأة : — ولقد رأيتهم بعينيك ، هؤلاء البشر «الأحرار» . . ان هذه الحرية هى من صنعنا ، وقد كلفتنا جهوداً لا نهاية لها — كذلك أضاف العجوز وهو يلقى على السجين نظرة قاسية — ولكننا أتممنا عملنا أخيرا باسمك . لقد اضطررنا خلال خمسة عشر قرنا أن نشقى بهذه الحرية ، ولكن الامر انتهى الآن ، انتهى تماماً . ألا تظن أنه انتهى الى الأبد ؟ انك تنظر الىّ بوداعة ، فلا شك أنك تقدّر أنك ان أظهرت استياءك كنت تشرفنى تشريفاً لا أستحقه ! ألا فاعلم اذن أن البشر هم فى هذا اليوم بعينه أشد اقتناعا منهم فى أى وقت مضى بحريتهم الكاملة ، ومع ذلك فالواقع أنهم تنازلوا عنها ووضعوها عند أقدامنا بكثير من الطاعة . ذلك هو عملنا . أهذه هى الحرية التى كنت تنشدها لهم ؟»

قاطعه أليوشا مرة أخرى قائلاً :

— مرة أخرى أصبحت لا أفهم . أهو يسخر ؟ أهو يتهكم ؟

— أبداً : انه يتباهى ، لنفسه ولصحبه ، بأنهم تغلبوا على الحرية ، ففعلوا ذلك من أجل أن يجعلوا الناس سعداء . «ذلك أننا الآن ، للمرة الأولى ، نستطيع أن نحلم للانسانية بالسعادة (انه يتكلم طبعاً باسم محاكم التفتيش) . ان الانسان محمول بطبيعته على العصيان والتمرد . ولكن هل يستطيع المتمردون أن يكونوا سعداء ؟ لقد نُبهت الى هذا ولم تعوزك النصائح والتحذيرات ، ولكنك لم تشأ أن تحسب حسابها ، ونبذت الطريق الوحيدة التى كان يمكن أن تقود البشر الى السعادة . ومن حسن الحظ أنك حين بارحت هذه الارض عهدت الينا بمهمة اتمام رسالتك . بذلت لنا وعدك ، وأقمت سلطتنا على كلمتك ، ووهبت لنا حق العقد والحل ، ولن تستطيع طبعا أن تنتزع منا هذا الحق بعد الآن . فلماذا جئت تعرقل عملنا فى هذا العالم ؟»

قال أليوشا سائلاً :

— ماذا كان يعنى بقوله ان النصائح والتحذيرات لم تعوزه ؟

وأجاب ايفان :

— ذلك هو العنصر الأساسى فى التفكير الذى كان العجوز يريد أن يعرب عنه .

تابع العجوز يقول : «ان الروح الرهيب الذكى ، روح الدمار والعدم ، قد خاطبك فى الصحراء » ، وتروى الكتب المقدسة أنه «كان يغويك» أليس كذلك ؟ هل نستطيع فى الواقع أن نتخيل حقائق أكبر من الحقائق التى عرضها لك فى

أسئلته الثلاثة ؟ لقد رفضت أنت تلك الحقائق آنئذ ، والكتب المقدسة تصفها بأنها «غوايات» . ومع ذلك ، لئن وُجدت على هذه الارض فى يوم من الايام معجزة كبرى ، معجزة صادقة ، فان تلك المعجزة انما تحققت فى ذلك اليوم بعينه ، فى يوم تلك الغوايات الثلاث . لقد كانت تلك الاسئلة معجزة من المعجزات لمجرد أنها أُلقيت . لنتصور ، على سبيل الافتراض وحده ، أن الأسئلة الثلاثة التى ألقاها الروح الرهيب قد تبددت دون أن تترك أثراً فى الكتب المقدسة ، وأن علينا أن نعثر عليها اليوم وأن نعيد بناءها وأن نكتشفها من جديد حتى نضمها الى النصوص المقدسة . لنتصور أننا جمعنا لتحقيق هذا الهدف جميع حكماء الارض — رؤساء الدول وأمراء الكنيسة والعلماء والفلاسفة والشعراء — وقلنا لهم : أوجدوا لنا ، تخيلوا لنا ثلاثة أسئلة لا تكون على مستوى الحدث فحسب ، بل تلخص بالاضافة الى ذلك ، فى ثلاث جمل انسانية بسيطة ، كل مستقبل العالم والانسانية ، فهل تظن أن كل حكمة الارض المجتمعة فى هؤلاء الرجال تقدر على أن تتصور شيئا يشبه بقوته وعمقه ، تلك الأسئلة الثلاثة التى ألقاها عليك فى الصحراء ذلك الروح القوى الذكى ؟ ان تلك الأسئلة الثلاثة وتلك الحادثة المعجزة ، أعنى كون الأسئلة قد أُلقيت ، تشهد بأن الأمر لم يكن أمر عقل انسانى عادى ، بل أمر فكر خالد مطلق . ذلك أنها تضم فى ذاتها ، تشتمل فى ذاتها على كل التاريخ المقبل للانسانية ، وتقدم رموزاً ثلاثة تتركز فيها جميع تناقضات الطبيعة الانسانية ، التى لا سبيل الى حلّها . ان تلك الحقائق لم تكن ظاهرة آنئذ ظهوراً واضحاً ، لأن التطور الذى تطوره العالم بعدئذ لم يكن معروفا . أما الآن ، بعد انقضاء خمسة

عشر قرنا ، فاننا نرى أن كل شيء تضمنته فى تلك الأسئلة الثلاثة قد حزر وتنبىء به وتأكدت صحته الى درجة لا نستطيع معها أن نضيف اليها شيئاً أو أن نحذف منها شيئا بعد اليوم .

فاحكم فى الأمر بنفسك : من ذا الذى كان على حق ، أأنت أم سائلك ؟ تذكر السؤال الأول من تلك الأسئلة الثلاثة ، لا نصّه بل معناه العام : «تريد أن تمضى الى الناس ، وأنت تمضى اليهم خالى اليدين الا من وعد بحرية لا يستطيعون بحكم ما فطروا عليه من بساطة وحطة أن يفهموه ، عدا أنهم بالاضافة الى ذلك يخشونه ويخافون منه ، لأنه ليس هناك ولم يكن هناك فى يوم من الأيام حالة لا يطيقها البشر والمجتمع مثلما لا يطيقان الحرية . هل ترى هذه الحجارة فى الصحراء الوعرة المحرقة ؟ حولها الى خبز تهرع اليك الانسانية كقطيع جائع ، وتصبح شاكرة لك مطيعة اياك ، ولكنها ستظل ترتجف خوفاً من ان تسحب يدك وأن تُحرم هى من خبزك» . غير أنك لم تشأ أن تحرم الانسان من الحرية ، فرفضت العرض قائلاً لنفسك لا حرية صادقة حيث تُشترى الطاعة بالخبز لقد أجبت بقولك : ليس بالخبز وحده يحيا الانسان . أفكنت تجهل اذن أن روح الأرض سيثور عليك باسم هذا الخبز الأرضى نفسه ، وأنه سيقاتلك ويغلبك ؟ وأن الجميع سيتبعونه قائلين : «من ذا الذى يستطيع أن يقيس نفسه بهذا الوحش الذى وهب لنا نار السماء ؟» لسوف تنقضى قرون ، فيأتى يوم تنادى فيه الحكمة الانسانية وينادى فيه العلم الانسانى بأن الشر لا وجود له ، وأن الخطيئة تبعاً لذلك لا وجود لها ، مؤكدين أن هناك جائعين فحسب . «أطعمهم تجعلهم فاضلين !» بهذه الصيحة انما سيحملون الراية ضدك وسيقوضون معبدك . وسيقيمون فى

مكانه مبنى آخر ، هو «برج بابل» ثان مهدد . صحيح أن البناء لن يتم ، كما لم يتم فى المرة الأولى ، ولكن كان فى وسعك مع ذلك أن توفر على الانسانية آلام هذه المحاولة الجديدة وأن تختصر من عذابها ألف سنة . ذلك أن البشر انما سيتجهون الينا نحن بعد أن يجهدوا فى بناء برجهم مدة ألف سنة ! سيجيئون باحثين عنا كما فعلوا فى الماضى ، وسيجدوننا فى الأقبية التى نكون قد لجأنا اليها (لأننا سنُضطهد ونعذَّب من جديد) ، سيجيئون قائلين لنا : «أطعمونا ، لأن الذين وعدونا بنار السماء قد خدعونا» . وستنهى عندئذ بناء البرج ، لأن الذين سيُطعمون البشر يستطيعون وحدهم أن يتموا هذا العمل حتى النهاية . وسوف نطعمهم نحن ولا أحد سوانا ، وسوف نطعمهم باسمك ، كاذبين عليهم باننا نفعل ذلك باسمك . بدوننا لن يستطيعوا أن يطعموا أنفسهم أبداً ! لن يهب لهم العلم خبزاً ما ظلوا أحرارا ، ولكنهم سينتهون الى أن يرموا حريتهم على أقدامنا قائلين : «استعبدونا ولكن أطعمونا» . سيدركون هم أنفسهم أن الحرية لا تتفق وخبز الأرض ، ولا تتيح أن يصيب كل منهم من هذا الخبز كفايته ، لأنهم لن يتوصلوا الى اقتسامه بالعدل فى يوم من الأيام . وسيقتنعون كذلك باستحالة أن يكونوا أحراراً ، لأنهم ضعاف فاسدون صغار النفوس سريعون الى التمرد والعصيان . لقد وعدتهم بخبز السماء ، ولكننى أسألك مرة أخرى : هل يقاس خبز السماء بخبز الأرض فى نظر هؤلاء البشر الذين سيظلون الى الأبد فاسدين عاقين ؟ اذا كانت ألوف من الناس أو كانت عشرات ألوف من الناس مستعدة لأن تتبعك فى سبيل خبز السماء فماذا تفعل الملايين والمليارات من الكائنات التى لن تحس بأنها قادرة على أن تتنازل عن خبز الأرض فى

سبيل خبز السماء ؟ أتراك لا تعطف الا على بضع عشرات من ألوف النفوس الكبيرة القوية ، وهل يجب على ملايين البشر ، هل يجب على الجموع التى لانهاية لعددها ، كرمل البحر ، هل يجب على هؤلاء الذين هم ضعاف ولكنهم يحبونك ، أن لا يكونوا الا مادة للكبار والأقوياء ؟ اننا نحن نرى غير هذا الرأى ، وان الضعاف هم أيضا أعزة على قلوبنا . انهم شريرون عصاة ، ولكن هؤلاء أنفسهم هم الذين يصبحون فى آخر الأمر أكثر الناس طاعة وخضوعاً . سوف يعجبون بنا ويعدوننا آلهة ، لأننا نكون قد رضينا ، حين صرنا قادة لهم ، أن نحمل عنهم عبء الحرية وأن نسيطر عليهم ، فالى هذا الحد ستكون هذه الحرية قد أصبحت كريهة فى نظرهم بتقدم الزمن ! وسوف نوهمهم مع ذلك بأننا نطيعك أنت وبأننا نحكمهم باسمك . سوف نكذب عليهم من جديد ، لأننا لن نسمح لك بعد الآن بأن تتدخل فى شئوننا . وسيكون هذا الكذب الضرورى عذابنا . ذلك ما كان يعنيه السؤال الأول فى الصحراء ، وما رفضته باسم الحرية التى وضعتها فى أعلى منزلة ، وفضلتها على كل شىء . ولقد كان ذلك السؤال يخفى مع ذلك كل سر هذا العالم . فلو قد رضيت أن تعطى الخبز ، اذن للبيت ما تنتظره الانسانية انتظاراً أبديا منذ عهود سحيقة ، ولهدأت القلق الذى يعذب الفرد ويعذب الجماعة كليهما : «من نطيع ؟» فلا رغبة أقوى ولا همَّ أبقى لدى الانسان الذى أصبح حراً من هم العثور على سيد يعبده بأقصى سرعة . ولكن الانسان يتطلع الى الخضوع لحقيقة مؤكدة لا تجحد ، حقيقة يحترمها جميع الناس برضى اجماعى . ان حاجة هذه المخلوقات الضعيفة ليست الى اكتشاف قوة يمكن أن يطيعها هذا الفرد أو ذاك

من الأفراد ، وانما الى اكتشاف حقيقة عليا يمكن أن يؤمن بها الجميع ، ويمكن أن ينحنى لها **الناس كافة** . فهذه الحاجة الى **الاشتراك** فى العبادة هى بعينها الهم الرئيسى الذى يعذب كل فرد ويعذب الانسانية جملة ، منذ أقدم عهود التاريخ . فباسم هذا التطلع الى العبادة الجماعية المشتركة انما أفنت الشعوب بعضها بعضاً خلال الأحقاب . كانت الشعوب تصنع آلهة ثم تأخذ تتشاتم : «اتركوا آلهتكم وتعالوا اعبدوا آلهتنا ، والا فالموت لكم ولآلهتكم !» وسيبقى الحال على هذا المنوال الى نهاية العالم ؛ وحتى بعد زوال الآلهة سيظلون يسجدون لأصنام جديدة . ولقد كنت تعلم هذا السر الأساسى من أسرار الطبيعة الانسانية ، فليس يمكن أن تجهل هذا السر ، ولكنك رفضت الراية الوحيدة التى تملك قوة جذب مطلق والتى قدمت لك لتؤدي بجميع البشر الى الانحناء أمامك بغير تردد — أعنى راية الخبز الأرضى . لقد أقصيت هذه الراية باسم الحرية وباسم الخبز السماوى . فانظر اذن فيما صنعت بعد ذلك ! انظر فيما فعلت باسم الحرية من جديد ! أعود فأقول لك انه لا قلق أرسخ فى قلب الانسان من قلق الحاجة الى العثور على من يستطيع أن يضحى له سريعاً بالحرية التى وُهبت له ، هو المخلوق التعيس منذ ولد . ولكن لا سبيل الى التصرف فى حرية البشر الا بتهدئة ضميرهم . ولقد كان فى وسعك أن تتخذ الخبز راية لا تخطئ . اطعم الانسان يُطعْك ، فليس هناك حقيقة مسلَّم بها أكثر من الخبز . ولكن اذا استولى غيرك عندئذ على ضمير البشر تركوك وعدلوا حتى عن خبزك ليتبعوا ذلك الذى يكون قد أغوى نفوسهم . فى ذلك كان رأيك صحيحا . ان سرَّ الوجود الانسانى ليس فى ارادة الحياة ، بل فى الحاجة

الى معرفة السبب الذى يدعو الانسان الى الحياة . فالانسان ما لم يكن على يقين من هدف حياته ، لا يقبل أن يوجد فى العالم بل يؤثر أن يدمر نفسه ، ولو ملك الخبز وافراً كل الوفرة . تلك هى الطبيعة الانسانية . ولكن ما الذى حدث ؟ حدث أنك بدلاً من أن تسيطر على الحرية الانسانية أردت لها مزيداً من النمو ! فهل نسيت اذن أن الانسان يؤثر هدوء نفسه بل ويؤثر الموت على أن تكون له ملكة حرية الاختيار فى معرفة الخير والشر؟ لا شىء يخلب اللب أكثر من حرية الضمير ، ولكن لا شىء فى الواقع يعذب الانسان أكثر مما تعذبه هذه الحرية . فبدلاً من أن تحمل للانسانية الأسس الراسخة الثابتة الباقية لتهدئة ضميرها ، وبدلاً من أن توفر لها هذه الأسس الى الأبد ، عرضت عليها ما فى هذا العالم من أمور سرية غامضة خارقة تفوق طاقة القوى الانسانية ، وكنت فى عملك هذا كأنك لا تحب البشر اطلاقاً ، أنت الذى انما جئت مع ذلك لتضحى من أجلهم بالحياة ! انك بدلاً من أن تسيطر على الحرية الانسانية وسّعتها ؛ وبذلك اثقلت ، بآلامها على ملكوت الانسان النفسى . أردتَ من البشر أن يمنحوك حبهم أحراراً ، وأن يتبعوك بارادتهم ، مفتونين بشخصك . ألغيت القانون القديم الذى كان وطيداً راسخاً ، فأصبح على الانسان أن يميز الخير والشر بنفسه ، مستلهما حكم قلبه ، غير مسترشد فى تردده الا صورتك أمام عينيه . أفلم تتنبأ اذن بأن البشر سينوءون بهذا الحمل الرهيب ، حمل حرية الارادة ، فاذا هم آخر الأمر ينبذون فى يوم من الأيام صورتك ويشكون فى حقيقتك ؟ لسوف ينادون فى النهاية بأن الحقيقة لم تكن فيك ، فمن المستحيل القاؤهم الى اضطراب أشد وعذاب أرهب من

الاضطراب والعذاب اللذين ألقيتهم اليهما حين تركت لهم كل هذه الأنواع من القلق ، وكل هذا العدد من المشكلات التى لا سبيل الى حلّها . لقد وضعت أنت نفسك الأسس اللازمة لتهديم مملكتك ، فليس لك أن تتهم أحداً بتدميرها . فهل هذا ما عُرض عليك مع ذلك ؟ ليس على الأرض الا قوى ثلاث تستطيع وحدها أن تتغلب الى الأبد على ضمير هؤلاء المتمردين الضعاف ، وأن تفعل ذلك من أجل سعادتهم ، وهذه القوى هى : المعجزة ، والسر ، والهيبة . ولقد رفضت هذه القوى الثلاث جميعاً وعلمت البشر بقدوتك أن يحتقروها . فحين نقلك الروح الرهيب الداهية الى سطح المعبد وقال لك : «اذا أردت أن تتأكد أنك ابن الرب فألق بنفسك فى الفضاء ، لأنه كُتب أن الملائكة ستتلقفه وتسنده فلا يقع ولا يتحطم ، وعندئذ تعلم أنك ابن الله وتبرهن على قوة ايمانك بأبيك» ، ولكنك رفضت هذا العرض ولم تلق بنفسك فى الفضاء . صحيح أنك تصرفت فى تلك اللحظة تصرفاً فيه ما فى تصرف اله من عظمة وجلال ، ولكن هل تتصور أن البشر ، وهم جنس ضعيف متمرد ، يملكون من القوة الروحية ما يملكه اله ؟ لقد فهمت فى تلك اللحظة أن قيامك بخطوة واحدة ، بمجرد حركة بسيطة هى أن تهم بالقاء نفسك فى الفضاء كانت ستعنى اغراء الرب ، وفقدانك للايمان به ، فتتهشم أسوأ تهشم على الأرض التى جئت لتخلصها وتنقذها ، ويهلل الروح المحتال الذى كان يغريك جذلاً وطرباً . ولكننى أعود فأسألك : هل أمثالك كثير فى هذا العالم ؟ هل وقع فى وهمك لحظة واحدة أن البشر يمكن أن يكونوا هم أيضا فوق اغراء من هذا النوع ؟ هل فى طبيعة البشر أن يتنازلوا عن المعجزة وأن يعتمدوا على

حكم القلب الحرّ وحده فى الساعات العصيبة من الحياة ، أمام المشكلات الخطيرة الأليمة التى تعرض للنفس ؟ لقد كنت تعلم أن مأثرتك ستحفظ بالكتب المقدسة الى آخر العصور وأبعد حدود الارض ، وكنت تأمل أن يقتدى البشر بك فيقبلوا أن يظلوا وحيدين مع الله لا يطلبون معجزة من المعجزات . ولكنك لم تقدر أن الانسان متى جحد المعجزة أسرع يجحد الرب ، لأن ظمأه هو الى العجائب لا الى الرب ، وأنه لكونه لا يستطيع أن يحيا بغير معجزات ، سيخلق بنفسه معجزات ، فيهوى ، ولو كان متمرداً وكافراً وملحداً ، الى خرافات سخيفة وتنطلى عليه أباطيل السحرة وخزعبلاتهم . انك لم تنزل عن الصليب حين دعاك الجمهور الى ذلك صائحاً من باب الاستهزاء : «انزل عن الصليب فنصدّق أنك أنت» . انك لم تنزل ، لأنك مرة أخرى لم تشأ أن تستعبد البشر بالمعجزة ، وانما أردت أن يجيئوا اليك بدافع الايمان الحر لا بدافع الايمان الذى تلده العجائب . كنت تريد أن يهبوا لك محبتهم أحراراً لا أن ينصاعوا لك عبيداً أذهلهم جبروتك . هنا أيضا أسرفت فى تقدير البشر وأنزلتهم منزلة أعلى من منزلتهم ، ذلك أن البشر عبيد بالطبع ، رغم انهم مفطورون على التمرد . انظر فيما حولك : ماذا أصبح البشر بعد انقضاء خمسة عشر قرناً ؟ من هم أولئك الذين رفعتهم الى مستواك ؟ أحلف لك ان الانسان أضعف وأسوأ مما ظننت ؟ هل يستطيع هو أن يحقق ما حققته أنت ؟ انك حين احترمته ذلك الاحترام كله قد تصرفت تصرف من فقد عطفه عليه ، لأنك سألته فوق ما يطيق ، أنت الذى أحببته أكثر من نفسك ! فلو أنك قدرته أقل مما قدرته اذن لطلبت منه أقل مما طلبت ، ولكان موقفك

عندئذ أقرب الى المحبة ، لان العبء عليه يكون عندئذ أقل ثقلاً . ان الانسان ضعيف وضيع . لا يهمنى أن يكون الآن قد ثار فى كل مكان على سلطتنا ، وأنه يرى فى عصيانه هذا مجداً يعتز به . ذلك غرور طفل ، ذلك غرور تلميذ . ان البشر يشبهون تلامذة صغاراً ثاروا فى المدرسة وطردوا معلمهم . ولكن فرحتهم لن تدوم ، وستكلفهم ثمناً باهظا . سوف يهدمون المعابد ، وسوف يجرى الدم سيولاً على الأرض . وسوف يدركون عندئذ ، سوف يدرك هؤلاء الصبية الأغبياء ، أنهم ان خلقوا عصاة متمردين ، فليس يتيح لهم ضعفهم أن يعيشوا زمناً طويلاً فى التمرد والعصيان . وسيعترفون وهم يسكبون دموعاً باطلة أن الذى وهب لهم روح العصاة قد رغب بلا شك فى ان يسخر منهم . سيقولون هذا محزونين مكروبين ، وسيكون هذا القول تجديفاً يجعلهم أعظم شقاء أيضاً ، لأن الطبيعة الانسانية لا تحتمل التجديف ، ولا بد أن تثأر لنفسها من آخر الأمر . القلق ، الاضطراب ، العذاب ، ذلك هو المصير الذى كتب على البشر الآن ، بعد أن تحملت أنت كل ما تحملته فى الماضى من أجل أن تهب لهم الحرية ! ان رسولك الكبير» يروى أنه أبصر ، فى رؤيا ، جميع المشتركين فى البعث الأول ، فرأى اثنى عشر ألفا من كل سبط . لقد كانوا ، مهما يكثر عددهم ، أقرب الى آلهة منهم الى بشر . قاسوا ما قاسيت وعاشوا عشرات السنين فى الصحراء القاحلة ، وأضناهم الجوع ، واقتاتوا بالجراد والجذور . صحيح أن فى وسعك أن تعتز بأبناء الحرية هؤلاء الذين وهبوا لك محبتهم أحراراً ، وارتضوا طائعين مختارين أن يضحوا فى سبيلك بأنفسهم فى مثورة رائعة . ولكن تذكر أن هؤلاء ليسوا الا بضعة آلاف ، وأنهم أشبه

بآلهة منهم ببشر . والآخرون ؟ ما ذنب الآخرين اذا هم لم يستطيعوا أن يحتملوا ما احتمله هؤلاء الأقوياء من محن ؟ هل تأثم النفس الضعيفة حين لا تعرف كيف تسمو الى فضائل مخيفة الى هذا الحد ؟ أتراك جئت الى هذه الصفوة ومن أجل هذه الصفوة وحدها ؟ اذا كان الأمر كذلك فهو سرٌ يفوق ما نملك من قدرة على الفهم ، ومن حقنا فى هذه الحالة نحن أيضا أن نلجأ الى السر ، وأن نعلّم الجماهير أن الأمر الأساسى ليس هو المحبة ولا هو أن يقرر قلبهم تقريراً حراً ، وانما هو السرّ الذى يجب عليهم أن يخضعوا له خضوعا أعمى ولو عارضهم فى ذلك ضميرهم . وهذا بعينه هو ما فعلناه . أصلحنا مأثرتك ، فبنيناها على **المعجزة** ، **والسر** ، **والهيبة** . وابتهج الناس اذ رأوا أنفسهم يُقادون من جديد كما يُقاد قطيع ، ورأوا أنفسهم يتحررون من تلك الهبة المشئومة التى وهبتها لهم فكانت مصدر أنواع من العذاب قاسوها . قل : هل كنا على صواب حين فعلنا وعلّمنا على هذا النحو ؟ هل يمكن أن يؤخذ علينا حقاً أننا لم نحب الانسانية حباً كافياً ، بينما نحن اعترفنا بوهنها فى كثير من الاذعان والتسليم ، وخففنا عنها الحمل فى كثير من المحبة حتى لقد أبحنا لها أن ترتكب الخطيئة لعلمنا بضعف طبيعتها ، شريطة أن تستأذننا فى ذلك كل مرة ؟ فلماذا تجىء الآن لتعرقل عملنا ؟ مالك تحدّق الىّ هكذا صامتاً بعينيك الرقيقتين النفاذتين ؟ أحرى بك أن تغضب . اننى لا أريد محبتك ، لأننى أنا نفسى لا أحبك . ولست أحاول أن أخفى عنك شيئاً لأننى أعلم من ذا الذى أخاطب . أليس كذلك ؟ ثم انك تعرف كل ما قد أقوله لك ، أقرأ ذلك فى عينيك . فقيم المواربة والحالة هذه ؟ ان سرنا لن يخفى عنك فلعل

ما تريده اذن هو أن تسمع هذا السر من فمى ؟ ليكن لك ما تريد ألا فاعلم أننا لسنا معك ، بل معه **هو** . ذلك هو سرنا ! اننا منذ زمان طويل قد كففنا عن أن نكون معك ، وتحيزنا له **هو** . فمنذ ثمانية قرون قبلنا منه ما سبق أن رفضته أنت مستاء ، أعنى الهبة الأخيرة التى عرضها عليك وهو يشير لك الى ممالك الأرض : لقد قبلنا أن نأخذ من يديه روما وسيف القيصر ، وأصدرنا قراراً بأن نكون لهذا العالم ملوكه الوحيدين ، رغم أننا لم ننجز الى الآن عملنا . ولكن من المذنب في هذا ؟ ان هذا المشروع ما يزال فى أوله ، ولكنه بُدئ . ولا بد من الصبر طويلاً قبل أن نصل به الى غايته ، ولا بد من آلام كبيرة فى هذه الحياة الدنيا ، ولكننا سنبلغ هدفنا وسنصبح قياصرة . وسيتاح لنا عندئذ أن نفكر فى سعادة شاملة تنعم بها الانسانية . لقد كان فى وسعك أن تقبل سيف القيصر حتى آنذاك ، فلماذا رفضت تلك الهبة الأخيرة ؟ لو اتبعت الوصية الثالثة التى نصحك بها الروح القوى ، اذن لكان فى وسعك أن تحقق كل ما يتمناه الانسان على الأرض ، وهو أن يعرف : من يطيع ، والى من يعهد بقيادة ضميره ، وبأى وسيلة يوحِّد جميع البشر فى مجتمع كمجتمع النمل ، واحد كبير منظم . ذلك أن الحاجة الى الوحدة الشاملة هو ثالث عذابات النفس الانسانية وآخرها . ان الانسانية قد حاولت فى جميع الأزمان أن تنظم نفسها على أساس شامل . ان هناك أمماً كثيرة عظيمة كان لها تاريخ مجيد ، ولكن شقاءها كان كبيراً على مقدار نبلها ، لأنها أحست أكثر من غيرها من الشعوب بالحاجة الى التوحيد الشامل للبشر . ان الغزاة الكبار ، من أمثال تيمورلنك وجنكيز خان ، الذين مروا

على الأرض مرور اعصار مخرب ، كانوا يتوقون الى أن يصبحوا سادة العالم بأسره ، ولكن شوقاً عميقاً واحداً الى توحيد جميع الشعوب كان يحركهم دون أن يشعروا بذلك . فلو أنك قبلت دنيا القياصرة ومقامهم ، لكان فى وسعك أن تبنى المملكة الشاملة وأن تكفل السلام الشامل للانسانية . على من يقع عبء حكم البشر ان لم يقع على أولئك الذين يحكمون ضمائر البشر والذين يملكون خبزهم ؟ لقد أخذنا سيف القيصر اذن ، واذا فعلنا ذلك فقد أنكرناك أنت لنتبعه هو . ستنقضى قرون طويلة من عربدة العقل البشرى الحر والعلم البشرى وأكل لحوم البشر ، ذلك أنهم ما داموا قد شرعوا فى بناء برج بابل بدوننا لا بد أن ينحدروا حتماً الى أكل لحوم البشر . ولكن «الوحش» سيجىء بعد ذلك الينا زاحفاً ، وسيلعق أرجلنا التى سيبللها بدموعه الدامية . وسوف نركبه ، ونرفع نحو السماوات كأسا نقشت عليه هذه الكلمة : «السر !» ويومئذ انما سيحل ملكوت السلام والسعادة للانسانية . انك فخور بصفوتك المختارة ، ولكن الصفوة وحدها معك ، أما نحن فسوف نعرف كيف نحمل الطمأنينة الى جميع النفوس . وحتى بين أبناء هذه الصفوة المختارة ، حتى بين هؤلاء الأقوياء ، ما أكثر الذين كانوا يتطلعون الى خدمتك ، فانتظروك عبثاً ، ثم سئموا من هذا الصبر الطويل العقيم ، فوقفوا قوى فكرهم وحماسة قلبهم على غايات أخرى ، وانتهى بهم الأمر الى رفع راية حريتهم عليك ! ألست أنت الذى أعطيتهم راية الحرية هذه ؟ أما نحن ، فان البشر سيكونون سعداء معنا ، وسيعزفون عن التمرد علينا . ولن يبيد بعضهم بعضاً كما يفعلون الآن فى كل مكان بفضل الحرية التى تركتها لهم . وسوف نعرف كيف نقنعهم بأنهم لن

يكونوا أحراراً الا متى تنازلوا عن استعمال حريتهم لصالحنا وخضعوا لنا . هل ما نقوله لهم هو الحقيقة أم هو كذب ؟ انهم لن يلبثوا أن يدركوا أنه هو الحقيقة ، لأنهم سيتذكرون أهوال العبودية والبلبلة التى قادتهم اليها حريتك . ان الحرية والعقل المتحرر ، والعلم ، ان كل ذلك سيؤدى بهم الى غياهب وأدغال وسيضعهم امام غرائب وألغاز لا سبيل الى حلها حتى ان العصاة العنيفين منهم سيدمرون أنفسهم بأنفسهم ، وأما العصاة الضعاف فسيقتل بعضهم بعضاً . أما الباقون ، من الضعاف والاشقياء فانهم سيزحفون على أقدامنا قائلين لنا : «أنتم على حق . اننا نعترف بهذا الآن ، لأنكم كنتم وحدكم تملكون أسراره . نحن نعود اليكم . انقذونا من أنفسنا !» وحين سيتلقون الخبز من أيدينا ، سيرون حق الرؤية انهم هم الذين أنتجوه بعملهم ، وأننا أخذناه منهم لنوزعه بعد ذلك بدون أية معجزة . سيفهمون أننا لم نقلب حجارة الى خبز ، ولكنهم سيغتبطون بأنهم طعموا ، وسيغتبطون أكثر من ذلك بأنهم طعموا على أيدينا : لن ينسوا قط أن الخبز الذى صنعوه كان ، بدوننا ، يتحول فى أيديهم الى حجارة ، حتى اذا رجعوا الينا تحولت الحجارة خبزاً لهم . سيعرفون كيف يقدرون بعد الآن قيمة الخضوع النهائى ! لم يكن من الممكن أن تكون حياتهم الا شقاء ، ما ظلوا لا يفهمون ذلك . فمن ذا الذى ساهم أكثر من غيره فى قلة الفهم تلك ؟ من الذى خرّب تلاحم القطيع وبعثره فى طرق مجهولة ؟ ولكن القطيع سيتجمع من جديد ، وسيعود الى طواعيته ، الى الأبد فى هذه المرة . وسوف نهب عندئذ لهذه الكائنات الضعيفة سعادة متواضعة وادعة هى السعادة الوحيدة التى تناسبهم . سنعلمهم

18-1089

أخيراً أن لا يزهوا بأنفسهم ، لأنك قد رفعتهم فجعلتهم بذلك متكبرين . سنبرهن لهم على أنهم لا قوة لهم ، وأنهم أطفال يرثى لحالهم ، ولكن سعادة الأطفال هذه هي أعذب سعادة . سوف يصبحون خجولين ، وسوف ينظرون الينا نظرتهم الى حماة يحمونهم ، وسوف يتراصون حولنا خائفين كما تتراص أفراخ الدجاجة حول أمها . سوف يدهشهم ويرعبهم أن يلاحظوا قوتنا ، فخورين بأن لهم سادة يبلغون هذا المبلغ من القوة والذكاء ، سادة عرفوا كيف يسيطرون على هذا القطيع البشرى الهائج والذى يبلغ آلاف الملايين . سوف يرتعشون خوفاً أمام غضبنا . . سوف تتخدر عقولهم وتدمع أعينهم كالنساء والأطفال . ولكنهم ، باشارة منا ، سوف ينتقلون بالسهولة نفسها الى الفرح والمرح والغبطة ، ضاحكين بهناءة ، مغنين كالصبية الصغار . وسنجبرهم على العمل طبعاً ، ولكننا سنهيىء لهم فى ساعات فراغهم حياة أشبه باللعب ، فيها أغان وجوقات وحتى رقصات بريئة . أوه ! وسنسمح لهم أيضا بأن يأثموا ما داموا ضعافاً الى هذا الحد من الضعف ، وسيحبوننا كالأطفال بسبب تسامحنا . سنقول لهم ان كل خطيئة يمكن التكفير عنها اذا هى ارتكبت بموافقتنا . سنبيح لهم أن يأثموا لأننا نحبهم ، أما العقاب فسنأخذه على عاتقنا ، لا بأس . . لسوف يحبوننا على أننا مخلصون لهم ، لأننا سوف نقبل أن نكون مسئولين عن خطاياهم وذنوبهم أمام الرب . ولن يكتموا عنا سراً . سنبيح لهم أو نحظر عليهم ، تبعاً لدرجة طاعتهم ، أن يعيشوا مع نسائهم أو خليلاتهم ، وأن ينسلوا أو أن لا ينسلوا ، وسيخضعون لتوجيهاتنا فرحين . سيفضون الينا بأخفى ما يضطرم فى ضميرهم من أنواع العذاب . وسنفصل فى جميع الحالات ، وسيرتضون

حلولنا سعداء ، لانها ستحررهم من القلق العظيم والعذاب الرهيب الذى يعانيه المرء متى كان عليه أن يتخذ قراراً ذاتياً حراً . وسيكون جميع الناس سعداء ، جميع هؤلاء الملايين من البشر ، باستثناء بضع مئات من الألوف الذين سيقودونهم : سنكون وحدنا أشقياء ، نحن الذين نملك السر . سيكون فى هذا العالم آلاف الملايين من الأطفال السعداء ، لن يكون فيه الا مائة ألف من الأشقياء هم الذين أخذوا على عاتقهم تحمل عذاب المعرفة ، معرفة الخير والشر . وسوف يموت أولئك موتاً هادئاً ينطفئون باسمك وادعين مسالمين ، فلا يجدون فى الحياة الآخرة الا الموت . ولكننا سنعرف كيف نحتفظ بالسر ، ومن أجل سعادتهم سنلألئ أمام أبصارهم جمال المكافآت السماوية والأبدية . لئن كان بعد القبر حياة أخرى فلا شك أن هؤلاء ليسوا من ستوهب لهم تلك الحياة الأخرى . ان النبوءات تزعم أنك ستعود فى يوم من الأيام لتحقق نصراً جديداً ، وأنك ستظهر محاطاً بمن اصطفيت من أصحاب النفوس القوية المتكبرة . لسوف نجيب عندئذ بأن هؤلاء انما أنقذوا أنفسهم وحدها ، أما نحن فقد جئنا بالخلاص للناس كافة . يقال ان الزانية الدنيئة التى تركب «الوحش» ، وتحمل بيديها كأس السر ، سيجللها الخزى والعار ذات يوم وان الضعاف سيثورون من جديد فيمزقون رداءها الفخم ويعرون جسدها «النجس» . ولكننى سأنهض عندئذ فأشير لك الى تلك المليارات من الاطفال السعداء الذين يجهلون كل خطيئة ، ونحن الذين نكون قد أخذنا على عاتقنا أخطاءهم لنحقق سعادتهم ، سوف نمثل أمامك ونقول لك : «احكم علينا اذا كنت تستطيع ، اذا كنت تجرؤ» . ألا فاعلم اننى لا أخشاك . ألا فاعلم اننى

عشت أنا أيضا فى الصحراء أقتات بالجراد وجذور النبات ، وأننى باركت الحرية التى وهبتها للبشر . وكنت أتهيأ لأن أدخل سلك صفوتك المختارة ، وأن أكون واحداً من الأقوياء المتكبرين الذين يتألف منهم جيش أتباعك ، وكنت أحترق شوقاً الى أن «أكمل عددهم» . ولكننى رجعت الى صوابى فى الوقت المناسب ، فأصبحت لا أريد أن أخدم **عقيدة طائشة** . لقد عدت عن الخطأ والضلال وانضممت الى صف أولئك الذين يعملون فى اصلاح مأثرتك . تركت صفوف المتكبرين ، وانضممت الى الوديعين لأعاون فى تحقيق سعادتهم . ان ما أعلنه لك اليوم سيتحقق ، وان مملكتنا ستُبنى . أعود فأكرر لك : انك سترى غداً هذا القطيع الطيِّع يسرع باشارة منى الى اضرام ألسنة اللهب التى ستُحرق بها مزيداً من الاضرام باضافة فحم متقد الى النار . ذلك أننى سآمر بحرقك لأعاقبك على أنك جئت تعرقل عملنا . لئن وجد أحد يستحق أن يهلك فى النار فهو أنت . غداً ستحرق . **Dixi** (1)» .

صمت ايفان . كان قد تحمس أثناء الكلام ، فتحدث باندفاع . حتى اذا فرغ من حديثه ظهرت فى شفتيه ابتسامة على حين فجأة .

وقد أصغى اليه أليوشا صامتاً ، ولكنه فى أواخر الحديث حاول مراراً ، وقد استبد به اضطراب داخلى عنيف ، أن يقاطع أخاه . ومع ذلك فقد كبح جماح نفسه حتى النهاية . وها هو ذا الآن يدع لتحفظه أن ينفجر . صاح وهو يكاد يثب عن مقعده وقد احمر وجهه احمراراً شديداً :

(1) قد قلت (باللاتينية فى الأصل) .

— ولكن ! . . هذا سخافة ! . . ان قصيدتك تمدح المسيح فى الواقع بدلاً من أن تخزيه كما كنت تريد فيما يبدو . من ذا الذى يقبل تأويلك هذا للحرية ؟ أهكذا يجب أن تُفهم الحرية ؟ ان الكنيسة الأرثوذكسية لا تتصور الحرية أبداً على طريقتك هذه . . انك تعرض تصور الذين يدينون بالكاثوليكية الرومانية ، بل ان هذا التصور ليس تصور جميع الكاثوليكيين — ذلك خطأ ! — وانما هو تصور أشرارهم فحسب ، هو تصور أعضاء محاكم التفتيش واليسوعيين ! . . ثم ان صاحبك المفتش الأكبر رجل لا صلة له بالواقع ، وانما هو شخصية خيالية لا يمكن وجودها . ما هى خطايا البشر التى يدعى أنه أخذها على عاتقه ؟ أين رأيت حملة السر هؤلاء الذين يزعم أنهم ارتضوا لا أدرى أى عذاب فى سبيل سعادة الانسانية ؟ أين وُجد هؤلاء ؟ اننا نعرف اليسوعيين . لقد قيل فيهم سوء كثير ، ولكن هل هم يشبهون حقاً الصورة التى ترسمها لهم ؟ انهم ليسوا كذلك البتة . . كل ما هنالك أنهم يمثلون جيش الكنيسة الرومانية من أجل ان يغزوا فى المستقبل ملكوت الأرض الشامل الآتى التى سيرأسها امبراطور هو حبر روما . . ذلك هو مثلهم الأعلى ، وهو لا يشتمل على سر ولا على ذلك الحزن النبيل . . انه الظمأ الى السيطرة والتسلط ؛ انه شهوة الفوز بخيرات الأرض الحقيرة ؛ انه الرغبة فى استعباد الناس . . انهم يحلمون بالعودة الى نوع من نظام القنانة القادم يكونون فيه هم المالكين . . ذلك هو طموحهم كله ! ولعلهم لا يؤمنون حتى بالله . . ليس صاحبك المفتش المعذب الا خيالاً محضاً . .

قال ايفان ضاحكاً :

— لحظة ، لحظة . . . لماذا تتحمس ؟ ثمرة من ثمرات خيالى ؟ لا أعارض فى هذا . ذلك كله خيال طبعاً . ولكننى أرجو أن تسمح لى بالقاء هذا السؤال : هل تعتقد حقاً بأن الحركة الكاثوليكية فى القرون الأخيرة لم تستلهم الا الظمأ الى السلطة والا شهوة الخيرات المادية الحقيرة ؟ لا شك أن الأب بائيسى هو الذى قال لك هذا الكلام !

— بالعكس ! ان الأب بائيسى قد قال لى فى يوم من الأيام كلاماً يشبه كلامك تقريبا . . — كذلك قال أليوشا ، ولكنه ما لبث أن أسرع يقول مستدركاً : — اعنى . . . انه قال ما لا يشبه ما قلته أنت البتة . . .

قال ايفان :

— اسمع اسمع . هذا اعتراف له شأنه رغم قولك «لا يشبه البتة» ! كيف تستطيع أن تصدق أن أولئك المفتشين وأولئك اليسوعيين الذين تتكلم عنهم قد اتحدوا وتنظموا لا لشىء الا لامتلاك الخيرات المادية الحقيرة ؟ لماذا لا يكون قد وجد بينهم فى يوم من الايام ولو انسان واحد من المعذبين يعذبه ألم نبيل ويستبد به حب الانسانية ؟ افرض أنه قد وجد ذات يوم ، فى عداد هؤلاء الطامعين الظامئين الى المباهج الارضية السافلة رجل واحد ، رجل واحد شبيه بصاحبـى المفتش الاكبر عاش فى الصحراء مثله واقتات بالجراد وجذور النبات وأضنى جسده وأماته فى سبيل الوصول الى الحرية والى الكمال . تخيل أن هذا الرجل قد أحب الانسانية طوال حياته واقتنع أخيرا بأن النعمة النفسية التى يحققها سمو الارادة انما هى وهم باطل ما دامت حياة ملايين البشر الآخرين ، وهم مخلوقات الهية مثله ، ليست الا سخرية لاذعة مرة ، وأنهم لن يستطيعوا

أبداً ان يتصرفوا بحريتهم ، وأن هؤلاء العصاة المساكين لن يكونوا فى يوم من الايام عمالقة قادرة على اكمال بناء البرج . . أى أنهم لن يصلوا فى يوم من الايام الى حريتهم ، وأن حلم الانسجام والتناسق الذى حلم به المثالى الكبير لم يخلق لهذا النوع من الأوز ! . تخيل أن هذا الرجل قد أدرك ذلك ، فعاد الى صوابه ، وانضم الى الناس الأذكياء . . أهذا فى رأيك افتراض مستحيل ؟

قال أليوشا فيما يشبه الحدة :

— الى من انضم ؟ من هم هؤلاء الناس الأذكياء ؟ انهم لا ذكاء لهم البتة ، وليس عندهم سر ولا ما يشبه السر ! هؤلاء زنادقة . . . ذلك سرهم كله ! ان صاحبك المفتش لا يؤمن بالله . . . ذلك سره كله !

— لنسلم بهذا . لقد فهمت أخيراً . صحيح ، انه أصبح لا يؤمن بالله ، ذلك كل سره . ولكن أليس هذا عذابا بالنسبة الى رجل مثله ضيع حياته كلها فى مأثرة الصحراء ثم لم يستطع أن يبرأ من حبه الانسانية ؟ لقد رأى فى أواخر أيامه بوضوح أن النصائح التى أسداها الروح الرهيب الكبير تستطيع وحدها أن تنظم على نحو مقبول بعض الشىء حياة العصاة الضعاف ، حياة هذه «المخلوقات الناقصة التى كانت للخالق تجربة ، وسخرية من جانبه» . فلما اقتنع بهذه الحقيقة أدرك أن من الواجب اتباع الطريق الذى نصح به الروح الذكى ، الروح الرهيب ، روح الموت والخراب . واذ كان منطقياً مع نفسه ، فقد أقرّ ضرورة الكذب على الناس وتضليلهم وخداعهم ، بغية السير بهم الى الموت والى العدم سيراً واعياً ، ولكن مع ترك أوهامهم لهم طوال الطريق ، حتى لا يكتشفوا الى أين

يُسار بهم . فبهذه الطريقة يستطيع هؤلاء العميان المساكين أن يتوهموا على الأقل أثناء رحلتهم على الأرض أنهم سعداء . لاحظ أنه يرى نفسه مضطراً الى مقارفة هذا الكذب باسم ذلك الذى كان مثلا أعلى له والذى آمن به ايمانا مشبوبا طوال حياته . أفليس هذا عذاباً ؟ ألا انه لو اتفق أن وجد على مرّ العصور رجل واحد من هذا النوع بين صفوف هذا الجيـش «الظامئ الى السيطرة والى اللذات المادية الدنيئة» ، لكان فى هذا ما تُخلق منه مأساة حقة ! أكثر من ذلك : يكفى أن توجد شخصية واحدة من هذا النوع على رأس الكنيسة حتى توهب للكاثوليكية الرومانية روح وحتى تنفخ فكرة موجهة فى فرقها الكثيرة وجماعاتها المتعددة وكهنتها ويسوعييها ، فكرة عليا . أقول لك بصراحة : اننى على يقين من أن رجالاً من هذا النوع قد وُجدوا فى جميع الازمان بين قادة الكاثوليكية الرومانية ، وربما وجد منهم بين البابوات انفسهم ! ومهما يكن من أمر ، فان ذلك العجوز اللعين الذى يصرّ ذلك الاصرار كله على حب الانسانية على طريقته يمكن أن يوجد فى أيامنا هذه ، مع عدد من امثاله ، وان لا يكون وجوده هذا نتيجة مصادفة ، بل ثمرة تفاهم واتفاق ، وأن يكون نوعاً من جمعية سرية أنشئت من زمن طويل للمحافظة على السر واخفائه عن أنظار الضعفاء والبؤساء ، وتأمين سعادتهم بذلك . لا بد أن يكون الأمر كذلك حتماً . ويبدو لى من جهة أخرى أن الماسونيين لا بد أن يكون لهم هم أيضا سر من هذا النوع يقوم عليه تنظيمهم . ولعل هذا هو السبب فيما يحمله لهم الكاثوليكيون من كره وبغض ، فهم يرون فيهم منافسين لهم يسيئون الى وحدة الفكرة ، بينما يجب أن لا يكون هناك الا قطيع واحد

وراع واحد . . . ولكننى ألاحظ اننى فى دفاعى عن فكرتى أظهر بمظهر مؤلف عاجز عن احتمال نقدك . كفى هذا . . .

لم يستطع أليوشا أن يمنع نفسه عن أن يسأله فى تلك اللحظة :

— أتراك تنتمى الى الماسونيين ؟

ثم أضاف يقول :

— أنت لا تؤمن بالله .

ولكنه أضاف هذه العبارة بلهجة تنم عن حزن عميق فى هذه المرة ، حتى لقد بدا له أن أخاه ينظر اليه وقد لاح فى وجهه السخر .

وسأله فجأة وهو خافض عينيه :

— كيف تنتهى قصيدتك ؟ أهى تقف عند هذا الحد ؟

— خطر ببالى أن أختمها على النحو التالى : صمت كبير المفتشين ينتظر من سجينه رداً . ان صمت السجين قد ثقل على نفسه . لقد اقتصر أسيره طوال مدة كلامه على أن يحدّق اليه بنظرة رقيقة نافذة ، عازماً عزماً واضحاً على أن لا يدخل فى مناقشة معه . كان العجوز يرغب فى أن يجيبه السجين ولو بكلمات لاذعة أو رهيبة . ولكن السجين لم ينطق بكلمة واحدة . وهذا هو يقترب من العجوز فجأة فيطبع قبلة رقيقة على شفتيه الشاحبتين شحوب شفتى من بلغ من عمره التسعين . كان ذلك كل جوابه . ارتعش العجوز ، واختلج شىء ما فى طرفى فمه . واتجه نحو الباب ففتحه وقال لسجينه : «اذهب الآن ، ولا تعد بعد اليوم أبداً ، أبداً !» وأومأ له بيده الى «الشوارع المظلمة المقفرة من المدينة» . وانصرف السجين .

— والعجوز ؟

— حرقت القبلة قلبه ، ولكنه لم يعدل عن فكرته .

— التى هى فكرتك أيضا ، أليس كذلك ؟

بهذا صاح أليوشا يقول فى مرارة . فأخذ ايفان يضحك . وقال :

— ما بك يا أليوشا ؟ ما هذا كله بجد . هى قصيدة سخيفة ألّفها طالب بليد لم يكن فى يوم من أيام حياته قادراً على أن يسطر بيتين من الشعر . فلماذا توليها هذا الشأن كله ؟ أتراك ستظن أننى ذاهب الى الخارج لأنضم الى هؤلاء اليسوعيين ولأنخرط فى صفوف أولئك الذين يدعون «اصلاح مأثرة المسيح» ؟ فيم يعنينى هذا كله ؟ لقد سبق أن قلت لك ان كل ما يعنينى هو أن أديم ابتهاجى الى الثلاثين من العمر ثم أرمى الكأس !

هتف أليوشا يقول ممتلئاً مرارة :

— وريقات الربيع الغضة . . ماذا أنت صانع بها ؟ والقبور العزيزة عليك . . والسماء الزرقاء ، والمرأة التى تحب ؟ كيف ستعيش اذن . . وأين ستجد القدرة على أن تظل تحب كل هذا ؟ انك بهذا السعير فى رأسك وفى قلبك لن تستطيع ذلك ! بلى بلى . . انك مسافر الى الخارج لتنضم اليهم ، والا فستقتل نفسك . . انك لن تصمد !

قال ايفان ببطء وهو يبتسم ابتسامة باردة :

— هناك قوة ستتيح لى أن أصمد لكل شىء !

— أية قوة ؟

— قوة آل كارامازوف . . قوة الحطة والخسة فى آل كارامازوف !

— أتغرق فى العهر والفجور ، أتخنق الروح فى حضيض الجسد ؟ أهذا ما تفكر فيه ؟

— ربما . . . ولكننى سأعرف كيف أتحاشى ذلك حتى الثلاثين من العمر . وبعدئذ . . .

— ستعرف كيف تتحاشى ذلك ؟ كيف ؟ هذا مستبعد ما دامت أفكارك هى هذه الأفكار .

— سأتحاشاه على طريقة آل كارامازوف أيضاً .

— أتعنى القول بأن «كل شىء مباح» . كل شىء مباح ، أليس كذلك ؟

قطب ايفان حاجبيه وشحب لونه شحوبا غريبا . وقال :

— آه ! أأنت تلمع الى الفكرة التى عبّرتُ عنها أمس عند شيخك ، فكان أن أثارت استياء ذلك الشهم ميوسوف . . تلك الفكرة التى تلقفها دمترى فصاغها تلك الصياغة الساذجة المفرطة فى السذاجة ؟ (أضاف ايفان ذلك وهو يبتسم ابتسامة متكلفة) . . . ليكن ! هو كذلك على وجه الاجمال ! «كل شىء مباح» ! قلت ذلك ولن أنقضه . أما صياغة ميتيا فليست رديئة هى الأخرى .

نظر اليه أليوشا صامتاً .

واستأنف ايفان كلامه يقول بانفعال مباغت :

— كنت أحدث نفسى يا أخى بأننى سأحتفظ حين أسافر بانسان واحد يحبنى على الأقل ، ولكننى ألاحظ الآن أن ليس لى فى قلبك مكان يا عزيزى المعتزل . أنا لن أنكر فكرتى القائلة بأن «كل شىء مباح» ، ولكنك أنت ستنكرنى بسبب هذه الفكرة ، اذا صدق فهمى ، أليس كذلك ؟

نهض أليوشا واقترب من أخيه ، وطبع على فمه قبلة رقيقة دون أن يقول شيئاً .

هتف ايفان يقول فى حماسة :

— هذا سطو أدبي ! لقد سرقتَ الفكرة من قصيدتي ! شكراً شكراً على كل حال . انهض يا أليوشا . آن أوان الانصراف ، لي ولك على السواء !

خرج الأخوان ولكنهما توقفا على درجات باب الحانة .

قال ايفان بصوت جازم :

— اسمع يا أليوشا . . . اذا بقي في نفسي من الحياة ما يكفي لأن أحب وريقات الربيع النضرة ، فسيكون هذا بفضل ذكراك . سوف يكفيني في ساعات الكمد واليأس أن أتذكر أنك ما تزال تحيا في مكان ما حتى أسترد حب الحياة . هل يرضيك هذا ؟ عُدَّه تصريح حب ان شئت . والآن . . . ان طريقينا يفترقان . ستمضي أنت يمنة ، وسأمضي أنا يسرة . كفى ثرثرات ، هل فهمت ؟ وحتى اذا لم أسافر غداً (وأنا أعتقد انني سأسافر) ، فالتقينا مرة أخرى ، فلا تعد الى هذه المسائل التي ناقشناها اليوم ، أرجوك . حذار من كلمة واحدة في هذا الموضوع . ولا تكلمني أيضا عن دمتري في المستقبل ، انني أطلب منك هذا جازماً قاطعاً . والأفضل أن لا تكلمني بعد الآن قط (كذلك أضاف يقول بعصبية مباغتة) . لقد استنفدنا كل ما كان علينا أن نقوله ، أليس هذا صحيحاً ؟ وفي مقابل ذلك فانني أقطع لك هذا الوعد : حين سأقرر في الثلاثين من العمر أن «أرمي الكأس» ، فسوف أجيء لأراك مرة أخرى أينما كنتَ سآتي ولو من أمريكا . . . سأجيء اليك فنتناقش من جديد . . . في وسعك أن تعول على هذا . سأقوم برحلة خاصة لهذا الغرض . سيشوقني أن أراك عندئذ وأن أعرف ما الذي صرت اليه . ذلك عهد أقطعه على نفسي . وقد لا نلتقي قبل انقضاء سبع سنين أو عشر سنين . اذهب الآن ،

أسرع الى صاحبك **Pater Seraphicus** [1] ، لأنه يحتضر . فاذا مات في غيابك فقد تحقد عليَّ لأنني أخرتك . الى اللقاء . قبلني أيضا . . . هكذا . . . والآن فاذهب . . .

تركه ايفان وسار في طريقه دون أن يلتفت . ان هذا الانصراف المباغت يذكر بالطريقة التي تركه بها أخوه دمتري أمس ، رغم أن الظروف مختلفة بعضها عن بعض كل الاختلاف . مسَّ هذا التشابه الغريب فكر أليوشا مساً خاطفاً جداً ، فشعر فجأة بحزن وارهاق . لبث في مكانه بعض الوقت يتابع ببصره أخاه الذي كان يبتعد . لاحظ ، دون أن يعرف لماذا لاحظ ذلك في تلك اللحظة ، أن مشية ايفان كانت متمايلة بعض التمايل وان كتفه اليمنى تُرى من الظهر أخفض من الكتف الأخرى . انه لم يلاحظ هذا يوماً من قبل . وأخيراً استدار هو أيضاً واتجه نحو الدير مسرعاً يكاد يركض ركضاً . كان الظلام قد هبط . شعر أليوشا بخوف غامض يجتاحه . لقد نبت في نفسه احساس لم يستطع أن يستبين طبيعته . هبَّت الريح كما هبت في الليلة البارحة . وغمرته أشجار الصنوبر التي تبلغ السنة المائة من أعمارها ، غمرته بحفيف شجي حزين حين دخل غابة المنسك . كان يركض تقريباً . **"Pater Seraphicus"**

— أين تراه وجد هذا الاسم ؟ كذلك تساءل أليوشا — ايفان ، أخي المسكين ، متى عسى أراك ؟ . . . هذا هو المنسك . آه . . . يا رب ! نعم نعم ، سوف ينقذني **Pater Seraphicus** سوف ينقذني منه الى الأبد ! »

سوف يتساءل أليوشا مراراً أثناء حياته ، في دهشة عميقة ،

[1] «الأب سيرافيكوس» (باللاتينية في الأصل) .

كيف أمكنه فى ذلك اليوم ، بعد أن ترك أخاه ايفان ، أن ينسى نسيانا تاما أخاه دمترى ، مع أنه كان قد عزم عزما أكيداً قبل ذلك ببضع ساعات على أن يعثر عليه مهما كلف الأمر ، ولو اضطر فى سبيل ذلك أن يعدل عن الذهاب الى الدير فى تلك الليلة .

٦

حيث لا سبيل الى الفهم بعد

اتجه ايفان فيدوروفتش ، بعد أن ودَّع أليوشا ، الى مسكنه أى الى منزل أبيه فيدور بافلوفتش . ولكن الشىء الغريب هو أنه شعر فجأة بحزن لا يطاق ، يغزو نفسه ويزداد على قدر اقترابه من بيته . وليس الحزن الذى يشعر به هو الذى يدهشه ، وانما يدهشه أنه لا يستطيع أن يحدد له سبباً . لقد سبق له كثيراً فى الماضى أن أحس بحزن يستولى على نفسه ، ولا غرابة فى أن يكون حزيناً فى هذه اللحظة التى يتهيأ فيها ، بعد أن قطع فجأة صلته بكل ما يشده الى هذه المدينة ، أن ينعطف انعطافاً شديداً ويسير فى اتجاه جديد يجهله كل الجهل . سوف يكون وحيداً من جديد ، وحيداً كل الوحدة كما كان من قبل ، مع آماله العريضة الواسعة ، دون أن يعرف على ما يعقدها ، مع انتظاره من الحياة لأشياء كثيرة ، لعلها مسرفة فى الكثرة ، دون أن يرى هذه الآمال وحتى هذه الأشواق رؤية واضحة . غير أن الشىء الذى يعذبه فى هذه اللحظة ليس

هو تلك الخشية من مستقبل غير محدد ، رغم أن هذه الخشية قائمة فى نفسه . تساءل قائلاً : «أتراه هو الاشمئزاز الذى يوقظه فى نفسى منزل أبى ؟ لكأننى قد بلغت من كره هذا المنزل أننى لا أستطيع التغلب على التقزز من الذهاب اليه رغم علمى بأننى أجتاز عتبته آخر مرة . . .» ولكن لا . . . لا . . . ليس هذا سبب الارهاق . أهو اذن وداع أليوشا والحديث الذى جرى بينهما ؟ «لقد أصررت على الصمت سنين طويلة ، لا أتنازل أن أفتح فمى بكلمة لانسان ، ثم هأناذا أخرج جميع تلك السخافات دفعة واحدة» . صحيح أن من الجائز أن يشعر لقلة تجربته وشدة غروره ، غرور المراهق ، بشىء من الحسرة والأسف على أنه لم يستطع أن يعبِّر عن نفسه كما كان يتمنى أن يعبر ، ولا سيما أمام انسان كأليوشا ينتظر منه فى قرارة نفسه أشياء كثيرة . لا شك أن فى نفسه الآن شيئاً من الحسرة والأسف ، ذلك لابد منه . ولكن ليس هذا ما يثقل على صدره الآن ويخنقه خنقاً . . . هناك شىء آخر . . . ولكن ما هو ؟ «ان غماً يملأ جوانب نفسى حتى ليكاد يثير غثيانى ، ولست أصل الى معرفة ما يعوزنى ومعرفة ما أريد . لعل الأفضل أن لا أفكر فى هذا الأمر . . .»

حاول ايفان فيدوروفتش أن «لا يفكر فى هذا الأمر» ، ولكنه لم يفلح . ان الغم الذى يشعر به يتميز بهذا الطابع المثير وهو أن مصدره علة خارجية عرضية طارئة . ان ايفان يحس ذلك احساساً واضحاً . ان الأمر أمر شىء أو شخص — لا يدرى ايفان على وجه الدقة — لا يطاق وجوده فى نظر ايفان . ان ايفان يحس بضيق شبيه بالضيق الذى يثيره فى النفس أحيانا ، أثناء العمل أو أثناء حديث حار ، وجودُ شىء مزعج

لم يره المرء رؤية واعية بعد ، ولكنه يغتاظ منه وحتى يتعذب به ، الى أن يخطر بباله أخيراً أن يزيح سبب هذا الانزعاج الذى كثيراً ما يكون سبباً تافهاً مضحكاً : شيئا ليس فى مكانه ، منديلاً ساقطاً على الأرض ، كتاباً نُسى وضعه فى المكتبة ، الخ . بلغ ايفان منزل أبيه أخيراً ، معتكر المزاج جداً ، مهتاج الأعصاب اهتياجاً شديداً . وحين أصبح على مسافة خمس عشرة خطوة من باب الحديقة الحديدى ألقى نظرة على البوابة فأدرك على حين فجأة ما كان يحنقه ويعذبه طوال الطريق .

كان الخادم سمردياكوف جالساً على دكة قرب البوابة يتمتع بطراوة الجو فى المساء . فما ان لمحه ايفان فيدوروفتش حتى أدرك أن صورة هذا الخادم كانت قد لازمت خياله على غير علم منه ، فكان يضيق ذرعاً بها ولا يطيقها . لقد اتضح كل شىء . فحين كان أليوشا يحدثه ، فى الحانة عن اجتماعه بالخادم ، شعر ايفان وكأن شيئاً كئيباً وكريهاً ينغرز فجأة فى قلبه مثيراً فيه ردة فعل حانقة على الفور . ولقد انقطع عن التفكير فى سمردياكوف أثناء الحديث الذى أعقب ذلك ، غير أن غيظاً ثقيلاً قد بقى فى قلبه ، فلما ترك أليوشا واتجه الى منزل أبيه استيقظ فيه ذلك الاحساس بالانزعاج دون أن يستطيع الاهتداء الى أصله . تساءل ايفان محتداً : «كيف يمكن أن يقلقنى هذا الجرو الغبى مثل هذا الاقلاق ؟»

والواقع أن ايفان فيدوروفتش كان قد كره هذا الرجل منذ زمن ، ولا سيما فى الأيام الأخيرة . وكان يدرك هو نفسه أن العداوة التى يشعر بها نحو هذا الانسان تشبه أن تكون بغضاً ومقتاً . ولعل عداوته له قد استفحلت واحتدت لأن موقف ايفان فيدوروفتش من الخادم كان عند وصوله الى مدينتنا يختلف عن

هذا الموقف كل الاختلاف . لقد أظهر ايفان فيدوروفتش فى ذلك الوقت شيئاً من الاهتمام الخاص بالخادم ، حتى لقد عدَّه امرءاً طريفاً كل الطرافة ، وشجَّعه على أن يتحدث اليه دون أن يفوته مع ذلك ما كان فى أحاديث هذا الرجل من بعض التفكك ، أو قل من بعض القلق فى عقله ، وكان ايفان يتساءل : تُرى ما الذى يهزُّ فكر هذا «المتأمل» على هذا النحو بغير انقطاع ؟ لقد عالجا موضوعات فلسفية ، وناقشا ، فيما ناقشا ، مسألة الضياء من أين جاء فى أول يوم من أيام خلق العالم ما دامت الشمس والنجوم والقمر لم تخلق الا فى اليوم الرابع من أيام الخلق ؟ وتساءلا : كيف يمكن تأويل هذه الآية من التوراة ؟ ولكن ايفان فيدوروفتش لم يلبث أن لاحظ أن سمردياكوف لا يعبأ بالشمس والنجوم والقمر كثيراً وأن مسائل الشمس والنجوم والقمر لا تعنيه كثيراً وان تكن جذابة . كان واضحاً أن ما يشغل باله ويملأ رأسه هو غير هذا تماماً . وشيئاً فشيئاً ظهرت أنانيته وظهر غروره ، يفاقمهما أنه سريع التأذى على ادعاء وتبجح . فهذه الخصال لم تعجب ايفان ، وولَّدت نفوره منه وكرهه له ، وبعد ذلك ، حين انبثقت المشاجرات العائلية وظهرت جروشنكا ، وانبثقت مشكلات دمترى ، أتيح لايفان أن يتحدث عن هذه المصاعب مع الخادم ، فكان يستحيل عليه ، رغم أن سمردياكوف كان يتكلم عن هذه المشكلات دائماً بانفعال شديد ، أن يدرك ماذا كان يريد الخادم أن يقول ، وما هو الشىء الذى يتمناه هو نفسه . ان ما يلمحه المرء فى رغباته من بعد عن المنطق والرشاد ، على نحو غامض ، يثير الدهشة والاستغراب . كان سمردياكوف يستوضح كثيراً ، ويلقى بعض الأسئلة مواربا ، لغرض فى نفسه من غير شك ،

ولكن دون أن يفصح عن هذا الغرض ، وكان يصمت فجأة فى بعض الأحيان أو ينتقل الى موضوع آخر فى وسط الكلام . ولكن ايفان انما أصبح يحنقه خاصة أن سمردياكوف قد أخذ يرفع الكلفة بينه وبينه ، فهو يخاطبه فى غير تحرج ، وهو يمعن فى ذلك مزيداً من الامعان يوماً بعد يوم . وقد ولّد هذا الموقف فى نفس ايفان نفوراً شديداً وعداوة حاسمة وكراهية قاطعة . ليس معنى ذلك أن سمردياكوف يجيز لنفسه أن لا يكون مؤدباً مهذباً مع ايفان . بالعكس : لقد كان يصطنع فى مخاطبته كثيراً من الاحترام . ومع ذلك فقد انتهت الأمور بالخادم الى حيث اعتقد ، لا ندرى لماذا ، أنه متضامن مع ايفان فيدوروفتش . فهو يتحدث اليه بطريقة خاصة ، كأن بين الرجلين تفاهماً مضمراً سرياً ، وتواطؤاً قائماً منذ زمن طويل ، وروابط لا يعرفها أحد غيرهما ولا يفهمها من يحيط بهما . ولقد لبث ايفان فيدوروفتش مدة طويلة لا يفهم السبب الحقيقى الذى يثير حنقه المتزايد ، ثم لم يدركه الا منذ بضعة أيام .

أراد ايفان ، وقد استبد به الاشمئزاز والغضب ، أن يجتاز الباب دون أن يبدو عليه أنه رأى سمردياكوف . ولكن سمردياكوف نهض عن دكته ، فأدرك ايفان فيدوروفتش فوراً من وضعه أنه يريد أن يحدثه حديثاً خاصاً . نظر اليه ايفان فيدوروفتش وتوقف . وما أشد ما أحنقه توقفه هذا ! لقد كان ينوى منذ لحظات قليلة أن يمرّ دون توقف ، فلما رأى نفسه يتوقف شعر بغيظ شديد ! وأخذ ينظر بكراهية حاقدة الى هذا الوجه الهزيل الذى يشبه وجوه الخصيان ، والى هذا الشعر المصفف بكثير من العناية على الصدغين ، والى تلك الذؤابة المنتصبة على الرأس . وكانت عين سمردياكوف اليسرى الضيقة قليلا ، تغمز غمزة ماكرة ،

فكأنها تقول : «قف ، لن أدعك تمر . ألا ترى أن هناك كلاماً يجب أن نتبادله نحن معشر الأذكياء ؟»

ارتعد ايفان غضباً ، وتمنى لو يصيح قائلاً : «امض أيها الوغد ! أأنا من يكون صاحباً لرجل أبله من نوعك ؟» فما كان أشد دهشته حين رأى نفسه يخاطبه بطريقة تختلف عن هذه الطريقة كل الاختلاف :

— أما يزال أبى نائماً أم أنه استيقظ ؟

كذلك سأله برقة فيها اذعان وتسليم أدهشاه هو نفسه ؛ وعلى هذا النحو نفسه الذى لم يكن فى الحسبان أيضاً ، رأى نفسه يجلس على الدكة . وقد تذكر فيما بعد أن ذلك كاد يرعبه فى اللحظة الأولى . كان سمردياكوف واقفاً أمامه ، جاعلاً يديه وراء ظهره ، ينظر اليه نظرة فيها ثقة بل وفيها صرامة . وقال دون تعجل (كأنه يريد أن يقول : «لست أنا ، بل أنت الذى تبادرنى بالكلام !») :

— انه ما يزال يرتاح . — وأردف يقول بعد صمت ، وهو يغض عينيه فى تصنع ، ويقدم رجله اليمنى ، ويهز رأس حذائه الملمّع :

— هل تعلم أنك تدهشنى يا سيدى ؟

فأجابه ايفان فيدوروفتش بلهجة خشنة قاسية ، وهو يحاول أن يسيطر على نفسه ، قائلاً :

— ما الذى يدهشك ؟

ولكن ايفان شعر فى الوقت نفسه ، على اشمئزاز وتقزز ، أن فى نفسه استطلاعاً قوياً لن ينصرف قبل أن يرضيه .

واستأنف سمردياكوف كلامه قائلاً وهو يرفع عينيه ، ويبتسم فى ألفة :

— لماذا لم تسافر يا سيدى الى تشرماشنيا ؟

وكانت عينه اليسرى كأنها تقول : «ما دمت ذكياً هذا الذكاء كله فيجب أن تفهم سبب ابتسامتى».

قال ايفان فيدوروفتش متعجباً :

— لأى غرض أذهب الى تشرماشنيا ؟

فصمت من جديد ، ثم أجابه أخيراً :

— لقد رجاك فيدور بافلوفتش أن تسافر اليها فى كثير من الالحاح .

كان سمردياكوف يتكلم ببطء كأنه لا يولى جوابه هذا أى اهتمام . فكأنه يقول له : «اننى أجيبك بأى شىء ، بأول جواب يخطر على بالى ، لا لهدف الا أن أقول شيئاً ما» .

صاح ايفان فيدوروفتش غاضباً ، منتقلاً من الاذعان الى الغلظة بدون تدرج :

— يا للشيطان ، هلاَّ تكلمت بوضوح ؟ ماذا تريد ؟

ردَّ سمردياكوف قدمه اليمنى نحو قدمه اليسرى ، ونصب قامته ، ولكنه لم يتخلَّ عن هدوئه ، وظل يبتسم .

— ليس هناك أى شىء هام . . وانما تكلمت هكذا ، لمجرد الكلام . .

وساد صمت من جديد . صمت الرجلان كلاهما قرابة دقيقة . أدرك ايفان فيدوروفتش أن عليه أن ينهض وأن يغضب . وكان سمردياكوف واقفاً أمامه وقد بدا على وجهه كأنه يقول له : «سنرى الآن هل تغضب أو لا تغضب ؟» ذلك ما شعر به ايفان فيدوروفتش على الأقل . وهمَّ أخيراً أن ينهض . ففتح سمردياكوف عندئذ فمه كأنه قد انتظر هذه اللحظة ليتكلم . قال فى بطء ، بصوت جازم ، وهو يقطِّع كلامه :

— اننى فى وضع رهيب يا ايفان فيدوروفتش ، ولا أدرى كيف يمكننى أن أخرج من المأزق .

ثم تنهد تنهدة كبيرة . عاد ايفان فيدوروفتش يجلس . واستأنف سمردياكوف كلامه فقال :

— لكأنهما فقدا كلاهما العقل . انهما يتصرفان تصرف أطفال صغار . اننى أتكلم عن أبيك وعن أخيك دمترى فيدوروفتش . سوف يأخذ فيدور بافلوفتش يعذبنى بأسئلته متى نهض من فراشه ، سوف يسألنى فى كل لحظة : «هيه ؟ ألم تجىء ؟ لماذا لم تجىء ؟» وسوف تستمر هذه الأسئلة الى منتصف الليل ، والى ما بعد منتصف الليل . واذا لم تجىء آجرافينا الكسندروفنا (وفى رأيى أنها لا تنوى أن تجىء أبدا) ، فسوف يستأنف أسئلته فى صباح الغد متهجما علىَّ : «لماذا لم تجىء ؟ متى تجىء ؟» ، كأننى أنا المذنب . ومن الجانب الآخر ، فالقصة كالتالى : فمتى هبط الغسق ، بل وقبل هبوط الغسق ، يأخذ أخوك دمترى بالاستعداد فيكمن فى مكان قريب مسلَّحا ، ويقول لى : «انتبه أيها الوغد ! حذار أيها الطاهى ! لئن تركتها تدخل دون أن تنبئنى ، لأقتلنك أنت أول من أقتل !» حتى اذا انقضى الليل عاد يعذبنى بأسئلته كأبيك : «ألم تجىء بعد ؟ هل تجىء قريباً ؟» لكأنه يعدنى ، هو أيضاً ، مسئولاً عن سلوك هذه السيدة ! الأمور تسير من سىء الى أسوأ ، وغضبهما كليهما يزداد من ساعة الى ساعة . والخوف يحاصرنى حتى لأفكر فى قتل نفسى . اننى لا أتوقع منهما أى خير يا سيدى !

قال ايفان منزعجاً :

— ما كان ينبغى لك أن تحشر نفسك فى هذا الأمر !

لماذا ارتضيت أن تكون لدمترى فيدوروفتش مُخْبراً ؟

ــ كيف كان يمكننى أن أبقى بعيداً انني لم أحشر نفسى فى الأمر ، اذا شئت أن تعرف ذلك . كنت أصمت ولا أجرؤ أن أرد ، ولكن أخاك ألح وأكرهنى على أن أكون خادمه لبتشاردا « فى هذه القضية . وهو منذ ذلك الحين ما ينفك يكرر على مسامعى قوله : «لأقتلنك ايها الوغد ، لأقتلنك اذا تركتها تمر !» أنا على يقين من أننى سأصاب غداً بنوبة طويلة .

ــ أية نوبة طويلة ؟

ــ نوبة صرع ، طويلة ، طويلة جداً . ربما دامت بضع ساعات ، وربما استمرت الى الغد . لقد سبق أن أصبت بنوبة امتدت ثلاثة أيام . سقطت آنذاك من الشونة . تمر النوبة ، ثم تعود من جديد وبقيت ثلاثة أيام لا أفيق من الاغماء . وفى تلك المرة استدعى فيدور بافلوفتش الطبيب ، استدعى ذلك الدكتور هرتسنشتوبه ، فوصف لى ثلجاً على الجبين ودواء آخر . . وكدت أموت .

ــ يُقال ان نوبات الصرع لا يمكن التنبؤ بها ولا بموعدها . فكيف تزعم أنك ستصاب غداً بنوبة ؟

كذلك سأله ايفان باستطلاع يمازجه غيظ . فقــال سمردياكوف :

ــ صحيح . لا يمكن التنبؤ بها .

ــ ثم انك عند تلك النوبة الطويلة قد سقطت من طابق الشونة .

ــ ذلك أننى أصعد الى ذلك الطابق كل يوم ، ومن الجائز جداً أن أسقط منه فى الغد أيضا . واذا لم أسقط من

طابق الشونة ، فقد أسقط فى القبو ، لأننى أذهب الى القبو كل يوم أيضاً للقيام بالخدمة .

تفرس فيه ايفان فيدوروفتش طويلاً .

ثم قال بصوت خافت ولكن مع شىء من التهديد :

ــ يبدو أنك تدبر أمراً . ما الذى تريد أن تصل اليه ؟ أتراك ستتظاهر غداً بنوبة تدوم ثلاثة أيام ، هه ؟

كان سمردياكوف قد غض عينيه ، وعاد يهزُّ رأس حذائه . وها هو ذا الآن يرجع رجله اليمنى ويقدم رجله اليسرى ويرفع رأسه ويقول بعد ضحكة صغيرة :

ــ هبنى دبرت لهم «مقلبا» من هذا النوع . لما كان من السهل على المرء أن يتظاهر بالصرع اذا كان يملك بعض التجربة ، فسيكون من حقى تماماً أن ألجأ الى هذه الوسيلة انقاذاً لحياتى . حين أكون مريضاً فحتى اذا حدث أن قررت آجرافينا الكسندروفنا أن تجىء الى أبيك ، فلن يستطيع أخوك أن يسأل رجلاً مريضاً : «لماذا لم تبلغنى ؟» سوف يستحى هو نفسه أن يفعل ذلك .

هتف ايفان فيدوروفتش يقول وقد تقبض وجهه غضبا :

ــ شيطان يأخذك ! لماذا تخاف على جلدك أيها الجبان ؟ ليست تهديدات دمترى الا كلاماً فى الهواء ! انه لن يقتلك . قد يقتل ، ولكنه لن يقتلك أنت على كل حال !

ــ بلى ! سيقتلنى كذبابة ، وسيقتلنى قبل أن يقتل أى انسان آخر ! هناك مع ذلك شىء أخشاه أكثر من هذا أيضاً : هو أن أُتهم بالتواطؤ معه اذا هو أقدم على ارتكاب عمل طائش فى حق أبيك .

ــ لماذا تُتهم أنت ؟

— سيُظن انني شريك لأنني أطلعته على تلك الاشارات السرية .

— أى اشارات تعنى ؟ من أطلعت عليها ؟ سحقاً لأساليبك المخاتلة هذه ! هلاّ قلت كلاماً واضحاً آخر الأمر ؟

بدأ سمردياكوف يطيل كلامه قائلا بهدوء متحذلق :

— يجب أن أعترف لك بأن هناك سراً بينى وبين فيدور بافلوفتش . فمنذ بضعة ايام ، كما لعلك تعلم ذلك (وقد لا تعلم على كل حال) ، تعوّد فيدور بافلوفتش أن يقفل الباب على نفسه بالمفتاح ، منذ يهبط الليل ، ومنذ يهبط الغسق أحياناً . انك فى الآونة الأخيرة تصعد الى جناحك فى ساعة مبكرة ، وأمس مثلاً لم تخرج قط ؛ لذلك فلعلك لم تلاحظ شدة اعتصامه بغرفته الآن ، ومدى حرصه على احكام اغلاقها . انه لا يفتح الباب حتى لجريجورى فاسيلفتش اذا هو لم يتعرف صوته على وجه اليقين . ولكن جريجورى فاسيلفتش لا يجيء ، لذلك فأنا وحدى أخدمه الآن فى غرفته . هذا ما قرر أن يعمد اليه منذ اندفع فى تلك المغامرة مع آجرافينا ألكسندروفنا . وتنفيذاً لأوامره ، فاننى أترك المنزل أنا أيضا متى حلّ الظلام ، وأمضى أقضى الليل فى الملحقات ، ملزَماً بالسهر الى منتصف الليل على كل حال ، لأتربص وأخرج الى الفناء من حين الى حين بغية أن أرى ألم تجيء آجرافينا ألكسندروفنا . ذلك أنه ينتظرها منذ عدة أيام بالحاح هو الجنون . انه يفكر على النحو التالى : لا شك أنها تخاف منه ، من دمترى فيدوروفتش (وهو يسميه ميتكا) ، لذلك ستؤثر أن تجيء فى الليل مارة من خلف الفناء . وأنا مكلف اذن بانتظارها كل مساء الى منتصف الليل والى ما بعد منتصف الليل . قال لى : «متى ظهرتْ كان

عليك أن تسرع الىّ ، فتقرع بابى أو النافذة المطلة على الحديقة قرعتين أولاً ، قرعتين غير قويتين جداً ، هكذا : طق ، طق ؛ ثم ثلاث قرعات أكثر تقارباً : طق ، طق ، طق ؛ فأعلمَ عندئذ أنها جاءت ، فأفتح الباب برفق وهدوء» . ثم شرح لى بعد ذلك اشارة أخرى استعملها حين يحدث شيء مفاجئ : أقرع فى أول الأمر قرعتين متقاربتين : طق طق ، وبعد برهة أقرع قرعة ثالثة أقوى ، فيفهم عندئذ أنه وقع حادث مفاجئ وأننى أريد أن أكلمه ، فيفتح لى الباب ، فأدخل اليه وأروى له ما وقع . هذا اذا لم تجيء آجرافينا ألكسندروفنا وانما أوفدت رسولاً برسالة ، أو اذا ظهر دمترى فيدوروفتش على مقربة من المنزل ، فبذلك أستطيع ابلاغه فوراً . انه يخاف دمترى فيدوروفتش خوفاً رهيباً وقد أمرنى بأن علىّ ، اذا حدث أن كانت آجرافينا ألكسندروفنا فى المنزل مختلية به ، فظهر دمترى فيدوروفتش على مقربة من المنزل ، أن أبلغه ذلك فوراً بقرع الباب أو النافذة ثلاث قرعات . لقد علمنى اذن اشارتين : الأولى تتألف من خمس قرعات ، ومعناها أن «آجرافينا ألكسندروفنا جاءت» ، والثانية تتألف من ثلاث قرعات ومعناها أننى «أريد أن أكلمه حالاً» . وقد جرّب هاتين الاشارتين أمامى مراراً لأتعلمهما . واذ أن أحداً فى العالم لا يعرف هاتين الاشارتين الا أنا وهو ، فانه متى سمع الاشارة سيفتح الباب فوراً بلا تردد ، وبدون أن يلقى أى سؤال (لأنه يخاف أن يُسمع صوته) . والمشكلة الآن هى أن دمترى فيدوروفتش أصبح يعرف هاتين الاشارتين .

— من أين عرفهما ؟ أأنت كشفت له اذن عنهما ؟ فكيف تجرأت أن تفعل ؟

— كيف تجرأت ؟ من الخوف طبعاً ! وهل من سبيل الى الصمت معه ؟ كان لا ينفك يكرر على مسامعى فى كل يوم قوله : «وأنت تكذب ! أنت تخفى عنى شيئاً . لأحطمن ساقيك !» وعندئذ أطلعته على هاتين الاشارتين السريتين ليرى على الأقل اننى أطيعه ولا أعصى أمره ، وأن ليس عليه بعد الآن أن يتخيل أننى أخفى عنه الحقيقة ما دمت أبوح له بهذه التفاصيل السرية .

— اذا كنت تقدر أنه ينوى أن يستخدم هاتين الاشارتين ليدخل ، فأباك أن تسمح له بالدخول !

— فاذا اتفق أن كنت فى تلك اللحظة بعينها فاقداً وعيى بسبب نوبة صرع ؟ كيف أستطيع عندئذ أن أمنعه من الدخول ، هذا اذا كنت أملك الجرأة على اعتراضه وأنا أعرف ما يكون عليه فى تلك الحالة من ضراوة وعنف !

— سحقاً لك ولنوبة الصرع التى تتكلم عنها هذه ! كيف علمت أن نوبة صرع ستصيبك غداً ؟ أتراك تضحك علىَّ ؟

— وهل أجرؤ أن أضحك عليك يا سيدى ؟ هل تظن أن بى رغبة فى الضحك وأنا فيما أنا فيه من فزع ؟ ان الخوف بعينه هو الذى سيحدث لى هذه النوبة .

— يا للشيطان ! . . اذا كنت أنت مريضاً ، أمكن أن يتولى الحراسة جريجورى ، اخطره سلفا وسوف يمنعه هو من الدخول فى جميع الأحوال .

— ولكننى ممنوع من اطلاع جريجورى فاسيلفتش على هاتين الاشارتين الا باذن من السيد . أما عن امكان أن يسمع جريجورى فاسيلفتش مجيئه وأن يمنعه من الدخول فيجب أن

أقول لك انه مريض منذ أمس ، وان مارفا اجناتفنا تنوى أن تداويه فى الغد . على هذا اتفقا اليوم . وان لها فى مداواة زوجها طريقة غريبة جداً : انها تعرف منقوعا من العقاقير تحتفظ به فى بيتها دائماً لمثل هذه الحالات ، وهو سائل روحى قوى جداً تعرف سرَّه فيما يبدو وتصنعه من أعشاب وتداوى به زوجها ثلاث مرات فى العام تقريباً حين تداهمه آلام الظهر ويصبح شبه مشلول . انها تبلل بهذا السائل منشفة تأخذ تدلك بها ظهره على طوله خلال نصف ساعة الى أن ينتفخ الجلد ويحمر ، حتى اذا فرغت من ذلك جرَّعته ما يبقى فى الزجاجة من هذا السائل بعد أن تتلو دعاء معيناً ؛ ولكنها تبقى لنفسها من السائل مقداراً قليلاً تشربه مع زوجها انتهازاً للفرصة . ويجب أن أقول لك أيضاً انهما ، بسبب عدم تعودهما الشراب ، ما يكادان يحسوان هذا السائل حتى يسقطا كلاهما حيث يكونان ، فيناما نوماً عميقاً خلال مدة طويلة . فاذا استيقظا شعر جريجورى فاسيلفتش كل مرة بأنه شُفى من مرضه ، أما مارفا اجناتفنا فلا بد أن يصيبها صداع . فاذا نفذا فى الغد عزمهما على استعمال هذا الدواء ، فانهما لن يسمعا شيئاً ، لأنهما سينامان ، ولن يمنعا دمترى فيدوروفتش من دخول المنزل .

صاح ايفان فيدوروفتش يقول :

— ما هذا الهراء ! كل شىء يحدث فى آن واحد كما لو كان عن عمد ! أنت تصاب بنوبة الصرع ، وهما يفقدان الوعى !

ثم أضاف يسأله فجأة مقطباً حاجبيه فيما يشبه التهديد :

— أتراك رتبت هذا التصادف بالمكر والحيلة ؟

— كيف يمكننى ان أفعل ذلك . . وعلام أفعل ؟

كل شيء رهن بارادة دمترى فيدوروفتش وحده ، وبما يعزم عليه ويقرره . . . فاذا كان ينوى أن يوقع مصيبة فسيفعل ، واذا لم يكن ينوى فلست أنا من سيجره من يده ليدفعه الى أبيه دفعاً ، فيما أتخيل ، أليس كذلك ؟

عاد ايفان فيدوروفتش يقول وقد اصفر وجهه غضباً :

— لست أرى لماذا يمكن أن يجيء دمترى الى هنا ، وأن يتسلل تسللاً ، اذا كانت آجرافينا الكسندروفنا لا تفكر في المجيء الى أبـي ، كما قلت هذا بنفسك . لقد أكدتَ لي أنت هذا منذ لحظة ، وكنت أنا على يقين منذ حللت هذا المنزل أن العجوز تراوده أوهام ، لأن هذه المخلوقة لن تجيء اليه في يوم من الأيام . فهلاَّ قلت لي ما هي الغاية التي يمكن أن يقتحم دمترى منزل العجوز في سبيلها اذا لم تأت هي ؟ تكلم . . انني أريد أن أعرف حقيقة ما يجول في خاطرك .

— انك تعرف هذه الغاية حق المعرفة ، وليس لما يجول في خاطري شأن فيها البتة . سوف يجيء أخوك بدافع الشر وحده أو من جراء وسوسته ، في حالة ما اذا كنت مريضاً مثلاً . سوف يتساءل عما يجرى في المنزل ، وسيحب من فرط نفاد صبره أن يفتش جميع الغرف كما فعل أمس ليتأكد من أنها ليست مختبئة في احداها . وهو يعلم حق العلم من جهة أخرى أن فيدور بافلوفتش قد أعدَّ ظرفاً كبيراً يحوى ثلاثة آلاف روبل ، قد ختمه بثلاثة أختام وربطه بشريط معقود ، وكتب عليه بخط يده : «الى ملاكى جروشنكا ، اذا هي رضيت أن تجيء» ، وأضاف الى هذه العبارة بعد ثلاثة أيام : «الى كتكوتي الصغيرة» . وهذا ما يثير قلقاً في نفسي .

صرخ ايفان فيدوروفتش يقول خارجاً عن طوره :

— هذا سخف ! لن يسرق دمترى مالاً ، ولن يقتل أباه لهذا السبب ! لقد كان يمكن أن يقتله أمس ، كمجنون مهتاج ، بسبب جروشنكا ، ولكنه لن يجيء الى هنا ليسرق !

— انه الآن في حاجة ملحة الى المال ، انه في ضيق شديد ، صدقني يا ايفان فيدوروفتش . لا تستطيع أن تتصور مدى رغبته في الحصول على مال (هكذا شرح سمردياكوف بهدوء كبير وبجلاء ووضوح) . أضف الى ذلك أنه يعد هذه الآلاف الثلاثة حقاً له . لقد أكد لي ذلك أمس . قال : «ان أبـي ما يزال مديناً لي بثلاثة آلاف روبل تماماً» . ويجب أن لا يغيب عن بالك يا ايفان فيدوروفتش ، لأن هذا هو الحقيقة بعينها ، أن آجرافينا ألكسندروفنا تستطيع أن تحمل فيدور بافلوفتش على زواجها متى رغبت في ذلك أيسر رغبة . ومن الجائز جدا أن تراودها هذه الرغبة . يجب أن نقول هذا . لقد أسرفتُ أنا في التعجل حين أكدتُ أنها لن تجيء الى هنا ، مع أنها قادرة جداً على ان تسدد الى هدف بعيد وأن تداور في سبيل أن تصبح سيدة حقة . لقد قال لها صاحبها التاجر سامسونوف ، وأنا أعرف ذلك من مصدر مطلع موثوق ، قال لها بصراحة تامة ان هذا سيكون لها حلاً ذكياً ، وكان يضحك وهو يقول هذا الكلام . ليست هي امرأة غبية ، ثق من ذلك ! لن تبلغ من الحماقة أن تتزوج رجلاً فقيراً مثل دمترى فيدوروفتش . فما قولك والحالة هذه يا ايفان فيدوروفتش ؟ ولعلك تقدر أن دمترى فدوروفتش ، اذا أصبحت آجرافينا ألكسندروفنا زوجة أبيه ، لن ينال روبلاً واحداً من ميراث أبيه بعد وفاته ، لا هو ولا أنت ولا أخوك ألكسى فيدوروفتش . ذلك أن آجرافينا ألكسندروفنا لن تقبل هذا الزواج الا في سبيل

أن تنقل الى اسمها كل ثروة أبيك ، جميع ممتلكاته وأمواله . أما اذا حدث مكروه لأبيك فمات قبل أن يتم هذا الزواج ، فان كلاً منكم سينال على الفور أربعين ألف روبل ، بالتمام والكمال . حتى دمترى فيدوروفتش سينال هذا المبلغ رغم أن أباه يكرهه ، وذلك لأن فيدور بافلوفتش لم يكتب حتى الآن وصيته . . . وهذه التفاصيل كلها يعرفها دمترى فيدوروفتش معرفة جيدة جداً . . .

تقلص وجه ايفان فيدوروفتش ، وألمت به اختلاجة ، واحمر على حين فجأة ، وقال مقاطعاً سمردياكوف وهو يتنفس تنفساً ثقيلاً :

— قل لى : لماذا كنت تريد أن ترانى مسافراً الى تشرماشنيا ؟ ما هى الغاية التى تسعى اليها ؟ لا يعلم الا الله ما سيحدث بعد سفرى فى هذا المنزل !

فأجاب سمردياكوف يقول بلهجة هادئة حصيفة ، وهو يحدق الى ايفان فيدوروفتش مترقباً آثار كلامه فيه :

— هذا صحيح تماماً .

قال ايفان يسأله وهو يبذل جهداً كبيراً من أجل أن يكظم غيظه ويسيطر على نفسه :

— صحيح تماماً ؟ ما معنى هذا ؟

— لئن قلت هذا الكلام ، فلأننى أشفق عليك وأرثى لحالك . لو كنت فى مكانك لآثرت أن أسافر فوراً على أن أجد نفسى مقحماً فى قضية من هذا النوع . . .

كذلك أجاب سمردياكوف بلهجة طلقة ليس فيها شىء من تحرج ، دون أن يحول بصره عن ايفان فيدوروفتش الذى كانت عيناه تقدحان شرراً . وأعقب ذلك صمت .

ثم قال ايفان بعد لحظة وهو ينهض فجأة عن الدكة :

— يبدو أنك أبله كبير . . . لكنك بالقطع وغد رهيب !

وكان يهمُّ أن يجتاز الباب الحديدى ، ولكنه توقف فجأة والتفت نحو سمردياكوف . وحدث عندئذ شىء غريب : لقد عض ايفان فيدوروفتش على شفتيه متشنجاً ، وقبض يديه ، فكان على وشك أن يهجم على الخادم بعد لحظة دون شك . فأدرك سمردياكوف ذلك فوراً ، فارتجف ، وارتد بجسده الى وراء . وانقضت هذه اللحظة دون أن يصاب سمردياكوف بأذى . واتجه ايفان فيدوروفتش نحو الباب حائر الهيئة دون أن ينطق بكلمة . ثم صاح بعد ذلك يقول بصوت قوى ، مقطعاً ألفاظه ، وقد فاضت نفسه حنقاً :

— سأسافر غداً الى موسكو ، اذا كنت تحرص على أن تعرف ذلك . غداً ، فى الصباح الباكر ! هذا كل شىء !

وقد أدهشه فيما بعد أن يكون قد شعر فى ذلك الظرف بالحاجة الى أن يخبر سمردياكوف بأنه مسافر .

أجاب سمردياكوف يقول وكأنه كان يتوقع أن يفضى اليه ايفان بهذا السر :

— هذا أفضل الحلول ! ولكنك تظل معرَّضاً للاستدعاء من موسكو ببرقية اذا حدث هنا شىء .

فتوقف ايفان فيدوروفتش مرة ثانية والتفت نحو سمردياكوف التفاتة سريعة . فاذا بسمردياكوف يبدو وكأنما يتغير فجأة : تبددت الألفة التى كان يصطنعها وتبدد الاهمال الذى كان يظهره ، فى لمح البصر وعبر وجهه عندئذ عن انتباه شديد ، كما عبَّر عن انتظار ذليل خاضع ، وكأن عينيه المحدقتين الى ايفان فيدوروفتش بالحاح غريب تسألانه : «ألن تقول شيئاً

آخر ؟ ألن تضيف كلمة واحدة ؟» فوعوع ايفان فيدوروفتش يقول رافعاً صوته بدون سبب ظاهر :

— أهل لا أستدعى من تشرماشنيا أيضا اذا حدث شيء ؟

فتمتم سمردياكوف يقول بما يشبه الهمس ، وكأنه ضائع الفكر شارد اللب ، ولكنه لا ينقطع عن التحديق الى ايفان فيدوروفتش بالحاح :

— طبعاً . . اذا حدث شيء . . . فستستدعى . . . من تشرماشنيا أيضا . . .

— الفرق الوحيد هو أن موسكو بعيدة ، أما تشرماشنيا فهي قريبة . هل النفقات التى لا داعى اليها هي التى تقلقك ، أم أنت تحب أن توفر عليّ رحلة طويلة فتنصحني بأن أسافر الى تشرماشنيا بدلاً من أن أسافر الى موسكو ؟

— هو كذلك تماماً . . .

هكذا تمتم سمردياكوف يقول بصوت مرتعش وهو يبتسم ابتسامة خبيثة . وكان مستعداً فى توتر للارتداد بجسده الى وراء . فما كان أشد دهشته حين رأى ايفان فيدوروفتش ينفجر ضاحكاً على حين فجأة ، ويتجه بسرعة نحو الباب وهو ما يزال يضحك .

ولكن لو رآه ملاحظ يقظ منتبه فى تلك اللحظة لأدرك أنه لم يكن يضحك هذا الضحك عن مرح وفرح ، ثم انه هو نفسه ما كان ليستطيع أن يقول ما الذى كان يشعر به حينذاك . وكانت مشيته متقطعة ، وكان فى حركاته شيء يشبه أن يكون تشنجا .

٧

«يلذ للمرء أحيانا أن يتحدث مع رجل ذكى»

أن الحالة النفسية الغريبة التى كان فيها ايفان قد ظهرت فى أقواله أيضاً . فانه ما ان دخل المنزل فلمح فيدور بافلوفتش فى الصالون حتى صاح يقول له من بعيد وهو يلوّح بيده : «أنا صاعد الى غرفتى رأساً . لن آتى اليك . الى اللقاء» ومرّ بسرعة محاولاً أن لا ينظر الى أبيه . لعل منظر العجوز كان فى نظره عندئذ لا يطاق ، ولكن اظهاره هذه الكراهية بغير تحرج قد أدهش حتى فيدور بافلوفتش نفسه . وكان واضحاً أن هناك شيئاً مستعجلاً يريد الأب أن يفضى به الى ابنه ، لذلك هبّ الى لقائه . ولكنه بعد الكلمات اللطيفة التى سمعها من ايفان فيدوروفتش توقف حيث كان ، دون أن ينطق بكلمة ، وتابعه بنظرة ساخرة بينما كان يصعد السلم ويغيب فى الطابق الأعلى .

وظهر سمردياكوف الذى دخل البيت اثر ايفان فيدوروفتش ، فسأله العجوز فوراً :

— ماذا به ؟

فقال سمردياكوف متهرباً :

— من يدرى ؟ انه معتكر المزاج .

— شيطان يأخذه اذن ! ألا فليعتكر مزاجه اذا كان ذلك يسره ! أما أنت فهيء السماور ثم انصرف . أسرع ! أما من جديد حتى الآن ؟

19-1089

قال العجوز ذلك وبدأ الاستجواب الذى كان سمردياكوف قد اشتكى منه لايفان فيدوروفتش منذ قليل . انه يلقى عليه السؤال تلو السؤال عن المرأة التى ينتظر زيارتها . ولا داعى الى تكرار هذه الأسئلة هنا . وبعد نصف ساعة كان المنزل قد أُحكم اقفاله بالمفتاح ، وخلا العجوز الى جنونه ، فأخذ يسير فى غرفته طولاً وعرضاً ، منتظراً على نار كنار الحمى أن يسمع القرعات الخمس المتفق عليها ، وهو ينظر من خلال النوافذ من حين الى حين ، فلا يرى فى الخارج الا الظلام .

انقضى شطر من الليل ، ولكن ايفان فيدوروفتش لم ينم بعد . كان يفكر ويتأمل . ولم يرقد على فراشه تلك الليلة الا فى نحو الساعة الثانية . لن نحلل مجرى الخواطر التى دارت فى رأسه ، لأن قراءة ما كان يعتمل فى نفسه عندئذ لم يحن حينها ، وسيأتى دورها فيما بعد . ثم ان وصف ما كان يجيش فى قرارة قلبه ليس بالأمر السهل ، لأنه لم يكن خواطر بل كان شيئاً غامضاً ، كان شيئاً مضطرباً مسرفاً فى الاضطراب خاصة : وكان يشعر هو نفسه بأنه قد فقد السيطرة على فكره . هذا عدا رغبات غريبة غير متوقعة تقريباً كانت تعذبه فى بعض اللحظات . من ذلك مثلاً أنه عند منتصف الليل قد شعر فجأة برغبة قوية لا تقهر فى أن ينزل وأن يخرج وأن يذهب الى الملحقات بغية أن يضرب سمردياكوف ضرباً مبرحاً . لماذا ؟ لو سألته هذا السؤال لما استطاع أن يذكر سبباً واحداً على وجه الدقة اللهمَّ الا أنه أصبح يكره هذا الخادم كرهاً شديداً ، كما لو كان قد ناله بأفدح الأذى وأشد الاهانة . ومن جهة أخرى فقد وافته فى أثناء تلك الليلة نوبات خوف مذل لا تفسير له ، بلغ من ادخال الاضطراب فى نفسه أنه أحس بشلل

مفاجئ فى قواه الجسمية . وكان يشعر فى الوقت نفسه بصداع ودوار . واستولى عليه بغض غامض ، كما لو كان ينوى الانتقام من أحد ما . انه يشعر بعداوة حتى لأليوشا ، حين يتذكر الحديث الذى جرى بينه وبينه فى النهار . وكان يبدو له فى لحظات أخرى أنه يكره ذاته نفسها . أما كاترينا ايفانوفنا فكأنه نسيها . وقد أدهشته قلة الاكتراث هذه فيما بعد ، لا سيما وأنه كان أمس فى الصباح ، حين أعلن للمرأة الشابة صاخباً أنه مسافر غداً الى موسكو ، قد سمع صوتاً يدمدم فى قرارة نفسه (انه يتذكر هذا تذكراً واضحاً) قائلاً له : «كذبت ! لن تسافر ! لن تستطيع فراقها بمثل هذه السهولة التى تتباهى بها الآن» . ومن بين ذكريات تلك الليلة ذكرى صغيرة ستظل تنبجس فى خياله كثيراً أثناء السنوات اللاحقة ، فتملؤه اشمئزازاً وتقززاً . لقد ظل يتذكر بوضوح كيف أنه نهض عن أريكته عدة مرات ففتح الباب بدون ضوضاء ، كأنه يخشى أن يكون هناك من يسترق السمع ويتلصص عليه وخرج الى فسحة السلم ، وأصاخ بسمعه يتجسس على حركات فيدور بافلوفتش الذى كان يمشى فى غرف الطابق الأرضى . كان يتنصت على حركاته بفضول غريب منحبس الأنفاس خافق القلب ، لا يدرى هو نفسه لماذا يتصرف هذا التصرف ، ولأى سبب يصيخ بسمعه اليه دقائق طويلة . لقد ظل طوال حياته بعد ذلك يصف سلوكه ذاك فى تلك الليلة بأنه «سلوك حقير» ، معتقداً فى دخيلة نفسه أن ذلك الفضول الغريب الذى كان يحركه حينذاك هو أكبر دناءة انحدر اليها فى حياته كلها . كان لا يشعر فى تلك اللحظات بأية عداوة خاصة نحو فيدور بافلوفتش نفسه ، وانما كان يريد أن يعرف ما يعمله فحسب ، محاولاً أن يتصور ،

بفضول قوى ، كيف يمشى أبوه فى غرفته ، وكيف يقترب من النوافذ المظلمة لينظر الى الخارج ، وكيف يتوقف بعد ذلك فى وسط الحجرة منتظراً على أحر من الجمر أن يسمع الاشارة المتفق عليها . لقد خرج ايفان فيدوروفتش الى فسحة السلَّم على هذا النحو مرتين . فلما عاد الهدوء يخيم على كل شىء ، فأوى فيدور بافلوفتش الى فراشه ، فى نحو الساعة الثانية من الصباح ، قرر أن يرقد هو أيضاً ، عازماً عزماً قوياً على أن ينام بأقصى سرعة ، لأنه كان يحس بأنه مهدود القوى . وسرعان ما غرق فعلاً فى نوم عميق لم تتخلله أحلام . واستيقظ فى الصباح مبكراً ، فى نحو الساعة السابعة ، وكان النهار قد طلع . فما ان فتح عينيه حتى أحسَّ فى نفسه بسيل خارق من القوة ، فأدهشه ذلك كثيراً . وما هى الا لحظة حتى نهض عن سريره بوثبة واحدة ، ولبس ثيابه بسرعة ، وأخرج حقيبته ، وأخذ يجمع أمتعته لا يضيع لحظة واحدة . وكانت الغسّالة قد جاءته بغسيله أمس . ابتسم ايفان فيدوروفتش راضياً حين لاحظ أن كل شىء يسير على خير حال ، وأن سفره المفاجئ لا يصطدم بأية عقبة غير متوقعة . ولقد كان هذا السفر مفاجئاً حقاً ؛ فرغم أنه قد أعلنه أمس (لكاترينا ايفانوفنا ، ولأليوشا ، ثم لسمردياكوف) ، فانه لم يفكر فيه البتة حين رقد على سريره (انه يتذكر ذلك الآن) ، ولم يكن يتنبأ بأن أول حركة سيقوم بها حين ينهض فى الصباح هى أن يجمع أمتعته تهيؤاً للرحيل . وسرعان ما امتلأت حقيبته وامتلأ كيس السفر . فلما أزفت الساعة التاسعة جاءته مارفا اجناتفنا تلقى عليه سؤالها المألوف : «أين تريد أن تتناول الشاى ، أهنا أم تحت ؟» فنزل ايفان فيدوروفتش الى الطابق الأرضى . كان يلوح عليه أنه يكاد يكون فرحاً رغم

أن شيئاً من التعجل العصبى كان باديا فى حركاته وفى أقواله . وبعد أن سلَّم على أبيه متودداً حتى لقد سأله عن صحته خاصة ، أعلن ، قبل أن يجيبه أبوه عن سؤاله ، انه مسافر الى موسكو بعد ساعة ، نهائياً ، ورجا أن يؤمر باعداد الخيل . لم يظهر العجوز أية دهشة لاعلان ابنه سفره ونسى حتى أن يعبر عما اصطلح الناس على التعبير عنه فى مثل هذه الأحوال من أسف . وفى مقابل ذلك لم يفته أن يقلق فجأة على أمر من أموره الخاصة ، ورأى أن ينتهز الفرصة ليكلمه فيه . قال :

— أوه ! كان ينبغى أن تبلغنى أمس . . . لا بأس على كل حال . . . سيتسع الوقت لحل هذه المسألة الآن . أرجو أن تقدم لى هذه الخدمة يا بنى الشهم : توقف فى تشرماشنيا عابراً . لن يكون عليك ، حين تصل الى محطة فولوفيا ، الا أن تعرج شمالاً مسافة اثنى عشر فرسخاً فى أكثر تقدير ، فاذا أنت فى تشرماشنيا .

— معذرة ، لا أستطيع . ان المسافة من هنا الى محطة القطار ثمانون فرسخاً ، وقطار موسكو يسافر فى الساعة السابعة مساء ، فلا يكاد يتسع وقتى لادراكه .

— تسافر فى قطار الغد أو غداة الغد . أما اليوم فاذهب الى تشرماشنيا . أيصعب عليك الى هذا الحد أن تقدم هذه الخدمة الصغيرة لأبيك ؟ لولا اننى مضطر الى البقاء هنا لأسباب قاهرة لذهبت الى تشرماشنيا بنفسى منذ زمن طويل . الأمر هناك مستعجل وهام جداً ، ولكننى لا أستطيع الابتعاد عن المنزل الآن . . . ان لى فى تشرماشنيا غابة من حصتين فى أراضى بيجيتشوفو ودياتشكينو . والتاجران ماسلوف وابنه لا يعرضان علىَّ الا ثمانية آلاف روبل ثمناً لأشجارها المعدة للقطع ،

على حين أن مشترياً آخر كان مستعداً فى العام الماضى لأن يدفع لى اثنى عشر ألف روبل بكل سرور . لم يكن ذلك المشترى من هذه المنطقة ، وهذا هو تفسير الأمر ، فما من سبيل الى العثور على مشتر من أهل المنطقة ، لأن آل ماسلوف الذين يملكون مئات ألوف الروبلات يسيطرون على المقاطعة ويفرضون عليها ارادتهم فرض القانون . انهم «كولاك» ، وما من أحد يجرؤ أن يقف فى وجههم وأن يصمد لهم . ولكن القس من قرية ايلينسكويه كتب لى يوم الخميس الماضى يقول ان رجلاً اسمه جورستكين قد جاء يعرض شراء الاشجار . والرجل تاجر هو أيضاً ، وأنا أعرفه . انه من مدينة بوجريبوفو ، وهو لا يخشى آل ماسلوف ، لأنه ليس من سكان المنطقة . انه يعرض أحد عشر ألف روبل ثمناً للأشجار المعدة للقطع ، فهمت ؟ وقد ذكر لى القس أنه الآن فى تشرماشنيا الى حين ، وأنه سيبارحها بعد أسبوع . عليك أن تذهب اليه لتناقش الأمر معه .

— ما عليك الا أن تكتب للقس ، فيتم لك الصفقة !

— انه لا يفهم فى هذه الأمور شيئاً ، ذلك هو المزعج . ان هذا القس رجل أعمى فى الشئون العملية . ان له قلباً من ذهب ، وانني لمستعد أن أودعه عشرين ألف روبل بدون وصل . ولكنه قصير النظر حتى لقد يخدعه غراب . ما هو من هذه الناحية برجل . وهو مع ذلك عالم كبير . هل تتصور هذا ؟ ان هيئة جورستكين هذا هى هيئة فلاح ، وهو يرتدى قميصاً أزرق ، لكنه وغد كبير من سوء حظنا جميعاً ! انه يكذب كما يتنفس . حتى لقد يراكم الكذب بعضه فوق بعض لا لشيء الا لذة الكذب ! لقد روى منذ ثلاث سنين ، مثلاً ، أن

امرأته ماتت ، وأنه تزوج أخرى . فهل تتصور أنه كان يكذب ؟ نعم لقد كان يكذب . حتى أن امرأته لم يخطر ببالها أن تموت . وهى ما تزال حية وما تزال تضربه مرة كل ثلاثة ايام . فيجب أن تعرف أولا أكان صادقاً أم كان كاذباً حين عرض أحد عشر ألف روبل ثمناً للأشجار .

— انك لتعلم جيداً أننى أنا أيضاً لا أفهم فى هذه الأمور شيئاً . ففيم يمكننى أن أنفعك ؟

— لحظة . انتظر . يمكنك أن تنفعنى ، لأننى سأطلعك على العلائم التى تستطيع الاعتماد عليها لتعرف حقيقة ما يدور فى نفس جورستكين . اننى أعرفه منذ عهد بعيد . عليك أن تنظر الى لحيته فتنفذ الى خفايا سريرته . ان له لحية صغيرة حمراء خفيفة ، فاذا أخذت هذه اللحية ترتعش بينما هو غاضب أثناء الكلام ، فاعلم أنه يقول صدقاً ويريد أن يتم الصفقة ؛ أما اذا رأيته يلاعب لحيته بيده اليسرى وهو يبتسم ، فاعلم أنه يراوغ ويمكر ويحاول أن يغش . لا تحاول أن تقرأ فى عينيه . فليس فى وسعك أن تعرف بهذه الوسيلة شيئاً . انه وغد لئيم ، وما عيناه الا ماء عكر . وانما يجب عليك أن تنظر الى لحيته . سوف أعطيك رسالة ، فما يكون عليك الا أن تناوله الرسالة . وليس اسمه الحقيقى جورستكين وانما اسمه فى الواقع لياجافى . ولكن اياك أن تخاطبه باسم لياجافى ، والا استاء استياء رهيباً . ومتى تم الاتفاق ورأيت الأمور تجرى مجرى حسناً ، فأبلغنى ذلك فوراً : يكفى أن تكتب الىَّ فى هذه الحالة هذه العبارة : «ليس يكذب» . حاول أن تصر على الثمن الذى ذكرته لك ، وهو أحد عشر ألف روبل . ولا مانع أن تتنازل عن ألف روبل اذا اقتضى الأمر ، ولكن لا تتنازل عن أكثر من ذلك . احكم

بنفسك : ثمانية آلاف وأحد عشر ألفاً . . الفرق ثلاثة آلاف . هذا مال يهبط علىَّ من السماء لأن المشترين نادرون فى هذه الأيام . وأنا فى حاجة ماسة الى هذا المبلغ . فمتى أبلغتنى أن الأمر جدٌ ، وثبت الى هناك لأتم الصفقة بنفسى . سوف أستطيع أن أجد لهذا متسعاً من الوقت . أما أن أذهب الى هناك منذ الآن ، فليس ينفعنى هذا فى شىء ، لأن من الجائز أن يكون القس قد استرسل مع خياله . هيه ؟ اتفقنا ؟ أتذهب أم لا ؟

— لا يتسع وقتى ، فلا تحرجنى !

— أرجوك ، اصنع هذا الجميل لأبيك ! سأذكره لك ما حييت . أأنتم جميعا اذن بغير قلب ؟ ما قيمة يوم أو يومين زيادة ؟ الى أين تنوى أن تسافر ؟ الى البندقية ؟ ان البندقية لن تهوى الى قاع البحر خلال هذين اليومين ! كان يمكن أن أرسل أليوشا ، ولكن أليوشا لا يفهم فى هذه الأمور شيئاً . ولئن اتجهت اليك فلأنك ذكى ، أنا أعرف ذلك . ما أنت بتاجر ، ولكنك ترى رؤية واضحة . المطلوب هو أن تعرف أهذا الرجل جاد فيما يقول أم غير جاد . أعود فأكرر أنه يكفى النظر الى لحيته ، فاذا ارتعشت كان يقول صدقاً .

صاح ايفان يقول وهو يضحك ضحكة خبيثة :

— سوف يكون الذنب ذنبك أخيراً اذا أنا ذهبت الى تشرماشنيا هذه اللعينة .

تظاهر فيدور بافلوفتش بأنه لم يلاحظ النبرة المعادية فى كلام ابنه ، ولكنه تشبث بهذه الضحكة على الفور فقال :

— اذن وافقت ، وافقت على أن تذهب الى تشرماشنيا . سأكتب الرسالة الصغيرة حالاً .

— لا أدرى بعد أأذهب أم لا أذهب . سأقرر ذلك أثناء الطريق .

— لماذا أثناء الطريق ؟ قرر حالا ! بادرة طيبة يا عزيزى ! فاذا سوِّى الأمر وتمت الصفقة ، كتبت الىَّ سطرين تودعهما القس ، فيبادر الى ارسالهما الىَّ بغير ابطاء . ولك بعد ذلك أن تسافر الى البندقية ، فلن أمنعك . وسيعيدك القس الى محطة فولوفيا بعربته . . .

تهلل العجوز فرحاً . وأسرع يكتب الى التاجر رسالة قصيرة . ثم أمر باعداد العربة . وجىء للرجلين بوجبة خفيفة باردة ، وجىء لهما بكونياك . ان عادة فيدور بافلوفتش أن يصبح فى لحظات السعادة منطلقاً كثير الكلام والحركة ، ولكن كان يبدو فى هذه المرة أنه يحاول السيطرة على نفسه . وقد تحاشى أيضاً أن يجىء على ذكر دمترى فيدوروفتش . ولم يكن يلوح عليه من جهة أخرى أنه متأثر لفراق ابنه ، وكان صامتاً كأنه أصبح لا يجد ما يقوله . فوجئ ايفان فيدوروفتش بذلك ، وقال يحدث نفسه : «لا شك أن وجودى يضايقه منذ زمن» . ومع ذلك فان العجوز حين شيَّع ابنه الى درجات المدخل بدا متأثراً بعض التأثر وتظاهر بأنه يريد أن يقبِّله . ولكن ايفان فيدوروفتش أسرع يمد اليه يده ، راغباً فى تحاشى القبلات رغبة واضحة . أدرك أبوه ذلك ، فلجم اندفاعته ، وأخذ يقول مردداً من على درجات المدخل :

— كان الله فى رعايتك ، كان الله فى رعايتك ! سوف تأتى لرؤيتى فى يوم من الأيام ، أليس كذلك ؟ أهلاً وسهلاً بك فى منزلى دائماً . اذهب ، وليكن المسيح معك !

ركب ايفان فيدوروفتش العربة . وصاح أبوه يقول له مرة

أخيرة :

— فى أمان الله يا ايفان . لا تؤاخذ أباك !

وكان أهل المنزل قد خرجوا للوداع . كان هناك سمردياكوف ومارفا وجريجورى . أعطى ايفان فيدوروفتش كلاً منهم عشرة روبلات . وحين استقر ايفان فى العربة أسرع سمردياكوف يرتب الأغطية . فقال له ايفان فيدوروفتش وهو يضحك ضحكة عصبية صغيرة :

— أرأيت ؟ هاأناذا ذاهب الى تشرماشنيا .

وكما حدث بالأمس ، تساءل ايفان لماذا شعر بالحاجة الى أن يبلغ سمردياكوف ذلك ، ولقد ظل يتذكر هذا الامر كثيراً فى المستقبل .

— صحيح اذن أنه يلذ للمرء أحيانا أن يتحدث مع رجل ذكى ، كما يقول الناس .

هكذا أجاب سمردياكوف بصوت جازم وهو يغرس فى ايفان فيدوروفتش نظرة نافذة .

تحركت العربة ، وانطلقت تعدو . كان المسافر فى البداية فى حالة نفسية مضطربة ، وكان ينظر الى ما حوله بشراهة ، متأملاً الحقول والروابى والأشجار . ومرَّ سرب من الأوز البرى فوقه ، محلقاً فى السماء الصافية . فاذا به يشعر بسعادة خفيفة على حين فجأة . فخاطب الحوذى ، واهتم اهتماماً قوياً بجواب أجابه الحوذى ، ومع ذلك رأى بعد بضعة لحظات أنه لم يسمع ما قيل له ، وانه ، والحق يقال ، لم يدرك ما أراد هذا الفلاح أن يقول له . ولكنه صمت راضياً : فالهواء نقى طرى ، منعش والسماء صافية لا غيوم فيها . وفى لحظة ما خطر بباله أليوشا وكاترينا ايفانوفنا . ولكنه ابتسم ابتسامة رفيقة ،

وزفر زفرة خفيفة على الطيفين العزيزين فغابا ، وحدث نفسه قائلاً : «سوف اعود اليهما فى حينه» . وقطع المسافة الى المحطة الاولى من محطات العربات سريعاً . فابدلت خيله ، واستأنف طريقه الى فولوفيا . وسأل ايفان نفسه «لماذا قال لى انه يلذ للمرء أحياناً ان يتحدث مع رجل ذكى ؟ ماذا كان يعنى بذلك ؟» واحتبست انفاسه فجأة «ثم ما كانت حاجتى الى ابلاغه اننى ذاهب الى تشرماشنيا ؟» ووصلت العربة أخيراً الى فولوفيا ، فنزل ايفان فيدوروفتش . أحاط به أصحاب العربات ، فناقشهم وساومهم ، وانتهى الى تحديد أجر ايصاله بخيول خاصة الى تشرماشنيا التى تبعد مسافة اثنى عشر فرسخاً فى طريق زراعى . أمر بأن تُقرن الخيل ، ثم دخل الى المحطة ، فألقى نظرة على زوجة ناظر المحطة ، ثم اذا به يخرج فيقف على درجات الباب ويقول :

— لن أذهب الى تشرماشنيا . قولوا لى يا شباب : هل يمكننى أن أدرك قطار الساعة السابعة ؟

— ستدركه . هل نقرن الخيل ؟

— اقرنوها فوراً . هل منكم أحد يذهب الى المدينة غداً ؟

— طبعاً . مترى ذاهب اليها .

— هل لى منك بجميل تصنعه لى يا مترى ؟ اذهب الى أبى فيدور بافلوفتش كارامازوف ، وقل له اننى لم أذهب الى تشرماشنيا . هل تستطيع أن تفعل ذلك ؟

— لم لا ؟ اننى أعرف فيدور بافلوفتش منذ زمن طويل .

— خذ هذه المكافأة ، لأن من الجائز أن لا يعطيك شيئاً . . .

قال ايفان فيدوروفتش ذلك وهو يضحك فرحاً . فأجابه مترى وهو يضحك أيضاً :

— طبعاً . أنا أعرف أنه لن يعطيني شيئاً . شكراً يا سيدى . سأذهب اليه حتماً . . .

فى الساعة السابعة من المساء ، استقر ايفان فيدوروفتش فى حافلة القطار الذى أقله سريعاً الى موسكو . «ألا فليبتعد عني الماضى ! لقد قطعت صلتى الى الأبد بالعالم الذى عشت فيه ، ولا أريد بعد اليوم أن أتذكره ! ألا فليختف هذا الماضى من نفسى ! ألا فلينقطع عن الوصول الى مسمعى أى نداء من الحياة التى أبارحها ! اننى أسافر لا ألوى على شيء ولا التفت الى وراء ! هيَّا الى عالم جديد ، الى أمكنة مجهولة !» بهذا كان يحدث نفسه . ولكنه بدلاً من أن يشعر بالفرح ، أحس بمضض شديد يقبض صدره ، وامتلأ قلبه بحزن أليم لم يشعر بمثله من قبل . ظل طوال الليل يفكر ويتأمل ، وسط قرقعة القطار الذى كان يجرى بسرعة كبيرة . وعند الفجر ، بينما كان القطار يقترب من موسكو ، خرج ايفان من خدره فجأة ، ودمدم يقول :

— أنا وغد !

أما فيدور بافلوفتش فقد شعر بسعادة كبيرة بعد أن ودَّع ابنه ، وظل خلال ساعتين فى حالة قريبة من الهناءة والغبطة ، يفرغ فى جوفه قدحاً من الكونياك بين الفينة والفينة . غير أن حادثاً مؤسفاً ومزعجاً قد حدث فى المنزل بعد ذلك ، فاذا هو يبدل الحالة النفسية التى كان عليها العجوز تبديلاً كاملاً ، واذا هو يغرقه فى اضطراب شديد . ان سمردياكوف الذى ذهب الى القبو لغرض ما قد سقط من على اول درجة ، وتدحرج

الى أسفل الدرج . ومن حسن الحظ أن مارفا اجناتفنا كانت فى فناء المنزل عندئذ ، فعرفت حالا هذه النازلة التى وقعت . انها لم تدرك ضجة السقوط ، ولكنها سمعت تلك الصرخة الغريبة الخاصة التى تعرفها منذ عهد بعيد ، الصرخة التى تنطلق من صدر المريض بالصرع عند أول النوبة . لقد كان يستحيل أن يعرف أحد هل وافت النوبة سمردياكوف حين وضع قدمه على السلم فكان لا بد أن يتدحرج الى آخر الدرجات لأنه أغمى عليه ، أم أن السقوط والارتجاج اللذين نشآ عن السقوط هما اللذان سببا له نوبة الصرع . المهم على كل حال ان سمردياكوف وُجد فى قاع القبو تهزه تشنجات قوية ويخرج من فمه زبد . وقد ظُن فى أول الأمر أنه قد جُرح حين سقط ، وأن ساقه أو ذراعه قد كسرت ، ولكن تبيَّن أن «الله قد سلّمه» على حد تعبير مارفا اجناتفنا ، فلم يُصب بأى اذى . ومع ذلك كان نقله من القبو الى الهواء الطلق شاقاً . وقد أمكن نقله أخيراً بفضل الجيران الذين هرعوا يساعدون . وحضر فيدور بافلوفتش مهمة النقل بل وساعد فى حمل المريض ، وهو يشعر بقلق شديد واضطراب عظيم . ظل سمردياكوف غائباً عن وعيه ، وكانت التشنجات تنقطع أحياناً ولكنها ما تلبث أن تعود بعد قليل . وأجمع الرأى على أن الأمور ستجرى فى هذه المرة كما جرت فى السنة الماضية حين سقط سمردياكوف من طابق الشونة . وتذكروا أنه قد وُصف له حينذاك ثلج يوضع على جبينه ، وكان ما يزال فى القبو بعض الثلج ، فتولت مارفا اجناتفنا أمر العناية بالمريض ، حتى اذا كان المساء استدعى فيدور بافلوفتش الدكتور هرتسنشتوبه ، فلم يلبث أن جاء ، فبعد أن فحص المريض فحصاً دقيقاً (وهو أكثر أطباء المنطقة دقة وأشدهم

عناية ، كما أنه من أحق الناس بالاحترام ، وقد طعن فى السن كثيراً) ، أعلن أن النوبة خطيرة يمكن أن «تعرض الحياة للخطر» ، وأضاف الى ذلك أنه لم يفهم الحالة كثيراً بعد ، ولكنه سيرجع من الغد ، فيصف دواء جديداً اذا اتضح أن الاجراءات السابقة لم تُجدِ المريض نفعاً . وأُرقد سمردياكوف فى ملحقات المنزل ، فى غرفة تتاخم غرفة جريجورى ومارفا اجناتفنا . وفى أثناء ذلك النهار عرف فيدور بافلوفتش سلسلة متصلة من المكدرات والمنغصات ، أولها وجبة الطعام التى أعدتها مارفا اجناتفنا والتى كان حساؤها ، اذا قيس بحساء سمردياكوف ، لا يفضل كثيراً «ماء الغسيل» ، أما لحم دجاجتها فكان من القسوة بحيث لا يمكن مضغه ، وحين لام رب المنزل مارفا اجناتفنا على ذلك لوماً مراً وان يكن مسوَّغاً ، أجابت بأن الدجاجة عجوز جداً ، كما أنها هى مارفا لم تُعلَّم لتكون طباخة ! وفى المساء حلّ بفيدور بافلوفتش مكدرٌ جديد : أُبلغ أن جريجورى ، وهو مريض منذ يومين ، قد لزم سريره وأن وجع الظهر الذى يعانى منه قد جمّده تماماً . وأسرع فيدور بافلوفتش يحتسى شايه ، وسجن نفسه فى المنزل وحيداً . انه فى حالة ترقب مهموم مغموم ، وانه لمضطرب اضطراباً شديداً . فهو يعتقد أن جروشنكا ستأتى فى هذا المساء نفسه ، وهو يكاد يكون من ذلك على يقين ، لأن سمردياكوف قد أكد له فى ساعة مبكرة من الصباح «أنها وعدت بالمجئ هذه المرة» . كان قلب العجوز الفاسق يخفق خفقانا يكاد يحطم صدره ، وهو يمشى بلا توقف خلال غرفه المقفرة ، مصيخا بسمعه الى كل وكن من الأركان ، ذلك أن عليه أن يكون يقظاً كل اليقظة ، لأن من الجائز أن يرقب دمترى فيدوروفتش مرور المرأة

الشابة ، فمتى قرعت النافذة (وكان سمردياكوف قد أكّد لفيدور بافلوفتش ، منذ يومين ، أنه قد ذكر لها أين يجب عليها أن تقرع) كان عليه أن يهرع الى الباب لا يضيِّع لحظة واحدة ، ولا يجعلها تنتظر فى غير داع الى انتظار ، لأنها قد تخاف فى الظلام فتهرب لا سمح الله ! كان فيدور بافلوفتش قلقاً اذن ، ولكن نفسه لم يهدهدها فى يوم من الأيام أمل أعذب من هذا الأمل : ألم يكن فى وسعه أن يؤكد بما يشبه اليقين أنها ستأتى أخيراً فى ذلك اليوم ؟ !

الباب السادس

الراهب الروسى

١

الشيخ زوسيما وضيوفه

دخل أليوشا صومعة الشيخ قلقاً قد هدَّ قلبه الألم ، ولكنه توقف على العتبة وقد استبدت به دهشة قوية : فانه بدلاً من أن يرى المريض المحتضر الذى لعله غاب عن وعيه ، رأى الشيخ جالساً فى مقعد . صحيح أن وجه الشيخ مرهق من الضعف ، ولكن هذا الوجه ما يزال يعبر عن الشجاعة والمرح . وقد تحلق حول الشيخ زوار كان الشيخ يحادثهم وديعاً هادئاً فرحاً . والحق أنه لم ينهض الا قبل وصول أليوشا بربع ساعة . أما الزوار فكانوا قد اجتمعوا فى الصومعة منذ زمن طويل ، منتظرين صحوة الشيخ ، لأن الأب بائيسى كان قد أكد لهم أن «المعلم سينهض حتماً من أجل أن يتحدث مرة أخرى الى أحبة قلبه ، كما أعلن ذلك هو نفسه ووعد به فى هذا الصباح» . ان الأب بائيسى يؤمن بهذا الوعد ، ويؤمن بكل ما قد يقوله الشيخ المحتضر ، وقد بلغ من قوة ايمانه أنه لو رأى الشيخ هامداً لا يتحرك ولا يتنفس ، لما صدَّق أن الشيخ مات ، ما دام الشيخ قد وعده بأنه سينهض مرة أخرى ليودعه ، أو لتوقع أن يرتد الشيخ الى الحياة براً بوعده . وقد صرَّح له

الشيخ زوسيما بوضوح كبير فى الصباح ، قبل أن ينام : «اننى لن أموت الا بعد أن أسعد مرة أخرى بالتحدث الى أعزتى ، وبعد أن أرى من جديد تلك الوجوه التى أحببتها ، وبعد أن أفتح قلبى لهؤلاء جميعاً مرة أخرى» . والذين اجتمعوا لسماع ذلك الحديث الذى يغلب على الظن أنه آخر حديث ، انما كانوا أقدم أصدقاء الشيخ وأشدهم اخلاصاً له . انهم أربعة : الراهبان الكاهنان يوسف وبائيسى ، والأب ميخائيل ، رئيس رهبان المنسك ، وهو راهب كاهن أيضاً ، ما يزال شاباً بعض الشباب ، متواضع الأصل ، ليس على جانب كبير من العلم ، ولكنه صلب النفس ، قوى الايمان بسيط ساذج ؛ ولئن كان قاسى المظهر ، فان فى قلبه حساسية عميقة يحاول أن يكبتها حياء وخجلاً . أما الزائر الرابع فهو الأخ آنفيم ، وهو راهب قصير ، طاعن فى السن شديد التواضع ، قد خرج من بيئة فلاحين فقراء ، لا يكاد يعرف القراءة والكتابة ، رقيق دائماً ، صموت يندر أن يكلم أحداً . وهو خاضع مذعن أكثر من أى انسان آخر ، وكأن عظمة الوجود الرهيبة التى لا يستطيع فكره أن يرقى اليها قد روّعته الى الأبد . لقد كان الأب زوسيما يحب هذا الراهب الذى يبدو مرتجفا حباً كثيراً ، وقد أظهر له خلال حياته كلها احتراماً عظيماً ، رغم أنه ليس فى هذا العالم الا قلة من الناس كان يمكن أن يخاطبها أقل مما يخاطب هذا الراهب المتواضع . ولقد عاش فى صحبته مع ذلك سنين كثيرة ، لأنه طاف معه جميع أرجاء روسيا المقدسة . حدث ذلك منذ زمان بعيد ، منذ ما يقرب من أربعين عاماً ، أيام كان زوسيما يبدأ حياة الرهبنة بين جدران دير مغمور فقير فى مقاطعة كوستروما . فبعد أن دخل زوسيما ذلك الدير بزمن

كثير ، كُلِّف بأن يرافق الأخ آنفيم فى جولاته لجمع الصدقات لهذا الدير الفقير . كان هؤلاء الزوار جالسين فى حجرة الشيخ الثانية ، أعنى الحجرة التى كان يتخذها مهجعاً له ، والتى كانت كما ذكرنا ضيقة جداً ، تبلغ من الضيق أن الرهبان الأربعة (والراهب المبتدئ بورفيرى الذى ظل واقفا) لم يكادوا يجدون فيها متسعا لهم . لقد جاءوا بكراسيهم من الغرفة الأخرى وصفوها حول مقعد الشيخ . كان الغسق يهبط ، وكانت تضىء الغرفة مصابيح الزيت والشموع الموقدة أمام الأيقونات . فلما لمح الشيخ أليوشا الذى لبث واقفا على عتبة الباب من شدة اضطرابه ، ابتسم له ابتسامة فرحة ومدّ اليه يده قائلاً له :

— طاب يومك يا بنى الطيب ، يا عزيزى أليوشا الوديع . أجئت اذن ؟ لقد كنت أعلم أنك ستجىء .

فاقترب أليوشا منه ، وانحنى له حتى الأرض ، وأجهش باكياً . كان شىء ما يتمزق فى قلبه ، وكانت نفسه منقبضة انقباضاً شديداً ، فهو يتمنى أن ينفجر ناشجاً .

قال الشيخ مبتسما وهو يضع يده اليمنى على رأس أليوشا :

— ما بك ؟ لمّا يحن حين البكاء علىّ بعد . هأنت ذا ترانى أتحدث جالساً فى هدوء . ومن يدرى ؟ فقد أعيش عشرين عاماً أخرى كما تمنت لى ذلك بالأمس تلك المرأة الطيبة العزيزة التى جاءت من فيشيجوريــى وكانت تحمل بين ذراعيها صغيرتها ليزافيتا . اسأل الله أن يحرس الأم والبنية ! (رسم الشيخ اشارة الصليب وهو ينطق بهذه الكلمات) . هل حملت عطاءها يا بورفيرى الى حيث قلت لك أن تحمله ؟

كان الشيخ يشير الى مبلغ الستين كوبك التى تصدقت بها أمس تلك المرأة الفرحة المعجبة بالشيخ من أجل أن يهبها

«لمن هو أفقر منى» . ان الصدقات التى من هذا النوع انما يتصدق بها أصحابها فى العادة على أثر نذر ينذرونه أحراراً فلا بد لهم من اقتطاعه من حصيلة عملهم . وقد أمر الشيخ فى ذلك المساء نفسه بأن يحمل بورفيرى هذا المبلغ الزهيد الى امرأة فقيرة من ساكنات المدينة ، هى أرملة لها ولدان قد احترق منزلها فى الآونة الأخيرة فأصبحت منذ ذلك الحين تستعطى لتعيش . أسرع بورفيرى يقول انه نفذ الأمر فأعطى المرأة الفقيرة ذلك المبلغ قائلاً انه من «محسنة لم تشأ أن تذكر اسمها» .

تابع الشيخ كلامه يقول لأليوشا :

— انهض يا صديقى العزيز لأراك قليلاً . هل ذهبت الى ذويك ، وهل رأيت أخاك ؟

دُهش أليوشا من سؤال الشيخ عن أحد أخويه بمثل هذا الالحاح . ولكن أى الأخوين يقصد ؟ هل يُستنتج من ذلك أن الشيخ انما أرسله الى المدينة أمس واليوم بسبب هذا الأخ ؟

أجاب أليوشا قائلاً :

— رأيت أحد أخوى .

— أقصد أخاك الأكبر ، أخاك ذاك الذى سجدت له أمس .

— ذاك لم أره الا أمس ، ولم أستطع أن ألقاه اليوم .

— حاول ان تهتدى اليه بسرعة . عد الى المدينة من الغد لرؤيته . دع كل شىء ، ولكن رتب أمورك لادراكه ربما كان لا يزال فى الوقت متسع لتجنب مصيبة . لقد انحنيت أمس للآلام الكبرى التى تنتظره .

وصمت الشيخ فجأة ، وشرد فكره كأنه يحلم . لقد كانت أقواله غريبة . وهذا هو الأب يوسف الذى شهد بالأمس تحية الشيخ لدمترى يبادل الأب بائيسى نظرة ، ولم يستطع أليوشا أن يتمالك نفسه ، فصاح يقول وقد استولى عليه انفعال شديد :

— أبـى ومعلمى ! ان ما قلته الآن يبدو غامضاً مسرفاً فى الغموض . . . ما هى الآلام التى تنتظره ؟

— لا تحاول أن تعرف ذلك . لقد تراءى لى بالأمس أننى أدرك شيئاً رهيباً . . . لقد قرأت مصيره فى نظرته . رأيت فى لحظة معينة تعبيراً خاصاً فى عينيه . . . تعبيراً أرعشنى بسبب المصير الذى يهيء هذا الانسان له نفسه . سبق لى مرة أو مرتين فى الماضى أن لاحظت ذلك التعبير فى نظرة النـاس انعكاساً لمصيرهم المقبل ، فتحقق ذلك المصير وا أسفاه ! ولقد أرسلتك اليه يا أليوشا آملاً أن تستطيع طلعتك الأخوية أن تساعده بعض المساعدة . ولكن مصيرنا جميعاً هو بين يدى الرب . «ان لم تقع حبة الحنطة فى الأرض وتمتْ فهى تبقى وحدها ، ولكن ان ماتت تأتى بثمر كثير» احفظ هذه الحقيقة . أما أنت يا أليوشا فاعلم اننى كثيراً ما باركتك فى فكرى بسبب تعبير وجهك (كذلك أضاف الشيخ يقول وهو يبتسم ابتسامة عذبة وديعة) . اليك رأيـى فيك : سوف تترك الدير ، وسوف تعيش فى العالم كراهب . سيكون لك أعداء كثيرون ، ولكنهم سيحبونك هم أيضاً . ان الحياة تخبىء لك آلاماً كثيرة ، ولكنك بهذه الآلام انما ستسعد وستبارك الوجود . وستحمل الآخرين أيضاً على أن يباركوه ، وذلك هو الشيء الأساسى . ذلك هو رأيـى فيك وحكمى عليك . — ثم التفت الشيخ الى

زواره فقال يخاطبهم وهو يبتسم ابتسامة ودودا : — يا آبائى ومعلمىَّ ، اننى لم أقل الى الآن حتى لهذا الفتى لماذا يستعذب قلبـى وجهه . فسأسر اليكم الآن بهذا . كنت أرى فى قسماته ذكرى الماضى ونذير المستقبل . ففى فجر حياتى ، حين كنت لا أزال فى سن الطفولة ، كان لى أخ أكبر مات أمام عينى فى ريعان شبابه ولمّا يكمل السنة السابعة عشرة من عمره . ولقد رسخ فى اعتقادى أثناء حياتى ، شيئاً بعد شيء ، أن هذا الأخ قد كان لى نذيراً واشارة من الملأ الأعلى ، ويقينى أننى لولاه لما سرت فى طريق الرهبنة ولا اخترت الدرب العزيز هذا . ان هذا التجلى الأول للعناية الالهية قد حدث فى فجر أيامى ، وهاناذا أرى تكرره فى خاتمة المطاف من طريقى . انه لشيء بارز ، يا آبائى ومعلمىَّ ، أن ألكسى الذى لا يشبه أخى ذاك كثيراً بوجهه — فانه ليس له منه الا بعض السمات الخارجية — قد بدا لى شبيهاً به كل الشبه من الناحية الروحية ويا طالما حسبته ذلك الأخ المراهق نفسه الذى كان لى فى الماضى وقد آب الىَّ الآن أوبة سرية فى أواخر أيامى ذكرى من الماضى ونداء الى التأمل ، حتى لقد دهشت أنا نفسى فى بعض الأحيان من غرابة هذه الظاهرة ودهشت من غرابة الحلم الذى كان يغرقنى فيه . هل تسمعنى يا بورفيرى ؟ (كذلك قال يخاطب الراهب المبتدئ المكلف بخدمته) . كم من مرة لاحظت فيك تعبيراً عن الحزن لأننى أحب ألكسى أكثر مما أحبك . فهأنت ذا تعرف سبب ذلك الآن . ولكن اعلم أننى أحبك كثيراً أنت أيضاً ، وطالما أحزننى حزنك . يا ضيوفى الأعزاء ، اسمحوا لى أن أحدثكم عن أخى الفتى ذاك ، لأننى لم أعرف فى حياتى طيفاً أحب من طيفه الى قلبـى ،

ولا أشد تأثيراً فى نفسى ، ولا أصدق نبوءة فى كل شأن من شئونى . ان قلبى ممتلئ به فى هذه اللحظة ، لأننى أرى فيه حياتى مرة أخرى رؤية كاملة كأننى أعيشها من جديد . . .

يجب أن أنبه القارئ هنا الى أن هذا الحديث الأخير الذى أجراه الشيخ مع أصدقائه الذين تحلقوا حوله فى آخر يوم من أيام حياته قد حُفظ بعضه مكتوبا . ذلك أن ألكسى فيدوروفتش كارامازوف قد سجله بعد موت الشيخ بقليل . لا أستطيع أن أقطع على وجه اليقين بأن ما رواه ألكسى هو نص ذلك الحديث تماماً ، وأن ألكسى لم يضف الى النص فقرات استمدها من أحاديث سابقة لمعلمه . ويجب أن نلاحظ من جهة أخرى أن ما سجله الكسى يوهم بأن الشيخ قد ألقى خطاباً متصلاً حتى يروى قصة حياته لزواره ، مع أن الشهادات تجمع على أن الأمور جرت فى الواقع مجرى آخر يختلف عن هذا المجرى بعض الاختلاف فى ذلك المساء . فالحديث قد كان عاماً ، ورغم أن أصدقاء الشيخ لم يقاطعوه كثيراً ، فقد تدخلوا فى الحديث يضيفون كلمة شخصية وملاحظات شخصية وربما مسارّات عن حياتهم هم . ثم انه لم يكن من الممكن أن يتكلم الشيخ بلا توقف ، لأن أنفاسه كانت تتقطع أحياناً ، ولأن صوته كان يضعف على حين فجأة ، ولقد اضطر مراراً أن يمضى الى سريره يستريح عليه مفتوح العينين بينما ضيوفه فى أماكنهم لم يبارحوها . ولقد تخللت الحديث ، مرة أو مرتين ، قراءة آيات فى الأناجيل قرأها الأب بائيسى جهراً . ويجب أن نذكر أن أحداً من الحضور

لم يتنبأ بأن الشيخ سيموت فى تلك الليلة نفسها ، لا سيما وأنه قد بدا عليه فى ذلك المساء الأخير أنه قد استرد قوة جديدة على أثر نومه أثناء النهار ؛ وهذه القوى التى استردها على هذا النحو قد شدت أزره وعززت عزيمته طوال الحديث الذى أجراه مع أصدقائه . كان ذلك أشبه بوقدة أخيرة من الحياة أذكت روحه اذكاء قوياً ، ولكنها أذكتها وقتاً قصيراً جداً ، لأن روحه فاضت دفعة واحدة على حين فجأة . . . وعن هذا سأتكلم فيما بعد على كل حال . أما الآن فحسبى أن أقول اننى آثرت أن أسقط التفاصيل من هذا الحديث ، وأن أقتصر على ما رواه الشيخ ، معتمداً على المخطوطة التى خلفها ألكسى فيدوروفتش كارامازوف . فذلك أقرب الى الايجاز وأبعد عن الاملال ، رغم أن أليوشا ، كما سبق أن قلت ذلك ، قد ضمَّن ما دوَّنه فقرات كثيرة استمدها من أحاديث سابقة له مع الشيخ .

٢

مقتطفات من حياة المرحوم الكاهن الراهب الشيخ زوسيما .

جمعها ودوّنها نقلاً عنه ألكسى فيدوروفتش كارامازوف

وقائع من سيرة حياته

أ) — الفتى أخو الشيخ زوسيما

آبائى ومعلمىّ الأحبة ! ولدت بمدينة ف . . . فى مقاطعة نائية بشمال روسيا . كان أبى من طبقة النبلاء ، ولكنه من

صغار النبلاء ، ولم يكن يحتل رتبة عالية فى سلم رتب الدولة . وقد مات ولمّا أتجاوز السنة الثانية من عمرى ، فليس فى ذهنى أية ذكرى عنه . وقد ترك لأمى منزلا من خشب ، ليس بالكبير ، وترك لها رأس مال متواضعاً ، ولكنه كاف لأن تعيش مع أولادها فى منجى من العوز . كنا ولدين : أخى الأكبر ، ماركيل ، وأنا ، زينوفى . كان أخى أكبر منى بثمانية أعوام . وكان جامح الطبع شديد النزق ، ولكنه كان طيب القلب ، لا يسخر من الآخرين قط ، وكان كثير الصمت الى حد غريب ، ولا سيما مع ذويه ، أى معى ومع أمى ومع الخدم . وكان فى المدرسة مجداً مجتهداً ومع ذلك كان لا يألف رفاقه فى المدرسة كثيراً ، ولكنه لا يشاجرهم أيضاً . تلك هى على الأقل الذكرى التى حفظتها أمى عنه . وقبل نهايته بستة أشهر ، بينما كان يدخل السنة الثامنة عشرة من عمره ، توثقت الصلة بينه وبين رجل كان يعيش فى مدينتنا حياة اعتزال ، رجل يشبه أن يكون منفياً سياسياً ، لأنه أجبر على أن يغادر موسكو بأمر سام ، وأن يحدد اقامته فى مدينتنا بسبب دعوته الى الحرية . كان هذا الرجل عالماً كبيراً وفيلسوفاً تقدره الأوساط الجامعية قدراً كبيراً . وقد أحبّ أخى ماركيل ، لا أدرى لماذا ، فكان يستقبله كثيراً فى منزله . فقضى أخى عند هذا الرجل سهرات طويلة ، على مدى فصل الشتاء كله ، الى أن استدعى الرجل الى بطرسبرج بطلب منه ، ليُعهد اليه بمنصب رسمى ، لأنه كان ذا صلات عالية . كان هذا فى وقت الصيام الكبير ، وقد رفض أخى أن يصوم ، مستهزئاً بالعبادات متهكماً عليها ، حتى لقد قال : «هذه سخافات وأباطيل ، لأن الله لا وجود له» ، فما كان أشد رعبنا جميعاً من هذا الكلام ، أنا وأمى والخدم ! لقد

شعرت حين سمعت قوله ذاك بهول رهيب ، رغم أننى لم أكن قد تجاوزت السنة التاسعة من عمرى فى ذلك الحين . وكان جميع خدمنا ، وهم أربعة فحسب ، أقناناً اشتريناهم باسم رجل من مالكى الأطيان كنا على صلة به . وما زلت أتذكر اليوم الذى باعت أمى فيه احدى خادماتنا ، وهى الطباخة العجوز العرجاء آفيميا ، بستين روبلاً ورقاً ، واستخدمت بدلاً منها خادماً ليست من الأقنان . وها هو ذا أخى يُصاب بمرض أثناء الأسبوع السادس من الصيام الكبير . لقد كان أخى ضعيف البنية كثير المرض ، مستعداً للاصابة بالسل . انه قصير القد نحيل القامة هزيل الجسم ، ولكنه وسيم الطلعة جميل الوجه . ترى هل أصابه برد ؟ المهم أن الطبيب الذى كان يعالجه قد أسرَّ الى أمى خفية أن ماركيل مصاب بسلٍ يتفاقم تفاقماً سريعاً وأنه لن يعيش الى آخر الربيع . فأخذت أمى تبكى وتضرعت الى ماركيل محاذرة (حتى لا تروعه خاصة) أن يصوم ويتناول القربان المقدس فى عيد الفصح . ذلك أنه لم يكن قد اضطر بعدُ الى ملازمة الفراش . فأجابها أخى غاضباً وحقَّر الكنيسة وأهانها وشتمها ولكنه أطرق مستغرقاً فى التفكير . لقد أدرك على الفور خطورة حالته حين رأى الحاح أمى عليه أن يذهب الى كنيسة ليصوم ويتناول القربان المقدس ما دام لا يزال يملك من القوة ما يسمح له بذلك . ثم انه كان يعرف أنه مريض منذ زمن طويل ، حتى لقد قال لنا منذ ما يقرب من عام ، بينما كنا على المائدة أنا وهو وأمى : «اننى لن أعيش زمناً طويلاً ، وقد لا أكون معكم بعد سنة» . وها قد تحقق ما كان يوجسه . انقضت ثلاثة أيام ودخلنا أسبوع الآلام . فاذا بأخى يذهب الى الكنيسة منذ صباح الثلاثاء قائلاً لأمى :

«انني أذهب الى الكنيسة من أجلك أنت يا أماه ، وذلك حتى تطمئني بالاً وتهدئي نفساً . فبكت أمي ، فرحاً في أول الأمر ، وحزناً وألماً بعد ذلك . وحدثت نفسها قائلة : «لا شك أن نهايته قريبة ما دام قد حدث هذه التبدل فيه» . ولم يتح له أن يكثر من الذهاب الى الكنيسة ، لأنه اضطر الى ملازمة الفراش ، فصار يعترف ويتناول القربان المقدس في المنزل . لقد جاء الفصح متأخراً في ذلك العام . الأيام صافية مضيئة ، والهواء عبق معطّر . أذكر أن أخي كان يسعل في جميع الليالي ، ولا يكاد ينام . حتى اذا طلع الصباح ارتدى ملابسه وحاول أن يجلس على أريكة . وفي هذه الصورة انما أراه الآن : جالساً ، وديعاً ، رقيقاً ، مبتسماً ، مريضاً جداً ولكنه مرح جداً ، سعيد جدا في الظاهر . لقد تبدلت نفسه تبدلاً كبيراً ، فبدا لي هذا التبدل خارقاً . قالت له الخادم العجوز يوماً : «اسمح لي يا بني العزيز أن أشعل القنديل أمام الأيقونة في غرفتك» . ما كان لأخي أن يرضى بهذا من قبل ، وربما نفخ على القنديل فأطفأه . ولكنه قال يومئذ للخادم العجوز : «اشعلي يا عزيزتي ، اشعلي ! ألا ما كان أشد شذوذي حين كنت أمنعك من ذلك ! أنت تصلين لله حين تشعلين قنديلاً أمام الأيقونة ، وأنا أيضا أصلّي لله حين أنظر اليك ، لأن مرآك يبهج قلبي ، ونحن كلانا نصلي اذن لاله واحد» . بدت لنا تلك الأقوال غريبة حينذاك . وكانت أمي لا تنفك تبكي خفية ، وتجفف دموعها قبل أن تدنو منه ، محاولة أن تصطنع هيئة فرحة . فكان يقول لها في بعض الأحيان : «لا تبكي يا أماه ، يا ملاكي الصغير ، فلسوف أعيش زمناً طويلا ، ولسوف أبتهج معكم ، فجميلة هي الحياة ، وزاخرة بالسعادة والفرح !»

وكانت أمي تقول له عندئذ : «أين البهجة ، وأنت تصاب بالحمى في كل ليلة ، وتسعل حتى ليكاد ينفجر صدرك ؟» ، فيعود يقول لها : «لا تبكي يا أماه ، فالحياة جنة نحن فيها جميعاً ، ولكننا لا نريد أن نعترف بذلك ، فلو ارتضينا أن نسلّم به لأصبحت الحياة جنة منذ الغد» . كانت هذه الأقوال تدهشنا ، لأنه كان يتكلم مقتنعاً بما يقوله اقتناعاً راسخاً . وكنا نتأثر من هذا الكلام تأثراً قوياً ، فتترقرق في أعيننا الدموع . وكان يزورنا بعض الأصحاب فاذا هو يقول لهم : «يا أعزائي ، يا أصدقائي الطيبين ، ماذا فعلت حتى أستحق حبكم ؟ كيف تستطيعون أن تحبوا شاباً مثلي ؟ ولماذا لم أعرف من قبل كيف أفهم عاطفتكم وكيف أقدرها ؟» وكان يكرر للخدم دائماً قوله : «لماذا تخدمونني يا أصدقائي الأعزة الطيبين ؟ ما الذي يجعلني أستحق أن تخدموني ؟ اذا منّ عليّ الله فأبقاني حياً ، فلأخدمنكم أنا ، لأن علينا أن يخدم بعضنا بعضاً» . فكانت أمي تهز رأسها حين تسمعه يتكلم على هذا النحو ، فتقول له : «ان المرض هو الذي يوحي اليك بهذه الأفكار يا بني» ، فيجيبها قائلاً : «أماه ، يا فرحة حياتي ! أنا أعلم انه لا بد أن يكون هناك سادة وخدم ، ولكنني أتمنى أن أكون خادم خدمي ، وأن أخدمهم كما يخدمونني ؛ وأحب أن تعلمي أيضاً ، ان كلاً منا مذنب في حق الآخرين ومسئول عن جميع آلامهم . وأنا أكبر ذنباً من سائر الناس» . لم تستطع أمي أن تمنع نفسها من الضحك حين قال لها هذا الكلام . وكانت تبكي وتضحك في آن واحد . سألته : «هلاّ قلت لي كيف تكون أكبر ذنبا من سائر الناس ؟ ان العالم ملئ باللصوص والقتلة ، أما أنت فان وقتك لم يتسع حتى لارتكاب ذنب ومقارفة اثم ! فكيف

يمكنك أن تتهم نفسك هذا الاتهام ؟» قال أخى : «أماه ! يا حملى الوديع ! (ذلك أنه كان يجد عندئذ ألفاظاً للملاطفة لا تخطر بالبال) ، يا فرحتى الكبيرة ، يا حمامتى اللطيفة ! أؤكد لك أن كل انسان فى هذه الحياة الدنيا مرتكب جميع الذنوب ، فى حق جميع الناس . لا أدرى كيف أشرح لك هذا الأمر ، ولكننى أحسه ، أحسه احساساً قوياً عنيفاً الى حدّ العذاب . كيف رضينا أن نعيش حتى الآن غاضبين بغير انقطاع ، لا نفهم من الحياة شيئاً ؟» وكان يستيقظ كل يوم وقد ازداد قلبه رقة وحناناً ، وطفحت نفسه فرحاً ومحبة . وكان الطبيب العجوز الألمانى آيزنشمدت ، يعوده أحياناً . فسأله أخى ذات يوم ضاحكاً : «هيه يا دكتور ! أأعيش الى الغد ؟» فأجابه الطبيب : «ستعيش لا الى الغد فحسب ، وانما ستعيش أياماً وأشهراً بل وسنين» . فهتف عندئذ يقول : «ما خير أن يعيش المرء أشهراً وسنين ؟ ان يوما واحدا لكاف من أجل أن يعرف الانسان كل سعادة هذا العالم . يا أصدقائى الأعزاء ! ما بالنا نتشاجر ونتباهى ونحقد بعضنا على بعض لاساءة نالته . ألا فلنخرج الى الحديقة فنبتهج ونحب بعضنا بعضاً ! ألا فليتغن كل منا بفضائل أخيه ! ألا فلنتعانق ونبارك الحياة !» قال الطبيب لأمى حين شيعته الى درج الباب : «لن يعيش ابنك طويلاً . لقد اختل من المرض عقله» . وكانت غرفته تطل على الحديقة الظليلة المليئة بالاشجار العتيقة التى نبتت على فروعها البراعم ، وكانت أوائل عصافير الربيع التى وصلت منذ زمن قصير تزقزق وتغرد تحت نوافذه ، فكان يتأملها طويلاً ويعجب بها كثيراً ، حتى لقد أخذ فى ذات يوم يستغفرها هى أيضاً قائلاً لها : «أيتها العصافير التى خلقها الله ، أيتها

الطيور السعيدة ، اغفرى لى أنت أيضاً ، لأننى أذنبت فى حقك» . وبدا لنا هذا أمراً لا سبيل الى فهمه قط ، وكان هو يبكى عطفاً وحناناً . وقال فرحاً : «نعم ، لقد كانت عظمة الله مبسوطة أمامى : الطيور والأشجار والمراعى والسماوات . الا أنا ، فقد كنت أعيش فى الخزى والعار ، مسيئاً الى شرف الخليقة ، ولم أكن أرى جمال الحياة وسناءها» . فكانت أمى تقول له باكية : «انك تتهم نفسك بخطايا كثيرة» ، فيقول لها : «أماه يا فرحة نفسى ، اننى من سعادة لا من حزن أبكى . وددت لو أكون مذنباً فى حق العصافير الصغيرة ! لا أستطيع أن أشرح لك هذا ، لأننى لا أعرف كيف أحبها . ألا فلأكن مذنباً فى حق الجميع ، واذن فسيغفر لى الجميع أيضاً . تلك هى الجنة . ألست الآن فى الجنة ؟»

وكان يقول أشياء أخرى أصبحت لا أتذكرها . دخلت ذات يوم الى غرفته وكان وحده . كان ذلك فى المساء ، والجو صاح مضىء ، والشمس الغاربة تغرق الغرفة بأشعتها المائلة . فلما رآنى أشار الىّ أن أقترب ، ثم وضع يديه على كتفى وتأملنى طويلاً متفرساً فى عينى ، وقد بدا فى وجهه حب وحنان . وانقضت على ذلك دقيقة دون أن ينطق بكلمة ثم أسبل يديه وقال لى : «هيّا العب الآن وابتهج ! اننى أريد أن تحيا عنى !» خرجت ومضيت ألعب ، ولكننى كثيراً ما فكرت أثناء حياتى ، والدموع فى عينى ، فى هذا الأمر الذى أصدره الىّ ، وهو أن أحل محلّه فى هذا العالم . وفى مرات كثيرة بعد ذلك عبّر عن عواطف رائعة سامية رفيعة ، لم نكن نفهمها كثيراً فى ذلك الحين . وانطفأ فى الاسبوع الثالث بعد عيد الفصح ، واعيا كل الوعى ، صاحياً كل الصحو ، ورغم أنه أصبح لا

يتكلم فى أواخر أيامه ، فقد ظل على ما كان عليه حتى ساعته الأخيرة ، ينظر الينا سعيداً فرحا مبتسما ، ويبحث عنا وينادينا بعينيه . وقد تكلم الناس عن موته كثيراً فى مدينتنا . وأثر هذا الحادث فى نفسى ولكن بدون افراط ، وان أكن قد ذرفت دموعاً سخينة يوم الجنازة . لقد كنت صغيراً جداً ، كنت طفلاً ، ولكن ذكرى هذا الأخ ستظل قائمة فى أعماق قلبى ، لتنتصب أمامى متى آن الأوان ، نداء من الملأ الأعلى . هكذا جرت الأمور فعلاً .

ب) — أثر الكتاب المقدس فى حياة الأب زوسيما

بقيت وحيداً مع أمى . ولم يلبث أصدقاء طيبون أن قالوا لها انها تحسن صنعاً ، بعد أن لم يبق لها الا ابن واحد ، وما هى محرومة من الموارد بل تملك اموالاً ، أن ترسل هذا الابن الى بطرسبرج للدراسة ، على غرار ما تفعل أسر نبيلة أخرى ، وأكد هؤلاء الأصدقاء أنها ، اذا هى احتفظت بابنها الى جانبها فى مدينة صغيرة ، تعرضه للحرمان من مستقبل لامع . وأقنعوا أمى أخيراً بأن تسجلنى فى «المدرسة الحربية» ببطرسبرج ، لأكون فى المستقبل ضابطاً من ضباط الحرس الامبراطورى . وقد ترددت أمى كثيراً فى العزم على فراق ابنها الأخير ، ولكنها اتخذت قرارها أخيراً وهى تبكى ، معتقدة أنها بذلك تؤمن سعادتى . وقادتنى الى بطرسبرج فألحقتنى بالمدرسة الحربية هذه ، ثم لم أرها منذ ذلك الحين ، لأنها ماتت بعد ثلاث سنين ، وهى فى أثناء تلك الفترة لم تنقطع

عن البكاء حزناً على ابنها الفقيد ، ولا انقطعت عن الارتعاد قلقاً على مصير ابنها الباقى . وقد احتفظ خيالى بذكريات مضيئة عن المنزل الذى عشت فيه مع أمى ، لأن أصفى مشاعر القلب الانسانى هى المشاعر التى يكون قد أحسَّها فى سنى طفولته فى بيت أبويه . الأمر كذلك دائماً متى كان الحب والوفاق مسيطرين على حياة الأسرة . ولكن ذكريات الطفولة يمكن أن تكون ذكريات سعيدة حتى فى الأسر الممزقة متى كانت النفس قادرة على أن ترى وأن تجنى من عناصر الوجود ما هو طيب نبيل . ولقد ارتبطت سيرة القديسين بذكريات طفولتى ، لأننى كنت أهتم بها أثناء طفولتى فى المنزل العزيز اهتماماً كبيراً . كنت أملك كتاباً فيه صور جميلة عنوانه : «مائة وأربع قصص مستمدة من التوراة والانجيل» ، وفى هذا الكتاب انما تعلمت القراءة . وما يزال هذا الكتاب عندى حتى الآن ، هو هناك ، على الرف ، وأنا أحافظ عليه محافظتى على أثر ثمين جداً من آثار الماضى . على اننى أتذكر أن التجلى الروحى الأول الذى شعرت به انما كان قبل تعلمى القراءة ، ولم أكن قد تجاوزت الثامنة من عمرى حينذاك . لقد قادتنى أمى الى الكنيسة للصلاة فى يوم الاثنين من «أسبوع آلام السيد المسيح» (لا أدرى الآن أين كان أخى حينذاك) . النهار صحو ، وما زلت أرى حتى هذه اللحظة ، كأن الأمر قد وقع أمس ، ما زلت أرى أدخنة البخور تتصاعد بطيئة نحو القبة ؛ وفى أعلى الكنيسة كانت أشعة شمس الاله تنفذ من نافذة ضيقة هابطة نحونا ، فكانت أدخنة البخور كأنها تندفع لاستقبالها أمواجاً مشفقة ، ثم تنصهر فى الضياء الذهبى أخيراً . كنت أتأمل هذا المشهد معجباً ، وأحسست أن بذرة «كلمة الرب» تُغرس

فى نفسى . وتقدم مراهق الى وسط المعبد . كان يحمل كتاباً كبيراً يبلغ من الثقل أن الفتى كان يبدو أنه ينوء بحمله . وضع الفتى الكتاب على منضدة الترتيل ، ثم فتحه وأخذ يقرأ . فهمت فى ذلك اليوم ، لأول مرة فى حياتى ، ما يُقرأ فى الكنيسة : كان يعيش فى أرض عوص ، رجل تقى صالح يملك من الثروات كذا وكذا ومن النوق كذا ، ومن الخراف والحمير كذا وكذا . وكان أولاده سعداء فرحين ، وكان يحبهم كثيراً ، ويصلى من أجلهم للرب . هل ارتكب هؤلاء الأولاد خطيئة ما فى سعادتهم ؟ ذلك أن ابليس مثل يوماً أمام الرب مع ابناء الله وقال له انه طاف الارض كلها وما تحت الارض . فسأله الرب : «هل رأيت عبدى أيوب ؟» وتباهى الرب أمام ابليس بقداسة عبده العظيم أيوب . ولكن ابليس ضحك وأجاب : «مكّنى منه فترى أنه سيعصيك وسيلعن اسمك» . فمكّن الرب ابليس من عبده الأمين الذى كان يحبه الرب كثيراً ، فضرب الشيطان قطعانه ، وضرب أولاده ، ودمر ثرواته ، وأرسل اليه جميع المصائب دفعة واحدة ، كأن صاعقة من عند الله قد نزلت على داره . مزّق أيوب ثيابه ، وارتمى على الارض صائحا : «لقد خرجت من بطن أمى عارياً ، وعاريا سأعود الى الأرض . وهب الرب لى كل شىء ، والرب يسترد ما وهب . تبارك اسم الرب ، الآن وفى كل حين !» يا آبائى ومعلمىّ ، سامحونى اذا رأيتمونى أسكب العبرات فى هذه اللحظة . ان طفولتى تنبثق الآن أمامى ، حتى ليخيل الى أننى أتنفس كما كنت أتنفس فى طفولتى بذلك الصدر الصغير ، صدر الطفل الذى لم يتجاوز السنة الثامنة من عمره . ان ذلك الانفعال نفسه الذى أحسست به يومذاك يغزونى فى هذه اللحظة ،

فاذا أنا مدهوش مفتون كما كنت مدهوشاً مفتوناً فى ذلك اليوم البعيد بالكنيسة . لقد أحدثت تلك النوق تأثيراً قوياً فى خيالى ، وأذهلتنى قصة الشيطان الذى كلّم الرب ، وشدهنى قرار الرب أن يمكّن الشيطان من عبده الأمين ، وكذلك هتاف العبد مخاطباً ربه : «تبارك اسمك ، رغم أنك تعاقبنى» . ثم تصاعدت فى الكنيسة أغنية رقيقة جداً : «سمع الله لصلاتى» . وارتفعت أدخنة البخور ، وركع المصلون ! ومنذ ذلك الحين أصبحت لا أستطيع أن أقرأ تلك القصة المقدسة — وقد حدث لى هذا أمس أيضاً — الا وتنسكب الدموع من عينى . ما أروع العظمة والسرّ الخارقين اللذين ينبعان من هذا النص ! لقد اتفق لى أن سمعت نقداً لهذا النص من أناس يقبّحون الدين ويثلبونه ، أناس أعماهم غرورهم ، قالوا : «كيف يمكّن الربُّ الشيطانَ من قديسه الأثير ، فيستهزئ الشيطان بالقديس ، ويخطف أولاده ، ويرسل اليه الأمراض ، ويغطى جسمه بالقروح ، حتى صار يزيح القيح عن قروحه بشقفة من فخار ؟ أكل هذا من أجل أن يتباهى الرب أمام الشيطان قائلاً : «انظر ماذا يستطيع أن يتحمله واحد من أوليائى الصالحين فى سبيل محبتى !» ؟ لقد غاب عن هؤلاء الناقدين أن عظمة هذه القصة انما هى فى هذا السرّ الذى يتأكد فيها ! ان المظاهر العرضية للحياة الارضية تلامس فى هذه القصة الحقيقة الابدية . فمن خلال ما يبدو لنا على انه واقع الأرض ، يتجلى فعل حقيقة أبدية تفوق هذا الواقع . ان الخالق فى هذه القصة يتصرف كما تصرف فى الأيام الاولى من الخلق حين قال انه ابدع فيما صنع . انه ينظر الى ايوب ويزهو من جديد بخلقه . وأيوب الذى يمجد الرب لا يخدم الرب وحده بل

20-1089

يخدم الخليقة أيضاً ، من عصر الى عصر ومن جيل الى جيل ، فذلك هو ما يُسر له . رباه ما اروعه سفراً ، وما أروعها تعاليم ! ما أعظم الكتاب المقدس ، وما أكبر تلك القوة والمعجزة اللتين يهبهما للانسان ! لكأنه صورة الكون والانسان . كل شيء قد قيل فيه واعلن لقرون . ما أعظم الأسرار التي يكشف عنها ويحلها ! ان الرب يرد السعادة الى أيوب ، ويهب له ثروات جديدة ، وتنقضي أعوام فيولد له أولاد آخرون يحبهم أيضا . رباه ! قد يتساءل متسائل : «فكيف استطاع أن يحبهم وقد غاب أبناؤه الأول الى غير رجعة ؟ هل يمكن أن يشعر بانه سعيد حقاً بين اولاده الجدد ، مهما يكونوا أحبةً في قلبه ، اذا هو تذكر اولئك الذين غابوا الى الابد ؟» الحق أنه كان يستطيع أن يشعر بالسعادة ، لأن الآلام القديمة تهدأ بمرور الزمن ، ويطامنها سرُّ الطبيعة الانسانية الكبير ، وتستحيل شيئاً فشيئاً الى افراح ساجية . ان الدم الذي يغلي في سن الشباب يفسح المجال في الشيخوخة لهدوء ساكن . انني أبارك في جميع الأيام طلوع الشمس ، وان قلبي ليبتهج بشروقها كما كان يبتهج به في الماضي ، ولكنني أوثر اليوم مجد الكوكب الغارب وأشعته المائلة التي توقظ في نفسي ذكريات بعيدة عذبة ، وتحيي أطياف الماضي الحبيبة من حياة طويلة مباركة . ففوق هذه الذكريات تحلق الحقيقة الالهية التي تهدئ وتصالح وتبرئ ! سوف أموت ، أنا أعرف ذلك وأفهمه ، ولكنني أحس في كل يوم يوهب لي بأن حياتي الأرضية تندفع نحو حياة جديدة ، مجهولة ، لا نهاية لها ، ولكنها منذ الآن قريبة يملأ الاحساس بها نفسي اعجابا ، ويبكي قلبي فرحاً ويشع عقلي . . . يا أصدقائي ومعلميّ ! لقد سمعت من يقول ، سمعت ذلك

مرارا وأسمعه الآن أكثر من أي وقت مضى ، ان الكهنة ، ولا سيما كهنة الأرياف يشكون مرَّ الشكوى من أن رواتبهم غير كاف ، ومن أن منزلتهم الاجتماعية وضيعة ، قائلين بل كاتبين — وقد قرأت ذلك بعينيَّ — أنهم أصبحوا عاجزين عن شرح الانجيل للشعب ، بسبب قلة رزقهم . «اذا جاء لوثريون أو هراطقة فأضلوا رعايانا ، فليفعلوا ذلك ، لأننا لا نجني من الرزق ما يكفينا» . هكذا يقولون . يا عدالة السماء ! ألا انني لأسأل الرب أن يربي رواتبهم هذا الذي يحرصون عليه ذلك الحرص كله (لأن شكواهم لا تخلو من حق) ولكنني أقول مخلصاً : من المسئول عن هذا الوضع ان لم نكن نحن المسئولين عنه الى حد ما ؟ انني أسلم بأن القس في الريف مثقل بأعباء العمل والطقوس ، وليس لديه وقت فراغ . ولكنني أرى أن وظيفته وعمله لا يشغلانه الى الحد الذي يعجز فيه عن أن يقف على الرب ولو ساعةً من وقته في الأسبوع . ثم انه لا يعمل طوال السنة بلا انقطاع . ألا فليجمع في داره ، مرةً في الاسبوع ، ساعة المساء ، ألا فليجمع الأطفال في أول الأمر ، فاذا بآبائهم يعلمون ذلك فيجيئون هم أيضا . لا حاجة الى أن يكون هناك مكان خاص يُعقد فيه هذا الاجتماع . ما على القس الا أن يجمع الناس في منزله الفقير نفسه . وليس له أن يخاف ، فانهم لن يفسدوا مسكنه ! ما ساعةٌ في الأسبوع ؟ ألا فليفتح التوراة المقدسة فيقرأ لهم فيها بغير فصاحة مصطنعة أو كلام متفيهق ! فليقرأ قراءةً بسيطة طبيعية ، مبتهجاً بأن الناس يسمعونه ويفهمونه ، ممتلئاً بحب النص المقدس . وفي وسعه أن يتوقف عن القراءة من حين الى حين ليشرح معنى كلمة لا يعرف معناها أبناء الشعب . وليكن على يقين من

أنهم سيفهمون بسرعة ، لأن الروح الارثوذكسية تحس الحقيقة احساسا سريعا . ان القصص التى تروى حياة ابراهيم وسارة ، واسحق وربيكا ، ويعقوب الذى ذهب الى عند لابان . ، وقال بعد أن اصطرع مع الرب فى الحلم : «هذا مكان رهيب» ، ان هذه القصص ستمضى قدماً الى العقل النقى ، عقل البسطاء . يجب أن تقص عليهم ، وعلى الأطفال خاصةً ، قصة الفتى الجميل الفتان يوسف . ، النبى الكبير ، مفسرّ الأحلام ، كيف باعه اخوته ثم زعموا لأبيهم أن وحشاً أكله ، وأظهروا أباهم على ثيابه الملطخة بالدم ، وكيف سافر اخوته بعد ذلك الى مصر التماسا للخبز ، وكان يوسف قد أصبح فيها عظيماً من عظماء رجال فرعون ، ولكنهم لم يعرفوه ، فاضطهدهم ، واتهمهم وحبس بنيامين الفتى ، رغم ما يكنه لهم من حب : «انني أحبكم ، وانى لأعذبكم وأنا أحبكم» . ذلك أنه لم يستطع أن ينسى اليوم الذى باعه فيه اخوته لأناسٍ من تجار العبيد ، فى سهل مقفر ، قربَ بئر ، بينما كان يضرع اليهم باكيا عاقفاً ذراعيه أن لا يتركوه للعبودية فى أرض غريبة . فلما رآهم بعد ذلك العدد الكبير من السنين أحسّ بحبه لهم ينبعث فى قلبه ، ولكنه عذبهم بسبب تلك الذكرى المرة ، وتركهم أخيرا وانصرف ، لأنه لم يعد قادرا على أن يحتمل الشكاة التى تصدر عن قلبه هو نفسه . وارتمى على سريره وأجهش باكيا ، ثم جفف وجهه وعاد اليهم هادئ النفس مشرق المحيا وقال لهم : «يا اخوتى ، أنا يوسف أخوكم» . وليقرأ القس للناس تتمة القصة : كيف سُرَّ يعقوب حين عرف أن ابنه لم يمت ، وكيف سافر هو أيضا الى مصر ، هاجراً الارض التى وُلد فيها ، ومات على تراب غير تراب وطنه ، تاركاً فى وصيته

أكبر وعد سيتحقق للانسانية على مدى العصور ، كاشفاً عن السر الذى كتمه طول حياته فى قلبه المتواضع الوجل ، ألا وهو الوعد الذى يبشر الانسانية بأنه سيولد من نسله هو ، من يهوذا ، فى يوم من الأيام انسان هو أمل العالم ، وهو للانسانية مخلّصها وفاديها . ! يا آبائى ومعلميّ ! اغفروا لى أننى أذكركم ، كتلميذ صغير ، بأشياء تعرفونها منذ زمان طويل ، ويمكنكم أن تعلّمونيها بأحسن مما أفعل فناً وعلماً ! لقد اندفعت مع الحماسة . واغفروا لى دموعى ، لأننى أحب هذا السفر . واذا استطاع القس أن يبكى هو أيضا أثناء القراءة ، فلسوف يرى مدى أثر ذلك فى نفوس سامعيه قوة انفعال وعمقَ عاطفة . ألا ان بذرة لتكفى مهما تكن صغيرة . فاذا بُذرت فى قلب البسطاء ، لم تفن بعد ذلك يوماً ، وانما هى تعيش فى نفوسهم وتظل تثمر طوال حياتهم ، من أعماق ظلمات ضلالاتهم وخطاياهم ، نقطة ضياء ، وذكرى عظيمة . لا حاجة الى شروح طويلة واستطرادات متعالمة يتيه فى شعابها الفكر . ان أبناء الشعب يفهمون الأمور ببساطة كبيرة . أتظنون أنهم عاجزون عن ذلك ؟ قوموا اذن بهذه التجربة ، اقرأوا لهم تلك القصة الجميلة المؤثرة ، قصة أستير الرائعة وفاستى المتكبرة . ، أو اقرأوا لهم تلك القصة الرائعة عن يونس فى جوف الحوت . . ولا تنسوا كذلك رموز الرب ، ولا سيما رموز الانجيل كما وردت فى كتاب القديس لوقا . (وذلك ما كنت أفعله دائما) ، وبعد ذلك اقرأوا لهم من اعمال الرسل دعوة شاول . (هذا لا بد منه ، لا بد منه) واقرأوا لهم فى كتاب الشهداء حياة ألكسى ولى الله ، وكذلك حياة كبرى الشهيدات مريم القبطية . . فلسوف ترون مدى تأثير هذه القصص البسيطة فى قلوبهم ! تكفى

ساعة فى الأسبوع ، ساعة واحدة ، رغم قلة الراتب . فاذا ارتضى القس بذل هذا الجهد لم يلبث أن يدرك أن لشعبنا نفساً كريمة تعترف بالجميل . لسوف يرد اليه الفلاح معروفه مضاعفاً مائة مرة . لسوف يتذكر نشاط القس وقراءاته المؤثرة ، فاذا هو يهب من تلقاء نفسه الى مساعدته فى أعماله فى الحقل أو المنزل . ولسوف يمحضه احتراماً متزايداً ، وهذه المزايا ، مجتمعة ، تساوى زيادة فى الدخل ، ذلك حل يبلغ من السهولة فى الواقع أن المرء يستحى أحيانا أن يقترحه ، مخافة أن يُضحَك عليه . ومع ذلك فهذه هى الحقيقة ! ان من لا يؤمن بالله لا يؤمن بشعبه أيضاً . ولكن الذى لا يشك فى شعبه ، لن يلبث أن تتجلى له قداسة روح الشعب ، ولو لم تخطر على باله يوما قبل ذلك . ان مثقفينا الملحدين ، الذين أصبحوا غرباء عن الأرض التى أنبتتهم ، لن ينقذهم ولن يردهم الى طريق الرشاد الا شعبنا الذى ستتأكد قوته الروحية فى يوم من الأيام . ما قيمة أقوال المسيح اذا لم تسندها قوة القدوة ؟ ألا ان الشعب ليهلك ويفنى ما لم تنجده الكلمة الالهية ، لأن الشعب ظامئ الى هذه الكلمة ، والى مثل أعلى أخلاقى رفيع . فى أثناء شبابى ، منذ أكثر من أربعين عاما ، طفت أرجاء روسيا بصحبة الأب آنفيم نجمع المعونات لديرنا الفقير . ففى ذات يوم ، توقفنا ليلا عند شاطئ نهر كبير من الأنهار الصالحة للملاحة ، بين الصيادين . فجلس الى جانبنا فتى مليح الوجه هو فلاح فى نحو الثامنة عشرة من عمره كان يتعجل الالتحاق بعمله فى الغد ، لأنه قد استؤجر لجر سفينة تجارية . كان الفتى ينظر أمامه حالماً بعينيه الصافيتين الحلوتين . الليلة ساجية حارة ، هى ليلة مشرقة مضيئة من ليالى شهر يوليو . ومن

النهر العريض تتصاعد أبخرة تحمل الينا طراوة منعشة . وتنبجس سمكة الى سطح الماء من حين الى حين ، فتتلاطم الأمواج تلاطماً خفيفا . سكتت العصافير ، فكأن الطبيعة كلها تصلى لله صامتةً فى هذه الهدأة التى ترين من حولنا على الأرض والسماء . ونحن وحدنا لم ننم ، أنا وهذا الفتى . تحدثنا عن جمال خلق الله وعن سره ، عن الأعشاب والنمل والحشرات والنحل المذهب ، عن جميع هذه المخلوقات التى تعرف طريقها جميعا فى هذا العالم ، دون أن يكون لها ذكاء ، فاذا هى بهذا العلم المعجز تشهد بعظمة صنع الله وتساهم فى كل لحظة ، بعملها المتواضع ، فى تحقيق الغايات العليا للخالق . فلاحظت أن هذا الشاب اللطيف المحبب قد تأثر تأثراً قوياً وأن نفسه التهبت حماسة وحمياً . وأسرَّ الىَّ بأنه يحب الغابات وطيورها ، لأنه كان هو نفسه صائد طيور ويعرف تغريد جميع أنواعها ، ويعرف كذلك وسائل اجتذابها . قال لى : «لا شىء أروع من الغابة ، وكل شىء فى الطبيعة جميل على كل حال» فأجبته قائلاً : «هذا صحيح . كل شىء فى خليقة الله رائع ومؤثر ، لأن كل شىء فيها حق . انظر الى الحصان مثلاً ، هذا الحيوان النبيل المتعلق بالانسان ذلك التعلق كله ، أو انظر الى الثور الخاضع المطرق الذى يطعم الانسان ويعمل من أجله . ما أعذب هذه الحيوانات الأليفة ، ما أكرم عاطفتها نحو أصحابها الذين كثيرا ما يضربونها بغير شفقة ، ما ألطف الوداعة والثقة اللتين تتجليان فى نظراتها ! أليس هذا جميلاً ؟ انه لأمر مؤثر فى النفس أن تتذكر أن هذه الحيوانات هى بلا خطيئة ، لأن كل ما فى الكون برئ كامل الا الانسان . لقد كان المسيح مع الحيوانات ، قبل أن يجىء ليخلصنا» . فسألنى هذا الفتى :

«هل تعتقد حقاً أن المسيح معها أيضا ؟» فأجبته قائلا : «وكيف لا يكون الأمر كذلك ، ما دامت الكلمة للجميع ان كل مخلوق ، ان كل من تنفس ، حتى أحقر ورقة من أوراق الأشجار ، يطمح الى كلمة الخالق ويسبّح بحمده . ان كل شيء فى الطبيعة يندفع نحو المسيح ، ويناديه على غير شعور ، لأنه يملك هذه الفضيلة السرية ، وهى أنه بغير خطيئة . انظر فى الغابة الى الدب ، المخيف الضارى دون أن يكون مسئولاً عن ذلك !» قلت له هذا وقصصت عليه أن دباً اقترب ذات يوم من قديس عظيم . كان يعيش معتزلاً فى صومعة صغيرة وسط الغابة . فأشفق الناسك على الوحش الجائع ، فهبّ الى لقائه بغير وجل ، ومدّ اليه قطعة من خبز كأنما يقول له : «كُلْ في سلام ، وليكن المسيح معك» ، فابتعد الوحش الضارى طائعاً دون أن يلحق بالقديس أى أذى . تأثر الفتى تأثراً شديدا من أن الدب انصرف دون أن يهجم على القديس ومن أن المسيح كان معه . وصاح يقول : «ما أروع هذا ! ما أروع كل شيء اذن فى خلق الله !» وظل مطرقاً مفكراً خلال مدة طويلة ، غارقاً فى تأملات لطيفة وأحلام عذبة . رأيت أنه فهمني . ثم استلقى قريبا منا ونام نوما بريئا هادئاً . بارك الرب فى الشباب ! صليت من أجله قبل أن أنام أنا أيضا . ربِّ ابعث السلام والأمن والضياء الى جميع مخلوقاتك !

ج) — ذكريات سنى الشباب التى عاشها الشيخ زوسيما فى العالم . المبارزة

لبثت فى المدرسة الحربية ببطرسبرج زمناً طويلاً يقرب من ثمانى سنين . ان التربية التى تلقيتها فى تلك المدرسة قد كبتت فى نفسى كثيرا من مشاعر الطفولة ، ولكننى لم أنس تلك المشاعر حقاً . وفى مقابل ذلك أكسبتنى هذه التربية أفكارا وعادات جديدة جعلت منى انسانا يكاد يكون متوحشا ، انساناً قاسيا أحمق . وبتعلم اللغة الفرنسية تزينت بآداب المجتمع وطُليت بطلاء من حضارة . أما الجنود الذين كانوا يخدموننا فقد كنا جميعا ، وأنا أيضا ، نعدّهم بهائم ؛ ولعلنى كنت أسبق من غيرى فى ذلك ، لأننى كنت فى كل أمر من الأمور أكثر تأثراً بالبيئة من سائر رفاقى . ولما أصبحنا ضباطا كنا مستعدين لأن نبذل دمنا فى سبيل شرف كتيبتنا ، ولكننا كنا نجهل كل الجهل ما هو الشرف حقاً . ما من أحد منا كان يملك أية فكرة عنه ، فلو قيل لنا ما هو الشرف حقاً لرفعنا أكتافنا استخفافا واحتقاراً ولكنت أنا أوّل من تصرف هذا التصرف . وكنا نكاد نعتز بما ننهمك فيه من سكر ومجون ، وما نندفع فيه من وقاحة واستهتار . ليس معنى هذا أننا كنا فى قرارة أنفسنا أشراراً . فلقد كان فى هؤلاء الشباب خير طبيعى فطرى ، ولكنهم كانوا يسلكون سلوكاً سيئاً ، وكنت أنا فى ذلك شراً من سائر رفاقى . وفى تلك الفترة استلمت ثروتى ، فأخذت أعيش على ما يريد لى هواى وخيالى ، مندفعاً اندفاع الشباب بغير أى تحفظ أو قصد . لقد مخرت ناشراً جميع أشرعتى . ولكن الشيء الغريب هو أننى كنت أقرأ فى كثير من الأحيان ،

حتى لقد كنت أجد فى القراءة لذة ومتعة . ومع ذلك لم أفتح التوراة يوما غير أننى لم أفارقها ، وانما كنت أحتفظ بها قريبة منى فى تنقلاتى ، كأنما أنا أنوى أن أقرأها «فى يوم من الأيام وساعة من الساعات ، فى شهر من الأشهر وسنة من السنين» . وبعد أربع سنين من الخدمة ، وجدت نفسى فى مدينة لـ . . التى كانت كتيبتنا تعسكر فيها . ان المجتمع فى هذه المدينة كبير العدد متنوع الملأ . وكان أكثر هؤلاء أناساً أغنياء لطافاً يعيشون حياة فرح وبهجة . وقد أحسنوا استقبالى لأننى مرح بطبيعتى . يضاف الى ذلك أنهم كانوا يعدوننى ثرياً ، وذلك أمر يقدره المجتمع قدراً عظيماً . وهنا انما حدث لى حادث كان له أثر حاسم فى مصيرى . فقد تولهت بحب فتاة جميلة ذكية نبيلة الخلق يتمتع أهلها باحترام كبير ، فهم ينعمون بالثراء ، ولهم صلات عالية . وقد أحسن أهلها وفادتى . وأحسست أن الفتاة ليست غير مكترثة بوجودى ، فالتهب خيالى من ذلك التهابا شديدا . ولقد أدركت فيما بعد أننى لم أكن أحبها فعلاً ، وانما كنت مفتتناً بذكائها وسمو طبعها ورفعة خلقها ، وتلك أمور ما كان لها الا أن تؤثر فى نفسى . وقد منعتنى أنانيتى من خطبتها آنذاك ، اذ صعب علىَّ أن أتنازل فى مثل تلك السن من ريعان الشباب ومع توفر المال عمَّا فى حياة العازب الحرة المتحللة من الاغراءات . لذلك اقتصرت على بعض التلميحات الخفية ، وأرجأت الخطوة الحاسمة الى ما بعد . وفى أثناء ذلك تلقيت أمرا عسكريا بالسفر مدة شهرين الى مقاطعة أخرى . فلما عدت عرفت أن الفتاة تزوجت فى غيابى . لقد تزوجت رجلاً غنيا من أصحاب الأملاك فى ضواحى المدينة ، وهو أكبر منى سناً ولكنه ما يزال شاباً ،

كما أن له صلات فى العاصمة وفى المجتمع الراقى ، وذلك ما لم يكن لى مثله . ثم انه عدا هذا رجل لطيف محبب جدا مثقف جدا ، على حين أن ثقافتى أنا كانت ناقصة نقصاً كبيراً . وقد بلغت من الاضطراب لهذا الحادث ما جعلنى أتصور أننى فاقد بسببه صوابى . وكان أنكى ما آلمنى اننى علمت أن الرجل خطيب الفتاة منذ زمن طويل . ولقد حدث أن قابلته فعلاً فى منزل أهلها مرارا كثيرة دون أن يخطر ببالى شىء ، من شدة ما أعمانى غرورى . وقد أحنقنى هذا الأمر وأغاظنى أكثر من أى شىء عداه . تساءلت : كيف ؟ أيعلم ذلك جميع الناس الا أنا ؟ وشعرت من ذلك بحقد شديد . لقد شعرت بالدم يصعد الى جبهتى حين تذكرت تصريحات الحب التى أوشكت أن أقولها لها مرارا . ان الفتاة لم توقفنى بل تركتنى أتكلم دون أن تنبئنى بأنها مخطوبة . فاستنتجت من ذلك أنها كانت تسخر منى وتضحك علىَّ . وقد فهمت فيما بعد أن الأمر لم يكن كذلك قط وتذكرت أنها ، على خلاف ما توهمت ، كانت تقاطعنى فى كل مرة مازحةً ، وتغير موضوع الحديث ، غير أننى عجزت فى ذلك الحين عن أن أحكم فى الأمر حكماً سليماً ، فكنت أحترق توقاً الى الانتقام . وانى لأتذكر الآن ، بغير قليل من الدهشة ، أن ذلك الغضب وذلك التوق الى الانتقام اللذين شعرت بهما كانا شاقين على نفسى ، لأن خفة طبعى كانت لا تتيح لى أن أظل حاقداً على الناس مدة طويلة . فصرت أحرِّض استيائى وحنقى تحريضا مصطنعا حتى أصل أخيرا الى اندفاع أخرق سخيف . ارتقبت فرصةً أنتقم فيها لنفسى ، واستطعت فى ذات مساء ، بينما كنا فى مجتمع غفير ، أن أهين «غريمى»

في أمر لا علاقة له في الظاهر بشخصي . سخرت من رأيه في موضوع حدث كان قد وقع وهزَّ أفكار الناس كثيراً في ذلك العهد « — كنا في عام ١٨٢٦ — وكانت سخرياتي — في رأي الحضور — مُحكمة حاذقة فكهة — ثم طلبت منه أن يصفي حسابه معي بمبارزتي ، وبلغت من الفظاظة والغلظة أثناء ذلك انه لم يملك الا أن يقبل التحدي رغم كل ما بيني وبينه من مسافة ، فأنا أولاً أصغر منه سناً ، وأنا ثانيا ضابط صغير لا قيمة له في حين أنه يحتل هو مركزا اجتماعيا عالياً جداً . وقد علمت فيما بعد أن شيئا من الغيرة قد دفعه الى قبول التحدي . فمن جهة أولى كان هو قبل ذلك الحين ، أثناء خطوبته ، قد ساءته ملازمتي لخطيبته ، وهو من جهة ثانية يخشى الآن ، اذا علمت زوجته بأنه تحمل اهاناتي دون أن يبارزني ، أن تحتقره على غير ارادة منها ، وأن يتزعزع من ذلك حبها له ، ولم ألبث أن عثرت على شاهد لي بغير عناء ، وهو رفيق من رفاقي كان ملازماً في كتيبتي نفسها . ولقد كانت المبارزات رائجة جدا بين الضباط في ذلك الزمان ، رغم أنها محظورة محرّمة ، وهذا يدل على مدى ترسخ الأحكام الاجتماعية الباطلة في النفس الانسانية . كنا في أواخر شهر يونيو ، وحُدِّد الغد موعدا للقاء ، في الساعة السابعة من الصباح ، على أرض مهجورة خارج المدينة . ووقع لي في ذلك المساء حادث لا أستطيع الا أن أعده تدخلاً من القدر . فحين عدت الى مسكني في ساعة متأخرة من الليل مهتاجاً اهتياجاً شديداً ، ثرت على الجندي الذي يخدمني ، واسمه آفاناسي ، ثورة شديدة ، وصفعته بكل قوتي مرتين ، حتى أخذ الدم يسيل من وجهه . ان آفاناسي يخدمني منذ زمن غير طويل ، ولقد سبق أن ضربته

من قبل ، ولكنني لم أضربه بقسوة وحشية كهذه المرة . صدِّقوني يا أصدقائي الأعزاء اذا قلت لكم : انني ما زلت الى اليوم ، بعد أكثر من أربعين عاما ، لا أستطيع أن أتذكر سلوكي حينذاك الا وأشعر بخزي وعار وألم عميق . وقد رقدت فنمت زهاء ثلاث ساعات . فلما استيقظت كان الصبح قد تنفس . فأسرعت أرتدي ملابسي لأن النوم قد طار من عيني ، واقتربت من النافذة ففتحتها . ان النافذة تطل على الحديقة . وقد أخذت الشمس تطلع في الأفق . والجو جميل دافئ ، والعصافير تغرد . سألت نفسي : «لماذا هذا الاحساس الغريب في نفسي بالخزي والعار والاشمئزاز ؟ ألأنني سأسفح دم انسان ؟ لا . . . يبدو أن هذا ليس هو السبب . أأكون اذن خائفا من الموت أخشى أن أُقتل ؟ لا ، لا ، ليس هذا هو السبب ، ليس هذا هو السبب أبدا . . .» وفجأة أدركت علة ذلك الضيق الذي كنت أشعر به : لقد كنت أحس بعذاب في ضميري لأنني ضربت آفاناسي في الليلة البارحة ! تراءى لي المشهد بجميع تفاصيله على حين بغتة : كان آفاناسي واقفاً أمامي ، منتصب القامة ، مرفوع الرأس ، جاعلاً يديه على درزة سرواله ، وأنا أهوي على وجهه بالصفعة تلو الصفعة بكل ما أوتيت من قوة . وكان هو يحدِّق أمامه كأنه في استعراض عسكري ، ولا يجرؤ أن يرفع ذراعه ليحمي وجهه رغم أنه يرتجف عند كل صفعة . انظروا الى أي حالة يمكن أن يردَّ الكائن الانساني ! كيف يستطيع انسان أن يرضى ضرب أخيه الانسان ؟ يا لها من جريمة ! شعرت كأن ابرة تنفذ في جسمي . انني أرى الآن كيف كنت واقفاً أمام النافذة مشدوهاً مصعوقاً . كانت الشمس في الخارج تتلألأ ، وكانت عصافير صغيرة تغرد ببراءة ، مسبحة بحمد

الرب . . . وهأنذا أخفى وجهى بيدىَّ على حين فجأة ، وأرتمى على سريرى ناشجاً منتحباً . لقد عاودتنى فى تلك اللحظة ذكرى أخى ماركيل ، وخطرت ببالى الكلمات التى قالها للخدم قبل موته بقليل : «يا أصدقائى الطيبين ، ماذا فعلت حتى أستحق أن تخدمونى ؟ ما الذى يجعلنى جديرا بعاطفتكم ؟» وقلت لنفسى : «ما الذى يجعلنى أنا أيضا جديرا بأن يخدمنى قرينى الانسان ؟» وحاصرت هذه الفكرة عقلى فجأة . فأخذت أتساءل : «لماذا يجب على انسان شبيه بى ، انسان خُلق مثلى على صورة الله ، أن يكون خادمى ؟ ما الذى جعلنى جديرا بذلك ؟» لقد طرحت على نفسى هذا السؤال لأول مرة فى حياتى . «أماه ، يا حَمَلى الوديع ، ان كل انسان مرتكب جميع الذنوب فى حق جميع الناس . . البشر لا يعرفون هذا . . ولو ارتضوا أن يعترفوا به لأصبحت الأرض جنة منذ الآن !» تساءلت من خلال دموعى : «أيجوز حقاً يا رب أن أكون مرتكباً جميع الذنوب ، وأن أكون أكبر الناس اثماً ؟ انى اذن لأسوأ الناس طراً !» وتراءت لى الحقيقة فجأة فى ضياء باهر ! ما الذى كنت أريد أن أفعله ؟ أن أقتل انسانا طيبا ذكيا نبيل الخلق لم يمسسنى بسوء ولم يلحق بى أذى ، وأن أحرم زوجته من السعادة الى الأبد فى الوقت نفسه ، فأسلمها للعذاب وأدمر روحها ! وكنت أثناء استسلامى لهذه التأملات راقداً على سريرى ، دافناً وجهى فى الوسائد ، لا ألاحظ أن الوقت كان ينقضى . وها هو ذا رفيقى الملازم يظهر فى غرفتى فجأة حاملاً الىَّ المسدسات . قال لى : «أنهضت من نومك ؟ أحسنت . . . ما يزال فى الوقت متسع . هيَّا بنا !» اضطربت ، وزاغ لبى ، لكننى تبعته ؛ وفيما كنا نوشك أن نركب العربة التى كانت

تنتظر أمام المنزل ، عدلت عن الركوب فجأة ، وقلت لرفيقى شارحاً : «انتظرنى لحظة ، أنا عائد الى البيت لأجىء بمحفظة نقودى التى تركتها فيه» . وأسرعت قدماً الى الغرفة الصغيرة التى يسكنها خادمى الجندى . قلت له : «آفاناسى ! لقد صفعتك على وجهك مرتين أمس . سامحنى !» ارتعش حين سمع كلامى كأنه قد خاف . وشعرت عندئذ أن ذلك ليس كافيا ، وأن بادرتى لا تتناسب والأذى الذى ألحقته به ، فاذا أنا أخضع فجأة لاندفاعة مباغتة فأرتمى على قدميه بملابسى الفخمة حتى لامست جبهتى الأرض ، وأقول له صائحاً : «سامحنى يا آفاناسى !» بدا آفاناسى مصعوقاً ، وأخذ يقول : «يا صاحب النبالة . . يا أبتاه . . . يا مولاى . . . كيف يمكنك أن . . . أنا لست جديراً بهذا . . .» وأخذ يبكى هو نفسه ، كما بكيت أنا منذ قليل ، دافناً وجهه فى يديه . واستدار نحو النافذة ، مرتعشا من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، غارقاً بدموعه . وهرعت ألحق برفيقى الملازم الذى كان ينتظرنى فى العربة . صحت أقول للحوذى : «سِرْ» ، وأضفت مخاطباً رفيقى : «هل تريد أن ترى الغالب ؟ انه أمامك !» كنت أشعر بحماسة شديدة وظللت أضحك بغير انقطاع أثناء الطريق ، وأتكلم بلا توقف ، أخبط فى الكلام خبط عشواء . . . لا أتذكر ماذا قلت . وكان رفيقى ينظر الىَّ راضياً مرتاحاً . قال لى : «أرى انك شجاع ! لسوف تشرِّف بزتنا العسكرية» . ووصلنا الى أرض المعركة ، حيث كنا نُنتظر . ووضعنا أنا وخصمى على بعد اثنتى عشرة قدماً . وكان عليه هو أن يطلق النار أولاً . وقابلته جذلاً فرحاً ، وأنا أنظر الى عينيه فأشعر أن قلبى يفيض حباً له . لم تطرف عينى . كنت واثقاً مما سأفعله . أطلق النار . خدشت الرصاصة

خدى خدشاً خفيفاً ، ولامست أذنى ملامسة . صحت أقول : «الحمد لله ! أنك لم تقتل أخاك !» ثم تناولت مسدسى فرميته ورائى فى اتجاه الغابة ، وأنا أقول : «هذا هو مكانك !» ثم التفت نحو خصمى وقلت له : «سيدى ! اغفر لى اننى أسأت اليك بغير سبب لطيشى وخفتى ، ثم أجبرتك على أن تطلق علىَّ النار . أننى لا أساويك ولا أعدلك ، فأنت خيرٌ منى عشر مرات ، وربما أكثر من ذلك . قل هذا عن لسانى للانسان الذى تقدره أكثر من أى انسان آخر فى هذا العالم» . فما أن نطقت بهذه الكلمات حتى أخذ الثلاثة يصرخون . قال خصمى وقد بدا عليه حتى شىء من الغضب : «ما معنى هذا ؟ ما كان ينبغى أن تزعجنى اذا لم تكن تنوى أن تقاتل ؟» فأجبته قائلاً بمرح : «لقد كنت حتى الأمس غبياً أحمق ، ولكننى صرت ذكياً عاقلاً بعد ذاك» . فقال : «أما انك كنت بالأمس غبياً أحمق ، فهذا أمر أسلّم به ، وأما أنك أصبحت ذكياً عاقلاً ، فهذا ما لا يبدو صحيحاً اذا نحن نظرنا الى سلوكك» . قلت وأنا أصفق بيدىَّ : «مرحى ! اننى أوافقك على ما تقول . لقد استحققت أن أسمع هذا الكلام !» قال ملحاً : «أأنت عازم على أن تطلق النار يا سيدى أم لا ؟» فأجبته : «لن أفعل . ولك أن تطلق مرةً ثانية اذا كنت تحرص على ذلك ، ولكنك تحسن صنعاً اذا أنت لم تطلق» . اضطرب الشاهدان ، ولا سيما صاحبى : «كيف تجرؤ على أن تلطخ شرف كتيبتنا بالعار ؟ أتطلب الصفح وأنت على أرض المعركة ؟ آه . . . ليتنى تنبأت بهذا !» كففت فى هذه المرة عن الضحك ، وقلت لهم جميعا وأنا أنظر فى أعينهم : «سادتى ! أعجيبٌ الى هذا الحد حقا أن يوجد فى

أيامنا هذه رجل يستطيع أن يندم على خطيئة ارتكبها ، وأن يعترف بها أمام الناس ؟» فصاح صاحبى يقول من جديد : «لا . . . ولكن هذا لا يكون على أرض القتال» . فاستأنفت كلامى قائلاً : «وهذا هو المدهش فى الأمر ، فقد كان يجب علىَّ فى الواقع أن أعتذر اليه منذ وصلت ، قبل أن يطلق علىَّ النار ، وذلك لأجنبه ارتكاب خطيئة قاتلة . ولكن من المؤسف أننا قد نظمنا حياتنا على تصورات تبلغ من السخف أنه كان يستحيل علىَّ أن أفعل ذلك ، فاننى ما كنت لأستطيع أن أتكلم آملاً أن أفهم حق فهمى الا بعد أن أطلق علىَّ النار من على بعد اثنتى عشرة قدما ؛ والا لكان يمكن أن تعدونى جبانا خاف من مسدس وغير جدير بأن يُسمع كلامى» . ثم هتفت فجأة أقول مندفعاً بكل نفسى : «أيها السادة ! تأملوا خلق الله من حولكم : السماء الصافية ، والهواء النقى ، والعشب الطرى ، والطيور المغردة ! ان الطبيعة تنبسط أمامكم رائعة بغير خطيئة . ونحن وحدنا ، معشر الكافرين والأغبياء ، لا نستطيع أن نرى أن الحياة جنة . يكفى أن نعقد النية على أن نعرف هذه الحقيقة حتى تحلَّ هذه الجنة فورا بكل سنائها وبهائها وجمالها . ألا فلنتعانق ولنبك . . .» كنت أريد أن أتابع كلامى ، ولكننى أمسكت وقد انقطعت أنفاسى . شعرت بانفعال شديد لذيذ يتدفق صباً ، وكان قلبى يفيض سعادةً لا عهد لى بمثلها من قبل . قال خصمى : «كلامك فيه عقل وتقى . . . لا شك فى أنك انسان طريف جدا» . فأجبته ضاحكا : «اسخر منى الآن ، ولكنك ستطرينى فى المستقبل» . قال : «بل أنا مستعد لأن أثنى عليك منذ الآن . اسمح لى أن أمد اليك يدى ، لأنك فيما يبدو لى انسان صادق جدا» . قلت :

«لا . . . لا تمدد لي يدك الآن . . . وانما تمدها لي في المستقبل ، بعد أن أصلح نفسي وأستحق تقديرك . . . يومئذ تصافحني وتكون على حق اذا صافحتني» . وعدنا الى المنزل . كان شاهدي حانقاً فهو لا ينفك يقرعني في العربة . أما أنا فكنت أقبّله . وما أن علم رفاقي بما حدث حتى اجتمعوا ليحكموا عليّ . قال بعضهم : «لقد لطخ شرف بزتنا العسكرية بالعار ، فعليه أن يستقيل» . ودافع بعضهم الآخر عني قائلا : «ولكنه صمد أمام اطلاق النار عليه دون أن يختلج» . فقال الآخرون : «غير أنه جبن بعد ذلك ، وخاف استئناف تبادل الرصاص فاعتذر على أرض المعركة» . فأجاب المدافعون عني قائلين : «لو أنه خاف لأطلق النار عليه من مسدسه أولاً قبل أن يعتذر ، أما وأنه رمى مسدسه في الغابة محشواً بالرصاص فهذا دليل أن الأمر ليس كذلك ، وانما هو شيء آخر جديد طريف» . وكنت أصغي اليهم ، فتملؤني أقوالهم فرحاً ، ثم قلت لهم آخر الأمر : «يا أصدقائي ورفاقي الأعزة ! لا يقلقنكم أمر استقالتي ، فقد أرسلتها الى المكتب منذ هذا الصباح ، وسأدخل الدير متى قُبلت الاستقالة» . فما ان سمعوا هذه الكلمات حتى انفجروا يضحكون ضحكاً صاخباً : «كان ينبغي أن تقول هذا من قبل . الآن اتضح كل شيء . ليس يحاكم راهب» . كان رفاقي يضحكون ولكن بغير خبث ، انهم يضحكون وهم يشعرون نحوي بشيء من العطف والحنان . ومنذ تلك اللحظة أصبحوا جميعا يظهرون لي المحبة والمودة ، حتى أعتاهم اتهاماً لي وأقساهم حكماً عليّ . واحتفلوا بي في الكتيبة طوال الشهر الذي انقضى بين تقديمي الاستقالة واحالتي على التقاعد . كانوا يقولون : «هذا راهبنا» . وأصبح كل واحد منهم يخاطبني

بأقوال فيها محبة وعطف ، محاولا أن يصرفني عما عزمت عليه ، بل ومشفقاً عليّ : «لماذا تفسد حياتك هذا الافساد ؟» — «لا بل انه شجاع . لقد جابه اطلاق النار عليه وكان في وسعه أن يرد ، ولكن لا شك أنه رأى في منامه حلماً أثناء الليلة التي سبقت يوم النزال فقرر أن يدخل الدير» . وكان الأمر كذلك في المدينة أيضا . لقد كان الناس في الماضي يحسنون استقبالي وكفى . أما بعد ذلك الحادث فقد أصبحوا يهتمون بي جميعا . انهمرت عليّ دعواتهم الى ولائم يقيمونها لي . صحيح أنهم يسخرون قليلاً من قراري ، ولكنهم يحبونني . ويجب أن أذكر أن السلطات قد أغمضت أعينها عن حادث مبارزتنا ، رغم أن هذه المبارزة أصبحت مدار حديث الناس جميعا ، وذلك لأن خصمي يمت الى جنرالنا بقربى قريبة . ثم انه ما من دم قد سفح ، بل كان الأمر أشبه بمزحة ! وقد استقلت . . . لذلك عُدّت المغامرة مزحة فعلا . وقد تجرأت فقررت أن أعبّر عن آرائي بغير تحرج ، رغم سخريات أبناء المجتمع الراقي التي لم تكن سخريات خبيثة شريرة والحق يقال ، بل كانت سخريات بريئة طيبة . وكانت تجري تلك الأحاديث عادةً في المساء ، بحضور السيدات ، لأن اهتمام النساء بي كان أكبر من اهتمام الرجال ، فكان يحلو لهن أن يصغين الى كلامي ، وكنّ يجبرن رجالهن على أن يصغوا اليّ كما يصغين هنّ . كنت أُسأل بلهجة ساخرة : «كيف تزعم أنني مرتكب جميع الذنوب في حق جميع الناس ؟ أأنا الذي اقترف أخطاءك مثلا ؟» فكنت أجيبهم بقولي : «لا تستطيعون أن تدركوا هذه الحقيقة اليوم ، لأن المجتمع قد سار منذ زمان بعيد في طريق خطأ ، فرفع الى مصاف الحقائق ضلالات

بيّنة ، وطلب من أعضائه أن يتبنوا هذه الأحكام . هذا أنا مثلاً : لقد أردت مرةً في حياتي أن أتصرف تصرفاً صادقاً ، فاذا أنا أصبح في نظركم اشبه بعبيط . ومهما تحبوني ، فانكم تظلون تسخرون مني» . قالت سيدة المنزل ضاحكة : «كيف يمكن أن لا يُحبَّ فتى مثلك ؟» كان الجمع غفيراً جداً في ذلك المساء ، ولمحت فجاةً ، بين السيدات الحاضرات ، تلك المرأة التي أردت بسببها أن أبارز ، والتي كنت أحلم أن تكون خطيبتي قبل ذلك بقليل . لم أكن قد لاحظت وصولها . وها هي ذي تنهض وتدنو مني وتمد اليَّ يدها وتقول لي : «اسمح لي أن أقول لك انني أوّل من لا يخطر بباله لحظةً أن يسخر منك . بالعكس : انني لأحرص على أن أعرب لك عن شكري متأثرة أصدق التأثر ، أن أعبِّر لك عن تقديري واحترامي للسلوك الذي سلكته في ذلك الظرف» . وجاء اليَّ زوجها أيضا ، وتبعه سائر المدعوين . كادوا يقبلونني جميعا . اجتاح الفرح نفسي . ولاحظت خاصةً ، بين الأشخاص الذين أظهروا لي مودتهم وعاطفتهم ، سيداً متقدما في السن بعض الشيء ، كنت أعرف اسمه منذ زمن ، ولكنني لم أقدَّم اليه ، فلم أخاطبه قبل ذلك المساء بكلمة واحدة .

د) — الزائر الغامض

كان يشغل منصبا هاما في مدينتنا منذ سنين كثيرة . انه شخص مرموق ، غني ، يتمتع باحترام عام ، اشتهر ببره واحسانه ، فقد وهب لملجأ الفقراء ولمأوى الايتام مبالغ ضخمة .

وكان عدا ذلك يقوم بأعمال البر ، متخفيا متكتماً ، حتى أن ذلك لم يُعرف الا بعد موته . انه في نحو الخمسين من عمره ، وهو قليل الكلام ويوشك مظهره أن يكون صارما . وقد تزوج منذ عشر سنين فحسب ، وامرأته ما تزال شابة ، وله منها ثلاثة أولاد كانوا صغارا في ذلك الحين . في غد ذلك المساء الذي جرى فيه الحديث ، كنت في منزلي ، فاذا بالباب يفتح فجأة ، واذ بي أرى هذا السيد يدخل عليَّ .

يحسن أن أذكر هنا أنني كنت قد غيَّرت مسكني . فانني بعد احالتي على التقاعد قد استأجرت غرفة في دار امرأة عجوز هي أرملة موظف من الموظفين ، فكانت خادمة هذه العجوز تقوم على خدمتي . والحق انني ما تركت منزلي القديم الا لأنني في يوم المبارزة نفسه ، ما ان رجعت الى منزلي في ذلك الصباح حتى صرفت آفاناسي وأرسلته الى الثكنة ، لأنني أصبحت لا أجرؤ أن أنظر اليه بعد الذي حدث بيننا . انظروا الى مدى هيمنة الأفكار السائدة على انسان من أبناء المجتمع لم يتهيأ للحياة الروحية الأخلاقية ! ان هذا الانسان يمكن أن يحمر خجلاً حتى من أنبل الأفعال وأجدرها بالاحترام .

قال لي هذا السيد : «لقد أتيح لي أن أسمعك عدة مرات في منازل صديقة كثيرة ، فكنت أصغي الى كلامك باهتمام عظيم في كل مرة . وانني لأحب أن أحظى بمعرفتك لأتحدث معك بمزيد من التفصيل . فهل تمنُّ عليَّ بهذا الفضل ؟» أجبته قائلاً : «ذلك يسرني أعظم السرور ، وهو لي شرف كبير» . ومع ذلك فقد شعرت بشيء من الخوف . فمن النظرة الأولى اذهلني هذا الرجل . صحيح أنني كنت قد ألفت أن يكون لي مستمعون كثيرون ، وأن هؤلاء المستمعين كانوا في كثير

من الأحيان يصغون الى كلامى باستطلاع واهتمام ، ولكن ما من أحد منهم قد واجهنى حتى ذلك الحين بهيئة فيها هذا الجد كله وهذا النفاذ كله . أضف الى ذلك أن الرجل قد جاء الى بيتى بنفسه . قال لى بعد أن جلس : «لقد تبينت فيك قوة خلقية كبيرة ، لأنك لم تخش أن تخدم الحقيقة فى ظروف تعرضك لاحتقار الجميع» . فأجبته : «لعلك تقدرنى فوق قدرى فى هذه القضية» . فقال : «لا . . . فان القيام بعمل كهذا العمل أصعب مما تظن . — وتابع يقول : — لقد أثر سلوكك فى نفسى تأثيراً قوياً ، وهذا هو السبب الوحيد الذى دفعنى الى زيارتك . أحب لو أسألك أن تصف لي — ما لم تر ذلك فضولاً منى فى غير محله — ما شعرتَ به لحظة قررت أن تعتذر اليه على أرض القتال ، اذا كنت تتذكر مشاعرك . أرجو أن لا تعزو سؤالى هذا الى طيش منى ، فهناك غايات خفية تدفعنى الى القاء هذا السؤال عليك ، وسأشرحها لك اذا شاء الله أن يقرب بيننا» .

كنت أثناء استرساله فى هذا الكلام أنظر اليه بانتباه ، فشعرت فجأة بثقة عميقة به ، حتى لقد أحسست أنا أيضا باستطلاع قوى ، لأننى قدرت أن فى نفسه سراً خاصاً . قلت له : «قبل أن أذكر لك ما شعرت به لحظة اعتذارى الى خصمى على أرض المعركة ، أحسب أن من المفيد أن أروى لك كيف تسلسلت الأحداث منذ البداية تسلسلاً لا يعرفه أحد الى الآن» . وأطلعته على ما وقع لى مع آفاناسى ، ورويت له كيف أننى سجدت أمامه ، وقلت أختم كلامى : «تستطيع أن تفهم بعد هذا أن موقفى فى لحظة المبارزة كان سهلاً ، لأننى كنت قد رجعت الى الاحساس بالحقيقة وأنا فى منزلى ،

فلما سرت فى هذا الطريق لم يكن عليَّ الا أن أتابع المضيَّ فيه ، وسلوكى بعد ذلك لا يتصف بأنه لم يكلفنى أى عناء فحسب ، بل كان الى ذلك مصحوباً باحساس بالسعادة والفرح» .

أصغى الرجل الى كلامى بانتباه ، وقال وفى نظرته اليَّ مودة : «هذا كله شائق جدا ، وسأعود اليك لأتحدث معك مرارا» . وأصبح يجيء اليَّ كل مساء تقريبا . وكان يمكن أن تتوثق بيننا عرى الصداقة ، لو أنه حدثنى عن نفسه أيضا . ولكنه لم يكد يفضى اليَّ بشيء عن حياته ، وكان لا يزيد على أن يسألنى عن حياتى أنا . ومع ذلك فقد أحببته كثيراً ، وفتحت له قلبى كله ، قائلاً لنفسى اننى فى غير حاجة البتة الى معرفة سره ، وحسبى أن أعلم أنه رجل بارّ . وأرضانى أن أرى رجلاً أكبر منى سناً ، رجلا يبلغ هذا المبلغ من الجد ، ثم هو لا يحتقر صحبة شاب مثلى ، بل يجيء اليه فى منزله . . . وقد تعلمت منه أشياء هامة كثيرة ، لأنه كان على جانب كبير من الذكاء . قال لى فجأة ذات يوم : «أما أن الحياة جنة ، فذلك ما أفكّر فيه منذ زمان طويل» . ثم أضاف فجأة : «بل اننى لا أفكر الا فى هذا» . ونظر اليَّ مبتسماً . «حتى اننى أشد اقتناعا بذلك منك ، لأسباب ستعرفها فيما بعد» . كذلك أضاف يقول بعد قليل . وقدّرت وأنا أصغى اليه انه ربما كان يريد أن يفضى اليَّ ببعض أسراره . واستأنف كلامه قائلاً : «ان كلاً منا يحمل فى نفسه جنةً مدفونة ! ان هذه الجنة قائمة فى نفسى وان تكن مختبئة . وحسبى أن أريد ، حتى أجعلها تنبجس منذ اليوم فأحتفظ بها طوال حياتى» . كان يتكلم بشيء من التأثر ؛ وفى نظرته الغامضة رأيت ما يشبه

أن يكون سؤالاً مستتراً . وتابع كلامه يقول : «انه لصحيح كل الصحة أن كل انسان مرتكب كل الذنوب فى حق كل الناس ، هذا عدا خطاياه الخاصة . تلك حقيقة كبرى عبَّرت عنها ، ولا يسعنى الا أن يدهشنى أنك استطعت أن تكتشفها كاملةً ، دفعةً واحدة . ومن المحقق أن ملكوت السموات سيكون واقعا لا حلماً فحسب ، فى اليوم الذى تفهم الانسانية فيه هذه الحقيقة» . فهتفت أقول بمرارة : «متى يحدث هذا ؟ هل يجيء ذلك اليوم حقا ؟ أليس ذلك أملاً لا أكثر ؟» — «أانت لا تؤمن بهذا اذن ؟ أتبشر بالحقيقة ثم تستسلم للشك ؟ ألا فاعلم أن ما تسميه أملاً سيتحقق لا محالة . كن من ذلك على ثقة ! على أن هذا لن يتحقق اليوم ، لأن لكل فعل ميقاته وقانونه . لا بد أن تتغير الانسانية تغيراً نفسيا وأخلاقيا . لن يكون من الممكن أن يتبدل العالم ما لم يكتسب البشر روحاً جديدة ، وما لم يتجهوا فى طريق جديد . لن يكون على الأرض أخوة ما لم يشعر المرء بأنه اخ لكل انسان حقاً . لن يستطيع البشر فى يوم من الايام أن يقتسموا ثرواتهم بالعدل لا عن طريق العلم ولا عن طريق المنفعة . ان كل واحد سيجد نصيبه أصغر مما يستحق أن يكون له من نصيب ، وان الحسد والحقد سيسودان فيدفعان البشر الى أن يفنى بعضهم بعضا . تسألنى متى يتحقق ملكوت السموات على الأرض . فاعلم أنه سيتحقق فى يوم من الايام ، ولكن ذلك لن يكون قبل انتهاء **عهد عزلة الانسانية**» . — «أية عزلة تعنى ؟» كذلك سألته . «العزلة التى تسود فى جميع الميادين ، ولا سيما فى عصرنا هذا . ان عهد العزلة هذا لم ينته بعد ، لم يحن حينه . ان كل انسان فى هذا العصر يجهد فى سبيل أن يتذوق الحياة

كاملةً داخل ذاته ، مبتعداً عن أقرانه . ولكن هيهات أن تؤدى هذه الجهود الى تذوق الحياة كاملةً ، فهى لا تقود الا الى فناء النفس فناء كاملاً ، لأن الانسان بدلاً من أن يتفهم ذاته تفهماً كاملاً يستغرق فى عزلة تامة . لقد انحل المجتمع فى عصرنا الى افراد يعيش كل منهم فى جحره كوحش ، ويهرب بعضهم من بعض ، ولا يفكرون الا فى أن يخفوا ثرواتهم بعضهم عن بعض . وهم يصلون من ذلك الى أن يكره بعضهم بعضاً ، والى أن يصبحوا جديرين بالكره هم أيضاً . ان الانسان يكدِّس الخيرات فوق الخيرات فى العزلة ، وتسره القوة التى يحسب أنه يملكها بذلك ، قائلاً لنفسه ان أيامه قد أصبحت بذلك مؤمَّنة مضمونة ، انه لا يرى ، لحماقته ، أنه كلما أوغل فى التكديس كان يغوص فى عجز قــاتل . ذلك أنه يتعود أن لا يعتمد الا على نفسه ، ويفقد ايمانه بالتعاون ، وينسى فى عزلته القوانين التى تحكم الانسانية حقاً ، وينتهى من ذلك الى أن يرتعد فى كل يوم خوفاً على ماله الذى أصبح فقدانه يحرمه من حقوقه . لقد غاب عن ذهن البشر تماماً فى أيامنا هذه أن الأمن الحقيقى للانسان فى الحياة لا يتحقق بجهده الفردى المنعزل ، وانما باتحاد الجهود البشرية العامة . ان عهد العزلة الرهيب هذا سينتهى حتماً فى يوم من الايام ، وسيفهم البشر دفعة واحدة مدى تناقض العزلة مع طبيعتهم الحقيقية ، وستهب على الانسانية يومئذ نفحة جديدة ، وستتساءل مدهوشة يومئذ : كيف أمكنها أن تعيش طوال هذه المدة فى ظلمات الضلالة لا ترى النور ؟ وعندئذ سوف تظهر علامة ابن الانسان فى السموات . . . وانما المهم أن نحافظ على علَمه الى أن يجيء ذلك الحين ، وأن نحاول ، ولو بالقدوة الفردية ،

أن نخلِّص النفس من عزلتها بزرع المحبة الأخوية حتى لو كنا فى منزلة العبطاء . ما ينبغى أن ندع لهذه الفكرة العظيمة أن تموت . . .»

هكذا كانت تنقضى ليالينا فى أحاديث مشبوبة متحمسة . وأصبحت أهمل مجتمع المدينة شيئاً بعد شىء ، وأصبحت لا ألبـى دعوات الناس الا لماماً . ثم أن الحماسة لشخصى كانت قد بدأت تزول . ولست أقول ذلك لائماً ولا عاتباً ، لأن الناس ظلوا يحبوننى ويحسنون وفادتى . ولكن يجب أن نعترف بأن «الموضة» تلعب فى المجتمع دوراً كبيراً . أما زائرى الغامض فقد أصبحت أحمل له مع مرور الزمن اعجاباً شديداً . كنت أشعر أمام ذكائه بنشوة قوية ووجد عظيم ، وكنت أحس أنه ينضج مشروعاً سرياً أو يتهيأ لعمل كبير . ولعله قدَّر فيَّ أننى لا أتدخل فيما لا يعنينى فضولاً ، فاننى لم أحاول ، لا على نحو مباشر ولا على نحو غير مباشر ، أن أستدرجه الى حيث يُسِرّ اليَّ بشىء من أمره . ولكننى لاحظت أخيراً أن سره يثقل على صدره ، وأنه يحترق شوقاً الى أن يفتح لى قلبه ، أو ذلك هو على الأقل ما شعرت به شعوراً واضحاً كل الوضوح بعد شهر . قال لى يوماً : «هل تعلم أن الناس فى المدينة يثرثرون كثيراً عنا ، وأنهم يدهشون لزياراتى المتكررة لك ؟ لا ضير على كل حال ، فان **كل شىء سيتضح قريباً**» . وكان يتفق له فى بعض الأحيان أن ينتابه اضطراب شديد ، وكان فى مثل تلك اللحظات ينهض فى الغالب لينصرف . وكان فى مناسبات أخرى يطيل التحديق اليَّ ، ويلقى عليَّ نظرات نافذة ، فأقول لنفسى عندئذ : «ها . . . سيتكلم» ، ولكنه ما يلبث أن يغير الحديث ، ويتطرق الى موضوعات لا

قيمة لها ، أو يقول أشياء معادة مكرورة . وكان يشكو من صداع فى كثير من الاحيان . وفى يوم من الايام ، بعد أن تكلم بكثير من الحرارة ، رأيته يصفرُّ على حين فجأة ، ورأيت وجهه يتقلص ، ورأيته يتفرس فيَّ تفرساً غريباً . قلت له قلقاً :

ــ ماذا بك ؟ أأنت مريض ؟

ذلك أنه كان قد شكا من صداع منذ قليل . فقال :

ــ أنا . . . هل تعلم ؟ أنا . . . أنا قاتل .

وابتسم بعد أن أفلتت منه هذه الكلمة ولكن وجهه كان قد أصبح شاحباً الى درجة البياض . «ما هذه الابتسامة ؟» برق هذا السؤال فى ذهنى ونفذ الى قلبى ، قبل أن يتسع وقتى لأن أرد بشىء . ولكننى شحبت أنا أيضاً . صحت أسأله :

ــ ماذا تعنى ؟

فاستأنف كلامه يقول وهو يبتسم ابتسامة حزينة :

ــ هأنت ذا ترى كم كلفنى هذا الاعتراف الاول من عناء . ولقد تم الاعتراف الآن ، وستكون متابعته أسهل وأيسر . . . فهيَّا أتابع . . .

لبثت زمناً طويلاً لا أصدق ما كان يقوله لى ؛ ولم أستطع أن أصل الى التصديق الا شيئاً فشيئاً ، بعد أن رجع اليَّ ثلاث أمسيات متتاليات ، فروى لى القصة بجميع تفاصيلها . ظننته فى أول الأمر مجنوناً ، ثم أدركت الحقيقة أخيراً بمرارة قوية ودهشة عميقة . لقد ارتكب هذا الرجل فعلاً جريمة قتل رهيبة منذ أربعة عشر عاماً : قتل امرأة شابة غنية ، جميلة جداً ، كانت أرملة رجل من مالكى الاطيان ، وكان لها فى

مدينتنا دار تقيم فيها من حين الى حين . لقد افتتن هذا الرجل بها افتتاناً شديداً ، وتوله بها تولهاً مشبوباً ، وصارحها ذات يوم بحبه ، وحاول أن يقنعها بزواجه . ولكنها كانت تحب رجلاً آخر هو ضابط فى الجيش عالى الرتبة واسع الشهرة كان عندئذ فى حملة حربية وكان عليه أن يعود اليها قريباً . لذلك رفضت عرض صاحبى ، ورجته أن لا يجىء اليها بعد ذلك اليوم أبداً . فلما أصبح لا يستطيع أن يزورها ، تسلل ذات ليلة الى منزلها الذى كان يعرف ترتيبه ، ماراً بالحديقة والسطح ، متهوراً أشد التهور ، معرضاً نفسه لأن يُكتشف . ولكن الحظ واتاه ، كما يحدث هذا كثيراً فى الجرائم الجريئة ، فنفذ الى دارها من كوة فى السطح ، ثم هبط السلم المؤدى من طابق السقف الى شقة السيدة . كان يعلم أن الباب الذى يوجد فى أسفل هذا السلم يظل مفتوحاً فى كثير من الأحيان بسبب اهمال الخدم . وعلى هذا انما كان يعوّل صاحبى ، فصدق حسابه . فلما صار فى الشقة اتجه فى الظلام الى غرفة نوم السيدة ، التى كان يشتعل فيها سراج . وشاءت المصادفة أن تكون وصيفتا السيدة قد خرجتا فى ذلك المساء ، دون أن تستأذناها ، وذلك لحضور حفلة صغيرة تقيمها صديقة لهما تحتفل بعيد شفيعتها وتسكن غير بعيد . أما الخدم والخادمات فقد كانوا ينامون فى غرف الخدم أو فى المطبخ بالطابق الأدنى . فلما رأى المرأة الشابة نائمة اضطرم هواه واستعر ، فاذا بغيرة حانقة ظامئة الى الانتقام تشب فى قلبه ، واذا هو يقترب من السيدة كالسكران ، ويغمد فى قلبها سكيناً وهو لا يدرك ماذا يفعل . لم يتسع وقت السيدة حتى لاطلاق صرخة . ورتب الرجل أموره بمكر شيطانى وحيل رهيبة من أجل أن تقع الشبهات

كلها على الخدم . لم يرض أن يستولى على محفظة القتيل ، وانما فتح أدراج خزانتها مستعينا بمفاتيح وجدها تحت وسادتها ، فاختار من محتويات هذه الأدراج أشياء هى ما يمكن أن يسرقه خادم جاهل . لم يمد يده الى السندات والصكوك والاوراق التى لها قيمة كبيرة ، وانما سرق الأموال النقدية ، وسرق الحلى الذهبية مسترشداً بحجمها ووزنها ، محتقراً التحف الصغيرة الحجم التى يفوق ثمنها ثمن الحلى الذهبية أضعافاً مضاعفة . وسرق كذلك كتذكار عنها بعض الاشياء وسوف نتحدث عنها فيما بعد . حتى اذا أتم جريمته على هذا النحو ، خرج من الدار متبعاً نفس الطريق الذى اتبعه فى الدخول . ولم يخطر ببال أحد على الاطلاق ، لا فى الغد حين اكتشفت الجريمة ، ولا فى أية لحظة من لحظات حياته ، أن يشك فيه باعتباره الجانى الحقيقى . وكان الناس يجهلون حبه للمرأة القتيل على كل حال ، لأنه كان شديد الصمت قليل الكلام ، ولم يكن له أصدقاء يمكن أن يُسرّ اليهم بشئونه . كان الناس يعدونه أحد معارف القتيل لا أكثر ، حتى أنهم كانوا لا يعدونه من معارفها المقربين ، لأنهم لم يروه فى منزلها خلال الاسبوعين الأخيرين قبل وقوع المأساة . وانصبت الشبهات رأساً على خادم قن اسمه بيوتر ، وكانت جميع الظروف تشير اليه وتتهمه . كان هذا الخادم لا يجهل أن المتوفاة — التى لم تكن تخفى ما عقدت نيتها عليه — تريد أن تدخله فى قائمة الفلاحين الذين ستقدمهم للخدمة العسكرية ، أولاً لأنه عازب ، وثانيا لأنه سىء السلوك . وقد سمعه الناس فى احدى الخمارات يطلق أقوالاً يهدد فيها مولاته بالقتل وهو فى حالة سكر شديد وحنق قوى . وقبل وقوع الجريمة بيومين هرب من الدار واختفى فى

المدينة في أماكن مجهولة . وفي غداة الجريمة ، وُجد على الطريق ، غير بعيد عن المدينة فاقدَ الوعي من شدة السكر ، في جيبه سكين ويده اليمنى ملطخة بدم . وقد فسَّر هو ذلك بأن أنفه رعف ، ولكنه لم يُصدَّق . واعترفت الوصيفتان بأنهما غابتا عن المنزل فعلاً ، وأقرّتا بأن باب الدار ظل مفتوحاً حتى عودتهما . وجاءت تفاصيل أخرى مؤيدة لقرائن الاتهام هذه ، فاعتقل الخادم البريء ، وأودع السجن ، وكان سيمثل أمام القضاء لو لا أنه أصيب بحمى حارة بعد أسبوع ، ثم مات في المستشفى قبل أن يفيق من غيبوبته . وأغلق التحقيق ، ولم يبق الا تسليم الأمر لله . . وظل جميع الناس ، القضاة ورجال السلطة وأبناء المجتمع في المدينة ، مقتنعين بأن الجريمة لا يمكن أن يكون قد ارتكبها أحد غير الخادم المتوفى . وعندئذ انما بدأ العقاب .

وقد أسرَّ اليَّ الزائر الغامض ، الذى أصبح في ذلك الحين صديقاً لى ، أنه لم يعرف عذاب الضمير في الأونة الأولى اطلاقاً . صحيح انه تألم زمناً طويلاً ، ولكن ألمه كان حسرة على انه قتل المرأة التى يحبها وعلى أنه فقد الى الأبد أمل فى أن يسعد بقربها ، وكانت نار الحب ما تزال تكوى عروقه . أما أنه سفح دماً وقتل انساناً بريئاً فذلك أمر لم يزعجه كثيراً آنذاك ، ولم يكن يفكر هو فيه الا نادراً . كان اذا تصور أن تلك المرأة كان يمكن أن تصبح زوجة رجل آخر غيره لا يطيق أن يحتمل هذا التصور ؛ وكان لهذا السبب موقناً بأنه كان يستحيل عليه أن يتصرف الا كما تصرف . وقد أثقل عليه اعتقال الخادم فى أول الأمر ، ولكن مرض المتهم ووفاته لم يلبثا أن ردّا اليه هدوءه وطمأنينته ، اذ كان واضحاً (هذا ما كان يقوله لنفسه) أن الخادم

لم يمت بسبب اعتقاله أو بسبب خوفه ، وانما مات بسبب البرد الذى أصابه أثناء هروبه ، حين بات ليلة بكاملها على الأرض الرطبة فاقدَ الوعى من السكر . أما المال والأشياء المسروقة فانه لم يأبه لها قط ، لأنه (هذا ما كان يقوله لنفسه أيضاً) لم يسرقها طمعاً بل تمويهاً . ثم ان قيمة هذه الأشياء المسروقة لم تكن كبيرة جداً ، وسرعان ما وهب لمأوى الفقراء الذى أنشئ فى المدينة في الآونة الأخيرة مبلغاً يساوى قيمة الأشياء المسروقة بل يفوقه كثيراً . وقد فعل ذلك ليهدئ ضميره في موضوع السرقة ، ومما يستحق الذكر أنه استطاع أن يهدئه فعلاً خلال مدة طويلة من الزمن كما أسرَّ هو اليَّ بذلك . واندفع يزاول نشاط مهنته اندفاعاً قوياً فغرق فى هذا النشاط ، واستطاع أن يحصل على أن يُعهد اليه بمهمة صعبة متعبة شغلته خلال سنتين ؛ واذ كان رجلاً جمَّ النشاط فائض القوة فقد أمكنه أن ينسى ما جرى نسياناً يشبه أن يكون كاملاً . وكان اذا راودته ذكراه يبادر الى طرد هذه الذكرى . وقد انصرف أيضا الى البر والاحسان فدعم وأنشأ أعمالاً خيرية كثيرة فى مدينتنا ، وذاع صيته فى العاصمتين ، فانتخب عضواً فى الجمعيات الخيرية بموسكو وبطرسبرج . غير أن قلقاً أليما قد استيقظ فى نفسه بمرور الزمن ، وأخذت ذكرى الماضى تحاصره محاصرة ما تنفك تزداد الحاحاً وما تنفك تنقص اندفاعه فى العمل . وتعرف فى تلك الفترة الى امرأة شابة جميلة ذكية ، أعجبته كثيراً فقرر أن يتزوجها ، آملاً أن يستطيع هذا الزواج أن يطرد كآبته ويبدد قلقه . كان يقول لنفسه انه اذا دخل حياة جديدة وأصبح ينهض ، فى همة ونشاط ، بواجباته نحو امرأته وأولاده ، فانه سيستطيع أن يتخلص من شبح الماضى تخلصاً تاماً . ولكن ما كان يتوقعه لم يتحقق ، وانما تحقق نقيضه .

فانه منذ الشهر الاول من حياته الزوجية شعر بهذه الفكرة تعذبه وتقض مضجعه : «صحيح أن زوجتي تحبني . ولكن كيف عساها تتصرف اذا هي عرفت الحقيقة ؟» وحين أسرّت اليه أول مرة أنها ستصبح أماً اضطرب وقال لنفسه : «أأهب الحياة أنا الذي انتزعت الحياة ؟» ثم لما ظهر الاولاد ، أصبحت تهاجمه وتلازمه أسئلة أخرى : «كيف أجرؤ أن أحبهم وأن أربيهم وأنشئهم كأنني أستاذ يعلم الفضيلة ، في حين انني سفحت دما ؟» وكان أولاده على غاية من الظرف والجمال ، ولكنه كان اذا اشتهى أن يلاعبهم يقول لنفسه : «لست جديراً بأن أتأمل وجوههم الحلوة الطاهرة» . وأخيراً انبجس أمام ضميره طيف المرأة التي قتلها ، انبجس وعيداً مرعباً كأنه نداء الدم المسفوح يهيب الى الانتقام ! وأصبحت توافيه في الليل كوابيس مرهقة . ومع ذلك استطاع بفضل قوة قلبه وثبات جنانه أن يحتمل هذا العذاب زمناً طويلاً ، واستطاع أن يقبله قائلاً لنفسه انه سيكفّر بآلامه الخفية عن خطيئته . ولكن أمله هذا قد خاب أيضاً ، فان القلق الداخلي ما انفك يزداد ويتفاقم . والناس في المجتمع يحترمونه تقديراً لبره واحسانه ، مع تهيبهم قسوة طبعه وانغلاق نفسه . ولكنه كان يزداد شعوراً بالارهاق كلما ازداد شعوراً باحترام الناس له . وقد اعترف لي بأنه فكر في الانتحار غير مرة . غير ان قراراً آخر قد أخذ ينضج في نفسه ، قراراً بدا في أول الأمر حلماً طائشاً مجنوناً ولكنه ما زال يستولي على وجدانه ويترسخ في ضميره حتى أصبح لا يستطيع أن يصرف عنه فكره . كان يقول لنفسه : «يجب أن أنهض وأعلن أمام جميع الناس أنني قاتل» . وظل ثلاث سنين يحمل في خياله هذا الحلم الذي يعاوده في صور جديدة وجديدة بغير انقطاع . وانتهى الى الاقتناع بأنه سيشفي روحه وسيسترد أمنه

الداخلي الى الابد ، اذا هو اعترف بجريمته . ولكن ما ان تأصل هذا الاقتناع فيه حتى غزا الرعب قلبه ، فأصبح يقول لنفسه : «كيف أفعل مثل هذا ؟» وفي ذلك الحين انما وقعت المبارزة بيني وبين ذلك الرجل .

قال لي الزائر :

— حين نظرت اليك وجدت في نفسي القوة على أن أعزم أمري وأتخذ قراري .

نظرت اليه فهتفت أسأله وانا أضمّ يديّ احداهما الى الأخرى :

— هل يمكن حقاً أن يكون حادث تافه كهذا الحادث قد ولّد في نفسك عزيمة كهذه العزيمة ؟

فأجابني قائلاً :

— ان هذه العزيمة كانت تنضج في نفسي خلال ثلاث سنين ، ولم تزد مبارزتك على أن أخرجتها الى النور . انني ازاء المثل الذي ضربته أنت قد استحييت من ضعفي وحسدتك .

كذلك قال بلهجة تشبه أن تكون قاسية . قلت :

— لن يصدّقوك ، فبعد أربعة عشر عاماً ...

— عندي براهين ، براهين رهيبة ، لا يمكن دحضها ... سأقدم هذه البراهين .

بكيت وعانقته .

وقال لي بعد ذلك كأنه يخاطب انساناً يتعلق به مصيره :

— أجبني مع ذلك عن سؤال ، سؤال واحد : ما الذي سيحدث في هذه الحالة لزوجتي وأولادي ؟ قد تموت زوجتي حزناً . أما أولادي فانهم لن تسقط عنهم نبالتهم ولن يحرموا من أموالهم ، ولكنهم سيظلون الى الأبد أولاد سجين محكوم عليه

21-1089

بالأشغال الشاقة . وأية ذكرى سيحفظونها عنى ؟

صمت فلم أقل شيئاً .

وأردف يقول :

— سيكون عليَّ أن أنفصل عنهم وأن أتركهم الى الأبد ! الى الأبد حقاً !

لم أجب بشيء ، وكنت أتلو صلاةً بصوت خافت . ونهضت أخيراً وقد امتلأت نفسى رعباً وفزعاً . سألنى وهو ينظر اليَّ :

— هيه ؟

قلت :

— اذهب واعترف بجريمتك أمام جميع الناس . كل شيء سينقضى وتبقى الحقيقة وحدها . وسيفهم أولادك حين يكبرون مدى ما احتجت اليه من نبل وسموِ روحى فى سبيل اتخاذ هذا القرار .

تركنى فى ذلك المساء وقد بدا عليه واضحاً أنه قد اتخذ قراره .

ولكنه ظل خلال الأسبوعين اللذين أعقبا ذلك ، يجيء اليَّ كلَّ مساء تقريباً ، ويستعد كل يوم لتحقيق ما عقد النية عليه ، حتى اذا جاء الغد جبن فى آخر لحظة عن تحقيق عزمه . وكان تردده يقلقنى ويعذبنى . انه يبدو فى بعض الأحيان ثابت الجنان صلب العزيمة ، فها هو ذا يقول فى رقة وحنان :

— أنا أدرى أننى سأعرف الجنة متى اعترفت بجريمتى . لقد عشت أربعة عشر عاماً فى الجحيم . أريد أن أتألم . سأقبل المحنة وسأستأنف الحياة . الكذب لا يؤدى الا الى الظلمات ، وهو يسد الطريق نحو الضياء الى الأبد ! أنا الآن لا أجرؤ أن أحب حتى أولادى فكيف بالناس ! سيفهم أولادى . . . آه يا

رب ! سيفهمون ما قاسيت ولن يدينونى ! ليس الرب فى القوة ، بل فى العدل .

— سيفهمون القرار الذى اتخذته ، وسيستحسنونه جميعاً ، ان لم يكن فوراً ففى المستقبل حتماً . انك بهذا العمل تخدم الحقيقة ، تخدم حقيقة أعلى من الواقع الأرضى . . .

انصرف بعد ذلك وقد رضيت نفسه واشتد أزره ، ولكننى رأيته فى الغد عائداً اليَّ وقد شحب وجهه وظهر عليه الغيظ . فقال لى بلهجة فيها سخرية :

— كلما دخلت عليك أحسست أنك تتفرس فيَّ كمن يقول لنفسه : «لم يقرر بعد !» صبرك ولا تتسرع فى احتقارى : ان انفاذ هذا الأمر أصعب مما تظن . ومن يدرى ؟ فقد أعدل عنه أخيراً ! أحسب أنك لن تمضى تشى بى !

والحق أننى لم أكن أتفرس فيه مستطلعاً ، فلقد كنت لا أكاد أجرؤ أن أنظر اليه . كانت هذه المأساة الداخلية تُمرضنى ، وكنت أهمُّ أن أبكى فى كل حين ، حتى لأوشك أن أُحرم النوم .

قال يوماً حين وصل اليَّ :

— تركت امرأتى منذ هنيهة . هل تستطيع أن تفهم ما معنى هذه الكلمة : امرأتى ؟ . . لقد صاح أولادى يقولون لى حين خرجت من المنزل : «عد بسرعة يا بابا لتقرأ معنا فى مجلة الاطفال» . لا . . . انك لا تستطيع أن تفهم هذا ! ان شقاء غيرنا يبدو لنا خفيفاً .

وسطعت عيناه واختلجت شفتاه . وضرب المائدة فجأة بقبضة يده ضربةً بلغت من القوة أن الأشياء التى كانت عليها أخذت تهتز . ان هذه البادرة تبدو أمراً خارقاً من رجل يبلغ ما يبلغه هو من وداعة ورقة فى العادة .

هتف يقول :

— أهذا ضرورى فعلاً ؟ أهو مفيدٌ حقاً أن أشى بنفسى ؟ ما الداعى الى هذا الاعتراف ولم يُحكم على أحـــــد بسبب جريمتى ، ولم يرسل برىء الى الاشغال الشاقة بدلاً عنى ، وقد مات ذلك الخادم من مرض ؟ أما الدم المسفوح فاننى أكفر عنه بآلامى وعذابى . ثم انهم لن يصدقونى ، وسيبعدون الأدلة التى يمكن أن أقدمها . ففيم أشى بنفسى ؟ هلاَّ قلت لى فيم أشى بنفسى ! اننى مستعد لأن أتألم طوال حياتى من تلك الجريمة فى نفسى ، شريطة أن لا أجر زوجتى وأولادى معى الى الشقاء . هل من العدل أن أجبرهم على مشاركتى فى العقاب ؟ ألا ترى أننا قد ضللنا طريق الرشاد ؟ أين الحقيقة ؟ وهل هؤلاء الناس جميعاً قادرون حقاً على أن يدركوا الحقيقة ، وعلى أن يقدروها ويحترموها ؟

قلت أخاطب نفسى : «رباه ! انه يهتم بتقدير الناس فى مثل هذه اللحظة !» واجتاحت نفسى عندئذ شفقة شديدة عليه حتى بدا لى أننى مستعد لأن أشاطره مصيره لو كان ذلك يخفف عذابه . لقد انقلبت سحنته انقلاباً رهيباً . وما كان أشد انصعاقى حين أدركت لا بعقلى فى هذه المرة ، بل بروحى وقلبى ، مدى ما يكلفه مثل هذا القرار من ثمن باهظ !

هتف يقول :

— قرِّر مصيرى !

فأجبته هامساً :

— اذهب وأعلن عن جريمتك !

كان صوتى واهناً ضعيفاً ، غير أن فيه حزماً وصلابة . ثم تناولت الكتاب المقدس من على المائدة — فى ترجمته الروسية — ودللته على هذه الفقرة من انجيل يوحنا ، الاصحاح ١٢ ، الآية

٢٤ : «الحقّ الحقّ أقول لكم : ان لم تقع حبة القمح فى الأرض وتمت فهى تبقى وحدها . ولكن ان ماتت فهى تأتى بثمر كثير» . وكنت قد وقعت على هذه الآية قبل زيارته بلحظات . قرأ الآية وقال :

— هذه هى الحقيقة .

ولكنه ابتسم بعد ذلك بمرارة ، وصمت لحظة ثم قال :

— ما أكثر ما يجد المرء فى هذه الكتب ! ما أسهل ما يوضع تحت أنفك كلام كهذا الكلام ! فمن ذا الذى كتب هذا كله ؟ هل يمكن أن يكون الذين كتبوه بشراً ؟

قلت :

— كتبه الروح القدس .

عاد يقول مبتسماً مرةً أخرى ، ولكن ابتسامته فى هذه المرة يكاد يكون فيها كره :

— ما أسهل عليك ان تثرثر !

فتحت الانجيل على موضع آخر ، وأريته الآية ٣١ من الاصحاح ١٠ ، «الرسالة الى العبرانيين» . فقرأ : «مخيف هو الوقوع فى يدى الله الحى» .

قرأ ثم رمى الكتاب وأخذ جسمه كله يرتعد . قال :

— هذه آية رهيبة . يجب أن أعترف لك بأنك أحسنت اختيارها للمناسبة .

ونهض قائلاً :

— الوداع . أغلب الظن أننى لن أجيء اليك بعد اليوم . . . سنلتقى فى الجنة . لقد «وقعت اذن فى يدى الرب الحى» مدة أربعة عشر عاماً . يظهر أن علىَّ أن أسمى هذه الفترة من حياتى هكذا . غداً سأضرع الى تينك اليدين أن تتركانى . . .

ووددت لو أعانقه وأقبله ، ولكننى لم أجرؤ . كانت قسمات وجهه متقبضة وكانت نظرته ثقيلة . خرج . تساءلت : «الى أين يمضى هذا الانسان الآن يا رب !» ، وارتميت جاثياً على ركبتى أمام أيقونة العذراء . صليت باكياً لأم الرب التى تخف الى الشفاعة والحماية . انقضى نصف ساعة دون أن أكف عن الدعاء والبكاء . أوشك الليل أن ينتصف . هذا باب الغرفة يُفتح فجأة ، وهذا صاحبى يظهر من جديد . أذهلتنى رؤيته . سألته :

— من أين جئت ؟

— نسيت . . . أظن أننى نسيت عندك شيئاً . . . هو منديل فى أغلب الظن . وهبنى لم أنس شيئاً ، دعنى أجلس . . . جلس . بقيت واقفاً أمامه . قال لى :

— اجلس أنت أيضاً .

أطعته . لبثنا على هذه الحال بضع دقائق لا نتكلم . كان يحدق الىَّ . وفجأة ، ضحك ضحكة صغيرة . . . أتذكر ذلك . . . ثم نهض ، واقترب منى ، وعانقنى وقبلنى . . . وقال يخاطبنى فى هذه المرة بصيغة المفرد :

— تذكرْ مجيئى الثانى اليك هذه الليلة . لا تنس ذلك . فهمت ؟

تلك أول مرة يخاطبنى فيها بصيغة المفرد . ثم خرج . قلت لنفسى : «انه فاعل غدا» .

لم يخطىء ظنى . كنت أجهل فى ذلك المساء أنه يحتفل غداً بعيد ميلاده . اننى لم أخرج منذ حين الا لماماً ، فلم يذكر لى أحد ذلك . كان يقيم فى كل سنة حفلة كبيرة فى منزله يدعو اليها كل أبناء المجتمع الراقى من أهل المدينة .

وكذلك فعل فى هذه السنة . حتى اذا انتهى العشاء تقدم الى وسط الصالة ، ممسكاً بيده ورقة كتب عليها اعترافاته موجهة الى رؤسائه . كان رؤساؤه حاضرين الحفلة . قرأ تصريحه بصوت عال ، ذاكراً جميع تفاصيل الجريمة التى ارتكبها منذ أربعة عشر عاماً . وختم قراءته قائلاً : «أنا شيطان رجيم . وقد قررت أن أبعد نفسى عن المجتمع . لقد مستنى النعمة الالهية . أريد أن أتألم» . ثم وضع على المنضدة جميع الأدلة التى احتفظ بها خلال تلك السنين ، والتى يأمل أن يبرهن بها الآن على قيامه بجريمته : حلى المرأة القتيل ، التى سرقها تمويهاً ودفعا للشبهات ، والصليب والنيشان (الذى يضم صورة خطيب المرأة القتيل) ودفتراً ورسالتين ، فأما الرسالة الأولى فهى من الخطيب يبلغ فيها خطيبته أنه آت قريباً ، وأما الثانية فهى جواب لم تتم كتابته وقد تركته على منضدتها لترسله الى خطيبها فى الغد . ماذا كان هدفه من أخذ هاتين الرسالتين ؟ وماذا كان الدافع الذى دفعه بعد ذلك الى أن يحتفظ خلال تلك السنين كلها بهذه الأدلة التى تتهمه وتعرضه للخطر بدلاً من أن يتلفها ؟ مهما يكن من أمر ، فاليكم ما حدث : ذُهل الحضور من اعترافاته وانتابهم جزع ، ولكنهم رفضوا أن يصدقوا هذه الاعترافات . صحيح انهم أصغوا اليه بكثير من الانتباه والاستطلاع ، ولكنهم انما أصغوا اليه اصغاءهم الى إنسان مريض . وبعد بضعة أيام كانت المدينة كلها مجمعة على أن المسكين قد فقد عقله . ولئن لم يكن فى وسع رؤسائه ورجال السلطة أن لا يتابعوا الأمر ، فقد ارتأوا أخيراً أنه لا مجال لتحريك القضاء . ذلك أن الرسالتين والأشياء التى قدمها ان كانت تبعث على التفكير ، فلا يمكن أن يُبنى عليها وحدها اتهام ، حتى ولو ثبت أنها مؤكدة ، فمن

الممكن أن تكون القتيل قد عهدت اليه بها كصديق . وقد علمتُ فيما بعد أن أصدقاء الضحية وأقرباءها قد تعرفوا هذه الأشياء ، فلم يبق حول ذلك شك . ولكن القضية لم تحرَّك رغم هذا ، فقد عُلم بعد خمسة أيام أن المسكين قد مرض وأن حياته في خطر . لا أستطيع أن أقول ماذا كان مرضه . وقد تحدث الناس عن اضطرابات قلبية . ومهما يكن من أمر ، فان الأطباء قد فحصوا حالته العقلية أيضاً ، وذلك بالحاح من امرأته ، فانتهوا الى أنه مصاب ببداية جنون . ولم أكشف عن اعترافاته لي طبعاً ، رغم أن جميع الناس قد حاصروني بالأسئلة . وحين أردت أن أزوره مع ذلك أُغلق دوني بابه ، وكانت امرأته خاصة هي التي حالت بيني وبينه . قالت لي : «أنت الذي أدخلت الاضطراب والاختلال الى عقله ! لقد كان دائماً قاتم المزاج ؛ وأصبح اضطرابه النفسي وسلوكه الغريب يقلقاننا منذ عام ، فجئت أنت فأجهزت على عقله ! أنت الذي حشوت رأسه بهذه الأفكار ! انه منذ شهر لا يكاد يخرج من عندك !» ولم يكن هذا شأن امرأته وحدها . لقد هاجمتني المدينة كلها عندئذ وأغرقتني لوماً وتقريعاً . «هذه خطيئتك !» — هذا ما كان يقوله لي الناس في كل مكان . وكنت أصمت فلا أجيب ، وكنت في قرارة نفسي سعيداً . ذلك أنني أدركت أن الرب قد أشفق على الرجل الذي أدان نفسه وأراد أن يلقى جزاءه . أما جنونه المزعوم ، فما كان لي أن أصدقه . وسُمح لي أخيراً بأن أراه ، لأنه أعرب هو نفسه عن هذه الرغبة ملحاً من أجل أن يودّعني . فحين دخلت عليه أدركت منذ اللحظة الأولى أن ساعاته لا أيامه وحدها ، معدودات . كان واهناً ضعيفاً أصفر الوجه مرتعش اليدين يتنفس بكثير من العناء . ولكن نظرته تعبر عن الفرح والهدوء . قال لي :

— تحقق الموعود ! انني انتظرك منذ مدة طويلة ، لماذا تأخرت في المجيء ؟

أخفيت عنه أنني مُنعت من مقاربته .

— لقد أشفق عليَّ الرب فناداني اليه . أنا أعلم أنني سأموت ، ولكن روحي قد عرفت السعادة والسلام أخيراً ، لأول مرة بعد تلك السنين الطويلة كلها . لقد وجدت الجنة في نفسي منذ تكلمت مستوحياً ضميري . أصبحت لا أخشى أن أحب أولادي وأن أقبلهم . ان الناس ترفض أن تصدقني ، ما من أحد يريد أن يسلّم بأنني قاتل ، لا زوجتي ولا قضاتي . وأولادي لن يصدقوا هذا ، هم أيضاً . وفي هذا أرى رأفة الله بأولادي . سوف أموت ، ولكن اسمي سيظل في نظرهم طاهراً لم يدنّس ولم يُلطَّخ . انني أشعر بالله الآن ، وان قلبي لمبتهج كأنني في الجنة . . . لقد قمت بواجبي . . .

لم يستطع أن يكمل كلامه ، فقد انتابه اختناق ، غير أنه شدَّ على يدي بحرارة ، ونظر اليَّ صامتاً ، وقد سطعت عيناه بلهيب . لم نتمكن من اطالة حديثنا ، لأن امرأته تشق الباب بغير انقطاع . واتسع وقته مع ذلك لأن يدمدم قائلاً :

— هل تتذكر أنني جئت اليك للمرة الثانية ، عند منتصف الليل ؟ لقد أوصيتك عندئذ بأن لا تنسى ذلك . . . فهل تعلم ماذا كان هدفي حين جئت اليك ؟ كان هدفي أن أقتلك !

ارتعشت .

— فبعد أن تركتك ، لبثت أطوف في الشوارع على غير هدى زمناً طويلاً أصارع نفسي ، فاذا انا أشعر فجأة بكره لك بلغ من القوة أنني أحسست أن قلبي يوشك أن ينفجر . قلت لنفسي : «بسببه وحده انما أنا مضطر الى الاعتراف الآن . لقد

اصبح قاضيَّ ، ولن أستطيع أن أفلت من العقاب غداً لأنه يعلم كل شيء» . ليس معنى هذا أننى كنت أخشى أن تشى بى (ان هذه الفكرة لم تخطر ببالى فى لحظة من اللحظات) ولكننى كنت أقول لنفسى : «لن أستطيع أن أنظر اليه بعد ذلك اذا أنا لم أسلم نفسى للسلطات» . وسيان أن تكون فى هذه المدينة وأن تكون فى أقصى الأرض ، أصبحت لا أطيق أن أتصور أنك تعيش فى مكان ما عالماً بأمرى حاكماً عليَّ . فأخذت أكرهك ، كما لو كنتَ علّة شقائى ، كما لو كنت مسئولاً عما أنا فيه . ورجعت اليك متذكراً أن عندك على المائدة خنجراً . وجلست ، ودعوتك أن تجلس أنت أيضاً ، ولبثت دقيقة طويلة أفكر وأنا أحدق اليك . بديهى أن حياتى كانت ستتحطم على أى حال لو قتلتك ، وأننى كنت سأنتهى نهاية شقية ، سواء اعترفت بالجريمة السابقة أم لم أعترف . ولكن ذلك لم يخطر ببالى فى تلك اللحظة ، لأننى لم أكن أهتم بالعواقب . كنت أكرهك ، وكانت تحرقنى رغبة قوية فى أن أثأر منك لكل ما كنت قد قاسيته من عذاب . أما ما عدا ذلك فكان لا يعنينى . ثم انتصر الرب فى تلك الدقيقة على الشيطان فى قلبى . ولكن اعلم أن الموت لم يقترب منك فى يوم من الأيام كما اقترب منك فى تلك الليلة .

مات الرجل بعد أسبوع . وشيعت المدينة كلها جثمانه الى المقبرة . وألقى الكاهن كلمات مؤثرة . وانتحب المنتحبون حزناً عليه ، واشتكوا مرَّ الشكوى من المرض الذى أماته . وبعد الجنازة قاموا عليَّ . وأصبحوا منذ ذلك الحين لا يدعوننى الى منازلهم . غير أن عدداً من الأشخاص ، كانوا قلة فى أول الأمر ثـــم تكاثروا بعد ذلك ، قد انتهوا الى الاقتناع بصدق اعترافاته ، فكانوا

يجيئون اليَّ فى كثير من الأحيان يزعجوننى بأسئلتهم عنه ، وقد امتلأت نفوسهم فضولاً شديداً وفرحاً خفياً . ان الانسان يحلو له أن يرى رجلاً صالحاً يسقط ويتلطخ شرفه . أبيت أن أتكلم مع ذلك ، ثم لم ألبث أن بارحت تلك المدينة مبارحة تامة . وبعد خمسة أشهر منَّ عليَّ الرب فوجهنى فى طريق اليقين والنور ، وباركت اليد الخفية التى قادت خطاى نحو الهدف . أما صاحبى ذاك ميخائيل ، خادم الرب ، الذى تألم كثيراً ، فقد ذكرته فى صلواتى كل يوم منذ ذلك الحين ، وما زلت أذكره فيها حتى هذه الساعة .

٣

بعض التعاليم التى عبّر عنها
الأب زوسيما فى أحاديثه

هـ) ـــ حديث عن الراهب الروسى والدور الذى يمكن أن يقوم به

ما الراهب يا اخوتى ومعلميَّ ؟ ان بعض الناس فى الأوساط المثقفة ينطقون بهذه الكلمة فى أيامنا هذه ساخرين ، وان بعضهم الآخر يعدها مسبة واهانة . وسوء الفهم هذا ما ينفك يتفاقم بمرور الزمن . صحيح أن بين الرهبان ـــ يجب عليَّ أن أعترف بهذه الحقيقة وا أسفاه ! ـــ كسالى وفجرة وفاسقين وأفاقون وقحون . فأولئك أناس أشقياء ارتموا فى الأديرة . والمتنورون من

أبناء المجتمع يدلُّون علينا قائلين : «رجال وانون ، لا خيــــر فيكم ولا نفع منكم ، طفيليون ومتسولون لا شرف لكم» . ولكن ما أكثر المتواضعين الوادعين بيننا مع ذلك ! ما أكثر الذين لا يطمحون الا الى أن يصلوا للرب صلاة حارة في عزلتهم الهادئة ! ان الناس لا يلقون بالاً الى هؤلاء كما يلقون بالاً الى أولئك ، حتى أنهم لا يأتون على ذكرهم ولا يتكلمون عنهم البتة . ألا ما أشد الدهشة التي سيشعر بها أولئك الثالبون المشنِّعون اذا هم علموا أن روسيا المقدسة انما سينقذها مرة أخرى في يوم من الأيام هؤلاء الرهبان المتواضعون الظامئون الى العزلة والصلاة ! ان هؤلاء الرهبان يستعدون صامتين «لليوم والساعة ، للشهر والسنة» هم الآن يسهرون على صورة المسيح ، محاولين بكثير من التقى والخشوع في حياتهم المغمورة ، أن يحافظوا على ما لهذه الصورة من سناء ونقاء ، فهم يعيشون في الحقيقة الالهية وفقاً لتعاليم آباء الكنيسة والرسل والشهداء . حتى اذا دقت الساعة اظهروها مقابل حقيقة العالم المترنحة . ان هناك فكرة عظيمة . انها النجمة التي ستطلع يوماً من المشرق .

ذلكم هو رأيي في الرهبان . أأكون على ضلال ، أيكون حكمي قائماً على غرور ؟ انظروا الى العلمانيين ، هؤلاء الذين يعيشون في المجتمع ويعدون أنفسهم أعلى من رجال الدين : ألم يدنسوا نفوسهم ويخونوا الحقيقة الالهية ، هم الذين خلقوا على صورة الرب ؟ انهم يملكون العلم ، ولكن العلم لا يعرف الا ما تدركه الحواس . أما الكون الروحي ، أما العنصر الأسمى في الطبيعة الانسانية ، فقد رفضوه ونبذوه ، واطرحوه ، شاعرين بنوع من فرح الانتصار ، بل وبنوع من الكره . ان العالم يعتز بالحرية ، ولا سيما في أيامنا هذه ، ولكن ما الذي تؤدى اليه هذه الحرية ،

وما الذى نراه يتأكد باسمها ؟ عبودية النفوس والانتحـــــار الأخلاقى ! . يقول الناس : «ان لك حاجات ، فعليك أن تسعى الى اشباعها ، لأن حقوقك لا تقل عن حقوق الأغنياء والكبار . لا تخش رغباتك ، بل أكثر عددها» . تلكم هى عقيدة هذه الأيام . هكذا يتصور الناس الحرية . فما الذى يؤدى اليه هذا الحق المزعوم فى اكثار المرء رغباته ؟ انه يؤدى لدى الأغنياء الى **العزلة** والانتحار النفسى ، ويؤدى لدى الفقراء الى الحسد والقتل . ذلك أن الناس قد أعطوا حقوقاً ، ولكنهم لم يُعلَّموا بعدُ وسائل تحقيق الغلبة لها ووسائل اشباع حاجاتهم . يزعم بعضهم أن التطور الطبيعى يقود الانسانية نحو مزيد من الاتحاد ، فازالة المسافات بالمكتشفات الحديثة ، ونقل الأفكار عبر الهواء ينميان الاحساس بالأخوة والتضامن . واحسرتاه ! لا تدعوا لهذه الأوهام حول اتحاد الناس أن تخدعكم ! اننا اذا تصورنا الحرية على أنها قدرة الفرد على اكثار حاجاته واشباعها بسرعة ، كنا نشوه طبيعة الانسان ، ونثير فيه رغبات باطلة حمقاء ، ونخلق له عادات وأحلاماً سخيفة . ان الناس لا يعيشون اليوم الا فى الحسد اشباعاً لشهواتهم أو ارضاء لغرورهم . ان اقامة الحفلات ، والخروج فى النزهات ، والتمتع بالمآدب ، واقتناء العربات الفاخرة ، واكتساب الالقاب وامتلاك الخدم الأقنان ، ان ذلك كله يبدو لأبناء المجتمع ضرورة لا غنى لهم عنها ، وحاجة لا يبالون فى سبيلها أن يضحوا بحياتهم وشرفهم ، وأن يتخلوا عن حب الانسان أخاه الانسان ، حتى ليؤثروا أن ينتحروا اذا لم يتمكنوا من اشباعها . وهذا يصدق أيضاً على من لا يملكون ثراء طائلاً . أما الفقراء فانهم يختنقون بالسكر ، الى حين ، ما يشعرون به من حسد ، وما يدركونه من استحالة ارضاء رغباتهم . ولكن

سيأتي يومٌ يسكرون فيه بدم لا بخمر . قالي هذا انما يُدفعون . انى لألقى عليكم هذا السؤال : هل هؤلاء الرجال أحرار ؟ لقد عرفت فى الماضى واحداً من «المناضلين فى سبيل الفكرة» . وقد أسرَّ اليَّ هذا الرجل فى ذات يوم أنه حين حُرم من التدخين فى السجن بلغ ألمه من هذا الحرمان أنه أوشك أن يخون «فكرته» فى سبيل التدخين . ومثل هذا الرجل يزعم أنه يريد أن «يناضل فى سبيل الانسانية» . هل نصدق أن رجلاً كهذا الرجل يمكن أن يمضى بعيداً فى بذل الجهد ؟ انه عاجز الا عن اندفاعات مؤقتة وعمل مباشر ، أما الثبات والاستمرار فلا طاقة له بهما . فهل غريب بعد هذا أن البشر لم يجدوا الحرية بل العبودية ، وأنهم بدلاً من أن يخدموا الانسانية وأن يوحدُّوها قد سقطوا الى **«العزلة»** ، كما قال لى فى شبابى زائرى الغامض ومعلمى ذاك ؟ لهذا نرى العالم الآن بسبيل أن يفقد اليوم حس الاخلاص للانسانية ، حس الوحدة الانسانية والأخوة الانسانية ، ويبلغ من ذلك أن هذه الأشواق الكبرى أصبحت لا تثير الا ابتسامات . . . وأنَّى للانسان فعلاً أن يتحرر من عاداته المكتسبة ، وماذا يمكن أن يصير اليه الانسان الذى استعبدته حاجاته ، اذا كان قد تعلّم أن يرضى الشهوات الكثيرة التى يخلقها هو نفسه ؟ ان انساناً هذا شأنه انما يعيش فى عزلة روحية . وهل تعنيه الجماعة فى هذه الحالة ؟ ذلك ما وصل اليه البشر : جمعوا ثروات فوق ثروات ، أما الفرح فقد تناقص فى قلوبهم .

ولا كذلك الطريق التى يسير فيها الراهب . كثيراً ما يسخر الناس من الطاعة والصيام والصلاة ، مع أن الطاعة والصيام والصلاة هى فى الواقع السبيل الوحيدة الى بلوغ الحرية الحقيقية : انني حين أضحى بحاجاتى الزائدة ، وحين أسيطر

بالطاعة على ارادتى المزهوة الأنانية ، انما أرتفع بعون الله الى الحرية الروحية التى تهب لى الفرح الروحى ! أيّهما أكثر تأهباً للنضال فى سبيل فكرة عظيمة ، الغنى الذى يعيش فى عزلته الروحية أم ذلك **المتحرر** من استبداد العادات والاشياء ؟ ان بعض الناس يأخذون على الرهبان أنهم معتكفون ، فهم يقولون لهم : «لقد اعتزلتم العالم لتضمنوا سلامتكم وراء جدران دير ، ونسيتم تضامنكم مع البشر اخوتكم ، ونسيتم واجب خدمة الانسانية» . لسوف نرى من الذى سيخدم قضية الأخوة الانسانية خيراً من غيره . ألا انهم هم الذين يعيشون فى العزلة ، لا نحن ، ولكنهم لا يدركون ذلك . ومن بيئتنا انما خرج ، منذ أقدم العصور ، أولئك الرجال الذين ناضلوا فى سبيل سعادة الشعب . فلماذا لا يكون الأمر على هذا النحو اليوم ؟ لسوف يُرى هؤلاء الرهبان المتواضعون الذين يلتزمون قواعد الصيام والصمت ، لسوف يُرون فى يوم من الأيام يهبون للقيام بعظائم الأعمال . ان الشعب هو الذى سينقذ روسيا ، وان الرهبان الروس قد ظلوا متحدين بشعبهم اتحاداً قوياً فى جميع الأزمان . اذا كان الشعب فى العزلة فنحن فى العزلة أيضاً . ان ابن الشعب يؤمن بما نؤمن به نحن . أما مثقفونا الملحدون ، فانهم لن يصلوا الى شىء فى روسيا ، ولو صدقت قلوبهم وكانوا ينعمون بذكاء عبقرى . تذكروا هذا . ان الشعب سيقوم أخيراً على الملحدين وسيغلبهم . سوف تسترد روسيا العظيمة وحدتها الروحية فى الأرثوذكسية . اسهروا على الشعب ، وصونوا طهارة روحه . ربوه فى صمت . تلكم هى رسالتكم أيها الرهبان ، لأن هذا الشعب يحمل فى نفسه الله .

و) — حديث عن السادة والخدم

هل يمكن أن يصبحوا اخوة فى الروح ؟

انه لصحيح ، وا أسفاه ، أن الشعب يعيش فى الخطيئة هو أيضاً . ان عوامل الانحلال والتفسخ تتابع عملها ساعة بعد ساعة ، لأن عدواها تأتى من الطبقات العليا ، فاذا بالصغار والفقراء يقعون فى العزلة هم أيضاً . اننا نرى ظهور المحتكرين والمستغلين . والتجار يزدادون ظمأ الى مظاهر التبجيل . انهم يريدون أن يُعدّوا مثقفين ، مع أنهم لا يملكون أية ثقافة فى الواقع . وهم يحسبون أنهم يصلون الى ذلك باظهار احتقارهم للعادات القديمة . ويبلغون فى هذا حد الشعور بالخجل والعار من ايمان آبائهم . انهم يختلفون الى مجتمع الأمراء ، مع أنهم ليسوا الا فلاحين متدهورين . ان الادمان على الخمر يهلك روح شعبنا الذى لا يستطيع الفكاك منه . ما أشد قسوة حياة المرأة وحتى حياة الأطفال فى الأسـر ! ان الاسراف فى شرب الخمرة هو سبب ذلك . لقد رأيت أطفالاً يعملون فى المصانع وهم لمّا يكادوا يبلغون العاشرة من أعمارهم : انهم ضعاف هزيلون مقوّسو الظهور قد فسدت أخلاقهم منذ الآن . القاعات الخانقة الموبوء هواؤها ، ضجة الآلات ، العمل الذى لا تتخلله راحة كافية ، الأحاديث البذيئة التى يسمعها الطفل فى هذه البيئة ، المشروبات الكحولية ، ذلك كله لا يخلق مناخاً صالحاً لنفس الطفل . ان الأطفال فى حاجة الى الشمس ، والألعاب ، والقدوة الحسنة ، وحد أدنى من العاطفة والحنان ! يجب أن تنتهى هذه الحالة أيها الرهبان ، وأن يتخلص الاطفال من العذاب ! امضوا الى الناس وعظوهم حتى تزول هذه الشرور

بأقصى سرعة . ولكن الله سينقذ روسيا رغم كل شىء . ذلك أن ابن الشعب ان تدهور وأصبح لا يشعر بالقدرة على العدول عن هذه الخطايا الرهيبة ، فانه يعلم على الأقل أن سوء سلوكه هذا يلعنه الرب ، وأنه يخطىء اذ ينقاد للشر . ان شعبنا لم يفقد ايمانه بالحقيقة . انه مؤمن بالله ، وهو يبكى ندماً على خطاياه بدموع صادقة . وليس هذا حال أبناء المجتمع الراقى وا أسفاه ! فهؤلاء يدعون اقامة العدالة بمعونة عقلهم وحده ، مستغنين عن المسيح بعد اليوم . حتى لقد نادوا منذ الآن بأنه لا خطيئة ، بأنه لا جريمة . ولا شك أنهم من وجهة نظرهم على حق : فاذا لم يكن هنالك اله ، لم يكن هنالك خطيئة ! فى أوروبا تثور الشعوب على الأغنياء وتريد أن تقاتلهم بالقوة ، وقادتها تقودها فى كل مكان الى اراقة الدماء قائلة لها ان غضبها حق وعدل . ألا ان «الغضب ملعون لأنه قاس» . ان روسيا سيخلّصها الرب ، كما سبق أن خلّصها مراراً فى الماضى . وسيأتى الخلاص من الشعب ، مما يملكه الشعب من روح الاذعان لمشيئة اللـه ، ومن ايمان بوجود الله . فيا آبائى ومعلمى ، صونوا ايمان شعبنا لأن ما أبشركم به الآن ليس حلماً من الاحلام . لطالما شدهت أثناء حياتى كلها مما يتمتع به شعبنا الروسى العظيم من كرامة صادقة ونبل كبير . لقد رأيت هذا بنفسى ، وكنت شاهداً عليه ، وفى وسعى أن أؤكده لكم ، رغم الخطايا الكثيرة والمبائس الشديدة التى يعيش فيها . ان شعبنا لا تلازمه روح الذل ، حتى بعد قرنين من الرق ، بل حافظ على مسلك الحرية ، دون أية غطرسة مع ذلك ؛ ولم تعصف بنفسه روح الحسد والانتقام . وأنت غنى ، وأنت فى مرتبة عالية ، وأنت ذكى ، وأنت صاحب

موهبة . اننى أعلم ذلك ، وأسأل الله أن يباركك ! اننى أحترمك ، ولكننى لا أنسى أننى أنا أيضاً انسان . واذا احترمتك دون أن أحسدك ، فاننى أؤكد أمامك كرامتى الانسانية» . لئن كانوا لا يقولون هذا الكلام (لأنهم لا يحسنون التعبير عما بأنفسهم) ، فان هذا الموقف النفسى يتجلى فى سلوكهم . رأيت ذلك ، وكنت شاهداً عليه . صدقونى اذا قلت لكم : ان الروس تزخر نفوسهم بالحقيقة النبيلة على قدر ما يكونون فقراء صغاراً . ذلك أن الذين اغتنوا منهم قد أصبحوا محتكرين ومستغلين وفسدت أخلاق أكثرهم ، وهذا أمر نُسأل عنه نحن أنفسنا بعض الشىء بسبب اهمالنا وضعف نشاطنا وهمتنا ! ولكن الرب سينقذ ذويه ، لأن روسيا عظيمة باذعانها لمشيئة الله . اننى أحلم بمستقبلنا ، فيبدو لى أحياناً أننى أراه : سيأتى يوم يشعر فيه أفسد أغنيائنا أخيراً بالخجل والعار من ثرواته أمام الفقير ؛ وسيبرهن الفقير يومئذاك ، بعد أن يرى ندم الغنى ومذلته ، على حسن الفهم هو أيضاً ، فيتنازل أمامه ، مستجيباً بالتعاطف لتوبته النبيلة . صدقونى أن هذا ما سيكون ، لأن هذا هو ما يقودنا اليه التطور . لن يكون هناك مساواة الا فى الشعور بكرامة الانسان الروحية ، وهذه حقيقة ستكون مفهومة فى بلادنا وحدها . لسوف تسود الأخوة متى أصبح البشر اخوة بالقلب ، وبدون هذه الأخوة لا يمكن أن يكون هناك قسمة عادلة . ألا فلنحتفظ فى أنفسنا بصورة المسيح ، حتى تشرق على العالم فى يوم من الأيام درةً تشع ضياء . . . آمين ، آمين !

يا آبائى ومعلمىّ ، لقد اتفق لى فى الماضى أن عانيت تجربةً مؤثرة . حينما كنت أجوب روسيا ، التقيت فى مدينة ك . . . ، وهى مركز مقاطعة ، بخادمى الجندى آفاناسى الذى

لم أكن قد رأيته منذ ثمانى سنين ، أى منذ اليوم الذى صرفته فيه . لقد لمحنى مصادفةً فى السوق فعرفنى فهرع الىّ وقد استخفه الفرح : «أهذا أنت يا مولاى ، أنت ، أنت ؟ هل يمكن حقاً أن تكون أنت ؟» وقادنى الى منزله . كان قد سُرِّح من الجندية وتزوج وأنجب طفلين ، وهو يعيش مع أسرته من تجارة صغيرة على بسطة . ان مسكنه ضيق ولكنه نظيف مضىء . فلما أجلسنى ، سخّن السماور واستدعى امرأته ، كأن زيارتى عيد له . وقدم الىّ ولديه قائلاً : «باركهما يا أبانا» . فأجبته : «أأنا من يباركهما ؟ ما أنا الا راهب متواضع . سأدعو الله لهما . أما أنت يا آفاناسى بافلوفتش ، فاننى ما كففت عن الدعاء لك كل يوم ، منذ ذلك الحادث الذى وقع بيننا ، لأن كل شىء كنت أنت سبباً له» . شرحت له ما وسعنى أن أشرح فكان ينظر الىّ مدهوشاً ، لا يستطيع أن يفهم أن مولاه القديم الضابط ، موجود الآن أمامه بمسوح راهب بسيط . حتى لقد أخذ يبكى . سألته : «لماذا تبكى يا من لم أنسه قط ؟ ألا ان الأفضل أن تُسر وتفرح يا عزيزى لأن الطريق الذى اخترته لنفسى طريق جميل مضىء» . كان لا يتكلم وانما هو يتنهد تنهداً ويهز رأسه بعطف قوى وتأثر شديد . وسألنى : «ماذا صنعت بثروتك ؟» فأجبته : «وهبتها للدير الذى نعيش فيه حياة مشتركة» . ودعتهم بعد أن شربنا الشاى ، فاذا هو يعطينى خمسين كوبكا للدير ؛ واذا هو يدسُّ فى يدى خمسين كوبكا أخرى ، خلسةً ، وهو يقول بعجلة : «هذه لك أنت . فما دمت راهباً تضرب فى الأرض فقد تنفعك فى الطريق» . قبلت صدقته ، وحييته وحييت امرأته ، وانصرفت مبتهج القلب ، أحدث نفسى قائلاً : «لا شك أنه مثلى فى هذه اللحظة ، يتنهد تارة ويبتسم تارة

أخرى ، هازاً رأسه متسائلاً كيف جمع الرب بيننا من جديد» . ولم أره منذ ذلك الحين . لقد كنت سيده وكان خادمى ، ولكننا حين تعانقنا أثناء لقائنا بمحبة وحنان روحى قد أعدنا اقامة الوحدة الانسانية الكبرى بيننا . لطالما فكرت فى هذا الأمر بعد ذلك ، وانى لأتساءل اليوم : «لماذا لا يكون من الممكن أن يتحقق الاتحاد بين الروس على هذه الطريقة البسيطة الصادقة نفسها فى يوم من الايام متى آن الآوان ؟» اننى أعتقد بأن هذا الاتحاد العظيم سيتم وأن ساعته اقتربت .

وانى لأضيف ما يلى فى موضوع الخدم : كان يتفق لى فى السنين الأولى من شبابى أن أغضب على الخدم : «سكبت الطباخة الحساء ساخناً مفرطاً فى السخونة ، الخادم لم ينظف ثيابى بالفرشاة» . ولكن فكرة أخى العزيز التى سمعته فى طفولتى يقولها ، قد بعثت فى نفسى نوراً : «أأنا جدير بأن يخدمنى الانسان ؟ هل يحق لى أن أعده أدنى منى لأنه فقير جاهل ؟» وقد أدهشنى بعد ذلك أن أفكاراً بسيطة هذه البساطة واضحة هذا الوضوح لا تعرض لعقولنا الا متأخرة . ان الحياة تصبح اليوم مستحيلة ما لم يكن هناك سادة وخدم . فلا أقلَّ من أن نجعل سلوكنا يُشعر خدمنا بأنهم أحرار روحياً اكثر مما لو كانوا لا يخدموننا . لماذا لا نصبح خدماً لخدمنا ؟ انهم اذا لاحظوا أننا لا نتكبر عليهم أى تكبر ، سيتحررون من الشك فينا ومن محاذرتنا . لماذا لا نعدهم أقرباء ولا نستقبلهم فى أسرنا مبتهجين بوجودهم بيننا ؟ ان هذا الموقف يمكن اتخاذه منذ الآن ، ويمكن أن يكون قاعدة للاتحاد الرائع الذى سيتحقق للانسانية فى المستقبل ، يومَ يشعر الانسان أنه ليس فى حاجة الى أن يكون له خدم ، ويوم لا يحاول أن يجعل

أقرانه البشر خدما له كما يفعل الآن ، وانما يتطلع بكل نفسه الى أن يصبح خادماً لجميع الناس عملاً بروح الانجيل . أتظنون أنه حلم باطل أن يراودنا الأمل فى أن نرى البشر أخيراً ينشدون السعادة فى مآثر التنوير والرحمة ، بدلا من السعى الى الملذات المتوحشة فى النهم والفجور وحب الظهور وفى ذلك الظمأ الحاسد الى الارتفاع فوق الآخرين ؟ أما أنا فاننى أؤمن ايماناً راسخاً بأن هذا ليس أملاً باطلاً ، وأن الزمان الذى سيتحقق فيه هذا الأمل قد اقترب . ان الناس يرفعون أكتافهم ويسألونكم ساخرين : «متى يأتى هذا الزمان ، وهل ما نراه الآن فى العالم يسمح بمثل هذه التنبؤات ؟» اننى أعتقد بأننا سنحقق هذا العمل العظيم بمعونة المسيح . ما أكثر الأفكار التى بدت فى الماضى مستحيلة التحقيق ، والتى عُدت قبل عشر سنين أفكاراً طائشة لا تعقل ، ثم اذا هى تنتصر فجأة على الأرض وتنتشر فى كل مكان ، لأن ساعة تحققها الساحرة قد دقت وكانت خافية مستترة ! ذلكم ما سيكون فى بلادنا ، وسيشرق نور شعبنا على الانسانية ، وسيهتف جميع البشر عندئذ قائلين : «ان الحجر الذى رماه البناءون ورفضوه قد أصبح حجر الزاوية فى البناء» . أما الساخرون المستهزئون فاننا نستطيع أن نلقى عليهم بدورنا هذا السؤال : «اذا كانت جميع أشواقنا أضغاث أحلام ، فهلاً قلتم لنا متى تقدرون أن تشيدوا بناءكم وأن تنظموا أنفسكم على العدل بمعونة العقل وحده مع رفض المسيح ؟» قد يجيبون بأنهم هم الذين سيقيمون الوحدة الانسانية ، ولكن السذج منهم هم الذين يؤمنون بهذا الكلام ، حتى ليمكن أن يدهش المرء من هذه السذاجة . الحق أن فى أفكارهم من الخيال الباطل ما ليس فى أفكارنا نحن . انهم يأملون أن يقيموا العدل فى هذا العالم ، ولكنهم وقد رفضوا

المسيح سوف ينتهي بهم الأمر الى سفك الدم في كل مكان ، لأن الدم يستدعى الدم ؛ ومن يشهر السيف يهلك بالسيف . ما لم تؤمن بوعد المسيح ، فان البشر سيبيد بعضهم بعضاً ، الى أن لا يبقى منهم على قيد الحياة الا اثنان . وهذان الاثنان سيكونان عاجزين من غطرستهما عن التفاهم ، فاذا بأحدهم يقتل الثانى آخر الأمر ثم يقتل نفسه . ذلكم ما سيحدث اذا لم يتحقق وعد يسوع بوقف المذبحة حباً بالمسالمين الوديعين . حين كنت ما أزال أرتدى البزة العسكرية بعد المبارزة ، تحدثت فى المجتمع كثيراً عن الخدم ، فكان السامعون يُدهشون من كلامى ويسألون (اننى أتذكر هذا) : «هل علينا أن ندعو خدمنا الى الجلوس على أريكة ، وأن نقدم اليهم الشاى ؟» وقد أجبت عن هذا السؤال مرة بقولى : «لم لا ؟ ولو من حين الى حين» فسخر الحضور منى آنذاك . الا أن سؤالهم يدل على خفة عقولهم . ان اجابتى لم تكن واضحة جداً . . . أنا أسلّم بهذا . . . ولكن يخيل اليَّ اليوم أن قد كان فيها شيء من حقيقة .

ن) ـ حديث عن الصلاة والمحبة ، ومعرفة الحياة الآخرة

لا تنس أن تصلى أيها الشاب . فاذا كانت صلاتك صادقة صاحبها فى كل مرة شعور جديد ، وولّد هذا الشعور الجديد فكرة جديدة كنت تجهلها الى ذلك الحين ، فكرة ستشد أزرك وتقوى عزيمتك بعد ذلك . وستدرك عندئذ أن الصلاة تربية للنفس . تذكر أيضا أن تُردِّد كلَّ مساء وكلما استطعت الى ذلك سبيلاً :

«هب رحمتك يا رب لكل الذين يمثلون أمامك الآن» . ذلك أن ألوفاً من البشر يبارحون الأرض فى كل ساعة ، فى كل دقيقة ، وتمضى أرواحهم تمثل أمام الخالق . ما أكثر الذين قضوا منهم نحبهم فى العزلة ، بعيدين عن نظر أى صديق ، ممتلئى القلب مرارة وحزناً ، لأن أحداً لن يأسف على رحيلهم ، حتى أن حياتهم ستكون قد انقضت دون أن يراها أحد . لن يعلم أحد غداً أنهم عاشوا . فاذا بصلاتك تصعد فجأة الى الرب من الطرف الأقصى من الأرض تدعو لروح من الأرواح ، رغم انك لم تعرف هذه الروح ، ولا هى تعرف من أنت . لسوف تتأثر هذه الروح من ذلك تأثراً عظيماً حين تمثُل جزعة أمام الاله العلى القدير . سوف تعلم أن أحداً يصلى لله من أجلها هى أيضاً ، سوف تعلم أن على الأرض انساناً واحداً على الأقل يحبها . وسينظر الرب عندئذ اليكما بمزيد من التسامح ، لأنك قد أشفقت على ذلك الميت ، وسيكون الرب أكثر رحمة به ، لأن حبه أوسع من حبك ، واحسانه أعظم من احسانك . وسيعفو الله عنه بسببك .

يا اخوتى ، لا تحتقروا البشر لخطاياهم ، أحبوهم رغم خطاياهم ، فتلك هى قمة المحبة الأرضية التى هى على صورة محبة الرب . أحبوا خلق الله جملة ، وأحبوا كل ذرة من الرمل على حدة ، وكل ورقة شجرة ، وكل شعاع ضوء ! أحبوا الحيوانات ، أحبوا النباتات ، أحبوا كل موجود . انكم حين تحبون الخليقة تنفذون الى السر الالهى الذى تضمه ، والمعرفة التى تحصلون عليها بهذا ستنمو بعد ذلك ، ثم ما تنفك تكبر فى كل يوم ، فاذا حبكم يعم الكون بأسره ، ويصبح شاملاً . أحبوا البهائم لأن الرب قد وهب لها بذرة فكر وأودع فى قلبها فرحاً

بريئاً . لا تعكروا هناءها ، لا تعذبوها ، لا تحرموها من الفرح ، لا تخالفوا ارادة الخالق . أيها الانسان ، لا تحملنك كبرياؤك على التعالى على الحيوانات ، فهى بلا خطيئة ، أما أنت فانك مع عظمتك تدنس الأرض بوجودك وتخلف أثراً نجساً حيث تمر . ذلك شأننا جميعاً وا أسفاه ! ذلك شأننا جميعاً ، بغير استثناء تقريباً ! أحبوا الأطفال خاصة ، لأنهم بلا خطيئة أيضـــاً ، لأنهم أشبه بالملائكة ، انهم يعيشون لفرحة قلوبنا وتطهير نفوسنا ، كقدوة مضيئة الى جانبنا . وويل للذين يسيئون الى الأطفال ! لقد علمنى الأب آنفيم أن أحبهم : كان هذا الراهب المتواضع ، يشترى بالكوبكات التى توهب لنا أثناء طوافنا ، يشترى حلوى يوزعها على الأطفال . كان لا يستطيع أن يراهم دون أن تهتز نفسه اهتزازاً عميقاً . كذلك كان هذا الانسان .

ان شكاً يراودنا فى بعض الأحيان ، ولا سيما حين نرى الخطيئة فنتساءل عندئذ : «أنرد بالقوة أم بالحب المتواضع ؟» عليك دائماً بالرفق واللين . فمتى اخترت الرفق واللين الى الأبد ، استطعت أن تستولى على العالم بأسره . ان الحب المتواضع قوة هائلة ، أقوى من سائر القوى ، ليس لها مثيل فى العالم . راقب سلوكك فى كل ساعة وفى كل دقيقة من اليوم ، حتى تشع الطهارة منك . قد تمر قرب طفل وقد عصف بك الغضب ، ونفسك مستاءة فتفلت من لسانك كلمة سيئة لعلك لم تلاحظ وجود الطفل ، ولكن الطفل رآك ، والصورة النجسة الخبيثة التى تركتها له ستبقى فى قرارة قلبه البرىء . أنت لم يخطر ببالك ذلك ، ولكنك قد بذرت بذور الشر فى هذا الكائن الصغير ، وقد تطلع هذه البذرة السيئة يوماً . كل ذلك لأنك لم تراقب نفسك بحضور الطفل ، ولأنك توانيت عن تعهد الحب اليقظ

الفعال فى نفسك . الحب يا اخوتى معلم كبير ، ولكن يجب أن نعرف كيف نملكه . انه لا يكتسب بسهولة ، وانما يحصل عليه الانسان بثمن باهظ ، بجهد متصل وفى زمن طويل . ذلك أن المقصود ليس هو أن تحب مؤقتاً ومصادفةً ، بل أن تحب حباً مستمراً مطَّرداً . ان أى انسان ، حتى المجرم ، يمكن أن يشعر بحب طارئ عابر . لقد كان أخى يستغفر العصافير ، وقد يبدو هذا سخيفاً من أول نظرة ، ومع ذلك كان أخى على حق ، لأن الحياة أشبه ببحر محيط تختلط فيه وتتمازج فيه جميع الأمواج . ان ضربة تقع على مكان من الأمكنة تترجع آثارها فى أقصى الطرف الآخر من الأرض . هل استغفار العصافير أحمق الى هذا الحد ؟ لو كنتَ خيراً مما أنت الآن ، لشعر العصفور بمزيد من الأمن والطمأنينة فى قربك . ان الطفل وكل حيوان آخر سيكون أسعد حالاً وأهدأ بالاً قربك اذا توافرت فى قلبك ولو قطرة واحدة أخرى من الطيبة . أعود فأقول : ان الكون أشبه ببحر محيط . فمتى أدركتَ هذه الحقيقة استغفرتَ العصافير أنت أيضاً . اذا أدركت هذه الحقيقة تملكك حب شامل يملأ قلبك سعادة ووجداً فاذا أنت تسألها ، تسأل العصافير ، أن تغفر لك خطاياك . فتعهد بالتنمية والاذكاء هذا الوجد ، مهما يبدو للناس بلا معنى .

يا أصدقائى اسألوا الرب أن يهب لكم الفرح . كونوا فرحين كالأطفال ، كالعصافير الصغيرة فى السماء . لا تدعوا للاضطراب أن يستولى عليكم ، ولا لخطايا البشر أن تصرفكم رؤيتها عن جهودكم ؛ لا تخشوا من خطاياهم أن تجعل عملكم عقيماً أو أن لا تسمح له بالظهور . لا تقولوا قط : «ان الخطيئة فى هذا العالم قوية ، وان الرجس قوى ، وان البيئة الخبيثة

قوية ، على حين أننا نحن معزولون لا حول لنا ولا قوة ، وان البيئة الشريرة ستدمرنا قبل أن نستطيع القيام بعمل صالح» . لا تدعوا لهذا اليأس يا أبنائى أن يستولى عليكم . وليس هنالك الا سبيل واحدة تنفع المرء فى حماية نفسه منه ، ألا وهى أن يعد نفسه مسئولاً عن جميع خطايا البشر . وتلك هى الحقيقة يا أصدقائى . فمتى اعترفتم اعترافاً مخلصاً بأنكم مسئولون عن كل شىء وعن جميع الناس ، أدركتم أن الأمر هو كذلك حقاً ، وأن ذنبكم ليس وهماً صوّره لكم الخيال . أما اذا ألقيتم على عاتق غيركم ما هو فى الواقع نتيجة كسلكم وتوانيكم وضعفكم ، انتهيتم الى السقوط فى هوة التكبر الشيطانى ، وأخذتم تدمدمون متمردين على ارادة الله . سأقول لكم رأيى فى التكبر الشيطانى : انه لعسير علينا أن ننفذ الى دلالته الحقيقية أثناء حياتنا الأرضية ، ونحن لهذا ميالون بطبيعتنا الى الوقوع فى الخطأ ، فاذا نحن نتكبر تكبر الشيطان ظانين أننا بذلك نكبر ونحقق عملاً رائعاً جديراً بالاعجاب . ان المعنى الحقيقى لكثير من عواطفنا القوية واندفاعات قلبنا يفوت ادراكنا أثناء حياتنا الأرضية على كل حال . فلا تستسلموا للاغراء ولا تظنوا أن الجهل يمكن أن يكون لكم مسوغاً . على ان القاضى الأعلى سيحاسبكم عما كان فى وسعكم أن تعرفوه ، لا عمّا يفوق عقولكم . ستدركون هذا فى حينه ، وستكفون عندئذ عن المناقشة بحضور الحقيقة التى ستعرفونها . لقد كتب علينا أن نضرب فى الأرض ، وما لم تكن صورة المسيح الغالية نصب أعيننا ، فسنهلك بسبب أخطائنا كما هلك النوع الانسانى قبل الطوفان . هناك أشياء كثيرة تبقى خافية عنا فى هذا العالم ، ولكننا فى مقابل ذلك قد أوتينا الاحساس بالصلة الحية التى تربطنا بعالم آخر ، عالم أعلى وأفضل : والجذور العميقـــة

لعواطفنا وأفكارنا انما تمتد فى العوالم الأخرى لا فى الأرض على كل حال . لذلك يعلّم الفلاسفة أن ماهية الأشياء لا يمكن ادراكها فى هذه الحياة الدنيا . لقد أخذ الرب بذوراً من العوالم الأخرى فنثرها على الأرض ليزرع حديقته ، فنبت كل ما كان يمكن أن ينبت ، ولكن الموجودات التى نبتت على هذه الأرض لا تحيا ولا تبقى حية الا بوعى الصلة التى تربطها بالعالم الآخر السرى . حتى اذا ضعف هذا الوعى فى نفسك أو زال ، مات عندئذ ما يكون قد طلع فيها ، فلا تكترث بعد ذلك بالحياة ، أو هى تكره الحياة . ذلكم هو رأيى على الأقل .

ح) ـــ هل يجوز للمرء أن يحكم على أقرانه ؟
الايمان حتى النهاية

تذكر خاصةً أنه ليس من حقك أن تحكم على قرينك كائناً من كان . ما من أحد يستطيع أن يجعل نفسه قاضياً على مجرم قبل أن يدرك أنه ، وهو القاضى ، لا يقل اجراما عن الجانى الماثل أمامه ، وأنه ربما كان هو المسئول الأول عن الخطأ الذى ارتكبه هذا الرجل . حتى اذا أدرك ذلك استطاع أن يحكم . قد يبدو هذا الرأى باطلاً ، ومع ذلك فهذه هى الحقيقة . فلو قد استطعت أن أكون عادلاً على الدوام ، لكان من الجائز أن لا يرتكب هذا الرجل جريمته . فاذا أمكنك أن تلقى على عاتقك جناية الجانى الماثل أمامك ، وأن تجعل حكمك فى قلبك ، فافعل ذلك بغير تردد واقبل أن تتألم نيابة عنه . أما الجانى فدعه ينصرف دون أن توجه اليه لوماً . استلهم هذه القاعدة فى السلوك ما وسعك

ذلك ، ولو نصبك القانون قاضياً له ، لأن المذنب سينصرف بعد ذلك ليدين نفسه ادانة أقسى من ادانتك اياه . واذا ظهر لك أنه لم يحس رفقك به ، واذا ردَّ على حبك بالسخرية ، فلا تدع لموقفه هذا أن يغضبك : فانما يدل هذا الموقف على أن ساعته لم تدق بعد ، وأنها ستحين في المستقبل . وهبها لن تحين أبداً ، فلا تهتم كثيراً بذلك ، لأن شخصاً آخر سيعترف يوماً بذنبه وسيتألم منه ، وسيدركه ، وسيدين نفسه بنفسه ، فاذا بالحقيقة تتأكد رغم كل شيء . صدِّق ما أقوله لك ، صدِّقه تصديقاً جازماً قاطعاً ، لأن هذا هو الأساس الحق الذى يقوم عليه الأمل ويقوم عليه ايمان القديسين .

لا تقعد عن العمل ولا تدع لهمتك أن تفتر . فاذا تذكرت ، بعد أن رقدت فى سريرك لتنام «أنك أغفلت القيام بواجب من الواجبات» فانهض فوراً لتدارك هذا النسيان . واذا رأيت نفسك محاطاً بأناس أشرار لا يحسون ، ويرفضون أن يسمعوا لك ، فارتم على أقدامهم واستغفرهم ، لأنك أنت أيضاً تحمل ذنب اعراضهم عن طاعتك . واذا شعرت بأنك عاجز عن أن تخاطب الأشرار بالحسنى ، فاخدمهم صامتاً متواضعاً دون أن تيأس قط . واذا هجرك جميع الناس وطردوك شر طردة ، فاسجد على الارض حين تصبح وحيداً واغمرها بقبلاتك . اسق الارض بدموعك ، فتحمل هذه الدموع ثماراً ، ولو لم يرك أو يسمعك فى عزلتك أحد . حافظ على ايمانك حتى النهاية ، ولو كان عليك أن تبقى الانسان الوحيد الذى يحافظ عليه . اذا تنكر سائر الناس لعقيدتهم ، فثابر أنت على المضى فى طريق التضحية واستمرَّ فى تمجيد الله يا آخر مؤمن فقد يلقاك مؤمن آخر ، فتصبحا اثنين ، وهذا كافٍ لعودة الكون حياً بالحب : سوف تتعانقان

عندئذ وقد امتلأت نفساكما عاطفة ، وسوف تسبحان بحمد الله فاذا الحقيقة تتأكد بكما رغم أنكما لستما الا اثنين .

اذا اتفق أن أثمت فأخذ الندم على ارتكابك الخطايا أو خطيئة عارضة يعذبك ويرهقك ارهاقاً شديداً ، فليبهجك أن تتذكر أن هناك انساناً صالحاً لم يرتكب اثما ، وقل لنفسك مغتبطاً سعيداً : لئن وقعت أنا فى الشر ، ان ثمة انساناً غيرى قد ظل طاهراً لم يتلوث .

واذا ملأك خبث البشر استياء وألماً عنيفاً رغم ذلك ، حتى صرت تتمنى معاقبة المجرمين انتقاما ، فصن نفسك من هذه العاطفة بكل ما تملك من قوة ، وابحث لنفسك عن آلام مباشرة كأنك مسئول عن جرائم هؤلاء الناس . اقبل هذه الآلام وتحملها فذلك يهدئ قلبك ويطمئن نفسك . سوف تدرك أنك آثم فعلاً ، لأنك كنت تستطيع أن تهدئ هؤلاء الناس بالقدوة ، ولو كان عليك أن تبقى الانسان الوحيد الذى يعيش بلا خطيئة ، ثم لم تفعل . . . فلو أنك اتبعت طريق النور هذا فى حياتك ، لاستطاع الآخرون أن يروا طريقهم بنور طهارتك ، ولأمكن الانسان الذى تتهمه اليوم بالجريمة أن يبقى شريفاً طاهراً . قد يحدث مع ذلك أن تكون أنت قدوة حسنة ثم يرفض الآخرون الخلاص الذى يأتيهم من نورك ، فلا يتزعزعن ايمانك حينذاك ، ولا يراودنك شك فى قوة نور السماء . اعلم أن البشر سيُنقَذون غدا ان لم يمكن انقاذهم اليوم . واذا لم يمكن انقاذهم أثناء حياتهم ، فسيُنقَذ أبناؤهم من بعدهم ، لأن نورك لن يزول وسيبقى حتى بعد مبارحتك هذا العالم . قد يزول الرجل الصالح ، ولكن نوره باق لا يزول . ثم ان الناس يقبلون الخلاص كذلك بعد موت ذلك الذى أراد أن يخلصهم . ان البشر لا يعترفون بأنبيائهم بل

يضربونهم ، ولكن البشر في مقابل ذلك يحبون شهداءهم ويقدسون أولئك الذين استشهدوا بأيديهم . ففى المستقبل وفى الانسانية بمجموعها انما يجب عليك أن تفكر حين تبذل ما تبذل من جهود . لا تنتظر ثواباً على الخير الذى تعمل ، لأن نصيبك فى هذا العالم كبير حتى بدون هذا الثواب : لسوف تعرف نفسُك الفرحَ الحق الذى لا يوهب الا للصالحين . لا تخش العظماء ولا الأقوياء . كن عاقلاً حكيماً كريماً على نفسك فى كل ظرف. التزم القصد والاعتدال . اعلم أن هناك آجالاً تفرض نفسها علينا ، وتقيد بهذه الآجال . لُذْ بالصلاة فى العزلة . تعلم كيف تحب الارتماء على الارض وتقبيلها . قبِّل الأرض بغير كلال . وأحبَّها بكل نفسك . انشر حبك على كل ما يوجد . اندفع فى الحب واسعَ الى حماسة القلب . اسق الأرض بدموع فرحك ، واحبَّ هذه الدموع . لا يخجلنك وجدك . قدِّر هذا الوجد ، لأن الله مصدره ، فهو هبة كبرى لا توهب فى هذه الحياة الدنيا للمصطفين .

ط) — حديث عن الجحيم والنار الابدية
تأمل صوفى

يا آبائى ومعلمىَّ ، لقد تساءلت : «ما الجحيم ؟» فأجبت : «هو عذاب الانسان من أنه أصبح لا يستطيع أن يحب» . فذات مرة فى الوجود اللانهائى الذى لا يقاس بزمان او مكان اتيحت للكائن الروحى بظهوره على الارض ، القدرة على أن يقول : «أنا موجود وأنا أحب» . مرةً واحدة ، مرةً واحدة فقط وهبت لهذا الكائن الحى لحظة الحب الفعال الحى ، وقد وهبت

له الحياة لهذه الغاية مع ما تشتمل عليه الحياة من زمان وآجال . وهذا الكائن السعيد الذى أغدقت عليه هذه النعمة قد رفض النعمة التى لا توصف ، ولم يقدرها حق قدرها ، ولم يتمتع بها ، بل استخف بها وآثر أن تخلو نفسه من الحس . ان هذا الكائن يرى ابراهيم بعد أن يبارح الارض ، ويتحدث مع ابراهيم ، كما ورد فى أمثولة الغنى ولازار والفتى الشرير» . انه يرى الجنة ويعلم أنه سيمثل أمام الرب ، واذا كان يعذبه شىء فانما يعذبه أنه سيمثل أمام الخالق دون أن يكون قد أحب ، وأنه سيسير الى جانب مخلوقات مُحبة احتقر هو حبها . ذلك أنه الآن يرى ويدرك ، فيقول لنفسه : «أنا الآن أعلم ، ورغم اننى اليوم ظامئ الى الحب فلن يكون لحبى قيمة ولن تكون فيه تضحية ، لأن حياتى الأرضية قد انتهت ، ولن يأتى ابراهيم فيهدئ بقطرة من ماء الحياة (أى باعطائى حياةً أرضية جديدة فعالة شبيهة بالسابقة) ظمئى الى الحب الروحى الذى يحرق الآن نفسى بعد أن ازدريته على الارض : لن تكون بعد اليوم حياة ، لن يكون بعد اليوم وقت ! اننى أتمنى الآن أن أضحى بوجودى فى سبيل غيرى ، ولكن فات الأوان ، لأن الحياة التى كان يمكن أن أضحى بها قد انقضت الى غير رجعة ، فالهوة تفصل بين حياتى الماضية وبين وجودى الآن» . كثيراً ما يتكلم الناس عن نار الجحيم وهم يفهمونها بالمعنى المادى . اننى لا أريد أن أبحث هذا السرَّ الذى يملأ نفسى رعباً وهولاً ، ولكننى أتصور أن هذه النيران لو كانت محسوسة مادية اذن لابتهج بها المعذبون . لأن الألم الجسدى يتيح لهم عندئذ أن ينسوا ، ولو لحظة قصيرة . العذاب الروحى الرهيب . ثم ان تخليصهم من عذاب نفوسهم مستحيل ، لأنه عذاب داخلى لا خارجى . وهبنا استطعنا أن نجردهم من

هذا العذاب ، فان شقاءهم سيزداد من ذلك فيما يخيل اليّ . هب العادلين فى الجنة غفروا لهم حين رأوا آلامهم ، وهبهم نادوهم اليهم بحب لا نهاية له ؛ انهم سيضاعفون بذلك آلامهم ، لأنهم سيوقظون فيهم مزيداً من الظمأ الحار الى الحب المتبادل والعرفان ، فى وقت أصبحوا فيه عاجزين عن ذلك الى الأبد . على أننى أتصور ، خاشع النفس ذليلاً ، أن شعورهم بهذا العجز سيخفف عنهم آخر الأمر بعض التخفيف ، واليكم كيف يكون ذلك : انهم حين يقبلون حب الصالحين دون أن يكونوا قادرين على أن يردوه بمثله ، سيجدون فى التسليم بهذا التفاوت بينهم وبينهم وفى الوضع الذى سيمليه عليهم الشعور الصادق بأنهم دونهم ، سيجدون فى ذلك معادلاً أو صورة للحب الفعال الذى ازدروه على الأرض ، وسيصبحون قادرين عندئذ على فعل يذكّر بفعل الحب الفعال هذا . . يؤسفنى ، يا آبائى وأصدقائى ، أن لا أستطيع التعبير عما بنفسى بمزيد من الوضوح . ولكن ويل للذين أنهوا حياتهم على هذه الأرض بأنفسهم ، ويـــــــل للمنتحرين ! . أحسب أنه ليس هناك من يفوق هؤلاء شقاء ! يقال انه أثم أن ندعو الله لمن قتل نفسه بارادته ، ويبدو أن الكنيسة تطرد من حضنها فى الظاهر ذلك الذى قتل نفسه بارادته . ولكننى أشعر مع ذلك ، فى سريرة نفسى ، أنه يجوز الدعاء للمنتحرين أيضاً ، لأن المسيح لن يسوءه افراط فى الحب . لقد دعوت طوال حياتى لهؤلاء ، أعترف لكم بهذا الآن يا آبائى ومعلميّ ، وما زلت أدعو لهم كل يوم .

لا شك أن فى الجحيم أيضاً معذّبين أصروا على صلفهم وضراوتهم وظلوا لا يتأثرون بالحقيقة رغم أنهم أصبحوا يعرفونها ويرونها ساطعة كل السطوع . ان بينهم أناساً رهيبين قد اتحدوا

بالشيطان وانضموا كليا الى عصيانه المتكبر . انهم يقبلون الجحيم بفرح مظلم ولا يستطيعون أن يشبعوا منه . أولئك يتعذبون ويريدون أن يتعذبوا . فقد لعنوا أنفسهم بأنفسهم اذ لعنوا الله والحياة . انهم يقتاتون بكرههم المتكبر الصلف اقتيات الجائعين فى الصحراء بدمائهم يمتصونها . ان غليلهم لن يشفى يوماً ، وهم يرفضون المغفرة الى الأبد ، لاعنين الرب الذى يناديهم . انهم لا يستطيعون الا أن يشعروا بحنق مسعور حين يتأملون الاله الحى ، ويتمنون أن لا يوجد ، ويودون لو يفنى الخالق نفسه مع الخليقة كلها . هؤلاء سيظلون يحترقون الى الأبد بنيران كرههم منادين الموت والعدم فى غير طائل . ولكن لن يوهب لهم أن يموتوا . . .

هنا تنتهى مخطوطة ألكسى فيدوروفتش كارامازوف . وأعود فأقول : هذا عمل غير مكتمل ، هذه أجزاء متفرقة . فالاشارات التى تتصل بحياة الشيخ زوسيما مثلاً لا تتناول الا الفترة الأولى من شباب الشيخ . وان شذرات من تعاليمه ومن الآراء التى أطلقها فى عهود مختلفة وبتأثير مناسبات شتى ، قد جُمعت هنا وصُهرت كما يرى القارئ ذلك واضحاً . والأقوال التى نطق بها الشيخ فى الساعات الأخيرة من حياته لم تحدد تحديداً دقيقاً بل تعطى تصوراً عاماً عن روح ذلك الحديث الأخير وتبرز عناصره الأساسية مزيداً من الابراز بمعونة أقوال أخرى استمدها ألكسى فيدوروفتش من تعاليم شيخه السابقة . وقد وافت الشيخَ منيته على نحو لم يكن فى الحسبان حقاً . فرغم أن جميع الأشخاص الذين اجتمعوا حوله فى ذلك المساء قد أدركوا أن وفاته قريبة ، فان أحداً منهم لم يتنبأ بأنها ستوافيه على هذا النحو المباغت .

وكما سبق أن قلت فان أصدقاءه قد اعتقدوا حين رأوا ما رأوا من شجاعته وميله الى الكلام طوال تلك الليلة أن صحته تحسنت تحسناً ملحوظاً وان يكن عابراً موقتاً ، ولا شيء كان يسمح لأحد ، الى ما قبل موته بخمس دقائق (كما رُوى هذا بدهشة فيما بعد) ، أن يتنبأ بأن وفاته وشيكة . ولكن بدا عليه فجأة أنه يحس بألم شديد فى صدره ، واصفر وجهه ، وشد يده شداً قوياً على قلبه . نهض جميع الحضور وهرعوا اليه . وظل هو رغم الألم ينظر اليهم مبتسماً . وترك نفسه ينزلق برفقٍ عن كرسيه ، فجثا على ركبتيه ، ثم سجد جاعلاً وجهه على الأرض ، وبسط ذراعيه بنوع من الوجد الجذل . وقبّل الأرض بعدئذ ، ولفظ روحه على نحو ما أورد هو نفسه فى تعاليمه ، مصلياً فى اندفاعة عظمى من فرح هادئ مطمئن . انتشر نبأ وفاته فوراً فى المنسك والدير . وقام أصدقاؤه والأشخاص المختصون بتكفينه على ما توجبه الطقوس القديمة ، ثم اجتمع أعضاء الرهبنة فى الكنيسة . وقد عُرف موت الشيخ فى المدينة قبل أن يطلع الفجر ، كما أكد الناس ذلك فيما بعد . ومهما يكن من أمر ، فقد تحدث الملأ عن موته فى كل مكان منذ الساعات الأولى من الصباح ، وازدحم فى الدير جمع غفير من المواطنين . سنعود الى الكلام عن هذا فى الكتاب التالى ، وحسبنا أن نشير هنا ، مستبقين تتمة هذه القصة ، أن حادثاً غير منتظر قد وقع قبل نهاية النهار ، فأحدث فى نفوس سكان الدير وفى نفوس سكان المدينة على السواء أثراً يبلغ من الغرابة ومن الاقلاق ومن الغموض أن ذكراه ما تزال حتى يومنا هذا ، بعد انقضاء ذلك العدد الكبير كله من السنين ، ما تزال حية فى أذهان جميع الذين عاشوا تلك الساعات المضطربة القلقة . . .

حواش

ص ٢٣

• «اهداء الى آنا جريجوريفنا دوستويفسكايا» : آنا جريجوريفنا دوستويفسكايا (اسم عائلتها قبل الزواج : سنيتكينا) ١٨٤٦ — ١٩١٨ ، هي زوجة دوستويفسكي الثانية . تزوج منها عام ١٨٦٧

ص ٢٣

• «الحق ، الحق أقول لكم . . .» : يرى بعضهم أن تصدير دوستويفسكى كتابه بهذه الآية من الانجيل يعبر عن اقتناع دوستويفسكى بان النفس الانسانية (والنفس الروسية) لن تبعث بعثا جديدا الا بعد ان تجتاز ازمة عميقة .

ص ٢٧

• ان اسم كارامازوف ، كغيره من اسماء بعض الاسر النبيلة ، يرجع الى اصل تترى . ولكن بعض النقاد يرون ان اختيار دوستويفسكى هذا الاسم لابطال روايته قد تأثر خاصة باسم دمترى كاراكوزوف ، الثورى الذى حاول يوم ٤ نيسان (ابريل) ١٨٦٦ اغتيال القيصر الاسكندر الثانى بينما كان القيصر يتنزه فى حديقة الصيف . ويقال ان دوستويفسكى قد هزته كثيرا محاولة الاغتيال هذه . ويشير آخرون الى ان كلمة كارا (قره) تعنى فى اللغة التترية الاسود ، ويرون فى ذلك رمزا .

ص ٢٧

• «ووقعت منذ ثلاثة عشر عاما على وجه الدقة . . .» : يشير النقاد الى ان معنى ذلك ان دوستويفسكى يضع احداث رواية «الاخوة كارامازوف» فى خريف ١٨٦٦ ، وبذلك يكون قد اخطأ فى الحساب حين اشار فى الفصل الثامن من الباب الثانى من هذه الرواية الى مقتل فون سون الذى وقع فى نهاية سنة ١٨٦٩ .

ص ٢٩

• «. . . ان تشبه اوفيليا بطلة شكسبير» : الاشارة الى اوفيليا بطلة مسرحية «هملت» للشاعر والمسرحى الانجليزى وليام شكسبير (١٥٦٤ — ١٦١٦) تقترن هنا بفكرة تحرير المرأة وتشير الى الطابع الغربى لهذه الفكرة .

ص ٢٩

• «ثمرة مؤثرات غريبة وخيال مسحور . . .» : استشهاد غير دقيق ببيت من قصيدة «لا تصدق نفسك» (١٨٣٩) للشاعر الروسى ميخائيل ليرمنتوف (١٨١٤ — ١٨٤١) .

ص ٣٣

• «ميتيا» تصغير اسم دمترى ، تحببا .

ص ٣٤

• بيير جوزيف برودون (١٨٠٩ — ١٨٦٥) اقتصادى وعالم اجتماع فرنسى من الاشتراكيين الطوباويين ذوى النزعة الفوضوية . وميخائيل الكسندروفتش باكونين (١٨١٤ — ١٨٧٦) ثورى روسى من الثوريين الشعبيين ، واحد مؤسسى المذهب الفوضوى (الفوضوية) .

ص ٣٤

• «الايام الثلاثة الاولى من ثورة شباط (فبراير) ١٨٤٨» : هى الايام التى تمتد من ٢٢ الى ٢٤ فبراير ، والتى ادت الى تنازل لويس فيليب عن العرش .

ص ٣٤

• «يملك ثروة مستقلة يمكن ان تقدر فى ذلك العصر بألف نفس» : الف نفس ، اى الف قن ، وهذا يدعو الى افتراض ان الاراضى المملوكة تزيد على عشرة آلاف هكتار .

ص ٣٦

• حسب القوانين الروسية يعتبر الشخص قد بلغ سن الرشد عندما

يبلغ عمره الحادية والعشرين .

ص ٤٠

• «كليكوشى» : الكلمة مشتقة من فعل كليكات الروسى ومعناه صرخ ، وهو اسم يطلق على النساء الهستريات اللواتى يأخذن فى صراخ كأن بهن مسا من جن .

ص ٤٥

• ظهرت هذه المسألة عام ١٨٦٤ ارتباطا بالاصلاح القضائى العام . وقد نشب جدال حامى الوطيس على صفحات الجرائد والمجلات واستمر سنوات عديدة حول اصلاح المحاكم الدينية (الكنسية) . وقد اصر انصار العلمانية على دعم الاسس الحكومية (الدولة) فى النظام القضائى الكنسى القادم ، بينما نادى الآخرون (انصار الكنيسة) بضرورة اخضاع هذه المحاكم كلية لرجال الدين .

ص ٤٩

• «الشيخ» : بالروسية «ستارتس» ، وهو اسم يطلق تعظيما وتبجيلا على الرهبان الطاعنين فى السن . اما العجوز العادى فاسمه بالروسية «ستاريك» .

ص ٦٠

• «الشيخ زوسيما» : ان هذه الشخصية تذكر بشخصية الشيخ امفروسى الذى زاره دوستويفسكى فى اوبتينا سنة ١٨٧٨ ، ولكن دوستويفسكى قد استوحى ايضا كتابا بعنوان : «حياة الشيخ الراهب زوسيما واعماله المجيدة» ، وقد نشر هذا الكتاب فى موسكو سنة ١٨٦٠ ، ان هذا الراهب (١٧٦٧ — ١٨٣٥) هو ابن حاكم مقاطعة سمولنسك المسمى فرخوفسكوى ، وقد كان فى شبابه ضابطا فى حرس القيصرة كاترين الثانية ، ثم ترهب واصبح شيخا يعيش حياة نسك قاسية . وقد جمع احد مريديه اقواله ومواعظه ونشرها ، فاستخدمها دوستويفسكى فى اعداد الباب السادس من روايته «الاخوة كارامازوف» .

ص ٦١

• «هذه . . . من اجلي انا خاصة . . .» : تحوير لعبارة فولتير (١٦٩٤ — ١٧٧٨) الشهيرة : «لو لم يكن هناك اله لوجب اختراعه» **("Si dieu n'existait pas, il faudrait l'inventer")**

ص ٦٢

"J'ai vu l'ombre d'un cocher, qui avec l'ombre d'une brosse frottait l'ombre d'une carosse":
عرض بتصرف لمقطع من النشيد السادس من «الانياذة المزورة» وقد نشرها سنة ١٦٤٣ الاخوة شارل ونيقولا وكلود بيرو وصديقهم بورين .

ص ٦٤

• «اعلن الرسول توما . . .» : ان ما يذكر عن هذا الرسول من عدم تسرعه في التصديق قد اشير اليه في انجيل يوحنا (الاصحاح العشرون ، ٢٤ — ٢٩) .

ص ٦٦

• «. . . بعد سقوط القسطنطينية . . .» : سقطت القسطنطينية (استنبول حاليا) في يد السلطان التركي محمد الثاني في عام ١٤٥٣ .

ص ٦٦

• بائيسي فيليتشكوفسكي (فيليتشكوفسكي بيوتر ايفانوفيتش ١٧٢٢ — ١٧٩٤) : ناسك يرجع اصله الى اوكرانيا ، كان راهبا في جبل اثوس ، وفالاشيا ، ومولداڤيا ، وهو الذي ادخل نظام «المشايخ» الى روسيا ، ترجم كتب اسحاق السوري وتيودور ستوديت . وقد نشرت مؤلفاته سنة ١٨٤٧ .

ص ٦٧

• كوزلسكايا اوبتينا ، منسك اوبتا : دير يقع قرب كوزلسك في مقاطعة كالوجا ، وفقا للاسطورة انشأه في القرن الرابع عشر رجل من قطاع

الطرق تائب ، اسمه اوبتا ، وقد اشتهر هذا الدير في القرن التاسع عشر بتقوى رهبانه . وزاره دوستويفسكي في شهر حزيران (يونيه) سنة ١٨٧٨ بصحبة المؤرخ الشاب فلاديمير سولوفييف (١٨٥٣ — ١٩٠٠) بعد موت ابنه اليوشا . وكان في هذا الدير الشيخ امفروسي ، الذي اتخذه دوستويفسكي نموذجا للشيخ زوسيما في هذه الرواية .

ص ٨٥

• «. . . انه يذكرني بفون سون . . .» : نظرت محكمة بطرسبرج في مارس ١٨٧٠ في قضية قتل شخص يدعى فون سون . وقد استدرج هذا الشخص الى احدى الحانات في وسط بطرسبرج ، حيث دسوا له السم ثم قتلوه بوحشية ونهبوه .

ص ٨٦

• «لكل دير قواعد . . .» : هناك مثل روسي يقول : «لا تذهب الى دير اجنبي لتفرض عليه قواعدك انت» .

ص ٩١

• «. . . يرجع تأريخها الى عهد سابق على الانشقاق . . .» : الانشقاق (العقيدة القديمة ، الطقوسية القديمة) هو اتجاه ظهر في الكنيسة الروسية في اواسط القرن السابع عشر كاحتجاج على «البدع» التي ادخلها البطريرك نيكون (١٦٠٥ — ١٦٨١) وتمثلت في تصحيح الكتب الدينية وبعض الطقوس والاعراف الكنسية .

ص ٩٣

• «دقة المواعيد هي ادب الملوك . . .» : عبارة شهيرة للملك لويس الثامن عشر ملك فرنسا (١٨١٤ — ١٨٢٤) .

ص ٩٤

• «وهلا تنازلت يا سيدي الايسبرافنك ، فكنت لنا تابرافنك . . .» : ها هنا لعب لفظي على كلمتي ايسبرافنك وتابرافنك ، فاما كلمة ايسبرافنك

التى يسمى بها رئيس الشرطة فهى مشتقة من فعل ايسبرافيت ومعناه ادب او عاقب ، واما نابرافنك فهو اسم ادوارد نابرافنك (١٨٣٩ — ١٩١٦) رئيس الاركسترا الشهير فى دار الاوبرا الكبرى بمدينة سان بطرسبرج منذ سنة ١٨٦٩ ، وهو من اصل تشيكى ، وقد شاءت المصادفة ان يكون اسمه هذا مشتقا من فعل نابرافيت ومعناه : وجه ، ادار ، اصلح .

ص ٩٦

• «. . . هذا الفيلسوف . . . قد جاء يوما الى المطران افلاطون فى عهد الامبراطورة ايكاترينا . . .» **ديديروت** هو الكاتب والفيلسوف المادى الفرنسى دينى ديدرو (١٧١٣ — ١٧٨٤) . **وافلاطون** (بيوتر يجوروفتش ليفشين) هو مطران موسكو (١٧٣٧ — ١٨١٢) ، واعظ مشهور وكاتب كنسى ورجل دين . **وايكاترينا** هى ايكاترينا الثانية ، الامبراطورة الروسية التى تولت العرش عام ١٧٦٢ .

ص ٩٦

• ايكاترينا رومانوفنا داشكوفا (١٧٤٣ — ١٨١٠) ، اميرة روسية لعبت دورا اساسيا فى انقلاب القصر الذى اوصل ايكاترينا الثانية الى العرش الامبراطورى عام ١٧٦٢ . واصبحت داشكوفا فى عهد ايكاترينا الثانية رئيسا لاكاديمية العلوم الروسية ، والتقت بالفيلسوف الفرنسى ديدرو . اما **بوتيومكين** جريجورى الكسندروفتش (١٧٣٩ — ١٧٩١) فرجل دولة وعسكرى روسى كان حظى ايكاترينا الثانية .

ص ١٠٠

• «طوبى للبطن الذى حملك ، والثديين اللذين رضعتهما» : كلام قالته امرأة من الشعب ليسوع المسيح (انجيل لوقا ، الاصحاح الحادى عشر ، ٢٧) .

ص ١٠٠

• «يا معلم ماذا اعمل لارث الحيوة الابدية ؟» : كلام قاله ناموسى يجرب يسوع المسيح (انجيل لوقا ، الاصحاح العاشر ، ٢٥) .

ص ١٠٣

• «هل صحيح ان كتاب سير الشهداء . . يروى قصة قديس . . . قطعوا رأسه . . فتناوله من الارض . . .» : هذه القصة لاوجود لها فى كتاب سير الشهداء الروسى ، وانما هى تحكى عن الشهيد الكاثوليكى ديونيسى ، اسقف باريس ، وهى رائجة جدا فى فرنسا . ويحتوى كتاب السير على وصف لسير القديسين موزعة على ايام وشهور السنة ومواعظ للسنة كلها . وقد صيغت هذه السير تدريجيا وجرى تنقيحها مرارا .

ص ١١٠

• ناستاسيوشكا : تصغير اسم ناستاسيا ، ويستعمل تحببا .

ص ١١١

• «ثلاثة اعوام الا ثلاثة اشهر» : فى هذه السن تماما مات اليوشا ابن دوستويفسكى . وقد كتبت ارملة دوستويفسكى تقول : «هذه ثمرة تأثر فيدور ميخائيلوفتش بموت ابننا اليوشا الذى مات سنة ١٨٧٨ وعمره ثلاثة اعوام الا ثلاثة اشهر . ففى تلك السنة انما شرع فيدور ميخائيلوفتش فى كتابة الرواية» .

ص ١١١

• نيكيتوشكا : تصغير اسم نيكيتا ويستعمل تحببا .

ص ١١٣

• «هذه راشيل . . . تبكى صغارها . . .» : تروى زوجة دوستويفسكى ان هذه الكلمات هى الكلمات التى وجهها الشيخ امفروسى الى دوستويفسكى محاولا مواساته عن موت ابنه .

ص ١١٤

• «سأذكره فى صلواتى» : علقت زوجة دوستويفسكى على ذلك قائلة : ان فيدور ميخائيلوفتش قد نقل الى اقوال الشيخ هذه حين عاد

من اوبتينا بعد حديثه مع امفروسى ووصفه له مدى ما تعانيه من لوعة لموت ابنتا .

ص ١١٨

• النص فى انجيل لوقا (الاصحاح الخامس عشر ، ٧) كما يلى : «اقول لكم انه هكذا يكون فرح فى السماء بخاطئ واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين بارا لا يحتاجون الى توبة» .

ص ١٢٤

• «اوبدورسك» : مدينة صغيرة فى اقصى شمال سيبريا الغربية ، مدينة ساليخارد الحالية .

ص ١٢٦

• «ما يبقى الا قليل من العشب على قبرى» كما قرأت هذا الكلام لكاتب من الكتاب» . . : الاشارة هنا الى عبارة بازاروف بطل رواية «الاباء والبنون» (١٨٦٢) للكاتب الروسى ايفان تورجينيف .

ص ١٣٦

• «كان احد رجال الدين قد نشر كتابا ضخما فى هذه المسألة» : ان استاذا فى القانون الكنسى هو الراهب ميخائيل جورتشاكوف قد نشر كتابا عنوانه : «بحث فى الاسس العلمية للقضاء الاكليركى» ، وكانت مكتبة دوستويفسكى تضم هذا الكتاب .

ص ١٣٧

• «ولكن هذا ليس الا عقيدة اولترامونتانية ! . . اما نحن فليس لدينا حتى جبال ! . .» : التلاعب اللفظى قائم على اساس ان كلمة «اولترامونتانية» (من اللاتينية Ultra montis) تعنى : ماوراء الجبال ، اى فى روما . وقد ظهرت هذه العقيدة فى الكنيسة الكاثوليكية فى القرن الخامس عشر . وسعى انصار هذه العقيدة الى اخضاع الكنيسة كلية لبابا روما ودافعوا عن حقه فى التدخل فى الشئون الدنيوية لاى دولة . وفى القرن

التاسع عشر انتشرت العقيدة الاولترامونتانية كمقابل رجعى للحركة الثورية .

ص ١٣٨

• «وليس هذا هو المقصود اطلاقا من التعبير «ليست من هذا العالم» الوارد فى الانجيل المقدس» : المقصود هنا ما قاله المسيح لبيلاطس البنطى : «مملكتى ليست من هذا العالم . لو كانت مملكتى من هذا العالم لكان خدامى يجاهدون لكى لا اسلم الى اليهود ولكن الآن ليست مملكتى من هنا» . (انجيل يوحنا ، الاصحاح الثامن عشر ، ٣٦) .

ص ١٣٩

• اصبحت المسيحية دينا رسميا للامبراطورية الرومانية فى بداية القرن الرابع الميلادى . ففى عام ٣٢٥ عقد المجمع المسكونى الاول فى مدينة نيقيا الذى اعلن «قانون الايمان» وهو مجموعة العقائد وثوابت الدين المسيحى وصاغ التحالف بين الكنيسة وسلطة الدولة الدنيوية حيث اعلن الامبراطور قسطنطين الاول رئيسا للكنيسة وظلا للمسيح على الارض .

ص ١٤٦

• الاقليم البابوى او الكنسى (وعاصمته روما) نشأ عام ٧٥٦ على شكل دولة ثيوقراطية مستقلة ، واستمرت حتى عام ١٨٧٠ .

ص ١٤٨

• البابا جريجورى السابع ، بابا روما فى الفترة من ١٠٧٣ الى ١٠٨٥ ، كان يعتبر سلطة البابا سلطة مطلقة ، وحاول وضع نفسه وخلفائه على رأس السلطتين الدينية والدنيوية .

ص ١٤٩

• . . . بُعَيْدَ الانقلاب الذى وقع فى شهر ديسمبر . . . : المقصود هنا الانقلاب الذى قام به لويس بونابرت (١٨٠٨ ــ ١٨٧٣) فى ٢ ديسمبر ١٨٥١ فاعلن نفسه امبراطورا .

ص ١٥٢

• «باتيوشكا» : بهذا اللقب ينادى رب الاسرة والكهنة وغيرهم من الاشخاص المحترمين ، من باب الملاطفة .

ص ١٥٦

• كلمات الشيخ هذه تجمع فى نص واحد مقطعين مختلفين من رسالتي بولس الرسول : «فان كنتم قد قمتم مع المسيح فاطلبوا مافوق ... اهتموا بما فوق لا بما على الارض» (الرسالة الى اهل كولوسي ، الاصحاح الثالث ، ١ — ٢) : «لان كثيرين ... هم اعداء صليب المسيح الذين نهايتهم الهلاك الذين الههم بطنهم ومجدهم فى خزيهم ، الذين يفتكرون فى الارضيات ، فان سيرتنا نحن فى السموات ...» . (الرسالة الى اهل فيلبى ، الاصحاح الثالث ١٨ — ٢٠) .

ص ١٥٧

• تلعب مأساة «قطاع الطرق» (١٧٨١) للشاعر والمسرحي الالماني يوهان فريدريك شيللر (١٧٥٩ — ١٨٠٥) دورا هاما فى رواية «الاخوة كارامازوف» . وقد كتب دوستويفسكي فى رسالة بتاريخ ١٨ اغسطس ١٨٨٠ : «ان الانطباعات عن الجمال هى لاغنى عنها فى الطفولة بالذات . لقد كنت فى العاشرة من عمرى عندما شاهدت فى موسكو مسرحية «قطاع الطرق» لشيللر ... واني لأؤكد لكم ان الانطباعات القوية التى خرجت بها انذاك قد اثرت على الجانب الروحى فىّ تأثيرا خصبا للغاية» . وكانت لدى دوستويفسكي ترجمة «قطاع الطرق» قام بها اخوه ميخائيل ميخائيلوفتش . ان فيدور بافلوفتش يطلق على ايفان لقب : كارل مور النبيل ، اما ديمترى فيسميه فرانتس مور الخبيث وقد اثبتت الاحداث التالية خطأ ظنه ، لان ايفان بالذات ، مثل فرانتس مور ، هو الذى لعب دورا غادرا تجاه ابيه واخيه .

ص ١٥٩

• ادخل وسام القديسة آنا فى عداد الاوسمة الروسية فى عام

١٧٩٨ . وفى عام ١٨٥٥ اضيف اليه ، كما لغيره من الاوسمة الممنوحة مقابل الخدمات العسكرية ، سيفان متقاطعان .

ص ١٦٥

• «المسيح نفسه قد غفر للمرأة التى احبت كثيرا» : اشارة الى غفران المسيح للخاطئة «من اجل ذلك اقول لك قد غفرت خطاياها الكثيرة لانها احبت كثيرا» (انجيل لوقا ، الاصحاح السابع ، ٤٧) .

ص ١٦٨

• «سفياتسى» : سجل باسماء القديسين المسيحيين والاعياد الكنسية موزعة على شهور السنة الاثنى عشر . ومن المستحيل اثبات صلة القرابة عن طريقها .

ص ١٧٦

• «جروشنكا» : لقب ملاطفة ، مشتق من اسم آجرافينا تصغيرا .

ص ١٧٦

• ... ان شاعرنا بوشكين ... قد مجد ساقيها الصغيرتين فى شعره ... : فى قصيدة بوشكين «مدينة فخمة ، مدينة فقيرة» (١٨٢٨) يقول الشاعر : «لان ساقها الصغيرة ، تخطو هنا احيانا ، وخصلة ذهبية تطير» .

ص ١٧٩

• «كاتنكا» : تصغير اسم كاتيا (كاترينا) توددا وملاطفة .

ص ١٨٣

• قرب جسر كامنى الذى سيقام فيما يقال على نهر نيفا فى بطرسبرج ... : المقصود جسر ليتينى ، ثانى جسر دائم يقام على النيفا فى بطرسبرج ، وجرى تشييده فى ١٨٧٥ — ١٨٧٩ .

ص ١٨٧

• كان الرهبان الروس لا يأكلون اللحم ابدا .

ص ١٩٢

• انظر الحاشية الخاصة بصفحة ٨٥ .

ص ١٩٣

• الراقصة الداعرة . . . : المقصود ابنة الملك هيرودس التى طلبت من ابيها ان يقدم لها رأس يوحنا المعمدان مكافأة على رقصتها .

ص ١٩٤

• «ملة الخليستى» : احدى الفرق الدينية التى ظهرت فى روسيا فى القرن السابع عشر ، وكانت من اشد الفرق الدينية ظلامية واغراقا فى التعصب .

ص ١٩٦

• «قبلة على الشفتين وطعنة فى القلب» : كلمات كارل مور فى المشهد الثانى من مسرحية شيللر «قطاع الطرق» .

ص ١٩٦

• . . . شراب العسل اللذيذ الذى يباع فى متجر بليسييف . . . . : الاخوة بليسييف : من كبار تجار الخمور ومالكى المتاجر والمستودعات . وكانت شركة بليسييف فى عداد اولى الشركات فى روسيا من حيث جودة الخمور .

ص ١٩٧

• اثقلتمونى باللعنات فى جميع مجالسكم السبعة . . . : من بين المجامع المسكونية (اجتماعات ائمة رجال الدين المسيحى) لاتعترف الكنيسة الارثوذكسية سوى بالمجامع السبعة الاولى التى عقدت قبل انقسام الكنائس (١٠٥٤) وابتداء من المجمع الاول كانت اللعنات والادانة تصب على احدهما فى كل مجمع تقريبا .

ص ٢٠٠

• «فانيا» : تصغير اسم ايفان .

ص ٢٠٧

• . . . تغنى اغنية «فى المروج» : اغنية شعبية راقصة ترجو فيها فتاة شابة من ابيها الا يزوجها من زوج عجوز (وفى روايات اخرى من زوج شاب) بل من «قرينها» .

ص ٢١٠

• . . . «كان يحب ان يقرأ «سفر ايوب» خاصة ، كما استطاع ان يحصل من مكان ما على كتاب يضم افكار ومواعظ «أبينا حبيب الله» اسحق السورى . . .» : **سفر ايوب** : من اسفار العهد العتيق . . . كتب دوستويفسكى فى رسالة لزوجته بتاريخ ١٠ يونيو ١٨٧٥ : «اقرأ سفر ايوب ، وهو يثير فى اعجابا مريضا . . . ان هذا الكتاب يا آنيا — وهذا غريب — هو احد الكتب الاولى التى اذهلتنى فى حياتى ، وكنت آنذاك اكاد اكون وليدا !» . **واسحق السورى** هو ناسك ومفكر مسيحى من القرن السابع . وقد ضمت مكتبة دوستويفسكى كتابه «كلمات مواعظ» الصادر فى موسكو عام ١٨٥٨ .

ص ٢١١

• «ليزافيتا سمردياشايا» : اسم مشتق من فعل سمرديت ، ومعناه النتنة . وقد روى اخو دوستويفسكى الاصغر (وهو آندرى دوستويفسكى) فى مذكراته التى نشرت سنة ١٩٣٠ ان امرأة معتوهة اسمها أجرافينا كانت تسكن فى اراضى ابيهما ايام شبابهما : «كان عمرها ٢٠ — ٢٥ سنة . وكانت قليلة الكلام ، فاذا تكلمت تكلمت كارهة على مضض ، وقالت كلاما غامضا مفككا . فاذا سمع السامع ما تقول فهم انها تتذكر ابنها المدفون فى المقبرة . ويظهر انها كانت معتوهة منذ ولادتها ، وقد اغتصبت فولدت ولدا مات فى سن مبكرة . فحين قرأت قصة ليزافيتا فى رواية «الاخوة كارامازوف» تذكرت تلك المرأة المعتوهة أجرافينا» .

ص ٢٢٢

• «وان مدينتنا مبعثرة جدا . . .» : ان دوستويفسكى يسمى هذه المدينة فى روايته بهذا الاسم الساخر : سكوتوبريجونيفسك المنحوت من

كلمتين (قاد ــ بهائم) . وفى المسودات يسميها توبولسك ، وفى رأى زوجة دوستويفسكى انه وصف ستارايا روسا ، تلك المدينة الصغيرة الهادئة الوادعة ، بأقنيتها ، وحفرها وحدائقها ذات الاسيجة الخشبية .

ص ٢٢٥

• هذان الشطران هما من نظم دمترى نفسه ، وسينشدهما مرة اخرى (الجزء الثانى ، الباب الثامن ، الفصل الخامس) .

ص ٢٢٦

• ابيات من قصيدة «من ظلمات الضلال» (١٨٤٦) للشاعر الروسى نيقولاى نيكراسوف (١٨٢١ ــ ١٨٧٨/٧٧) .

ص ٢٢٩

• . . . كتلك السمكة الذهبية الصغيرة التى تروى الحكاية انك ارسلتها الى ذلك الصياد العجوز الغبى . . الاشارة هنا الى «حكاية الصياد والسمكة» (١٨٣٣) للشاعر الروسى الكسندر بوشكين .

ص ٢٣٠

• «كن نبيلا يا ايها الانسان» : مطلع قصيدة للشاعر والمفكر الالمانى جوته (١٧٤٩ ــ ١٨٣٢) عنوانها : «الالهى» ("Das Gottliche") ، وقد نظمها سنة ١٧٨٣ .

ص ٢٣١

• «سيلين ذو الوجه المزهر . . .
قد امتطى حماراً يتعثر»

الابيات الختامية من قصيدة «باريلييف» (١٨٤٢) للشاعر الروسى ابولون نيكولايفتش مايكوف (١٨٢١ ــ ١٨٩٧) . وسيلين هو تابع باخوس اله الخمر والخصب فى الاساطير الاغريقية .

ص ٢٣١

• «سكان الكهوف الخائفون الوجلون» : ان دمترى لا يتلو هنا نشيد

الفرح بل قصيدة اخرى للشاعر شيللر هى «عيد ايليثوزيس» (١٧٩٨) فى ترجمة روسية قام بها ف . آ . جوكوفسكى (١٧٨٣ ــ ١٨٥٢) (الفقرات ٢ ، ٣ ، ٤) .

ص ٢٣٢

• «لا بد للانسان . . .» : الشطر الاول من البيت السابع فى قصيدة «عيد ايليثوزيس» فى ترجمة جوكوفسكى .

ص ٢٣٣

• «روح العالم التى خلقها الله» : هاتان هما الفقرتان السابعة والخامسة من قصيدة شيللر الشهيرة «الى الفرح» (١٧٨٥) فى الترجمة الروسية التى قام بها الشاعر الروسى فيدور تيوتشيف (١٨٠٣ ــ ١٨٧٣) .

ص ٢٣٧

• . . . زخرفات اضافية على طريقة بول دو كوك . . . : بول دو كوك (١٧٩٣ ــ ١٨٧١) كاتب روايات فرنسى ، له روايات ذات محتوى خليع .

ص ٢٦٨

• «الكوليباكا» : فطائر بالسمك .

ص ٢٦٨

• «حمارة بلعام» : ان الأتان التى ركبها الرسول بلعام قد نطقت فجأة حين رأت ملاك الرب (التوراة ، الاعداد ٢٢ ، الآيات من ٢٣ الى ٣٠) .

ص ٢٧١

• «امسيات قرب قرية ديكانكا» : اول مجموعة قصص للاديب الروسى نيكولاى جوجول (١٨٠٩ ــ ١٨٥٢) ، وقد صدرت عامى ١٨٣١ ــ ١٨٣٢ .

ص ٢٧١

• «التأريخ العام» من تاليف سماراجدوف : هو موجز التأريخ العام للمدارس الابتدائية ، طبع مرارا منذ سنة ١٨٤٥ .

ص ٢٧٤

• «ثلاث اوراق نقدية ملونة» : هى اوراق نقدية من فئة المائة روبل .

ص ٢٧٥

• هناك لوحة جميلة رسمها الرسام كرامسكوى . . . : ايفـان نيكولايفتش كرامسكوى (١٨٣٧ — ١٨٨٧) هو مصور روسى من مؤسسى المدرسة الواقعية فى التصوير . وقد عرضت لوحة «المتأمل» فى معرض الصور السادس «لجمعية المعارض الفنية المتنقلة» فى بطرسبرج من ٩ مارس الى ٢٢ ابريل ١٨٧٨ . وقد رسم كرامسكوى صورة لدوستويفسكى وهو على فراش الموت .

ص ٢٧٦

• . . . قد سمع قصة ذلك الجندى الروسى . . . : المقصود هنا هو فوما دانيلوف ، صف الضابط بالكتيبة التركستانية الثانية الذى وقع فى الاسر ولقى حتفه فى ٢١ نوفمبر ١٨٧٥.

ص ٢٨٢

• «جاء فى الكتاب المقدس ان الذى يملك الايمان الحق. . .» : تحوير لما ورد فى الاناجيل : «الحق اقول لكم لو كان لكم ايمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل ، ولا يكون شىء غير ممكن لديكم» (انجيل متى ، الاصحاح السابع عشر، ٢٠) .

ص ٢٨٨

• «ولكن الفلاحين مستمرون على جلد انفسهم بانفسهم» : ان الاصلاح القضائى الذى صدر سنة ١٨٦٤ قد الغى العقوبات الجسدية فى

محاكم الدولة ، ولكنه تسامح فى تطبيقها فى محاكم القرى .

ص ٢٨٨

• المركيز دى ساد : هو الاسم المستعار للكاتب الفرنسى دوناسيين الفونس فرنسوا ، الكونت دى ساد (١٧٤٠ — ١٨١٤) ، صاحب المؤلفات التى تصور الفجور الارستقراطى والقسوة . وقد اصبح اسم دى ساد مضرب الامثال .

ص ٢٩٢

• اليكسيس بيرون (١٦٨٩ — ١٧٧٣) : شاعر ومسرحى فرنسى اشتهر ككاتب فج .

ص ٢٩٣

• «آربنين» : ان الاب كارامازوف ، وهو قليل الحظ من الثقافة يخلط هنا بين بطل رواية الشاعر ليرمونتوف الشهيرة «بطل من زماننا» (١٨٤٠) ، واسمه فى الواقع هو بتشورين ، وبين بطل مسرحية لهذا الشاعر نفسه عنوانها «التنكر» (صدرت لاول مرة فى سنة ١٨٤٢ بعد موت الشاعر) ، وبطل هذه المسرحية هو الذى اسمه آربنين .

ص ٣٠١

• «فانيا ، ليوشا» : تصغير اسمى ايفان والكسى .

ص ٣٠٢

• «لا تقل لايزوب كلمة واحدة» : ان دمترى يسمى اباه هنا باسم الشاعر اليونانى الشهير ايزوب فى معرض الاحتقار ، ومعروف ان هذا الشاعر قد ولد عبدا ، وانه كان دميم الوجه عى اللسان احدب .

ص ٣٥٢

• «ايكاتيرنبورج» : مدينة فى منطقة المناجم من الاورال ، على طريق سيبريا . وتسمى الآن سفردلوفسك .

ص ٣٥٨

• «ذلك ان مجمع الاساقفة الذى انعقد فى لاوديكيا . . .» انعقد فى مدينة لاوديكيا بآسيا الصغرى ، التى كانت ضمن الامبراطورية الرومانية المجمع الكنسى الذى اصبحت القواعد التى وضعها جزءا من قوانين الكنيسة . وقد انعقد ذلك المجمع فى عام ٣٦٠ او ٣٧٠ ميلادى .

ص ٣٦٨

• «ميتكا» : تصغير تحقيرى لاسم ميتيا (دمترى) .

ص ٣٧٠

• «جروشكا» : تصغير تحقيرى لاسم جروشنكا (آجرافينا) .

ص ٣٧٣

• «فانكا» : تصغير تحقيرى لاسم فانيا (ايفان) .

ص ٣٧٧

• «ابدى أليوشا هذه الملاحظة الجدية العملية بطريقة عفوية» : روت ارملة دوستويفسكى ان هذه الطريقة هى التى كان يستعملها زوجها فى مخاطبة اطفال لا يعرفهم .

ص ٤١١

• «بالشكر ياسيدتى لا احفل» : آخر بيت من قصيدة شيللر «القفاز» (١٧٩٧) . ان كاترينا قد عذبت ايفان كثيرا وسببت له آلاما شديدة ، مثلما فعلت تلك السيدة الجميلة بفارسها دولورج .

ص ٤٢٤

• «الرائد سينجيريف — س» : يشير سينجيريف هنا ، باستعمال حرف السين (س) ، الى انحطاط مكانته الاجتماعية الآن . فهكذا يتكلم الحقراء امام العظماء ، مضيفين هذا الحرف الى اواخر الكلمات .

ص ٤٢٧

• «ايليوشا» : تصغير اسم ايليا ، تحببا .

ص ٤٢٩

• «. . . لا يريد . . . فى الطبيعة بأسرها . . .» مقطع من قصيدة بوشكين «المارد» (١٨٢٣) .

ص ٤٢٩

• «تشرنومازوف» : لعب لفظى على اسم كارامازوف الذى يعنى نصفه «كارا» : اسود (تشورنى) فيكون معنى تشرنومازوف : «المسود» او «الملطخ بالسواد» .

ص ٤٥٤

• "Sosna kak so sna" : ها هنا لعب بالالفاظ قائم على التشابه بين كلمة Sosna ومعناها الصنوبر وبين so sna بمعنى : «فى الحلم» .

ص ٤٧٠

• «انا الآن فى موقف فاموسوف فى آخر مشاهد المسرحية» : اشارة الى المسرحية الهزلية التى كتبها جريبويدوف (1795 — 1829) الكاتب والديبلوماسى الروسى وعنوانها : «وذو العقل يشقى» (١٨٢٤) ودوستويفسكى كثيرا ما يستشهد بهذه المسرحية . فى المشهد الاخير من هذه المسرحية يفاجئ فاموسوف ابنته صوفيا متحدثة مع تشاتسكى على السلم الكبير فى المنزل .

ص ٤٧٤

• «بقوة عظيمة انجذب» : اغنية يقول دوستويفسكى فى رسالة كتبها سنة ١٨٧٤ انه سمعها فى موسكو قبل اربعين عاما ، وكان يغنيها الخدم .

ص ٤٧٦

• «لان امى امرأة نتنة» : اشارة الى معنى اسم امه «سمردياشايا» (راجع حاشية الصفحة ٢١١) .

ص ٤٧٧

• «نابوليون الاول ، وهو ابو الامبراطور الحالى» : واضح خطأ سمردياكوف فان نابوليون الاول (١٧٦٩ — ١٨٢١) هو عم نابوليون الثالث (١٨٠٨ — ١٨٧٣) الذى حكم فرنسا بهذه الصفة من سنة ١٨٥١ الى سنة ١٨٧٠ .

ص ٤٩٠

• «. . . يستطيع ان يحافظ على «مظهر نبل» . . .» استشهاد غير دقيق بمقطوعة صغيرة لبوشكين عنوانها : «ذات مرة قبل للملك . . .» (١٨٢٥) : «ايها المنافقون ، ايها المنافقون ، اجتهدوا كى تحتفظوا فى الخسة بقامة نبل» .

ص ٤٩٧

• «اذا كان الله غير موجود فيجب اختراعه» : هنا استشهاد بعبارة للكاتب والفيلسوف الفرنسى فولتير (١٦٩٤ — ١٧٧٨) فى «رسالة الى صانع الخدع الثلاث» (١٧٦٩) ، وقد تحورت عبارة فولتير قليلا ، لانها فى الاصل : «اذا لم يكن اله . . .» .

ص ٤٩٨

• يجب ان تتذكر ان الرياضى الروسى نيقولاى لوباتشفسكى (١٧٩٢ — ١٨٥٦) قد عرض سنة ١٨٢٦ مذهبا جديدا فى «هندسة غير اقليدسية» ، فسبق بذلك انيشتاين ومهد له .

ص ٥٠١

• «. . . يوحنا الرحيم» . . . : يوحنا الرحيم (القرنان ٦ — ٧) اسقف الاسكندرية . والمشهد الذى يرويه ايفان مأخوذ من «اسطورة القديس يوليان الرحيم» (١٨٧٦) للكاتب الفرنسى جوستاف فلوبير (١٨٢١ — ١٨٨٠) .

ص ٥٠٧

• ينقل دوستويفسكى هنا نقلا امينا مضمون واسلوب النشرة التى

اصدرتها «لجنة توزيع الكتب الدينية فى اقليم «فو» بسويسرة» ، وعنوان النشرة «جذوة جديدة تنتزع من النار» ، او القصة الحقيقية التى تروى اهتداء وموت لويس فردريك ريشار الذى اعدم بمدينة جنيف فى ١١ يونية ١٨٥٠» . وان تنفيذ عقوبة الاعدام هذه التى انزلت فى ريشار وشهدها ما يقرب من عشرة آلاف شخص ، قد وصفت فى نشرات اخرى ، منها النشرة التى اصدرها ارنست كرامر فى جنيف سنة ١٨٥٠ ، وعنوانها : «قصة اللحظات الاخيرة التى عاشها لويس فردريك ريشار» .

ص ٥١٠

• . . . لقد صور نكراسوف شتاء حصانا كان فلاح . . يضربه . . على «عينيه الوديعتين» . . . : الاشارة هنا الى قصيدة الشاعر الروسى ورئيس تحرير مجلة «سوفريمينك» («المعاصر») نيقولاى نكراسوف بعنوان «قبيل الغسق» من سلسلة «عن الجو . انطباعات طريق» (١٨٥٩) .

ص ٥١٠

• هى قضية ابن صاحب البنك كرونبرج ، الذى احيل الى المحكمة لسوء معاملته ابنته . وقد وقف دوستويفسكى على هذه القضية فصلا كاملا من «يوميات كاتب» (١٨٧٦) .

ص ٥١٣

• . . . فى «الارشيف» او «الماضى القديم» . . . : كانت مجلتا «الارشيف الروسى» (١٨٦٣ — ١٩١٧) و«الماضى القديم الروسى» (١٨٧٠ — ١٩١٨) تنشران مواد عن تاريخ روسيا وبصفة خاصة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وكان دوستويفسكى يقرؤهما فى كثير من الاحيان . غير ان الواقعة التى يذكرها هنا مأخوذة عن «مذكرات قن» التى كتبها كاتكوف ، وهو من انصار السلافية ، ونشرتها مجلة «البشير الروسى» ، العدد ٩ ، سنة ١٨٧٧ .

ص ٥١٣

• «محرر الشعب» : هو اللقب الذى اصبح يلقب به اسكندر الثانى (١٨١٨ — ١٨٨١) بعد الغاء نظام القنانة فى ١٩ فبراير سنة ١٨٦١ .

ص ٥٢٢

• . . . احتفالا بميلاد ابنه البكر. . . : فى رواية «احدب نوتردام» لايدور الحديث عن عيد ميلاد ولى العهد بل عن وصول الرسل الفلمنكيين الذين ارادوا تزويج ولى العهد من مرجريتا فلاندرسكايا .

ص ٥٢٤

• «ساعود قريبا» : قول المسيح فى رؤيا يوحنا الرسول ، (الاصحاح الثانى والعشرون ، ١٢) .

ص ٥٢٤

• بيتان من قصيدة شيللر «الرغبة» ، نظمها الشاعر سنة ١٨٠١ . وترجمها الى الروسية ف . جوكوفسكى .

ص ٥٢٥

• «ظهرت هرطقة» : اشارة الى حركة «الاصلاح» . المقصود حركة الاصلاح الواسعة المعادية للاقطاع التى اكتسبت مظهر الصراع ضد الكاثوليكية . وفى القرن السادس عشر عمت معظم بلدان غرب اوربا .

ص ٥٢٥

• «ايتها الارض التى ولد فيك ملك السماوات» ، الخ : آخر رباعية من قصيدة للشاعر فيدور تيوتشيف عنوانها : «هذه القرى الفقيرة ، هذه الطبيعة الهزيلة» ، وقد كتبها الشاعر سنة ١٨٥٥ ، وان قوله «فى صورة عبد» تعبير مستمد من رسالة بولس الرسول الى اهل فيليبى (الاصحاح الثانى ، ٦) .

ص ٥٢٦

• «فى نيران رائعة» الخ : بيتان مستمدان من قصيدة «كوريولان» للشاعر الكسندر بوليجايف (١٨٠٤ — ١٨٣٨) .

ص ٥٢٦

• «كبرق يسطع من الشرق الى الغرب» : هكذا ستكون عودة المسيح

على نحو ما يصفها انجيل متى (الاصحاح الرابع والعشرون ، ٢٧ : «كما ان البرق يخرج من المشارق ويظهر الى المغارب ، هكذا يكون ايضا مجىء ابن الانسان») .

ص ٥٢٦

• «تمجيدا لله» : هو شعار جمعية اليسوعيين التى أسسها الاسبانى اغناطيوس ليولا عام ١٥٣٤ .

ص ٥٢٧

• من معجزات المسيح فيما اورده انجيل مرقص (الاصحاح الخامس ، ٤١) .

ص ٥٢٨

• . . . «الهواء معطر بعبق اشجار الرند والليمون . . .» : استشهاد محرف من مأساة «الضيف الحجرى» (١٨٢٦ — ١٨٣٠) للشاعر الروسى الكسندر بوشكين (المشهد الثانى) : الهواء الدافئ ساكن ، والليل يعبق بالليمون وبالغار . .» .

ص ٥٣٢

• «. . . الروح الذكى . . . قد خاطبك فى الصحراء . . .» المقصود بذلك تلك القصة الواردة فى الانجيل عن غواية الشيطان للمسيح (انجيل متى ، الاصحاح الرابع ، ١ — ١١ ؛ وانجيل لوقا ، الاصحاح الرابع ، ١ — ١٣) .

ص ٥٣٩

• «وتبرهن على قوة ايمانك بابيك . . .» : جاء فى انجيل متى (الاصحاح الرابع ، ٥ — ٦) : «ثم أخذه ابليس الى المدينة المقدسة واوقفه على جناح الهيكل ، وقال له : ان كنت ابن الله فاطرح نفسك الى اسفل ، لانه مكتوب انه يوصى ملائكته بك فعلى اياديهم يحملونك لكى لا تصدم بحجر رجلك» . ومثل هذا جاء فى انجيل لوقا (الاصحاح الرابع ، ٩ — ١١) .

ص ٥٤١

• «ان رسولك الكبير يروى . . .» : هو يوحنا الرسول فى رؤياه (رؤيا يوحنا الرسول ، الاصحاح السابع ، ٣ — ٨) وهى احد اصحاحات العهد الجديد . وقد صيغت مصارحات يوحنا فى صورة رؤيا ، وتضمنت نبوءات عن آخر أيام العالم ومصيره . يذكر فلاديمير سولوفييف ان رؤيا يوحنا الرسول كانت سفر دوستويفسكى المفضل فى السنين الاخيرة من حياته .

ص ٥٤٣

• «فمنذ ثمانية قرون . .» : اشارة الى انشاء دولة البابا سنة ٧٥٦ .

ص ٥٤٧

• صورة من رؤيا بولس الرسول (الاصحاح السابع عشر) ولعلها رمز الى روما الوثنية .

ص ٥٥٢

• «. . . ان الماسونيين لا بد ان يكون لهم سر من هذا النوع . . .» الماسونيون او الماسونيون الاحرار (من الفرنسية : الحجار الحر) هم اعضاء اتحاد سرى تكون فى القرن الثامن عشر فى انجلترا ، ثم انتشر بعد ذلك فى جميع البلدان . وقد سعى الماسونيون الى انشاء (بناء) دين جديد يمكنهم بواسطته ان يسيطروا على العالم . وقد احيط نشاطهم بالسرية لا بالنسبة للجماعات الاخرى فحسب بل وداخل السلم الهرمى الماسونى ذاته .

ص ٥٥٣

• . . الى «الشوارع المظلمة المقفرة من المدينة» . . . : استشهاد غير دقيق بقصيدة بوشكين . «ذكريات» (١٨٢٨) .

ص ٥٥٧

• . . «الاب سيرافيكوس . . .» : اشارة الى فرانسيسك الاسيزى (١١٨١ او ١١٨٢ — ١٢٢٦) الواعظ الايطالى ومؤسس وسام الفرنسيسكان .

واسم «الاب سيرافيكوس» بالنسبة للقديس فرانسيسك قد تبنته الكنيسة الكاثوليكية ، وهو يرتبط بالوقائع الاسطورية فى سيرة حياته كرؤية المسيح فى صورة الملاك سيرافيم ، هذه الرؤية التى تجلت لفرانسيسك ذات مرة . (وعلى لسان ايفان تعبر هذه الكلمات قبل كل شىء عن الاحترام للشيخ زوسيما ، غريمه . وفى الوقت نفسه فهى تدل على انه ليس لدى ايفان فرق بين الكاثوليكية والارثوذكسية) . اطلق كذلك هذا الاسم من اسماء القرون الوسطى على القديس بونافانتورا ، وهو يظهر فى المشهد الاخير من الجزء الثانى من «فاوست» جوته .

ص ٥٦٤

• «تشرماشنيا» : هو اسم قرية ملحقة باملاك والد دوستويفسكى . وقد زار دوستويفسكى هذه الاماكن منذ طفولته حتى سنة ١٨٧٧ .

ص ٥٦٦

• «على ان اكون خادمه ليتشاردا . . .» **ليتشاردا** هو خادم الملك جفيدون فى الرواية المترجمة «قصة ولى العهد بوف» التى ظهرت فى روسيا فى القرن السادس عشر ومازالت تروى شفهيا وكتابة .

ص ٥٨٢

• «كولاك» : كان اسم «كولاك» يطلق على المحتكرين وعلى الفلاحين الاغنياء ، وهو من الكلمة التترية كولاك ومعناها قبضة اليد .

ص ٥٨٣

• «ليا جافى» : نعت معناه «كلب صيد» .

ص ٥٩٦

• «ان لم تقع حبة الحنطة . . .» : قول المسيح بعد قيام عازر من الموت ، كما ورد فى انجيل يوحنا (الاصحاح الثانى عشر ، ٢٤ — ٢٥) . وبهذا القول صدر دوستويفسكى روايته هذه .

ص ٦٠٧

• «مائة واربع قصص مستمدة من التوراة والانجيل» : قالت ارملة دوستويفسكى : «فى هذا الكتاب انما تعلم فيدور ميخائيلوفتش القراءة» . وهو موجود الآن فى متحف دوستويفسكى بموسكو .

ص ٦٠٨

• «كان يعيش فى ارض عوص . . .» : اشارة الى الفصل الاول من سفر ايوب .

ص ٦١٢

• «ان القصص التى تروى حياة ابراهيم وسارة واسحق وربيكا ويعقوب الذى ذهب الى عند لابان . . .» بخصوص ابراهيم وسارة انظر سفر موسى الاول . التكوين ، الاصحاح ١١ ، الايات ٢٩ — ٣١ والاصحاح ١٢ — ١٨ ، الايات ٢٠ — ٢٣ . وعن اسحق وربيكا انظر الاصحاح ٢٤ — ٢٧ ، وعن يعقوب انظر الاصحاح ٢٨ — ٣٢ ، وعن صراع يعقوب مع الرب انظر الاصحاح ٣٢ الايات ٢٤ — ٣٢ .

ص ٦١٢

• «قصة الفتى الجميل الفتان يوسف . . .» انظر سفر التكوين الاصحاح ٣٧ ، ٣٩ — ٤٠ .

ص ٦١٣

• المقصود وصية يعقوب : «لايزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب (سفر التكوين ، الاصحاح ٤٩ ، الاية ١٠) ويعتبر المسيحيون هذه الكلمات نبوءة بقدوم المسيح .

ص ٦١٣

• قصة استير الرائعة وفاستى المتكبرة . . . : المقصود الرواية المذكورة فى التوراة عن زوجتى الملك احشويروش . فقد رفضت فاستى (وشتى)

المثول امام الملك حسب امره «ليرى الشعوب والرؤساء جمالها» فعاقبها على تكبرها وعصيانها واختار بدلا منها استير العاقلة الوديعة (انظر سفر استير) .

ص ٦١٣

• . . . القصة عن يونس فى جوف الحوت . . . : انظر قصة النبى يونس .

ص ٦١٣

• . . . ولاسيما رموز الانجيل كما وردت فى كتاب القديس لوقا . . . : تتضمن جميع الاناجيل (ما عدا انجيل يوحنا) «قصصا ربانية» وهى قصص قصيرة مجازية . ومثل هذه القصص هى فى انجيل لوقا اكثر مما فى الاناجيل الاخرى . وبعض هذه القصص فى انجيل لوقا تقوم اساسا لاهم المواقف فى «الاخوة كارامازوف» مثل قصة تقسيم الارث .

ص ٦١٣

• تقول الاسطورة الواردة فى اعمال الرسل (العهد الجديد) ان شاول مضطهد المسيحيين رأى ذات مرة وهو فى طريقه الى دمشق نورا من السماء وسمع صوت المسيح الذى سأله : «شاول ، شاول ، لماذا تضطهدنى ؟» (اعمال الرسل ، الاصحاح التاسع ، ٤) . وصعق الشاب وعندما وصل دمشق كان قد اصبح مسيحيا ، وبعد ذلك اصبح رسولا وتسمى باسم مهين هو بولس (من اللاتينيه **Paulus** اى «الصغير») .

ص ٦١٣

• حياة كبرى الشهيدات مريم القبطية . . . : تقول الاساطير ان مريم المصرية (القبطية) التى تحتفل الكنيسة بذكراها فى اول ابريل حسب التقويم القديم ، كانت فى صباها فتاة ضالة . وسمعت بالصدقة عن تعاليم المسيحية فانضمت الى ركب الحجاج المتوجه الى القدس واعتنقت المسيحية وعاشت سبعة واربعين سنة معتكفة فى الصحراء على الصلاة والتوبة .

ص ٦١٦

• «. . . وقصصت عليه ان دبا اقترب ذات يوم من قديس عظيم . . .» الاشارة هنا الى مشهد من سيرة سرجى رادونيجسكى (١٣١٤ ـ ١٣٩٢) . وهو شخصية دينية وسياسية كبيرة ، ساعد على تعزيز سلطة كبار امراء موسكو ورفع مكانة موسكو . وهو مؤسس دير الثالوث الاقدس فى مدينة زاغورسك قرب موسكو .

ص ٦٢٠

• «. . . فى موضوع حدث كان قد وقع . . .» : اشارة الى ثورة الديسمبريين فى شهر ديسمبر ١٨٢٥ .

ص ٦٤٣

• «عد بسرعة يابابا لتقرأ معنا فى «مجلة الاطفال» : كانت هناك عدة مجلات تحمل هذا الاسم فى روسيا آنذاك .

ص ٦٤٥

• «مخيف هو الوقوع فى يدى الله الحى» : هذا الشطر الوارد فى رسالة بولس الرسول موجه الى اولئك الذين رغم «ادراك الحقيقة» لا يحترمون المسيح وتعاليمه (رسالة بولس الرسول الى العبرانيين ، اصحاح ١٠ ـ ٣١) .

ص ٦٥٧

• «الا ان الغضب ملعون لانه قاس» . . . : الشيخ يكرر كلمات وصية يعقوب الذى ادان ولدين من اولاده هما شمعون ولاوى اللذين انتقما بقسوة غير مبررة من المدينة كلها دفاعا عن شرف اختهما : «ملعون غضبهما فانه شديد ، وسخطهما فانه قاس» (سفر التكوين ، اصحاح ٤٩ ، ٧) .

ص ٦٧١

• «يرى ابراهيم بعد ان يبارح الارض ويتحدث مع ابراهيم كما

ورد فى رمز الغنى ولازار . . .» انظر : انجيل لوقا ، الاصحاح ١٦ ، الايات ١٩ ـ ٢٦ .

ص ٦٧٢

• «. . . ولكن ويل للذين انهوا حياتهم على هذه الارض بانفسهم ، ويل للمتحرين» الانتحار فى مفهوم الكنيسة المسيحية هو من اكبر الذنوب ، وتضع الكنيسة المنتحر فى مستوى الوثنى او الهرطيق وتمنع دفنه بنفس طقوس دفن الاشخاص الآخرين .

فهرست

مقدمة ٧

من المؤلف ٢٣

الجزء الاول

الباب الاول . قصة أسرة صغيرة ٢٧

الباب الثانى . اجتماع فى غير محله ٧٩

الباب الثالث . الشهوانيون ٢٠٢

الجزء الثانى .

الباب الرابع . التمزقات ٣٤٧

الباب الخامس . Contra, Pro ٤٥٢

الباب السادس . الراهب الروسى ٥٩٢

حواش ٦٧٥

ИБ № 4163. Редактор русского текста *К. Богданова.* Контрольный редактор *Т. Правдина.* Художники *Марон Хусейн, Ю. Пименов.* Художественный редактор *С. Барабаш.* Технический редактор *Н. Должикова.* Корректор *Т. Гуринович.* Сдано в набор 30.09.87. Подписано в печать 19.08.88. Формат 84 × 108¹/₃₂. Бумага офсетная. Гарнитура арабская. Печать офсетная. Условн. печ. л. 36,96. Усл. кр.-отт. 74,44. Уч.-изд. л. 40,60. Тираж 21 000 экз. Заказ № 1089. Цена 5 р. 60 к. Изд. № 4108. Издательство „Радуга" В/О „Совэкспорткнига" Государственного комитета СССР по делам издательств, полиграфии и книжной торговли. 119859, Москва, ГСП-3, Зубовский бульвар, 17. Можайский полиграфкомбинат В/О „Совэкспорткнига" Государственного комитета СССР по делам издательств, полиграфии и книжной торговли. 143200, Можайск, ул. Мира, 93.